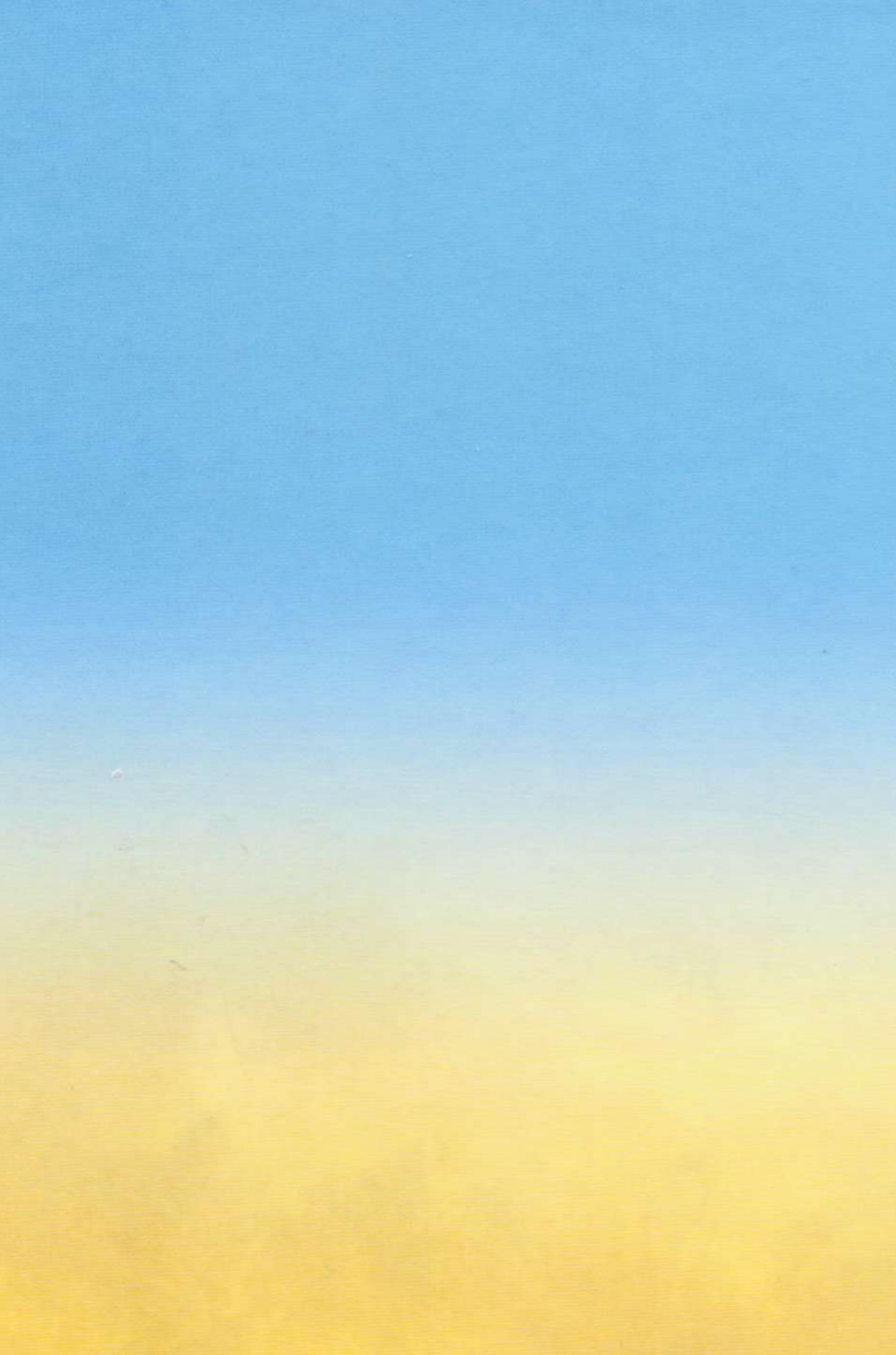


مُلوكُ البَحرِ وأهلُ السَادة

دكتور / إدريس إبراهيم جميل



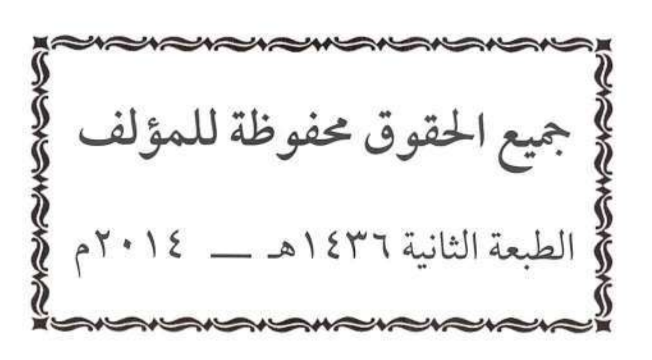


ملوك البحر وأهل السادة

دكتور / إدريس إبراهيم جميل

الطبعة الثانية ٢٠١٤م

AFRICA ORIENTALE
Un capo supremo degli Habab



الطبعة الثانية ١٤٣٦هـ ـــ ٢٠١٤م

جميل، إدريس إبراهيم

الحَبَابُ مُلُوكُ البَحْر وأهْلُ السَّادَة،

المؤلف: دكتور/ إدريس إبراهيم جميل.

الناشر: مكتبة الثقافة، الدوحة - قطر

هاتف: ٤٤٢١١١٣٢ - فاكس: ٤٤٢١١١٣١

رقم الإيداع: ٢٠١٤ - ٤٥٢

الرقم الدولي (ردمك): ٩٧٨ - ٩٩٢٧ - ٤٠١٥ - ٢ - ٧

إهْــدَاء

أُهْدِي هذا الكتاب الى روح والدي الشاعر وخليفة الختمية إبراهيم وَدْ جميل وَدْ جمع وَدْ جميل رحمه الله، وهذه صورة أخذت له بمدينة القضارف في يوم ٢٠ أبريل ١٩٧٦م .



كما أُهْدِيه الى شيخ العرب (عَشَى الضِّيفَان) عَمِّي المرحوم آدم وَدْ جميل، وهذه الصورة أخذت له بمدينة القضارف في عام ١٩٧٢م .



تمهيد للطبعة الثانية

يقولون: إنَّ من يستطيع مَحْوَ ماضي الآخرين يملك المستقبل، ولذلك من باب أولى أنْ نقول: إنَّ من يملك ماضيه يملك المستقبل، وهذا ما دعاني الى إبراز تاريخ الحباب وتوثيقه، ليس من باب التفاخر كما يتوهم البعض، ولا على سبيل اجترار الماضي كما يحسب آخرون، وإنَّما بغرض تمليك المعلومة وتدوين حقائق التاريخ حتى لا يتحقق رهان من يعتقد أنَّ الكبار يموتون والصغار لا يعرفون!!.

لكن في المقابل يجب أنْ نعلم إنَّ من الخطل الجسيم أنْ يعتقد صاحب الحق الأصيل أو يتوهم أنَّ الكل يعرف تاريخه وأسهاماته، خاصة ونحن في زمنٍ تلعب فيه آلة الإعلام (وبعضها موجهٌ لغرض) دوراً كبيراً، فيتشكل الوعي الجمعي للأمة ويحدث أحياناً التضليل، وتضيع الحقوق والمكتسبات في بيئة أصبح فيها من يمتلك المعلومة هو الذي يمتلك القوة، أو كما قال الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون: Sir Francis Bacon: "Knowledge is power".

إنَّ أهمية معرفة تاريخِ مَنْ مَضَوا تكمن في أنَّها توفر عبرةً وحافزاً للأجيال اللاحقة للعمل على بصيرة في صنع المستقبل، استهداءً بالجوانب المشرقة من تاريخ ألأسلاف واستلهاما للعبر من الجوانب التى أصابها العوار، وفي كل الأحوال لا مناص من معرفة الماضي لتقويم الحاضر وأستشراف المستقبل، وسبحان القائل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

لهذا وذاك أجتهدنا في جمع مادة هذا الكتاب وصدرت الطبعة الأولى منه في النصف الأول من عام ٢٠١٣م. وبمبادرة كريمة من الدكتور: هاشم الخليفة عثمان الإنقريابي الجعلي، وبدعم وهمة من نفرٍ كريمٍ من أبناء الحباب الأوفياء، تم الاحتفال بمولد هذا الكتاب وافتتاح تداول الطبعة الأولى منه، وتم ذلك مساء يوم السبت الثامن من يونيو ٢٠١٣م في قاعة الشهيد "عثمان حسن أحمد البشير" في الخرطوم. لقد كانت أمسيةً مشهودةً بحق من حيث نوعية الحضور، وعمق التحليل لمادة الكتاب من ذوي الإختصاص. تحدث في الحفل الدكتور: عبد القادر الخزين، من قسم التاريخ والآثار (جامعة النيلين)، وقال ضمن تحليله القيم للكتاب كلمة مهمة وهي أنَّ هذا الكتاب يمكن أنْ يساعد في محاولة فكِّ رموز لغة مملكة مروي القديمة بعد أنْ أخفقت كل المحاولات السابقة. كذلك تحدث الدكتور: صديق عبد الله، من قسم اللغويات (جامعة إفريقيا العالمية) واثني على الربط المُحْكم في الكتاب بين اللَّهجة الحبابية واللغة الحميرية. وتحدث الممثل القدير البروفيسور: صالح عبد القادر، رئيس قسم الدراما بجامعة النيلين، وقدم ورقة علمية أخضع فيها مادة الكتاب للتحيل من منظور درامي، وذكر أنَّ الكتاب يوفر مادةً دراميةً جيدة. وتحدث الصحفي المتميز الأستاذ: حسن محمد صالح الذي قال إنَّ هذا الكتاب هو سِفْرٌ جامعٌ يجد فيه كلُّ سوداني شأناً مَا يخصُّه. وتحدث الدكتور: خالد إدريس، نيابة عن آل أبي قرجة، وأثنى على الكتاب والحباب عموما وذكر أنه سمَّى إبنه "كنتَيبَاي". وتحدثت الصحفية القديرة الأستاذة: حياة حميدة التى أشادت بالكتاب وقالت إنَّها ستُعِدُّ دراسة عنه. وتحدث السياسي المخضرم الأستاذ: حسن محمد عثمان كنتَيبَاي، وتحدث النقابي الأشهر في شرق السودان الأستاذ: حامد محمد آدم أدالا، وتحدث آخرون كثر، لكن ما قصدناه من إشارة لذلك هو أنَّ الكتاب وجد

إهتماماً مقدَّراً من الدارسين والمختصين، فدرسوه بعين الناقد المحايد، وأشادوا بمادته وسبكه وسَمْتِهِ، فنشكرهم على ذلك.

وها نحن اليوم نقدم الطبعة الثانية بعد أنْ أجرينا على الكتاب بعض التصويبات والتعديلات والإضافات. وهذه مناسبة أتقدم فيها بالشكر الوافر لكل الإخوة الذين أبدوا ملاحظاتهم على الطبعة الأولى، وأنا ممتنٌ على وجه الخصوص لأُولئِكَ الذين زوَّدني ببعض المعلومات التى كانت خافيةً عني، وقبل هذا وذاك نشكر الله سبحانه وتعالى الذي وفَّقنا لإتمام هذا العمل، والحمد لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.

د. إدريس إبراهيم جميل جِمِع آل جِمِع
المحامي وموثق العقود
والمستشار القانوني
بمدينة الدَّوحة ـ قطر
نوفمبر ٢٠١٤م.

تمهيد للطبعة الأولى

تحت شجرة نِيمٍ وارفة الظِّل، في حوش منزلنا بحيِّ روينا في القَضَارِف، كانت تتناثر أباريقُ الوضوء حول «بِرْش» الصلاة الممتد بامتداد الظِّل، أمام «الدُّكَّان» المقام في ناصية المنزل. وما إنْ يُؤَذِّنَ لصلاةِ العصر حتى يبدأ الاستعداد للِّقَاء اليومي، حيث يتقاطر بعض أقاربنا من وجهاء القبيلة وجلساء والدي الشاعر وخليفة الختمية، إبراهيم وَدْ جميل رحمه الله، وشيخ العرب (عَشَى الضّيفان)، عمّي المرحوم آدم وَدْ جميل، لتكتمل الحلقة تحت «نيمة وَدْ جميل». تلك الشجرة المباركة التى طالما شَهِدَتْ صلواتٍ و«مَوَالِدَ» وأذكاراً وزيجاتٍ لثيباتٍ كن أو أَبْكَاراً، وتجمعاتٍ متعاقبةً يتصدرها هؤلاء الأخْيَار، إمَّا لدَفْعِ دِيَّةٍ أو كفالة مسجونٍ أو إعالةِ فقيرٍ أو إصلاحِ ذات البين، في مجلسٍ لَمْ تُدَنِّسْ قُدُسِيَّتَه بخمْرٍ أو مُجُونٍ، وإنَّما هي القهوةُ الحبشيةُ تُدَارُ فيما بينهم حتى صلاة المغرب. ثم يجلسون حول «شايِّ اللَّبَن» واللُّقَيْمات، حتى صلاة العِشَاءِ، وبعد أداء الصّلاة يذهب كلٌّ منهم إلى منزله، وأمّا الضّيوف فتُقَدَّمُ لهم الخدمة اللاّزمة في بيتٍ لم يكنْ يَخْلُو أبداً من الضيوف الذين قد تَمْتَدُّ إقامةُ بعضهم لسنواتٍ !! نعم سنوات، هُمْ ونِسَاؤُهم وأطفالهم، في زمنٍ جميلٍ كان النَّاس فيه لا يعرفون حسابات التكلفة، ومراعاة المصلحة الشخصية. زمن كانت فيه حرائرُ القبيلة تغني للكرماء: «حُوكِي عاشَهْ باشَّا * سَرْتُوك حَضَار جاشَّا». زمن كان يكفي أنْ تقولَ «مُعَلَّم الله» في موقف «اللَّوراي» فَيُسْمَحُ لك أنْ تُسَافِر أنت وعيالك بل و«العَنَاقِرِيبْ»، إلى وجهتك دون أن تَدْفَعَ شيئاً!!

وهكذا ينقضي اليومُ ليبدأ البرنامج غداً. وغالباً كانت وجُوهُ المجلس هي نفس الوجوه: محمّد عَلِيّ محمود وأخوه محمّد سعيد وإدريس قَبْرَيْس (جَبْرَيْس) ومحمّد عَلِيّ هَنْرِوَايْ وإسماعيل عُتَيْل وأحمد نافع وهُمَّد دِرَار ومحمود آدم نور الدين وإدريس نور محمّد إبراهيم وصالح عبده. وقد يحتفون، من وقت لآخر، بزائرٍ أو أكثرَ جاء من بعيد ليسامرهم، مثل الفارس إدريس حِمَّد نور (رَاجِل وَقَر) وعثمان وَدْ إدريس وَدْ عَلِيّ (من ديم النّور) والمرحوم محمد عَلِيّ عُجَيْل، من بني عامر (بيت مَعْلا). وقد

يحضر المجلس أحياناً إدريس محمود علي ود أدَاكِن ، صديقهم وأحد أرحامهم (من ألْمَدَا) وجارنا في المنزل. كان الحديث بينهم متنوعاً وشيِّقاً، وكان يُدَارُ في عمومه بلهجة «التِّجْرِي Tigre»، يتم التطرق فيه للأمثال والشّعْر والقصص فضلًا عن شؤون الحياة العادية. بَيْدَ أنَّ الغالبَ في حواراتِهم كان التَّطَرُّقُ لتسلسل الأنساب فيما بينهم، وذِكْرُ المعارك والبطولات التى قام بها أجْدَادُهم، واجْتِرَار ما توارثوه من أقوال وروايات حول تأريخ قبيلة الحَبَاب. كانت سِنِّي دون السّابعة في منتصف ستينات القرن العشرين، عندما بَدَأتُ أشاهدُ واستمعُ لما يدور في تلك الجلسات المتكررة بصفةٍ يوميةٍ. وبما إنّني كنت الطفلَ الوحيدَ في المنزل في ذلك الوقت، كانت تَنْهَالُ عَلَيَّ المراسيلُ: «يَا وِلَيدْ: جِيبْ مُويَة، جِيبْ الجَبَنَة، وَدِّي الجَبَنة، املأ الإبريق . . .إلخ»، ولذلك دائماً كنت أجلس حولهم، أو ليس بعيداً عنهم، استمع لحواراتهم ربَّما دون رغبةٍ. وبمرور الوقت بَدَأتُ استوعب جزءاً ممّا يقولون، بل أصبحتُ أتَشَوّقُ لسماع قصص البطولة والاستخفاف بالموت في معارك «شَنْجَيْرَا»، «تَـجَبْ»، «كُوكْحَا»، «أقْبُور شَيَمْ» و«خُور أبْ قَرَعْ» و«فارِس حَفَرَا» وقصة «بِجَايْ وشَقْرَايْ»، الفارسين المتنافسين على بنت «اللِّبت»، وغير ذلك كثير. وبدأت أحفظ بعض الشعر، ثم بَدَأتُ أُدَوِّن بعض القصص. وهكذا زُرِعَتْ فينا بِذْرَةُ حُبِّ هذا الموروث النبيل. ثم دارت الأيام دورتها وتوفي والدي في عام ١٩٨٣ م، ثم لحقه بعد فترة عمي آدم، فانطوى ذلك «البِرْشْ» إلى غير رجعة، وباتت الأباريق صَرْعَى، ودخلت «نيمة» وَدْ جميل في حزنٍ عميقٍ. وهكذا انفض السَّامِر، وتَفَرَّقَتْ بنا السُّبل، وأفْضَى بِيّ سِفَارِيّ إلى مجاهل المُدُنِ الكبيرة. ولكن ظَلَّ الحبُ لتاريخ الحَبَابِ، والاعتزاز بهذا الإرْثِ الباذخ، شيئاً لا يفارقني لِمَا لِمِسْتُ فيه من قيَمٍ جميلةٍ، وبطولاتٍ لم أسمعْ بمثلها منذ زمن الصَّحَابة!!

بَيْدَ أنَّ الأمر لم يخرج عن إطار الاعتزاز والاعجاب حتى تباعدت بنا المرافئ، وصحبنا الدُّنْيا بصخبها وإرْبَاكِها وصحفها وشبَاكِها لنرى العجب؛ نعم فالعجب ما رآه المتنبي من تبدل الصدق الى كذب حين قال:

وَمَنْ صَحُبَ الدُّنْيَا طَويلاً تقلَّبَتْ　　　على عَيْنِهِ حتى يَرَى صِدْقَها كَذِبا

فقد انبرى للكتابة أقوام ما لهم من المعرفة نصيب، خلطوا بين الغث والثمين كحاطب ليلٍ يجمع ولا يستبين، هذا بالطبع إذا أحسنا بهم الظن وخلصت النِّية وسلمت الطَّوِية. ثم إنني قرأت تاريخ المنطقة على مُكْثٍ لأجد أنَّ كثيراً من المؤلفات التي تناولت تاريخ الحباب، سواءً كتبت بأقلام المؤرخين الأجانب أو الوطنيين، قد غطت جانبًا من تاريخ الحباب وأغفلت جوانب. ولهذا؛ قررت أن أضيئ شمعة بدل أنْ ألْعَنَ الظَّلام، فكان لزاما عَلَيَّ أن أجتهد ولا آلو، أنقب وأقارن وأتأمل واجمع الأدلة بهدف تسليط الضوء على تاريخ الحباب، ذلك المجتمع الذي لعب دوراً هاماً لخمسمائة عام على الأقل في المتسع الجغرافي والبشري الممتد من تخوم الهضبة الإرترية إلى مشارف الحدود السودانية المصرية على امتداد الشريط الساحلي والجبال المحاذية للبحر الأحمر.

إنَّ هذا السفر الماثل بين أيديكم هو عصارة بحثٍ وتقصي لتاريخ هذا المجتمع في ماضيه وحاضره، أردت من خلاله أنْ أقدم مساهمةً مخلصةً ربما تكون بادرةً تفتح المجال أمام المهتمين من أبناء الحباب لدراسة مجتمعهم وتاريخهم بأنفسهم.

وختاماً، أتمثَّل قول الدكتور صامويل جونسون: «كل من يؤلف كتاباً يتوق إلى المديح، أمَّا من يصنف قاموساً فحسبه أن ينجو من اللَّوم»، ذلك لكون هذا الكتاب ليس قاموساً للكلمات فحسب (الباب الثالث) بل هو قاموسٌ لتراثٍ مجهولٍ وعاداتٍ وتقاليدَ وتفاعلاتٍ لأمةٍ عريقةٍ قديمةٍ قدم جدِّهم العَرَنْجَجِ.

أسأل الله المعونة، أليس الله بكافٍ عبده؟ نعم، وأنا على ذلك من الشاهدين.

د. إدريس إبراهيم جميل جِمِع آل جِمِع
المحامي وموثق العقود
والمستشار القانوني بمدينة الدَّوحة ـ قطر،
نوفمبر ٢٠١٢م.

الباب الأول
قبائلُ الحَبَاب

الحَبَابُ هي قبيلة، بل عدة قبائل بجاوية عريقة، ارتبط وجودها منذ القدم بساحل البحر الأحمر والجبال المحاذية له، وتمتد مناطق سكناها التقليدية من السهول والجبال الواقعة شمال مدينة مصوع (أو «باضع» التي تتبع حالياً لدولة إرتريا)، ابتداء من وادي أدْهَرَا، مروراً بعُوبِلَّتْ، جِلِبْ (Guilib) ، شِعِبْ، مرسى جلْبُوب (Gulboob)، أفْعَبَتْ، أناقيت، كِبْكِبْ، ألقعتا (ألجَعْتا)، لبْكا، ملبْسُو، براكنْتِيا، فِلْفِلي، عين حَرِيش، غار عُوبَل، إتْ أتَافِئ، هَبَرُو، إتْ أتْبَا، جِعِر (Geir)، سَرْجُون (Sargoon)، جِرْجِرْ (Guirguir)، تنْ ألبُو، تَحْرَا، سَرَوَا، لابا، أتْبَا، باشري، نَقْفَا، مَدْرُورِيَتْ، حِشْكِبْ، جَلَبْ سَجْلا Galab Sagala، أنْجَبَّا (Angabba)، حَسْتَا، نارو، أقْرَعْ، ألْجِينَا (Algaina)، هَجَرْ (Hagar)، رحيب، غاغَتْ، وَدْ جَان (Wad Gan)، مرسى تَكْلايْ (رارات)، قرورا، رأس كسَّار (وليس «قصار» كما يكتبها البعض)، وكافة منطقة مَقَدَّام (والتي تتبع حالياً للسودان) ومنها أمْبَكْتا، شاكاتْ، دِرْتِتْ، مِنْطَال، جِنَتْ (Genet)، شِعْبَتْ، دُرُويْ، مرافيت (أصلها «مَرَافِعِيتْ»، جمع مَرْفَع، بالحبابية، اسم مكان من الرفع)، وكل القرى والبلدات «ذات العيون» ومنها: عَدَارَتْ، عَيَتْ[1]، عَنْدَل، عَدُوبَنا، عَيْدِب، عَيْتَرْبَا، عَقِيتَايْ، عِيرِي، عَقِيق، مرورا بطريق جِديْفَرا (Guidaifra)، دَبِرْ عَنْقَا، تُوكَر[2]، جبال تَقْدَرا المحاذية لها، ومن ثَمَّ سواكن. مشيراً الى بعض هذه المناطق قال

---

(١) حسبما ذكر لي العمدة/ حامد محمد آدم أدَّالا فإنَّ "عَيَتْ" سُمِّيَتْ على إحدي بنات "بيت بَحَايْلاَيْ"، وسنتطرق لقصتها فيما بعد. وتوجد في عَيَتْ حتى الآن مقابر للحباب بها أحجار ضخمة وطويلة بعضها يفوق إرتفاعه طول رجل فارع الطول.

(٢) الصحيح أن تكتب «توكر» ولكن بعض الناس يكتبها «طوكر» خطأ، تماما كما يخطئون في كتابة «عطبرا» بدلا من الاسم الصحيح «أتبرا». وقد سميت توكر على اسم أحد أبناء بَحَايْلاَيْ، من زعماء الحَبَاب، والذي كان يحكم كل منطقة مَقَدَّام واسمه «تُوْكَل»، والذي تولى حكم الحَبَاب أيام

زعيم قبيلة الميكال الشيخ: محمد حامد عَبِقْ:

عَيَتْ مِعطِنْ تَاتَا إِجِلْ إِنْسَا نَحَفِرًا	(عَيَتْ هي معطننا (بئرنا) التي نحفرها للإبل)
أَرْبَعَا مَطَاً إِبْ سَلِفْ وأَرْبَعَا مَطَاً إِبْ جِرًا	(أربعون من الإبل يأتين أولاً يعقبهن أربعون أُخَر)
مِكَّاكْ سُوميتْ حِجاباتَا محَكْ الإِسِمْ ابْلا	(مِكَّاكْ سَومِيتْ هي الحماية نسميها "محَكْ الإِسِمْ")
دِيفو مِشْارْ أَفْرُوسْنَاتَا دولْ لَطَحايْ فَجْرًا	(ديفو هي مربط أفراسنا حين طلوع الشمس)
إِنْقَلِحِي معطِنْ قَافْلاَيْنَاتا دول لجلاَبْ لأَسْرًا	(كذلك إِنْقَلحِي هي مِعطِننا - بئرنا)
وَدْ جِمْرَتْ تُرجُمانْتُو لَبِلاَ سَمْعْ لأَسْيْلاً	(وَدْ جِمْرَتْ تُرْجُمان لما تسمع - أرض خصبة)
كَادِينْ مَقْتَرَابْتُو دُولْ لَسَمرْ بَقْلاً	(كَادِينْ هي مستودع عندما ينبت العشب)
بَرِيْطِعِي مِصْلِحْنَاتُو طويتْ لاتَا لَعَدْلاَ	(بَرِيْطِعِي مصلحتنا التي تعدل المائلة)
دَحْ مِعطِنْ دَقْرَاتُو لَشَيَمْ دِيبُو نَعاللا	(دَحْ هي معطننا الزاخر وفيه ننصب الزعماء)
فِقْرَتْ أَمْبَارِكْ قَبِيلْ بُدُخْ نَبْراً	(مر مُبَارِكْ هي موطن جمع كبير من الناس)
فِقْرَتْ رَحَابْ وَجَبَّابْ إِبْ جَنْجِيتْ تَمَرًا	(مر رَحَابْ وَجَبَّابْ تأتيها عن طريق جِنْجِيتْ)
فَقْرَتْ طَلِيتْ مِعْدَارَنَا دولْ لَلِحِطَتْ بَقْلاَ	(مر طَلِيتْ تصبح خضراء عندما ينبت اللَّحَط)
أَبْ دَنَاتُو حِطَانُوتُو مِنْ كَلَنْ دِيبْ عَدْ لَعَايِرًا	(أَبْ دَنَاتُو تجمع الناس من البر - الخلاء)
كُلْتُوتْ أَفْعِي وَبَارَاسْ قَلْبَعَتْ إِنْسَا مَحَذَرًا	(كُلْتُوتْ أَفْعِي وَبَارَاسْ قَلْبَعَتْ هي مراتع الإبل)
مِطْرَامْ مَسْكَبْ نَبَابِلْتَا عَيْلاَ طَعَدَا إِمْبِحِرًا	(مِطْرَامْ و عَيْلاَ طَعَدَا هي مرابض الإبل النبيلة)
غَاغتْ مَسْكَبْ مَقَارِبْ وَمَلْحَاتْ بِكَارْ شَغْلاَ	(غَاغتْ مسكن حوامل الإبل وَمَلْحَاتْ مرعي الأبكار)
تَكَلْ عَاوَافْ وَعَرُوبْ أَجْمَالْ تَبْعِنْ نَبْرًا	(تَكَلْ عَاوَافْ وَعَرُوبْ هي مسكن الجمال الفحول)
إِيتَأَقَبْرْ وَأَدْعَتْ إِلِّي جَرْجِي لأَكْلاَ	(إِيتَأَقَبْرْ وَأَدْعَتْ يكفيها هذا الجرجي)
دَمْبُوبِيَتْ إِتِيبتَا وِجْهِتْ لَكُلُّو نَبْرًا	(دَمْبُوبِيَتْ منزل وجيه يسكنه الكل)
حَرَّتْ دَحَنْ أَمَتَتَا لَتَهَدَّيتْ هِنَا تَحَجْرًا	(حَرَّتْ دَحَنْ وأَمَتَتَا تحتضن العرائس)
قَبَّهْ وَجِنْدَعَتْ مَرْعِيْ هُودُويْ إِبْ (لله)	(قَبَّهْ وَجِنْدَعَتْ مَرْعِيْ حيث الزواج باسم الله)
إِنْجَحَا وَدْ بِكْرَاتُو كَبْدِتْ لاتَا طَورًا	(إِنْجَحَا وَدْ بِكْرَاتُو حالة الثقيلة)
جَدِيفْ مُحَسَّاتُو مِنْ دَمَاقِي كَلْكِلاَ	(جَدِيفْ يحميها المراقبون من الغزو)
حَلِيْبَايْ وَمِعْتِبْ إِتْ شَابُّوتاتْ تَاوْعِلاَ	(حَلِيْبَايْ وَمِعْتِبْ تراعاها من شَابُّوتاتْ)
حَمْبُوكَايِت لأَرِيرَا أَكَاباتاتْ نَبْرًا	(حَمْبُوكَايِت الأَرِيرَا تعيش فيها قطعان البهائم)

السلطنة الزرقاء ونال شرف الجلوس على ككر الفونج ولبس الطاقية «أم قرنين» أو «أم قرين».
ويعد «توكل» هذا أول حاكم من البُجَة يعاهد دولة الفونج كما ذكر المؤرخ محمد صالح ضرار.

وضمن هذا النطاق الجغرافي، ظلَّ الحَبَاب يتحركون بحرِّيةٍ إلى أنْ ظهرت الدول، ورُسِمَتْ الحدود، وقمسّت القبيلة كما سنبين. يقول أنطوني دو أفري في كتابه «ملوك البحر الأحمر»، نقلًا عن منزنجر باشا «Munzinger»: إنَّ الحَبَاب الأقدمين قد انتشروا في السَّاحِل بحيث امتد وجودهم جنوبا حتى سمهر وشمالًا حتى عقيق، وكانوا يدفعون الضريبة (الطُّلْبَة أو العشور) إلى سلطنة سنار[١]:

«The old Habab extend north and south to the coasts; they peopled the Sahel as far as Akik and came down into the Samhar» [2].

وفي إشارة لتلك المناطق قال الشاعر أمير وَدْ قَبَّه (أصلها «جَبَّاه» أي له جبهة كبيرة) يمدح كَنْتِيْبَاي[٣] جَاوِج (Jawij) وَدْ فِكَّاك (الذي حكم الحَبَاب في الفترة ما بين ١٧٩٠ إلى ١٨٣٠م تقريبا):

أسْهِي[٤] بُولُو كَنْتِيْبَايْ	(قولوا لكنتيباي تجاوز وغض النظر).
جَاوُجْ وَدَايْ عِرُورْيَتْ	(كَنْتِيْبَايْ جاوج الذي يفعل الأفاعيل).
وَدْ سَبَّاكْ أفْ حَارِينْ	(يا ابن من يقضي الشتاء في أف حارين).
دَسِيتْ إيْ كُونْ وَعِلُولِيتْ	(وليس في مناطق دسيت وعلوليت).
جَاوُجْ زَمَاتْ قَبِيلَتْ	(انت تغزو القبائل).
أسْرَتْ إنْتَا وَ دُولِيتْ	(انت أسرة ودولة).
أسْهي بُولُو كَنْتَيْبَايْ	(قولوا لكنتيباي تجاوز واصفح).
جاوَج وَدَايْ تَامَّرِيتْ	(جاوج الذي فعله مشهور).

(١) انظر صفحة ٧٩ - ٨٠ من كتاب دو أفري (بالإنجليزية) بعنوان: «ملوك البحر الأحمر»:
"Lords of the Red Sea, The History of a Red Sea Society from the Sixteen to the Nineteenth Centuries", by Anthony d' Avray, 1996, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden, 79-80.

(2) Lords of the Red Sea, ibid, p. 80.

(٣) كلمة «كَنْتِيَبَايْ Kantibai - أو بالأصح Kantebai» تعني الملك أو الزعيم وتطلق على كل شخص يتولى رئاسة قبيلة الحَبَاب وتماثل كلمة «رأس» عند الأحباش و«مَكْ Muc» عند قبائل الجعليين و«شَرْتَايْ Shartai» عند قبائل الفور، و"وَهْدَأْ Wahda'a" عند الهندندوا، و"دِقْلَلْ Diglal" عند بني عامر.

(٤) فعل أمر من السَّهو أي "انْسَ".

كُــلاً لا إنْتَ تبـــــلاً	(كل الذي تقوله أنت).
بَـدِيـرْ زَايْـدَتْ وَعِـرِّيتْ	(ينفذ بالتمام وأزيد أولا بأول).

وما يهمُّنا في هذه القصيدة هو افتخار الشاعر بكون كَنْتِيْبَايْ جاوج وَدْ فِكَاك (وأهله الحَبَاب عموما) يقضون الشتاء في «أف حارين» وليس في مناطق «دَسِيتْ» أو «عِلُولِيتْ» كما يفعل غيرهم. ومن المعلوم إنَّ «أفْ حَارِين» أو «أفحارين» كما كتبها المؤرخ ضرار، هي منطقة مَقَدَّام Maqaddam عموماً والمنطقة الواقعة بين مرسى تَكْلايْ وجبال تقدرا المحاذية لتوكر على وجه الخصوص. وعلى هذا المنوال، وعندما طال به المكوث في أرض المنسع، قال كَنْتِيْبَايْ تَيدْرُوس وَدْ تَكْلِيْس متحسراً على عدم تمكنه من قضاء الشتاء في أفْ حارين:

إكُّوْي تُـو قَبِـر سَـلَبَا	(سيئ هو قبر سلبة)
لاكْفُـــو إتُّـــو إبَّـنَـــاتْ	(فارموا عليه بعض الحجارة)
وسَنِّي تُو سَبِكْ أفْحَارِين	(وجميلة رحلة الشتاء إلى «أفحارين»)
جَلَبْ سَجْـلا وجِـــرَاتْ	(حيث توجد مناطق جَلَبْ سَجْلا وقِرَاتْ)
إي إفَـــدِّي عِـــدَايَـــا	(لا موتٌ مقابل تلك الفعلة)
واي إوْعِــلْ دِيــبْ إمَّاتْ	(ولا عيشٌ وسط الأهل - الأمهات).

ليس هذا فحسب، بل امتد نفوذهم في عهد كَنْتِيْبَايْ حامد بك إلى المنطقة الواقعة حول جبال درور شمال بورتسودان، حيث طلب حامد بك ـ زعيم الحَبَاب القوي آنذاك ـ من محمد علاء الدين باشا، حاكم السودان الشرقي (مصوع وسواكن)، إبعاد الرشايدة اليها بعد أنْ كانوا قد هاجروا قبل سنوات قليلة إلى أرض الحَبَاب واستقروا فيها ، ثم نشأت عدة حروب بين القبيلتين في الفترة ما بين ١٨٧٦ و ١٨٨٠م[1]، مما نتج عنها سفك للدماء وترحيل الرشايدة شمالًا. فكان الرشايدة

(١) يقول أنطوني دو أفري في كتابه: «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق، صفحة ٢١٢، أن الرشايدة قد أحضروا من الجزيرة العربية أثناء حملة نابير في عام ١٨٦٧م ضد الإمبراطور تيودور ليقوموا بمهام التعامل مع جمال الحملة (جمالة Cameleers) واستقروا في المنطقة الواقعة جنوب سواكن. أما المؤرخ محمد صالح ضرار فيرى أن أول هجرة للرشايدة إلى بلاد الحَبَاب كانت في

بكافة أهلهم ومواشيهم، برئاسة ناظرهم عبد الله المبارك وزعيمهم المشهور الشيخ مرشود بن مريخيم بن عمرو، يسيرون باتجاه الشمال، ولم يقبل كَنْتَيْبَايْ حامد بأقل من إبعادهم إلى جبال درور في المرة الأولى (١٨٧٨م)، شمال سواكن. وبعد عام واحد حدثت بين القبيلتين حرب أخرى نتج عنها إبعادهم إلى منطقة محمد قول[١]، وتم محاكمة بعض أفراد الحباب والرشايدة وسجنهم في سجن لومان في الأسكندرية حسبما تشير البرقية المحفوظة لدى دار الوثائق المصرية بالرقم 0075031194003 ومضمونها أنه تم إبعاد سبعة من عربان الرشايدة والحباب إلى سجن لومان ، كما تتحدث الوثيقة عن ارتحال عربان الرشايدة والحباب عن القطر المصري في ١٢ أغسطس ١٨٨٠م. إثر ذلك تقدم الحَبَاب بمطالبة الحاكم بإرجاع الرشايدة إلى الحجاز، وفعلا طلب حاكم سواكن ومصوع آنذاك (علاء الدين باشا)، من شريف مَكَّة القيام بالإجراءات الكفيلة بعودة الرشايدة للحجاز[٢]. ولحسن حظ الرشايدة، ظهرت الثورة المهدية، وانشغل علاء الدين باشا بقتال الأنصار، حتى قتل في معركة شيكان مع هيكس باشا في عام ١٨٨٣م. ونتيجة لوساطة قام بها زعيم الفاضلاب (الأمرأر) الشيخ محمود عَلِيّ بك، هدأت الأحوال

عام ١٨٦٩ م (راجع كتاب محمد صالح ضرار: «تاريخ سواكن والبحر الاحمر»، الدار السودانية للكتب، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص. ٣٤). أما الأستاذ عمر رضا كحالة فيقول: «الرشايدة من قبائل العرب تقيم في الصحراء الشرقية المعروفة أيضاً بصحراء البُجَة بالسودان وهي قريبة عهد بها وقد هاجرت إليها من الحجاز سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١م)، بسبب قتال وقع بينها وبين بعض القبائل هناك، فعبرت البحر الأحمر من جدة ونزلت في أرض الحَبَاب وكانت تعد نحو ألف رجل ومعهم أسلحتهم وأولادهم وأبلهم فاعترضهم الحَبَاب، وجرت بين الفريقين وقائع أدت إلى سفك الدماء» أهـ، (راجع الصفحة ٤٣٤ من كتابه «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة»، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة).

(١) راجع صفحة ٧٦ من كتاب «وثائق نقفا The Nakfa Documents» لمؤلفه أنتطوني دو أوفري، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠.

(٢) راجع نفس المرجع، صفحة ٧٦.

بين الحَبَاب والرشايدة الذين رحلوا إلى منطقتي عيذاب وحلايب الجافتين[١]، قبل أنْ يعودوا مرةً أخرى إلى مضارب الحَبَاب وينصهر بعضهم في القبيلة.

وكنتيجة طبيعية لوجودهم في تلك المناطق الشاسعة، انقسمت قبيلة الحَبَاب إلى قسمين بعد قيام الحدود بيد المستعمر الإيطالي والإنجليزي، حيث رسمت الحدود طبقا لمناطق نفوذ الدولتين المستعمرتين ومصالحهما، دون مراعاة لامتداد القبائل في تلك المنطقة، وبالتالي انقسمت القبيلة كغيرها من قبائل البُجَة[٢] إلى قسمين: قسم تابع لدولة إرتريا وله نظارة مستقلة في مدينة نقفا برئاسة كَنْتِيبَايْ عثمان ومن بعده أبناؤه وأحفاده، وقسم تابع لحكومة السودان برئاسة كَنْتِيبَايْ محمود ومن بعده أبناؤه وأحفاده. وممّا يجدر ذكره أنّ كَنْتِيبَايْ محمود (بن كَنْتِيبَايْ حامد) عندما انفصل بجزء من القبيلة في مطلع فبراير عام ١٨٩٥م اضطر في وقت من الأوقات (عام ١٣١٤ هـ ١٨٩٧م) إلى النزول والاستقرار في منطقة جبال دُرُور شمال بوتسودان، وكان معه عدد كبير من قبائل الحَبَاب، لا سيّما القبائل التى تمتلك أعداداً كبيرةً من المواشي (أَسْفَدَا وأُمُدَا)، فاشتكى هؤلاء ممّا لحق ببهائمهم من الأذى، لقسوة جو المنطقة وقلة الماء والكلأ من جانب، ولكون القبيلة أصبحت تجاور في ذلك الوقت الهَدَنْدِوَا، ولا يخلو الأمر من غارات بين الطرفين في الماضي، كما أنّهم أصبحوا بجوار الرشايدة، وهم القوم الذين أبعدهم كَنْتِيبَايْ حامد إلى تلك المنطقة في وقت سابق. ولكن على الرغم من الضرر الذي لحق بالبهائم والذي أدّى إلى تذمر قومه وإبداء بعضهم الرغبة في الانتقال إلى المناطق الخصبة جنوباً، التى اصبحت وقتها تحت النفوذ الإيطالي بعد بدء تقسيم الحدود بصورة رسمية في يونيو عام ١٨٩٥م، على الرغم من ذلك كله أصرَّ كَنْتِيبَايْ محمود على البقاء في تلك المنطقة القاحلة، وخلّد

(١) راجع كتاب المؤرخ محمد صالح ضرار: «تاريخ شرق السودان، ممالك البُجَة، قبائلها وتاريخها»، الطبعة الأولى ١٩٩٢، الجزء الأول والثاني، صفحة ٧٤٧.

(٢) انظر الباب الرابع: «الحَبَاب والبُجَة» لمعرفة سبب استخدامنا لمسى «البُجَة» بدلًا من مسمى «البجا» الذي يصر البعض على استخدامه.

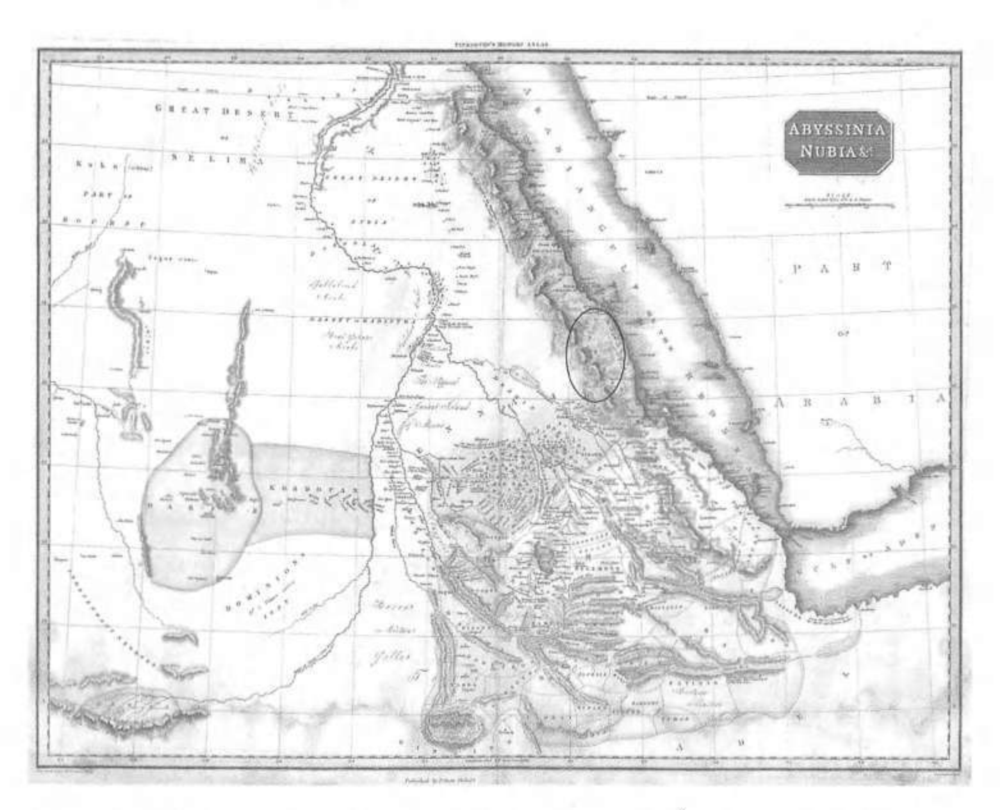
هذا الموقف بقصيدة رائعة باللَّهْجَة الحَبَابية «التِّجْري[1] Tigre» نذكر منها قوله:

أجْنُوبْ الضَّحَى كَايَدْنَها	(مررنا بالجنوب ـ أجنوب ـ ضحىً)
إنْـدِي جَأنَا سَبْ جِيتْ	(بعد أنْ أصبحنا في موضع اللَّوم)
كِـلْؤُوتْ لأبَـايْ تَالِـيْنَا	(وصَاحَبْنَا كلا الخَصْمَيْن لنا)
هَــدَنْــدِوَا وزبَـيــــدْ	(الهَدَنْدِوَا والزبَيْدِية ـ الرشايدة)
شِــيـقْبَاي سَتّي أبُوكَـا	(أبوك يركب الصعب)
حَقُــو قَنْطَا إبْ نِويتْ	(إذا نوى على شيء).

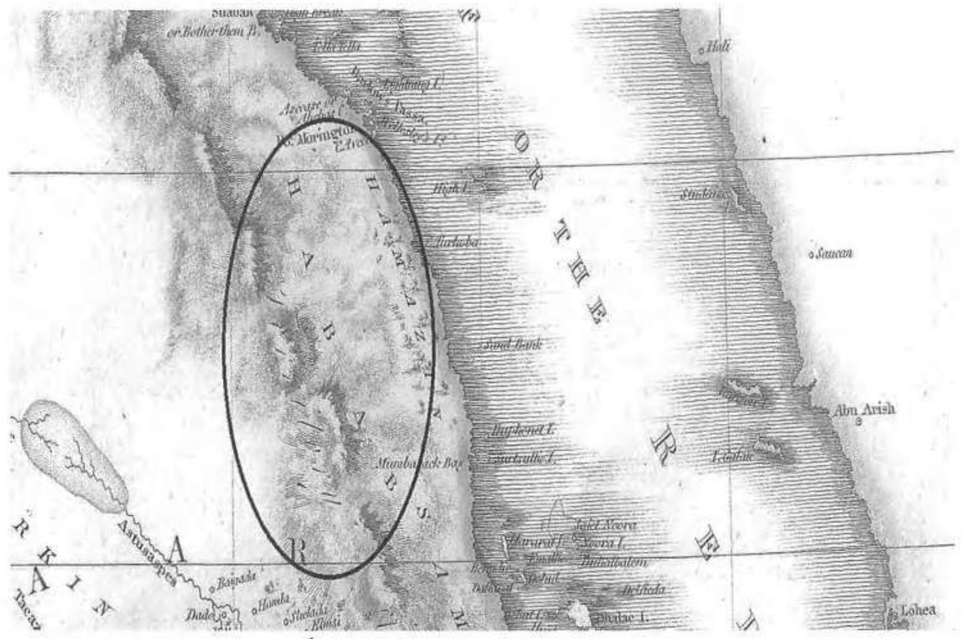
و«أجْنُوبْ» أو «القنوب» كما يكتبها البعض، المشار إليها في القصيدة، هي السهول السَّاحِلية الواقعة بين توكر وسواكن، والاسم «أجْنُوبْ - أقنوب» في نظرنا أصله ومصدره «الجنوب»، الاتجاه الجغرافي المعروف، والجيم دائما تنطق يمانية، حيث إنَّ كافة أهلنا البُجَة، سواء الناطقين بالتِّجْري أو البِدَاوْيِيتْ (أحياناً تعرف بـ«التَّبْدَاوَيتْ»)، ينطقون «الجيم» في الكلمات العربية القديمة بالطريقة اليمانية لأسباب سنشرحها بإسهاب في باب اللَّهْجَة الحَبَابية، ولكن فقط لتقريب المثال،

(١) «تِجْري» «تِجْري» أو «التِّجْري»، بالجيم اليمانية وإمالة الراء، إمالةً خفيفةً، «Tigre»، هي اللَّهْجَةُ التى يتحدث بها عددٌ كبيرٌ من قبائل شمال وغرب إرتريا وشرق السودان، لاسِيَّما الحباب وبنو عامر ومنسع وماريا وغيرهم، وهي لهجة تعود، الى حدٍ كبير، في ألفاظها وتعابيرها ومسمياتها وقواعدها وأحكامها الى اللُّغة الحِمْيَرِيَّة ـ السبأئية وخاصة «الجعيزية Geez»، منسوبة الى قوم من السبأيين يعرفون بـ «الأجّاعزيان» وبالحبابية «الجعازيام» أي المسافرون أو الرحل. بيد أنَّ التجري، بمرور الوقت، تأثرت بلغة مُضَر، لدرجةٍ يصعب فيها القول بأنها حِمْيَرِيَّةٌ بالكامل. ولمعرفة المزيد عن لهجة «التِّجْري» يمكن الاطلاع على التفاصيل الواردة في «الباب الثالث» من هذا الكتاب بعنوان: «اللَّهْجَةُ الحَبَابِيَّةُ». وينبغي ملاحظة أن بعض المراجع العربية تكتبها «تِقْري» أو «التقري» بالقاف، وفي هذا محاكاة للجيم اليمانية. هذا وينبغي التفريق بينها وبين قوم في شمال إثيوبيا يعرفون بالتِّجْرَاي، وباللاتينية «Tigray»، ولهجتهم «تِجْرِينْيَا» أو «التِّجْرِينْيَا»، وباللاتينية: «Tigrinya»، وأحياناً «Tigrina»، وهي لسان سكان شمال إثيوبيا ومرتفعات إرتريا. وكلا اللهجتين «التِّجْري» و«التِّجْرِينْيَا» من منبعٍ واحدٍ هو اللُّغة الجعيزية الحِمْيَرِيَّة، وإن كان المتحدث بإحداهما لايفهم اللهجة الأخرى، تماما مثلما أنَّ المتحدث باللُّغة الفرنسية لا يفهم ما يقوله المتحدث باللُّغة الأسبانية أو الإيطالية، وإن كان منبع تلك اللغات الثلاث هو اللُّغة اللاتينية.

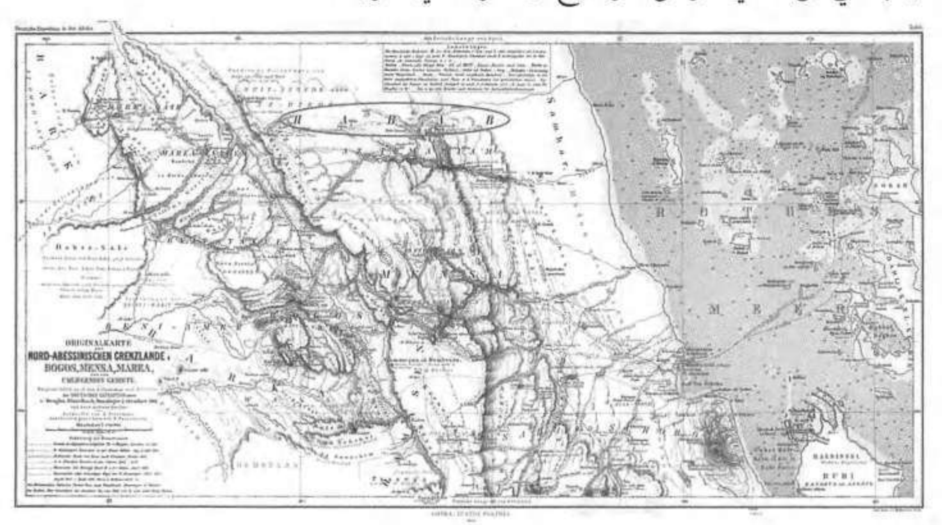
انظر إلى نطق أهلنا الكميلاب لمسجدهم الكبير في منطقة القاش «إمسقد إبر Imisguid Ibirri»، وانظر كيف ينطق أهلنا الهدندوا مسمى «جبيت Gabait» وخور «لنجيب Langeb»، وهكذا. المهم هو إنَّ كَنْتَيْبَايْ محمود في تلك القصيدة، يتحسر على فوت السهول التى تقضي فيها القبيلة عادةً وقت الشتاء، ويقول مررنا بمنطقة أجنوب (القنوب) وقت الضحى، وتركناها خلفنا بعد أنْ أصبحنا في موضع اللَّوم والخصام، واضطررنا لمصادقة خصمين لنا هما: الهَدَنْدِوَا والزبَيْدِية - الرشايدة. ثم يستدرك ويقول: إنَّ كل الصعاب تهون مقابل تحقيق ما قررناه ونويناه، ويعبر عن ذلك بقوله: «شيقباي (شيجْبَايْ) سَتّي أبوكا حقو قَنْطا إبْ نِوَيتْ» أي أبوك (يقصد نفسه) يركب الصَّعب إذا نوى على فعل شيء.



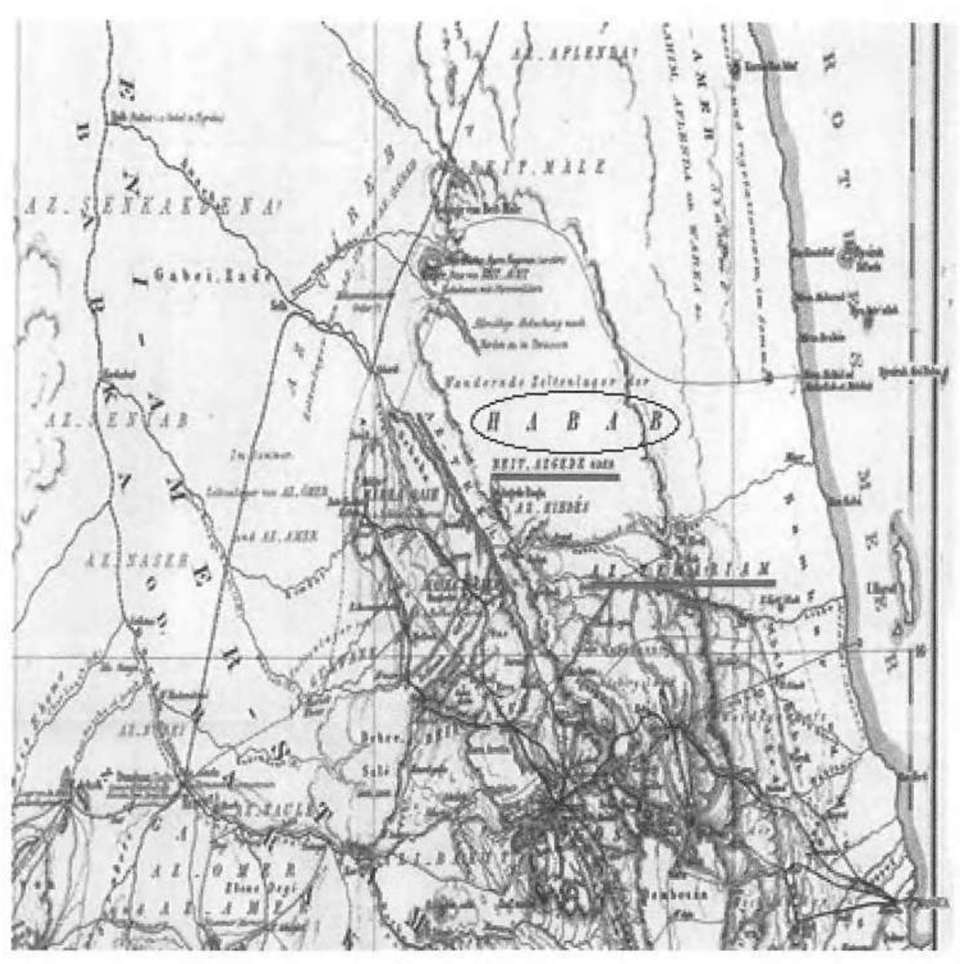
خريطة تعود لعام ١٨١٨م أعدها رسام الخرائط «جون بينكرتون John Pinkerton»، في أدنبرا، وتُظْهِر الخريطة التمدد الجغرافي للحباب في المنطقة بين سواكن ومصوع.



جزء مكبر من الخريطة يبين مناطق الحباب، وأود هنا أن أنوّه الى أنَّ الدائرة التى تظهر حول اسم الحباب هي من عندي لغرض التوضيح، ولا توجد في الخريطة.



هذه الخريطة تعود لعام ١٨٦٤م وضعها السيد/ أدولف بترمان Adolf Petermann ونشرتها مطابع Justus Perthes في المانيا، وتوضح الخريطة بعض قبائل الحباب ومنها عد تماريام وعد تكليس وبيت أسجدي (ونعتقد أن صاحب الخريطة كان يقصد "عد هبتيس" عندما أشار في الخريطة الى بيت أسجدي).



جزء مكبر من الخريطة أعلاه.

وعلاقة الحَبَاب بساحل البحر الأحمر وما حوله من جبال، هي علاقة وجود، حتى إنَّ رئيسهم كان يعرف من قبل أكبر وأقوى دولة جارة لهم في ذلك الوقت ـ مملكة الحبشة ـ بلقب «بحر نجاسي»، أو نجاشي البحر، بمعنى: «ملك البحر»، وأول من حمل هذا اللَّقب هو الجد رقم (٣١) للجيل الحالي (٢٠١٤م) المسمى «كوتي»، وآخر من عرف بهذا اللقب، هو الجد التاسع للجيل الحالي (٢٠١٤م) المسمى: إزَاز[١] بن فِكَاك بن هِبْتيْس بن مَفْلَس، بينما كان ابن عمه تَيدْرُوس بن

(١) المتأثرون بلهجة بني عامر أو المقلدون لهم ينطقونها «إداد».

تَكْلِيْس بن مَفْلَس، يحمل لقب كَنْتِيَّايْ الحَبَاب في تلك الفترة. وفي هذا الصدد نود أنْ نشير إلى أنَّه قد صدر حديثاً (في عام ١٩٩٦م وعام ٢٠٠٠م على التوالي) كتابان مهمَّان عن الحَبَاب للكاتب الإيطالي أنطوني دو أفراي Anthony D'Avray ، والذي عاشر الحَبَاب أثناء وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهما سفران قيِّمان عن تاريخ الحَبَاب، منذ بداية القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن العشرين، وقد سمى كتابه الأول: «ملوك البحر الأحمر»[١]، وسمى كتابه الثاني «وثائق نقفا»[٢].

وكانت منطقتهم تعرف بأرض الحَبَاب، وكل شخص يسكن تلك المنطقة يعرف (أو كان يعرف) بلفظ «حَبَابَايْ» نسبةً إلى الحَبَاب، حتى إنَّ الرياح الموسمية التى تهب على المنطقة المحاذية لساحل البحر الأحمر تسمى، حتى اليوم، رياح الحَبَابَايْ أو الهباباي (Hababai) كما كتبها الإنجليز[٣]، لكون الدراسة في السودان، في بادئ الأمر، كانت باللُّغة الإنجليزية، وكما هو معلوم فإنَّ الحروف الإنجليزية لا تتضمن حرف الحاء. وعربت هذه الكلمة حرفياً إلى «الهَبَايْ» من قبل جيل السَّوْدَنَة، الذي أعقب خروج الاستعمار الإنجليزي من السودان في أواخر الخمسينات لتصبح لفظة «الهبباي» بعد ذلك من قبيل الخطأ الشائع[٤]!! ولعل من المفيد هنا أنْ نعلق على

---

(1) «Lords of the Red Sea, The History of a Red Sea Society from the Sixteenth to the Nineteenth Centuries», by Anthony d' Avray, 1996, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden.

(2) «The Nakfa Documents", the dispatches, memoranda, reports and correspondence describing and explaining the stories of the feudal societies of the Red Sea littoral from the Christian-Muslim Wars of the Sixteenth Century to the establishment 1885-1901 of the Italian Colony of Eritrea, edited and annotated by Anthony d' Avray in Collaboration with Richard Pankhurst, 2000, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden.

(٣) انظر: مقال «جي جيه فليمنج» بعنوان «توكر» والذي نشر في المجلد رقم (٣) لعام ١٩٢٠م، صفحة ١٢ من مجلة: «السودان في رسائل ومدونات».

(٤) استلهم الشاعر والدبلوماسي المرحوم صلاح أحمد إبراهيم اسم ديوانه «غضبة الهبباي» - الذي صدر في عام ١٩٦٥ - من رياح الهبباي (الحَبَاباي). وقد سمعت (أقول سمعت) أن الشاعر صلاح أحمد ابراهيم ينتسب إلى أسرة أصولها من شرق السودان، وسمعت مثل ذلك عن الأمير عبد الرحمن النجومي (وأتمنى أن يبين لنا أنجالها أصل هذا النسل الطيب). ولم يقتصر الأمر على

التشويه غير المقصود الذي أصاب مسمياتٍ سائدةً في منطقة البُجَة، عند تناولها من قبل وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمنشورة في سوداننا الحبيب، نظراً لقلة معرفة القائمين على تلك الوسائل بتراث المنطقة ولسانها. فبالإضافة إلى التشويه الذي أصاب كلمة «الحَبَاباي» كما أوضحنا، نذكر على سبيل المثال أنَّ التحريف قد أصاب أيضاً اسم قبيلة «الهَدَنْدِوَا» البجاوية المعروفة، حيث إنَّ الأصح هو أنْ تكتب وتنطق الـ«وَهْدَأ-إنْدِوَا» أي شعب الأسد أو الزعيم، بلغة البِدَاوْييتْ (لغة البُجَة)، حيث «وَهْدَأ» تعني الأسد أو الزعيم و«إنْدِوَا» تعني شعب. وبعكس «وهدأ-إندوا»، فإن مسمى «الهَدَنْدِوَا» أصبح اليوم هو السائد لنفس السبب الذي ذكرنا ليكون، مثل الهبباي، من قبيل الخطأ الشائع!!.

ومن الطريف في هذا الشأن، أنني كنت في أحد الأيام أشاهد التلفزيون السوداني، وكان المذيع لنشرة الأخبار يتناول خبر زيارة تفقدية قام بها أحد المسؤولين لمنطقة «سَيْتِيتْ Saiteet» (بإمالة السين وسكون الياء الأولى والثانية

الشاعر صلاح، بل انداحت في أرجاء السودان الواسع أغنيات كثيرات تردد فتوة وعنفوان الهبباي فغنى الاستاذ محمد وردي: «يا بلدي يا حبوب، يا غابة قمحية، مشرورة فوق البلود، زي الصباحية، يا مزرعة باباي، يا غضبة الهبباي» ... إلخ. وغنى الاستاذ محمد ميرغني: «قلبي رهيف وما بقدر على الهبباي في عز الصيف» وغنى أهل الطمبور: "والأشواق الدَّامّتْ بينا ليك مرسالي مع الهبباي* وما بنساهو الحُسْن الودَّر بي طلَّت عينيك شقاي". والهبباي (أو الحَبَاباي بتعبير أصح) هي رياح عاتية تعرف باسم محلي آخر وهو (الإيتبيت)، وتهبُّ من أرض الحَبَاب (واليهم نسبت)، وتسود الأجزاء الشرقية من السودان في الفترة بين إكتوبر وديسمبر من كل عام، وتفوق سرعتها أحياناً اثني عشر كيلومتر في الساعة. وأكثر المناطق تأثرا بهذه الرياح هي مدينة توكر التى كيّفت مساكنها مع هذه الرياح فتكون الشوارع طولية ممتدة بدون تقاطعات من الجنوب إلى الشمال وذلك لتمر الرياح في اتجاهها إلى البحر الاحمر. وبالرغم من كثرة الرمال والغبار التى يحملها الحَبَاباي الا أن أهل توكر يعتبرونه فألًا حسناً ومقدم خير عليهم، فكلما امتد موسم الغبار وزادت الأتربة كان ذلك مؤشر على هطول أمطار غزيرة في الهضبة التى تليهم وبالتالي زيادة كمية مياه خور بركة وخور عنسبا اللذين يتحدان معا ليكونا دلتا توكر حيث زرع القطن لأول مرة بالسودان وساهم في نهضة أهل توكر قبل أنْ يجيء زمن الاضمحلال.

وكسر التاء الأولى) في ولاية كسلا. وبالرغم من أنَّ الفنان: عبد الكريم الكابلي ظلَّ عقوداً يصدح برائعة الحاردلو في وَدْ شيخ البُطانة، وسمعه معظم النَّاس في السودان وهو يردد:

دَا أنْ أدَّاكْ وكتَّر ما بِقُولْ أدَّيتْ
أبْ دَرَقْ[1] المُوَشَّحْ كُلُّو بالسُّومِيتْ[2]
أبْ رِسْوَا[3] البِكُرْ حَجَّرْ شرَابْ سَيْتِيتْ
كَاتَالْ[4] في الخَلا، وَعُقْباً كَرِيمْ في البيت

رغم هذا، كانت دهشتي أنَّ ذلك المذيع (وهو بالطبع ليس من الشَّرْق) في تلك النشرة الإخبارية، وفي التلفزيون القومي للسودان، يكرر أكثر من مرة نطق اسم المنطقة بطريقة خاطئة، فبدلًا من «سَيْتِيتْ»، كان المذيع يصر على قول «إسْتَيتْ»، ينطقها بنفس طريقة نطق الكلمة الإنجليزية «State»!! وهكذا ينتشر الاسم الخطأ، ليَحِلَّ محل الاسم الصحيح، وإنْ لم يكن الأمر مقصوداً، كما ذكرنا.

من أين جاء اسم الحَبَاب؟

الحَبَابُ (بفتح الحاء والباء الأولى) من الناحية اللغوية جَمْعٌ مفرده «حَبَابَة» على وزن سَحَابَة والجمع حَبَابٌ على وزن سَحَاب، وتعني الحَبَاب في اللُّغة الفقاقيع التي تطفو فوق الماء. يقولون: طفا الحَبَابُ على الشراب، وما أروع منظر الحَبَاب حين

---

(١) "أبْ دَرَقْ" وصف بالعامية السودانية يطلق على ثعبان سام له فراءٌ جميلٌ تعلوه نقاط بيضاء وسوداء.

(٢) "السُّومِيتْ" خرز أسود به نقاط بيضاء، وهنا تكتمل دقة الوصف لدى الحاردلو عندما يصف الثعبان "أبْ دَرَقْ" وكأنه يلبس وشاحاً من السوميت.

(٣) "أبْ رِسْوَا" من أسماء الأسد.

(٤) "كَاتَالْ" هي في الأصل "قاتال" بمعنى كثير القتال، والقاف تقلب كافاً (أحياناً) في عددٍ من لهجات البلدان العربية ومنها العراق والأردن وفلسطين والسودان، فيقولون مثلاً: "اكتلو" بدل " اقتله " و"وكت" بدل "وقت"، وهكذا.

يعلو الماء، عند حركته أو انسيابه، حيث يطفو الحَبَابُ أو فقاقيع الهواء في رشاقة، الواحدة بعد الأخرى. قال الشاعر الجاهلي: طرفة بن العبد:

يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيْزُومُهَا بها كما قَسَمَ التُّرْبَ المَفَايِلُ باليَدِ

والحَبَاب أيضاً تعني الندى أو الطَّل الذي يتكور على أوراق النبات كأنه حبات الجمان. أما الحِبَاب (بكسر الحاء أو بضمها) فتعني الودَّ والحبَّ والمحبة. والحَبَّابُ (بفتح الحاء وتشديد الباء الأولى) على وزن فَعَّال، تعنى الذي يكون كثيرَ الحُبّ والوُدّ للآخرين. يقولون: رجلٌ حَبَّابٌ وحَبُوبٌ، وامرأةٌ حَبَّابَةٌ وحَبُّوبَةٌ، بمعنى كثيرة المحبة تحب النَّاس ويحبونها، فهي آلفة مألوفة ومحبة محبوبة. وتعرف الجدة في اللَّهْجَة العامية السودانية بالحَبُّوبة لكونها محبوبة من كافة أعضاء الأسرة، أو هكذا ينبغي.

والحَبَابُ اسم يطلق منذ القدم على عدد من القبائل القحطانية في الجزيرة العربية. وهنالك في الوقت الراهن عدد كبير من قبائل الحَبَاب في اليمن خاصة في محافظة مأرب والوادي المعروف بوادي حباب. كما أنَّ هنالك تجمعات للحباب بنسب متفاوتة في العراق[1] والكويت والسعودية وقطر والإمارات وسلطنة عمان ويعرف الفرد منهم بالحَبَابي. وفي إشارة إلى هذا الوجود المترامي الأطراف في الجزيرة العربية، يقول أحد شعراء حَبَاب الجزيرة العربية المعاصرين (بالشعر النبطي):

إنَا مِنَّا الحَبَاب اللِّي لَهُمْ مَوقِف مَشْهُورْ نَضِدُ الحَرِيبْ ونَكْرِمُ الجَارْ والعَانِي
وَلاَ جِنَّا نُدَارِي غَلْطَة الخَاين الفَجُور نجَازِيه ونَضِدَّه ولو كَانْ مَا كَانِي
طَرَفْنَا وَرَى حَدَّ الرَّبُوعَه جَنُوبْ الطُّور وطَرَفْنَا وَرَى الأَسْيَاخ في سَاحِلْ عُمَانِي

---

(١) ذكر عمر كحالة في «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» أن الحَبَاب في العراق هم بطن من طارق أدهم، من عبد بن عليان بن أرحب، من الصعب بن دومان بن بكيل، من هَمْدَان، من القحطانية وقد هاجروا إلى الكوفة وهنالك فرع الحَبَاب من عشيرة المغرة الملحقة بعبدة، من شمر القحطانية ومنهم البكاط والسرحان والزُّبَيْدَات. كما ذكر أن هنالك حباب اليمن وهي قبيلة تقيم، بصفة أساسية، حول أبي عريش.

ولكن دعنا نلقي نظرة سريعة على التجمع الأكبر حالياً للحباب في الجزيرة العربية، والمتمثل في قبيلة الحبَاب القحطانية الموجودة في جنوب المملكة العربية السعودية. يرجع نسب هذه القبيلة إلى جدهم حباب بن عمرو بن عامر بن سنحان ابن يزيد بن حرب بن كعب بن علة بن جلد بن مالك (المعروف ـ هو وأخوه طَيْء ـ بمَذْحِج) بن أدَد بن زيد بن بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سبأ. وينقسمون إلى فرعين رئيسين هما:

(١) آل مسلم (وهم ابناء مسلم بن حباب ومنهم الرشدة وآل جميل).

(٢) الهوجة (ومنهم آل زربة وآل غراب وآل الجابر وجميعهم من نسل هويج ابن حباب).

وتقع بلاد الحبَاب «القحطانيين»[(١)] حالياً جنوب المملكة العربية السعودية، في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، شرق إقليم عسير. وتعتبر مدينة «الأمْوَاه» قاعدة بلاد الحبَاب منذ القدم، ومن أشهر مناطقهم وادي «تثليث» و«مرمى حَبَاب» و«وادي اللّجام»، ومن جبالهم المنيعة جبل «درع» وجبل «سنام» وجبل «بذيان»، ومن مناطقهم القديمة قدم التاريخ «وادي ثجر» الذي قال فيه الشاعر المشهور قيس ابن الملوح:

خَلِيلَيَّ إنْ حانَتْ وفَاتِي فارْفَعَا ... بِيَ النَّعْشَ حَتَّى تَدْفِنَانِي على ثَجْرِ

ويطيب لي في هذا الموضع أنْ أذكر بكل فخرٍ وإعزازٍ مؤرخ قبائل قحطان السيد/ محمد بن سعد النهاري، الذي أهداني نسخة من مؤلفه القيّم عن الحبَاب

(١) بعضهم يكتبها «القحطانيّن» بالشدة على الياء، ولكننا آثرنا أن نكتبها ـ هي وشاكلتها ـ بإثبات الياءين تأسياً بالرسم القرآني في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

بعنوان: «العرين بلاد قحطان، ماض وحضارة»[١]، فمن أراد معرفة المزيد عن الحَبَاب في الجزيرة العربية، عليه مراجعة ذلك الكتاب.

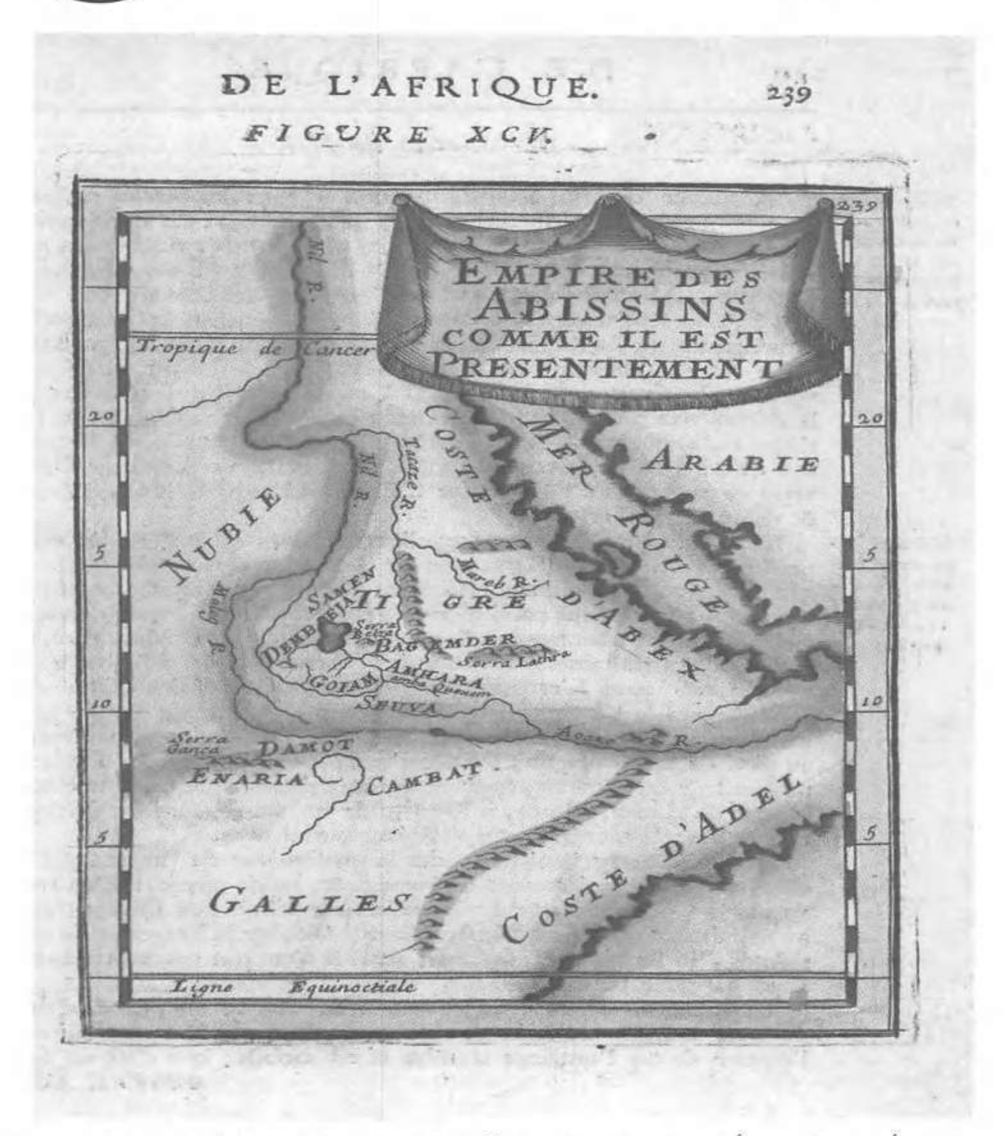
وعوداً إلى بَدْءٍ نقولُ: إنه رغم وجود قبائل في الضفة الشرقية من البحر الأحمر تحمل اسم "الحَبَاب" كما بيَّنا، لم نقف على مصدر معتمد يوضح لنا سبب اطلاق اسم «الحَبَاب» على قبيلة أخرى توجد في البر الأفريقي. هل الأمر هو نتاج طبيعي ومنطقي للهجرات المتوترة لقبائل الجزيرة العربية بما فيهم الحباب الى الضفة الأخرى من البحر الأحمر والتي كانت تعرف ـ حتى وقت ليس ببعيد ـ بمسمى "بر الحبش" أو "ساحل الحبش"؟؟. وبمعنى آخر: هل قبائل الحَبَاب في البر الأفريقي، هي امتداد لقبائل الحَبَاب القحطانية الموجودة إلى اليوم على الجانب الآخر من البحر؟ إننا لا نستطيع أنْ نجزم بصحة الأصل الواحد للأمتين، بَيْدَ أنَّنَا لا نستبعد، بل لا يوجد سبب منطقي يجعلنا نستبعد، وجود قواسم مشتركة دعت هؤلاء وأولئك إلى تبني نفس الاسم، وإطلاقه على أقوام يعيشون على ضفتي البحر، خاصةً وأنَّ الأمر لا يتقتصر على تشابه اسم اقبيلة فقط، بل إنَّ كثيراً من الأماكن، ومنها أودية[٢] وأنهار وجبال على طول السَّاحِل الغربي، تحمل نفس الأسماء لمناطق مشابهة لها على طول السَّاحِل الشرقي والسبب في ذلك معروف[٣].

---

(١) الطبعة الأولى ١٩٩٧، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(٢) يذكر بوركهارت Burckhardt أسماء المناطق التي مرَّ عليها أثناء رحلته من منطقة التاكا (كسلا) إلى ميناء سواكن في أواخر يونيو عام ١٨١٤م ومنها وادي «عسير» والذي يورد له وصفاً أشبه ما يكون بوادي عسير في الجانب الشرقي للبحر الأحمر؛ (انظر صفحة ٣٣٦ من كتاب: «رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان»، ترجمة: فؤاد أندراوس، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٧م).

(٣) كان المهاجرون من الجزيرة العربية عند حضورهم بر الحبش (البر الأفريقي) يطلقون نفس أسماء مناطقهم على المناطق التي يسكنونها، وهذا شيء طبيعي خاصة إذا أخذنا في الاعتبار التشابه بين المناطق التي أتوا منها والمناطق التي وصلوا إليها حيث إن التضاريس والمكونات الجغرافية لضفتي البحر الأحمر تكاد تكون متطابقة على امتداد ضفتي البحر.



خريطة أعدها الرسام: ألين مانيسون موليت Allain Manesson Mallet في عام ١٦٨٣م، وكما تلاحظ يظهر مسمى "بر الحبش" في كافة المنطقة المحاذية للبحر الأحمر من جنوب مصر وحتى باب المندب. وينبغي ملاحظة أنَّ كثيراً من الخرائط المعدة قبل النصف الثاني من القرن الثامن عشر تشير الى تلك المنطقة بمسمى «Coste d' Abex» باللغة اللاتينية ومسمى «Coast of Habash» بالإنجليزية.

هذا فضلًا عن العادات والتقاليد المشتركة وأدناها تزين الرجل بحمل السيف والجنبية ونزوعهم إلى قول الشعر في كل مناسبة. ولعله من المناسب أنْ أشير هنا إلى

ما حدَّثني به الباحث في التراث السوداني بصفة خاصة، والعربي بصفة عامة، الأستاذ: الأمين البدوي كاكوم، وملخص ما قاله هو إنَّه، وعقب محاضرة ألقاها في عام ١٩٩٢م، تعرف عليه باحث ياباني اسمه هيروشي ناواتا Hiroshi Nawata (الآن دكتور محاضر في جامعة كيوتو اليابانية)، كان مبتعثاً من مركز دراسات الشرق الأوسط في اليابان. وتوطدت العلاقة بينهما، وبعد حين طلب منه أصطحابه إلى البروفسير عبدالله الطيب ففعل. عند اللقاء بالبروفسير عبدالله الطيب، تطرق الحديث إلى مواضيع مختلفة منها قبور الإباضيين والأمويين في السَّاحِل الغربي للبحر الأحمر، خاصةً حول منطقة عقيق بشرق السودان. ثم أخرج هيروشي خريطة للبحر الأحمر بها تفصيل دقيق[١] للقرى والأودية والأنهار والجبال على ضفتي البحر الأحمر، والمفاجأة كانت أنَّ هيروشي قام بثَنْي أو طَبْقِ الخريطة بحيث تلتقي ضفتي البحر الأحمر مع بعضهما ثم أصبح يعدد لهما الأسماء المتشابهة بل والمتطابقة للأماكن على ضفتي البحر الأحمر، وقال الأستاذ كاكوم: إنَّ هذا الأمر كان شيئا مدهشاً بالنسبة له وللبروفسير عبدالله الطيب على السواء!!.

واذا عدنا إلى موضوع البحث، فإن الروايات المحلية تورد قولين بشأن تسمية قبيلة الحَبَاب. القول الأول: أنَّ اسم الحَبَاب يطلق على الأراضي الواقعة جنوب سواكن وشمال مصوع، وبالتالى كل من يسكنها هو من الحَبَاب. أما القول الثاني: فهو أنَّ التسمية تعود إلى أحد الأشخاص من بيت أَسْجَدَيْ[٢] (بيت الزعامة في

---

(١) وصفٌ «ميكروسكوبي» حسب قول الأستاذ كاكوم.

(٢) تنطق الدَّال في «أَسْجَدَيْ» بشيء من الإمالة، تماماً كما تنطق الدَّال في كلمة «day» في الإنجليزية. وكما ذكرنا في موضع آخر، فإنَّ كافة قبائل «حماسين» يبدأ اسمها بلفظة «بيت»، مثل «بيت أَسْجَدي» و«بيت جُوك» و«بيت أَشْحَقَنْ» و«بيت مَعْلا» ... إلخ، وهي قبائل يمانية هاجرت إلى «حماسين» كما هو معروف. وينبغي أنْ نشير هنا إلى أنَّ كلمة «بيت» كانت، منذ القدم، تُلْحَقُ باسم الجد من قبائل سبأ، ليشكل المقطعان «بيت» و«اسم الجد» اسم القبيلة فيما بعد، ومن ذلك مثلًا قبائل اليمن القديمة: «بيت أَسْلم» و«بيت خولان» و«بيت كرب» و«بيت حيقر» و«بيت رفح» و«بيت أقرع» و«بيت رفح» و«بيت ذانم» و«بيت شَهِير» و«بيت ابن ملجم»

الحَبَاب) وكان يعرف باسم حبيب (Habeeb)، أو حابب (Habib) ومن ثم امتدت التسمية لتشمل كل القبيلة. وفي هذا الشأن أورد كروفورد[١] نقلا عن سابيتو[٢] القول بأنَّ الحَبَاب اسمُ جمعٍ مفرده حبيب:

«Sapeto states that Habab was the plural of a personal name Habib, and that Habib was the father of ath-Mariam».

ويؤكد هذه الرواية السيد/ أنطوني دو أفري في الصفحة رقم ١٩ من كتابه «وثائق نقفا» قائلا: ليس هنالك ثمة شك في أنَّ السبب وراء ظهور الاسم الجديد

و«بيت خيام» و«بيت ثوب» و«بيت الورد» و«بيت ريب» ... إلخ. وبعض هذه المسميات الآن يرمز إلى الأماكن التى كانت بها تلك القبائل، حول صنعاء وصعدة على وجه الخصوص. إنَّ إلحاق كلمة «بيت» لاسم الجد، لترمز للقبيلة، هو تقليد عربي شائع منذ القدم. قال المؤرخ «شهاب الدين» أحمد بن يحيي بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) في كتابه: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، تحقيق الدكتور: حمزة أحمد عباس، طبعة ٢٠٠٢م، المجمع الثقافي، أبوظبي، الجزء الرابع، صفحة ٣٠٩، متحدثاً عن آل فضل (بطن من آل ربيعة من طيء السبأئية القحطانية): وقد صاروا بيوتا: «بيت مهنّا» بن عيسى، وأميرهم وأمير سائر آل فضل: أحمد بن مهنّا، و«بيت فضل» بن عيسى وأميرهم: سيف بن فضل، و«بيت حَارِث» بن عيسى وأميرهم قَنَاةُ بن حارث.

(١) انظر المقال الذي سطره (أو. جي. إس) كروفورد بعنوان "قبيلة الحباب" في المجلد رقم ٣٦ لعام ١٩٥٥ من مجلة: «السودان في رسائل ومدونات» ص. ١٨٣-١٨٧.

«The Habab Tribe» written by O. G. S. Crawford in the «Sudan Notes and Records", Vol. 36, 1955, Pages 183-187.

(٢) سابيتو «Giuseppe Sapeto» هو مبشر إيطالي عاش في الفترة من ١٨١١ وحتى ١٨٩٥م، وطاف بمنطقة شرق أفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بحثا عن فرص استعمارية. وفي عام ١٨٦٩م كلفته شركة «روباتينو» الملاحية الإيطالية بشراء قطعة أرض صغيرة في خليج عصب لاستخدامها كمحطة لسفن الشركة المتجهة من وإلى الهند، وزار قبيلة الحَبَاب في عام ١٨٥١م، وبعدها ألف كتابه المعروف باسم:

"Sapeto, Viaggio e missione cattolica fra i Mensa, i Bogos e gli Habab"; i. e (Travels and Catholic Mission Among the Mensa, the Bogos, and the Habab), Rome, 1857.

(حباب) كان جدهم حبيب (أبِيبْ)[١]. ويتطرق لهذا الموضوع بشيء من التفصيل في كتابه الآخر «ملوك البحر الأحمر» فيقول: في عهد أبِيبْ (الذي سماه حبيب أو حابب)، حدث خلاف بين ولديه مَفْلَس وتِمَارْيَام، في تقسيم غنائم كبيرة استولى عليها الحَبَاب، إثر غارة على الهَدَنْدِوَا في منطقة عدوبنا، وبسبب هذا الخلاف أعلن تِمَارْيَام انفصاله بمن يتبعه، واتجه من نقفا نحو الجنوب، بينما تبقى حبيب وابنه مَفْلَس وباقي القبيلة في نقفا وما يليها ناحية الشمال، ولهذا سمي هؤلاء القوم «حباب» أي أهل حبيب[٢].

وإذا صحت هذه الرواية فإنَّ "حبيب" المشار إليه في الفقرة السابقة هو الجد المعروف «أبِيبْ بن جَرْجِيس»، وهو ليس فقط والد تِمَارْيَام (كما يعتقد سابيتو) وإنَّما هو أيضاً والد مَفْلَس (جد كل من عَدْ[٣] هِبْتِيْس وعَدْ تَكْلِيْس)، وربّما لهذا السبب

(١) «أبيب» هو الشَّهْر الحَادِي عشر من السَّنة القِبْطِيَّة، ونعتقد ـ ولا نجزم ـ أنَّ اجتهاد سابيتو لم يكن موفقاً، لأن لسان الحباب لا يقلب حرف «الحاء» إلى «ألف» كما هو الحال في اللغات الحامية، كما أنَّ اسم «أبيب» يتسق مع بقية الأسماء الأخرى للحباب، وبالتالي فإن «أبيب» هو ليس «حبيب» وإنما اسم يوناني في الأصل وقبطي/ مسيحي فيما بعد وتسمى به الحباب نتيجة للثقافة التى كانت سائدة لديهم في ذلك الوقت كبقية أسمائهم.

(٢) راجع كتاب أنطوني دو أفري: «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق، صفحة ٤٩ - ٥٠.

(٣) إنَّ كلمة «عَدْ Ad» ستتكرر كثيرا في هذا البحث وهي بالحَبَابية تعني فريق أو حي أو عشيرة أو أهل أو مجموعة معينة من الناس تسكن مع بعضها، وهذا المعنى مشابه لما ذكرته مصادر اللُّغة ولهذا يقال: بنو فلانٍ ذَوُو عَدٍ وفَيْضٍ يُغْنَى بها. قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: العِدُّ «مُجْتَمَعُ الماء وجمعه أعداد وهو ما يُعِدُّه الناس فالماء عَدٌّ، وموضع مُجْتَمَعِهِ عِدٌّ»، واستشهد بقول ذي الرِّمة:

دَعَتْ مَيَّةَ الأَعْدادُ واسْتَبْدَلَتْ بِها خَناطِيلَ آجالٍ مِن العِينِ خُذَّلِ

(راجع صفحة ٧٩ من الجزء الأول من «كتاب العين» لمؤلفه الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال). وورد في قاموس «تاج العروس من جواهر القاموس» لمؤلفه: محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزُّبَيْدِي أنَّ «العِدَّ، بالكسر، موضع يتخذه الناس يجتمع فيه ماء كثير، والجمع «الأعداد»، الماء العد هو الجاري الدائم الذي له مادة لا تنقطع كماء العين والبئر». والعد بهذا المعنى كلمة شائعة في ربوع السودان المختلفة وكذلك في ربوع الحبشة مع إختلاف بسيط في النطق حيث إنَّ الأحباش الناطقين بالتِّجْرِينْيَا

يقال بالحَبَابية: إنَّ الحَبَاب هم «ثَلَتَ مَفْلَس تُوم»[١] أي أبناء مَفْلَس الثلاثة، حيث إنَّ تِمَارْيَام تزوج بَلْوَيتْ[٢] أم قَبْرِيْس (جَبْرِيْس[١] Gabrais بالجيم اليمانية) من

يضيفون إليها حرف الياء فينطقونها «عَدِّي Addi» ولهذا تجد عَدِّي قرات وعَدِّي قيح وعَدِّي نبري وعَدِّي وقري وعَدِّي قاضينا وعَدِّي خالا، وهكذا. وبما أنَّ مصدر الماء هو مصدر الحياة خاصة في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية، فإنَّ البئر هو مكان التجمع وربّما الإقامة الدائمة، وبهذا يتشكل الحي أو الفريق أو الحلة، ولهذا البئر ينسب القوم المالكين له أو الساكنين حوله. وبهذا المعنى نجد في السودان عددا من القرى منها قرية «عِدْ الطِّين» في ضواحي مدينة القضارف وقرية «عِدْ حسين» في ضواحي الخرطوم و«عِدْ الفرسان» و«عد الشول» و«عد الدوم» و«عد الحاج» وغير ذلك كثير. ومن هذا المعنى نشأ استخدام الحَبَاب لكلمة «عَدْ» للدلالة على حي أو قرية أو عشيرة معينة فيقولون عَدْ إدريس وعَدْ شِكَّر وعَدْ درقي وعَدْ مُعَلِّم وهكذا، مع ملاحظة أنَّ العين في «عَدْ» لدى الحَبَاب دائما مفتوحة بينما تكسر العين لدى عرب جهينة في نواحي السودان الأخرى وكلا الاستخدامين فصيح حيث قلنا: إن الماء عَدٌّ وموضع مُجْتَمَعِهِ عِدّ.

(١) أنظر ما ورد بشأنهم مثلاً في الصفحات رقم: ١٩٤، ١٩٨، ٢٠٤، ٢٦١، وخاصة صفحة ٣٣٧ وما بعدها، حيث تحدث E. Littmann عن بعض التفاصيل المتعلقة بـ "ثلث حباب" تحت عنوان: "The Three Maflas" وذلك في كتابه:
"Publications of the Princeton Expedition to Abyssinia", by Enno Littmann, published by Leyden, 1910, Volume II.

(٢) اسمها الأصلي هو «ست الملوك» بنت علي البلوي، واشتهرت بلقب «بلويت أم جَبْرِيْس»، وكذلك تعرف بالاسم المختصر «سِتِّل» وهو اسم شائع في القبيلة إلى اليوم. أمّا والدتها فهي (لم يؤكد لي أحد اسمها) بنت علي وَدْ مَعُو ، أحد الزعماء الأقوياء لقبيلة عَدْ دقدقي (دجدجي). كانت «سِتِّل» في البدء متزوجة من الشيخ محمد وهو جَدُّ عَدْ شيخ محمود (وجَدُّ عد درقي أيضاً)، وكان حديث عهد بالبلاد ولايعرف لهجة التجري أو لا يجيدها بالتمام، ويبدو أنه كان على خلاف مع زوجته هذه وكانت تقول له «كريني منك» والمعنى الحرفي لذلك هو «انزلني منك»، فلم يفهم المعنى واضطر لسؤال أحد اثنين من حوارييه فأجابه بأنها تقول لك «أنزلني على الأرض» فأصبح الشيخ محمد يرفع زوجته وينزلها كلما قالت له «كِرِينِّي مِنْكَ»، ولكنها لم تتوقف عن هذا الطلب فسأل حواره الثاني فأخبره قائلا له إن زوجتك تطلب بهذا القول الطلاق، فغضب الشيخ محمد على حواره الأول الذي لم يصدقه القول وطلق زوجته «بنت علي وَدْ مَعُو». ويبدو أنها كانت امرأة مزواجة فقد تزوجت خمسة رجال على الأقل منهم الشيخ محمد الذي ذكرنا قصته معها، ثم تزوجها كل من سالم وسليمان وصالح من ثلاث قبائل مختلفة هي عَدْ مُعَلِّم وعَدْ شيخ محمود وأبو القاسم، ثم تزوجها علي البلوي وولد منها ستَّ الملوك.

البَلَوْ[٢] القاطنين مع عَدْ شيخ محمود في زولا، وأنجب منها جَبْرِيْس (قبريس) ولذلك تعرف بـ «بَلْوَايِتْ أم جَبْرِيْس»، وهي امرأة يقال إنّها كانت صالحة وينسب إليها كثير من الأشياء التى يصعب تصديقها، وكان أبناء بيت أسْجَدَيْ يحلفون بها تعظيماً لمكانتها عندهم[٣]. المهم هو إنَّ تِمَارْيَام، وبعد ولادة جَبْرَيْس أختفى وظن الناس أنَّه قد مات، فَوَرِثَ زوجتَه (حسب العادة لديهم) أخوه مَفْلَس الذي ولد (من هذه الزوجة «بلويت») كلّا من هِبْتِيْس وتَكْلِيْس ونشأ جَبْرَيْس في كنف مَفْلَس كواحد من أبنائه.

أصول قبائل الحَبَاب:

مهما يكن سبب التسمية، فإنَّ الحَبَاب قبيلة كبيرة تضم بداخلها عدداً كبيراً من قبائل وبطون وعشائر وبيوتات مختلفة المشارب، ترجع أصول غالبيتها العظمى إلى اليمن، وعلى وجه الخصوص إلى قبائل سبأ ومنها: حِمْيَر (بن سبأ) وأحفاده[٤] من

(١) الاسم «جبريس» في أعتقادنا يعود إلى الاسم اليمني القديم «جابرس»، وهي مدينة عربية قديمة (ربما تكون سميت على أحد الأشخاص) وكان بها بقية قوم ثمود (راجع الجزء الأول من كتاب «تاريخ الرسل والملوك» للإمام الطبري).

(٢) ستتردد لفظة «بَلَوْ» كثيراً في هذا الكتاب وهي تعنى، باللَّهجة الحبابية، قبيلة «بَلِيّ» من قضاعة الحميرية المعروفة، وستحدث عن البَلَوْ بالتفصيل فيما بعد.

(٣) تقول نساء الحَبَاب لصاحبة أي منزل قلَّ الطعام فيه أو انعدم في بيتها: «تِكّتْ بلويت وِدَيْ Tikkat Balwaiet widai»، أي افعلي مثل ما كانت تفعل بلويت أم جَبْرِيْس. وفي هذا إشارة للقصة المشهورة عنها وعن صلاحها حيث يقال: إنّها كانت إذا انعدم أو قلّ الطعام في بيتها تضع سوارها المصنوع من الفضة والذي يعرف نوعه محليا بـ «تكتْ Tikkat» تضعه في الماء فيحسبه الأطفال لبنا ويشربونه ويحسون بالشبع فينامون!!. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أنّ في تراث الحَبَاب امرأتان لها مكانة عظيمة في نفوسهم وهما بلويت أم جَبْرِيْس التى تحدثنا عنها والشريفة حليمة «أم سيد ولت شيخ» وهي بنت شيخهم المعروف حامد نَافْعُوتَايْ وأخت شيخ الأمين، وأمها هي ملوك ولت بقار (أَلْمَدا).

(٤) حسبما ذكر ابن الكلبي فإن حِمْيَر كان له عشرة أولاد، وكان غالبُ قبائل اليمن من ابنيه: الهَمَيْسَع ومالك، والأخير هو وَالِدُ قُضَاعَة الذي جاءت منه بليّ «البلو».

قُضَاعَة التى منها بَلِيّ وخَوْلان وجُهَيْنَة[١] وكَلْب وبَهْراء وتَنُوخ ونَهْد ومَهْرة وجَرْم وحَضْرَموت[٢] بن حِمْيَر الأصْغر، وكَهْلان (بن سبأ) وأحفاده من هَمْدَان وجُذَام ولَخْم وكِنْده ومَذْحِج (مالك وطَيء) والأزْد وأنْمار. وهذه القبائل معروفة منذ القدم، ويشار إلى جزء منهم في كتب المؤرخين العرب بالأصَابح[٣] والأصبحيين (الأصبحيُّون)، وأحياناً يسمون بني «ذي أصبح»، وهؤلاء قوم من نسل حِمْيَر، وينتسبون إلى جدهم أصبح بن عمرو بن الحارث بن أصبح بن مالك بن زيد (الجمهور) بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك ابن زيد بن سدد بن زرعة وهو حِمْيَر الأصغر[٤] (جد قبائل حضرموت). ومن أعلام الأصبحيين المشهورين في الإسلام، إمامُ دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه.

وكما هو معروف فإنَّ قبائل الحِمْيَريين، بل وعموم السَّبَئِيين انتشروا في كل ربوع اليمن، وكان للأصبحيين على وجه التحديد، انتشار واسع بعد الإسلام في أقصي الطرف الجنوبي من اليمن مما يلي البحر الأحمر مقابل السَّاحِل الأفريقي، ولا سيّما في

---

(١) المفرد منهم «جُهَنِيٌّ» وهم أحفاد جُهَيْنَة بن زيد بن ليث بن سُود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة وهم قبيلة عظيمة لهم وجود يمتد إلى أقاصي السودان الغربي، ناهيك من شرقه.

(٢) يجب أن ننبه هنا إلى أنّ بعض المؤرخين (ومنهم أبن حزم) يزعم أنّ حضرموت هو بن قحطان وبعضهم يرى أنهم من االعرب البائدة. انظر ص ٤٤٨ من كتاب: «تاريخ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر» للإمام المؤرخ وعالم الاجتماع: أبي زيد وليّ الدين بن عبد الرحمن، الشهير بابن خلدون، تحقيق أبي صهيب الكرمي، طبعة بيت الأفكار الدولية.

(٣) أورد المؤرخ محمد صالح ضرار، في الصفحة ٧٨٩ من كتابه: «تاريخ شرق السودان، ممالك البُجَة، قبائلها وتاريخها»، الطبعة الأولى ١٩٩٢، الجزء الأول والثاني، نبذة عن الحَبَاب ذكر فيها (ربما بسبب خطأ مطبعي): إنَّ الحَبَابَ يقال لهم في «كتب مؤرخي العرب «الأصحاب» وهم لفيف من قبائل يمانية عبرت الشاطيء الشرقي». والأصح أنهم يسمون «الأصابح» وليس الأصحاب، وللأسف لاحظت أن بعض الناس أصبحوا ينقلون هذا الخطأ المطبعي وينشرونه في كتاباتهم عن الحَبَاب، فأرجو العمل على تصحيح ذلك.

(٤) «معجم البلدان» لمؤلفه: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، تصحيح: محمد أمين الخانجي مطبعة السعادة، مصر، سنه ١٩٠٦م، المجلد السابع، صفحة ٣٢٥.

منطقتي «أَبْيَن»[١] و«لَحَج» المعروفتين، حيث أشار الهَمْدَاني في كتاب «صفة جزيرة العرب» إلى أنَّ الأصبحيين كانوا ينتشرون في قرى متعددة في «أبين» منها «شوكان» و«خنفر» و«المضري» و«المصنعة» و«الجشير» و«الفقُّ» و«الشريرة» و«الروضة»، مشيراً إلى أنَّ قرى «أبين» كثيرة العدد يتوزع سكانها بين «بني عامر من كِنْدَة، وبين الأصابح من حِمْيَر»، كما أنَّ الأصابح كانوا منتشرين في منطقة «لحج» ومنها قرى «الحيَّب» و«الرُّعيض» و«الجوار» و«فور» و«الغبرا» في اتجاه مدينة عدن و«النشراحي» و«ذات الإقبال» و«الراحة» و«الرواغ».

ويجدر بنا أنْ نشير هنا إلى بطن من الأصابح كان يعرف بقبيلة «جيل Gail»، والجيم دائما يمانية، وكانوا كغيرهم يقطنون لحج كما ورد في الصفحة ٢٢٤ من كتاب «معجم قبائل العرب». ولقد لفت نظرنا أنَّه، وحتى اليوم، توجد في الحَبَاب أسماء تنسب إلى هذا البطن من الأصابح فيقال مثلا إدريس جيلي Gaili (والجيم دائما يمانية)، وعمر جيلي، وهكذا هنالك عوائل كثيرة في الحباب تحمل هذا الاسم. ونحن إذا نظرنا للواقع واستقرأنا التاريخ، نجد أنَّ منطقة شرق السودان عموماً، وأرض الحَبَاب على وجه الخصوص (لكونها تقع على السَّاحِل المقابل مباشرةً)، قد شهدت عبر القرون تدفقات بشرية متوالية من الجزيرة العربية، وخاصة من القبائل الحِمْيَرِيَّة القحطانية، التى تركز وجودها في الضفة المقابلة كما ذكرنا. ونذكر من الهجرات القديمة عبور قبائل حَبْشَتْ[٢] والأَجَاعِز (الجَعِيز Geez ، والجيم دائما يمانية) إلى شرق أفريقيا في عصور سحيقة.

---

(١) سميت محافظة أَبْيَنْ على اسم أَبْيَنْ بن ذي يقدم بن حِمْيَر بن سبأ، وتسكنها قبيلة آل فضل وهم نسل الفضل بن أحمد بن حيدرة من نسل حمير، وقبيلة يافع وهم بنو قاصد بن يافع من نسل الهميسع بن حِمْيَر وقبيلة المراقشة وهم نسل الكلاع بن شراحيل، من حِمْيَر أيضاً.

(٢) طبقا لما رواه ابن خُرْدَاذْبَه في صفحة ١٤٥ من كتاب: «المسالك والممالك» فإنه قد وُجِدَ مكتوباً على باب مدينة ظَفَّار «عاصمة حِمْيَر» ما يلي: لمن ملك ظفار، لحمير الأخيار، لمن ملك ظفار، لحَبْشَتِ الأشرار.

وبالرغم من إنني في زماننا هذا (٢٠١٤م) لم أسمع أحداً من الحباب يزعم أنَّهم من "الجعيز" أو "الأجاعزيان" إلاَّ أنَّ جيمس بروس، عندما طاف بشرق إفريقيا قبل أكثر من ٢٤٠ عاماً من الآن (في الفترة من ١٧٦٨ وحتى عام ١٧٧٣م)، ذكر أنَّ القوم الذين يؤكدون انتماءهم - في ذلك الوقت - للأجاعزيان هم "البدو الذين يقيمون في جبال الحباب":

«The people assert themselves at this day to be Agaazi, that is a race of Shepherds inhabiting the mountains of the Habab».(1)

لقد أفرد جيمس بروس الباب الثاني من الجزء الأول من كتابه "رحلات لاكتشاف منابع النيل" لأقوام من البدو السبأيين Sabeans ـ أو ما يعرف لدى المؤرخين الغربيين عموماً بمسمى الرعاة Shepherds ـ الذين استقروا وسط الكوشيين في الساحل والجبال من الجانب الآخر للبحر الأحمر، ويقول في الصفحة ٣٨٤ إنَّ منتجات الكوشين (من الذهب) كانت تحتاج لمن ينقلها لتسويقها خارج منطقتهم، ووجد الكوشيُّون (حسبما يفهم من كلام جيمس بروس) ضالتهم في جيرانهم البدو السبأيين. ثم يحرص جيمس بروس على توصيف هولاء البدو السبأيين بقوله إنهم يختلفون تقريبا في كل الأصعدة عن العناصر الأخرى من حولهم، ويحدد بعض قبائل السبأيين ومنهم الحباب والبلو:

«These were in most respects different, as they had long hair, European features, very dusky and dark complexion, but nothing like the black-moor or negro; they lived in plains, having moveable huts or habitations, attended their numerous cattle, and wandered from the necessities and particular circumstances of their country. These people were in the Hebrew called Phut, and, in all other languages, Shepherds; they are so still, for they still, exist; they subsist by the same occupation, never had another, and therefore cannot be mistaken; they are called Balous, Bagla, Belowee,

---

(1) «Travels to Discover the Source of the Nile, in the Years 1768, 1769, 1770, 1771 1772, and 1773» By James Bruce, Printed in Five Volumes in Edinburgh in 1790 [M.DCC.XC] by J. Ruthven, for G. G. J. and J. R., Paternoster-Row, London, Vol. 1, p. 387.

Berberi, Barabra, Zilla and Habab, which all signify but one thing, namely that of Shepherd».[1]

ولا أحد يستطيع أنْ يجزم متى بدأت الهجرات الجماعية للسبأيين الى شرق أفريقيا، ولكن من المؤكد أنَّ انهيار سد مأرب قد أعقبه نزوح جماعي للقبائل «السَبَأ - حِمْيَرِيَة»[٢] إلى البلدان والأقاليم المجاورة[٣]. فقد خرجت قضاعة من موطنها في اليمن، وتفرعت إلى قسمين أحدهما يمّم شطر الشمال ليستقر في سواحل تِهَامَة وهضبة عسير وجبال الحجاز حتى حدود ينبع ويثرب، ومن ذلك تفرعت الأوس والخزرج وعموم قبائل جهينة. أمَّا القسم الثاني فقد عَبَرَ البحر الأحمر، وتفرق في «بر الحبش» أو ما كان يعرف ببر العجم، أو بر الزنج أو بر البربر أحيانا، واستوطنوا على وجه الخصوص المنطقة الممتدة من مصر- السفلى الى باب المندب بما فيها شرق السودان الحالي.

(1) Ibid, p. 386.

(٢) إن وصف «سبأيين» يشمل كافة نسل سبأ وجميع شعب قحطان وإن كان الحميريون قد نالوا شهرة أعظم حتى بدا كأنهم شعب منفصل، قائم بذاته. قال الزركلي في كتاب «الأعلام»: إنَّ بني سبأ كلهم يقال لهم السَّبَئِيُّون، إلاَّ حيراً وكهلان، فان القبائل قد تفرقت منهما، ومن قال إنه سبئي {فقط} فليس بحميري ولا كهلاني وإنما هو من أبناء سبأ الاخرين.

(٣) تعتبر القبائل السَبَأ- حِمْيَرِية أكبر القبائل العربية، على الإطلاق، في الوقت الراهن. فبالإضافة إلى القبائل التى تنتسب اليهم في شرق أفريقيا (مصر والسودان وإرتريا والحبشة)، تنتشر القبائل السبأ- حِمْيَرِية في كافة ربوع اليمن والجزيرة العربية عموما، من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، فضلا عن انتشارهم في شمال أفريقيا مرورا بالطوارق في الصحراء الكبرى وصنهاجة في بادية الجزائر والمغرب حتى أقصى الغرب في موريتانيا. وعلى سبيل المثال لا الحصر، تنتمي إلى سبأ - ولاسيما إبنيه حِمْيَر وكهلان - أكبر وأشهر قبائل اليمن حاليا (٢٠١٤م)، ومنهم مَذْحِج وحاشد وبكيل والعوالق والمهرة ونهد والحضارمة عموماً. واليهم تنتمي قبائل كبيرة تنتشر في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، والأقطار العربية عامة، مثل شَمَّر وحرب وخَوْلان وبليٍّ وجهينه وبنو زيد إلى أن تصل إلى الهوارة في مصر والورفلّه في ليبيا وصنهاجة وكتامة في الجزائر وبنو حسان في موريتانيا، خلق كثير لا حصر لهم، ولمعرفة المزيد في هذا الشأن راجع كتاب «تاريخ ابن خلدون».

ومن الثابت المقطوع به، أنَّ جماعاتٍ كبيرةً من بطون قضاعة، وبالذات قبيلة بَلِيّ «البَلَو»، قد استقرت وسط البُجَة، واستوطنت شرق السودان منذ مئات السنين قبل الميلاد. ومن اللافت للنظر أنَّ هجرة قضاعة إلى المنطقة لم تنقطع حتى بعد ظهور الإسلام، حيث نجد أنَّ بطوناً كثيرةً من جهينة[1] قد تحركت من مناطقها في ينبع وما حولها، ووفدت في مجموعات كبيرة إلى السودان الشرقي، وكل ذلك عبر البحر الأحمر، وخاصة عن طريق باب المندب[2]، ويشكلون الآن جزءاً من النسيج الاجتماعي لسكان شرق السودان، ونذكر منهم قبيلة لعبت دوراً خطيراً في تشكيل السودان الحالي ناهيك عن شرق السودان، وهي قبيلة القواسمة التى منها العبدلاب الذين، بالتحالف مع الفونج، كونوا نواة أول دولة سودانية ذات توجه عربي واسلامي، ومكنوا لبقية العرب من جهينة وغيرها من الانتشار في أنحاء السودان الواسعة، بعد أبعاد العَنَجْ «وهم قبائل البازا والباريا في نظري»[3] من الحكم في المناطق

(١) يقول ابن خلدون في مقدمته (صفحة ٤٤٩)، متحدثا عن جهينة (وهم أبناء عمومة البلو): «فجهينة ما بين الينبع ويثرب إلى الآن في متسع من برية الحجاز وفى شمالهم إلى عقبة إيلة مواطن بليّ وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القُلْزُم وأجاز منهم أمم إلى العدوة الغربية وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هنالك سائر الأمم وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد». انتهى كلام ابن خلدون، ويقصد بقوله «هذا العهد»، نهاية القرن الرابع عشر الميلادي.

(٢) يضيق عرض البحر في باب المندب إلى درجة تتقلص فيها المسافة بين الجزيرة العربية وسواحل شرق أفريقيا إلى عشرة أميال فقط، مع وجود جزر في ذلك الممر البحري بها ماء صالح للشرب، وهذا وضع شجَّع، على مر العصور، توالي الهجرات والانتقال بين جانبي البحر عبر هذا المضيق.

(٣) بدليل ما يردده أهل البطانة وشيوخ الشكرية الذين يقولون إنّهم ورثوا البطانة من «العَنَج»، وهو اسم يقصد به القوم الذين كانوا منتشرين في المنطقة (شرق النيل الأبيض وحتى تخوم الحبشة) قبل قيام حلف الفونج والعبدلاب. وإذا استقصينا ما كتبه المؤرخون من أسماء القبائل وصفات سكان المنطقة الواقعة شرق النيل في الفترة التى سبقت انهيار دولة علوا وظهور سلطنة الفونج، ندرك أنَّ ما ذكروه من أسماء وصفات تنطبق بالحرف على البجة المتاخمين لدولة علوا وعلى وجه الخصوص الباريا والبازا، وبالتالي فإن العنج ما هو إلاَّ اسم من الأسماء التى كانت تطلق على البجة الجنوبيين. يقول اليعقوبي متحدثا عن البازين (وهم البازا): «بازين: وهم يتاخمون مملكة

الواقعة حول النيل الأزرق حتى سوبا. والقواسمة (قيل إنَّهم فرع من رفاعة) قبيلة منتشرة في شرق السودان ووسطه، ولهم وجود مقدر في إثيوبيا (جبال بني شنقول).

علوا من النوبة، ويتاخمون بَقْلِين من البُجَة، ويحاربون هؤلاء، وزرعهم الذي يأكلونه [فراغ في الأصل]، وهو طعامهم واللبن». ويقول المقريزي في كتاب «المواعظ والاعتبار»، الجزء الأول، باب «ذكر البجة ويقال إنهم من البربر»: «وجنس يقال لهم: بازة يأتي من عندهم طير يعرف بحمام بازين، ويعد هؤلاء أوّل بلاد الحبشة، ثم النيل الأبيض، وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن». وأشرنا في موضع آخر إلى قول ياقوت الحموي: «بازه ـ بزيادة هاء في آخرها ـ بلد بأرض السودان وراء سواكن يذكر مع نافة، يجلب منه الحمام البازي إلى مَكَّةَ شرفها الله». أما الباريا فوجودهم في المنطقة قديمٌ قدم التاريخ. فقد ورد ذكرهم في نقش ملك أكسوم «عيزانا»، في القرن الرابع قبل الميلاد، باعتبارهم من ضمن السكان المجاورين لمملكة مروي في أواسط السودان. وتوالى ذكرهم بعد ذلك باعتبارهم فصيلًا من أمة البجة. لذلك يجب ألاَّ يستغرب أحدٌ من كوننا وصفناهم بأنهم قبيلة بجاوية، وذلك بغض النظر عن الاستعلاء الذي يمارسه البعض، فهنالك شواهد تاريخية كثيرة تدل على أن الباريا هم من أقدم السلالات البشرية في منطقة شرق إفريقيا. فقد ذكرهم ملك أكسوم «عيزانا» بالاسم، وورد ذكرهم في كثير من المراجع القديمة على اعتبار أنهم جزء أصيل من البُجَة ومن هولاء المسعودي (توفي عام ٣٤٦هـ)، وابن حوقل (توفي عام ٣٥٠هـ) الذي قال عنهم في كتابه «صورة الأرض» متحدثا عن قومية البُجَة: «وفي شق بركة (وادي بركة) قبائل كثيرة تعرف ببازين وبارية، وهم أمم كثيرة». وقد انتشر الباريا في كافة المنطقة، ولاسيّما شرق السودان، ولا يكاد يخلوا التراث القبلي للبجة من ذكر الباريا، ونعتقد إنّهم المعنيون بالوصف الذي أورده اليعقوبي في تاريخه عن مملكة جارين البجاوية حيث قال: «والمملكة الرابعة يقال لها: جارين، ولهم ملك خطير، وملكه ما بين بلد يقال له: باضع، وهو ساحل البحر الأعظم إلى حد بركات من مملكة بَقْلِين، إلى موضع يقال له: حل الدجاج، وهم قوم يقلعون ثناياهم من فوق وأسفل، ويقولون: لا يكون لنا أسنان كأسنان الحمير، وينتفون لحاهم»، وكما هو معلوم فإن بعض القبائل النيلية ما تزال تمارس عادة قلع الثنايا. ويبدوا أنه بعد تزايد أعداد العناصر السامية وتنامي سيطرتهم، بدأ الباريا في الهجرة جنوبا حيث نزح قسم كبير منهم من الحبشة إلى جنوب السودان قبل سبعة قرون تقريبا، وأطلقوا مسمى «جوبا» على منطقة عاصمة جنوب السودان الحالية، ربما تخليداً لذكرى نهر جوبا الذي كانوا يقيمون حوله في الحبشة. ويشكل الباريا حاليا ثاني أكبر مجموعة في جنوب السودان من حيث العدد. هذا وقد تبقت منهم جيوب في منطقة البُجَة، وخاصةً حول جبال هيكوتا وبارنتو في إقليم القاش بإرتريا.

كذلك تنتمي لجهينة قبيلتان منتشرتان في شرق السودان، وهما قبيلة الشكرية[١] وقبيلة رفاعة (بقسميهم رفاعة الشرق ورفاعة الهوى).

ولم تقتصر الهجرة إلى المنطقة على القبائل الحِمْيَرِيَّة، بل شهدت هجرات متوالية لقبائل عدنانية، حيث عبرت مجموعات مقدرة من ربيعة ونزار في وقت مبكر إلى شرق أفريقيا، واستقرت وسط البُجَة كما ذكر المسعودي وغيره. يقول المؤرخ شهاب الدين أحمد النويري: نزلت البُجَة «بين بحر القُلْزُم[٢] ونيل مصر. وتشعبوا فرقاً وملكوا عليهم «كلوكاص»، وفي أرضهم معادن الذهب. قال: وانضاف إلى البُجَة طائفة من العرب من ربيعة بن نزار ابن معد بن عدنان وتزوجوا من البُجَة»[٣].

ونُشيرُ هنا إلى انتقال أسلاف الكَوَاهْلَة (نسل كَاهِل بن عابد بن يحي بن عبدالله ابن الزبير بن العوام) عَبْرَ البحر الأحمر، إلى المنطقة بعد أنْ ضيق عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي وقتل عبدالله بن الزبير في مَكَّةَ، حيث استقروا، في بادئ الأمر، في شرق السودان وتخوم الحبشة، لتخرج منهم قبائل كبيرة في البُجَة مثل: (الأمارأر

(١) بعض المراجع تنسب الشكرية الى جهينة – عرب الجنوب القحطانيين – وهذا ما اعتمده السير هارولد ماكمايكل والدكتور يوسف فضل. وفي هذا السياق يقول البروفيسور عون الشريف قاسم في "موسوعة القبائل والأنساب" إنَّ القبائل التي تنتمي إلى جهينة تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية وذكر منهم الشكرية. وهنالك من يضعهم في المجموعة العباسية-الجعلية، ولكن الشكرية أنفسهم ينتسبون الى جدهم شكير بن ادريس الذي ينتهي نسبه الي الكرار بن عبدالله الجواد بن جعفر بن ابي طالب.

(٢) المقصود ببحر «القُلْزُم» هو البحر الأحمر، وقد سُمِّيَ بذلك تبعاً لميناء قديم على ساحله كان يعرف بالقُلْزُم. ذكر المقريزي في الجزء الأول من كتابه: «المواعظ والاعتبار»، فقرة «ذكر الخلجان التي شقت من النيل»، إنَّ مدينة القُلْزُم كانت توجد على شاطئ البحر الأحمر (شرقي مصر) في الموضع «الذي يعرف اليوم على البحر بالسويس، وكان يصب ماء النيل في البحر من عند مدينة القُلْزُم إلى أنْ أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بطمّه في سنة خمسين ومائة» هجرية.

(٣) صفحة ٢٢٥ من الجزء الخامس عشر من كتاب: «نهاية الأرب في فنون الأدب» لمؤلفه شهاب الدين أحمد النويري، تحقيق: مفيد قمحية وآخرين، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

والبشاريين والكميلاب وعَدْ دِرْقِي وأبناء عمومتهم عَدْ شيخ محمود وغيرهم)، ثم انداحوا إلى داخل السودان لينتشروا في البلاد، طولاً وعرضاً، من حَلاَيِب إلى داخل حدود مصر (العَبَابِدَة)، وشقُّوا أرض البُطَانَةِ، غرب نهر أتْبَرَا، لتملأ قبائلُهم أرض الجزيرة ما بين النيل الأزرق والنيل الأبيض (الحَسَّانِية والحُسْنَات) بل وانتشروا حتى شمال كردفان، ليشكل الكَوَاهْلَة بذلك أكبر قبيلة عربية في السودان. كذلك فإنَّ المنطقة شهدت نزوحاً آخر كبيراً للعدنانيين، تمثل في هجرة فرقة كبيرة من عرب هوازن عبرت البحر الأحمر إلى المنطقة، حيث استقرت هذه الفرقة أولًا في جبل قَدَمْ (بالقرب من مصوع) في إرتريا، ثم عبرت إلى منطقة «حلانقيت»[1] في إقليم التجراي باثيوبيا ، ثم تابع قسم منهم نهر القاش ليستقروا في كسلا ويشكلوا قبيلة «الحَلَنْجَا»[2] البجاوية الحالية. ونشير كذلك إلى هجرة مجموعات عدنانية أصغر حجماً، حيث يكوّن الأشراف حالياً (بما فيهم الأرتيقا وفرعهم الذي يسمى «الحمران»)، مجموعة مقدرة من سكان شرق السودان. هذا فضلا عن الأسر الدينية التى ما انفكت تفد إلى المنطقة من الحجاز، والتى تحولت بمرور الزمن، إلى قبائل كبيرة، ومنهم الفايداب (آل الشيخ محمد وَدْ فايد)، وعَدْ مُعَلِّم، وأبُو القاسم، وعَدْ شَيْخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ، وعدد كبير من المشايخ وأصحاب الطرق الصوفية، ومنهم آل الميرغني، وآل الشيخ الحفيان[3] وغيرهم كثير. ومن الهجرات الجماعية الضخمة

(١) يجب أن تكتب «حلانجيت» بالجيم اليمانية.

(٢) البعض يكتبها «الحلنقة» أو «الحلنقا»، وأحياناً «الحلانقة»، والأصح أن تكتب ««الحَلَنْجَا Halanga»»، بالجيم اليمانية، وذكرنا في موضع آخر من هذا الكتاب أنَّ الأحباش والبُجَة يتِّبعون اليمن في نطقهم للجيم، و«حَلَنْجَايْ» هي كلمة حبشية تعني «السَّوط»، ويقال إنَّ الأحباش أطلقوها على «الحَلَنْجَا» لكونهم كانوا يحملون السياط.

(٣) هو الشيخ: علي محمد العجيل محمود إدريس الشهير بالحفيان، وهو قرشي النسب من جهة الأب وأمَّا والدته فهي فاطمة بنت موسى، من قبيلة بيت معلا، وله أقارب في أرض الحَبَاب. هاجر من الشرق إلى وسط السودان الحالي بعيد وفاة السيد هاشم الميرغني في مصوع في عام ١٣١٩ هجرية، وما زال أحفاده ينشرون علوم القرآن بمسجدهم الكائن جنوب شندي بديار الجعليين (مَسِيد الحَفْيَان).

للقبائل العدنانية في الآونة الاخيرة، هجرات قبائل الرشايدة، وهي من القبائل التي أتت إلى المنطقة في حدود المِائَة[١] وخمسين عاماً الماضية.

مهما يكن من أمر، فنحن الآن بصدد قوم هاجروا قديماً من مواطنهم الأصلية في اليمن إلى الهضبة الحبشية، والتي تُعرف عامةً بمنطقة «كَبَسَا»، واستقروا هنالك فترةً غير معلومة من الوقت. ويجدر بنا أنْ ننوه هنا إلى أنَّ اسم «كَبَسَا» هو إشارة عامة للمرتفعات التي تقع على الجانب الشمالي من الهضبة الحبشية، ويقال إنَّ أجداد بيت أسْجَدَيْ كانوا مستقرين في منطقة صِنِعْ دَجْلي Szeni Degle في اقليم أكلوجوزاي Akkele Guzai (الجيم في كلا الاسمين يمانية)، والذي يقع حالياً في إرتريا، ومن ثم هاجروا قليلًا إلى الشمال، حيث استقروا في منطقة «عَدِّي نَفَاسْ»، جوار أسمرا الحالية، وكل هذه المناطق المرتفعة تعرف عند الحَبَاب بمسمى «كَبَسَا». وطبقاً لما ذكره أنطوني دو أفري[٢]، نقلًا عن المؤرخ الإيطالي بوليرا (Pollera)، فإنَّ أسرة صِنِعْ دَجلي (جد بيت جُوك وبيت أسْجَدَيْ وأخوانه) الاستقراطية كانت مستقرة في منطقة «كارنشيم Carneshim» الغنية، في إقليم «حماسين Hamasein»، قبل الهجرة إلى السَّاحِل.

ويذكر المؤرخون أنَّ هذه الهجرة كانت في نهاية القرن الخامس عشر[٣]، حيث

---

(١) رغم أنَّ البعض يكتبها «مئة» إلاَّ أننا نؤثر أن نكتبها «مائة» كما هو الحال في كثير من آيات القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

(٢) راجع الصفحة ٦ من كتاب أنطوني دو أفري «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق.

(٣) طبقاً لما نقل عن كَنْتِيبَايْ حسن وَدْ محمود فإنَّ نزول بيت أسْجَدَيْ من كَبَسَا إلى السَّاحِل كان في عام ١٣٨٠م، بينما يرى آخرون أنَّ هجرتهم كانت في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. انظر مثلا ما ورد في كتاب: «Le popolazioni Indgene Della Colonia Eritrea» الصادر في عام ١٩٣٥م، للكاتب الإيطالي Alberto Pollera، ويمكن الاطلاع على النسخة المترجمة إلى اللُّغة الانجليزية بعنوان:

The Native Peoples of Eritrea, by Alberto Pollera (Author), Linda Lappin (Translator), November, 2001.

تحرك فوج ضخم، مكَّون من عدد من قبائل الحماسين، من كَبَسَا إلى السَّاحِل بقيادة أسْجَدَيْ بن بِيْمْنَتْ بن حَدَنْبَسْ (البعض ينطقه "حَدَمْبَسْ"). وكان بصحبة أسْجَدَيْ في هذه الرحلة والده "بِيْمْنَتْ"، وكان متقدما في السِّن، وعمه جِبِيْرُوك وَدْ حَدَنْبَسْ (جد بيت جُوك)، وعمه الآخر دَرْمَاس وَدْ حَدَنْبَسْ، فضلاً عن إخوانه أَتْكَمِيْ وبَحَايْلاَيْ[١] وقِعْدَاد. وحضر معهم من كَبَسَا عددٌ كبيرٌ من قبائل حماسين منهم[٢] بَقِلْ هَبْ، قَهَاد (جَهَاد)، كَرُوش، كفْلاي، شوار، قَشِّي- هارون، تابُوت، زَاقِر (زاجر)، زين[٣]، كازين، دنجين، سلونى، رده جاماي، تقر، عَدْ عنجه، رسحه، قرعنته، جرنو، دنباي، أجواي، وران، أبساطر، مسكوت، جنيفرو، هابات، حِدَارَبْ، فاقدو، بالع، تسفا جَرْجِيس، هياب، جوريتا، وبعض هذه القبائل موجودة إلى اليوم وتحتفظ بنفس الأسماء.

استقر هؤلاء القوم في منطقة السَّاحِل، وبالتحديد في سفح جبل «رورا حباب» حيث تقع «أمزلال» بالقرب من مدينة «نقفا» الحالية، والتى لم تكن موجودة في ذلك

ومما يجدر ذكره هنا أن الكاتب البريطاني كروفورد (O. G. S. Crawford) قد ذكر في كتابه: «مملكة الفونج السِّنَّارية»، صفحة ١٥٠، إنَّ هجرة أجداد بيت أسْجَدَيْ إلى السَّاحِل لا بد أنها قد حدثت قبل عام ١٤٨٢ ميلادية، وأن ظهور الحَبَاب كقوة في المنطقة كان في حدود عام ١٥٠٠ ميلادية. ويشير إلى أن ظهور الحَبَاب في السَّاحِل في تلك الفترة ربما كان السبب في انتقال الفونج من السَّاحِل إلى النيل الأزرق؛ راجع كذلك البحث الذي كتبه كروفورد عن الحَبَاب عام ١٩٥٥م في مجلة: «السودان في رسائل ومدونات»:

Sudan Notes & Records, Vol. 36, 1955, Khartoum, Pages 183-187.

(١) بعضهم ينطقها «بِحِيلَّيَايْ» وبعضهم ينطقها «بِحِيْلاَيْ»، ومنهم الكونت روسيني الذي كتبها «Behaylay»

(٢) نقلا عن القاضي إدريس محمد نصرالدين - أخ الشيخ محمود محمد نصرالدين شيخ قبيلة عَدْ تَكْلِيس - حسبما ورد في كتابه غير المنشور والمسمى: «كتاب نسبة البيت أسْجَدَيْ وحكاياته وعوايده»، هكذا هو العنوان!!.

(٣) ما تزال حتى اليوم في كَبَسَا، وخاصةً في منطقة كارنيشيم Karneshim التى توجد بالقرب من أسمرا وعدي نفاس، قرى تحمل اسم زاجر Zagir وزين Zein.

الوقت، وبذلك تكونت نواة قبيلة الحَبَاب من قبائل الحماسين التى جاءت مع أسْجَدَيْ من «كبسا» كما سنوضح بالتفصيل لاحقاً. ثم توسعت الحَبَاب فيما بعد لتشمل حلفاً يتضمن عدداً أكبر من القبائل العربية التى كانت مستقرة مسبقا في ساحل البحر الأحمر، بحيث أصبح هذا الحلف يربو في جملته على أربعين قبيلة. ونورد هنا نقلًا عن المؤرخ محمد صالح ضرار[1] أسماء قبائل الحَبَاب حتى عام ١٩٤٧م، مع بعض الإضافات والتوضيحات من عندي:

١- بيت أسْجَدَيْ (وإخوانهم: أتْكَمِيْ وبَحَايْلاَيْ وقِعْدَاد).
٢- عمدوي.
٣- جوريتا.
٤- واطوت.
٥- بقل لهب (بَقِل - بالقاف المرققة).
٦- أسْفَدَا.
٧- دقدقي (يجب أن تكتب "دَجْدَجي" بالجيم اليمانية).
٨- دوبعات.
٩- أَلْمَدا (وهم سبعة أفرع [2] من نسل محمود أَلْمَدَايْ).
١٠- قنتاي (جَنْتَاي - بالجيم اليمانية).
١١- ميكال.
١٢- كادين (كازين).
١٣- مران.

---

(١) راجع كتاب: «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا» لمؤلفه: محمد صالح ضرار، نشر الدار السودانية، الطبعة الثانية ١٩٩١، صفحة ٧٦.

(٢) محمود أَلْمَدَايْ خلف سبعة أبناء شكل كل منهم قبيلة بذاتها وهم: (١) ظاوراي - واسمه حسن - أحفاده فرع ظاورا (٢) قَيَآيْ - واسمه حسين - أحفاده فرع عَدْ قَيِي، وحسن وحسين هما شقيقان من أم واحدة، (٣) أجدوباي (بالجيم اليمانية) - واسمه عمر. أحفاده فرع أجْدُوب (بالجيم اليمانية)، (٤) حظوراي - واسمه حامد، والبقية هم: (٥) ظارجيلي (٦) أَمُوراي و (٧) كبيراي.

١٤- بيت كَبّي.

١٥- حرابسو.

١٦- أتلل.

١٧- رقبات (رِجْبَات- بالجيم اليمانية).

١٨- نبب.

١٩- سبحانو.

٢٠- كنكنا.

٢١- أبي أو (أباي).

٢٢- ستبو.

٢٣- سكبو.

٢٤- أقلمبا (أجْلِمْبَا - بالجيم اليمانية).

٢٥- تقر (تَقَر - بالقاف المرققة).

٢٦- سلوين.

٢٧- قوين (جُوَيْن - بالجيم اليمانية).

٢٨- دنقين (دِنْجَين - بالجيم اليمانية).

٢٩- دين (زين).

٣٠- زاقر (زَاجِر - بالجيم اليمانية).

٣١- سب لعاليت (أساورتا).

٣٢- دنكلي.

٣٣- أسبرا.

٣٤- توات.

٣٥- تلا.

٣٦- سأبور.

٣٧- نيري.

٣٨- موريتي.

٣٩- حزو.
٤٠- بني هلبة (هَلْبَكْسَا).
٤١- البراطيخ [١] (فرع من الرشايدة).

هذه القبائل وغيرها كانت تعرف بالحَبَاب، وظلت القبيلة منذ بداية القرن السادس عشر تقريباً، تخضع لإدارة موحدة برئاسة زعيم واحد يطلق عليه لقب «كَنْتَيْبَايْ»، واستمر هذا الوضع حتى بعد تقسيم الحدود وظهور الدول بحيث أصبح للحباب كَنْتَيْبَايْ في إرتريا وكَنْتَيْبَايْ في السودان. وضمن هذه الكيانات المتنوعة تأسس للحباب كيان قوي، وتوسعت القبيلة، خاصة بعد إزاحتهم للفونج من حوض عنسبا (عين سبأ)، وتعاظمت سلطة الحباب منذ النصف الأول من القرن السادس عشر [٢] وحتى قبيل استفحال السيطرة الاستعمارية في نهاية القرن التاسع عشر. وأصبحت الأرض الممتدة جنوبا إلى وادي أدهرا في بادية مصوع، وشمالا حتى بادية سواكن، وشرقا إلى البحر الأحمر، وغربا إلى حدود سنحيت وتلال كرن وجبال هجر وتقدرا، كلها أضحت خاضعةً لحكم كَنْتَيْبَايْ الحَبَاب ، وأصبح هذا الشريط السَّاحِلي الممتد بمحاذاة البحر الأحمر والجبال الممتدة بامتداده يعرف بأرض الحَبَاب، وكل من ينتمي لهذه المنطقة كان يوصف بالحَبَابَايْ (وتعني الحَبَابِي بلهجة الحباب) حتى إنَّ الرياح التى تأتي من تلك الأنحاء كانت تعرف بالحَبَابَايْ، وتحرفت هذه الكلمة فيما بعد إلى «الهبباي Hababai»، كما ذكرنا. وقد اتسع نفوذ الحَبَاب، خاصة عندما تولى كَنْتَيْبَايْ حامد بك عرش الحَبَاب في حوالي عام ١٨٧٥م، فأصبح يتعامل مع جيرانه كرجل دولة، وليس كزعيم قبيلة [٣].

---

(١) انظر الصفحة (٨) من كتاب «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق.

(٢) راجع المقال الوثائقي الذي كتبه «أو. جي. سي.» كروفورد في المجلد رقم ٣٦ لعام ١٩٥٥ من مجلة «السودان في رسائل ومدونات» تحت عنوان «قبيلة الحَبَاب» الصفحات من ١٨٣ وحتى ١٨٧.

(٣) انظر ما قاله الجنرال ساليتا الحاكم الإيطالي لمصوع في الصفحة ٨ من كتاب وثائق نقفا، مرجع

وهكذا منذ بداية القرن السادس عشر، نجد الحَبَاب قد ذاع صيتهم في كل منطقة البُجَة[١] الواقعة بين مصوع وحلايب، الأمر الذي دعا مكتشف منابع النيل «جيمس بروس» إلى أنْ يصف الحَبَاب وحدهم (دون غيرهم) بالبُجَة عند خروجه من اسوان (عام ١٧٦٨م) متجهاً إلى سواكن حيث قال[٢]:

«They, on the contrary, thought that we had been a party of soldiers from Assouan, who had apprehended the Arab. Immediately after which they conversed in the language of Beja, which is that of the Habab, Suaken, and Masuah. I told them plainly, that, though I knew that language, I would not suffer them to speak any but Arabic, understood by us all. They immediately complied, and then inquired about the position of Abou Bertran and his tribe of Bishareen».[3]

وينبغي أنْ نلاحظ أنَّ جيمس بروس قد ذكر، في النص السابق، أنَّه كان قد طلب

سابق، حيث ذكر أن الرأس ألُولَا (العدو الأكبر لكَنْتِيبَايْ حامد) قد اتهم الأخير بأنه يتعامل مع الآخرين كرجل دولة ذات سيادة:

Ras Alula «had told the Italians to prohibit commerce with the Habab, accusing the Kantibai of behaving as if he were an independent sovereign».

(١) لاحظت أنَّ بعض مثقفي البُجَة يكتبون هذه الكلمة بألف ممدودة «البجا» ويكسرون الباء، وهذا خطأ ناتج عن مجاراة النطق الإنجليزي لكلمة «Beja» بينما المراجع التاريخية عن البُجَة ولاسيّما تلك التى اعتمد عليها الكتاب الإنجليز (باعترافهم) كلها تورد هذه الكلمة بصيغة «البُجَة» بضم الباء وفتح الجيم وإضافة التاء المربوطة، وليس «البجا» (بكسر الباء واضافة ألف إلى نهاية الكلمة). لهذا آثرت أن أستخدم في هذا الكتاب صيغة «البُجَة» بالتاء المربوطة وليس الصيغة التى يحاول البعض الايهام بأنها أصح، حيث إن صيغة البُجَة (بالضم) لا تتوافق فقط مع المراجع التاريخية العربية القديمة بل تتوافق مع التسمية القديمة (Buka) التى كان الفراعنة يطلقونها على البُجَة، وتتوافق مع النطق المحلي لقبيلة «بُدَا» أو«أُبداوي» وهي فرع من البجة الأصليين وما زالوا موجوين كما ذكرنا في موضع آخر.

(٢) نُشِر كتاب جيمس بروس للمرة الأولى في عام ١٧٩٠م، وأُعِيدَتْ طباعته بعد ذلك عدَّة مرات.

(3) «Travels to Discover the Source of the Nile» by James Bruce, Third Edition, published in Edinburgh in 1813, by George Ramsay and Company, Volume 6, p 503.

من مرافقيه التحدث باللُّغة العربية فقط نظراً لكون جميع الموجودين معه يجيدونها، وأشار جيمس بروس في نفس الوقت إلى أنه يعرف «لغة البُجَة» والتي نسبها إلى الحَبَاب «فقط» دون غيرهم، مما يدل على انتشارهم وسطوتهم في تلك الفترة على امتداد منطقتهم بين سواكن ومصوع كما قال جيمس بروس وذلك بالرغم من أنّ قافلته كانت تضم أقواما آخرين من قبائل المنطقة ذكر منهم أبا بطران (كتبها "برطران") والذي ذكر أنه من قبيلة البشاريين، وهم من صميم البُجَة، مما يدل على أنّ المكتشف جيس بروس كان يتحدث عن إدراك ومعرفة بقبائل المنطقة ويعكس ما كان سائدا في ذلك الوقت.

ولا يكتفي جيمس بروس بذلك بل، بعد إعطائه وصفاً لواقع البدو السبأيين Shepherds القاطنين بين «مصوع» و«سواكن»، يقول في الصفحة رقم ٣٨٦ من المجلد الأول (للطبعة الأولى من كتابه والتى نشرت في عام ١٧٩٠م): إنَّ أنبل هولاء البدو جميعاً "the noblest" وأكثرهم ميلاً للحرب "most warlike" هم الرعاة أو السبأييون القاطنون في جبال الحباب والذين تمتد سكناهم من أطراف مصوع الى سواكن:

«But the noblest, and most warlike of all the Shepherds, were those that inhabited the mountains of the Habab, a considerable ridge reaching from the neighbourhood of Masuah to Suakem, and who, sill dwell there».[1]

ووصلت شهرة الحَبَاب فيما مضى أقاصي البطانة، فقد ذكرهم شاعر تاجوج (المُحَلَّق) واصفاً نعومة جسد تاجوج بقوله:

أوْرَاكِـــــــــكْ جُـــــــــرْبَان عَـــــــرَدْ عنـــــــد الحَبَـــــاب

(1) «Travels to Discover the Source of the Nile, in the Years 1768, 1769, 1770, 1771 1772, and 1773» By James Bruce, Printed in Five Volumes in Edinburgh in 1790 [M.DCC.XC] by J. Ruthven, for G. G. J. and J. Robinson, Paternoster-Row, London, Ibid, p.386.

يقول لحبيبته تاجوج(1): أوْرَاكِك (جمع وَرِك أي «أفخاذك») لينة وناعمة مثل الجلد المدبوغ بنبات العَرَد عند قبيلة الحَبَاب. وقد علق الدكتور عون الشريف قاسم على هذا البيت قائلا: «الحَبَاب بطن من بطون البُجَة يحسنون صنع جُرْبَان العَرَد»، والعَرَدُ نوعٌ من النَّبَات يستعمل في دباغة الجلود(2).

ومن الطرائف في هذا الشان ما ذكره أحد أعيان البُجَة، في جَلْسِةِ صُلْحٍ بين الحَبَاب والهَدَنْدِوَا في الجامع الكبير بكسلا في بداية التسعينات (من القرن العشرين)، وبحضور جمع غفير من الهَدَنْدِوَا والحَبَاب وزعماء الرشايدة والشكرية، وعدد من وجهاء الشرق، من بينهم إمام الجامع الكبير، مولانا إبراهيم الأشقر، والرجل الوقور أبو عَلِيّ مجذوب، والفارس المغوار المرحوم حامد كفو، قال ما معناه: إننا قديما إذا توغل أهلنا في داخل البطانة، وكانت هَيْأةُ(3) القادمين حسنةً، وملابسهم نظيفة، استقبلهم عرب البطانة بقولهم مَرْحَباً بشيوخ الحَبَاب (بغض النظر عن الانتماء القبلي للقادمين من أرض البُجَة).

---

(1) اسمها الأصلي هو «تويدود» وتعنى بالبجاوية الصغيرة أو الناعمة، ولكن تحرف الاسم الى «تاجوج» لصعوبة نطقه بالعربية، وأبوها هو شيخ الحمران «محمد وَدْ علي وَدْ محمد أدروب (أي: محمد الأحمر، ومنه أخذت قبيلة الحمران اسمها) أبن علي محلق (الكبير) بن الشريف حسين بن محمد بن شرف الدين بن ضرار بن سينايف بن محمد جمال الدين (جد الأرتيقه فرع المحمداب). وأم تاجوج هي بنت زعيم بني عامر «ملوك» بنت الشيخ أكد أولباب بن توليب.

(2) راجع كتاب الدكتور: عون الشرف قاسم «قاموس اللهجة العامية في السودان»، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م، ص ٢٢٨.

(3) يكتبها البعض «هيئة» وهذا خطأ الشايع حيث الأصح «هيأة» على وزن وطأة، وفجأة وغيرها.

الباب الثاني
بَيتُ أسْجَديْ

إنَّ الهيكل الذي يقوم عليه بناء قبيلة الحَبَاب هو فرع بيت أسْجَديْ «Bait Asgade» وهم الطبقة الحاكمة في الحَبَاب منذ نشأة القبيلة، ودائماً يكون زعيم القبيلة (كَنْتِيْبَايْ) منهم. وأهم عشائر بيت أسْجَديْ هي:

(١) عَدْ سَمَر العُول (أبناء سَمَر العُول وَدْ جَبِرْ كِتُّوس بما فيهم إشْحَق).
(٢) عَدْ تِمَارْيَام (أبناء تِمَارْيَام وَدْ أبِيبْ وَدْ جَرْجِيس).
(٣) عَدْ هِبْتِيْس (أبناء هِبْتِيْس وَدْ مَفْلَس وَدْ أبِيبْ وَدْ جَرْجِيس).
(٤) عَدْ تَكْلِيْس (أبناء تَكْلِيْس وَدْ مَفْلَس وَدْ أبِيبْ وَدْ جَرْجِيس).

هولاء الأربعة هم الأشهر من ذرية أسْجَديْ (بالجيم اليمانية مع إمالة الدَّال المفتوحة قليلًا)، ولكن هنالك أبناء سَمُور وَدْ أسْجَديْ ودَبْرَايْ وَدْ دَافْلا و أبناء جَبِرْ كِتُّوس الآخرين وهم قِبْطَان ونؤوشاي وجالاي (قالاي)، فضلاً عن أبناء كَنْتِيْبَايْ يَعْقُوب وَدْ كَنْتِيْبَايْ جَرْجِيس وغيرهم.

هِبْتِيْس وتَكْلِيْس شقيقان والدهما هو مَفْلَس وَدْ أبِيبْ أخ تِمَارْيَام وَدْ أبِيبْ، وأمهما هي بَلْوَيِتْ[1] أم جَبْرَيْس البلوية، وهي زوجة سابقة لعمهما تِمَارْيَام الذي أنجب منها جَبْرَيْس وَدْ تِمَارْيَام، وهو أخوهما الأكبر من أمهما، ثم تزوجها والدهما ولذلك كانت كناية أم هولاء الثلاثة هي «بَلْوَيِتْ أم جَبْرَيْس». وجميعهم ينتهي نسبهم إلى

(١) حسبما أخبرني به الشيخ/ محمد بن أحمد وَدْ شيخ عامر وَدْ شيخ الأمين وَدْ شيخ عمر وَدْ شيخ محمد وَدْ شيخ علي وَدْ شيخ الأمين وَدْ شيخ حامد وَدْ نَافعُوتَّايْ فإنَّ قبر جدتنا سِتَّ الملوك "بَلْوَابِتْ أمْ جَبْرَيس" يوجد في بلدة "أناقد" شرق نقفا، وهي مقر - "زقا" - عَدْ نَافعُوتَّايْ سابقاً، ويوجد في هذه البلدة أضرحة عَدْ شيخ عمر ومنهم ابنه شيخ الأمين واخوه شيخ علي وَدْ عمر وبعض الصالحين من آل فقيه يعقوب.

جد واحد هو أسْجَديْ بن بِيْمْنَتْ بن حَدَنْبَسْ بن جانوي بن جاناي، كما سنفصل فيها بعد. ولا ننسى أنْ نذكر في هذا الصدد جزءاً أصيلاً من قبائل الحَبَاب، وهم أشقاء أسْجَديْ وذرياتهم: أتْكَمِيْ[١] وبَحَايْلاَيْ وقِعْدَاد، وأبناء عمومتهم من بيت جُوكْ، إضافة إلى قبائل الحَبَاب العربية الأخرى من سبأ عموماً وحِمْيَر على وجه الخصوص (بَلِيّ وجُهَيْنَة) الذين توالد فيهم بيت أسْجَديْ، كابراً عن كابر، حيث إنَّه من الصعب أنْ تجد أحداً من بيت أسْجَديْ ليس له رحم من أم أو أخت أو خالة أو جدة في تلك القبائل التى رتقت النسيج الاجتماعي، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر، قبائل عَمْدُويْ وزَاجِرْ (زَاقِرْ) وكازين وبَقِلْ لَهَبْ وجُورِيتَا وواطوت وأسْفَدَا وألْمُدَا ورِجْبَاتْ (ورِقْبَاتْ) ودُوبْعَاتْ ومِيكَالْ ودَجْدَجِي (بالجيم اليمانية) وسَبْ لعَاليتْ (أساورتا) ، وغيرهم كثير. ويجدر بنا أنْ نشير هنا لعلاقات الرحم القوية، التى تربط الحَبَاب بأقربائهم من بعض فروع البلين (بيت طَوْقي - البعض يكتبها "تَوْقي") والمَنْسَعْ والمَارْيَا (خاصةً عَدْ نَاشِحْ وَدْ زَمَات) وعدد كبير من قبائل بني عامر مثل البلو وأفْلَنْدَا (العجيلاب) وبيت مَعْلا والنابتاب وغيرهم. ولهم نسب ومصاهرات عديدة في أسر السادة المشايخ ومنهم، على سبيل المثال لا الحصر، الفايداب[٢] وعَدْ شَيْخ حامد وَدْ نافعوتاي وعَدْ شيخ محمود وعَدْ درقي وعَدْ عبده وعَدْ شيخ إدريس وعَدْ معلم وغيرهم، بل وسائر قبائل البُجَة ولاسيما السادة الأشراف والأرتيقا وقبائل الهَدَنْدِوَا والأمرأر والحَلَنْجَا (الحلنقة).

---

(١) بيت أتكمي (بإمالة الميم المفتوحة قليلًا) في السودان تتألف حاليا (٢٠١٤) من ثلاث عموديات: عمودية في كسلا بقيادة العمدة: موسى محمد علي المعروف بلقب "حواي"، وعموديتان في البحر الأحمر إحداهما بقيادة العمدة: محمد عثمان محمد حامد، والأخرى بقيادة العمدة: عثمان محمود صالح. ومن أبرز قياداتهم التاريخية الشيخ/ سليمان حدوت الذي حكم عليه الإنجليز بالسجن لمدة سبع سنوات قضى جزءاً منها مسجوناً في صحراء حلايب ثم اطلق سراحه وعاد الى مناطق جنوب توكر ليصبح إبنه محمد وَدْ سليمان وَدْ حدوت شيخاً لبيت أتكمي في مقدام وعموم جنوب توكر. أما الشيخ حسن وَدْ علي وَدْ فايد فكان يحتل موقع شيخ بيت أتكمي في توكر والدلتا. رحمهم الله جميعاً.

(٢) رهط الشيخ محمد وَدْ فايد وحفيده سيدنا مصطفى وَدْ حسن.



صورة قديمة (قبل عام ١٩٣٦م على الأقل) أخذت لأحد ملاك الأرضي من بيت أَسْجَديْ وتوجد الصورة في عدد من مواقع الإنترنت بمسمى «Landowner of Habab Tribe».

نسب بيت أسجدي:

قبل البدء في مناقشة أصل نسب بيت أَسْجَديْ، أَوَدُّ أَنْ أوضح أننى بهذا البحث لا أثبت شَكّاً ولا أنفي حقيقةً، وإنَّما أحلل ما سمعت وما قرأت وما لاحظت حول هذا الأمر. ثم أقول: إنَّ هنالك مزاعم كثيرة ومتناقضة أحيانا في نسب بيت

أسْجَديْ، وهذا شأن كل القبائل التي لعبت أدواراً مهمةً في محيطها، وكمثال لذلك ما زال النَّاس في اختلاف كبير حول أصول الفونج، فمنهم من قال: إنّهم أمويُّون من الجزيرة العربية، ومنهم من قال: إنّهم من الشُّلُك من جنوب السودان، ومنهم من قال: إنّهم من البَرْنُو من غرب أفريقيا[١]!!. وفيما يتعلق ببيت أسْجَديْ، فإنَّ قناعتي كباحث هي أنهم غالبية من القبائل السبأ ـ حميرية التى اختلطت، على مر العصور، وتعاقب الدهور، بأقوام آخرين من العرب المهاجرين والأفارقة الذين يقطنون المنطقة. ولقد ذكرتُ في هذا البحث مبررات هذه القناعة. وأنا هنا أوَدُّ ألاّ يفْهمَنَّ أحدٌ أنني بهذا أحاول إثبات عروبة قبائلنا بنية الاستنكاف من نسب الحبش[٢]. فالحبشة أمةٌ عريقةٌ ذات حضارة ضاربة في القدم، وتَسَمَّتْ بهم إفريقيا كلها، قبل أنْ تُعْرَف الأمم الأخرى، وفيهم على كل حال، بقية ممَّا ترك آل يعرب بن قحطان، الذي منه تعلم النَّاس اللُّغة العربية[٣]. فقد ذكر الأديب: مصطفى صادق

---

(١) راجع كتاب «مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي» للبرفسور يوسف فضل، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢، صفحة ٥٣.

(٢) تعود تسمية الحبش والحبشة إلى قبيلتين حميريتين قديمتين إحداهما تنسب إلى حبشي بن مروان بن قارن الحيمري والثانية تنسب إلى حُبيش بن ناتج القضاعي وهاتان القبيلتان هاجرتا من اليمن إلى شرق أفريقيا قبل أكثر من ألف عام قبل الميلاد (الإكليل للهَمْدَاني ص: ٣٥٣). أيضاً ورد في صفحة ٧٥ من كتاب: «لب اللباب في تحريرالأنساب» للإمام جلال الدين السيوطي أنَّ «الحبشي بفتحتين، إلى الحبشة، وحبش بطن من حمير». راجع طبعة بالأوفست صادرة (بدون تاريخ) من مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها: قاسم محمد الرجب.

(٣) ورد في الصفحة ٤ من كتاب: «وصايا الملوك» لمؤلفه دعبل الخزاعي، أنَّ شاعر الرسول حسان بن ثابت (وهو من نسل كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان) قال مخاطباً العرب المستعربة:

تعلمتمُ من منطق الشيخ يَعْـرُب أبينا فصرتم معربين ذوي نفـرِ
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمـةٍ كلامٌ، وكنتم كالبهـائم في القفـرِ
تقولون مانونخ ودونخ، وكنتم إذا ما التقينا كالرصاص على الجمرِ
منازلكم كوثى ومنها درجتـمُ إلينـا كأفراخ درجـن من الوكـرِ
فنحن وأنتم كالذي قـال لم أزل أعلمه رمياً ليمنع لي ظهـرِي
فلما نشا واشتد ساعده رمـى فلم يُخطِ ظهري إذ رمى ولا نحـرِي

الرافعي عند حديثه عن «أصل العربية»، أنَّ العلماء يرجحون أنّ أصل العرب من الحبشة، حيث قال: «ثم نشأت الدولة السبئية وهم القحطانيون الذين يسمون العرب المتعربة، ويرجح العلماء أنَّ أصلهم من الحبشة؛ وكان ظهور دولتهم على ما تحققوه من القرن الثامن إلى سنة ١١٥ قبل الميلاد»[١]. لكنَّنا فقط حاولنا أنْ نقرأ الواقع على ضوء المعطيات المتوفرة والناتجة عن تراكم إثني (عِرْقِي) وموروث ثقافي، تغذيه وتجدد حيويته وهويته عوامل جغرافية وتاريخية، وقواسم اجتماعية ودينية ووجدانية، يشترك فيها سكان المنطقة مع إخوتهم في الجانب الآخر من البحر الأحمر. بَيْدَ أنَّ ما أشُكُّ فيه هو بعض الروايات المتداولة لدى بعض بيت أسْجَدِيْ والتى تحاول، تماما كما فعل غيرهم، إلحاق نسبهم ببيت النبوة أو عترته أو صحابته، حيث يزعم بعضهم أنهم من «قريش»، بل من بني هاشم!! ولا بد أنْ نشير هنا إلى أنَّ آفة انتساب القبائل الأفريقية إلى بيت النبوة، والصحابة الكرام على وجه الخصوص، هي آفة لم يسلم منها أحد من المتسعربين، وقد ادعى ذلك أقوامٌ هم أبْعَدُ عن العرب من الحَبَاب هَيْأةً وموقعاً ولساناً، وما زال هنالك نفرٌ هم مثار سخرية لدى العرب، بل ويُسْتَخَفُ بهم بمجرد أنْ يَنْسِبُوا أنفسهم لأمة العرب، ناهيك عن الانتساب إلى آل البيت والصحابة الأطهار. ورغم ذلك نجد من يجاهر بأن جده شريف قرشي، فبعضهم يقول إنَّ جده عَلِيّ بن أبي طالب وبعضهم يقول العباس بن عبد المطلب وبعضهم يقول جعفر الطيار، وبعضهم يقول أبوبكر الصديق، وبعضهم يقول عبد الله بن الزبير، بل وذهبوا الى أمية بن عبد شمس!! ولعل المفارقة هنا تتمثل في أننا لم نسمع أحداً أدعى أنه من نسل سيدنا بلال بن رباح رغم جلالة قدره ودنو منزلته من النبي (ص). وهكذا نجد الكثيرين في إفريقيا وغيرها يحومون حول هذا الحمى، يطلبون الشرف والعزة بالاستعراب، وما العزّة الاّ لله ولرسوله وللمؤمنين، وإنْ كانوا غير عرب. ولعَلّهَ من الطريف أنْ نذكر هنا أنَّ بعض القوم في منطقتنا قد انتسبوا، عن غير علم، ولسوء حظهم، إلى إبن صحابي جليل ثبت أنه لم

---

(١) «تاريخ آداب العرب»، تأليف: مصطفى صادق الرافعي، مكتبة الإيمان، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م، الجزء الأول، ص ٦٤.

يخَلَّفْ[١]، ولم يكن له عقبٌ قط!!. وكما قال نعوم شقير: «ما من قبيلةٍ اشتهرت في السودان إلاَّ ادَّعت لنفسها نسباً يتصل بآل البيت»[٢].

وخلاصة القول في هذا الشأن: إنَّنا نجزم باختلاط أنساب قبائلنا بالعرب لأسباب كثيرة، ولا مندوحة من ذلك البتة، بل إنَّ فيهم بقيةٌ ممَّا ترك آل يعرب بن قحطان، وهذا زعم تسنده قرائن كثيرة، ليس أقلها عوامل الثقافة والجغرافيا والتاريخ. بَيْدَ أنَّنَا في شكٍ من إدعاءات بيت أشْجَديْ وغيرهم، بالانتساب إلى قريش والصحابة عموماً (أقول في شك لكثرة من يدعي ذلك ولكن لا دليل نفي لدينا فنقطع بكذب هذا الزعم). ولعله من المفيد هنا أنْ نشير إلى دراسة حديثة، قام بها باحثون من معهد الأمراض المستوطنة بجامعة الخرطوم والأكاديمية الوطنية للعلوم بعنوان: «مدي اتساق التنوع الوراثي الوطني مع جغرافيا وتاريخ السودان، والتى وصفت من قبل مختصين بأنها «دراسة تطبيقية على المجموعات والهجرات البشرية في السودان، باستخدام العلامات الوراثية وتحليل الحمض النووي (DNA) على مستوى الكرومسوم الذكري والميتوكوندريا، بهدف دراسة التركيبة الوراثية للمجموعات وعلاقتها ببعضها البعض، وأصولها وهجراتها»[٣].

هذا وقد تم مناقشة هذه الدراسة في ندوة علمية مفتوحة استضافها مركز طيبة برس للتدريب الإعلامي، خلال شهر مايو ٢٠٠٨م، وأدار الندوة مدير جامعة الخرطوم الدكتور محمد أحمد الشيخ، الذي شهد بأن هذه الدراسة تعتبر فتحاً جديداً لدراسة السلالات البشرية، وقال: «إنه يثق تماماً في نتائج تلك الدراسة، ووصفها

---

(١) راجع صفحة ٨١ من كتاب: «تاريخ قبائل البُجَة السودانية» بالانجليزية، لأندرو بول:
«A History of the Beja Tribes of the Sudan», by Andrew Paul, published in 1954 by the University Press of Cambridge.

(٢) راجع كتابه «تأريخ السودان» تحقيق وتقديم الدكتور: محمد إبراهيم أبو سليم، طبعة ١٩٨١، دار الجيل، بيروت، صفحة ٩٨٠.

(٣) راجع صحيفة السوداني، العدد رقم: ٩٠٦ بتاريخ ٢٢ مايو ٢٠٠٨م.

بالعلمية والدقيقة»[١]. المهم هو إنَّ تلك الدراسة خلصت إلى نقطة هامة وهي: «انتفاء النقاء العرقي تماماً في السودان، وعدم وجود عناصر وسلالات ذات جينات تشابه الجينات العربية»[٢]. وطبقا لنتائج تحليل الحمض النووي «DNA» ، بيَّنَتْ الدراسة أنَّ المجموعات التى تزعم أنها عربية لها قربي جينية مع القبائل الأفريقية ممَّا يشير إلى أصلها الواحد. كما بيَّنَتْ أنَّ مجموعات كبيرة من السودانيين في الوسط والشمال تتماثل جيناتها مع جينات سكان شرق أفريقيا، خاصة الأثيوبيين.

نعود إلى نسب بيت أسْجَديْ فنقول إنَّ الغالبية من بيت أسْجَديْ يرون أنَّ أصلهم يرجع، مثلهم مثل كافة قبائل الحباب الأخرى، الى قبائل حبشية هاجرت منذ القدم من اليمن الى الحبشة. بيد أنَّ هنالك رواية أخرى يرردها البعض مفادها أنَّ جد بيت أسْجَدَى هو من قريش، واختلفوا في ذلك فمنهم من قال إنَّ جدَّهم هو «أبو لهب»، عبد العُزَّى بن عبد المطلب، عم رسول الله (ص)، ومنهم من قال إنَّ جدهم هو عُبَيْدٌ بن عمر بن مخزوم، من قبيلة بني مخزوم القرشية التي كانت إليها «القُبَّة» و«الأعِنَّة»، وكان لها شرف عظيم ومكانة كبيرة في الجاهلية والإسلام، وكانت على قدر كبير من الجاه والثراء. وبنو مخزوم، كما هو معلوم، هم أحفاد مخزوم ابن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي، الجد السابع للنبي (ص)، وأم مخزوم هي «كلبة بنت عامر بن لؤي. ولد مخزوم أولاداً من بينهم عمر، وولد عمر (بن مخزوم) عبد الله. وولد عبد الله (بن عمر) المغيرة، والذي أسس هو وأبناؤه واحداً من أشرف بيوت قريش. أُمُّ المغيرة هي: ريطة بنت عَمْرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. فولد المغيرة (ابن عبد الله) هاشماً (الذي ولد حنتمة بنت هاشم، أم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب) والوليد (الذي هو أبو القائد المشهور خالد بن الوليد) وهشاماً، الذي تزوج أسماء بنت مخربة بن جندل بن أبير بن نهشل بن دارم، وانجب منها أبا جهل (عمرو بن هشام).

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع السابق.

وبغض النظر عن قناعتي الشخصية، أودُّ أنْ اتطرق للرواية التى تزعم الانتساب الى أبي لهب، وهي رواية لها حظ من الشهرة، حيث يقول أصحابها إنَّ جدهم الأكبر هو الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب، وهذا ما أقره الكاتب والمؤروخ العامري محمد صالح ضرار[١]، وهو بالطبع أدري بنسب أُمِّهِ وأخواله (أُمُّهُ من بيت بَحَايْلاَيْ، وكما هو معلوم فإن بَحَايْلاَيْ هو أخو أَسْجَدِيْ). وهنالك أسماء سائدة لدى الحَبَاب ربما تعود إلى جدهم أبي لهب، فمثلا هنالك فرع قديم من الحَبَاب يسمى «بَقِلْ لَهَبْ»، والبَقْلُ كما هو معروف في اللُّغة العربية، هو الثمر، و«بقل لهب» هنا يقصد بها «نسل لهب»!! ليس هذا فحسب، بل ما زالت هنالك أسرٌ من الحَبَاب تسمى إلى اليوم اسم «أَوِلَّهَبْ» وهو تحريف لإسم «أبي لهب». وأبو لهب، كما هو معلوم، هو عم النبي (ص)، واسمه الحقيقي هو عبد العُزَّى بن عبد المطلب بن هاشم، وأخوانه هم: عبدالله (والد النبي - صلى الله عليه وسلم)، والحارث والزبير وحمزة وضرار وأبو طالب والمقوم والمغيرة ونوفل والعباس. لقد كان الفضل بن عباس من أفصح شعراء بني هاشم؛ ويبدو أنَّه كان على خلاف دائم مع قومه، خاصة بني أمية، حيث عَبَّرَ عن ذلك قائلا:

مهلا بني عمّنا مهلاً موالينا ✽ لاتنبشوا بيننا ما كان مدفونا
مهلا بني عمّنا من تحتِ أثلتنا ✽ سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا
لا تطمعوا أنْ تهينونا ونكرمكم ✽ وأنْ نكف الأذى عنكم وتؤذونا
إنَّا لقومٌ أبتْ أخلاقُنا شرفاً ✽ أنْ نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا
قوم إذا استخصموا كانوا جهابذة ✽ وإنْ حُكّمُوا يوماً كانوا موازينا
الله يعلم إنَّا لا نحبكمو ✽ ولا نلومكمو إنْ لم تحبونا
كل له نية في بغض صاحبه ✽ بنعمة الله نقليكم وتقلونا

ومن أجود الشعر الذي قاله الفضل:

(١) انظر كتاب «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق، الصفحة ٧.

بكيت لفقد الأكرمين تتابعوا * لوصل المنايا دارعون وحُسَّرُ
من الأكرمين البيض من آل هاشم * لهم سلف من واضح المجد يذكر
بهم فجعتنا والفواجع كاسمها * تميمٌ وبكرٌ والسكونُ وحِمْيَرُ
وفي كل حي نضحةٌ من دمائنا * بني هاشم يعلو سناها ويُشْهَرُ
فلله محيانا وكان مماتنا * ولله قتلانا تدان وتنشر
لكل دم مولىً، و مولى دمائنا * بمرتقب يعلو عليكم ويظهر
فسوف يرى أعداؤنا حين نلتقي * لأي الفريقين النَّبِيُّ المطهر
مصابيح أمثال الأهِلَّةِ إذْ هُمُ * لدى الحرب أو دفع الكريهة أبْصَرُ

والطريف في الأمر، أنني ذكرت ذات مرة هذه الرواية في مجلس فقال لي أحد الأشخاص الذين تربطهم صلة رحم ببيت أسْجَديْ، وهو يمزح: ألم تجدوا لنا جداً آخر غير أبي لهب، وهو من ألدّ أعداء الإسلام ومات على الكفر ومصيره إلى النار كما أكد القرآن؟! فقلت: (بغض النظر عن قناعتي الشخصية) وما العيب الذي يمكن أنْ يخص بيت أسْجَديْ بسبب انتمائهم لأبي لهب، وهو عم الرسول الأعظم، قبل أنْ يكون جداً لهم (على زعم بعضهم)، وعم أمير المؤمنين عَلِيّ، وحبر الأمة عبد الله بن عباس، وهل يمكن أنْ يأتي يوم يُعَيَّرُ فيه أسدُ الله حمزةُ لأنه كان أخاً لأبي لهب؟

وممَّا يذكر في هذا الشأن، أنَّ الفضل مرَّ ذات يومٍ على الأحوص، وهو شاعر أموي هَجَّاءٌ، وهو ينشد وقد اجتمع حوله النَّاس، فقال للأحوص: يا أحوص إنك شاعرٌ ولكنك لا تعرف الغريب. فقال الأحوص: بلا والله إني لأبصر النَّاس بالغريب والإعراب، فأسألك؟ قال: نعم، قال الأحوص:

ما ذات حبل يراها النَّاس كلهم   وسط الجحيم فلا تخفى على أحد
كل الحبال حبال النَّاس من شعر   وحبلها وسط أهل النار من مسد

فأجابه الفضل:

ماذا أردت إلى شتمي ومنقصتي   وما أردت من حمالة الحطب

ذكرت بنت قروم[1] سادة نجب كانت حليلة شيخ ثاقب النسب

وانصرف الفضل عن الأحوص مُغْضَباً.

وهو الذي افتخر بنسبه الهاشمي، حين أجدبت الأرض في عام الرمادة، فاستسقى أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، بالعباس بن عبد المطلب عم الفضل، فدعا العباس ربه، فَسُقِيَ النَّاسُ، وفي ذلك قال الفضل:

بعمي سقى الله الحجاز وأهله عشية يستسقي بشيبته عمر
توجه بالعباس في الجدْب راغباً إليه فما أنْ رام حتى أتى المطر
ومنا رسول الله فينا تراثه فهل فوق هذا للمفاخر مفتخر

وكان الفضل، كغيره من آل هاشم[2] وغالب العرب، ليس بأحمر كالعجم ولا أسود كالزنج، ولكنه في منزلة بين ذلك حيث قال:

وأنا الأخضَرُ مَن يعرِفُني أخضَرُ الجِلدَةِ مِن نَسْلِ العَرَبْ
مَنْ يُساجلني يُساجلْ ماجداً يملأ الدّلوَ إلى عقدِ الكَرَبْ
إنما عبد مناف جوهر زين الجوهر عبد المطلب

وسواءٌ كان جَدُ بيت أسْجَديْ أبَا لَهَبٍ أو عُبَيْداً بن عمر بن مخزوم، فإنهم من قريش (حسب زعمهم). وبغض النظر عن صحة هذا النسب، فإن هؤلاء القوم بهم كثيرٌ من الصفات التى عرفت عن أبي لهب الهاشمي، وبني مخزوم القرشيين عموما، فهم شديدو الاعتزاز بالنفس، وصعبٌ مراسهم. ألم يكن كذلك عمرو بن هشام (أبو جهل) يوم هُزِم في غزوة بدر، فلم تمنعه سكرات الموت عن الاستهزاء بخصمه، حتى وهو يحتضر؟ فيقول للصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، الذي كان يجلس على صدره: لمن الغلبة اليوم؟ فيرد ابن مسعود: لله ولرسوله، فيتمتم أبو

---

(١) راجع ما ذكرناه بشأن كلمة "قروم – جُرُومْ – بالجيم اليمانية" في لهجة الحباب.

(٢) أم الفضل بن عباس هي «آمنة» بنت العباس بن عبد المطلب، فهو هاشمي النسب من جهة أمه وأبيه.

جهل: لقد ارتقيت مرتقىً صعبا يا رُوَعِي الغنم!!. ألم يصبح أبو لهب بعناده، حطباً للنار، رغم مرور عشر سنوات تقريبا على نزول الآية التي تبشره بذلك!!

وهم، كما كان يفعل الفضل بن عباس، يفتخرون كثيراً بنسبهم بل، كدأب الفضل، هم من أجود من قال الشعر بلهجة التِّجْري اليمانية الحِمْيَرِيَّة(١)، حتى أصبح بعض أشعارهم مثلاً دارجاً، ومن ذلك الشعر الجميل الذي بثه إياسُو «إياس» وَدْ هِبْتِيْس، قبيل وبعد موقعة شِنْجَبْرَا «شِنْقَبرا»، التي سنتحدث عنها لاحقاً، حيث قال يخاطب ابنه الوحيد «محمد»:

حَسُوسِي ومحَمَّد قِنَظْ مِنْ دِي هَرْسُوكا (حس يا محمد وانتبه إذا أيقظوك).
إنْتَ مَنْ دِي تِنْجَـدَّعْ وَمِنْ لأشَبِّـحْ أبُـوكا (أنت وحيد وأصبح أبوك مشبحاً – هرماً).
بيت أسْجَديْ وفِيتُيَتْ جَامْيَامْ إنْتُوم جمُوكا (بيت أسْجَديْ يشاورنك وقرارهم متخذ).
إلي بَـارِهْ أفَجْنَـا وإلي ظَلِّـم أكْبُـــودا (يضحكون لك ـ ولكن أكبادهم سوداء).
كُلْ بيت غُلْبَا لِغْلَبَا ولفْجَـرْ إتَا لحَارُوثا (كل بيت يغلبها غلبها وترى ما حرثت).

ومن ذلك شِعْرُ جَدِّي الرابع الفارس «جِمع وَدْ قَلايْدُوس»، (يجب أنْ تكتب «جَلايْدُوس» والجيم دائماً يمانية)، حيث قال وهو يصف أبقاره:

سَجَنْ وَلَتْ سَجَنْ ظَعْـدَا جَظَّا (هي شبه النعامة بنت النعامة بيضاء الوجة)
مِــــذْرَا تَحْـرَا ظَلِّمْ تُو تَمَاثُلُو بَـرْكَا (أرضها منطقة "تَحْرَا" السَّمراء شبيهة بَرْكَا)
تُولُوكْ وإتعَـنْدَلَـتْ وَلجَـادِمْ جَرْسَا (وكذلك مناطق تُولُوكْ وإتْعَنْدَلتْ ووادِي جَرْسَا)
سَكَابِيتْ إتْ جَفَرْ زَامْتَـايْ إبَّا بَدْرَا (فالتي تنام طرفاً تكون أول غنيمة للمغيرين)
سَكَابِيتْ إتْ مِجبْ جِنْدِقْ رأسَ حَلْفَا (ومن تنام في الوسط يملأها الروث – بسبب الزحام)
سَكَابِيتْ رأس مدجأ سِمْطًا وُرُو نَدًّا (ومن تنام جوار المدجأ (نار التدفئة) تحترق جنباتها)
بَدِيرْ إبِيَّ نَسْأَتْ كَسَرْبَي وُرُو تَرْفَا (لقد سبق أن اهلكتني فلم يبق منِّي إلاَّ جزءاً ـ نصف)
أذيَا جميل تِسْءِ أدَّامْ حِلْفْ جَرْسَا (والآن ترنوا الى جيل "ابنه" فالناس مثل شجر الجرسا – القديم يموت والبذر ينمو خلفا للقديم).

---

(١) ما يزال الناس في مناطق مختلفة من اليمن، ولاسيما غالبية سكان محافظتي «ريمة» و«إب»، والمنطقة من قتاب إلى ذِمَار، يتحدثون باللهجة الحميرية القديمة أو ما تطور عنها ومن ذلك أنهم يستخدمون حرف «الكاف» بدل «تاء» المتكلم والمخاطب كما هو الحال لدى الحبَاب.

وعندما تقدمت به السن، وتكاسل أبناؤه عن الغزو وأخذ الثأر، أنشد قائلاً:

هَـمْ ألبّـو وجَـاكُـــو (ليتني كنت بدون هم).
كِمْثَـل الأَ جِزْجِنَّـتْ (كمثل هذه البنت الصغيرة «جِزْجِنَّـتْ»).
بَظِـخْ باظِـخْ وجـأكـو (ليتني كنت شابا).
سـاقُـو إتُّـو أكِلَّـتْ (يضع الأخلة (جمع خلال) في شعره).
دِيبْ مِي ريمَتْ تِبْلُونِي (علام تقولون بعدت علينا الشُّقَّةُ).
حَفْنَتْ دِيبْنَا وبَرْدَتْ (أو منعنا الحر أو البرد)
مِنْ ساجْمُـوا قِذْرِينِ تَا (فإنَّ عدوكم إما يُصَيِّفون في منطقة قِذْرين)
ومِـنْ سَبْكُـوا عُـوبِلَّتْ (أو يقضون الشتاء في عُوبِلَّتْ)
يــومِ أنـا وعَـلْكُـــو (لو كنت أنا موجودا (قادرا)
كُــلِّ الأَ وإي قَلّـــتْ (ما كان هذا الأمر يبدو بسيطا)
حُـوي نَـاوُد وعَـــلا (ولو كان أخي ناود موجودا)
مِنْ هِيُــومَا وشَبَّتْ (لبلغ الأمر ذروته ـ لأشرف من قمة جبل هيوما).

وقوله أيضاً عندما تقدم به السن أكثر ولم يستطع أن يجاري أبناءه في السير، وسمعهم يقولون دعونا ننتظر أبانا:

دول إتْ إمَّـرَّخْ، ودُولْ دِيــبْ إنْتَلّيْ (مرةً نتقدم ومرة نتبع – نَتْلُوا)
دُولْ إتْ نَحَمْرِجْ، ودُولْ ديــب ناظَرِّيْ (مرةً نرجُّ الأشياء ومرةً نصفِّيها)
دُولْ إتْ إنْسِحِتْ، ودُولْ ديب نَأسَنِّي (مرةً نظلم ومرةً نصلح)
دُولْ إتْ انْبَرِّجْ، ودُولْ إتْ نِنْجَــسِّيْ (مرةً نعرض بالسيوف ومرةً نجلس)
دُولْ إت إنْـزَمّتْ، ودُولْ إتْ نـأتَّـكْرَيْ (مرةً نغزوا ومرةً نُرْجع ما سُلِب)
مِنْ كلِّ إلِي جَاكو، ظنـحُو اسِـكْ عَـرِّي (من كلِّ هذا أصبحت أقول أنتظروني)
إيْلِي كَافُوتْ[1] لَجَابَاتْ أبوكَ فكَّ إيْ لِفَدَيْ (فكل أفعال "كافوت" لعلَّ أبوك لا يفديها).

وقول الفارس إزَاز[2] وَدْ جميل وَدْ جِمِع وَدْ جَلايْدُوس:

---

(١) "كَافُوتْ" هو اسم سيف الشاعر "جِمِع وَدْ جَلايْدُوس"، وهو أيضاً اسم لأحد ملوك مروي.

(٢) هو وأخوه جمع "أبناء خالات" حيث إنَّ إزَازْ أمه هي بنت هبتيس وَدْ ناود وأما جمع وَدْ جميل فأمه هي بنت أبيب وَدْ ناود.

فَتِيكَا هَيْبَكَا حِدِثْ تَا نَبْرَا إِيْ رَكِيبْ (من يحبك يهبك فطعام المحتاج دائما قليل).
وأبيكَا كَلاكَّا كُلُ رَأْسكَ إتْ شَرِيبْ (ومن يأباك يحرمك ويسعى لدفن رأسك).
أَقْلال مُولاد حِونَّاتو وحالاف أباي إِيْ دَقِيبْ (قلة النسل ضعف وتفويت العدو عدم قدرة).
سَكَيْ خَاطِر حِلاِلي وكِلاَ طَجَّاي إِيْ رِكِيبْ (هروب الشجاع عجز وبخل الكريم عدم).
مَالِي مِسي زِلاما عَرِّيتَنَّا بِإبْ حَلِيبْ[1] (مساء الأمس لحقتنا "زلاما" بالحليب).

وإزَاز هذا اسْتُنْفِرَ ذات يوم للَّحاق بغائرين أو غزاةٍ استولوا على أبقار الحي عنوةً، فخرج من داره مسرعاً، وقبل أنْ يبتعد عن بيته لحقته امرأةٌ تُسَمَّى «زِلامَا» (قيل إنَّها خادمته وقيل غير ذلك) بقليل من الحليب، فشربه ونسي أنْ يمسح شاربه، فبقي أثرُ الحليب في شاربه، وبعد اللَّحاق بالمغيرين والانتصار عليهم في المعركة واسترداد الأبقار، قال له أترابه، وهم يمازحونه: أنت محظوظٌ فقد وجدت من يعتني بك ويعطيك «الحليب» قبل المعركة، أمّا نحن فما زلنا لم نتناول شيئاً. فردَّ عليهم بتلك الأبيات.

وقال شاوش وَدْ نور الدين (الذي كان مطلوباً من قبل كَنْتِيبَايْ جاوج ـ وهو ابن خالته ـ لمحاكمته على قتله لأشخاص آخرين من الحَبَاب:

ثَلَثْ لَرَقَا بَكُّونِي (تبكيني فروع أسْفَدَا الثلاثة)[2].
إِيْمَان ودَايِنْ وظَاظِي (فروع أسْفَدَا إيَمَان ودَايِنْ وظَاظِي).
إبْ أَمَانَتْ كَبِدْنَا (إننا نحسن النية (أمانة القلب).
مَبْهِيلاَيْنَا نَتْحَاسِي (ونكذب محدثنا).
جَلِي الضَحَى مَظَأَنَا (بعضهم يأتينا بالنهار - ضحىً).
أَدَّامْ إنْدِي وَرَاكِي (بعد أنْ ينتظر انصراف النَّاس).

---

(١) الحَبَاب يطلقون كلمة حليب على كل أنواع اللبن ويفرقون بإضافة الوصف لأنواعة فهو حليب «شَبِيق» أو «لِيَأ» إذا تم حلبه مباشرة بعيد الولادة، وهو «حليب مَطِيق» إذا كان طازجا وهو «حليب حِقان» أي «محقون» إذا كان رائبا.

(٢) أمُّ الشاعر من قبيلة أسْفَدا.

وَجَلِي لالِي مَظَّأَنَا	(وبعضهم يأتينا ليلا).
مِدِرْ إِنْدِي لأَمَّاسِي	(بعد أنْ تظلم الأرض – مدر).
مَظْأَنَاكَا كَنْتِيَايْ	(لقد جئناك يا كَنْتِيَايْ).
قِدِمْ شَنْرِخْ ومَادِي	(فيمكنك الآن أنْ تُشَرِّحَ وتشوي ـ مندي).

هذا ومن القائلين بانْتِسَاب بيت أسْجَديْ إلى أبي لهب القاضي إدريس محمد نصرالدين، أخو الشيخ محمود محمد نصرالدين، شيخ قبيلة عَدْ تَكْلِيْس، في مسودة كتابه غير المنشور، والمُسَمَّى «نِسْبَةُ البَيْتِ أسْجَديْ وحكاياته وعوايده»[١]، والذي كُتِبَ بُعَيْدَ عام ١٩٤٢م كما ذكر صاحبه، وتحصلنا على نسختين منه بخط اليد، إحداهما أصلية والثانية صورة فوتغرافية، والنسختان تختلفان في بعض التفاصيل. يوضح القاضي إدريس (في إحدى النسختين) أنَّ بيت أسْجَديْ هم من نسل أبي لهب، ويقول بالحرف: «سمعنا من أحاديث أجدادنا السابق [هكذا كُتِبَ النص] الذي يتداولون من بعضهم {هكذا كُتِبَ النص} إلى أنَّ وصل إلينا أنّ جدَّ أسْجَديْ من حَطَيْ كالب وأبو لهب[٢]» هكذا!!. وإثباتاً لهذا الرأي يستطرد القاضي إدريس قائلاً: إنَّ «العارفين الذين أدركناهم كمثل «كنتيباى محمد هِدَاد رَكَه» من بيت توقي، ناظر عَدْ فَرَعْ [٣]، ينادي أسماء الجد {هكذا كُتِبَ النص} ومن معه إلى أبي لهب». ويضيف القاضي إدريس إنَّه عرف من خلال قراءته لكتاب «مشارق الأنوار» و«السيرة الحلبية»، أنَّ أبناء أبي لهب قد أسلموا[٤]، ثم هاجروا إلى الحبشة {لعله يقصد أحفادهم}.

---

(١) بعد الانتهاء من هذا البحث سنودع، إنَّ شاء الله، النسخة الأصلية وصورة النسخة الأخرى من هذه المخطوطة في كلية الدراسات الآسيوية والشرقية (SOAS) التابعة لجامعة لندن.

(٢) كان الأصح أنَّ تكتب «أبي لهب».

(٣) هذا الفرع وسائر البلين من «بيت طَوْقي» ـ أحفاد سمرنين (أو "سمرطون") وَدْ طَوْقي جَانْ ـ ينحدرون من نفس الجد الذي ينحدر منه بيت أسْجَديْ وجِجَّان.

(٤) روي في الصفحة ٥٥ من الجزء الرابع من كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد، عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: لما قدم رسول الله (ص) مَكَّةَ في الفتح قال لي: «يا عباس، أين ابنا أخيك عتبة ومعتّب [ابنا أبي لهب] لا أراهما؟»، قال: قلت: يا رسول الله تنحيا فيمن تنحّى من مشركي قريش، فقال لي: «اذهب إليهما وأتني بهما»، قال العباس: فركبت إليهما بعُرَنَة، فأتيتهما،

ثم يذكر أنَّ بعضاً من قريش، عندما استتب الأمر للمسلمين، هاجروا إلى أرض الحبشة واستقروا فيها.

وفي محاولة للربط بين المهاجرين الأوائل إلى الحبشة (من نسل الملك سليمان) ومن هاجر في فترةٍ لاحقةٍ من قريش، وخاصةً نسل أبي لهب «وجميعهم من نسل إبراهيم الخليل- عليه السلام»[1]، يتطرق القاضي إدريس إلى قصة نبيِّ الله سليمان مع ملكة سبأ «بلقيس» بنت أدَد (أو هَدَد) وزواجه بها. يقول القاضي إدريس نقلاً عن مصادر حبشية (كما قال هو بنفسه) إنَّ الملكة بلقيس قد تزوجت بنبي الله سليمان ابن داود، وعند رجوع بلقيس لليمن مرت بالمكان المسمى (ماي بلا)، قرب أسمرا الحالية، فوضعت طفلاً ذكراً عرف باسم «ابْن المَلِك»، وتُوِّجَ ملكاً فيها بعد، وبمرور الوقت تحوَّر نطق هذا الاسم ليصبح «مِنِلِيك». وحسب زعم القاضي إدريس، فإنَّه وبعد وفاة مِنِلِيك، حكم من ذريته خمسة وعشرون ملكا، وضعُفَتْ بعد ذلك مملكة أحفاده، حتى تولَّى الحكم غيرهم، ثم استعادت ذرية مِنِلِيك المُلْكَ عن طريق أحد أحفاده الأشدَّاء يعرف بالملك «غالب» أو النَّجُوس[2] «كالب Kalib»، وهو أول من

فقلت: أنَّ رسول الله (ص) يدعوكما، فركبا معي سَرِيعَيْن حتى قدما على رسول الله (ص)، فدعاهما إلى الإسلام فأسلما وبايعا، ثم قام رسول الله (ص) فأخذ بأيديهما وانطلق بهما، يمشي بينهما حتى أتى بهما المُلْتَزم، وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود، فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يُرى في وجهه. قال العباس فقلت له: سرَّكَ اللهُ يا رسول الله، فإني أرى في وجهك السرور، فقال النبي (ص): «نعم، إني استوهبت ابْنيْ عمّي هذين ربِّي، فوهبهما لي».

(١) أبو لهب هو: عبد العُزَّى بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ ابْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارَ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ، حتى ينتهي الى اسماعيل ابن ابراهيم الخليل (عليه السلام). أما الملك سليمان (عليه السلام) فهو: سليمان بن داوود بن إيشار بن عويد بن عابر ابن سلمون بن نحشون بن عميناذب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم الخليل (عليه السلام).

(٢) البعض يكتبها «النقوس» بالقاف والصحيح أن تكتب بالجيم وتنطق جيماً يمانيةً كما هي العادة لدى عرب الجنوب ومن تأثر بهم في نطقهم.

لُقِّبَ بـ«حَظَيْ»[١]، واتسع ملكه ليصل إلى اليمن شرقاً، والنيل غرباً، أو كما يقول القاضي إدريس بالحرف: «وبعد زمن طويل رجعت في ذرية مِنِلِيك، ومنهم النُّجُوس «كالب»، أول من تلقب حَظَيْ، ومَلَكَ جميع البلاد أجدادُه من الشرق اليمن والغرب إلى خرطوم[٢]، ولما سمع ملك اليهود حاصر[٣] على الكهنة في هقر ناقرام[٤] حاربهم وقهرهم وعمل[٥] فيهم ملك من إخوانه أبرها»[٦].

ويختم بالقول إنَّ اليمن والحبشة أصبحتا تحت حكم واحد، وأصبح السكان يتنقلون بين البلدين، وزادت هجرة أهل اليمن إلى البر الحبشي، بعد استيلاء الفرس على اليمن، واستمرت الهجرة بعد ظهور الإسلام.

بعد ذلك يتحدث القاضي إدريس، في النسخة الأخرى من مسودة كتابه، عن أحد ملوك الحبشة الذي استولى على السلطة في فترةٍ لاحقةٍ، ولقبه هو «حَظَيْ صَادِق» أي الملك صادق[٧]، حيث يقول: «مُرُونِي» منزله «دانبيه» أو . . . [لم أتمكن من قراءة الكلمة] .... والمسمى حظي «زادق» ولد «ظنع»[٨] و«ظنعاي»[٩]، ظنع صار

(١) يقول ابن فضل الله العمري في كتابه: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، الجزء الرابع، صفحة ٨٦، متحدثا عن دول الطراز الإسلامي، وإقليم الحبشة عموماً: «وقيل: إنَّهم كلّهم تحت سلطان ملكِهم الأكبر المسمى بلغتهم «الحَطّيْ» ومعناه السلطان، وهذا الاسم موضوع لكلِّ مَنْ يُقَامُ عليهم مَلِكاً كبيراً».

(٢) هكذا في النَّص الأصلي.

(٣) وردت في الأصل «حاسر».

(٤) يقصد هجر نجران.

(٥) هكذا في النَّص الأصلي.

(٦) يشير هنا إلى استيلاء أبرهة الأشرم على حكم اليمن.

(٧) كتبها «زادق»، وربما كان هذا نطقها لديهم.

(٨) «ظنع» أصلها «صنِعْ» ولكن الحباب ينطقون الصاد بطريقة خاصة فصلناها عند حديثنا عن «اللهجة الحبابية» في الباب الثالث من هذا الكتاب.

(٩) أصلها «صنْعَايْ»، راجع الباب الثالث من هذا الكتاب.

أكلي قوزاي، وظنعاي ولد «زمزان»، وبعض يقولون[١] أولاد مُرُوِنِي ثلاثة: شالوق ومالوق، [لم يذكر الثالث، وهو فالوق]. شالوق ولد أكلي قوزاي [تنطق بالجيم اليمانية "جُوزَايْ"] وزمزان، ومالوق ولد سبردم وسبرزم وأَبْرَهَم وبيت زرؤ». ثم يقول: «زمزان[٢] ولد زانوي[٣] الذي وَلِدَ حَدَنْبَس وحِزْبَايْ ومَكَتَّر وسَلَمُون وحِيلُوم». ويشير القاضي إدريس إلى أنه ترك التطرق لتسلسل النسب ما قبل مُرُوِنِي من أجداد لكثرة الروايات وأقوال «المُحَكِّين» كما قال.

وقبل أنْ نُعَلِّقَ على رواية القاضي إدريس، نودُّ أنْ نشير إلى أنَّ الملك كالب أو (غالب)، الذي ورد ذكره في هذه الرواية، هو كما تذكر بعض المصادر التاريخية، من آل أصبحة[٤] (Ela-Asbah)، ولذلك يعرف أحياناً باسم «الأصبحة كالب»، وهو

---

(١) هكذا في النَّص الأصلي.

(٢) أيضاً يسمى «جمّجان».

(٣) أيضاً يسمى «جانوي» وأحياناً «جانهُويْ».

(٤) تحدثنا عن «الأصابح» أو «الأصبحيين»، أو بني «ذي أصبح»، وقلنا إنهم قوم من نسل حِمْيَر، وينتسبون إلى جدهم «أصبح» بن عمرو بن الحارث بن أصبح بن مالك بن زيد (الجمهور) بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة وهو حِمْيَر الأصغر (جد قبائل حضرموت). ورغم أنَّ القاضي إدريس يربط بين الملك غالب والملك سليمان (وبالتالي يخرجه من نسل حمير) إلاَّ أنني أشك في التسلسل الذي يقول به الأحباش للملك سليمان والملكة بلقيس، ولهذا لا استبعد دلالة اسم «آل أصبحة» على انتساب الملك «غالب» للأصابح. كذلك ربما كان النجاشي، الذي جاء بعده (بحوالي ثلاثة أجيال)، واستقبل المهاجرين المسلمين، من الأصابح أيضاً، ونستدل على هذا من اسمه المختلف عليه من قبل المؤرخين وإن كان عدد كبير منهم يقر بأن اسمه كان «أصمحة بن أبجر». وإذا علمنا أنَّ اسم «أبجر» هو اسم حِمْيَرِيٌّ قديم، فإن اسم «أصمحة»، حسبما نعتقد، هو تحريف لاسم: أصبحة (يعني من قوم الأصابح)، ونقله بعض الرواة «أصمحة» ربما لخطأ في نطق الإسم، أو نتيجة لعادة الإبدال المعروفة بين الباء والميم، كما هو الحال في «مَكَّة» و«بكة». وممَّا يزيد اطمئناننا لهذا الاعتقاد أنَّ المؤرخين قد اختلفوا كثيراً في نقل هذا الاسم، فبعضهم قال: أنَّ اسم النجاشي هو أصمحة وبعضهم قال: أصحم، وقيل: صحمة، وقيل: أصخمة، وقيل: أصحبة، وقيل: صحبة، وقيل: صمحة، وقيل: صَمْخَة، وقيل: مصحمة.

أحد أشهر ملوك أكسوم[١]. تولى الملك غالب الحكم في الفترة من عام ٥١٤ م وحتى عام ٥٤٣م، وهو بذلك سبق بقليل عصر أبي لهب الذي توفي في سنة ٦٢٤م. وقد لعب الملك غالب دوراً هاماً في تغيير ديمغرافية منطقة شرق أفريقيا بأسرها، وكان وراء انتقال موجات متعاقبة من السكان بين ضفتي البحر الأحمر، حيث ذكر لنا التاريخ أنَّ النجاشي (الملك غالب) قد جرد حملةً عسكريةً ضخمةً لغزو اليمن. وحسبما ورد في كتب المؤرخين ومنها كتاب السيرة النبوية لابن كثير[٢]، فإن أهل نجران[٣] كانوا نصاري فاعتدى عليهم الملك ذو نواس[٤] الحِمْيَرِي الذي اعتنق الديانة اليهودية، وخَدَّ لهم الاخدود وأجَّج فيه النار وحرقهم بها كما ذكر القرآن الكريم في سورة (البروج). فاستنجد أحد الناجين من الأخدود، ويسمى «دوس بن ثعلبان»، بملك الحبشة (الملك غالب ملك أكسوم، والذي يعرف عند المؤرخين العرب باسم أصْبَحَا Asbaha). فبعث معه في سنة ٥٢٤م سبعين ألفاً من الحبشة إلى اليمن، وأمَّر عليهم رجلاً يقال له «أرياط»[٥]، ومعه في جنده «أبرهة الأشرم»[٦]،

---

(١) «أكسوم» دولة أقامها (حسبما أكدَّ الدكتور جواد عليّ) العرب الجنوبيون الذين كانوا قد اقاموا في الحبشة. وعن تسمية الحبشة، يقول الدكتور: جواد عليّ: «وقد رأينا أنَّ من المستشرقين من يرى أنَّ أصل كلمة «حبشت» «حبشة»، من أصل عربي، وأن «الحبشة» أرض في العربية الجنوبية في الأصل، منها هاجر الحبش، سكان تلك الأرض، وهم من العرب فنزلوا بالأرض، التي سميت باسمهم في إفريقية». راجع في ذلك كتاب: «المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام» لمؤلفه الدكتور جواد علي، الناشر: دار الساقي، الطبعة الرابعة ٢٠٠١م.

(٢) «السيرة النبوية» للامام أبى الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، طبعة عام ١٩٧٦م، الجزء الأول، ص ٢٧- ٢٨.

(٣) تعد نجران من أقدم مدن العرب وقد سميت بهذا الاسم على: نجران بن زيد بن يعرب بن قحطان.

(٤) اسمه: زرعة بن تِبَّان أسعد أبي كَرب، وحسب تفسير ابن كثير، كان يسمَّى في زمان مملكته بيوسف، وهو من ملوك حمير القدماء.

(٥) يسميه ابن كثير «أرياطاً» بالياء، بينما يسميه ابن خلدون «أرباطاً» بالباء. راجع «تاريخ ابن خلدون» مرجع سابق، ص ٣٥٧.

(٦) يخلط الناس بينه وبين مَنْ عرفوا بهذا الاسم من ملوك حمير مثل أبرهة ذو المنار وأبرهة بن الصباح.

فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه «دَوْس»، والتقى بذي نواس الحِمْيَرِي فهزمه، وبذلك أصبحت اليمن التاريخية (بما فيها نجران) كلها خاضعةً لنفوذ أكسوم. ثم حدث خلاف بين القائد أرياط ومساعده أبرهة الأشرم، ونشب بينهما قتال انتصر فيه أبرهة الذى استرضى ملك الحبشة، واصبح حاكم اليمن المفوض من قبل أكسوم. ثم إنَّ أبرهة بنى «الْقُلَّيْس» بصَنْعَاء، وهي كنيسة عظيمة لم يُرَ مثلها في زمانها، وكان أبرهة يهدف إلى جعل هذه الكنيسة محجّاً للعرب بدلاً من الكعبة المشرفة، فكتب إلى النجاشي قائلا: إنّى قد بنيت لك كنيسةً لم يُبْنَ مثلها لملكٍ كان قبلك، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حجَّ العرب. ولم يألو أبرهة جهداً في سبيل جذب العرب إلى الْقُلَّيْس، فابدع في بنائها، وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة، وركّب فيها صلباناً من ذهب وفضة، وجعل فيها منابر من عاجٍ وأبنوس، وجعل ارتفاعها عظيماً جداً واتساعها باهراً[1].

بَيْدَ أنَّ أحد الأعراب من كنانة أحدث فيها (بال أو تغوط) بهدف إهانتها، وعندما علم أبرهة أنَّ الفاعل كان من الذين يعظمون البيت الحرام في مَكَّةَ، جهز جيشاً ليهدم الكعبة كما هو معلوم، ولكن الله أرسل عليه وعلى جيشه طيراً أبابيلَ، رمتهم بحجارةٍ من سجيل، فجعلتهم كعصفٍ مأكولٍ، كما هو مذكور في القرآن الكريم. ويشير المؤرخون إلى أنَّ الملك غالب قد أحضر في عام ٥٢٣-٥٢٤ م عدداً كبيراً من مسيحيِّ اليمن إلى منطقة جبلية – تقع حالياً في أرض الحَبَاب التاريخية – ليست بعيدة عن ساحل البحر الأحمر عرفت فيما بعد باسم (هَجَر نَجْرَان Hager Nagran) حيث سُمِّيت على مدينة نجران المعروفة، وتختصر عادةً في النطق

(١) يقول ابن كثير في الصفحة ٤١ من الجزء الأول من كتابه (السيرة النبوية) أنَّ بناء الْقُلَّيْس عندما زال ملك الحبشة عن اليمن أصبح مهجوراً ولكنه لم يمس بسوء لخوف الناس من الجَّان حيث كان الاعتقاد أنَّ كل من يتعرض لأخذ شئ من بناء الْقُلَّيْس وأمتعته يصبه الجَّان بسوء «فلم يزل كذلك إلى أيام السَّفاح أول خلفاء بنى العباس فذكر له أمره وما فيه من الامتعة والرخام الذى كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذى كان باليمن، فبعث إليه من خربه حجرا حجرا، وأخذ جميع ما فيه من الامتعة والحواصل».

المحلي إلى «هَجَر». وأصبحت «هَجَر» هذه فيما بعد عاصمة البُجَة التأريخية كما أورد بعض المؤرخين، وهذه المنطقة ما تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم، وتوجد في جبال شاهقة مشرفة على الجزء الأخير من وادي عنسبا (عين سبأ) قبل أنْ يلتحم ماء «عين سبأ» مع ماء خور بَرْكَا[1] Barka (أو «بَرَكَة» كما هو شائع بالخطأ)، وينطلقان معاً لتصب مياههما في دلتا توكر[2].

هذا وتوجد بتلك المنطقة آثار لم تدرس بعد. وتجدر الإشارة إلى أنَّ كلمة «هجر» ما تزال إلى اليوم تستخدم في الجزيرة العربية بمعنى مدينة أو قرية، وكانت مدينة الرياض ـ العاصمة السعودية ـ تعرف سابقاً بهجر. هذا فضلا عن هجر نجران، وهجر جازان، وغيرهما من المدن المعروفة في الجزيرة العربية. ذكر ياقوت الحموي، نقلاً عن ابن الحائك: إنَّ «الهجر، بلغة حِمْيَر والعرب العاربة، القرية، فمنها: «هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان، وهجر حصنة، من مخلاف مازن».[3]

وتعليقاً على رواية القاضي إدريس محمد نصر الدين، نود أنْ نوضح ما يلي:

(١) بَرْكَا (بفتح الباء وسكون الراء وفتح الكاف، أصلها من برك الجمل، والألف مد زائد للفتحة) اسم خور موسمي يجري من الجبال الواقعة غرب إرتريا نحو الشمال ليتحد مع خور عسنبا عند الحدود السودانية ومن ثم يتجهان معا إلى توكر. ورغم الخطأ الشائع بكتابتها ونطقها على صيغة «بَرَكَة» إلاَّ أنَّ صاحب مسالك «الأبصار في ممالك الأمصار» قد ضبطها بسكون الباء فقال «وادي بَرْكة»؛ أنظر صفحة ٨٥ من الجزء الرابع. ويبدو أنَّ وادي بَرْكا، كغيره من الاماكن في المنطقة، سمي على أوْدِيَةٍ تحمل نفس الاسم في الجزيرة العربية. يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان «برك» وادي لبني قشير بأرض اليمامة. ويقول حمد الجاسر في المعجم الجغرافي «برك» من أشهر الأودية التي تخترق جبل العارض (جبل طويق الآن). ويقول عبدالله بن خميس في كتابه (معجم اليمامة): «برك هذا هو الذي عناه الشاعر قيس حين قال:

خليلي أنَّ حانت وفاتي فارفعا	بي النعش حتى تدفناني على ثجر
فثمّ إذا مرت سماء مطيـــرة	بفيهة (برك) جادني سبل القطـر
بحيث تقول العامرية أنَّ رأت	بها جدثي أسقيت يا قبر من قبر

(٢) لمعرفة تفاصيل الزراعة في دلتا توكر راجع مقال «جي جيه فليمنج» بعنوان «توكر» والذي نشر في في المجلد رقم ٣ لعام ١٩٢٠ م، صفحة ١٢، من مجلة: «السودان في رسائل ومدونات».

(٣) «معجم البلدان» لياقوت الحموي، مرجع سابق، المجلد ٨، باب الهاء والجيم وما يليهما، ص ٤٤٦.

كانت الحبشة، قديماً وحديثاً، تلعب دوراً محورياً لشعوب وقبائل المنطقة المحيطة بها. فقد ظلت سلطة ملك الحبشة متمركزة دائماً في الهضبة، وأمَّا القبائل والمشيخات والسلطنات والممالك، التى كانت تحيط بالهضبة الحبشية وتدين (اسمياً) بالإسلام، ظلت مفتَّتةً ومبعثرةً، تقاتل بعضها البعض وتستقوي على بعضها بطلب التأييد من الحاكم القوي في الهضبة[١].

إنَّ من يقرأ الكتب التى تناولت تاريخ ما عرف بدول الطراز الإسلامي يرى كيف كان الارتباط والدعم الذي كان يوفره حكام الحبشة لطرف ضد طرف آخر من هذه الدويلات، وكيف كانوا يتبادلون في ذلك الأدوار، طبقا للمصلحة[٢]. واستشهاداً ببعض الأمثلة من التاريخ الحديث على ما نقول، نشير إلى الواقعة التى حدثت في العهد التركي، حينما وصل إسماعيل باشا إلى شندي في نهاية عام ١٨٢٣م، وأساء لملك الجعليين «المَكْ نِمِر»، وفرض عليه الجزية، وعندما اعترض المَكْ نِمِر على ذلك ضربه إسماعيل باشا بالغليون فحاول المَك نمر التصدي

---

(١) يرى كثير من المهتمين بتراث منطقة شرق السودان على وجه الخصوص أنَّ تأثير الحبشة على المنطقة كبير لدرجة أنَّ أسماء المدن والقرى القديمة تعود في غالبيتها إلى أسماء حبشية، فمثلا «كسلا» سُمِّيت على اسم القائد الحبشي «كاسا ألولا» الذي قتله الحلنقا، ويوجد قبره في «رُبَا كاسا» جوار القاش. ولا شك أنَّ قرية «مَكَلِي» قد سُمِّيت على اسم مدينة «مَقَلِي» الحبشية، بل وحسبما رُوِيَ عن العمدة: سيدنا بدري الأمين، فإن «أركويت» هي في الأصل «أَرْكَايْتْ» وهو اسم حبشي حسب قوله، وكذلك أسماء مناطق أُخرى مثل جبيتْ (بالجيم اليمانية) وسَنكاتْ (سِنكات) وغيرها، كلها كما قال، أسماء حبشية.

(٢) يقول ابن فضل الله العمري: متحدثاً عن «ممالك المسلمين بالحبشة»، وهي سبع ممالك، وكانت تعرف بدول الطراز الإسلامي: «وهذه الممالك السّبعة بأيدي سبعة ملوك، وهي ضعيفة البناء، قليلة الغناء، لضعف تركيب أهلها، وقلّة محصول البلاد، وتسلّط ملك ملوك الحبشة ـ صاحب أمحرة ـ عليهم، مع ما بينهم من عداوة الدين ومباينة ما بين النصارى والمسلمين، ومع هذا فكلمتهم متفرقة، وذات بينهم فاسدة» ثم يقول: أنَّ «هؤلاء الملوك السبعة لو اتفقت كلمتهم، واجتمعت ذات بينهم قدروا على المدافعة، أو التماسك، ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف، وافتراق الكلمة، بينهم تنافس، ومنهم من يترامى إلى صاحب أمحرة». انظر الصفحة ٦١ من الجزء الرابع من كتاب: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، مرجع سابق.

لإسماعيل، فقال له صديقه (الملك مَسَاعَد)[1] بلغة البُجَة: ما هكذا أو لا تستعجل، أو شيئاً من هذا القبيل، فأبدى المَكْ نِمِر الطاعة، ودعا الباشا إسماعيل وصحبه إلى وليمة، ثم أحرقهم جميعا، ومن ثم توجه المَكْ نِمِر وتسعةٌ من أبنائه وعددٌ كبيرٌ من الرجال والنساء من الجعليين إلى البطانة ثم الحبشة، واحتموا بالرأس (عَلِيّ) حاكم وَلْغَايتْ (إقليم غندر) في ذلك الوقت، واختطوا مدينةً موجودةً إلى الآن أسْمَوْها «المتمة Metemma» على نفس اسم عاصمة الجعليين في النيل. وتقع مدينة المَتَمَّة الحبشية جنوب مدينة الحُمَرَة وشمال مدينة غُنْدَر، وما زال رهط المَكْ نِمِر، وقسم كبير من الجعليين وخاصة فرع السعداب، موجودين بها إلى اليوم[2].

وهنالك حادثة أخرى يمكن أنْ نستشهد بها، وقعت في عهد الثورة المهدية (في سبتمبر ١٨٨٥) حيث استنجد ناظر بنى عامر آن ذاك (هُمَّد الفيل) بملك الحبشة ضد عثمان دقنة، وبسبب الدعم القوي الذي وجدوه من الرأس أَلُولَا (Alula) كسب بنو عامر المعركة، وكبدوا جيش الأنصار خسائرَ كبيرةً في موقعة «كوفيت».

وفي هذا السياق جاءت مناشدة شاعر الشكرية المعروف: محمد أحمد عوض الكريم أبو سن (الشهير بالحردلو) لملك الحبشة بالتدخل لإنقاذهم من المهدية حيث خاطبه بقوله (يا يابا النّجُوس: أي أبونا النّجُوس)، وكان الحردلو يرى أنَّ الحبشة (والإنجليز) أفضل لهم من حكم عبد الله التعايشي. قال الحردلو في قصيدة يهجو فيها جيش عبد الله التعايشي:

ناساً قُبَاح من الغَـرِبْ يومْ جُونا
جابوا التَّصْفِية ومن البيوت مرقونا

---

(١) حدث خلاف في ملك الجعليين قبل الفتح التركي حيث تنافس في المنصب كل من الملك نمر والملك مساعد وحدثت بينهما حرب تصالحا على إثرها بحيث أصبح الملك نمر ملكاً للجعليين في شندي والملك مساعد ملكاً للجعليين في المتمة.

(٢) أذكر أنني استمعت لحديث إذاعي من أحد عترة المَك نمر في أثيوبيا يدعى «أبوبكر» ولقبه الحكومي هو «أزماج Azmach» واعتقد أنها تعني قائداً، وكان زعيم الجعليين المقيمين في المتَمَّة الإثيوبية في سبعينيات القرن الماضي.

أولادْ نَاسَاً عُزَاز مِثْلَ الكلاب سَوُّونا
يا يابا النُّجُوس ويا الإنجليز أَلْفُونا

انظر الى مناجاته والحميمية في قوله «يا يَابَا النُّجُوس»، وكما هو معلوم فإنَّ «النُّجُوس - بالجيم اليمانية» هو ملك الحبشة.

ولعله من نافلة القول الإشارة إلى أنَّ بعض القبائل السودانية في القلابات بقيادة صالح شنقة، قد استعانت بالحبشة لمحاربة جيوش المهدية، وفعلت مثل ذلك قبائل كثيرة في شرق السودان، ومنها قبيلة الحَمْدَة (المقيمة في شرق النيل الأزرق) بقيادة زعيمها: إدريس أبي جن، وقبيلة الحُمْرَان (المقيمة حول نهر سيتيت) بقيادة زعيمها الشيخ «عجيل»، فضلا عن أنَّ قسماً كبيراً من قبائل الشكرية قد رحل إلى إرتريا في عهد المهدية، هرباً من بطش المهدية. وهكذا مثلما استقر جزء من الجعليين في منطقة المتمة الحبشية بعد الفتح التركي، استقر كذلك جزء كبير من الشكرية (وكذلك جزء من اللَّحَويين - خاصة فرع الماقيت) في مناطق داخل الحبشة ونهر سيتيت وأعالي القاش بإرتريا[1]، في بلاد الباريا والبازا حول مدينة هَيْكُوتَا وما جاورها، لدرجة أنَّ زعيم الشكرية في ذلك الوقت «أحمد بك أبو سن» طالب الحكومة الإيطالية بأنْ توليه الزعامة في تلك المناطق، وفعلاً ضُمَّت، لفترةٍ من الزَّمن، قبائلُ هَيْكُوتَا (الباريا والبازا والكوناما) وقبائل مَنَّعَا إلى نظارة الشكرية بقيادة أحمد بك أبو سن[2].

(١) يقول الشكرية النوايمة إنَّ وجودهم في إرتريا قديم قد سبق الثورة المهدية. وكانت للشكرية النوايمة قرية كبيرة جوار جبل «عيكيت» في إرتريا، ثم رحلوا الى قرية سموها الشكرية الثورة، وإخيراً استقروا في منطقة «فاتو» شرق كسلا، وهم أهل نخوة وكرم وأصحاب نحاس (نقارة) تعرف باسم «فريحانة». من زعمائهم في الوقت الراهن الشيخ الوقور/ عثمان محمد حسب الله والذي يلعب دورا كبيرا في تثبيت السلم الأهلي في منطقة الحدود بولاية كسلا. أيضا من الشخصيات المشهورة لديهم المرحوم التاجر/ عوض كريتا، الذي كان هو وأخوه محل تقدير من ثوار إرتريا لكونهما قد ناصرا الثورة الأرترية بقوة في فترة النضال ضد الاستعمار الاثيوبي.

(٢) راجع كتاب «تأريخ شرق السودان، ممالك البُجَة، قبائلها وتاريخها»، الجزء الثاني، مرجع سابق، صفحة ٦٦٩.



المؤلف مع الشيخ العمدة/ عثمان محمد حسب الله، عمدة الشكرية النوايمة، أثناء زيارة العمدة لمنزل المؤلف في الدوحة – قطر – في عام ٢٠١٢م.

قال شاعر البطانة إدريس وَدْ عَلِي وَدْ رَانْفَيْ:

حَسَّان وأَبْ عَلِي وأَبْ سِنْ حَدَارْ الجَارْ   كـاتلين عـزْ مُكُوكْ كَـمْ بَـرَّدُوهَا الـدَّارْ
من الهَيْكُوتَا لِي البَلَدْ أَبْ قَـنَا وصَفَارْ   مـا خـلـوهــا نَيَّة تَنْقَلِـبْ لـي النَّـارْ

دِي بُطَانْة أبْ عَلِي العِنْدَ السُّعود مفهومه شَرْطاً للبِدُورَها مُحَنْضَلَهْ ومسمـــومه
كَمْ لله فيها مِفَقِّشِينْ هـــام رومه بالــدم والرمـم لا عند جزم موسومة

ooooo

مـا بْنَدِّيـهَا لي تصويت وتقطـع حيله مسمومه ومُحَنْضَلَهْ لا مَرَاقد الفيـلَه
قِبَيلْ البَرَّدُوها أخْـــوانْ عِنيبَه ونِيلَه هسَّعْ راكزه فوق سيدها الحُمُولْتُو تِقِيلَه

ooooo

هذا وقد عبَّر شاعر البطانة الحردلو (محمد أحمد عوض الكريم أبو سن)، عن حزنه على رحيل الشكرية من البطانة إلى مناطق البازا، وقال في ذلك:

رحلوا أولاد حَمَدْ الكَلْمَتُنْ رَكَّازَه
وقطعوا الاتْبَرَاوِي مُنَوِّيـين البَازَه
سِتَّاتْ اللَّكِيكْ[1] العُقْلَتِنْ[2] نُزَّازَه
يبكن بالدموع لي ريرا لي منحازه[3]

ooo

رحلوا أولاد حَمَدْ الكلمتن تحجانه[4]
وخلوها البلد لي ناس دغيم وكنانه
سِتَّاتْ الدِّهَين[5] العُقْلَتِنْ روبانه
يبكن بالدموع لي ريرا والغبشانة[6]
رحلوا أولاد حمد تحت المُطُور والغيم
وعمسوهن سوا وعرضوا على بوسليم
وأبـاروك عَلِيّ ولـداً بِفِش الضَيـم
يَحَنْقَ الطير ضحى ومابْ يرضي بالغِنِّيم.

---

(١) «اللُّكَيْك» هو حِجْلٌ مصمت (غير أجوف) من الفضة يسمى «تِكَّتْ» لدى الحباب.

(٢) «العقلة» هي الشعر المضفور.

(٣) «ريرا» و«منحازة» أماكن في البطانة.

(٤) أي يُتَحَجَّى بكلمتهم ويُستأنس بها.

(٥) «الدهين» يقصد به الشعر.

(٦) «ريرا» و«الغبشانة» مناطق في البطانة.



صورة للشيخ: عبد الله عوض الكريم أبو سن (١٨٧٧-١٩٤٧م)، ناظر عموم الشكرية (والذي تولى النَّظَارة بعد عوض الكريم أبو سن) وهو يرتدي كسوة الشرف، وأخذت له الصورة في منطقة خشم القربة في فبراير ١٩٢٨م.

وهكذا نجد القبائل التى حول الحبشة كانت دائماً تستنجد بالحبشة[١]، لا سيَّما في أوقات الحاجة، وظل هذا العرف سائداً إلى وقتنا هذا، رغم ظهور الدول الوطنية،

---

(١) تعود تسمية الحبش والحبشة إلى قبيلتين حميريتين قديمتين، إحداهما: تنسب إلى حبشي بن مروان بن قارن الحيمري. والثانية: تنسب إلى حُبيش بن ناتج القضاعي. وهاتان القبيلتان هاجرتا من اليمن إلى شرق أفريقيا قبل أكثر من ألف عام قبل الميلاد (الإكليل للهَمْدَاني، صفحة ٣٥٣).

وسيستمر الأمر كذلك حتى لو كرهناه، بحكم أنَّ الحبشة دولة محورية في المنطقة تماماً مثل مِصْرَ، ولعل دخول إثيوبيا لأرض الصومال في عصرنا الراهن (وبالتحديد في ٢٠٠٨م) بدعوة ممَّا سُمِّي بالحكومة الشرعية، يمثل امتداداً لهذا الدور.

ولم يكن قومُ الحَبَاب بِدْعاً في هذا الشأن، بل كانوا كلَّما دعت الحاجة يطلبون السند السياسي والمدد من عتاد وسلاح من حكام الحبشة لمواجهة أعدائهم، وقد يكون هؤلاء الأعداء غزاةً ونَهَّابين («هَمْبَاتة» أو «شِفْتَه»)، في زمن لا دول فيه ولا محاكم ولا مجلس أمن، وإنما تُؤْخَذُ فيه الدُّنْيَا غِلاباً ويُكْسَبُ الرِّزْقُ زِنْداً. وقد يكون العدو قبائل تتنافس على المرعى، أو حتى أبناء عمومة يتنافسون على المال أو السلطان، وذلك في فترة لم تكن فيها الدول الوطنية موجودة، ولم يعرف هؤلاء القوم الحضارة والاستقرار، وإنَّما هي حياة البداوة وزمن المنافحة عن ماء عزيز وكلأ شحيح، زمن يذبُّ فيه النَّاس عن حياضهم بحد السيف وأسنة الرماح، زمن كانت تستعر فيه الحروب لأتفه الأسباب بين كل قبيلة وجارتها، بل وبين الإخوة وأبناء العم، تماماً كما قال الشاعر القُطَامِيُّ:

وكُنَّ إذا أغَرْنَ على جَنَابٍ ... وأعْوَزَهُنَّ نهبٌ حيثُ كانا
أغَرْنَ من الضِّباب على حلال ... وضبةَّ إنَّه مَنْ حانَ حانَا
وأحيـاناً على بَكْـرٍ أخِينَا ... إذا مـا لـمْ نجد إلاَّ أخَانا

وفي الحقيقة لم يقتصر الدور المحوري للحبشة في جوارها الجغرافي فقط، وإنَّما ظل دور ملك الحبشة دوراً محورياً وحاسماً في الجوار الإقليمي أيضاً. فكما هو معلوم، توسع حكم أكْسُوم في القرن الرابع الميلادي ليشمل كافة أرض إثيوبيا (الحبشة) الحالية وإرتريا، وامتد حكم أكسوم غربا ليشمل أجزاءً كبيرةً من السودان الحالي، بما في ذلك مدينة مَرَوِي[1]، والموقع الذي تحتله مدينة الخرطوم حالياً. وامتد

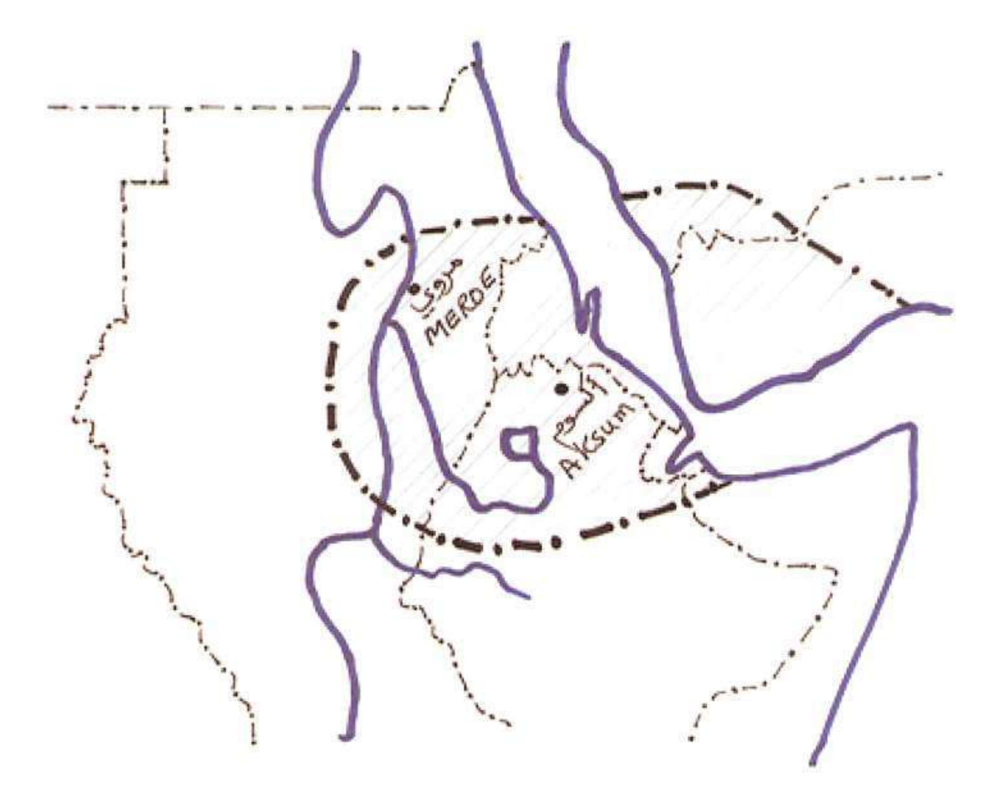
(١) «مَرَوِي» بلهجة الحباب، النابعة من لغة الجَعِيز، تعني «العصي»، والعصاة الواحدة تسمى «مُورَا» والجمع مَرَوِي، ولا ندري ما إذا كانت «مروي» عاصمة الحضارة المروية والتى كانت تقع جنوب

شرقا ليحتل أجزاءً واسعةً من اليمن السعيد، وبحلول القرن السادس، أصبحت كل أرض اليمن خاضعةً لحكم وسلطة أكسوم، كما بيَّنا عند حديثنا عن ملك أكسوم القوي الملك غالب. وفي الحقيقة، فإن تأثير الحبشة منذ القدم على مجريات الأحداث في شبه جزيرة العرب واضح للعيان، والوقائع في هذا الصدد يستعصى حصرها، ولكنْ هنالك أحداثٌ جسامٌ في برِّ العرب المقابل للبَّرِ الحبشي لعب فيها الأحباشُ دوراً حاسماً. ولعلَّ أقدم مستند بين أيدينا في هذا الشأن يتمثَّل فيما عثرت عليه البعثة الألمانية في سنة ١٩٠٥م من آثار أكسومية دوَّن عليها الملك عيزانا (٣٣٠– ٣٥٠م) أخبار مملكته التي امتدت شرقاً إلى الجزيرة العربية، لتشمل حِمْيَر وريدان[١] وسبأ وصالحين، فضلاً عن ساسو وبجة وكاسو «خاسا؟» في الغرب. ويذكر لنا التاريخ أنَّ الأحباش قد احتلوا اليمن في الفترة من عام ٣٤٠ م وحتى عام ٣٧٠ م، وذلك بسبب الخلاف الذي نشأ بين قبيلتي هَمْدَان وحِمْيَر. ثم عاد الأحباش لاحتلال اليمن في عام ٥٢٥ م بقيادة أرياط كما بيَّنا وذلك إثر استغاثة «دوس بن ثعلبان» بملك الحبشة (الملك غالب ملك أكسوم). وفي هذا الصدد يذكر ياقوت الحموي في معجمه، نقلاً عن إبي القاسم الزجاج، وكذلك الدينوري في «الأخبار الطِّوَال»، أنَّ الحبشة هم الذين أطلقوا اسم «صَنْعَاء» على العاصمة اليمنية، بعد أنْ كانت تسمى في القديم (أَزَال) «فلما وافَتْهَا الحبشةُ قالوا: نعم، نعم، فسمي الجبل نعم، أي انظر، فلما رأوا مدينتها، وجدوها مبنيةً بالحجارة حصينةً، فقالوا هذه صنعة «صَنْعَتْ»، ومعناها حصينة، فسميت صَنْعَاء»[٢].

أتبرا وشمال الخرطوم الحالية قد أخذت اسمها من لغة الجعيز الحميرية، خاصة وأن هنالك من يزعم أن النوبيين هم في الأصل من ذرية حمير.

(١) مملكة ريدان أسسها الملك ذو ريدان الحميري عام ١١٥ ق. م، في منطقة «إب» الحالية وكانت عاصمتها مدينة «ظفار»، والتى كانت تعرف سابقا بمدينة «ريدان».

(٢) «معجم البلدان» لياقوت الحموي، مرجع سابق، باب الصاد والنون وما يليها. وممَّا يجدر ذكره هنا أنَّ الحَبَاب حتى اليوم يطلقون على الشيء الحصين المصون كلمة «صُنُع» على وزن « فُعُل، بمعنى شريف وحصين ومصون، عكس الذليل أو الوضيع، والانثى «صِنِعِتْ» وهو نعت يطلق على كل شئ حصين أو قاسي أو منيع. هذا وبالرغم من أنَّ الهَمْدَاني ذكر في كتابه: «صفة جزيرة العرب»



خريطة تقريبية للمناطق التى شملها حكم أكسوم في عهد الملك عيزانا Ezana في القرن الرابع الميلادي ثم لتتمدد أكثر في عهد الملك غالب في القرن السادس الميلادي حيث نلاحظ أنَّ كافة إرتريا الحالية وجبوتي والجزء الشمالى من إثيوبيا وجزء كبير من السودان الحالي وجزء من السعودية والقسم الأكبر من اليمن كل هذه المناطق خضعت لحكم مملكة أكسوم وذلك حسبما ذكرت المصادر التاريخية ومنها موقع انكارتا Encarta الذي استقينا منه هذه الخريطة.

قصة تسمية «صَعْدة»، المدينة المعروفة في اليمن، بإرجاعها إلى الفعل «صَعَّدَهُ»، إلاَّ أنه لا يستبعد أنَّ يكون اسم (صَعْدَة أو صَعْدَا)، راجعاً إلى الكلمة الحِمْيَرِيَّة «صَعْدَاء»، بمعنى «البيضاء»، حيث ما يزال أهلنا يطلقون كلمة «صَعْدَة أو صَعْدَا» على الشيء الأبيض، فيقولون مثلا: «أَنْسَيِتْ صَعْدَا» اي امرأة بيضاء، وقد بينا أنَّ «أَنْسَيِتْ» هي كلمة حميرية بمعنى المرأة. هذا وقد علمت أنَّ هنالك ما يزال عدد من القرى في شمال إثيوبيا وفي إقليم سَرَايِي Seraye في إرتريا، الذي يعرف حاليا بإقليم «دبوب Debub»، يحمل حتى الآن اسم صَعْدَا مثل مدينة «ماي صَعْدَا Tsada Mai» الواقعة شمال عدوا، وقرية «صَعْدَا عَدِّي Tsada Addi» الواقعة غرب مندفرا.

ولعلّنا لا ننسى موقف الحبشة من الدعوة الإسلامية الفتية، عندما حاربتها قريش في مَكَّةَ، حيث إنَّ أول لجوء سياسي «Political Asylum» للمسلين كان لأرض الحبشة. وربّما لهذا السبب أحجم المسلمون عن غزو الحبشة على مرِّ العصور، رغم أنَّها أقرب إليهم من بلاد السند ودول البلقان وشمال أفريقيا والأندلس، ولربَّما كان الحديث الذي اختلف الفقهاء في صحته: «اتركوا الحبشة ما تركوكم» عاملاً آخر في عدم التعرض للحبشة، رغم أنها بمثابة الحديقة الخلفية لموطن العرب. والعرب ما فتئت تذكر فضل الأحباش، عليهم على مر العصور، ولا شكَّ أنَّ ما خص به الفقهاء والمؤرخون من ذكرٍ لفضل الأحباش لم يخصوا به أمةً أخرى في العالم، ومن ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما ورد في كتاب «الطراز المنقوش في محاسن الحبوش» للإمام العلامة أبي المعالي علاء الدين محمد بن عبد الباقي البخاري المكي خطيب المدينة المنورة وكان ألفه سنة إحدى وتسعين وتسعمائة، وكتاب «تنوير الغَبَش في فضائل السودان والحَبَش» لابن الجوزي، وثلاثة كتب للإمام جلال الدين السيوطي، الأول: «رفع شأن الحبشان» والثاني: «أزهار العروش في أخبار الحبوش» والثالث: «نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسُّمر»، وكذلك كتاب «الإلمام بأخبار مَنْ بأرض الحبشة مِنْ ملوك الإسلام» للمؤرخ المعروف أحمد ابن عَلِيّ بن عبد القادر المقريزي، وكتاب «تحفة الزمان أو فتوح الحبشة» لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الجيزاني المعروف بعرب فقيه، وكتاب «فخر السودان على البيضان» لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وكتاب «حديقة النظر وبهجة الفكر» المعروف بـ «سيرة الحبشة» لمؤلفه الحسن بن أحمد الحيمي، وكتاب «السودان وفضلهم على البيضان» لمحمد بن المرزبان، وكتاب أبي العباس الناشئ : «رسالة في تفضيل السود على البيض»، وكتاب: «نور الغبش في لسان الحبش» لمؤلفه العلامة محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي، وغيرها من الكتب كثير، كثير.

قصدنا من إطراء الحبشة التدليل على مكانتهم العظيمة وتاريخهم العريق حيث اكتشف علماء الآثار حفريات للإنسان البدائي الأول في الحبشة، وهذا يدل على أنَّ

الحبشة ربَّما هي منبع البشرية جمعاء لكون أنَّ أقدم إنسان تم الكشف عنه حتى عصرنا الراهن (٢٠١٤م) كان يعيش في الحبشة. بل ويكفي أنْ نشير إلى حقيقة أنّ أمَّةَ الحبشة هي أكثر الأمم التى توالد فيها العرب[1] منذ آماد سحيقة، وهي الأمة الوحيدة في أفريقيا، وربّما العالم، التى لم تستعمر قط أو تخضع لحكم الأجنبي. وعلى ضوء ما ذكرنا، فإننا نعتقد أنَّ لا أحدَ عاقلاً يمكن أنْ ينكر تأثير الحبشة (وهي قوة إقليمية فاعلة على مر العصور) على جيرانهم من الحبَاب وغيرهم من قبائل المنطقة، وهي أصلاً قبائل نتجت عن تكوين تراكمي من الهجرات القديمة والحديثة - إلى برِّ الحبش - من المنبع والمعين الذي لا ينضب، ألا وهو جزيرة العرب، وجنوبها بوجه خاص. أضف إلى ذلك أنّه وباستثناء الحبشة، فإنّ كل الدول الموجودة الآن في القرن الأفريقي، بما فيها السودان وإرتريا، هي دول حديثة التكوين ولم يمض على نشأتها إلاَّ عقود محدودة من السنوات، بينما عاشت قبائل المنطقة وخاصةً البُجَة لأكثر من

---

(١) هنالك عدد كبير من سراة العرب في الجاهلية والإسلام يربطهم بطريق مباشر أو غير مباشر نسب في الحبشة ومنهم، على سبيل المثال لا الحصر، عنترة بن شداد، وسليك بن السُّلكة، وتأبط شرا، والشنفري، وخفاف بن ندبة، وهشام بن عقبة بن أبي معيط، وعباس بن مرداس وعمرو بن ربيعة، والحارث بن عبد الله المخزومي، وعثمان بن الحويرث، وصفوان بن أمية بن خلف الجمحي، ومالك بن عُبَيْد الله بن عثمان الأموي، وعمير بن جدعان التيمي، والعباس بن علي بن أبي طالب، وأحمد بن أبي عبد الملك بن أبي مروان، وأحمد بن محمد بن صالح المخزومي، والعباس بن المعتصم، وهبة الله بن إبراهيم بن المهدي، ومحمد بن عبد الله بن إسحاق بن المهدي الملقب بنفاطة وغيرهم كثير. وإذا تحدثنا فقط عن فترة ظهور الإسلام فإن كثيرا من الصحابة رضوان الله عليهم مثل: عمار ابن ياسر، وعمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وعامر بن فهيرة، وبلال بن رباح، والصحابي المعروف جُليبيب، والشهيد مهجع، ووحشيٌّ قاتل مُسيلمة الكذاب وغيرهم، كان لهم جميعا نسب حبشي، قرب أو بعد، بل التاريخ الإسلامي مليء بفقهاء وأئمة وعلماء أفذاذ يعود نسبهم إلى الأحباش أمثال: الفقيه الورع سعيد بن جبير، والفقيه مكحولٌ، و الشاعر الحَيقُطان، والكاتب أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، وفرجٌ الحجَّام، وعبد الله بن خازمِ السُّلمي، وعمير بن الحَبَاب، والجحَّاف بن حكيم، وعُبَيْد الله بن أبي بكرة، والقائمة طويلة. ويجدر بنا هنا أنَّ نشير إلى أنَّ مربية الرسول علية الصلاة والسلام، السيدة «أم أيمن»، والتي قال الرسول عنها: «إنها أمّي بعد أمّي»، هي حبشية أماً وأباً، ومن أراد معرفة المزيد في هذا الباب عليه مراجعة كتاب «أهل بلال» للبروفسر عبد العزيز إبراهيم، الدار السودانية للنشر.

أربعة آلآف سنة تتجول بحُرِّية في محيطها الإقليمي دون قيود[١].

نعود إلى رواية القاضي إدريس فنقول: رغم احترامنا لاجتهاداته إلاَّ أنّه لم يسعفنا كثيراً، حيث أحجم عن ذكر تسلسل نسب بيت أسْجَديْ إلى جدهم المزعوم «إبي لهب»، واكتفى بايراد تسلسل نسبهم إلى الملك «مُرُونِي»، في تضارب واضح حيث لم يوضح لنا علاقة مُرُونِي[٢] هذا بأبي لهب، وقد علَّلَ ذلك بقوله إنه قد كَثُرَتْ عليه الروايات والأقوال في هذا الشأن[٣]. بَيْدَ أنَّ بعض بيت أسْجَديْ، من القائلين بالانتساب إلى أبي لهب، يوردون تسلسلاً يفضي إلى الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب، ولكن ينبغي أنْ أذكر هنا أنني قمت شخصيا بسؤال بعض كبار بيت أسْجَديْ، من الثقات المشهود لهم بالمعرفة والصِّدق، ومنهم المرحوم الشيخ: محمود وَدْ محمد وَدْ دِرَار[٤] وَدْ عتيل وَدْ جميل (ولقبه «يِبَّتِيتْ Yibbateet») في بداية

(١) من أجمل ما قرأت في هذا الصدد تعليق للكاتب البريطاني كروفورد في كتابه «مملكة الفونج بسنار» صفحة ١٠٢، يقول فيه: إنَّ إدعاءات البدو بشأن انتمائهم للأرض تشابه تماما حالة الطيور التى تنتقل من شجرة لأخرى في الغابة بحيث تستطيع الادعاء بأن كل أشجار الغابة هي موطن لها:
«The territorial claims of the nomads are as exactly defined as those of birds, and have much resemblance to them». See Crawford, «The Fung Kingdom of Sennar», J. Bellows Ltd, Gloucester 1951, p. 102.
ومن المعلوم أنه تم الاستعانة بالبُجَة لطرد الهكسوس من مصر كما أنَّ البُجَة هم السبب في تدمير دولة أكسوم، وهنا ينبغي ملاحظة تلك المساحة الشاسعة التى كانوا يتحركون فيها بين أقصى مصر وأقصى بلاد الحبشة وبالتالي فهي كلها أوطان لهم.

(٢) حسبما فهمنا من كتاب القاضي إدريس محمد نصرالدين فإنَّ «مُرُوني»، ويسمى أحياناً «مرون Miroon»، يفترض أنه من نسل الملك سليمان والذي هو من نسل إسحاق بن إبراهيم الخليل بينما أبو لهب هو من نسل إسماعيل بن إبراهيم الخليل (عليه السلام).

(٣) ونورد هنا ما قاله القاضي إدريس نصاً: «ونحن لما كثر علينا أقوال المحكين تركنا من بعد مُرُوني إلى حدنبس ومن قبل مُرُوني إلى آخر».

(٤) بعض الناس يكتبها «ضرار» وقد يكون هذا صحيحاً خاصةً وأنَّ "فديل" أصلها "فضيل"، وبالتالي قياساً فإنَّ "دِرَار" يفترض أنْ أصلها "ضِرَار". لكن اسم «دِرَار» بالدَّال، اسمٌ دارجٌ لدى الحباب وكثير من قبائل البجة ومعناه العَشَاء بالحبابية، ولعلهم أخذوه من درَّ الضَّرع بالحليب يدرُّ

السبعينات، فقال لي: إنَّ النسب المعروف والمؤكد لبيت أسْجَديْ، حسبما كان يسمع من أجداده، يتوقف عند صِنِعْ دَجْلِي، وقال إنَّه لا يعرف ماوراء ذلك.

ويجب أنْ نؤكد هنا أنَّه لا خلاف بين بيت أسْجَديْ في تسلسل نسبهم إلى جدهم المسمى «حَدَنْبَسْ»، أحد أحفاد أسْجَديْ الكبير الملقب بـ «أسْجَديْ طَجَّاي»، أي أسْجَديْ الكريم، وأمَّا ما بعد حَدَنْبَسْ فهو أمرٌ فيه بعض الاختلافات في الأسماء وترتيبها، ولهذا سنورد تسلسل نسبهم ابتداءً من «حَدَنْبَسْ»، الذي تفصله عن الجيل الحالي (٢٠١٤م) سبعة قرون تقريبا[١]. حَدَنْبَسْ انجب كلاً من بِثِمْنَتْ[٢] وجِبِيرُوك ودَرْمَاس. وأنجب بِثِمْنَتْ أربعة أولاد[٣] أكبرهم أسْجَديْ يليه أتْكَمِيْ[٤]، وأمهما من مَارْيَا قَيَحْ (أي قبيلة مَارْيَا الحمراء)، وبَحَايْلاَيْ وقِعْدَاد، وأمهما من مَارْيَا ظَلاَّم (أي قبيلة مَارْيَا السوداء). أسْجَديْ انجب دَافْلا وسَمُور، ودافلا أنجب جَبِرْتِتُّوس ودَبْرَايْ، وجَبِرْتِتُّوس (وأحياناً تنطق جَبِرْكِتُّوس) أنجب جَرْجِيس وسَمَرَالْعُول وقِبْطَان، وجَرْجِيس أنجب أبِيبْ ويَعْقُوب وتميكئيل، وأبِيبْ

درًا ودِرَاراً، لكون العشاء عندهم كان الحليب، ولهذا سنثبتها هنا وفي كافة أجزاء الكتاب بصيغة "دِرَار" كما ينطقها أهلها.

(١) يعتبر «حَدَنْبَسْ» الجد رقم ٢١ تقريبا لبيت أسْجَديْ الموجودين حاليا (٢٠١٤م)، وإذا اعتبرنا أنَّ كل جيل عمره ثلاثين سنة فإن هنالك حوالي (٧٠٠) سنة تفصلنا عن «حَدَنْبَسْ».

(٢) هل كلمة «بِثِمْنَتْ» هي نطق محرف لاسم "أبْ آمنتْ" أو "أبو آمنة" ؟؟.

(٣) أشرنا في الصفحة رقم (٧٦) وكذلك في الصفحة رقم (٨٦) و (١٠٥) من الطبعة الأولى لكتابنا هذا الى رواية تقول إنَّ أبناء «بِثِمْنَتْ» هم خمسة أبناء منهم «يَحَنِّس» الذي عرف بلقب «تَبَقَّسْنَا» أو «تَبَجَّسْنَا»، بالجيم اليمانية. هذا وقد رفض بيت أتكمي تلك الرواية وأفادونا بعدم صحتها. بناء عليه، وعملاً بقاعدة "الناس مؤتمنون على أنسابهم"، فإننا قد استبعدنا تلك الرواية تماماً من هذه الطبعة، ولا يفوتني أنْ أقدم إعتذاري عن أي إساءة تكون قد لحقت بأهلنا بيت أتكمي عموماً بسبب ذكري لتلك الرواية في الطبعة الأولى.

(٤) الرواية الأكثر رواجًا هي أنَّ أسْجَديْ هو الإبن الأكبر لبِثِمْنَتْ ولكن هنالك من يرى أنَّ أتكَمي هو الأكبر، بل سمعت حامد محمد آدم أدَّالا يقول إنَّ جده بحايلاي هو الأكبر.

أنجب مَفْلَس وتِمَارْيَام (أمهما «زَابْدَتْ» وَلَتْ[١] هَرِيش وَدْ كَرْتُوت من الباريا). فأمَّا تِمَارْيَام فقد تزوج «سِتَّ المُلوك» بنت عَلِيّ البَلَوِي، وهي مشهورة بلقب «بَلْوَيِتْ أم جَبْرَيْس»، وأبوها من أشراف البَلَو «قبيلة بَلِيّ، القضاعية الحميرية»، وأمَّها بنت عَلِيّ وَدْ مَعُو[٢]، زعيم عَدْ دَجْدَجِي (بالجيم اليمانية)، تلك القبيلة الحميرية القوية التى كانت نافذة في الساحل قبل حضور أسْجَديْ واخضعت كثيراً من القبائل لحكمها.

وكانت بِنْتُ عَلِيّ وَدْ مَعُو (أمُ بَلْوَيِتْ) متزوجةً فيما سبق من رجال ثلاثة هم: سالم وسليمان وصالح، من ثلاث قبائل مختلفة هي عَدْ مُعَلِّم وعَدْ شيخ محمود وأبو القاسم. ثم تزوجها عَلِيٌّ البلوي، وانجب منها بنتاً سُمِّيتْ سِتَّ المُلوك (أي سَيِّدَةَ المُلوك) وتختصر إلى «سِتَّلْ»، التى تزوجها تِمَارْيَام وَدْ أَبِيبْ فانجب منها جَبْرِيْس، ولهذا عُرِفَتْ بلقب «بَلْوَيِتْ أم جَبْرِيْس». ثم سافر زوجها (تِمَارْيَام) إلى الحبشة ومرض ولم يعد إلى أهله، كما بيَّنا في موضع آخر، وظنَّ النَّاس أنّه قد توفي فورثها، حسب العادة، أخوه مَفْلَس فانجب منها هِبْتِيْس (جد عَدْ هِبْتِيْس، رهط كَتَيْبَايْ الحالي - ٢٠١٤م)، يليه تَكْلِيْس (جد عَدْ تَكْلِيْس ـ رهط مؤلف هذا الكتاب).

ولعوامل تاريخية منها الحروب التى كانت تستعر لأتفه الأسباب، اشتهر الثلاثة: جَبْرِيْس (بن تِمَارْيَام) والشقيقان: هِبْتِيْس وتَكْلِيْس بـ «ثَلَثْ مَفْلَسْ»[٣] أو «ثَلَثْ حَبَابْ» (وتعني باللَّهْجَة المحلية: الحَبَاب الثلاثة المشهورين)، وذلك بالرغم من أنَّ اسم الحَبَاب يشمل بالإضافة إلى إخوانهم الآخرين قبائلَ كثيرةً ومتعددةً، ويمكن

---

(١) كلمة «وَلَتْ» سنستخدمها كثيراً في هذا الكتاب، وهي اختصار لكلمة «وَلْدَتْ» باعتبارها صيغة المؤنث لدى الحباب لكلمة «وَلَد» بمعنى إبن؛ فهي في الأصل «وَلَدَةٌ»، وتنطق بالحبابية «وَلْدَتْ»، ثم اختصرت الى «وَلَتْ» كما اختصرت كلمة «ولد» الى «وَدْ».

(٢) لمعرفة المزيد عن هذا الزعيم راجع كتاب «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق، ص ١٠١ - ١٠٥.

(٣) سبق أنْ أشرنا الى ما ورد بشأنهم تحت عنوان: «The Three Maflas» في الصفحة ٣٣٧ وما بعدها من الجزء الثاني من كتاب "إنو لتمان"، مرجع سابق، حيث يقول:

«And Ad Hebtes - or Habab - and Ad Takles and Ad Temaryam are together called the Three Maflas, and also the Three Habab».

لمن أراد تفصيلاً لهذا الأمر الرجوع لكتاب «الحَبَاب والحماسين في إرتريا والسودان» لمؤلفه المرحوم: محمد صالح ضرار، والذي ولد لأم حبابية، ونشأ وترعرع في كنف خاله (الحَبَابي) من بيت بَحَايْلاَيْ الوجيه «إدريس بك محمد»[١].

ولو اعتمدنا قول القائلين بانتماء بيت أسجدي لبني هاشم وضربنا مثلا بكَنْتَيْبَايْ الحَبَاب الحالي فإنَّ تسلسل نسبه سيكون كما يلي:

(١) كَنْتَيْبَايْ محمود (الموجود في وقتنا الراهن عام ٢٠١٤م).



(١) كان يشغل منصب أمين جمرك سواكن إبَّان قيام الثورة المهدية، وتم استعراض بعض أدواره في مسلسل عرض مؤخراً في التلفزيون السوداني عن الأمير عثمان دقنة.

(٢) وَدْ كَنْتَيْبَايْ حسين
(٣) وَدْ كَنْتَيْبَايْ محمود
(٤) وَدْ كَنْتَيْبَايْ حامد
(٥) وَدْ كَنْتَيْبَايْ حسن
(٦) وَدْ كَنْتَيْبَايْ هِدَاد
(٧) وَدْ كَنْتَيْبَايْ فِكَاك
(٨) وَدْ كَنْتَيْبَايْ ناود
(٩) وَدْ إِزَاز (بحر نقاسي)
(١٠) وَدْ كَنْتَيْبَايْ فِكَاك
(١١) وَدْ كَنْتَيْبَايْ هِبْتِيْس
(١٢) وَدْ كَنْتَيْبَايْ مَفْلَس
(١٣) وَدْ كَنْتَيْبَايْ أَبِيبْ
(١٤) وَدْ كَنْتَيْبَايْ جَرْجِيس (تنطق Ghargees بالجيم اليمانية).
(١٥) وَدْ جبركتوس (بالجيم اليمانية).
(١٦) وَدْ دَافْلا
(١٧) وَدْ أَسْجَدِيْ (بالجيم اليمانية).
(١٨) وَدْ بِثِمْنَتْ
(١٩) وَدْ حَدَنْبَسْ
(٢٠) وَدْ جاناي
(٢١) وَدْ جانوي (بعل نقارت) . وينطقها البعض وَدْ جانهوي
(٢٢) وَدْ جماجاناي
(٢٣) وَدْ صنع
(٢٤) وَدْ صنعاي

(٢٥) وَدْ صِنِعْ دَجْلي[١] (بالجيم اليمانية).

(٢٦) بن نجوس مُرُونِي[٢]

(٢٧) بن نجوس ماي

(٢٨) بن أسْجَديْ (الكبير)[٣]

(٢٩) بن حماسين

(٣٠) بن مالوك[٤]

---

(١) بعض الروايات تقول إن أولاد بثمنت كلهم يلتقون في هذا الجد مع بدلاي Badaly جد أسفدا Asfada و «زَرْءايْ Zaraye» جد دوبعات، وفي كل الأحوال كافة بيت أسْجَديْ يتفقون على تسلسل أجدادهم الى «صِنِعْ دجْلي»، وبعد ذلك تأتي روايات مختلفة، حيث يرى الكثيرون من بيت أسْجَديْ أنَّ أجدادهم أتوا الى البرِّ الأفريقي (الحبشة) قديماً من اليمن، وهم بقايا سبأ وحِمْيَر. بَيْدَ أنَّ هنالك روايةٌ أخرى يرددها الكثير منهم ومضمونها الانتساب الى أبي لهب القرشي. ولكن هنالك رواية ثالثة (وإن كانت أقل رواجاً) ترجع نسبهم الى بني مخزوم، ونذكر منها ما نقل عن كَتَيْبَايْ حسن وَدْ كَتَيْبَايْ محمود وَدْ كَتَيْبَايْ حامد الذي يسلسل أجداده من «صِنِعْ دجْلي» الى مرة بن كعب القرشي كما يلي: كَتَيْبَايْ حسن وَدْ كَتَيْبَايْ محمود وَدْ كَتَيْبَايْ حامد وَدْ كَتَيْبَايْ حسن وَدْ كَتَيْبَايْ هِدَاد وَدْ كَتَيْبَايْ فِكَاك وَدْ كَتَيْبَايْ ناود وَدْ بحر نقاسي إزَازْ وَدْ هبتيس وَدْ مَفْلَس وَدْ أبيب وَدْ قرقيس (جرجيس) وَدْ قبركتوس (جبركتوس) وَدْ دافلا وَدْ أسْجَديْ وَدْ بِثِمْنَتْ وَدْ حَدَنْبَسْ وَدْ أبيب وَدْ جانوي وَدْ جاجاناي وَدْ صنعاي وَدْ صِنِعْ دَجْلي بن ماي بن جالوق بن حَنْطب بن ريب بن خوز ابن خوزي بن حنع بن الوليد بن عبدالله بن هاشم بن عبدالمطلب بن حَنْطَب بن حارث بن عُبَيْد ابن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب.

(٢) بعد صِنِعْ دجْلي يختلف بيت أسْجَديْ في تسلسل جدودهم، فمنهم من يقف عند هذا الحد، ومنهم من يقول إنَّ والد صِنِعْ دَجْلي هو «حَظَيْ فاصِل»، ومنهم من يقول إنَّ والد صِنِعْ دَجْلي هو النَّجُوس «مُرُونِي» الذي يشار اليه في بعض المراجع باسم «مرون Miroon» ، ويقال إنها تحريف لاسم «مروان».

(٣) وهو المشهور بأسْجَديْ ظجَّاي (صَجَّايْ) أي أسْجَديْ الكريم وله عدة أسماء منها أسْجَدُو وأسْجَدُوم وزَرْؤُ.

(٤) ويسمى أيضاً «مالوق»، وله أخَوَان هما «شالوق» و«فالوق»، ويسميان أحياناً «شالوك» و«فالوك»، وهنالك فهم تقليدي عام وهو أنَّ معظم سكان حماسين Hamasain {المرتفعات الوسطى للمرتفعات الإرترية ـ أسمرا وما حولها}، وأكلي جوزاي Akele Guzai {المنحدرات الجنوبية الشرقية للمرتفعات الإرترية}، هم قبائل يمانية هاجرت قديماً من اليمن ثم هاجر بعضها الى

(٣١) بن كوتي[1]

(٣٢) بن كودي

(٣٣) بن حلّع

(٣٤) عبد العزي

(٣٥) بن الفضل

(٣٦) بن عباس

(٣٧) بن عتبة

(٣٨) بن أبي لهب

(٣٩) بن عبد المطلب

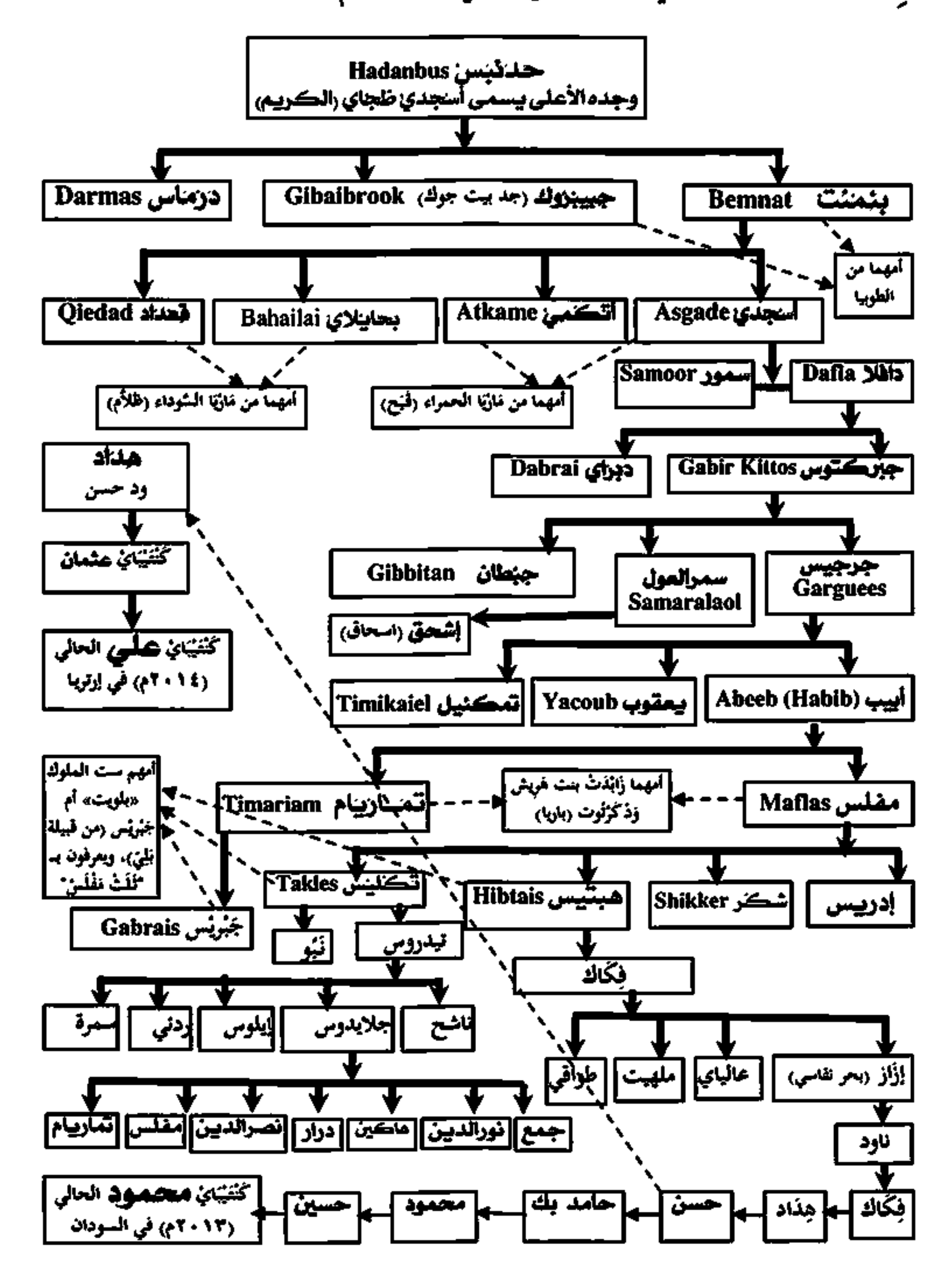
(٤٠) بن هاشم.

*****

مناطق سواحل البحر الأحمر، كلهم (بما فيهم بيت أسْجَديْ) ينتمون الى هولاء الإخوان الثلاثة (مالوق وشالوق وفالوق)، أبناء الجد الإسطوري «كوتي - زودي»، الذي يقال في العرف إنَّه جاء من وراء البحار؛ (راجع كتاب: «Races and Tribes of Eritrea»).
لمؤلفه S F Nadel الذى نشرته الادارة العسكرية البريطانية في عام ١٩٤٤م.

(١) «كوتي» هو أول بحر نقاسي (ملك البحر) للحباب، ويقال في الروايات المحلية إنَّه جاء من وراء البحار (يعني جاء من اليمن)، وربَّما يكون «كوتي» هذا هو المقصود بجد بيت أسْجَديْ المعروف باسم «زود أبو سهل Zod Abu Sahl»، وفي الغالب يختصر الاسم الى «زودي». راجع الدراسة التى أشرنا اليها في موضع آخر من هذا الكتاب، والتى أعدَّها السيد كروفورد Crawford بعنوان:
«الحباب والحدارب The Habab and Hedareb» ، ونشرها في مجلة: «السودان في رسائل ومدونات Sudan Notes and Records» ، المجلد رقم ٣٦، لعام ١٩٥٥، من صفحة ١٨٣ الى صفحة ١٨٧.

الرسم التالي يوضح تسلسل نسب بيت أسْجَديْ ابتداءً من جدِّهم بِثِمْنَتْ، والد أسْجَديْ، إلى الجيل الحالي (٢٠١٤م):



قدوم أسجدي من كَبَسَا:

كانت أسرة أسْجَديْ حتى القرن العاشر الميلادي مستقرة في منطقة «كَبَسَا» وهي المرتفعات التى تشمل عموم منطقة حماسين، وتعرف حالياً لدى الجغرافيين بالهضبة الإرترية، وهي منطقة كبيرة وتعتبر منبع كل القبائل التي يبدأ اسمها بكلمة «بيت» وتسمى قبائل حماسين، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: بيت أسْجَديْ، بيت جُوك، بيت بَحَايْلاَيْ، بيت معلا، بيت إشحقن، بيت طوقي، بيت زرؤ، بيت أبْرَهِي . . . الخ. وتزعم بعض الروايات المحلية، أنَّ الجدَّ الأكبر لبيت أسْجَديْ وإخوانهم كان من المهاجرين من الجزيرة العربية لمنطقة مرتفعات الحبشة، فأصبح يجالس الأحباش، ويشرب معهم الخمر[1]، ولكنهم كانوا يلاحظون أنّه يسجد (أي يصلي) من وقت لآخر، فاطلقوا عليه لقب «سَجَدَيْ Sagaday» أي «الساجد» أو الذي يسجد، وأصبحت هذه الكلمة فيما بعد تنطق «أسْجَديْ» (دائماً مع مراعاة نطق

(١) وجدت في كتب التراث الإسلامي قصة مشابه (وردت بروايات مختلفة) تنسب للصحابي المرتد عُبَيْد الله بن جحش الذي كان من ضمن المهاجرين المسلمين للحبشة ولم يعد منها، وكان متزوجا بأم المؤمنين «حبيبة» بنت أبي سفيان. ورد في كتاب: «تهذيب سيرة ابن هشام» لمؤلفه: عبد السلام هارون، قال بن إسحاق: اجتمعت «قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه»، وكان من بينهم عبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فقال بعضهم لبعض «تعلموا والله ما قومكم على شيء. لقد اخطئوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتسمون الحنيفية دين إبراهيم». ثم قال عما حدث لعبيد الله جحش: «فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمةً، فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانياً». وورد في كتاب « الطبقات» لابن سعد عن حبيبة بنت أبي سفيان أن زوجها «عبيد الله بن جحش» قد أكبَّ على الخمر حتى مات. وهذه القصة أوردناها هنا ليس لإثبات أن أسْجَديْ هو عبيد الله بن جحش فهذا ليس مبتغانا، ولكن أوردناها لنذلل على أنَّ القصة التى يرددها أناس من بيت أسْجَديْ أميون لا يقرأون ولا يكتبون، ربَّما لها شيئ من المصداقية وتسندها هذه الواقعة المشابهة التى وردت في مصادر ليس لها علاقة بشأن الحباب.

الجيم بالطريقة اليمانية Asgade). وطبقاً لتلك الرواية التي يرددها بعض كبار بيت أسْجَديْ، فإن أسْجَديْ المعروف كان قد سُمِّيَ على جدٍ له كان يسمى أسْجَديْ «ظَجَّايْ» أي أسْجَديْ الكريم.

هذا وقد حدثني الشيخ العمدة: محمد وَدْ عثمان وَدْ عتيل وَدْ جَلايْدُوس وَدْ إزَاز وَدْ جميل (من كبار الحافظين للتاريخ الشفاهي لبيت أسْجَديْ، وهو من عَدْ تَكْليْس)، أنَّ أجداد بيت أسْجَديْ انطلقوا من منطقة في المرتفعات الحبشية - لم يستطع تحديد موقعها - قال إنها تُسَمَّى «دَمْبِيَا» وكذلك تُسَمَّى «سَفَر أسْجَديْ» حسبما قال. ومن غرائب الصدف أنني وجدت في الخرائط قريةً أو مدينةً صغيرةً تقع حالياً غرب أكسوم بثمانين كيلومتر تقريباً، تعرف باسم «أسْجَديْ» وتكتب في الخريطة «Asgaday»، ولا أدري هل لها صلة بأسْجَديْ الذي نتحدث عنه؟ وهل هي «سَفَرْ أسْجَديْ» المقصودة أم لا؟.

مهما يكن من أمر، فإنّه يجب عدم الخلط بين أسْجَديْ «ظَجَّايْ Tsaggai»[1]، وهو الجدُّ الأعلى، وبين أسْجَديْ بن بِيْمْنَتْ، الجدِّ المُؤَسِّسُ للقبيلة، واسمه بالكامل هو: أسْجَديْ بن بِيْمْنَتْ بن حدنبس بن جاناي بن جَانُويْ (زَانُويْ) بن جِمَّجَانَايْ[2]

---

(١) نعتقد أنها في الأصل «صَجَّايْ» وتنطق «ظجَّاي» (بالجيم اليمانية)، وهي حسب لهجة الحباب تعني «كريم». ويقال إنَّ أسْجَديْ الكريم كان يذبح للصقور إذا لم يجد من يطعمه من البشر ولهذا يوصف بـ «حراد إجل جابات» أي الذي يذبح للنسور. وربما تحور معنى «صَجَّاء» إلى معنى «كريم» نظراً للصخب والضجيج المرتبط بكثرة الضيوف وخدمتهم في حالة الكرم الزائد، حيث أنَّ «صجَجَ - صَجَّ» تعني الجلبة والصوت الصادر عن الاحتكاك. و«صَجَّايْ» جاءت على صيغة «فَعْلايْ»، وهي صيغة شائعة بين الحباب بدلاً من صيغة المبالغة المعروفة «فَعْلاء»، فيقولون: «حجَّاي» بدل «حجَّاء» و«عَبَّايْ» بدل «عَبَّاء». وهذه الصيغة «فَعْلايْ» نجدها بكثرة في اللهجة السودانية حيث يقال: «زول جَرَّايْ» بدل «جَرَّاء» و«ضوَّايْ» بدل «ضَّواء» و«قَرَّايْ» بدل «قَرَّاء»، ومن ذلك «ديم القَرَّايْ» المشهور في شمال السودان (وأصلهم حلنقا). ويقال في المثل الشعبي: «الحدَّاث مُو سَوَّايْ» بمعنى الذي يتحدث كثيرا لا يفعل شيئاً.

(٢) بعضهم ينطقها جانهوي بن جمجانهاي وآخرون ينطقومها زانهوي بن زمزانهاي أو زانوي بن زمزاناي.

بن ظِنِع (صِنِعْ) بن ظِنْعَايْ (صِنْعاي) بن ظِنِعْ دَجْلي (صِنِعْ دَجْلي - بالجيم اليمانيـة)، الذي كانت أسرته الأرستقراطية تقيم في «كَبَسَا» (وهذا اسم عام لمنطقة حماسين أو المرتفعات الإرترية أو الحبشية، سمَّها ما شئت). يقال: إنَّ هؤلاء القوم كانوا ينطلقون من حماسين، ويأتون من وقت لآخر إلى ساحل البحر الأحمر بقصد جمع الأموال، حرباً أو سلماً، من الرعاة في تلك المناطق. وفي عهد بِمْنَتْ والد أسْجَديْ، كان القوم مستقرين في منطقة في كَبَسَا تسمي «عَدِّي نَفَاس»، وهي قريةٌ موجودةٌ إلى اليوم بالقرب من أسمرا. وحدث خلاف وخصومة بين أسْجَديْ وبعض عشيرته في حماسين، جعلت أسْجَديْ يفكر في وسيلةٍ ينهي بها هذا الخلاف. وهنا نصحه أحد العرّافين من كبار السن قائلاً له: «ألَمْ تعلمْ أنَّ جدَّك حَدَنْبَسْ كان يمر في البلاد، ويأتي بأفخر الملابس وكثير من الأشياء المعدومة»[1] في هذه المنطقة ولم يكن يرغب في سكنى هذا البلد. ففهم أسْجَديْ نصيحة العرّاف بأنها تحريض على السفر، وعندما استشار عِلْيَةَ القومِ، أجمعوا كلهم على الرحيل إلى جهة سواحل بحر المالح (البحر الأحمر). فاستعدُّوا للرحيل، وبدأ عددٌ كبيرٌ من القبائل وأقارب أسْجَديْ، ومنهم والده بِمْنَتْ وعمُّه دَرْمَاس وعمُّه جِبِبْرُوك (جدُّ بيت جُوك)، بالتجهيز للسفر مع أسْجَديْ إلى جهة الشمال.

هنا نورد اسطورةً طريفةً متدوالةً لدى بيت أسْجَديْ وهي أنَّ الكهنة والعرّافين قد نصحوا أسْجَديْ (سراً على انفراد)، بأن يتوغل في الجبال نحو السَّاحِل، إلى أنْ يجد أثاراً للقدماء، وشخصاً يجلس على حجرٍ أمام غار في حالة بدائية، ويتغذى على أوراق الشجر، وقالو له: عندما تصل إلى تلك الناحية، فإن هذا الشخص سيقوم لك من مجلسه اكراماً وتعظيماً لك، فما عليك إلاَّ أنْ تجلس مكانه، وتسكن تلك

(١) نقلا عن مسودة: «كتاب بِنْبَةُ البَيْتِ أسْجَديْ وحكاياته وعوايده» للقاضي: إدريس محمد نصر الدين، وهو كتاب غير منشور كما أوضحنا في موضع آخر من هذا البحث.

المنطقة فهي «أبْرَكْ لك[١]» وأفضل، حسبما تقول الإسطورة. كذلك نصحوا عمَّه جِبيبْرُوك (سراً) بأنْ يذهب مع أسْجَديْ إلى أنْ يصل إلى أرض بها شجر وصفها كذا وكذا، فيسكن فيها فهي «أبْرَكْ». وهكذا كل واحد منهم عرف وصف المنطقة التى يقصدها، لكنه لم يخبر صاحبه بسره. بعد ذلك بدأت الرحلة الميمونة والمكونة من قبائل كثيرة على رأسها الأب بِيْمْنَتْ والأبن أسْجَديْ وإخوانه أتْكَمِيْ وبَحَايْلاَيْ وقِعْدَاد وعمهم جِبيبْرُوك وعمهم دَرْمَاس.

مهما يكن من أمر فان القافلة توجهت نحو القبلة، تجاه البحر المالح[٢]، وسلكت طريق منطقة «مُوْطَعَتْ» للنزول من الجبال إلى السَّاحِل. يقول القاضي إدريس في مسودة كتابه المذكور، نقلاً عن بلاتا قِبِّطَان محمد حَسَامَا (أحد زعماء منسع ــ بيت إشحجن)، إنَّ أسْجَديْ وقومه عندما وصلوا إلى منطقة «شِعْبَتْ» نزلوا في المكان المسمى «نُقَّارَتْ نِجُوس»، وهو مكان مرتفع يسمع منه بوضوح صوت النُقَّارَة[٣] عند ضربها. فضربوا نقارتهم، ومن المعروف في ذلك الزمن أنَّ النُقَّارَة لا تضرب إلاَّ إذا كان هنالك أمرٌ جللٌ، ويتوجّب الحضور إلى مكان ضرب النُقَّارَة لمعرفة سبب ضربها. فتوجه النَّاس الذين كانوا يقيمون في تلك المنطقة إلى مصدر الصوت وأكرموا وفادة القادمين. بعد ذلك حدث خلاف بين الرعاة في بئر «لابا Laba»، نتج عنه قيام أسْجَديْ بالاستيلاء على بهائم قبيلتي المَنْسَع (المنسعتين) وجعلها زاداً لجيشه الذي عبر المنطقة بسكة «لَبْكَا Labca» باتجاه خور بَرْكَا[٤] Barka (أو

(١) نقلاً عن مسودة كتاب القاضي إدريس محمد نصرالدين غير المنشور والمسمى: «كتاب نسبة البيت أسْجَديْ وحكاياته وعوايده».

(٢) الحباب يطلقون مُسَمّي «البحر المالح» أو «بحر مالح» على البحر الأحمر.

(٣) النقارة (طبل ضخم) تعد عند الحَبَاب هي رمز القوة وعلامة الملك.

(٤) بركا (بفتح الباء وسكون الراء وفتح الكاف، أصلها من برك الجمل، والألف مد زئد للفتحة) اسم خور موسمي يجري من الجبال الواقعة غرب إرتريا نحو الشمال ليتحد مع خور عسنبا عند الحدود السودانية ومن ثم يتجهان معا إلى توكر. ويبدو أنَّ بركا، كغيره من الأماكن في المنطقة، سمي على مناطق تحمل نفس الاسم في الجزيرة العربية. يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان «برك» وادي لبني قشير بأرض اليمامة. ويقول حمد الجاسر في المعجم الجغرافي «برك» من أشهر الأودية التي

«بَرَكَة» كما هو شائع)، ونزلت القوافل في المكان المعروف حتى اليوم باسم «كِرْبَا أسْجَديْ Kirba Asgade» الموجود في بلد بيت جُوك في حوض «عنسبا». وقد استقر القوم في هذه المنطقة سنين عدداً، كان أسْجَديْ خلالها يجوب البلاد المحيطة فيما يُعْرف بعادة «المَحْسَسْ» أي التحسس، حيث استكشف المناطق المحيطة بدَبِر سَلا (جبل سلا) وعموم حوض بَرْكَا (بركة)، ولكنه لم يجد العلامات التي أشار اليها الكهنة والعرَّافون، فقرر مواصلة السّير إلى الشمال متابعاً جبال البحر الأحمر، متحرِّياً العلامات التى ذكرت له. هنا حدث انقسام حيث أنَّ جِبِيبْرُوك قد راق له المكان «كِرْبَا أسْجَديْ»، ويبدو أنه وجد فيه العلامات التي ذُكِرَتْ له، فاعتذر عن المسير مع أسْجَديْ بحجَّة أنَّ زوجه على وشك أنْ تضع، وتبقَّى معه جزءٌ كبيرٌ من القوم، بما فيهم أخوه دَرْمَاس Darmas ، العمُّ الثَّاني لأسْجَديْ. وتقول الرواية إنَّ جِبِيبْرُوك وأخاه دَرْمَاس إختلفا فيما بينهما حول قسمة الأرض، فقرروا أنْ يتم قسمتها بحسب وزن (عدد) أتباع وممتلكات كل واحدٍ منهما. وفعلا تمت عملية الوزن والقسمة، ورجحت الكفة لصالح جِبِيبْرُوك، وسميت المنطقة منذ ذلك الوقت بمنطقة «وازنتت Wazintat»، مشتقةً من الوزن. ويبدو أنَّ القسمة لم تعجب دَرْمَاس فقرر العودة إلى كَبَسَا.

أمّا بِيْمْنَتْ وأبناؤه ومن تبعهم اتجهوا شمالاً ناحية البحر الأحمر. ويبدو أنَّ أسْجَديْ كان يريد اكتشاف المنطقة حتى يجد العلامات التى ذكرت له، ولذلك واصل القوم مسيرهم فنزلوا عن طريق مَشْحَلِيتْ (Mashaleet) من اتجاه قَبْقَبْ (جَبْجَبْ Gabgab، بالجيم اليمانية) حتى وصلوا الى منطقة قطرنيت «Qatranait» التي توجد في منطقة جنوب توكر بالقرب من قرية مرافيت الحالية، حيث استقروا

تخترق جبل العارض (جبل طويق الآن). ويقول عبدالله بن خميس في كتابه (معجم اليمامة): «برك هذا هو الذي عناه الشاعر قيس حين قال:

خليلي أنَّ حانت وفاتي فارفعا	بي النعش حتى تدفناني على ثجر
فثمّ إذا مرت سماء مطيرة	بفيهة (برك) جادني سيل القطر
بحيث تقول العامرية أنَّ رأت	بها جدثي أسقيت يا قبر من قبر

فيها مؤقتاً، وانقطع أسْجَديْ للعبادة، واعتزل أهله فترة من الوقت في تلك المنطقة متخذاً من جبل هَجَر «Hager» الواقع في نهاية امتداد سلسلة جبل (رُورَا حَبَاب) مقراً يتعبد فيه (هكذا تقول الرواية)، ولهذا سمي المكان فيها بعد بـ «هَجَر أسْجَديْ» وهو عبارة عن قمة جبل تنتهي بنتوء على شكل سبعة أصابع إذا وقف الشخص داخلها لا يرى الاَّ السماء، ولذلك يطلق السكان على هذا المكان اسم «مَصَابْعُو Machabou» أي الأصابع – جمع أصبع. ثم اتجهـوا الى منطـقة «سـؤر أدوق Sur Adoog»، ومنها إلى حوض القاش، وواصلوا السير إلى منطقة «هيا» الحالية، حيث استقروا فيها فترة من الوقت. في هذه المحطة «هيا» انضم إليهم جد قبيلة ظاورا (ألْدا) ويسمى مَرْجُوق وَدْ حسن[1]، والذي اتجه معهم فيما بعد إلى منطقة «كَرْكَبَتْ Karkabat» في خور بَرْكَا ثم «جَبَيْ ظَعْدَا Gabai Tsaada» ثم «هَلايْ نِيجَايْ Halai Negai»، ثم «مِيتَيِتْ Mitateet»، حتى وصلوا إلى منطقة نَقْفَا Nakfa الحالية[2]، وهي منطقة مرتفعة ومنبسطة في أعلاها، فنزلوا في منطقة «أمْزُلال»

---

(١) مرجوق ربما كانت في الأصل مرزوق وتحورت فيما بعد الى مرجوق، ويعتبر لقاء هيا أول وأقدم تحالف تم بين بيت أسْجَديْ وقبيلة ألْدا بقيادة زعيمهم مرجوق وَدْ حسن. هذا وينبغي أنْ نشير الى أنَّ هنالك شخصٌ آخر من أحفاده ظهر فيما بعد ويحمل نفس الاسم «مَرْجُوق وَدْ حَسَن» وكان ولياً صالحاً وما زال قبره قائماً وظاهراً حتى اليوم في منطقة أم هيمي Um Hameemai.

(٢) تقع "نقفا" جوار جبل "رُورَا حَبَاب" جنوب قرورا، وتبعد عنها بحوالي ٨٠ كيلو متر (على الخريطة)، كما تقع شمال مصوع، وتبعد عنها بحوالي ١٩٢ كيلو متر. ونقفا هي أحبُّ بقاع الأرض للحباب عامة وبيت أسْجَديْ خاصةً، وقد اطلقوا عليها – لحبهم لها – عددا كبيرا من الأوصاف مثل: "دِقَّيْ سَمَرْ الغُول" بمعنى مقر سَمَرْ الغُول، وهو أول من لقب بكنتيباي للحباب، و"دقي جرجيس" - بالجيم اليمانية – ويقال إنَّ جَرْجِيس وَدْ جَبرْتُوس وَدْ دَفْلا وَدْ أسْجَديْ هو أول مؤسس لنقفا، و"بَازهَتْ" أي المنيرة (من البَرِه والبُرْهَان) و"أمْ بُرُود" أي الباردة لاعتدال جوها، و"أمْنَا عَبَّاي" أي أمنا الكبيرة، و"أمْ كُلـو" أي أم الكل، و"حبن كلـو" أي مصدر الفخر للكل، و"شَـيْكَا حَبَنْ" أي نَبْعُ (ماء) الفخر و"شَـيْكَا قَرْفَرَتْ" أي نبع قَرْفَرَتْ – شجرة ظليلة دائمة الخضرة طيبة الرائحة (القَرْفَرْ عندهم هو "القُرُنْفُل، وقَرْفَرَتْ هي مؤنث قَرْفَر")، و"شَـيْكَا قَيِمْ" أي نبع الصيف، و"شَـيْكَا كُلُّو" أي نبع أو ماء الكُل، و"أمْ يَتَايـمْ" أي أم اليتامى، و"مِدِر شِيمَتْ" أي بلدة الحُكْم، لكونها مقر كَنْتِيبَايْ، و"إي تَعَبِّر" و"يَسَرتْ" و"نقفا حَمَلْمَال"، وغير ذلك من الأوصاف.

ويحرِّف بعضهم نطقها إلى «انْزُلال» و«انْدُلال» بل و«أمْدُلال»!! وقد سُمِّيَتْ أمْزُلال (وهي في الأصل «الزُّلال» ـ حيث تم إبدال اللام بالميم حسب العادة المعروفة بطُمْطُمَانِيَّة حِمْيَر كما سنوضح) لعذوبة مائها من نبع لا ينقطع طوال العام. وتجمع القوم في وادٍ بجوار الجبل وقفت عليه بغالُهم متقابلةً ومجتمعةً لأول مرةٍ، بعد رحلةٍ مضنيةٍ كانوا يسيرون فيها بقافلة ضخمة لايَرَى أولُها آخرها، ولهذا سُمِّيَ الوادي بوادي «بَغْلَة Bagla» من كثرة البِغَال التى تجمّعت فيه يومئذ، وسُمِّي الجبل: «دَبِر أو رُورَا أسْجَديْ»، ثم سُمِّي في فترةٍ لاحقةٍ بالمسمى الحالي: «رُورَا حَبَاب Rora Habab» أي «جبل الحَبَاب». وهكذا تقرر أخيراً الاستقرار في منطقة أمْزُلال (الزُّلال)، بجوار نقفا. يقول القاضي إدريس محمد نصر الدين: لما وصل أسْجَديْ إلى منطقة «أمْزُلال» في «رُورَا حَبَاب»، وجد أنَّ سكان تلك الجهات كانوا من الباريا[1]، ووجد العلامات التى ذكرت له ووجد في ذلك الجبل رجلا يجلس على حجر أمام غار في هيأة بدائية وغذاؤه من ورق الشجر وعند وصول أسْجَديْ قام له من مجلسه وأشار له بالجلوس. عندئذ تأكد أسْجَديْ أنَّ المكان الذي يبحث عنه هو هذا المكان فقرر أنْ تكون إقامته في ذلك الجبل الذي عرف فيما بعد بجبل أسْجَديْ أو (رورا حباب). وممَّا يجدر ذكره هنا أنَّ نقفا التى تجاور ذلك الجبل لم تكن موجودة في تلك الفترة ولكن سيتم فيما بعد إنشاؤها على يد أحد أحفاد أسْجَديْ والذي يعرف باسم قرقيس Garguees (والأصح أنْ تكتب «جَرْجِيس» حيث الجيم دائما يمانية)، وسنأتي لقصة نشوئها إن شاء الله. ومنذ ذلك الحين ظلت نَقْفَا بمثابة أرض

(١) ربما تكون هذه إشارة إلى الفونج. يقول الكونت روسيني أنه عندما حضر أسْجَديْ إلى حوض عنسبا في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي وجد في تلك الأنحاء قبائل الفونج والبلو، وقد رحل الفونج عند وصوله. وكما يقول روسيني فإن مقر الفونج كان في منطقة ظرظرا ليس بعيداً عن امْزُلال (نَقْفَا)، ومنطقة ريبالاف بالقرب من رَيَّا في سهل أقرع، ويمكن مشاهدة بقاياهم بالقرب من قبر الشيخ إياسو. ويقول أنَّ ذلك المكان كان يسمى إتَاتَافِي (أصلها أثاثي)، واستولى عليه الفنوج بعد أنَّ حاربوا قبيلة «الْمُدَا»، الذين كانوا قد احتلوا المنطقة قبل مجيء أسْجَديْ.

الميعاد لبيت أسْجَديْ، تظل ذكراها عزيزةً حتى لو تباعدت بهم الأوطان. يقول الحَبَاب في أمثالهم: «نَقْفَا أَمْ بُرُودْ مَسْكَبْ حَايِسْ وتُرُودْ»!! أي نقفا الباردة التى هي مسكن الأفضل والأقْوَى. وقال شاعرهم أبو محمد إياسو وَدْ هِبْتِيْس وَدْ ناود في قصيدته المشهورة [(١)] عن واقعة شنجيرا:

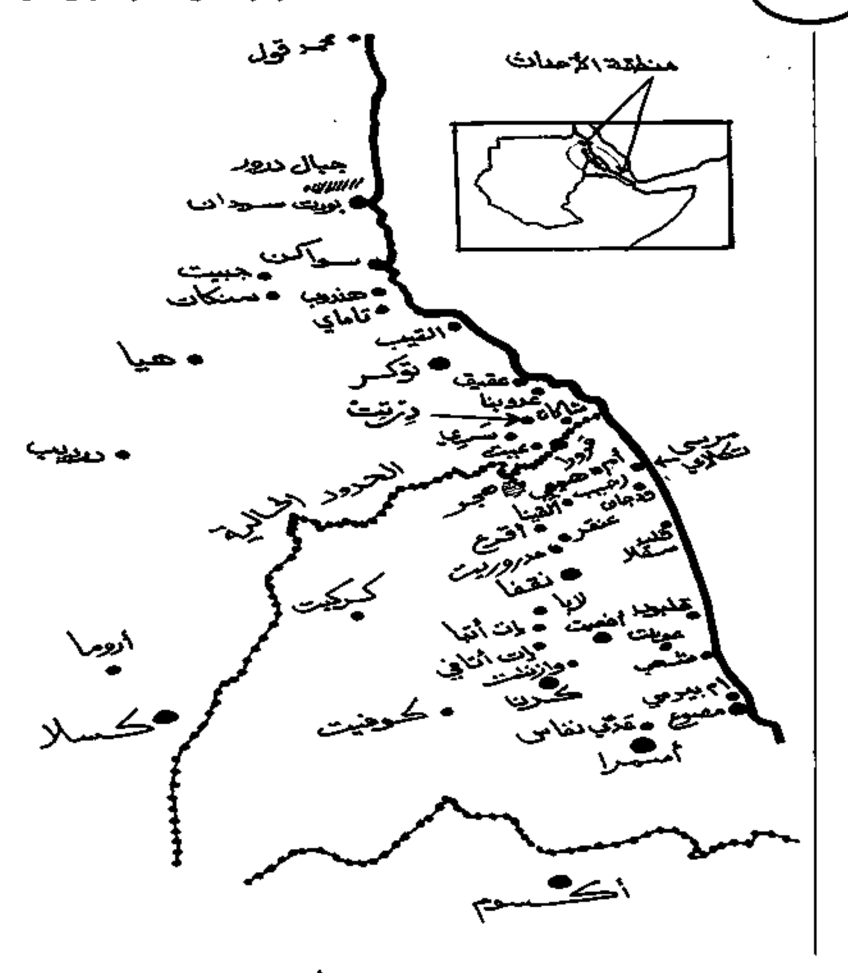
إلاَّ تا نَقْفَا حملهال، بيت أسْجَديْ لـ أجلا	(هذه نقفا الخضراء مكان موت بيت أسنجديْ)
مِنَّا جَيِسْ لَجَيْسَا، وديبا مَيِتْ لـ أقبلا	(منها يهاجر من هاجر وفيها يموت من يرجع)
بُذُحْ أرزاقـاتـا، حَوَسَّـا ومَعْـرَا	(كثيرة الأرزاق من سمنٍ وعسل)
قِـدُويْ تِـنْفَـاسَـا، زَبَـاتْ ظَيْني وَلْوَلا	(طيبة الأنفاس وهواؤها برائحة الزَّبَاد)
حامل جـروبـا، ديب أرضَ لـ أكـررا	(أرضها لينة الملمس إذا استلقيت فيها)
بُـذُحْ أَذْوَعَـاتَا، شَرًّا ولـ طَـرَرَا	(كثيرة أحاديثها (أذوعاتها) وشرها وطررها)
بُـذُحْ نُـوَايَـا، أكَـابَاتَـاتْ تَحَاضَـرَا	(كثيرة بهائمها تتجمع - تحضر - في أماكنها)
وبُـذُحْ أدَّامَا، عِجَّتْ جَرْجِيس تا مَجْبَرَا	(كثيرة السكان ومجلسها يعقد تحت شجرة جَرْجِيسْ).

وقال عنها الشاعر "وَدْ كَروفْ" من قبيلة سَبْ لَعَاليتْ:

نَقْفَا حَمْلَمَالْ إِي نَهَبًّا إِبْ هَبُـو	(نقفا الخضراء لا نهبها بمجرد قول هَبُوا)
نَقْفَا حَمْلَمَالْ فِنجَيْ حِمِرْ تَا وَكَبُو	(نقفا الخضراء تقع بين الضُّرَّة والخِضر)
إِي خَاطِرْ لِيِلَّا مِنْ جَرُوبْي جِرَبُو	(الجبان هو الذي يرضى بأن يقتطع من جسده)
وإِي ظَجَّايْ لِيِلَّا دِيبْ عَرْقَي سِكَبُو	(والبخيل هو الذي يقول: ناموا على فراشي!!).

---

(١) القصيدة طويلة ومعبرة تعرف بعدة أسماء منها "إِيْ يِتْوَرَّتْ" {أي التى لا يأتي الشعراء بقصيدة مثلها لترثها أو تحل محلها}، قالها إياسُو بعد معركة «شِنْجَيْرَا» وذلك القتال الذي دار بين أبناء العمومة: عَدْ هبتيس وعَدْ تكْلِيْس، على منصب النَّظَارة «كَنْتِيبَايْ». وكان الشيخ إياسُو حزيناً على مقتل إبنه الوحيد (محمد) الذي قتل من قبل مجهول ودفن في منطقة «إظَّايتْ» بالقرب من شِنْجَيْرَا التى وقعت فيها المعركة بعد ذلك. وكان إياسو يتهم قومه الحباب عموما (وخاصة عَدْ تَكْلِيْس) بقتل إبنه، فجاءت المعركة فيها بينهم (عَدْ تَكْلِيْس وعَدْ هِبْتِيْس) وقضت على الفرسان من الطرفين، فأحسَّ إياسُو أنه قد نال ثأره ممن قتل ابنه وقال قصيدته الرائعة التى أدار فيها حواراً بينه وبين "جِسَاس" بنت إبنه، وقد أوردنا جزءاً منها عند حديثنا عن معركة شِنْجَيْرَا.



خريطة توضح مسرح الأحداث
ونشير فيها فقط إلى المناطق الرئيسية المذكورة في البحث.

وبدأ أسْجَديْ بالاتصال بسكان المنطقة، فوجد في الموقع الذي يسمى «دِكِلْ لَبيبْ أجْمَال Dikil Labaib Agmal قبيلة مِيْكَال في حلة «إدريس وَدْ يوسف»، والذي قابلهم بكل ترحاب وكرم. كما وجد قبيلة دُوبْعَات Dob'at والذين كان لهم (قبل حضور أسْجَديْ) ملك مشهور إسمه «تَجَّسْ Taggas[1] وَدْ بَجَّسْ

(١) اشتهر الملك تَجَّسْ Taggas (بعض المراجع تكتبه Tegez) بقسوته وجبروته، وقد عرف عنه أنه كان يدهن سيفه من وقت لآخر بمخ شخص من رعاياه والذي يتم قتله خصيصاً لغرض إستخراج مخه ودهن سيف الملك به، وفي سبيل ذلك قتل كثيرا من الأنفس البريئة. وفي يوم من

Baggas»، كما وجد قبيلة دَجْدَجَي «Dagdagay» (البعض يكتبها « دَقْدَقي» والصحيح أن تكتب « دَجْدَجَي» وتنطق الجيم حسب النطق المحلي بالطريقة اليمانية)، وهذه قبيلة عظيمة كانت صاحبة القدح المعلي في الساحل قبل حضور أسْجَديْ، وكان لهم زعيم مشهور اسمه تَـخْ وَدْ تَجْدَا (Tug wad Tugda)، والذي كان مقره الرئيسي في منطقة «مَايْ وُعُويْ». وشاع في المنطقة وصول أسْجَديْ وقومه الى « أمْ زُلال»، فاصبح النَّاس يتوافدون الى مقره زرافاتٍ ووحداناً مستبشرين بقدومه، خاصةً وأنَّ المنطقة كانت دائماً هدفا لغارات متوالية يشنها الأحباش، الطُّوبْيَا، المَجْهَلِيب، الحَفَرَا، بيت بَكْرُو (بيت بكر) والبَارَيا. ولَّما شعر النَّاس بهيبة أسْجَديْ وشخصيته القوية الجاذبة - الكارزمية - التفوا حوله، إما خوفاً من جبروته أو طمعاً في حمايته للمنطقة وتأمين بهائمهم التى كانت عماد معيشتهم.

وأدَّى هذا الأمر الى اتحاد دَجْدَجَيْ ودُوبْعَات ومَيْكَال والْمُدَا وأسْفَدَا مع بيت أسْجَديْ ومن يليهم. وضم الحلف عدداً كبيراً من القبائل الأخرى في تجمع قبلي ضخم نتج عنه فيما بعد قبيلة الحَبَاب. وأمَّا من رفض الإنضمام لهذا التجمع فقد تمت محاربته، ونتج عن ذلك رحيل بقية الطوبيا والمجهليب الى داخل الحبشة (اثيوبيا حالياً)، والباريا والحفرا تم إزاحتهم الى بَرْكَا، والفُونْج الى سنار. وتبقت أسَرٌ قليلةٌ من بيت بكرو والباريا في السَّاحِل، حيث تزوج فيما بعد أبِيبْ وَدْ جَرْجِيس إمرأةً من

الأيام قرر أن يدهن سيفه بمخ أحد أبناء أخته التى كانت متزوجة من الشيخ «محمود المداي» جد قبيلة المُدا (أمه من المهيدات من الشكرية ـ بنت مهيد بن شكير التَّويم). وقد ترجته أخته كثيرا لحماية أبنائها وقالت له هذا ابني وهو زخري «حظوراي Hasuray» بمعنى حظيرتي وحرزي، والثاني قوتي ومنعتي «قدبي Gidbye» بمعنى فأسي، وهكذا أصبحت تذكر له اهمية أبنائها بالنسبة لها. تقول الرواية المحلية أن الملك تَجَسْ أصر على التضحية بأحد أبنائها فقرر أثنان منهم التخلص منه، فحضرا اليه وهو مستلقي فقال أحدهما: يا خالنا ما أعظم سيفك فهل تسمح لي بأن أجُرِّبه؟ فأخذ السيف وطعن به الملك قائلاً: «أنا أبْ رَجَّاز» يعني أنا الطَّعَّان، وقام الآخر بجر السيف منه وقال: «أنا أبْ سلاب» بمعنى أنا الذي يسلب هذا السيف. وهكذا تم التخلص من الملك تَجَسْ.

الباريا تُسَمَّى « زَابْدَتْ وَلَتْ[١] هَرِيش وَدْ كَرْتُوتْ»، انجب منها كلاً من تِمَارْيَام (جدّ عَدْ تِمَارْيَام) ومَفْلَس[٢] (جدُّ كلٍ من عَدْ هِبْتِيْس وعَدْ تَكْلَيْس).

علاقة الحَبَاب بالفونج:

يقول المؤرخون: إنّ الفونج انتقلوا من منطقة لول في الحبشة، في الفترة ما بين عام ٩٥١ م وعام ١٢٥٠ م، إلى حوض عنسبا (عَيْنُ سَبَأ)، بجوار ساحل البحر الأحمر، وهي منطقة تمثل قلب أرض الحَبَاب التاريخية. ولم يذكر المؤرخون أسباب انتقالهم أو الكيفية التى تم بها[٣]. وبعد عدة قرون جاء إلى المنطقة مهاجرون جدد، هم أسلاف الحَبَاب. يقول الكونت روسيني: إنَّه عندما حضر أسْجَديْ إلى حوض عنسبا في حوالى عام ١٥٠٠ م وجد في تلك الأنحاء قبائل الفونج والبلو، وقد رحل الفونج عند وصوله. وذكر روسيني[٤] أنَّ مقر الفونج كان في منطقة صِرْصِرَا[٥] «Tzertzera» ، ليس بعيداً عن أمْزُلال (نَقْفَا)، ومنطقة «ريبالاف» بالقرب من ريَّا في سهل أفرع، ويمكن مشاهدة بقاياهم بالقرب من قبر الشيخ إياسُو. ويقول روسيني: إنَّ ذلك المكان كان يسمى إتْأتَافِي[٦]، واستولى عليه الفونج بعد أنْ حاربوا قبيلة «ألْمَدَا».

---

(١) كلمة «وَلَتْ» سنستخدمها كثيراً في هذا الكتاب، وهي اختصار لكلمة «وَلْدَتْ» صيغة المؤنث لدى الحباب لكلمة "وَلَد"، بمعنى إبن، فهي في الأصل «وَلْدَةٌ» وهي من الكلمات العربية القديمة والمندثرة، وتنطق بالحبابية «وَلْدَتْ»، ثم اختصرت الى «وَلَتْ» كما اختصرت كلمة «ولد» الى «وَدْ».

(٢) هنالك من يقول إنَّ الإبن الثاني (مَفْلَس) أمُّه ليست زَابْدَتْ وإنَّما إمرأة أخرى من بيت بكرو.

(٣) راجع كتاب «تأريخ إرتريا» لمؤلفه عثمان صالح سبي، الطبعة الثانية ١٩٧٧م، ص ١٠٥.

(٤) راجع كتاب:
Carlo Conti Rossini: Note sul Sahel Eritreo, Rivista degli Studi Orientali, Vol. VI, Rome, 1914.

(٥) تقع منطقة «ظِرْظِرَا» أو «صِرْصِرَا» Tzertzera (تنطق الصاد والظاء في لهجة الحَبَاب في بعض الكلمات على هيئة حرف بين الطاء والسين، كما سنوضح في باب اللهجة الحَبَابية، ولهذا استُبْدِلَتْ الظاء بحرفي tz في هذا المصدر بينما استبدلت بحرف s في مصدر آخر كما سنرى) على بعد ٨ كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من امزلال الواقعة بالقرب من نقفا الحالية.

(٦) ما تزال هنالك قرية في وادي عنسبا، أرض عَدْ تَكْلَيْس، تعرف إلى اليوم بهذا الاسم «إتْأتَافِي»، وتقع بالقرب من «غَارعُوبَل».

إن ما أورده الكونت روسيني يؤكده مصدر آخر مستقل هو وثيقة من ستة عشر صفحة، كتبت باللَّهْجَة الحَبَابية قبل أكثر من مِائَة عام، (في مستهل القرن العشرين)[١]، بعنوان «دِجِمْ حَبَاب Degem Habab» أي: «قصَّة الحَبَاب»، وتوجد نسخة منها حالياً في المكتبة المركزية لجامعة تل أبِيبْ[٢]. وطبقاً لهذه الوثيقة فإن أسْجَديْ وقومه، عندما وصلوا إلى السَّاحِل، وجدوا فيه (حسب الوثيقة) قبيلة تسمى فُوج (يقصد فونج)، وكان مقرّهم الرئيس في قرية صِرْصِرَا (٣) Sersera بالقرب من لابا Laba . وفيما يلي النص حرفياً كما ورد في تلك الوثيقة:

Asgade «mesel lasals haw ala wa'et ansaba danna; et salf eb laba fagraw wala'ard sab sanhadibu; fug latetbahal qabilat sanhat dibu; wafug sersera et latetbahal akan sanhattom» [4].

تقول الفقرة السابقة: إنَّ أسْجَديْ كان مع إخوانه الثلاثة ثم ذهبوا إلى منطقة «عنسبا» عن طريق «لابا»، فوجدوا قبيلةً تسمى فوج (يقصد فونج) في مكان يدعى صِرْصِرَا. ثم تستمر الوثيقة فتقول:

«Ha fug wa ha asgade et worot me'ten wardaya; kakel'ot laweherom teba'asaw; walaqassi egel asgade bello laweherka mota men gabbi agbel mennu lameder, wa la weherka qatla men gabbi sekanno bello».[5]

وتفسير ذلك إنَّ أبقار الفونج وأبقار أسْجَديْ وردت بئراً (مَعْطِنْ[٦] me'ten) واحدةً وتقاتل الثور الفحل (وِهِرْ weher) ، التابع لبقر الفونج، مع رصيفه في بقر

(١) أنظر البحث التالي (بالانجليزية):

An Article written by Shlomo Raz in «Isreal Oriental Studdies», Vol. 12, Edt. by Joel L. Kraemer, 1992, page 194.

(٢) يمكن لمن أراد الاطلاع على المستند وترجمة وتحليل مضمونه الرجوع إلى بحث شلومو المشار إليه.

(٣) كتبت في هذا المصدر Sersera وليس Tzertzera كما كتبها الكونت روسيني والسبب في ذلك يعود إلى النطق الخاص لحرف الصاد في بعض الكلمات لدى الحَبَاب ولمن أراد معرفة تفاصيل أكثر الرجوع إلى الباب الخاص بلهجة الحَبَاب في هذا الكتاب.

(4) Shlomo's Article, op cit, P. 222.
(5) Ibid.

(٤) «مَعْطِن» مفرد «مَعَاطِن»، وهو مكان تجمُّع الإبل حول الماء. تقول العرب: مَرابِضُ الغنم ومَعاطِنِ الإبل.

أسْجَديْ، فقال الكاهن[1] لأسْجَديْ: إذا مات ثورك فارجع من هذا البلد (أقبل مِنَّو لِمَدِرْ agbel mennu la meder)، وإذا ثورك قتل ثورهم فأسكنه.

بعد ذلك تقول الوثيقة:

“walaweher fug mota walaqassi egel asgade haqo weherka laweherom qatla wa’at endo nas’aka mis’o; hetu ba’al maskab halla wa’enta gassay et enta mas’aka; wa’eb masakeb lameder sa’alo bello».[2]

فمات ثور الفونج، وقال الكاهن لأسْجَديْ: طالما أنَّ ثورك قد قتل ثورهم، خذ بقرةً واذهب له (لزعيم الفونج)، فهو صاحب أرض الآن وأنت جئتهم ضيوفاً، واسأله عن أوضاع وأحوال البلد.

«walahay askom et legayes et gabay teqabalaw; wa’asgade bello weherka weherye qatlayu menka wa’aze wa’at egel efdekka wa’eb masakeb lameder egel nessa’alakka mas’ako bello».[3]

وكان (زعيم الفونج) متوجهاً اليهم (إلى أسْجَديْ ومن معه) فتقابلوا في الطريق، فقال أسْجَديْ لزعيم الفونج: لقد مات ثورك، قتله ثوري، والآن أحضرت معي بقرةً فداءً للثور، وجئت لأسألك عن أوضاع وأحوال هذا البلد.

«walasum fug lawa’at herabkum ta bello wa’ard sab’u hena tu bello wa’aze gesna mennu; wa’asgade manabru ka’afo tu la’ard bello; wa’hetu bello laba ardat sannet wagerrem ta; emmata tessaqqad watethallab; sersera essita tetarter whobay tetarter,

(٥) كان «الكاهن» أو«الكُهَّان» يلعبون دوراً كبيراً في إدارة أمر قبائل البجة عموماً. انظر مثلاً دور الكُهَّان وتأثيرهم على قرارات «الحَدَارِب» عندما كان أمر البجة بيدهم. روى المقريزي عن ابن سليم الأسواني في كتاب «المواعظ والاعتبار»، الجزء الأول، صفحة ١٩٦، أنَّ البُجَة الحدارب كانوا أشجع وأهدى من البجة الداخلة «على كفرهم من عبادة الشيطان والاقتداء بكُهَّانهم». ثم يقول: «ولكل بطنٍ كاهنٌ يضرب له قبة من أدم معبدهم فيها». ثم ذكر بعض الطقوس التي يقوم بها الكاهن. كذلك يشير في موضع آخر إلى دور الكُهَّان في إقناع زعماء البجة بالوقوف مع قبيلة ربيعة قائلاً: «وقيل: أنَّ كهان البُجَة قبل إسلام من أسلم منهم، ذكرت عن معبودهم الطَّاعة لربيعة ولكنون معاً، فهم على ذلك، فلما قتل العمري، واستولت ربيعة على الجزائر، والأهم على ذلك البُجَة، فأخرجت من خالفها من العرب، وتصاهروا إلى رؤساء البُجَة».

(2) Ibid.
(3) Ibid.

enzelal muskab sumat ta, muskab sumatkum dawa bello»[1].

قال زعيم الفونج «shum fung» لأسْجَديْ: أمَّا البقرة فوهبناها لكم، ضيافةً لكم (herabkum ta)، وأمَّا هذا البلد فهو لنا، ونحن أصحابه والآن تركناه (gesna menu). فقال له أسْجَديْ: أخبرني عن أوضاع هذه الأرض «manabru ka'afo tu la arid» فقال زعيم الفونج: «لابا» بلدةٌ طيبةٌ وجيلةٌ، أبقارها تتكاثر وتحلب في نفس الوقت. أمَّا «صِرْصِرَا» حسب المستند فهي [٢] «essita tetarter whobay tetarter». وأما أنْزُلال (أمْزُلال) فهي مقرُّ الحكم ولابُدَّ أنْ تجعلوها مقراً لحكمكم.

إنَّ الزَّعم بوجود الفونج سابقاً في تلك المنطقة، لا يقتصر على ما ذكره الكونت روسيني، وما ورد من إفادةٍ صريحةٍ في تلك الوثيقة، بل نجد له قرائن من التُّراث الحَبَابي تدعمه بقوة. القرينة الأولى هي إنَّ الحَبَاب إلى اليوم يطلقون على الشخص ذي اللّون الأسمر وصف «فُونْجَاي»[٣]، أيْ يشبه لون الفونج، ولهذا فالثّور الأسود عندهم يسمي «فُونْجَايْ»، والبقرة السوداء تُسَمَّى «فُونْجَايِتْ». وهذا الوصف «فُونْجَاي» لم يأتِ من فراغ وإنما يدل على احتكاك الحباب بالفونج منذ زمن بعيد لدرجة أنَّ هذا المصطلح «فُونْجَاي» أصبح جزءاً من تراثهم. القرينة الثانية تأتي من تسمية الجبل الذي انتقل إليه الفونج بالقرب من سنَّار باسم «سَجَدي» (بالجيم اليمانية). فمن المعروف أنَّ عمارة دنقس[٤] وقومه (الفونج) كانوا قد انتقلوا إلى جبل

---

(1) Ibid.

(٢) لم أفهم المعنى بالضَّبط ولكن أعتقد أنه أراد أنَّ يذمها.

(٣) قال والدي الشاعر: إبراهيم وَدْ جَمِيل، يرحمه الله، في رثاء الفارس حامد (جَمَّاع) وَدْ محمود وَدْ محمد وَدْ نصر الدين وَدْ درار وَدْ عتيل وَدْ جميل (وكان أسمر اللون):

فُونْجَايْ مَحَارَجَ إجلاً وَرَازِيتُو	(هو كلون الفونج (أسمر) يَرُجُّ أقرانه رجاً عند النِّزال).
جَغْفُو مِنَّا مَحَاتُو ومِنَّا رَوَرِّيتُو	(وهو جبل الكرم الذي يعبئ الناس من تحته وعاليه).

(٤) وهي في الأصح يجب أنَّ تكتب «دُنْجُس»، بالجيم وليس بالقاف، مشتقة من «نُجُوس» بمعنى «ملك» في لغة الحبشة حيث الجيم في كل مناطق الحبشة وما جاورها تنطق بالطريقة اليمانية.

موية وجبل سَجَدي بُعَيْدَ حضورهم، ولا أدري هل هي مصادفةٌ[(١)] أنْ يُطْلَقَ اسم «سَجَدي» على الجبل الذي استقر فيه الفونج بجوار سنَّار بعد نزوحهم من أرض الحَبَاب، قبيل قيام الدولة السنَّارية؟. الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي.. **القرينة الثالثة** هي إنَّ اسم عمارة «دُنْقُس» نفسه يشي لنا بارتباطه بالأرث الذي كان سائدا لدى القبائل المجاورة للأحباش، حيث كانت العادة كما أشرنا هي أنْ يطلب زعماء الممالك والسلطنات المجاورة للحبشة التأييد والدعم من أقرب سلطة أقليمية (الحبشة). وكما بيَّنا فإنَّ زعيم الحَبَاب كان يعرف ببحر نقاسي (نَجَاسي)، أي «نُجُوس» البحر وتعنى (ملك البحر)، فهل عمارة «دُنْقُس» أو والده أو أحد أجداده، كان في منصب «بحر نقاسي» قبل مجيء الحَبَاب إلى السَّاحِلِ؟ وهل لهذا السبب حمل اسم عمارة لقب «دُنْقُس ـ دُنْجُوس»؟ الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث. **القرينة الرابعة** هي تداول الفونج لاسم «أونسا – أونسه». تقول المصادر التاريخية: إنَّ الفونج، أثناء وجودهم في وادي «عنسبا»، دخلوا في علاقة مصاهرة مع مجموعة من البلو كانوا يسكنون حوض عنسبا يعرفون بالعنساب أو «الأنساب»[(٢)]، نسبةً لخور «عنسبا»، وعرفوا أيضاً ببيت «عين الشمس»[(٣)]، وبـ «بيت الدجن – أو الدكن». وربّما لهذا السبب نجد اسم «أونسا» أو «أونسه» يتكرر لدى الفونج، ومن ذلك مثلاً نجد أنَّ هنالك ثلاثة ملوك من الفونج كانوا يحملون اسم أونسا – أونسه، هم الملك أونسه الأول (١٥٩٩ – ١٦٠٩) والملك أونسه الثانى وَدْ ناصر (١٦٧٨ – ١٦٨٩) والملك أونسه الثالث بن بادى الأحمر (١٧١٥ – ١٧١٨)، ويقال لنسله «الأونساب». **القرينة الخامسة** ـ والتى ربّما تُعَدُ من غرائب الصدف في هذا الشأن ـ أنَّ قرية «العيلفون» المعروفة في وسط السودان ما هي إلاَّ تحريف للكلمة الأصلية

---

(١) بمجرد حضور أسْجَديْ إلى «نقفا» تم تسمية الجبل المجاور لها «دبر أسْجَديْ»، ويعرف الآن أيضاً باسم «رورا حَبَاب»، بينما سمى الفونج الجبل المجاور لسنَّار بجبل «سَجَدِي».
(٢) ما زال اسم «أُنَسه» أو "أونَسَا" متداولاً لدى العبدلاب وبقايا الفونج.
(٣) سبّي، مرجع سابق، ص ١٠٨.

«عَيْلا فُونْج»[١]. ومن المعروف أنَّ قرية «العيلفون» كان بها معسكر للفونج، وهنالك عددٌ كبيرٌ من القرى التي حول العيلفون، كانت وما زالت تسكنها قبائل من أصول فونجية، كما هو الحال في أمْ دَقَرْسِي والجديد الثورة وغيرهما. وبمرور الوقت، اختلطت تلك القبائل الفونجية بأهل المنطقة الأصليين «النوبيين»، وذلك بعد إزالة دولتهم «علوا»[٢]. والاستشهاد هنا يكمن في معنى اسم «العيلفون»، فهو اسم مركب من كلمة «عيلا» ـ التي تعني بلهجة الحَبَاب البئر أو العِد ـ وكلمة «فونج» المضافة إليها، وعليه فإن الاسم «عيلفون» أصله «عِيْلا فُونْج»[٣] أي «عدْ الفُونْج» بلهجة الحَبَاب، التي نعتقد أنَّ الفونج كانوا يعرفونها، بحكم أنهم تحركوا من مناطق الحَبَاب قبل سنوات معدودة من مجيئهم إلى سنَّار، وتمددهم في تلك المناطق فيما بعد.

مهما يكن من أمر، فإنه ونتيجة لحضور أَسْجَديْ من كَبَسَا إلى نقفا، وسيطرته على منطقة حوض «عنسبا» عموماً (في بداية القرن السادس عشر أو قبل ذلك بقليل)، وامتداد حكمه عبر أخيه بَحَايْلاَيْ إلى منطقة توكر وجبال تقدرا المحاذية لها، بدأ

---

(١) هنالك بعض الاجتهادات التي بذلت لمعرفة أصل كلمة «العيلفون» كلها تتفق على أنَّ هذا الاسم مركب من كلمتين، فقال بعضهم: إنه مركب من كلمة «عيل» بمعنى عبيد أو رقيق بلغة الفونج، مضافة إلى كلمة فونج، أي أنَّ العلفون معناها «عَبِيد الفونج» أو «عيل فونج». واذا نظرنا إلى القول بأن «عيل» تعنى عَبِيداً بلغة الفونج، فإنَّ الاجتهاد بأنَّ «عيل فونج» تعني «عبيد الفونج» هو اجتهاد غير صائب في نظري، لأنَّ لا أحد منتصر، وخاصة في ذلك الوقت بالذَّات، يفتخر بعبيده، ويسمي عليهم اسم بلدته الناشئة. البعض الآخر قال: أنَّ الاسم مركب من كلمة «عائلة» وكلمة فونج» أي عائلة فونج، وهذا اجتهاد أضعف منطقا من الأول حيث أنَّ كلمة (عائلة) كلمة فصيحة وليست من صميم اللهجة العامية السودانية، ولعل من المناسب أنَّ نشير هنا إلى أنه وحتى وقتنا الحاضر ورغم انتشار التعليم واللُّغة العربية «الفصحى» يستخدم الناس كلمة «عيالك» بدلا من عائلتك فما بالك بتلك الأزمنة التي كانت تمثل فترة تحول من لسان أفريقي – نوبي – إلى لهجات «عربية» لا تستقيم كثيرا مع اللُّغة الفصيحة.

(٢) رغم أنَّ البعض يكتبها «علوة» بإثبات «تاء» أو «هاء» في آخر الكلمة، إلاَّ أنني أفضل كتابتها بالألف في الآخر، تماما مثل «سوبا» و«مقرا» وغيرها، لأنها أسماءٌ نوبيةٌ وليست عربية، وبالتالي لا تنطبق عليها قواعد اللُّغة العربية لتنطق هاءً بدل تاء عند الوقف.

(٣) هنالك كثير من الأماكن في أرض الحَبَاب وما جاورها تبدأ بلفظة «عيلا» تماما مثل لفظة «عد» ومن ذلك « عيلا إدريس وَدْ يوسف» و «عيلا بَرْعِد» و «عيلا عبدالله» وغيرها.

انحسار سلطة حلف العنساب والفونج، إمَّا نتيجةً للحروب التى شنَّها أسْجَديْ على كلِّ من لم يقبل بسلطته، أو لأسباب البحث عن سلطة في مكان آخر. ولكن الثَّابت أنَّ الفونج والعنساب قد رحلوا من المنطقة إلى الغرب، ليتمركز العنساب في حوض نهر القاش وبركة (حوض الدجن) ويتقدم الفونج إلى جبل موية بالقرب من سنار. يقول الكاتب البريطاني كروفورد: إنَّ القبائل التى كانت موجودة في حوض «عنسبا»، قبل حضور أسْجَديْ هي البلو والفونج. ثم يشير إلى جلاء الفونج من المنطقة ويقول: «بالرغم من أنَّ الرواية المتداولة لا تقول صراحة: إنَّ أسْجَديْ هو الذي أخرج الفونج من وادي عنسبا ـ حيث وجدهم ـ إلاَّ أنَّ ذلك من المؤكد ضمنياً في القول إنَّ الفونج غادروا عنسبا عند وصول أسْجَديْ»[١]. المهم هو إنَّه بمجرد ظهور سلطة الحَبَاب (بيت أسْجَديْ) في المنطقة تم إجلاء الفونج أو هاجروا بطوعهم من عنسبا إلى منطقة جبل موية وجبل سَجَدي بالقرب من سنَّار. أمَّا العنساب فقد رحلوا إلى (حوض الدكن)، وبحلول منتصف القرن السادس عشر ـ تقريبا توفي آخر أقوى ملوك العنساب وهو السلطان «مكتَّر» والذي ترك عند وفاته ابناً صغيراً ممَّا اضطر أخت السلطان مكتَّر، الأميرة «جعوة Gawa»، أنْ تكون الوصية على العرش. وعوداً إلى الفونج نقول: إنَّه في مستهل القرن السادس عشر ـ الميلادي، وبالتحديد في عام ٩١٠ هجرية (١٥٠٤-١٥٠٥م)، قام حلفٌ مكونٌ من قبيلة الفونج برئاسة زعيمها عمارة دُنْقُس، وقبيلة العَبْدَلاَّب من القواسمة برئاسة زعيمها عبد الله جماع، بتكوين سلطنة الفونج الإسلامية، والتي عُرِفَتْ في التاريخ أيضاً بالسلطنة الزرقاء أو الدولة السنَّارية، نسبةً إلى عاصمتها «سنار»، وتمكنت هذه المجموعة من بسط نفوذها في معظم أنحاء السودان الحالي، ولاسيَّما السودان الشرقي، ودخلت في أحلاف قبلية مع كثير من قبائل المناطق التى تعاونت معها، بما فيهم الحَبَاب الذين انخرطوا في تلك الدولة، ونال زعيمهم تُوكَل[٢] بن بَحَايْلاَيْ ـ أحد جدود الحَبَاب ـ مقعد الحكم «الكَكَر – عبارة عن كرسي» والطاقية أم

---

(١) راجع كروفورد: «The Fung Kingdom of Sennar»، صفحة ١٥٢.

(٢) توكل هو الذي أسس مدينة توكر الحالية ومنه أخذت اسمها.

«قَرْنَين»[١] (وأحيانا تسمى الطاقية أم «قِرين»، وكذلك الطاقية أم «قِرينَات»، وهي طاقية لها قرنان، تلبس كتاج للملوك والسلاطين التابعين لدولة الفونج. ويعتبر الزعيم تُوكول بن بَحَايْلاَيْ أول حاكم من البُجَة يتحالف مع الفونج [٢]، ونتيجة لعلاقتهم القوية بدولة الفونج نال الحَبَاب نحاساً (النقارة) اسمها «منصورة»، وما تزال في حوزتهم إلى اليوم. هذا وقد ظل الحَبَاب جزءاً من منظومة الدولة السنارية، مع احتفاظهم (كغيرهم من القبائل) باستقلاليتهم في شؤونهم الخاصة، حتى زوال الدولة السنارية في عام ١٨٢١م إثر الغزو التركي المصري للسودان. ولهذا السبب، ظلَّ الحَبَاب يتفاخرون بهذا الإرث ويذكرونه، ومن مظاهر ذلك أنه، وإلى عهد قريب، كانت النساء عند وفاة أحد كبراء الحَبَاب يلبسن ثياب الميت ويَزْفِنَّ (أي: يرقصن بالسيوف) ويرددن: «مِنْ كَينْ سِنَّار لإلى، منابير كَرُّو إجْلُومْ لإلى:

«Min kain Sinnar lalai, manabeer karro egloam lalai»

وتفسيرها: هنالك في سنَّار كانت توضع لأجلهم «للحباب» الكراسي أو المنابر، احتراماً، وذلك في إشارةٍ إلى «الكَكَر» الذي كان يقدم لهم عند زيارتهم لسنَّار وبلاط السلطان. وقد تغنى شعراء الحَبَاب كثيراً بوضع أهلهم المميز في الدولة السنارية، ومن ذلك ما افتخر به الشاعر أَمِير وَدْ قَبَّهْ (جَبَّاه)، حيث قال:

أَسْهِي بُولُو كَنْتَيْبَايْ	(قولوا لكنتيباي تجاوز وغض النظر).
حلقَتْ مَا دِيَا مَا تِسَدْدْ	(الحلقة لا تضيق دوما – بعد الضيق فرج)
بـرُورْ إِنْتَ كِـمْ قَـادِمْ	(انت منبسط مثل الوادي - يعني سهل)
وَظُـنْغْ إِنْتَ كِـمْ ازْدَتْ	(ولكنك أيضا قاسي مثل الصخر - الأرض)

(١) عندما قويت سلطة دولة الفونج في سنَّار أصبحت القبائل المتحالفة معهم تطلب التأييد لملكها أو رئيسها من السلطنة الزرقاء ولهذا كان زعيم القبيلة يذهب إلى سنَّار أو إلى العبدلاب وزراء الفونج ويطلب مباركتهم لملكه فيتم حلاقة شعر رأس زعيم القبيلة ويقوم ملك سنَّار أو شيخ العبدلاب (حسب الحالة) بوضع طاقية محشوة بالقطن ولها قرنان على رأس الزعيم القبلي ويطلب منه الجلوس في كرسي مخصص لهذه المناسبة يسمى «الككر» ويطلق عليه ألقاب الملك ويبارك له المنصب، ثم يعود زعيم القبيلة بالطاقية أم قرنين والككر إلى قومه وبذلك يقال لهم «أهل ككر وطاقية» وهذا ما حصل للملك توكل، الذي سميت عليه مدينة «توكر».

(٢) لمعرفة المزيد عن زيارة زعيم الحباب (من بيت بَحَايْلاَيْ) لملك الفونج في سنَّار راجع كتاب: «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق، صفحة ١٠٢.

بَاشَايْ رِبَاط وَسِنَّار	(أنت باشا في رباط وسنار)
فُونْجَايْ تِرِكْ لاَ إِتْ حلقَتْ	(وانت بمكانة زعيم الفونج عند الأتراك)
مَنْ تَسُو إِمْبَلْ أَبُوكَا	(مَنْ سوى أباك - غير أبيك)
لاَدِيمَا نَبِّرْ إِبْ حَمْدَتْ	(دائما يعيش محمودا ومشكورا).

وما يهمُّنا هنا هو إشادة الشَّاعر بمكانة زعيم الحَبَاب آنذاك (كَنْتِيبَايْ جاوج وَدْ فِكَّاك الذي حكم الحَبَاب في الفترة ما بين ١٧٩٠ إلى ١٨٣٠م تقريباً)، ووصفه له بأنه في مكانة الباشا التركي «باشَّاي» عندما يُسْتَقْبَل في سنَّار، وأمَّا عند الأتراك فهو في مكانة الفُونْج !! ولكي نعطي صورة مبسطة عن التواصل والارتباط الوثيق الذي كان موجوداً بين سنَّار عاصمة الفونج وقبائلنا في البحر الأحمر أو البحر المالح، كما كان يُسمى في ذلك الوقت، نشير إلى ما ذكره الفقيه محمد بن ضيف الله الفضلي في مؤلفه المعروف بـ«طبقات وَدْ ضيف الله»[1] حيث أشار إلى أنَّ القرن السادس عشر شهد تدافعا مكثفا من الشرق إلى اتجاه سنَّار، حيث كان الشيخ محمد وَدْ فَايِد، وهو في طريقه إلى سنَّار، «يَقْدُمُ في كل عام لزيارة الشيخ[2] من البحر المالح، وتحضر معه قبايل الشرق عرب أُكُد [3] وعربَ التاكه[4] وغيرهم، يأتون دافرين مثل قبايل جهينة منهم من هديته العسل ومنهم من هديته القماش ومنهم من معه الرَّقيق، كل أحدٍ على قدرته»[5].

---

(١) «كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان» لمؤلفه محمد ضيف الله الفضلي، طبعة (غير مؤرخة) شركة الجزيرة للطباعة والنشر المحدودة، وَدْ مدني.

(٢) هو الشيخ إدريس وَدْ الأرباب في منطقة أبي حراز وسط السودان.

(٣) «أُكُد» هو اسم شائع لدى الحَبَاب وتوجد ضمن الحَبَاب بيوتات وعوائل كثيرة تعرف بـ «عَدْ أُكُد» أي رهط أُكُد، بل هنالك عدد من فرسان الحَبَاب التاريخيين الذين تسمّوا بهذا الاسم. ويحتمل أنَّ تكون الإشارة إلى أُكُد في النص الذي أورده وَدْ ضيف الله يقصد بها «عَدْ أُكُد» وهم فرع من النابتاب، من قبيلة بني عامر.

(٤) التاكا كانت إقليما كبيرا يتضمن معظم منطقة شرق السودان الحالية وكان يمتد ليشمل المنطقة الواقعة بين كسلا والبحر الأحمر. وفي مارس ١٨٨١م أصدر الباب العالي مرسوماً أطلق على المنطقة مسمى «شرق السودان» والذي كان يتكون حسب ذلك المرسوم من مديرية التاكا (كسلا) وسواكن ومصوع وسنحيت (كرن) والقلابات (جنوب القضارف).

(٥) «كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان» لمؤلفه محمد ضيف الله الفضلي، مرجع سابق، صفحة ١١.



قبر الرجل الصالح الشيخ محمد وَدْ فايد (جدُّ السادة الفايداب)

الموجود في شارع الجامعة في الخرطوم، مقابل مبنى وزارة الخارجية الحالي.

والشيخ المشار اليه في الفقرة السابقة هو الفقيه المشهور الشيخ: إدريس وَدْ الأرْباب، الذي استقر في منطقة العيلفون (عَيْلا فُونْج) وسط السودان، وعاش تقريباً طوال المِائَة وخمسين سنة الأولى من تأسيس دولة الفونج حيث ولد في شمبات في عام ٩١٣ هـ وتوفي في عام ١٠٦٠هـ (تقريباً بين عام ١٥٠٧ م وعام ١٦٥٠م). ثم يقول وَدْ ضيف الله مستطردا: «وطالِبُو النَّوالِ يأتُون اليه[١] من جبيل أمْ عَلِيّ ومن أرْبَجِي والشرق والغرب ينتظرون قدوم محمد ولد فايد إلى الشيخ إدريس، وهم يدخلون عليه طايفةً طايفةً بهداياهم نهاراً، ويقول ولد فايد: يا يابا هؤلاء الفلانيّون وهذه زيارتهم[٢] من سمنٍ وعسلٍ ورقيقٍ وقماشٍ وإبلٍ صهبٍ، وفي العشية كذلك، والعشام[٣] يأخذون كلَّما يدخل، ونواب الشيخ إدريس في إدخال المال عليه ثلاثةٌ، وهو يقسمها على النَّاس حتى تكمل هذه الأموال بأجناسها»[٤].

وخلاصة ما قاله وَدْ ضيف الله هو أنَّ الشيخ: محمد بن فَايِد الشَّريف، (وهو جدُّ أهلنا ومشايخنا «الفايداب»)، أخذ الطريقة (الصوفية) من الشيخ: إدريس وَدْ الأرباب، وربَّاه فأحسن تربيته، وصاحبه زمناً طويلاً حتى صار «مثل السِّراج، وتكلَّم في علم الظاهر والباطن». ونستفيد من ممَّا قاله وَدْ ضيف الله أنَّ هذه القوافل إلى سنَّار كانت منتظمة وتأتي كل عام وأنَّ النَّاس كانوا ينتظرون قدوم محمد وَدْ فايد وقافلته من الشرق ممَّا يدل على كثرة الخير الذي كانت تجلبه هذه القوافل.

---

(١) يقصد الشيخ إدريس وَدْ الأرباب.

(٢) يعني «هديتهم».

(٣) العُشَّام (بضم العين وفتح الشين المشددة) عامية سودانية وهي جمع مفرده «عَشمَان»، ومعناها طامع في العطاء والكرم.

(٤) «كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان»، مرجع سابق، صفحة ١١-١٢.

ثم أورد وَدْ ضيف الله ما ذكره الشيخ مصطفى ولد عويضة والذي قال ما نصه: «جاء الشيخ محمد ولد فايد من الشرق مدلي[١] سنَّار ومعه خلايق كثيرة، راكبون على الجمال الصهب، إلاَّ هو فلم يكن راكبا بل هو لابس جبته وشايل عكازه ولابس نعلاته، نزل عند أبي وأنا زامل طالب لقراءة العلم عند ولد أسيد، فقال أبي: هذا الرجل خليفة للشيخ إدريس في علم الظاهر والباطن، أخدمه لعلَّ الله يعطيك منه دعوة مستجابة!!»[٢]. انتهى النص.

ونفهم من النص السابق أنَّ غرض قافلة الشيخ فايد كان الذهاب إلى سنَّار، ونفهم ذلك من قول الرَّاوِي «مِدَّلِي سنَّار ومعه خلايق كثيرة». كما نفهم من النص أنَّ الشيخ محمد كان يصحب تلك القافلة ولكنه ليس بالضرورة رئيسها، خاصةً وأنَّه كما أشار النص «لم يكن راكبا».

نعود الى رحلة أسْجَديْ وقومه فنقول: بعد الاستقرار في السَّاحِل، أصبح القوم يتنقلون بين منطقة «أمْزُلال»، وتُسَمى أحياناً «بَغْلَة»، ومنطقة «لابا»، وهي على كل حال لا تبعد كثيراً عن «بغلة»، وطاب لهم المقام في الساحل عموماً بعد إجلاء الباريا - الفونج، وإخضاع القبائل الأخرى. وبعد فترة تُوُفِي أبو أسْجَديْ (بِيْمْنَتْ) وتم توزيع أرضي جبل الحباب «رورا حباب» بين الإخوة الأربعة. و"رورا" حباب، (ويسمى أيضاً "دَبِر أسْجَديْ")، هو الجبل المطل على نقفا ويعرف الوادي الذي أسفله بوادي «ام زلال» وأحيانا بوادي «بغلة». ورورا حباب هو جبل دائم الخضرة وبه كميات وفيرة من المياه ومناطق مسطحة تصلح للرعي والزراعة، ويقال إنَّ به آثار قديمة تحتاج لمن يقوم بدراستها.

---

(١) «مِدَّلِي» هي صيغة عامية سودانية لكلمة «مُتَدَلِّي» أي نازل، وأراد هنا أنَّ يقول: أنَّ الشيخ محمد وَدْ فايد كان متجها إلى سنَّار.

(٢) «كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان» لمؤلفه محمد ضيف الله الفضلي، مرجع سابق، صفحة ١٥٢.

التقسيم الأول للأرض:

يبدو أنَّ حكم أسْجَديْ قد توطد في المنطقة، وظهرت خلافات بينه وبين إخوانه يقول القاضي : إدريس محمد نصر الدين: إنَّ أسْجَديْ قسَّمَ الأرض بين إخوانه حيث أخذ هو وأخوه أتْكِمِيْ[١] المنطقة من بلد بيت جُوك إلى بَغْلاَ (بغلة) من جهة الجِبال ومن جهة السَّاحِل من شِعِبْ إلى مَرْسَى تَكْلايْ وأعطي المنطقة الممتدة من مَرْسَى تَكْلايْ والجبال المحاذية لها حتى جبال تَقْدَرَا حول توكر، إلى أخويه من أبيه بَحَايْلاَيْ وقِعْدَاد[٢] وقال لهما الملك لي والوزارة لأخي أتْكِمِيْ فاعترض بَحَايْلاَيْ وقِعْدَاد قائلين: أخذتم الملك والوزارة لكم وأخذتم البلد الذي به الزرع والماء والأمان، وتركتم لنا منطقة قاحلة ويكثر فيها الشر والقتال. وبسبب هذا الموضوع حدث بينهم نزاع وشجار تسبب في مقتل أتْكِمِيْ (الأخ الأصغر لأسْجَديْ) فوجه أسْجَديْ الاتهام إلى بَحَايْلاَيْ وقِعْدَاد ومن شايعهم فأنكروا التهمة وقالوا: أصابته بعض رماحكم فقال لهم: احلفوا أنكم لم تقتلوه فحلفوا أنهم لم يقتلوه، فقال أسْجَديْ المثل السائد إلى اليوم: «حُوي اتْقَتّلْ رَإيْكُوكَا وبَرِئ مِنْ بَيلْكَنّي أمَنْكُوكَا».[٣]

وهكذا انفصل القوم، وبهذا فإن الأرض قسمت إلى قسمين: قسم يحكمه أسْجَديْ ويمتد إلى موقع مرسى تَكْلايْ الحالي، وقسم يمتد من تَكْلايْ إلى جبال تقدرا جوار توكر مرورا بعقيق ويحكمه بَحَايْلاَيْ. والغريب أنَّ هذا التقسيم الذي حدث في بداية القرن السادس عشر أصبح فيها بعد، من حيث يدري النَّاس أو لا يدرون، أساساً (إلى حد كبير) لتقسيم الحدود بين السودان وإرتريا([٤]) بعد مرور

(١) أمُّها من قبيلة ماريا قَيَحْ – مَارْيَا الحمراء– ولذلك يعرفان بـ «بيت قَيَحْ».
(٢) أمُّها من قبيلة مَارْيَا ظَلاَّم ـ مَارْيَا السَّوداء ـ ولذلك يعرفان بـ «بيت ظَلاَّم».
(٣) ومعناه «رأيتك تقتل أخي ولما قلت لي أنا بريءٌ، أمنتك وصدقتك».
(٤) من اللطائف في هذا الشأن ما ذكره الباحث في اللغة والتاريخ الدكتور هاشم الخليفة عثمان الانقريابي الجعلي في ندوة ثقافية عن كتيباي حامد بك أقامها في بورتسودان يوم ٢٧ يناير ٢٠١٤م

أربعة قرون وانقسمت كذلك أرض القبيلة بين الدولتين طبقا لهذه الحدود، ولله في خلقه شئون.

مملكة بحايلاي:

لقد انفرد بَحَايْلاَيْ بحكم منطقة مَقَدَّام Magaddam والتي تعرف حالياً بمنطقة جنوب توكر[1]، وكان في البدء قد اتخذ (ماريت Marait) الواقعة إلى الجنوب قليلاً من أقْرَعْ، مقراً له، ثم انتقل إلى هَجَر (أحيانا يقال لها «هجرناجرام» تحريفاً للأسم الأصلي الذي سُمِّيت عليه وهو «هَجر نجران»، حيث كان يسكنها مسيحيُّوا البُجَة الأقدمون). ثم انتقلوا إلى عَدُوبَنَا التى اتخذها بَحَايْلاَيْ عاصمةً له، وانشأ فيها (شَرَمْ بَحَايْلاَيْ) الذي اشتهر ذكره، فضلاً عن الأماكن الأخرى التى ما تزال تحمل اسمه ومنها دَبَّة أو «كِرْبَى» بَحَايْلاَيْ التى دفن فيها. وفي مرحلة من المراحل استقر القوم في منطقة دِرُوْي Dirooy بالقرب من شِعْبَتْ (منطقة مرافيت)، وأقاموا فيها مباني ما تزال آثارها قائمة إلى اليوم. قال الشاعر:

أبَيَاتُو عَسِرْ خَمِسْ جباً، إمَّا بَذَّحا (عدد بيوته خمسة عشر أو تزيد)
آماتو خَمِسْتَنْ مِثِلْ بَرَكة وفِسَّحَا (آماته (خادماته) خمس فضلاً عن بركة وفسحا)
أفْـرَاسُـو سَبُعْتَنْ لَلِـدَّرْعَا (أفراسه سبع كلهن يُدَرَّعن ويجهزن للقتال)
كِلوّتْ لأجْبُوى فَارَعَ لظَبَّحا (يمشط صباحا كلا الطريقين)
وكِلْـوّتْ مَعَـاطِـنْ وَرْدُو (يردون المعطنين (البئرين)
مِثِلْ نُوَايْ إنْسَا وعَطَال وَحَا (مع البهائم الإبل والغنم والبقر)
وكِلْـوّتْ لأدْبِرْ قَيْشُـو (ويمشون الى الجبلين)
مِطِبَّتْ جُونا ومِطِبَّتْ لها (مِطِبَّتْ التى لدينا ومِطِبَّتْ الثانية- الجبلان)

حين قال إنَّ حكومة أزهري في عام ١٩٥٦ كونت لجنة للتأكد من ترسيم الحدود وكذلك فعلت حكومة إثيوبيا التي كانت تحتل آنذاك إرتريا الغالية. يقول الدكتور هاشم إنَّ الحباب هم الذين أشرفوا على ترسيم الحدود حيث كان على رأس اللجنة الفنية السودانية السيد/ عمر بن كنتيباي محمود بينما كان على رأس اللجنة الفنية من الجانب الآخر السيد/ عثمان محمد أكد هنتولاي، وكلاهما أبناء عمومة.

(١) راجع: «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق، ص ١٠١.

دِرُوْي لأَتَنْسِيُو ظِرْظَار لَوَعَا	(يُسْمَعْ صراخ المنبه (النائح) في دروي)
مَنْبَايٌ إي ترَمَّتُو ثَلَثْ شَحَا	(سيدي لا تهزمه شحا الثلاثة)
نِجُوس نِجِس كُلُ أفْرهَا	(هو ملك الملوك الذي أخاف الجميع)
كَاسَايْ كَوَاكِبْ لِدِرْ أبْرَهَا	(هو يجهر الكواكب فقد أنار الأرض).

ثم تقدم بَحَايْلاَيْ في السَّاحِل شمالا، وحارب قبائل طهو Tahow ونهو Nahow و طارجيلي Targaili ، وهم من بقايا البُجَة الهكسوس[1]، وكانوا مقيمين في سهل «بريطي» الممتد من المنطقة الواقعة شمال مرسى تَكْلايْ وحتى أطراف «عَقَيْتَايْ». وبعد الاستيلاء على بريطي وإخضاع سكانه من الهكسوس لسلطته، انتقل بَحَايْلاَيْ إلى منطقة عَدُوبَنا التى أصبحت مقراً للحكم، وبني فيها «شِرِمْ بَحَايْلاَيْ»[2]، وهو عبارة عن حوض كبير جداً، تم تجهيزه ليكون ماعوناً ضخماً للحليب. وهنالك رويات تقول إنَّ مدينة «حلايب» الحالية كانت أيضاً مقرا للحباب، وتم فيها تجهيز «شِرِم» أو حوض آخر مثل «شِرِم بَحَايْلاَيْ» في عَدُوبَنا، ليكون ماعوناً للحليب. ويقول الحَبَاب إنَّ اسم حَلايِب (جَمْعُ «حَلِيب» وهو لفظ دراج في لهجتهم)، جاء من اسم حوض الحليب الذي بنوه في موقع حلايب. ليس هذا فحسب بل إنَّ مدينة توكر الحالية قد أسسها «تُوكُول» ابن بَحَايْلاَيْ، الذي ارتبط بالسلطنة الزرقاء، واعتلى الكَكَر ولبس الطاقية أم قرنين، وجاء اسم «تُوكر» من اسم الملك «تُوكُول» بن بَحَايْلاَيْ، بينما سميت قرية «أشهد» الحالية على اسم ابن بحيلاي الآخر «أشْهَدْ» وهو اسم ما زال متداولا خاصة وسط الماريا وهم أخوال بحايلاي كما ذكرنا في موضع آخر.

المهم هو إنَّه، بالرغم من أنَّ الحَبَاب، شأنهم شأن سائر قبائل البُجَة، أمةٌ بدويةٌ

(١) الهكسوس هم أقوام من عناصر آسيوية مختلفة الأصل هاجروا منذ فترة تقدر بألفي سنة قبل الميلاد إلى مصر وشرق أفريقيا ومناطق أخرى، وتمكنوا من حكم مصر خلال الفترة من عام ١٦٥٥ ق. م. وحتى عام ١٥٧٠ ق. م. تقريبا، ثم تمت هزيمتهم من قبل الفرعون أحمس، فتفرقوا في البلاد.

(٢) لاحظنا وجود عدد من المناطق على امتداد البحر الاحمر حتى خليج العقبة تعرف بمسى «شرم» ومنها منتجع «شرم الشيخ» و«شرم أَبْحُر» (شمال جدة) وشرم آخر في العقبة.

خالصةٌ لم تعرف الاستقرار والحضارة بمعناها المعروف لدينا اليوم، إلاَّ أنهم خلفوا بعض الآثار منها قبور زعمائهم والتى كانت تبنى على هيئة أهرامات صغيرة من الحجارة تسمى «فَرَمْ Faram» (يغلب عليها الحصى الأبيض والذي يسمى عندهم «إِنْجِحْ»)، كما توجد بعض الأحجار المنحوتة على هيأة كراسي أو مقاعد في رورا حباب وهجر، وبعض آثار المباني القديمة جدا في منطقة دِرُوْي (بالقرب من مرافيت)، فضلا عن قبر أَسْجَديْ في جِدَيْفَرَا وشِرِم بَحَايْلاَيْ في عَدُوبَنا وكبوبات بَحَايْلاَيْ، وبعض المدافن المتراصة هنا وهنالك (في منطقة تعرف بـ «أقْبر شَيَم» أي: مدافن الرؤساء). إذَنْ[1] هذه هي الآثار المادية المعروفة والظاهرة للعيان إلى هذا اليوم، عن حضارة أمة الحَبَاب، ولكن يجب أنْ ننوه إلى أنَّ المنطقة برمتها من أدهرا شمال مصوع إلى سواكن (باستثناء جزيرة سواكن نفسها) كانت مسرحاً لأحداث حبابية جسام. فقد امتد حكم الحَبَاب الاستقراطي فيها لفترة تناهز خمسة قرون وهي منطقة بكر لم تكشف آثارها بعد ولم يتم التنقيب عن حضارتها ولذلك ليس من المهنية العلمية أنْ نحصر آثار الحَبَاب فيما ذكرنا، ولكنَّا فقط أشرنا إلى معرفتنا المحدودة بالآثار القائمة إلى اليوم، والمعروفة لكل سكان المنطقة. وبالرغم من الأهمية التاريخية لهذه الآثار، إلاَّ أنه لا يتم المحافظة عليها كتراث للمنطقة، ولم تتم بشأنها أي دراسات، ناهيك عن التاريخ المدفون في أبي رماد (أبو رماد)، وخاصة حجر ضخم يزعم الحَبَاب أنه يحتوي على تاريخ مكتوب بالتفصيل عن الحَبَاب، كما يتحدثون عن حوض أو «شِرِم» آخر في منطقة حلايب، وأشرنا الى أنهم يقولون إنَّ المنطقة سُمِّيت «حلايب» بسببه (هذا زعمهم)، وربَّما يأتي اليوم الذي تكشف فيه الدراسات العلمية صدق هذه المزاعم.

---

(١) يختلف الناس في كِتَابة «إذَنْ»، فبعضهم يكتبها بالتنوين «إذاً» كما في الآية الكريمة: «إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ»، ولكن ذهَب الأكثرون إلى أنَّها تُكتَب باثبات النونِ تفريقا لها عن «إذَا» الشرطية. كان المُبرِّد يقول: «أشْتَهي أنَّ أكْوِي يَدَ مَنْ يَكْتب «إذَنْ» بالألف، لأَنها مثل «أنْ ولَنْ».

يَرْوِي الحَبَاب أنَّه كانت للملك المعروف باسم «حجِير آنْفُو» - أي قصير الأنف - وَدْ ريم وَدْ بَحَايْلاَيْ، بنتٌ واحدةٌ اسمها "عَيَتْ"، ويريد كل الزعماء من حوله الزواج منها تَقَرُّباً إلى أبيها الملك، فتقدم دِقْلَلْ (حاكم بني عامر النابتابي الشعدينابي الجعلي) لخطبتها. وطلبها النايب (النائب عن العثمانيين في حكم مصوع، وهو بَلَوِيٌّ)، كما طلبها شُومُ[1] قبيلة مَارْيَا (رئيس قبيلة مَارْيَا). ووعدهم والدها جميعاً، وضرب لهم أجلاً في يوم واحدٍ، وكل واحدٍ منهم لايدري شيئاً عن طلب الثاني. ولهذه المناسبة خصيصاً؛ أمر الملك الرعية بتجهيز حوض كبير عرف فيما بعد باسم «شِرِم بَحَايْلاَيْ»، ويقع حاليا في المنطقة المعروفة بمسمى «كِرِفْ حَلِيبَتْ»، جوار عدوبنا. وأمر بأن يملأ بالحليب (والحَبَاب كما أشرنا في موضع آخر لا يعرفون في لهجتهم كلمة «لبن»، وإنَّما يقولون «حليب»، وإذا أرادوا تخصيص اللَّبن الرائب فإنهم يطلقون عليه «حليب حُقَّان» أي محتقن أو متخمر). والغريب أنَّ هنالك رواية تذكر أن الحليب الذي في الحوض كان مخصصا لشُرْبِ بهائم الضيوف، وليس لشرب الضيوف أنفسهم!! المهم هو إنَّه عند حضور المدعوّين، أكرمهم الملك ومنحهم الهبات والعطايا، ثم قال لهم: كلكم جئتم لخطبة بنتي وهي واحدة كما تعلمون، ولهذا سوف أعطيها فقط للشخص الذي يملك شَمْلَةً[2] بيضاءَ (وكان قد أخبر سراً شوم قبيلة مَارْيَا بأن يحضر معه شَمْلَةً بيضاء)، ففاز بها شوم قبيلة مَارْيَا وهي الجدة الأعلى لزعيم الماريا المشهور "شوم هُمَّد"، والماريا على كل حال، هم أخوال بَحَايْلاَيْ كما ذكرنا، حيث إنَّ بَحَايْلاَيْ وقِعْدَاد أمهما من مَارْيَا «ظلام» أي مَارْيَا السَّوداء. هذا وقد ظلت مملكة بَحَايْلاَيْ قوية طوال المِائَة وخمسين عاماً الأولى من نشأتها في بداية القرن السادس عشر، وارتبطت مع الدولة السنَّارية بعلاقات وثيقة، وقد بيَّنا في موضع آخر، أنَّ زعيمهم تُوكُول بن بَحَايْلاَيْ ـ الذي سُمِّيت عليه مدينة تُوكَر ـ يُعَدُّ أول البُجَة صلةً بالفونج، وقد نال الكَكَر والطاقية أم قرنين. ثم

---

(١) «شُوم» بلهجة الحباب مشتقة من الشِّيمَة (شِيمَتْ)، وتعني السِّيادة والزَّعامة، و«الشُّوم» هو السيد أو الزعيم ويقابلها لقب عمدة في العرف القبلي.

(٢) «شَمْلَتْ» عند الحباب هي نوع من الدثار الفاخر.

دبّت الخلافات بين أحفاد بَحَايْلاَيْ، وظهر منافسون أقوياء من القبائل الأخرى في المنطقة، حيث برز بنو عامر وهدندوا كقوتين مؤثرتين في المنطقة، بعد أنْ أزال الشيخ عليٌّ النابت، بمساعدة العبدلاب، حكم آخر دولة موحدة للبجة، وقتلوا آخر ملوكهم من البلو وهو: (هُمَّدْ إدريس أدَرَايِبْ)، في معركة أَسَـرَمَ دِيرْهِيبْ (Asarama Derheeb) في الجهة الجنوبية من خور بركة (بركا). ورغم قلة المراجع في هذا الشأن إلاَّ أننا وجدنا إشارة واضحة الى وجود مملكة للحباب غرب عقيق في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وربَّما تكون تلك المملكة في تلك المنطقة هي بقية ممَّا ترك آل بحلياي. يقول المسكتشف جيمس بروس الذي طاف بالمنطقة خلال الفترة من ١٧٦٨ و ١٧٧٣م "يوجد غرب عقيق الحباب، وهي مملكة لمسحيين غير متعلمين" ؛ لاحظ هنا الإشارة لغرب العقيق وليس جنوبها:

«West of the Haggeeg [*sic*] are the Habab, a kingdom of ignorant Christian»(1).

مهما يكن من أمر فإنَّه وبحلول منتصف أو نهاية القرن السابع عشر بدأ جزء من الملهيتكناب بالزحف من منطقة القاش (ربَّما بضغط من الحَلَنْقَا والهَدَنْدِوَا) إلى ساحل البحر الأحمر حيث يوجد الحَبَاب ونتيجة لذلك نشبت حرب ضروس بين بيت بَحَايْلاَيْ وفرع قبيلة الملهيتكناب الذين هاجروا إلى المنطقة. واثر حرب سجالٍ؛ ونتيجة لعوامل التفرق والضعف التى اعترت مملكة بَحَايْلاَيْ، تمكن هذا الفرع من الملهيتكناب من إجلاء الحَبَاب (بيت بَحَايْلاَيْ) من منطقة عقيق، حيث استوطنوا مكانهم وكونوا قبيلة أَفْلَنْدَا، ومنهم فخذ العجيلاب الذي ينتمي إليه الكاتب المعروف: محمد صالح ضرار، وبذلك بدأت سلطة بيت بَحَايْلاَيْ في القنوب(٢) تتلاشى وتختفي رويداً رويداً، وتفرق العربان الذين كانوا معهم، ويقال

(1) Volume VII of the «Travels to Discover the Source of the Nile» by James Bruce, 3rd edition 1813, p.104.

(٢) سبق أنَّ أشرنا إلى معنى «القنوب» أو«هَاجَنُوبْ» أو «هاقنوب»، وهي السهول السَّاحِلية الواقعة بين توكر وسواكن.

إنَّ آخر حاكم في منطقة مقدام من بيت بَحَايْلاَيْ هو الملك كافلا وَدْ مالك وَدْ امطوط وَدْ توكول مؤسس توكر. هذا ونذكر بهذه المناسبة أعلاماً من بيت بَحَايْلاَيْ منهم أمين جمرك سواكن في العهد التركي الوجيه: إدريس بك محمد (خال المؤرخ محمد صالح ضرار). كما نذكر في وقتنا الراهن النقابي المعروف في بورتسودان، رئيس نقابة عمال الشحن والتفريغ لسنين طويلة السيد/ حامد محمد آدم أدّالا. ولا يفوتنا أنْ نذكر بكل فخرٍ واعزازٍ الرجل العالم في مجاله البروفسير إبراهيم عَلِيّ عمر[1]، أستشاري أمراض الأطفال والمحاضر سابقا في كلية الطب بجامعة الخرطوم، وأخوه السيد/ عمر علي عمر، وكيل وزارة التجارة في الفترة التي سبقت فترة حكم النُّمَيْري، وهما من عترة بَحَايْلاَيْ المؤسس لمملكة بَحَايْلاَيْ.

وفاة أسجدي:

كما هو معلوم فإن أسْجَديْ وَدْ بِمْنَتْ Asgade wad Bemnat هو مؤسس قبيلة الحَبَاب، وهو الجد السابع عشر للجيل الحالي (٢٠١٤م) من الحَبَاب. وطبقاً لما نقل عن كَنْتِيْبَايْ حسن وَدْ كَنْتِيْبَايْ محمود، فإن أسْجَديْ سمع بموت أخيه بَحَايْلاَيْ في منطقة مَقَدَّام، فقرر زيارة أبناء أخيه، وعندما وصل إلى منطقة وَرْهَتْ Warhat ، لدغه ثعبان فمات ودُفِنَ في المنطقة، وأقيم له «فَرَمٌ» أي قبر من الحجارة على شكل هرم، وسُمّي المكان «أسْجَديْ فرا Asgade Fira» باللُّغة البجاوية وتعني "ممر أسْجَديْ"، وتنطق حالياً «قِدَيْفَرَا»، وما زال القبر موجوداً في منطقة سَرِي (Sarie) بالقرب من جبل كيَّال، وبمحاذاة جبل عَنْقاً (دَبِرْ عنقا) المشرف على مرسى عقيق.

والطريف أنَّ أبناء بَحَايْلاَيْ أمروا الرعية أنْ يرمي كل واحد منهم حجراً على قبر أسْجَديْ كلّما مرَّ بالقبر، لكي يكبر ويعظم الضريح الذي كان يعرف لدى الحَبَاب

---

(١) كان والده عمّنا المرحوم: علي عمر، مؤتمنا على مصروفي الشهري الذي كان يرسله أهلي من القضارف عند دراستي في القسم الداخلي لمدرسة كسلا العليا في الفترة من ١٩٧٦ وحتى ١٩٧٩م، وكان العم «علي» يخصني بالرعاية طوال تلك الفترة، فله الرحمة والمغفرة إنْ شاء الله.

بالفَرَم Faram ، وهو عبارة عن أحجار ترص على القبر في شكل مخروطيّ يتخذ شكل الهرم (لاحظ التشابه بين لفظ «فرم» و «هرم»!!). وأصبح رمي الحجارة على قبر أسْجَديْ بعد ذلك عادة يحرص النَّاس عليها ويتشاءمون من تركها، وحسبما سمعت ما يزال بعض السكان في تلك الأنحاء يمارسون هذه العادة إلى يومنا هذا !! لقد ذكَّرني هذا الفعل برجم العرب لقبر أبي رِغَالٍ، مع اختلاف سبب الرجم في الحالتين. وأبو رِغَالٍ هذا هو رجل من ثقيف طلب منه أهل الطائف أنْ يتبع أبرهة الأشرم ليدلَّه على موقع الكعبة عندما أراد أبرهة هدمها في عام الفيل. وعندما بلغ جيش أبرهة منطقة المغمس، بين الطائف و مَكَّةَ، مات أبو رِغَال ودفن فيها، فأصبحت العرب ترجم قبره بعد ذلك، وأصبح رجم قبره عادةً متبعةً.

قال الشاعر:

وأرْجُمُ قَبْرَه فى كُلِّ عَام ... كَرَجْم النَّاس قَبْرَ أبي رغَالِ

وقال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه ... كما ترمون قَبْرَ أبِي رِغَال

عهد دافلا Dafla :

أبناء دَافْلا الذكور أربعة؛ هم: جَبِرْتِتُّوس ودَبْرَاي، واثنان آخران استوطنا حماسين (لا نعرف اسميهما). جَبِرْتِتُّوس انجب سَمَرالْعُول وجَرْجِيس (والجيم دائما يمانية) وقُبُّطَان ونُؤُوشَايْ وجَالاَيْ (والباقون لا نعرف اسمائهم). وجملتهم سبعة أخوان، بدليل أن إبن عمهم (ابن دَبْرَايْ وَدْ دافلا)، والذي يبدو أنه كان يطمع في الحكم، كان يقول: « أنَا حَيِسُّوم سَبُعْ حِمَّاقَات» أي: «أنا أفضل من السبعة الضِّعاف». ويقال إنَّ إبن دَبْرَايْ هذا ذبح - تأبيناً لوالده - إثنين من الخدم فضلاً عن البهائم، ولهذا يقال في العرف المحلي إنَّ الله عاقبهم بانقطاع نسلهم!!.

عهد جبرتتوس Gabir Tittos :

يُكتب في بعض المراجع بصيغة «جَبِرْكِتُّوس Gabir Kittos» ، ولا نعرف الكثير

عن عهده سوى ما أورده ضرار في كتابه: «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، حيث قال: إنَّ مدة حكمه كانت رخاءً ولم يغيِّر كثيراً في أحوال القبيلة. وقد ترك جَبِرْ تِتُّوس عدداً من الأبناء منهم سَمَرَالْعُول. بعد وفاة جَبِرْتِتُّوس تولى الحكم ابنه سَمَرَالْعُول، وهو أول من تسمى بلقب «كَنْتِيْبَايْ»، ولكن عهده شهد نزاعاً في الحكم، ولَمَّا أحسَّ سَمَرَالْعُول بضعف قوته، وتبين له أنَّ أولاده سوف لن يكونوا بقوته ولن يحافظوا على ملكه، أمر خادمه بدفن النقارة ثم قَتَلَ الخادم لكي لا يعرف أحدٌ محل النقارة والتي كانت تمثل رمزاً للحكم.

عهد كنتيباي جرجيس[1] Garguees :

جَرْجِيس (والجيم دائماً يمانية) هو ثاني كَنْتَيْبَايْ في الحباب وقد انجب ثلاثة أبناء هم: أبِيبْ ويعقوب وتِمِكَّئيل. وكان مولد جَرْجِيس في (أمْزُلال)، بجوار نقفا الحالية، والتي لم تعرف بهذا الاسم (نقفا) إلاَّ بعد أنْ أسس فيها جَرْجِيس مقراً للحكم بدل أمْزُلال. إذن؛ نشأت نقفا في عهد كَنْتَيْبَايْ جَرْجِيس وأصبحت مقراً للحكم، وسميت في البدء دِجِّي جَرْجِيس Diguie Garguees بمعنى مخيم جَرْجِيس وذلك على تعليمات تمكئيل Timichael وَدْ جَرْجِيسْ، ثم أُطْلِقَ عليها فيما بعد مسمى «نقفا» وتعنى الخروج[2] والانقلاع، وربما في ذلك إشارة الى أنَّ أهل البلد الأصليين (الباريا والفونج) قد تركوها نهائياً للقادمين الجدد!!. تولى جَرْجِيس الحكم بعد صراع مرير مع أخيه سمر العول على الحكم، حيث تمكن من القبض عليه والاستيلاء على السلطة. أسس جَرْجِيس دولةً قويةً، وسنَّ القوانين وبسط

---

(١) يبدو أنها نسخة حبابية من «جرجس Jirjis»، الاسم القبطي المعروف، ولكننا هنا نثبتها حسب النطق المحلي لها بإضافة ياء بعد الجيم الثانية، ونطق الجيم بالطريقة اليمانية، ويكتبها البعض «قرقيس»، والأصح أنَّ تكتب «جَرْجِيس» وتنطق الجيم بالطريقة اليمانية.

(٢) نَقَفَ الشيء تعني في اللغة العربية - ولهجة الحباب أيضاً - أخرجه من مكانه وهو، كما ورد في معجم لسان العرب "مَأْخُوذٌ من نَقَفْتُ ما في القارُورَةِ: أي اسْتَخْرَجْت ما فيها".

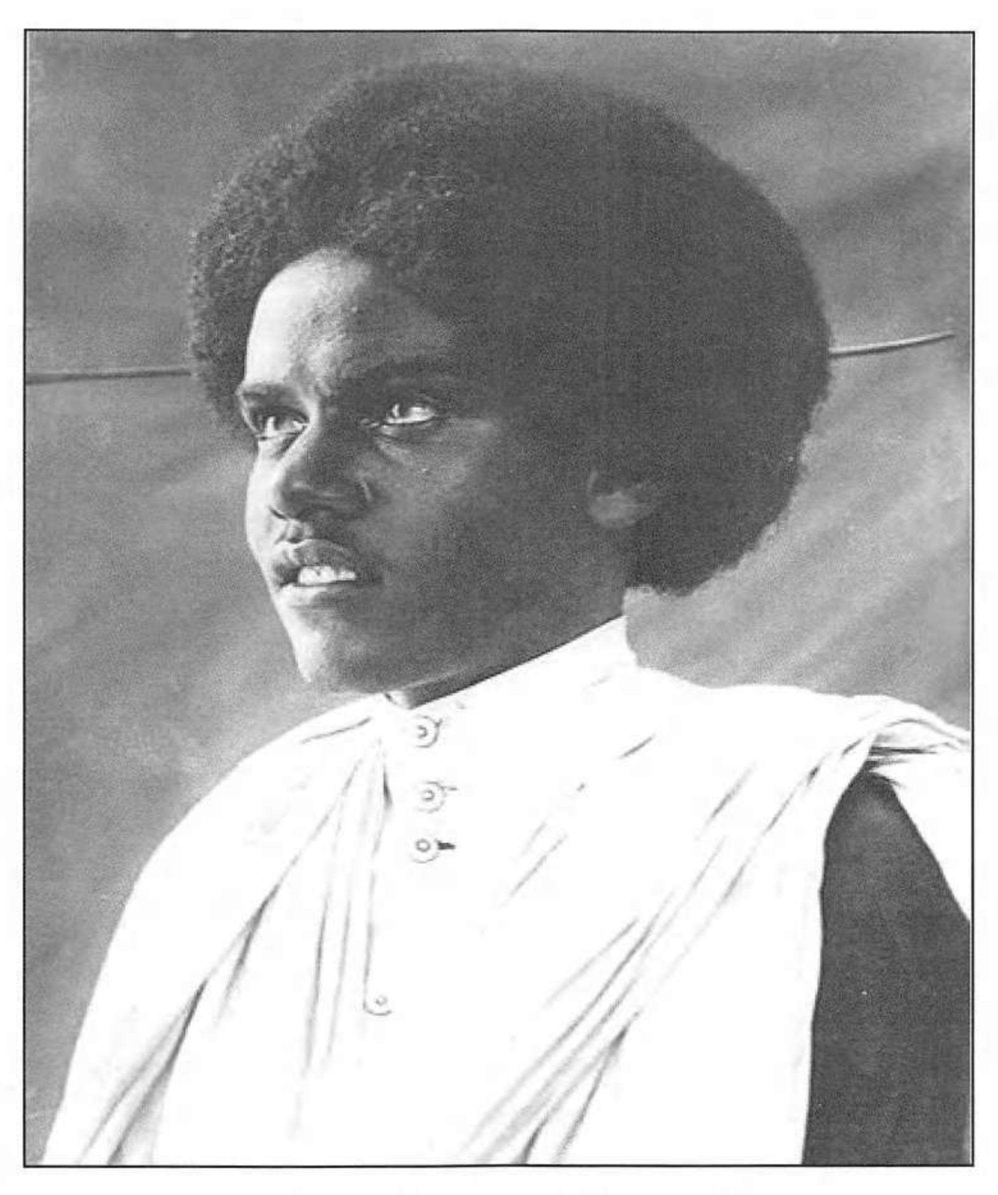
نفوذه نحو شمال السَّاحِل، حيث شهد عهده زوال حكم البلو[١]، الذين كانوا يتولون زمام حكم البُجَة عموماً، وظهرت في عهده سلطة قبيلة بني عامر[٢]. وقبل عهد جَرْجِيس، لم تكن هنالك قوانين وأعراف تحكم علاقة الحكام بالرَّعية، وبعد أنْ تولَّى جَرْجِيس الحكم، سنَّ القوانين (أو ما عُرِفَ محلياً بـ "العادات") التى تنظم علاقة الحاكم بالمحكوم، وأنشأ نظاماً طبقياً أرستقراطِياً[٣] استغله فيما بعد المستعمرون شرَّ استغلال لتزكية النزاعات داخل القبيلة واضعاف الخصوم كما حدث لكَنْتَيْبَايْ حامد بك وَدْ حسن. وسوف نستعرض في الباب السابع الخاص باستعادة النظارة، الكيفية التى استُخْدِم بها هذا الوضع الطبقي، وكيف تم رفعه كقميص عثمان من قبل المستعمر الإنجليزي، لكسب تعاطف النَّاس ضد الحباب، بهدف تفتيت هذه القبيلة المعاندة ونزع نظارتهم.

---

(١) هم بنو بَلِيّ (بفتح الباء وكسر اللام وتشديد الياء) بن عمرو بن الحافي بن قضاعة الحميري، ويقول المؤرخون أنَّ قضاعة هذا كان ملكا على بلاد الشِّحِر. والشِّحِر بلادٌ معروفةٌ في اليمن، كما أنَّ الشحر ميناء قديم على ساحل بحر العرب بحضرموت.

(٢) راجع كتاب: «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق، صفحة ١٦. وقبيلة بني عامر أسسها رجل يدعى «عامر»، قصته طويلة وتأتي بروايات متعددة، وملخصها أنَّ أباه الذي كان يسمى «علي أبوالقاسم»، ويقال إنه من الجعليين الشعديناب، وأمه من القمود – فرع من الكميلاب، وفد إلى أرض البلو معلماً للقرآن، وعندما سئل عن أصله قال: أنا «نابت من الأرض». تزوج علي أبو القاسم هذا من إحدى بنات الملك إدريس همد أدرايب (ملك البُجَة وهو بلوي) وكان ذلك في أوائل القرن السابع عشر حسبما ذكر المؤرخ "محمد صالح ضرار". وبعد سنه من زواجه قتله البلو (إخوان وأبناء عم زوجته) في جبل ملهاب الوقع شرق خور بركة (بركا). يقال: أنَّ عامر هذا عندما بلغ سن الرشد قرر الانتقام لأبيه فذهب إلى أهل أبيه في النيل وحضر بجيش عرمرم بمساعدة العبدلاب أزاح به البلو من ملك البُجَة وأسس مملكة بني عامر.

(٣) لمعرفة المزيد عن هذا النظام الطبقي، وتلك «العادات» الفريدة التى كانت تطبق بموجبه، راجع البحث الذي نشره أندرو بول (مفتش مركز توكر) في المجلد رقم ٣١ لعام ١٩٥٠م من مجلة «السـودان في رسائل ومدونات: «Sudan Notes and Records».



صورة قديمة يعود تاريخها إلى ما قبل عام ١٩٣٦م لصبيٍ من الرعاة.
وهذه الصورة موجودة في مواقع مختلفة من الإنترنت بعنوان «Habab Shepherd».

عهد أبيب[1] Abeeb بن جرجيس:

أبيبْ وَدْ جَرْجِيس هو من سميت باسمه قبيلة الحباب حسب بعض المؤرخين ومنهم سابيتو Sapeto الذي يرى أن "أبيب" ربما كان اسمه حبيب Habeeb أو حابب Habib ، وقد أشرنا في الباب الأول للدراسة التى أعدها "كروفورد" بشأن تسمية القبيلة بمسمى "حباب" تأسيساً على اسم جدهم أبيب أو حبيب، وربّما يكون استنتاج "سابيتو"، و"كروفورد" من بعده، صحيحا إذا علمنا أن كبار الحباب وبعض المراجع مثل كتاب إنو لتهان تذكر أن الحباب هم "ثَلَثْ مَفْلَسْ" ويقصدون بذلك هبتيس وَدْ مفلس وَدْ أبيب وشقيقه تكليس وَدْ مفلس وَدْ وأبيب وابن عمهم وأخيهم من الأم "جَبْرَيسْ وَدْ تِمَارْيَام وَدْ أبِيبْ". وبغض النظر عن سبب التسمية، فإن أبِيبْ وَدْ جَرْجِيس تزوج امرأة من قبيلة الباريا تسمى «زَابْدَتْ وَلَتْ هريش وَدْ كرتوت»[2]، وولد منها «تِمَارْيَام» و«مَفْلَس»، حسب رواية القاضي إدريس محمد نصر الدين. وهنالك رواية أخرى تقول: إنَّ أبِيبْ أنجب فقط تِمَارْيَام من زابدت بنت هريش، ثم تزوج بعد ذلك امرأة من «بيت بكرو»، وأنجب منها ابنه الآخر «مَفْلَس» (جد كل من عَدْ هِبْتِيْس وعَدْ تَكْلِيْس). لقد وَطَّدَ أبِيبْ أركان الحكم، ودعم القوانين والأحكام التى سنَّها والده «جَرْجِيس»، وحارب بقوة المخالفين له، وحتى عهد أبيب كانت هنالك سيطرة متبقية لبعض القبائل في المنطقة خاصة عد

---

(١) كلا الإسمين «أبيب» و«جرجيس» يعودان الى الأقباط حيث أنَّ «أبيب» هو اسم الشهر الحادي عشر في التقويم القبطي و«جرجيس» اسم مشهور لديهم حتى اليوم.

(٢) يوجد في البطانة جبل يعرف بجبل «كرتوت»، وهذا يدعم قناعتنا بأن الباريا (والبازا) هم السكان الأقدمون للمنطقة الممتدة من سوبا الى مرتفعات إرتريا، وأرجح أنهم المقصودون بـ «العنج» قبل أنْ ينحصر وجودهم في ركن ضيق في الجبال التى تقع حاليا حول مدينة بارنتو في غرب إرتريا. يقول شاعر البطانة الحاردلو في مسدار الصيد:

قِدْمَتْ مِنْ هِنَا وبي أضَانا سمعَتْ كَرَّة
فوق كَرتُوتْ شِخَيْتِراً يَخَيِّنْ خَرَّ
قُلاّتُو الوُهَاطْ بي لشَفَة قبله حرّة
يا باسط النعم تسقيها في ها المرَّة.

دجدجي بقيادة زعيمهم القوي «تَجْ وَدْ تَجْدَا» (تق وَدْ تقدا Tug wad Tugda) المشهور بلقب «أقْيَدْ»، والذي كان مقره الرئيسي في منطقة « مَايْ وُعُويْ». فلما كان عهد أبيب اغار على كل القبائل وقضى على سلطتهم المتبقية وشدد على اتباع العادات التى سنَّها والده «جرجيس». وفي هذا الشأن قال الشاعر « دِرَار» وَدْ أبْرِهِيم (Abriheem) وَدْ سَمَرَالْعُول، قصيدة طويلة اشار فيها الى الطلعات التى كان يقوم بها الجد « حَدْنَبَس» قبل نزول القوم من كبسا الى الى الساحل، حتى وصل الأمر إلى «أبيب»، ونورد منها هذه الأبيات:

حَدَنْبَسْ وَدْ جاناي قِمِشْ[1] إي كُونْ لَدِهُتُو	(حضور حَدَنْبَسْ وَدْ جاناي ليس أمرَ هيناً)
ولاد بِتِمْنَتْ هرَّسا إتْ أثرْ لتاورتو	(انتقل بأولاد بِتِمْنَتْ بعد تقصيه للوضع)
أبِيبْ وَدْ جَرْجِيس زَجَا دجْدَجِيْ أتى إتْ قَبَتُو	(دخل أبِيبْ وَدْ جَرْجِيس في قرية دجْدَجِيْ)
مَلكْ لكروي من رَبِّي صَالِح وسَالِم دِيجَيرَتُو.	(كأنه ملك منزل من الرب ويدعو له الشيخان صَالِح وسَالِم)

ولَمَّا كان أبناء أبيب صغاراً عند موته، تولَّى الحكم بعده أخوه «يعقوب وَدْ جَرْجِيس» والذي لم يستقر حكمه كثيراً بل انقلب عليه إخوانه من بيت أسْجَدَيْ بسبب حيلة دبَّرها الشيخ «عامر ملاظي» (زعيم فرع ظاورا، قبيلة ألْمَدَا)، كما سنوضح في موضع آخر.

عهد تماريام ود أبيب:

تِمَارْيَام هو الابن الأكبر لأبِيبْ يليه مَفْلَس، وقد تولى الحكم بعد قتل عمه يعقوب وَدْ جَرْجِيس، الذي كان متساهلاً مع الرعية وخاصة في جباية العوائد (العادات)، فقام تِمَارْيَام بتنشيطها ومحاربة من أنكرها. وتُرْوَى قصة طريفة تتعلق بالكيفية التى تولي بها تِمَارْيَام الحكم. فكما ذكرنا ورث يعقوب الحكم بعد موت أخيه أبِيبْ وَدْ

(١) "قِمِشْ" في لهجة الحباب تستخدم للتقليل من الشأن عموما، و"القمش" في اللغة العربية هو الرّدِيءُ من كل شيء (انظر الباب الثالث من هذا الكتاب).

جَرْجِيس حيث كان أبناء أِبيبْ (بما فيهم تِمَارْيَام) صغارا في ذلك الوقت. وكان لأِبيبْ صديق حميم (جَلْجَلايْ – بالجيم اليمانية) يدعى «عامر ملاظي» وهو جد قبيلة الطاورا (ألْمُدا)، وقد نوي عامر هذا أنْ يعمل على تولية أبناء أِبيبْ الحكم محل أبيهم، ولذلك كان يتعهدهم برعايته ويراقب تصرفاتهم. وكان أطفال أِبيبْ عندما يرون عامر يفرحون بحضوره ويتنادون بقولهم: «أَبُونَا عَامِر مَظْأ» أيْ جاء أبونا عامر، ويأتون اليه متسابقين، وهم عراة (بدون لبس). وذات مرةٍ جاء إليهم عامر فتنادوا كالعادة: «أَبُونَا عَامِر مَظْأ»، وتسابقوا للقائه ومن بينهم الابن الكبير لأِبيبْ «تِمَارْيَام»، والذي في البداية انطلق مع إخوانه عارياً للقاء عامر، ولكنه رجع ولبس ملابسه، ثم قابل عامر وسلَّم عليه. عند ذلك أدرك عامر أنَّ تِمَارْيَام (الابن الأكبر لأِبيبْ) قد أصبح كبيراً وعاقلاً، ويستحق أنْ يخلف والده في الحكم. فقرر عامر أنْ يدبر مكيدةً يستطيع عن طريقها تولية تِمَارْيَام الحكم، بدلاً من عمه يعقوب، وقد نفذ تلك الخطة (الطريفة) بذكاء. أحضر عامر ناقةً بيضاء وجِبَّةً وملابس أخرى، وأصبح يطوف على كبار رجال بيت أَسْجَدَيْ، واحداً تلو الآخر، ويقول لكل واحدٍ منهم منفرداً : هذه الناقة والملابس لك، ويشترط عليه ألاَّ يخبر أحداً بذلك، وإنْ يقول غداً في المجلس: «شُومِيَ تِمَارْيَام تُو» أيْ أنا رئيسي- هو تِمَارْيَام (وليس يعقوب). وبعد أنْ جنَّد عدداً كبيراً من أصحاب الشأن في تولية ونزع الحكم، طعن عامر الناقة بحربته وأصبح يدور على الأشخاص الذين وعدهم بالناقة سراً ويقول لهم: إن يعقوب قد طعن الناقة وقتلها عمداً، ولا أدري من أخبره أنها ستكون لك فيمتلئ الشخص غيظاً على يعقوب. وفي اليوم التالي اجتمع هؤلاء النَّاس في وادٍ بمنطقة «نقفا»، وأعلنوا أنهم أعطوا الولاء والحكم لتِمَارْيَام بدلاً من يعقوب. وحسب العادة أحضروا أوراق شجر خضراء تعرف عندهم بمسمى «قَطَفْ»، غالباً ما تكون من شجر السِّدر، ويتفاءلون بذلك، وسلوا أسيافهم مستعرضين قوتهم بالرقص، أو ما يعرف عندهم بـ «البرج Barij». فتعالت الأصوات، وكان يعقوب داخل داره، ولم يكن يعلم بما يدور. وعندما سمع أصوات القوم أمر خادمته بأن تنظر ماذا يجري، فأخبرته بأمرهم، فامتطى جواده وكان فارساً مقداماً، واتجه نحو

القوم، وعندما حاول الهجوم عليهم بادروه كلهم برمي الحراب تجاهه فأصيب الفرس بعدد كبير من الطعنات، ووقع الفرس بصاحبه فكسرت فخذ يعقوب «مَقَابُو تْسَبَّرَا»، ومات فيما بعد، وبذلك تولَّى تِمَارْيَام الحكم. ومن العجائب أنَّ بيت أَسْجَديْ الحاضرين لهذه الواقعة قسموا فيما بينهم طريقة أكل اللحم منذ ذلك اليوم بحيث يأكل كل واحد منهم من لحم الذبيحة، المكان الذي أصابته حربته من فرس يعقوب، بحيث يأكل قوم الفخذ وبعضهم الظهر وبعضهم العنق، وهكذا. وإلى هذه الواقعة كان يشير الشاعر إيَاسُو وَدْ هِبْتِيْس، حين قال:

إلاّ تَا نَقْفَا حَمَلْـهَالْ بيت أسْـجَديْ لأجَـلا ... مِنـاً قَيـسْ لَقَيْسَـا ودِيْبَـا مَيـتْ لأقْبَلا
نَقْفَـا يَعْقُـوبْ وَدْ جَـرْجِيس ... مَقَـابُو دِيبَـا تْسَـبَّرَا

كان تِمَارْيَام رجلاً ذكياً وعاقلاً، اعتنى كثيراً بشأن ملكه، ونشط في تحصيل العوايد وتطبيق الأحكام التى فرضها جده (جَرْجِيس) وهجرها عمه (يعقوب)، ولهذا فإن الشاعر وَدْ باشقير[١] (وقيل عامر ملاظي) قال فيه:

كَتْبَايْ تِمَارْيَام وَدْ أَبِيبْ ... (إنَّ كَتَيْبَايْ تِمَارْيَام وَدْ أَبِيبْ)
وِقُـولْ تُـو مِنَّا كَتِـبْ ... (هو من أكابر الكتب – جمع كَتَيْبَايْ)
مَفْلَحُـوتُو إبْ بيـانات ... (بيانات فلاحتة واضحة)
أدَّامْ حَـونْ وفَـدِّبْ ... (والبشر منهم القوي ومنهم الضعيف).
ودَّا إنْسَـا بـارياتـات ... (هو رضيع حليب نياق الباريا)
إذَنْ أبُـوتْ وأبْـعِبْ ... (التي أهديت لأمه – من الباريا).
وَدْ سَـلِيـم وكَـلـيـم ... (جدوده هم سليم وكليم)
وَدْ إمْبَـارك وكَلَـبْ ... (والمبارك وكلب).
إنْسَـا بَـدَّرْ مِنْ لشَـعَيْ ... (يسبق الإبل في الجري)
وقَـنَّفْ كَلَّيْ مَن لَعَصَّبْ ... (ويمنع عندما يغْصَب).

(١) اسمه عمر باشقير، وكنايته «وَدْ باشقير» وهو من قبيلة حَرَابْسُو، ويعد أحد أشهر شعراء الحَبَاب، وله شعر متوارث في الفخر والمدح والهجاء والغزل، وهو ينافس في جودة شعره كلاً من وَدْ عِوَال ووَدْ جِرِيتْ (بالجيم اليمانية).

حَلَقَتْ وَدِّي إتْ مَقَـابْ	(علامة إبله هي حلقة أو دائرة في الفخذ).
وحِسَـال رحيب وقِرْنِبْ	(وحسال عريض. . . الخ).
أرَيْ نَسْـأ ومَـامَـتْ	(فرض دفع «أري» و«مامت»)
رأس لجمل وَدْ كِعِـبْ	(وهو على رأس جمل وَدْ كعب)
فَـدَّبْكَـا مِـنْ قَبِـئ	(إذا صرت قويا)
مِنْكَ مَنْبَا إيْ إرَغّبْ	(لا أرغب في سيد غيرك)
وحَـوَنـكَ مِـنْ قَبِـئ	(وإذا ضعفت)
مثـل لسَـكْـبَـا إسَكُّبْ	(فمصيري سيكون مثل مصير غيري).

تدلنا سيرة تِمَارْيَام على أنه كان يتمتع بدهاء وفطنة، وكان رجل دولة بمعنى الكلمة، وهو في نظرنا من أوائل حكام الحَبَاب الذين سعوا لنشر الثقافة الإسلامية لدى الحَبَاب، فقرب اليه مشايخ الدين الإسلامي، بل وتزوج تِمَارْيَام إمرأةً من أشراف البَلَو، اشتهرت بلقب «بَلْوَيِتْ» أي «البلوية»، وهي من بَلَوْ منطقة «زُلا» أو «زولا» الواقعة بالقرب من ميناء عدوليس التاريخي، وانجب منها قَبْرَيْس (سنكتبها فيما بعد «جَبْرَيْس»، والجيم دائماً يمانية). بعد ذلك سافر تِمَارْيَام إلى الحبشة لضمان التأييد لحكمه. وأثناء السفر مرض تِمَارْيَام بمرض جلدي يعرف محلياً عند الحَبَاب بالعَبَق (Abaq)، ولعله أصيب بالجدري، فتفرق عنه من كان معه. ولمَّا طال الانتظار ولم يعُد، ظنَّ النَّاس أنه قد مات، فتم تولية الحكم لأخيه «مَفْلَس»، الذي دخل على زوجة تِمَارْيَام «بَلْوَيِتْ» حسب العادة، وانجب منها كل من «هِبْتَيْس» و«تَكْلَيْس». وكما هي العادة سافر مَفْلَس إلى ملك الحبشة، يطلب الدعم لملكه، فوجد في الطريق أخاه «تِمَارْيَام» مريضاً وأعمى، فأخبره بأنه قد دخل بزوجته «بَلْوَيِتْ»، وتولى الحكم بعدما يئس النَّاس من عودته. ثم اصطحب مَفْلَس أخاه المريض تِمَارْيَام، عوداً إلى مضارب الحباب. ويقال إنَّ تِمَارْيَام بارك لأخيه الزواج والحكم بنفسٍ راضيةٍ وصبرٍ على البلاء، ودعا لأبنه وأولاد أخيه مَفْلَس بالصلاح. ويقال إنه زاد في الدعاء لِهِبْتَيْس (ابن أخيه، وهو يظن أنه ابنه جَبْرَيْس!!). تقول الرواية المتداولة بين بيت أَسْجَديْ إنَّه عندما حضر تِمَارْيَام من السفر، وهو مريض وأعمى، طلبت زوجته (سابقاً) من ابنه وإبنها "جَبْرَيْس" أنْ يذهب إلى والده

ويطلب منه الدعاء والبركة، ولكن – حسب الرواية – يقال أن هِبْتَيْس سبقه إلى تِمَارْيَام وقال له باللهجة الحبابية: «أَبُويَ تِمَارْيَام، أَنَا «جَبْرِيْس أَنَا»، يعنى أنا إبنكم جبريس، وأفهمه بأنه جاء إليه يطلب الدعاء والبركة. فقال له: تكن أعلاهم، يعنى رئيساً على إخوانك. ثم جاء «جَبْرِيْس» الحقيقي بعد ذلك وقال لوالده: «أَبُويَ[1] تِمَارْيَام، أَنَا «جَبْرِيْس أَنَا»، وطلب الدعاء والبركة، فقال له تِمَارْيَام ما معناه: أَلَمْ تأتِ إليَّ قبل قليل؟ قال: لا، فقال لابنه جَبْرِيْس: تكن مُسْتَغْنِياً عنهم بمالك وثروتك. ثم جاء أخيراً تَكْلَيْس، طالباً الدعاء والبركة، فقال له: «حَطِيتُّوم جِبَأ»، ومعناها الحرفي: «كن حَدِيدَتَهُم» ويقصد: كن السلاح وصاحب القوة والقتال.

عهد مفلس Maflas ود أبيب:

ذكرنا أنَّ السلطة انتقلت من تِمَارْيَام إلى مَفْلَس بسبب المرض الذى أصاب تِمَارْيَام، وقد ولد مَفْلَس كلاً من إدريس (الابن الأكبر وأمه من بيت بَكْرُو)، ثمَّ شِكَّر ثم هِبْتَيْس وتَكْلَيْس (وأمهما بَلْوَيِتْ أم جَبْرِيْس). ويعتبر عهد مَفْلَس آخر عهود الاستقرار، حيث بدأت بعد عهده الاحتكاكات والحروب بين بيت أَسْجَدِيْ أنفسهم.

عهد هبتيس Hibtais ود مفلس:

بالرغم من أنَّ إدريس وَدْ مَفْلَس هو الابن الأكبر (أمه من بيت بَكْرُو)، تمَّ منح الرئاسة «منصب كَنْتِيْبَايْ» لإخيه الأصغر «هِبْتَيْس»[2] وَدْ مَفْلَس، خلفاً لوالده مَفْلَس. وهنالك من يقول: إنَّ إدريس تُوُفِيَ قبل وفاة والده، ولذلك انتقلت الزعامة إلى أخيه الأصغر «هِبْتَيْس». وهكذا نجد السلطة قد انتقلت إلى نسل هِبْتَيْس بدل أنْ

---

(١) الحباب لا يعرفون في لهجتهم لفظة «العم» وليس لها مرادف في كلامهم، وإنما يسمون العم «أب» فيقول المرء منهم: «أَبُويَ فُلان» ويسمى عمه، وإذا أراد أنَّ يفرق بين عمه وأبيه يقول: «أَبُويَ حُو أَبُويَ» يعنى أبي أخو أبي.

(٢) يقال أنَّ هِبْتَيْس وتَكْلَيْس، وشقيقهما من إمهما «جَبْرِيْس وَدْ تِمَارْيَام» ـ ثلاثتهم يُدْعَون «بيت بَلْوَيِتْ» ـ قد تناصروا على «إدريس»، أخيهم من أبيهم، ونصَّبُوا هِبْتَيْس بدلا منه.

تكون في نسل إدريس، باعتباره الابن الأكبر لَمَفْلَس.

عهد فِكَاك Ficak ود هبتيس:

وبعد وفاة هِبْتِيْس خلفه إبنه «فِكَاك» وَدْ هِبْتِيْس الذي أصبح كَنْتَيْبَايْ. وإلى حين ذلك الوقت كانت كافة قبائل الحَبَاب تخضع لحكم كَنْتَيْبَايْ واحد فقط. وقد حدث في تلك الفترة تنافس على المراعي، بين الحَبَاب بقيادة كَنْتَيْبَايْ فِكَاك والهَدَنْدِوَا بقيادة «وَدْ كَرْبُوش»، وحدثت معركة رهيبة بين الطرفين في منطقة عدوبنا تمكن فيها فِكَاك من قتل وَدْ كَرْبُوش والاستيلاء على عدد كبير من الإبل المسماة «تِقِفِطْ»، ذات الوسم أو العلامة التى تسمى «حِسَال»، وسلمها لقبيلة أسْفَدَا، للذهاب بها بعيداً في جبل «نارو» لرعايتها، وما تزال بقية هذه الأبل عند قبيلة أسْفَدَا. بعد انتهاء المعركة، وإبعاد الإبل إلى جبل «نارو»، كان النَّاس ينتظرون من كَنْتَيْبَايْ فِكَاك أنْ يقسم عليهم الغنائم كما هي العادة، ولكنه لم يفعل، فلاموه على ذلك. ولما سمع لومهم، قال قصيدة نذكر منها:

رِخِيَّ إجْل تَأبْدَي تُو إلاَّ كِسْنَان تِظَّاوي
إلاَّ نَقْـفَا نَقْفَـايِ تَا وإلاَّ إنْسَـا إنْسَـاي
إي هَـيِـبَّا تِقِفَّطْ وإتَّا سَهَمْ إي إكَاري

ولما سمع النَّاس هذه القصيدة، استيقنوا من عدم رغبة كَنْتَيْبَايْ فِكَاك في قسمة الإبل والغنائم، فظهرت بوادر الخلاف بين «عَدْ مَفْلَس»، رهط كَنْتَيْبَايْ فِكَاك، وعَدْ تِمَارْيَام، الذين قالوا: نحن أبناء عمهم وأكبرهم، فكيف نمنع من القسمة؟. ولهذا رحلوا من «دِقِّي» أو مقر كَنْتَيْبَايْ إلى منطقة «أفْعَبَتْ»، وعينوا «كَنْتَيْبَايْ» خاصاً بهم. أمَّا أبناء مَفْلَس الأربعة (وهم: عَدْ هِبْتِيْس وعَدْ تَكْلِيْس وعَدْ إدريس وعَدْ شِكَّر) فقد ظلوا في نقفا. ثم حدث خلاف حول الأحكام التى استنَّها كَنْتَيْبَايْ فِكَاك، حيث قرر قتل أي شخص يقوم بالسرقة. وفعلا نفذ أول حكم (بالقتل) على أحد أتباع عَدْ تَكْلِيْس، ثم قام أحد أتباع عَدْ هِبْتِيْس بالسرقة، فتم ربطه لتنفيذ الحكم عليه غير أنَّ «أكُد» بن بحر نجاسى «إزَاز» (من عَدْ هِبْتِيْس) قام بفكِّ الحبل من السارق

وقال: اتركوه، مُحْتَجّاً أنه لا يمكن قتل شخص كل يوم بتهمة السرقة!. هذا الوضع أغضب عَدْ تَكْلِيْس وقالوا لإخوانهم: لماذا يطبق الحكم على من يتبعنا ولا يطبق عليكم؟ وطالبوا بتنفيذ القتل على السارق، فحدث خلاف كبير، رحل على إثره عَدْ تَكْلِيْس ومعهم عَدْ إدريس إلى منطقة «حِدَاي Hidie». في هذه الأثناء مات كَنْتِيبَايْ فِكَاك، فتم مناداة أفرع الحَبَاب ومنهم عَدْ تَكْلِيْس، لتتويج ابنه «إزاز» في المنصب خلفاً لوالده كَنْتِيبَايْ فِكَاك. هنا قاد الفارس حَسَامَا (Hasama) بن إدريس وَدْ هِبْتِيْس (من عَدْ إدريس)، معارضةً قويةً لهذا التتويج، وكان فارساً مُطَاعاً وداهيةً يزن الأمور حسب نصابها، ولذلك لم يطالب بالمنصب لنفسه، رغم أنه ابن كبيرهم كما ذكرنا، وإنما حرَّض عَدْ تَكْلِيْس على المطالبة بالمنصب لكونهم يمثلون حزبه ومناصريه، وهم الأقدر على منازلة عَدْ هِبْتِيْس، فاقترح تتويج تِيدْرُوس[1] بن

---

(١) «تَكْلِيْس Takles» هو الابن الثاني لَفْلَس تزوج قِيمَتْ «قيمة» بنت شوم حَدَقي من بيت بَحَايْلاَيْ، وكانت في البدء زوجة كَنْتِيبَايْ جَبْرِيْس (عد تِمَارْيَام) الذي انجب منها «قرينت» وَدْ جَبْرِيْس ثم ماتا بعد ذلك تزوجها تَكْلِيْس وانجب منها «تِيدْرُوس» و«نبو» وتولى اثنان من أولادها منصب كَنْتِيبَايْ فقد كان قِرَينَتْ «جِرَينَتْ» كَنْتِيبَايْ في أهله عَدْ تِمَارْيَام وأما تِيدْرُوس فقد تولى منصب كَنْتِيبَايْ للحباب قبل بدء الحرب بين أبناء العمومة عَدْ هبتيس وعَدْ تَكْلِيْس كما سنوضح في موقع آخر. كَنْتِيبَايْ «تِيدْرُوس» تزوج فاطمة بنت عجيل وَدْ علي يانجي، من العجيلاب (أفلندا)، وهي جدة الكاتب المشهور محمد صالح ضرار، فانجب منها «رده Radie» و«ايلوس» و«نَاشِح» و«جَلاَيْدُوس» و«سمرة» و«أسقدوم». تزوج جَلاَيْدُوس أولا إمرأة أرملة من المنسع «ولت حِنِيتْ وَدْ جَدَّاق»؛ كانت في البدء زوجة أخيه «ايلوس» وبعد مماته تزوجها جَلاَيْدُوس وانجب منها «تِمَارْيَام» و«مَفْلَس»، ثم تزوج إمرأة ثانية هي كلْبَتْ «كلبة» بنت عجيب وَدْ حريش، من البلين «عَدْ حريش»، وانجب منها كلا من «جمع» و«نورالدين» و«هاكين» و«درار» و«نصر الدين - ليس له بنين وله بنت واحدة تزوجها زعيم بيت معلا الشيخ حامد إيتدكل، فانجبت له ثلاثة أبناء هم إدريس وكامل وعامر، ومن نسلهم في وقتنا الراهن (٢٠١٤م) ناظر بيت معلا الشيخ حسن محمد إدريس محمد إدريس حامد إيدكَّل حامد حسال، صاحب المواقف المشهودة وزعيم معلوت الابطال (نكتب هذه الأسطر في شهر يوليو ٢٠١٤م وقد علمت أن الناظر حسن محمد إدريس قد توفي قبل فترة قصيرة، وهكذا انهدَّ اليوم ركن حصين من أركان بيت معلا وفقد عَدْ تَكْلِيْس رجلاً يعرف نسبهم وشرفهم، رجلاً يعزهم ويعزونه؛ اللهم ارحمه واغفر له). ثم تزوج جَلاَيْدُوس إمرأة ثالثة (لا اعرف اسمها) أنجبت له ثلاثة أولاد ليس لهم ذرية هم

تَكْلِيْس في المنصب وهو يومئذ شيخٌ هرم. فوافق عَدْ تَكْلِيْس، وبالطبع لم يوافق عَدْ هِبْتِيْس على ذلك، وإنَّما تَوَّجُوا «إزَاز» بن فِكَّاك في منصب كَنْتِيْبَايْ، بينما تَوَّجَ عَدْ إدريس وعَدْ تَكْلِيْس ومن شايعهم، «تِيدْرُوس» في المنصب، وهكذا ولأول مرةٍ، أصبح هنالك ثلاثةُ كَنْتِّبَ للحَبَاب في آنٍ واحد: كَنْتِيْبَايْ لِعَدْ تِمَارْيَام، وكَنْتِيْبَايْ لِعَدْ هِبْتِيْس، وكَنْتِيْبَايْ لِعَدْ تَكْلِيْس. ونتيجة لهذا النزاع على منصب كَنْتِيْبَايْ، نشبت حرب بين الطرفين استولى فيها عَدْ تَكْلِيْس ومعهم عَدْ إدريس عنوةً على النقارة، رمز السلطة والحكم، فتوترت علاقة أبناء العمومة «عَدْ هِبْتِيْس» و«عَدْ تَكْلِيْس»،

«هوالولي» و«عجيل» و«حباباي». جمع وَدْ جَلايْدُوس تزوج وَلَتْ هبتيس وَدْ مُوْسِي من «بيت تَسْفَا»، الأسرة الحاكمة في ماريا السوداء، وانجب منها «جيل» أكبر أبنائه وبنت واحدة اسمها كَيْمَهْ Kaima (نسلها في بلين – ترقي). ثم بعد فترة طويلة تزوج إمرأة من عَدْ سمرالعُوْل وانجب منها «بخيت» و"أمة ماريام" وَلَتْ جمع المشهورة. وتزوج إمرأة من «بقل لهب» وولد منها جَبْرِيْس، وتزوج إمرأة من "عَدْ جبْشا – بلين" وانجب منها «عقباتِيدْرُوس»، وتزوج إمرأة من عَدْ تِمَارْيَامْ وانجب منها "كلب"، كما تزوج إمرأة من بيت جوك وانجب منها "عِقْبَا جَرْجِيسْ". جيل وَدْ جمع تزوج بنت جرجيس "قَيِحْ" من بيت بَحَايْلايْ فأنجبت له كلا من «فديل»، أكبر أولاده، ثم «عتيل»، ثم تزوج وَلَتْ أشهد وَدْ جرجيس "شوم ماريا قيح" وولد منها "أكد" و"آدم . لم يعقب الأ بنتين". ثم تزوج وَلَتْ هبتيس وَدْ ناود "حباب" فانجبت له "إزَازْ وَدْ جيل" ثم تزوج بنت عمها وَلَتْ أبيب وَدْ ناود "حباب" وولد منها جدي "جمع وَدْ جيل". تزوج "جمع وَدْ جيل" إمرأة من بيت تَسْفَا – ماريا السوداء – هي فاطمة وَلَتْ آدم وَدْ عجيل وَدْ نادر وَدْ حدمبس . وانجب منها جدي المباشر "جيل" و"تكروراي – لم يعقب". جدي جيل تزوج أربع نساء: الأولى هي فاطمة بنت محمد وَدْ إزَازْ وَدْ جيل (عَدْ تَكْلِيْس) فأنجبت له "آمنة" ثم عَمِّي "محمد"، والثانية من عد عقيتاي – أسفدا (لم يلد فيها)، والثالثة تعرف بلقب "ولت حاجة حليب" (لم يلد فيها)، وهي زوجة سابقة لجلايدوس وَدْ إزَازْ. والرابعة هي جدتي «سَعِيدَة وَلَتْ سليمان وَدْ شلعاي» (من دوبعات)، التي أنجبت والدي "إبراهيم" وأخويه آدم وعمر. عتيل وَدْ جيل تزوج إمرأة من عَدْ نَاشِح وَدْ زمات (ماريا السوداء) وولد منها «درار» و«إياي»، ثم تزوج امرأة من عَدْ نور الدين وولد منها «عمر . لا عقب له ». درار وَدْ عتيل تزوج بنت غسال (من ماريا الحمراء) وولد جمع ونصر الدين، ثم تزوج بنت «نَبُو» وولد منها هاكين ونور الدين. نصرالدين تزوج بنت جرَّار وولد منها محمد ودرار، وتزوج بنت تَكْلِيْس وولد منها علي وعثمان. محمد تزوج بنت فايد وَدْ شاوش وولد منها القاضي إدريس (الذي أشرنا الى كتابه مرارا) والشيخ محمود (مُوتْ حَرَّيْ) عمدة عَدْ تَكْلِيْس، رحمهم الله جميعاً.

وتحاكم «إزَاز» وَدْ فِكَاك (ممثلاً لعد هِبْتِيْس) و«إيْلُوس» وَدْ تَيدْرُوس (ممثلاً لعد تَكْلَيْس) إلى ملك الحبشة، كل واحد منهما يزعم أنه أحقُّ بالمنصب والنقارة. فحكم ملك الحبشة «النّجُوس ـ بالجيم اليمانية» بأن إزَاز (وَدْ فِكَاك وَدْ هِبْتِيْس) هو ابن الأكبر (هِبْتِيْس أكبر من تَكْلَيْس)، ولذلك يعين في المنصب الأعلى، وهو «بَحَر نَقَاسِي»، وأما «تَيدْرُوس» (وَدْ تَكْلَيْس وَدْ مَفْلَس)، الذي معه النقاره، يثبت في منصب كَنْتَيْبَايْ. فرضي الفريقان بهذا الحل الوسط، وأخذوا كسوة الشرف من «النّجُوس ـ بالجيم اليمانية»، والذي كان أقوى سلطة إقليمية في ذلك الوقت، ورجعوا إلى ديارهم، واستتب الأمن والسلم لبعض الوقت، إلى أنْ استعرت الحرب مرةً أخرى، بسبب النقارة كما سنبين تفاصيل ذلك في باب منفصل.

تسلسل منصب الزعامة بعد فكاك ود هبتيس:

ذكرنا أنَّ عهد كَنْتَيْبَايْ فِكَاك وَدْ هِبْتِيْس، شهد أول انقسام في زعامة القبيلة. وبالرغم من أنَّ عَدْ تِمَارْيَام أصبح لهم «كَنْتَيْبَايْ» خاصاً بهم، إلاّ أنَّ الرئاسة العامة للحباب ظلت في فرع عَدْ هِبْتِيْس، حيث انتقل منصب «كَنْتَيْبَايْ»، بعد وفاة فِكَاك وَدْ هِبْتِيْس، إلى ابنه «إزَاز» - بحر نقاسي - وَدْ فِكَاك. وبعد أنْ استقر المنصب لبعض الوقت لدى عَدْ تَكْلَيْس، وتم تتويج تيدروس وَدْ تَكْلَيْس في منصب كَنْتَيْبَايْ كما ذكرنا، رجع المنصب إلى عَدْ هِبْتِيْس بعد حرب «حاماسا» التى سنتحدث عنها لاحقاً، حيث تُوِّجَ نَاوِد وَدْ إزَاز في منصب كَنْتَيْبَايْ، ثم انتقل المنصب إلى ابنه فِكَاك وَدْ ناود، ثم إلى أخيه إدريس وَدْ ناود، ثم إلى جَرْجِيس (قرقيس) وَدْ فِكَاك وَدْ ناود، ثم إلى إزَاز وَدْ فكاك وَدْ ناود، ثم الى جاوج وَدْ فِكَاك وَدْ ناود، ثم الى ابنه محمد وَدْ جاوج. ثم حدث قتال شِنْجَبْرَا فانتقل منصب كَنْتَيْبَايْ إلى هِدَاد وَدْ وَدْ فِكَاك وَدْ ناود وَدْ بحر نقاسي إزَاز، ثم ورثها ابنه إزَاز وَدْ هِدَاد، ثم إدريس ثم ابنه محمد (عَتُولايْ)، ثم حسن وَدْ هِدَاد، ونازعه فيها «مَدِين» وَدْ إزَاز، ثم أخذها حامد (بك) وَدْ حسن، ثم هِدَاد وَدْ حسن ثم محمود وَدْ حامد بك، الذي انشق بقسم من الحباب في أواخر يناير ١٨٩٥م، وبعد ذلك رسمت الحدود بين البلدين، بحيث

أصبح كَنْتِيْبَايْ «محمود وَدْ حامد بك» كَنْتِيْبَاي للحباب في السودان، بينما أصبح ابن عمه كنتيباي «عثمان وَدْ هِدَاد»، كَنْتِيْبَايْ للحباب في إرتريا.

دور عد شيخ حامد نافعوتاي والسادة المراغنة في التأثير على الحباب:

لم يكن للدين الإسلامي حضور في حياة بدو الحَبَاب قبل وصول السادة آل الشيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ، فهم الذين مهدوا الطريق لغيرهم ولعبت بعد ذلك الأسر الدينية الأخرى دوراً مقدراً في تبصير الناس بإمور دينهم، خاصة عَدْ دِزْقِي حيث تولى مشايخهم سجَّادة الحباب عموماً[1] لفترة طويلة، ما كا ينافسهم في ذلك إلاَّ عَدْ عَبْدُه. بيد أنَّ بعض الكُتَّاب الأروبيين يرى أنَّ الحَبَاب كانوا مسيحيين (وأسلموا بعد حضور آل نَافْعُوتَايْ فقط)، ودليلهم الوحيد على ذلك الأسماء ذات الطابع المسيحي التي ظلوا يطلقونها على أنفسهم مثل: أبيب وجَرْجِيس وتِمَارْيَام وهبتيس وتَيدْرُوس وغيرها. ونحن هنا لا ننفي ولا نؤكد هذه الفرضية، لكننا نريد أن نوضح للقارئ أنَّ مجرد الأسماء ليس بدليلٍ جيِّدٍ أو كافٍ لإثبات مسيحيتهم أو أثبات نسبهم. فهذه الأسماء هي في الأصل أسماء مسيحية منتشرة بين الأحباش والأقباط وغيرهم، وهي بلا شك توفر قرينة مبدأية ولكنها لا تكفي لوحدها للقطع بإثبات ديانة أو نسب من يحملها، بل لابُدَّ من توفر أدلة أو قرائن أخرى. ذلك لأن الأسماء، في أي مجتمع من المجتمعات، وخاصة البدائية منها، هي ذات دلالات ثقافية (وبالطبع دينية أحياناً كما هو الحال بالنسبة للأحباش الذين أخذوا هذه الاسماء من الأقباط المصريين لارتباطهم بالكنيسة القبطية كما هو معلوم). فالاسم كما ذكرنا قد يوفر قرينة أولية ولكن لا يعنى ـ بالضرورة ـ أنَّ كلَّ من تسمى به ينتمي لدين أو عرق معين وإلا مثلاً صار كل الأحباش أقباط!!. ولتقريب الفهم نقول: إن النَّاس قد يتداولون الأسماء حسب القالب الثقافي الذي يعيشون فيه، خاصةً إذا كان المجتمع لم يعرف بعد التعصب لدين أو مذهب معين، ومن ذلك،

---

(١) ظل عد شيخ حامد محتفظين بتولي سجادة "عَدْ تَكْليس" حتى وقت قريب وذلك عن طريق فرع عَدْ شيخ طه وَدْ شيخ الامين وَدْ شيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ.

على سبيل المثال لا الحصر، نجد اليوم إخواناً لنا من مناطق زنجية خالصة في السودان وغيره يسمون أنفسهم بأسماء عربية قُحَّة مثل: عباس وفؤاد وهشام وهيثم وفوَّاز وصدَّام ووضَّاح الى آخره، وهم بالطبع ليسوا عرباً، ولا يزعمون ذلك، وربما كان بعضهم غير مسلم. فالتأثير هنا تأثير ثقافي وليس دينياً أو عرقياً. ولأجل تقريب الفهم أضرب مثلا بقبائل عريقة وكبيرة من قبائل البجة الحالية وهي قبائل الأثمن فهم بلا جدال من ذرية العبدلابي القاسمي الجهني الشيخ عثمان عجيب المانجلوك، ولكن انظر الى أسمائهم في الوقت الراهن بل وأسماء اجداهم الى خمسة عشر جيلا ماضية تجدها أوهاج وأونور وأوشيك وغيرها من أسماء البجة، وهذا يعني ببساطة أنهم تأثروا بثقافة البجة لإختلاطهم بهم ولكن يبقى أصلهم عبد اللاب - قواسمة.

وعوداً للحباب نقول: إنه رغم أسمائهم التى تبدو مسيحية، فهنالك أسماء يفترض أنها إسلامية (أو على الأقل ليست مسيحية)، نجدها منتشرةً لدى قدماء الحَبَاب مثل مروني (مرون ـ مروان) وشالوق ومالوق وكوتي - زودي - وبدلي بِئِمْنَتْ، وقِغْدَاد، ودَافْلا، وسَمَرْالْعُول، ودَبْرَاي، وحبيب (أبِيبْ)، وقبطان، وشكِّر، وجِرَيْنَتْ (قِرَيْنَتْ)، وإدريس، ونَبُو، ونَايِر، وغيرها كثير. بل إنَّ معظم أسمائهم القديمة هي أسماء سبأية - حميرية، وليست مسيحية (بالمعنى الديني)، مثل: هِدَاد وفِكَاك وأكد وإزَاز ومدين وسمرة وإياس (إياسو) ويحنس ودلَّتْ وكلب ....الخ.

ليس هذا فحسب بل إنَّ هنالك دلائل مهمة تشير الى أنهم لم يكونوا مسيحيين بالمطلق، وإنما كان جزء منهم على الأقل مسلمين أو أقرب للإسلام من المسيحية وإلاَّ كيف تسنى لتماريام مثلاً أن يتزوج بنت أحد أشراف البلو وهي مسلمة، بل أشتهرت بالصلاح، وتنتمي لأسرة دينية معروفة؟ وكيف تفشت عادة الزواج بأكثر من زوجة بينهم إذا كانوا مسيحيين؟ فمن الثابت إنَّ هؤلاء القوم كانوا يحتفظون بأكثر من زوجة، بل وكان المرء منهم يرث زوجة أخيه عندما يموت، وكان هذا أمراً مستحسناً، ويحسبونه من النجدة والنخوة، وهي على كل حال، عادة دارجة الى اليوم في بعض المجتمعات العربية. وهذا بالطبع لا يجوز قط بحسب التعاليم المسيحية التى لا تجيز تعدد الزوجات، وإنْ كان جائزاً في الإسلام. إننا وبتتبع الأحوال

والثقافة الاجتماعية التي كانت سائدة في منطقة "كبسا" عندما كان فيها بيت أَسْجَدِيْ نجد أنَّ المسلمين هنالك كانوا يسمون أبناءهم بتلك المسميات التي تبدو مسيحية ومن هؤلاء، على سبيل المثال لا الحصر، قادة كبار جاهدوا مع الإمام أحمد بن إبراهيم غُورَيْ خلال الفترة من ١٥١٧م والى ١٥٤٣م، وهي نفس الفترة تقريبا التي هاجر فيها بيت أَسْجَدِيْ ومن معهم من "كبسا" الى الساحل. فقد ورد في كتاب «تحفة الزمان" المعروف أيضاً باسم "فتوح الحبشة» لمؤلفه: شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الجيزاني، الشهير بعرب فقيه، أنَّ الشيخ "جويتا تَيدْرُوسْ" والشيخ "مِيكَّائيل دجنه" كانا من أبرز قادة الإمام أحمد في حروبه ضد المسيحيين الأحباش. وفي الحقيقة فإنَّ الحجَّة بأنَّ بيت أَسْجَدِيْ كانوا مسيحيين (فقط بدليل أسمائهم) تنهار من أساسها إذا علمنا أن القوم، حتى بعد أنْ تأكد إعتناقهم للإسلام، ظلوا يتسمون بهذه الأسماء (المسيحية!!)، حيث نجد الى يومنا هذا من يحمل اسم "هِبْتَيسْ" و"تَكْلَيسْ" و"جَرْجِيسْ" وغيرها، ولم يجدوا غضاضة في ذلك، ممَّا يدل على أن تلك الأسماء غير مرتبطة بمسيحتهم أو إسلامهم[1]. خذ مثلاً أنَّ جمع وَدْ

---

(١) في موضوع ليس له صلة ببحثنا هذا ولكن يتناول مدلولات الاسم ومدى ارتباطه بالدين، يقول الدكتور/ عمر مصطفى شركيان، في مقال له نشر في موقع سودانيز أون لاين Sudaneseonline.com بتاريخ ٣٠ مايو ٢٠٠٧م:

"فالاسم في جبال النُّوبة لا علاقة له بالدين – أي دين – فلتجدنَّ من يُدْعَى محمد وهو ليس بمسلم برغم من إسلاميَّة وعروبة الاسم، ولتجدنَّ من يُدْعَى تِيَّه وهو مسلم برغم من أفريقيَّة الاسم، وكذلك لتجدنَّ من يُسَمَّى سَبْت وهو ليس بيهودي وإنَّه لمسلم أو مسيحي أو غير هذا ولا ذاك، وهناك من يسمَّى إسرائيل في جبال النُّوبة وليس بيهودي. فلا نحسب أنَّ للاسم علاقة بالإسلام، فإنَّ للثقافة دوراً محوريَّاً في التسمية .فالذين كانوا يحملون أسماءاً دالة في العصر قبل الإسلام – أو ما تعارف عليه فقهاء الإسلام بالعصر الجاهلي، ولنا في ذلك قول على قول – لم يغيِّروا أسماءهم بعد اعتناقهم الإسلام في صدر الإسلام، ولم يطلب منهم الرسول صلى الله عليه وسلَّم أن يبدِّلوا أسماءهم، فكان هناك من كان يُدْعى صخر بن حرب، وحجر وغيرهما .أما الموالي في الجزيرة العربيَّة، وهم كانوا كثراً نذكر منهم عمار بن ياسر ووالدته سميَّة، وصهيب بن سنان سابق الروم إلى الإسلام، والخبَّاب بن الأرَتِّ، وعبد الله بن مسعود صاحب الرسول عليه الصلاة والسَّلام، وبلال بن رباح مؤذن الرسول (ص)، هني مولى عمر بن الخطاب، سالم مولى أبي حذيفة

جَلايْدُوسْ تجد أسماء إخوانه كلها إسلامية (مثل نور الدين ونصر الدين ودرار وهاكين) ولكن بنته إسمها "أمة ماريام" بالرغم من أنها مسلمة ومن أب مسلم وأم مسلمة وجدتها الأعلى (والدة جدها جلايدوس) مسملة هي فاطمة وَلَتْ عجيل وَدْ علي يانجي (أفلندا – العجيلاب)؛ وبالرغم من ذلك سُمِّيتْ "أَمَةُ مَارْيَام" بينما شقيقها سُمِيَ "بخيت"!! ليس هذا فحسب بل إنَّ نورالدين وَدْ جلايدوس سمى أربعةً من أبنائه باسماء تبدو مسيحية هي (جَبْرَيسْ وحَدَنْبَسْ وتَكْلَيسْ وهِبْتَيسْ) وذلك بالرغم من أنَّ إسمه هو "نُورُ الدِّين" !!!.

لكن، بالرغم مما ذكرنا، ينبغي أنْ نُقرَّ بأننا لا نستطيع نفي وجود التأثير المسيحي على مجتمع الحباب قبل ظهور عد شيخ حامد والبيوت الدينية الأخرى. وهذا ما تدل عليه بعض الروايات التى سمعناها من كبار بيت أسْجَديْ وتأكيدهم بأن المجتمع كان به قساوسة "قَشِّيتَاتْ"، وربَّما كان هنالك أشخاص ذوو نفوذ من الحباب قد اعتنقوا المسيحية في وقت مبكر. وفي هذا الصدد لفت نظري بيت شعر قاله كَنْتِيبَايْ «فِكَاك» وَدْ هِبْتِيس عندما اختلف مع قومه في تقسيم الإبل التى غنمها من زعيم الهَدَنْدِوَا «وَدْ كَرْبُوش» في معركة عدوبنا. فعندما رأى كَنْتِيبَايْ «فِكَاك» المشاورات التى كان يعقدها البعض محتجين على عدم تقسيم الإبل، انشد كَنْتِيبَايْ «فِكَاك» قصيدة يرفض فيها تقسيم الإبل ومن ضمن تلك القصيدة بيت يقول فيه:

رِحْيٍّ إجْل تَأْبْدَي تُو إلاَّ كِسْتَان تِظَّاوي

ومعناه إنَّ هولاء المسيحيين الذين يتشاورون في انزواء يريدون قتلي "روحي". وهذا البيت يؤكد لنا أنه على الأقل كان من ضمن مجتمع الحباب في ذلك الوقت "كستان" أي مسحيين من أهل الحل والعقد، بدليل كلمة "تِظَّاوي - وهي في

وهو كان رقيقاً فارسيّاً من أهل اصْطَخَر، عثمان بن حنيف، وياقوت الحموي (وهو شهاب الدين بن عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي) وغيرهم؛ إذْ أخذوا أسماءهم من البيئة التي فيها نشأوا، والثقافة التي وسطها ترعرعوا".

الأصل تتضاوى" أي تلك المجموعات كانت تنضوي مع بعضها للتشاور، لكن الأمر المُحَيِّر هو لماذا وصفهم كَتَيْبَايْ «فِكَاك» بهذه الصفة "كستان"؟ وفي سياق هو أقرب للذم والشتم!!. هل يا ترى لم يكن معتقدا باعتقادهم؟ الأمر يحتاج الى مزيد من البحث والتدقيق.

هذا فيما يخص بيت أسْجَديْ وإخوانهم، أما قبائل الحَبَاب العربية الأخرى، فقد ظلت في الغالب محتفظة بأسمائها «العربية» المعروفة، وذلك على الأقل منذ تكوين حلف الحَبَاب في بداية القرن السادس عشر، ومن تلك القبائل: دوبعات ودَجْدَجي ومَيْكَال ورِجْبَاتْ وألْمَدا وأسْفَدَا، وإنْ كنا نجد بعضهم، من وقت لآخر، يتسمى بأسماء تبدو مسيحية، حيث نجد لدى دوبعات وأسْفَدَا مثلاً جدوداً لهم يسمون «زَرْءَايْ سَلَمُون» و«بَدَلَايْ» و"سُلُوسْ" و«عِقْبي سِلاَّسي» و«رَدْئِي» و«وتسَّاي» و«تسْفِيتْ» و«دَبِّي»، و"كِدَان" وغيره.

مهما يكن من أمر، فإنَّ كثيراً من المؤشرات تدل على أن الدين الإسلامي لم يكن محارباً في بادية الحَبَاب، وذلك عكس الوضع الذي نتوقعه لو كان النَّاس مسيحيين متمسكين بالمسيحية. بل هنالك أحداث تاريخية توحي لنا أن الحَبَاب ربما تأثروا بالدين والثقافة المسيحية عموماً، ولكنهم لم يكونوا يكترثون كثيراً للمفاهيم الدينية المسيحية، وإنما الحياة عندهم كانت مبنية على قاعدة القويّ يسود على الضعيف، والبقاء للأصلح، ولم يكونوا متشددين تجاه الديانات الأخرى، خاصةً الإسلام، وربما وجد أفراد من بينهم يعتنقون الإسلام. وهكذا الحال لدى البدو عموماً، والبُجَة خصوصاً، والشاهد على ذلك ما ذكره مؤرخ النوبة والبُجَة: عبد الله بن أحمد ابن سليم الأسواني الذي قال، يصف البُجَة الأقدمين: «وليس عليهم متملك ولا لهم دين» يقصد أنهم لا يعبؤون كثيراً بالدين، فالتدين في تلك المجتمعات البدوية هو، في الغالب، تدين شكلي يفتقر الى الممارسة الفعلية بسبب عدم الاستقرار وقلة أو انعدام التعليم.

وهذا ما يفسر لنا الزيجات التى تمت في وقت مبكر بين بيت أَسْجَدِيْ وبعض الأسر الدينية. مثلا نجد أن أحد الأجداد المتقدمين جدا لبيت أَسْجَدِيْ، وهو تِمَارْيَام وَدْ أبِيبْ، قد تزوج بنت شيخ بارز من شيوخ الدين الإسلامي (ست الملوك بنت عَلِيّ البلوي) وهي تعرف إختصاراً باسم «سِتَّلْ»، بدل «ست الملوك»، ومشهورة بلقب « بلويت أم جَبْرِيْس» (أبوها من أشراف البلو، وأمها بنت عَلِيّ وَدْ معو، زعيم قبيلة عَدْ دَجْدَجِي).

وحدث هذا في فترة قديمة، وأعقبته أجيال عديدة قبل حضور آل نَافْعُوتَايْ، وبالطبع الختمية، الى بادية الحَبَاب، وما كان لهذا الزواج أن يحدث لو أنَّ البيئة كانت مسيحية (لما هو معروف من تعصب المسيحين في تلك العصور المتقدمة، خاصة مسيحيي الحبشة). بل الذي يبدو لنا هو أن الحَبَاب، مَثَلُهُم مَثَلُ قبائل البُجَة الأخرى، لم يكن لديهم وعيٌّ دينيٌّ ملتزمٌ بالمعايير الدينية، وذلك بحكم حياة البداوة، وهذا بطبيعة الحال، جعلهم لا يعرفون التعصب لدين معين، وإنما كانت المعايير عندهم مختلفةً ومعتمدةً على القوة والجاه، وكانوا عموماً يرحبون بمن يأتي اليهم، بغض النظر عن دينه، طلما لم ينازعهم في الحكم، وهذا هو السبب الذي كان يجعلهم يستعينون بالقساوسة ومشايخ الدين الإسلامي في وقت واحد، كما أنَّ عدم التعصب هذا هو الذي مهد فيما بعد للسادة الأشراف أن يتغلغوا وسط النَّاس، ويبثوا الدعوة الإسلامية دون خطورة عليهم.

بَيْدَ أنَّه، وفي معرض حديثي هذا، ينبغي أن أنبه الى ضرورة ألاَّ يَفْهَمَنَّ أحدٌ أنني بهذا أحاول تبرئة الحَبَاب من «تهمة» أنهم كانوا مسيحيين!! فقد تغلغلت الديانة المسيحية، منذ أمدٍ قديمٍ، وقبل ظهور الإسلام، في كافة منطقة البُجَة على امتدادها، من جزر دهلك في إرتريا الى برنيس في مصر، بل وفي كافة منطقة الحبشة وشمال السودان ووسطه، وتكونت هنالك ممالك مسيحية قوية، مثل مملكة أكسوم في الحبشة، ومملكة المقرا في شمال السودان، ومملكة علوا في وسطه، بحيث ظلَّ السودان كله مسيحياً حتى بداية القرن السادس عشر. ولا ننسى أن نذكِّر بأنَّ الملك غالب

الأكسومي قد أحضر، في عام ٥٢٣-٥٢٤ م، عدداً كبيراً من مسيحيي اليمن الى منطقة البُجَة، وبالتحديد الى هجر[١] (Hager)، حيث سميت على «هجر نجران»، وهي مدينة نجران المعروفة في الجزيرة العربية، وتحرفها بعض المصادر، ولاسِيَّما الحبشية، الى «هجر ناجرام»، وتختصر عادة باسم «هجر»، والتى أصبحت فيما بعد عاصمةً البُجَة التأريخية كما ذكر المؤرخون. ثم اجتاحت قبيلة بَلِيّ منطقة البُجَة قبل الإسلام، وتملكت أمرهم لفترة طويلة، ونشرت المسيحية فيما بينهم حتى صار أكثر البُجَة نصارى، وإنْ ظلت طوائف منهم بعيدة عن النصرانية والإسلام معاً. قال اليعقوبي في كتابه «البلدان»: إنَّ طائفةً من البُجَة تسمى «الزنافجة»، لهم ملك يسكن مدينة تسمى « نَقْلِين». وربُّما صار المسلمون إليها للتجارات، ومذهبهم مثل مذهب الحداربة، وليس لهم شريعة، إنّما كانوا يعبدون صنماً يسمونه حجاجوا»[٢].

ثم جاءت الخلافة العباسية التى حاولت بسط الإسلام بين البُجَة، ولكن البُجَة ظلوا على مسيحيتهم (الاسمية)، وفضّلوا دفع الجزية حيث أبرم عظيم البُجَة آنذلك (كنون Kanoan ابن عبد العزيز البلوي الذي ظل مسيحيا رغم اسمه العربي!!) معاهدةً مع الدولة العباسية في عام (٢١٦هـ). ورغم هذه المعاهدة، ظلت المسيحية سائدة وسط البُجَة، وحكامهم البلو (الحِمْيَرِيين)، واستمر هذا الوضع لمدة طويلة، حتى بعد هذه المعاهدة التى يفترض أن تكون قد مهدت لانتشار الإسلام وسط البُجَة. فبعد ثلاثة قرون أو يزيد، نجد أنَّ البُجَة ظلوا مسيحيين على مذهب اليعاقبة، الذي يدين به الأقباط في مصر، وكل الكنائس في الحبشة. يقول الادريسي الذى كتب عن البُجَة في القرن السادس الهجري (ت ٥٦٠هـ): إنهم «نَصَارَى خَوَارِج على مذهب اليعقوبية»[٣]. أمَّا البُجَة الذين في سواكن، فقد ظلوا على مسيحيتهم على

---

(١) انظر موقعها في الخريطة التى أوردناها سابقا في هذا الباب.

(٢) راجع فقرة «بلاد البُجَة» في كتاب «البلدان» لليعقوبي، وتوجد منه طبعة قديمة (١٨٦١م) في مكتبة جامعة تورنتو.

(٣) «نزهة المشتاق في إختراق الآفاق» للشريف الإدريسي، مرجع سابق، صفحة ٣٧.

الأقل حتى القرن الثالث عشر الميلادي وهي الفترة التى عاش فيها المؤرخ ياقوت الحموي (توفي عام ١٢٢٨م – ٦٢٥ هـ) والذي قال: «سواكن بلد مشهور على ساحل بحر الجار، قرب عيذاب، ترفأ إليه سفن الذين يقدمون من جدة، وأهله بُجَاه[١] سودٌ نَصَارَى»[٢].

نعود الى الحَبَاب فنقول: ظل الولاء للمسيحية (إنْ وُجِد) رمزياً لم يتجاوز طور التأثير الثقافي، دون التقيُّد بالمعتقدات. وربما تَسَمَّى النَّاس باسماء مسيحية الدلالة، وربما حملوا بعض التعاويذ والأصنام المرتبطة بالدين المسيحي بغرض الحماية من السحر والعين، وربما لجأ الحكام للكهنة والقساوسة ومشايخ المسلمين، في آن واحد، طلباً للنصح والمشورة، وذلك كله دون التعمق في الدين أو حتى ممارسة شعائره. وربما لهذا السبب نجد المستكشف هنري بلانك (Henry Blanc)، الذي زار الحَبَاب في منتصف القرن التاسع عشر ووصفهم بأنهم يعتبرون أنقى صنف في البدو «The finest type of the roving Bedouins»، يقول عن الحَبَاب إنهم قد تحولوا من مسيحيتهم، «الإسمية على الأقل» كما قال، الى الإسلام، وذلك في حدود الخمسين سنة الماضية. كتب «هنري بلانك» مذكراته تلك في عام ١٨٦٨م وطاف ببلاد الحَبَاب في غضون عام ١٨٦٥م، وفيما يلي نص الفقـرة التى تتضمن ما أشرنا اليه، وذلك كما وردت في كتابه:

«A Narrative of Captivity in Abyssinia»:
«The Hababs are a large pastoral tribe, inhabiting the Ad Temariam, a hilly and well-watered district, about fifty miles north-west of Massowah, included between longitude 38 - 39 and latitude 16 to 16.30. They represent the finest type of the roving Bedouins; of middle height, muscular, well made, they claim an Abyssinian origin. With the exception of a darker hue of the skin, certainly in other respects they do not differ from the inhabitants of the table-land, and have but few characteristics of the aboriginal African races. Some fifty years ago they were a Christian tribe - nominally, at least - but were converted to Mohammedanism by an old Sheik,

(١) هكذا في النص ـ بالهاء بدل التاء المربوطة.

(٢) «معجم البلدان» لياقوت الحموي، مرجع سابق، الجزء الخامس، باب السين والواو وما يليها.

still alive, who resides near Moncullou, and is an object of great veneration all over the Samhar»[1].

مهما يكن من أمر فإن منزنجر[٢] (Munzinger) يرى أنَّ تحول الحَبَاب للإسلام بصفة رسمية كان في حدود عام ١٨٢٠م، بينما يعتقد ترمنجهام[٣] (Trimingham) أنهم تحولوا للإسلام في حدود عام ١٨٣٨م. واذا اعتبرنا أنَّ المقصود بالتحول «إلى الإسلام» هو التقيّد بالشريعة الإسلامية الغراء في الأحكام والمعاملات عموماً، فإننا نرجح ما ذهب اليه منزنجر حيث من المعروف إنَّ الحَبَاب قد اعتمدوا أحكام الشريعة الإسلامية كمرجعية لهم بقرار من حاكمهم كَنْتَيْبَايْ جاوج وَدْ فِكَاكْ (الذي حكم الحَبَاب في الفترة ما بين ١٧٩٠ الى ١٨٣٠م تقريبا)، فضلاً عن أنَّ هذا التاريخ يتوافق مع ما ذكره هنري بلانك في الفقرة السابقة. وبغض النظر عن تاريخ اعتماد أحكام الشريعة بقرار من الحاكم «كَنْتَيْبَايْ جاوج» فإنَّ المؤكد هو أنَّ الحَبَاب، والعربان الذين معهم، ظلوا غير آبهين باتباع القواعد الدينية في حياتهم اليومية، شأنهم في ذلك شأن كثير من البدو في كل زمانٍ، الى أنْ قيَّض الله لهم ولسواهم من قبائل البُجَة، أحد الدُّعاة الصالحين، والذي طاف ببلادهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ذلكم هو الداعية الربَّاني الشريف الشيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ.

أصل أسرة نافعوتاي:

إننا وبعد الاطلاع على بحث للسيدة/ ماريا هوفنر Maria Hofner عن عَدْ شيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ، نشرته باللغة الألمانية في عام ١٩٦١م بعنوان:

---

(1) See page 46 of «A Narrative of Captivity in Abyssinia», by Henry Blanc, M. D., M. R.C. S.E., F. A. S. L., ETC.

(٢) ورينر منزجر Werner Munzinger مستشرق ومغامر سويسري تم تعيينه في عام ١٨٧١م في منصب الحاكم المصري العام لمصوع من قبل اسماعيل باشا خديوي مصر. وفي إبريل ١٨٧٣ أصبح منزجر الحاكم العام لجميع شرق السودان ولم يتمتع بالحكم كثيرا لأنه مات خلال الحملة المصرية على الحبشة في العام ١٨٧٥-١٨٧٦م.

(٣) راجع كتاب: «Islam in Ethiopia» by JS Trimingham, London 1952.

«Uberlieferungen bei Tigr-Stammen: Ad Sek»[1]، وبعد مراجعة هذه الفقرة من كتابنا مع شيخ مشايخ عَدْ شيخ حامد وَدْ نافعوتاي الشيخ/ محمد بن احمد وَدْ شيخ عامر وَدْ شيخ الأمين وَدْ شيخ عمر وَدْ شيخ محمد وَدْ شيخ علي وَدْ شيخ الأمين وَدْ شيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ، وكذلك الأستاذ: عمر بن عبد القادر وَدْ شيخ محمد علي وَدْ شيخ الأمين وَدْ شيخ عبد القادر وَدْ شيخ محمد وَدْ شيخ علي وَدْ شيخ الأمين وَدْ شيخ حامد وَدْ نافعوتاي، نقول وبالله التوفيق إن الشيخ محمد الذي يعرف بمحمد المبارك، وأحيانا بزيد المبارك، والذي ينتهي نسبه الى الإمام علي بن أبي طالب، كرَّم الله وجهه، هو أول قدم الى شرق السودان من أسرة عَدْ شيخ. ويجب ملاحظة ان السيدة ماريا هوفنر قالت في بحثها إنَّ أول من قدم من "مكة" الى السودان هو الشيخ عثمان بن محمد المبارك، ولكن أكَّد لنا الإخوة من عَدْ شيخ أنَّ أول من حضر الى السودان الشرقي هو الشيخ محمد المبارك[٢]. انتقل محمد المبارك أولا من الحجاز الى مصر ثم من مصر الى سواكن، وتزوج إمرأة من قبيلة العالياب Alyab فانجبت له إبنه "عامر" الذي تزوج "حليمة" بنت الشيخ عجيب عثمان (المانجلك) بن عبد الله جمَّاع، فانجبت له إبنه عثمان (محمد عثمان). تزوج عثمان من الأرتيقا (بنت الزعيم محمود بن علي بيك) في منطقة التاكا (كسلا ـ لاحقاً). رزق عثمان من زوجته (بنت محمود علي بيك) إبناً سمَّاه محمود، الذي ولد في مكرام حيث توفي ودفن في سفح جبل التاكا في المكان المعروف الى اليوم باسم "أويتلا"، ويقال إنَّ أصل التسمية هو "أوَيْتُ هَا". محمود «صاحب أويتلا» تزوج حليمة بنت أحمد باسل من قبيلة الشكرية حسبما تذكر المصادر ومنها كتاب الأستاذ/ محمود أبو عائشة بعنوان "إمارة سواكن: المجد والاعراق"، ويقال إنَّ أحمد باسل هو في الأصل من قبيلة ألْمَدَا (فرع عَدْ قَيِءْ Ad Qaye)، فانجبت له إبنه أحمد المعروف بلقب «نَافْعُوتَايْ» وذلك بقرية «الشَّوَك»، شمال شرق القضارف. ويجدر بنا أن

(١) انظر المجلد الرابع من مجلة Annales d'Ethiopie (١٩٦١)، الصفحات من ١٨١ وحتى ٢٠١.

(٢) يوجد قبره في منطقة الدَّامر شمال السودان.

نشير هنا أن لقب «نَافْعُوتَايْ» أصله «نَافِع» ولكن الحَبَاب، تأثُراً بالحِمْيَرِيَّة، يستخدمون صيغة «فَعيلاي» في حالتين: الحالة الأولى للتصغير (أحياناً بغرض التحبيب والملاطفة) مثلما هو الحال في «نَافْعُوتَايْ» تصغير «نَافِع»، و"شَايْبُوتَايْ" تصغير شايب، و"جِنَيْتَايْ" تصغير "جِنَى ـ بالكسر". والحالة الثانية للإنتساب فيقولون: «حَبَابَايْ» بدل «حَبَابِي» «حَبَشْتَايْ»[1] بدل حَبَشِي، و«فُونْجَايْ» بدل فُونْجي، وهكذا.

نعود الى الشيخ أحمد «نَافْعُوتَايْ» الذي تفرغ للدعوة الى الله فانطلق من أرض الشكرية، طالباً للعلم وناشراً للدعوة الإسلامية، وطاف بربوع بلاد البُجَة ابتداءً من عام ١٦٦١م، الى أن استقر[2] أخيراً مع الحَبَاب وتزوج من السيدة «حليمة بنت عَلِيّ وَدْ فايد» وهي أيضاً من قبيلة «أَلْمَدَا ـ فرع عَدْ قَيِئْ Ad Qaye» ، وعاش بين الحَبَاب حتى وفاته. لقد كان نتاج هذه الزيجة المباركة أنْ رزق الله المنطقة في عام ١٦٦٦م بالقطب الرباني الشيخ حامد[3] وَدْ أحمد «نَافْعُوتَايْ». لقد لعبت أسرة الشيخ أحمد

---

(١) لاحظ النسبة هنا لقبيلة «حَبْشَتْ» وليس الى «حبش»، ممّا يدل على قدم وعراقة لهجة الحباب حيث لا أحد الآن يتداول لفظة «حبشت» أو ينسب اليها، ولكن الكل يقول «حبشي» من الحبشة التى كانت في الأصل «حَبْشَتْ».

(٢) بحساب الأجيال فإن استقرار الشيخ أحمد «نَافْعُوتَايْ» لدى الحباب يفترض أنه كان في عهد بحر نجاسي إِزَازْ وكنتيباي تيدروس خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر.

(٣) بالإضافة الى الشيخ حامد هنالك ثلاثة أبناء للشيخ أحمد «نَافْعُوتَايْ» هم: إدريس ومحمد وإبراهيم. الشيخ إدريس استقر في شمال السودان وتزوج إمرأة من الشكرية وشكل نسله منها قبيلة النفيداب (تحريف لنافعوتاياب) المستقرة حالياً في مناطق سيدون بنهر أتبرا (عطبرة)، كما تزوج إمرأة من البشاريين وشكل نسله منها قبيلة "الشيكاب" أو "النافعاب"، وهم موجودون في منطقة الدامر وقوز رجب، وتوفي الشيخ إدريس في "أتبرا" وله فيها ضريح معروف حتى الآن. الإبن الثاني (الشيخ محمد) المشهور باسم "هُمَّدْ الخير" توغل في أراضي الحبشة ناشراً الدعوة الى الإسلام، وما زال نسله موجوداً في إرتريا في منطقة «مندفرا Mendefera» ، وهي مركز إقليم سرايي Seraye الذي يعرف حاليا بإقليم «دبوب Debub». أما الإبن الثالث "إبراهيم" فلم يكن له عقب.

نَافْعُوتَايْ دوراً مميزاً ومتقدماً في هداية كل قبائل البُجَة[1]، ولا سيّما الحَبَاب وبني عامر، وذلك ابتداءاً بحضوره الى المنطقة واستقراره فيها وحتى وفاته في عام ١٧٢٤م، حيث دفن في «جَلَبْ سَجْلا» ـ يجب أنْ تنطق Galab Sagla بالجيم اليمانية ـ والتى تقع بالقرب من مرسى تَكْلايْ في أرض الحَبَاب[2]. بعد وفاة الشيخ أحمد «نَافْعُوتَايْ» (على الأرجح في عهد كنتيباي ناود وَدْ بحر نجاسي إزاز)، تولى أمر الدعوة إبنه الرجل الصالح الشيخ «حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ»[3]، الذي تزوج أيضاً من الحَبَاب وبالتحديد من أخواله أَلْمَدَا ـ عَدْ قَيِءْ Ad Qaye ، حيث أنجب من السيدة (ملوك بنت بقّار) أهم أولاده وهو الأمين (شيخ الأمين وَدْ شيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ)، والذي أيضاً تزوج من الحَبَاب (بخيتة بنت حامد دَنْبَاي ـ من أَلْمَدَا ـ عَدْ قَيِءْ Ad Qaye). وكانت هِمَّةُ شيخ الأمين في الدعوة الى الله لا تقل عن هِمَّةَ والده حيث أعلن على يده بعض نبلاء الحَبَاب تبنيهم لتعاليم الإسلام والعمل بها، ومن هؤلاء: نايز وَدْ هِبْتِيْس من «عَدْ هِبْتِيْس» ونصر الدين وَدْ جَلايْدُوس ومحمود وَدْ

---

(١) يقول جونثان ميران إن أسرة عد شيخ نافعوتاي قد لعبت في الفترة ما بين ١٨٢٠ و١٨٦٠ م دروا حاسما في تحول قبائل كثيرة في المنطقة الى الاسلام:

«Between the 1820s and 1860s the Ad Shaykh family was instrumental in converting all the Bet Asgede (Habab, Ad Takles and Ad Temaryam), the Mensa, the Marya, the Bet Juk, and segments of the Bilin from various local forms of Christian practice to Islam». (See p. 174 of «Red Sea Citizens: Cosmopolitan Society and Cultural Change in Massawa» by Jonathan Miran, published in 2009 by Indiana University Press).

(٢) لمعرفة المزيد عن كيفية استقرار آل نَافْعُوتَايْ وسط الحَبَاب وتزاوجهم معهم وتأثيرهم على قبائلهم راجع الكتب التالية:

- «Red Sea Citizens : Cosmopolitan Society and Cultural Change in Massawa» by Jonathan Miran, Published in 2009 by Indiana University Press.
- «Islam in Ethiopia» by J. Spencer Trimingham, London 1952.
- «Ostafrikanische studien» by Werner Munzinger, (Landmarks in anthropology; a series of reprints in cultural anthropology) [Unknown Binding].

(٣) المشهور بشيخ الأسد والذي توفي أثناء رحلته للحج ودفن في منطقة جدة القديمة ـ شارع مكة ـ وكان ضريح شيخ الأسد يزار حتى ازيل نهائيا بعد انتصار الدعوة الوهابية.

كَنْتَيْبَايْ دَافلا من «عَدْ تَكْلَيْس» وشخصية أخرى مرموقة من «عَدْ تِمَارْيَام» لم اتمكن من تحديد اسمه. ثم توفي شيخ الأمين في عام ١٧٨٥م تقريبا ودفن في رحيب[١]، ليس بعيداً عن قبر جده. بعد ذلك تولى الأمر إبنه الشيخ عَلِيّ وَدْ شيخ الأمين الذي تزوج إمرأتين من الحَبَاب، وبالتحديد من أخواله ألْمُدَا ـ فرع عَدْ قَيِئْ Ad Qaye ، وانجب من إحداهن إبنه الوليّ الصالح شيخ "محمد وَدْ عَلِي"[٢]. قام الشيخ "علي وَدْ شيخ الأمين" بمواصلة مهام نشر الدَّعوة وسط الحَبَاب، واشتهر بكراماته في زمن كان الناس فيه يعيشون في جاهلية وكانت الإمور فيه تُسَوَّى بحدِّ السَّيف!!.

وفي هذه الأثناء تولى حكم الحَبَاب الرجل القوي: كَنْتَيْبَايْ جَاوُج وَدْ فِكَّاك، والذي ربَّما سمع وشايةً ضد الشيخ عَلِيّ من الكهنة أو القساوسة أو مشايخ مسلمين منافسين، أو ربَّما لم تعجبه تصرفات الشيخ عَلِيّ الأمين وسط الحَبَاب، ولذلك كلف أحد أتباعه بأن يضرب عنق الشيخ عَلِيّ من الخلف في الوقت الذي يكون فيه كَنْتَيْبَايْ جاوج موجهاً حديثه لشيخ عَلِيّ. وفعلاً تم الاتفاق على التخلص من الشيخ عَلِيّ الأمين بهذه الطريقة، وتم استدعاؤه لمجلس كَنْتَيْبَايْ جاوج الذي حياه ووجه له أسئلة استهزائية منها أنَّه قال له: سمعنا أنَّك تعطى وتمنع، وأنا عقيم ليس لدي أولاد وأريد ذرية، فماذا أنت فاعل؟ فرد عليه الشيخ عَلِيّ بثقة المؤمن بربه: «إنْ شاء الله سترزق خمسة أبناء، فقط ضع على محسنك راحة يدك اليمنى مفتوحة الأصابع!!». ففعل كَنْتَيْبَايْ جاوج كما طلب منه، وهو في نفس الوقت يحث، باشارة خفية، تابعه الذي كان يقف خلف الشيخ عَلِيّ بأن يقطع عنق الشيخ، فلم يفعل الرجل!!. وتفرق المجلس دون أنْ يلحق أيُّ أذى بشيخ عَلِيّ. بعد ذلك استدعى كَنْتَيْبَايْ جاوج الرجل المكلف بقتل الشيخ عَلِيّ وقال له غاضباً: لماذا لم تضرب عنقه؟ فقال الرجل: إن الشيخ عَلِيّ كان ينظر اليَّ باستمرار ولم يحول عنِّي وجهه طوال فترة الحديث، ولهذا كنت انتظر أن يلتفت ثم أضربه حسب الاتفاق، ولكن

---

(١) له ضريح ظاهر في منطقة رحيب جوار مرسى تَكْلايْ يزار الى اليوم.

(٢) بعض المصادر تقول إنه ولد في عام ١٧٩٥م وأخرى تقول إنه ولد بعد ١٣ عاما من ذلك أي في عام ١٨٠٨م.

الشيخ لم يلتفت ولهذا لم اتمكن من تنفيذ الأمر!!. ويبدو أنَّ الغضب قد سكت عن كَنْتِيْبَايْ جاوج قليلاً، وربَّما قال في نفسه: لننظر صدق الرجل من كذبه، فترك الشيخ عَلِيّ فترة من الوقت. وقدر الله أنْ رزق كَنْتِيْبَايْ جاوج بأكثر من خمسة ذكور، فتحققت كرامة الشيخ عَلِيّ وازدادت شهرته، وملأت سمعته الآفاق، وأصبح مقرباً من صناع القرار في الحَبَاب. ورويداً رويداً اقنع الشيخ عليّ كَنْتِيْبَايْ جاوج باتباع المنهج الإسلامي في أداء العبادات وفقه المعاملات. وفي إشارة الى هذه الواقعة يقـــول دبيلو سي بلودن[١] (W. C. Plowden): «إنَّ الحَبَاب يزعمون إنَّهم قد تحولوا الى الديانة الإسلامية خلال المِائَة سنة الماضية»[٢] (كتب مذكراته قبل أن يقتل في عام ١٨٦٠م). والصحيح هو إنَّ الحباب لم يتحولوا الى الأسلام، وإنَّما أصبحت أحكام الشريعة، بأمرٍ من كَنْتِيْبَايْ جاوج، القانون الأساسي الذي يطبق على القبيلة وتعاملاتها بعد أن كان الأمر متروكاً للعرف البدوي. نعود الى ما ذكـــره بلـــودن عـن إســلام الحباب، فقد ذكر السير "توماس ووكر آرنولد" ما يلي نقلاً عن بلودن:

«Mr. Plowden, who was English consul in Abassinia from 1844 to 1860, speaking of the Habab, three Tigre tribes dwelling between 16° and 17° 30' lat., to the north-west of Massowah, says that they have become Muhammadan «within the last 100 years».[3]

ثم يورد قصةً طريفةً مفادها؛ إنَّ كَنْتِيْبَايْ جاوج قرر اعتماد الديانة الإسلامية بدلاً عن الديانة المسيحية على اعتقادٍ منه بأن الإسلام «يجلب الحظ ويطيل العمر!!». ويستطرد فيقول: يروي الحَبَاب أن كَنْتِيْبَايْ جاوج طلب من القسيس تهشيم التابوت، فتردد القسيس وقال: لا أَجْرُؤُ على كسر تابوت مريم العذراء. عند ذلك تناول كَنْتِيْبَايْ جاوج فأساً، وقام بنفسه بتكسير التابوت وتهشيمه أمام القسيس

(1) Walter Chichele Plowden (1820 - 1860) was a British consul in Abyssinia and was murdered during a journey between Gondar and the Red Sea. His writings were published as «Travels in Abyssinia and the Galla Country» by his brother in London in 1868.

(٢) انظر الفقرة التالية لمعرفة مصدر هذا القول ولمعاينة النص الأصلي (بالانجليزية).

(3) The Preaching of Islam: A History of the Propagation of the Muslim Faith, by Sir Thomas Walker Arnold, University of London, University College, Second Edition, revised and enlarged, London, Constable & Company Ltd. 1913, p 94.

وأعين النَّاس، الأمر الذي جعل القسيس يعتنق الإسلام، وأصبح أبناؤه وأحفاده بعد ذلك شيوخاً للدين الإسلامي في قبيلة الحَبَاب.

«They have a tradition that one of their chiefs named Jawej rejected Christianity for Islam, in the belief that the latter faith brought good luck and long life; he then said to his priest, «Break in pieces the Tabot»; the priest answered, «I dare not break in pieces the Tabot of Mary»; so Jawej seized the Tabot with his own hands and cut it in pieces with an axe; the Christian priests then adopted Islam, and all their descendants are shaykhs of the tribe to the present day»[1].

نعود الى الشيخ عَلِيّ الأمين وسيرته العطرة، فهو أول من تولى سجادة الحَبَاب[٢] بصفة رسمية، واوكلت اليه كافة الأمور الدينية، وأصبح النكاح والمعاملات الأخرى تجري وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية. واشتهر الشيخ عَلِيّ بالصلاح والتقوى والشجاعة والفروسية، وأفاض عليه الحَبَاب الكثير من المال وأصبح مجلسه لدى كَنْتِيْبَايْ.

وقد عرف عن الشيخ عَلِيّ أنه كان لا يسأم من الدعوة الى الله في كل وقت وحين، وبالتى هي أحسن، وأصبح الحَبَاب يعتقدون في صلاحه، وهو يحثهم على الصلاة والصيام وترك الحروب والإغارة على أموال الآخرين. ورويداً رويداً حسن إسلام بيت أَسْجَدِيْ على يده، فأصبحوا لأول مرة يحلقون شعورهم، التى كانت قبل ذلك تُجْدَل (أو تَتَجَدَّل Titgaddal كما ينطقونها)، وترسل على الكتفين. وبدلاً من «الحُلال»، أصبحت العُمامة زيّاً جديداً يتوج رأس الحَبَابي. وإكراماً للشيخ عَلِيّ وافق كَنْتِيْبَايْ جاوج على زواج ابنته الأميرة «سِتّ الملوك»[٣] من الشيخ محمد بن الشيخ

---

(1) Ibid.

(٢) طبقا لما نقل عن كَنْتِيْبَايْ حسن وَدْ محمود فان بيت أَسْجَدِيْ قد اسلموا على يد الشيخ علي بن الشيخ الأمين بن الشيخ حامد نَافْعُوتَايْ عام ١٢٢٥هـ.

(٣) يتم إختصار الاسم لدى الحَبَاب الى «سِتِّل» بدلا من ست الملوك، وهو اسم شائع حتى الآن لدى الحباب.

عَلِيّ. ثم توفي الشيخ عَلِيّ الأمين، وتولى الزعامة الدينية بعده ابنه الشيخ محمد [١] الذي في عهده زادت الوفود الدينية التى تأتي للحباب، فاستقر بينهم عَدْ دِرْقِي وعَدْ مُعَلِّم، وجزء من أبناء الشيخ محمد وَدْ فايد (الفايداب)، واشتهرت بعض الأسر الدينية مثل عَدْ شيخ «مسمار»، وعَدْ «أبو حوة» بممارسة الوظائف الدينية، مقابل رسم معلوم.

وفي عهد الشيخ محمد وَدْ عَلِيّ وَدْ الأمين، انضم الحَبَاب (خلال الفترة ما بين منذ عام ١٨٤٠م وحتى وفاة الشيخ محمد في عام ١٨٧٧م) للطائفة الختمية، كما سنوضح ذلك لاحقاً، بعد أنْ اجتمع شيخهم (محمد وَدْ عَلِيّ) بالسيد محمد عثمان (الختم). هذا وقد حُظي الشيخ محمد وَدْ عَلِيّ بتقدير خاص عند الحَبَاب، حتى إنَّ نساءهم كن يتمنين أنْ يكون كل شيخ يأتي للحباب مثل الشيخ محمد وَدْ عَلِيّ، ومن ذلك الأغنية التراثية المشهورة التى تتغنى بها نساء الحباب في الأعراس والتى قيلت أساساً في أحد أحفاده الذي يكنى "أبْ سِتَّل" وهو الشيخ "محمد وَدْ شيخ عامر وَدْ شيخ الأمين وَدْ شيخ عمر وَدْ شيخ محمد وَدْ علي"، ومطلعها:

إلِّـــي أبـــوكِـــي وستـــل	(أبوك هذا يا ستل- ست الملوك)
لِجْـبَـــأ إجِـــلْـــيّ بَـــدَلِـــي	(نتمنى أن يكون لنا بدلا- خير خلف)
كِـمْ مـصـــــطفى وَدْ حَسَــن	(ويكون مثل مصطفى ود حسن)
وكِـــمْ شَيـــخ محمد وَدْ عَلِي	(ومثل الشيخ محمد ود علي)
مَـرْحَبَابُـــــــو وأبْ عَـلِـي	(مَرْحَباً به أبا عَلِي).

وبعد الدور القيم الذي قام به آل نَافْعُوتَايْ، سطع نجم الطريقة الختمية في المنطقة، حيث استقطبت جهودهم الدعوية عدداً كبيراً من قبائل البُجَة، ولا سيما

---

(١) عاش تقريباً في الفترة ما بين ١٧٩٥ الى ١٨٧٧م، حيث دفن في "امبيرمي".

الحَبَاب، الى الطريقة الختمية، خاصةً في الفترة التى اعقبت تولى السيد الحسن[1] - أبو جلابية - زعامة الطريقة الختمية في كسلا وما جاورها واستقرار السيد هاشم الميرغني في مصوع، والحضور الفعلي على امتداد الساحل للسيد محمد عثمان تاج السر «راجل سواكن»، والذي كانت تربطة بكثير من زعماء الحباب أواصر القرابة والصداقة، وقد استمر توسع وانتشار الختمية في المنطقة وذلك حتى ظهور الثورة المهدية في عام ١٨٨١م. إنَّ قصة انتشار الطريقة الختمية في ربوع الحَبَاب قد بدأت بالرحلة التى قام بها مؤسس الطريقة السيد محمد عثمان (الختم) الميرغني الى بر العجم (الحبشة)، ومن ثم زيارته لأرض الحَبَاب، وقال فيهم قولته المشهورة: «الحَبَاب هم أحبابي». يقول ترمنجهام في كتابه «الإسلام في الحبشة»: إنَّ السيد محمد عثمان الكبير (الختم) قد خرج من الحجاز، متجهاً الى شرق أفريقيا للدعوة الى الله، ووصل الى مصوع، ثم اتجه الى أرض الحَبَاب مروراً بمنطقة «لَبْكَا[2]» في حدود عام

(١) محمد الحسن بن محمد عثمان الميرغني (١٨١٩- ١٨٦٩م)، المعروف أيضاً بـ "سيدي الحسن أبو جلابية" و"راجل كسلا"، هو ابن مؤسس الطريقة الختمية وهو الذي اتخذ قرية السُّنِيَّة (فيما بعد الخَتْمِيَّة) مقراً دائماً للطريقة الختمية في كسلا منذ عام ١٨٤٠م، وذلك بالرغم من أنه كان يقيم في فترة الخريف في "قوز رجب" أو في منطقة "سَبْدَرَاتْ - بني عامر" التي توفي فيها في عام ١٨٦٩م وحمل جثمانه ليدفن في الضريح والجامع المشهور في منطقة الختمية الواقعة في سفح جبل التاكا. وفي عهده إرتبط الحباب والحلنجا (الحلنقة) وقبائل شمال وشرق السودان عموماً بهذه الطريقة ارتباطا وثيقا، حيث بدأت مجموعات من شمال السودان وعلى رأسهم الرباطاب والشايقية بالاستقرار في كسلا والمناطق الغربية من إرتريا (أغردت وتسني وفيما بعد "علي قدر" و"قلوج" وغيرها). ولمزيد من المعلومات في هذا الشأن يمكن مراجعة كتاب:

John O. Voll: «A History of the Khatmiyyah Tariqah in the Sudan», Ph.D. thesis, University of Harvard, 1969.

(٢) وادي أو ممر "لَبْكَا" يعرف أيضاً باسم "لَبْكَا وَدْ شِكَّر" وذلك نسبة الى زعيم قبيلة "عَدْ تِمَارْيَام" الذي كان يفرض رسوماً على كل من يسلك هذا الممر أو العقبة. يقال إنَّه عندما وصل السيد محمد عثمان الميرغني هذا الممر وأراد العبور أمر الزعيم وَدْ شِكَّر بأن لا يستثنى الشيخ محمد عثمان وحاشيته من دفع الرسوم المقررة، بيد أن الزعيم وَدْ شكر كان في مقدمة المستقبلين لضيفه الشيخ محمد عثمان الميرغني عندما وصل حاضرة عد تماريام "أَفْعَبَتْ" وأكرم وفادته كرماً تتناقل ذكره الأجيال حيث استمرت الولائم ثلاثة أيام متوالية، وعند سفره زوده بمؤونة الطريق. ومن هذا

١٨٢٧ - ١٨٣٠ م. وبعد زيارة أفعبت إتجه السيد محمد عثمان الى منطقة "وَدْ جَانْ" ومكث مع الحباب فترة في هذه المنطقة قبل الذهاب الى مكة عبر سواكن، واقترح عليهم تغيير مسمى وَدْ جَان (بالجيم اليمانية – بمعنى ابن الجَان أو الجِنّ) الى فضة (لكثرة الأحجار البيضاء في المنطقة، وربما لم يأنس لمسمى المنطقة "ابن الجن"!!. وبعد وفاة السيد الختم (في عام ١٨٥٣م)، تولى أمر الختمية إبنه الأكبر: محمد سر الختم، الذي خالط الحباب وتزوج إمرأةً من ديارهم انجبت له كلاً من السيد/ عبدالله (المشهور بعبد الله المحجوب)، المدفون في حِلَّة حَمَد في الخرطوم بحري، والسيد/ محمد عثمان بن محمد سر الختم (١٨٤٩-١٩٠٣م)، المشهور بمحمد عثمان تاج السِّر (وأيضا يعرف بلقب «راجل سواكن - Notable of Suakin) والذي انتقل اليه الولاء والزعامة الدينية للختمية في أرض الحباب بعد والده السيد محمد سر الختم. هذا وقد كان للسد محمد عثمان تاج السِّر دورٌ كبيرٌ في كثير من الأحداث التى مرت بالحباب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر [١]. كان محمد عثمان تاج السِّر مستقراً في نقفا وديار الحباب عموما، فقد عاش مع الحَبَاب في فترة ستينات القرن التاسع عشر، أي خلال الفترة ما بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٧٠م[٢]، ثم رحل الى سواكن عبر نفس الطريق الذي سلكه جده الختم (أي "سكة لبكا"). في البدء تزوج السيد محمد عثمان تاج السِّر بالشريفة «مريم» (بنت عمه هاشم محمد عثمان الميرغي التى يوجد ضريحها في سنكات) ولم ينجب منها، فتزوجّ إمرأةً من الحَبَاب (فاطمة بنت محمد قيح وَدْ نصر الدين من عَدْ عَمْدُويْ)، وأنجب منها توأماً هما: حسن وحسين (توفيا فيما بعد)، والشريفة «زينب». ثم زوج بنته الشريفة

التصرف يتضح لنا أن هدف الزعيم وَدْ شِكَّر كان ابلاغ الشيخ محمد عثمان بأن الزعيم وَدْ شِكَّر هو صاحب السلطة في تلك المنطقة.

(١) على سبيل المثال انظر دوره في الأحداث التى سردناها في الباب السادس من هذا الكتاب والتى عرفت بتمرد الحباب «Habab Defection».

(٢) راجع صفحة ١٧٩ من الكتاب الذي سبق أن أشرنا اليه وعنوانه:

«Red Sea Citizens: Cosmopolitan Society and Cultural Change in Massawa» by Jonathan Miran, Publisher: Indiana University Press, 2009.

«زينب» لزعيم الطريقة الختمية في إرتريا، السيد: جعفر بن بكري بن جعفر (الميرغني)، والذي أنجب منها عدداً من الأولاد والبنات منهم الشريفة «فاطمة»، وهي التى تزوجها فيما بعد السيد عَلِيّ الميرغني، وهي والدة ابنيه السيدين: أحمد الميرغني (رأس الدولة السودانية في الثمانينات) وأخوه السيد/ محمد عثمان عَلِيّ الميرغني الزعيم الحالي (٢٠١٤م) للختمية في السودان، والأخير تزوج بنت خاله، الشريفة «مريم» بنت السيد محمد عثمان بن جعفر بن بكري، وهي أخت السيد «محمد سرالختم» بن محمد عثمان بن جعفر. وبسب علاقات النسب بين الحباب والسادة الأشراف عموماً كما سنوضح فيما بعد، كانت القبائل في الشرق تُطْلِقُ على الحَبَاب لقب «أَهْلُ السَّادَة».

وهكذا نجد الحَبَاب قد انخرطوا في الطريقة الختمية، ورويداً رويداً انتظمت الطريقة الختمية الحَبَاب بأسرهم، وأصبحت «المَوَالِد» و«الحُولِيَّات» و«الذِّكر» عرفاً معتاداً لدى الحَبَاب، وتولى نفس المشايخ السابقين من آل نَافْعُوتَايْ وعَدْ درقي وعَدْ مُعَلِّم وغيرهم من الأسر الدينية، تعَلِيْم النَّاس أذكار الختمية.

الحباب أهل السادة:

ذكرنا أن الحباب صاهروا كافة البيوت الدينية بما فيها عد شيخ حامد وَدْ نافعوتاي وآل الميرغني وغيرهم. وفي الحقيقة يندر أنْ تجد شخصاً من عَدْ درقي أو عَدْ عَبْدُه أو عَدْ مُعَلِّم أو عَدْ شيخ إدريس (أَلْمُدا) أو عد شيخ محمد وَدْ فايد (الفايداب) أو عَدْ شيخ أبو حوا أو عَدْ شيخ أبرهيم أو عَدْ شيخ مسمار، أو غيرهم من البيوت الدينية الأخرى، ليس له نسب في بيت أَسْجَديْ والحَبَاب عموما. وإذا ضربنا مثلاً بمشايخنا عَدْ دِرْقِي نجد، على سبيل المثال، أنَّ والدة الشيخ "عبد العزيز" وأخيه الشيخ "عبد المجيد" هي بنت إدريس وَدْ أكد وَدْ جميل (عَدْ تَكْلِيْس). مثلاً آخر نضربه بالسادة الفايداب وتحديداً بالشيخ: أبوبكر حاج محمود، سليل العارف بالله الغارق في حبه الشيخ: "محمد وَدْ فايد"، حيث تزوج الشيخ أبوبكر بالسيدة "جَمِعْ ـ بفتح الجيم وكسر الميم ـ بنت محمد وَدْ فايد وَدْ شاوش وَدْ

نورالدين (عَدْ تَكْلِيْس) وأنجب منها بنين وبناتٍ نسأل الله أن يبارك فيهم وفي نسلهم بفضل آبائهم الصالحين.

بيد أننا نريد أن نتطرق الان بشيئ من التفصيل لأواصر القربى المتجذرة والمتكررة بين الحباب وآل البيت الطاهر الشيخ حامد نافعوتاي فنقول: إنَّ عَدْ نَافْعُوتَايْ قد دخلوا في مصاهرات عديدة مع الحباب حيث أن عددا كبيرا من آل الشيخ حامد نافع (عد حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ) أمهاتهم من الحَبَاب. فقد تزوج جدهم الأكبر الشيخ أحمد نَافْعُوتَايْ بالسيدة «حليمة بنت علي وَدْ فايد» من ألْمَدا (كانوا جزءا أصيلا من الحَبَاب على الأقل في ذلك الوقت) وانجب منها القطب الرَّباني الشيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ الذي بدوره تزوج من قبيلة ألْمَدا حيث انجب من السيدة (ملوك وَلَتْ بقار) أهم أولاده ومنهم شيخ الأمين. ثم تزوج حفيدهم الشيخ محمد وَدْ علي وَدْ شيخ الأمين من الأميرة سِتَّلْ (سِتَّ المُلُوك) بنت كَنْتَيْبَايْ جاوج وَدْ فِكَّاك فانجبت له تسعة (٩) من الذكور وهم يمثلون (حسبما يرى الشيخ محمد أحمد وَدْ شيخ عامر والاستاذ عمر عبد القادر) حوالي ٧٠٪ من فروع عد شيخ حامد من حيث التعداد وهم: (١) إدريس - لأعقب له - وهو اكبر ابنائه (حيث كان يكنى الشيخ محمد وَدْ علي بـ "أبْ إدريس"، و(٢) الشيخ عمر و(٣) محمد عثمان و(٤) مالك و(٥) هُمَّد (٦) وأبو بكر و(٧) إبراهيم و(٨) محمد علي و(٩) محمود. كما رزق منها أثنين (٢) من الإناث، وبذلك يكون إجمالي ابناء وبنات الشيخ محمد وَدْ علي من ستل وَلَتْ جاوج أحد عشر فرداً، وله من زوجات أخريات ستة (٦) ابناء آخرين.

تزوج الشيخ عمر (ود شيخ محمد وَدْ علي) من أخواله "بنت حمد عجيل" من بيت أسْجَديْ، وأنجب له بنتا اسمها "ستل"، تزوجها محمد عثمان محمد على شيخ محمد. الشيخ الأمين بن الشيخ عمر تزوج "حليمة وَلَتْ كنتيباى حسن وَدْ هداد"، من بيت أسْجَديْ، فانجبت له (١) الشيخ عامر (الذي يعرف أيضاً بالشيخ "عمار") و(٢) فاطمة، ثم تزوج "جَمِعْ بنت كَنْتَيْبَايْ حامد بك" ورزق منها فاطمة زهرة ومريم. الشيخ عامر وَدْ شيخ الأمين تزوج "عائشة" بنت كَنْتَيْبَايْ حامد بك ورزق

منها (١) احمد و(٢) عثمان. كما تزوج بنت "بثمنت وَدْ فكاك" (من عد تماريام) ورزق منها ابنه الأمين. الشيخ محمد وَدْ شيخ عامر تزوج "فاطمة بنت كَنْتَيْبَايْ عثمان" ورزق منها خمسة أولاد هم: (١) حامد و(٢) عثمان و(٣) محمود و(٤) أحمد و(٥) عبد القادر، ثلاث بنات هُنَّ: (٦) سِتَّل و(٧) آمنة و(٨) مُلُوك. الشيخ الأمين وَدْ شيخ محمد وَدْ شيخ عامر تزوج "ستل وَلَتْ محمد وَدْ كَنْتَيْبَايْ عثمان" ورزق منها ابنه محمود واخواته، وبعد وفاتها تزوج باختها "فاطمة وَلَتْ محمد وَدْ كَنْتَيْبَايْ عثمان" ورزق منها ابنه الشيخ عامر (خليفة عد شيخ حامد الحالي) وأخوه محمد عثمان، واخواتها. ويجب أنْ ننوه الى أنَّ أم "سِتَّل وفاطمة"، زوجتي شيخ الأمين، هي "جِمَعْ" وَلَتْ علي وَدْ فايد شقيقة القاضي محمود (عَدْ تَكْلَيْس) وهي كما ذكرنا زوجة محمد وَدْ كَنْتَيْبَايْ عثمان. ابو بكر وَدْ شيخ عمر، تزوج بثلاث نساء من الحباب هن: "عَمَار" وَلَتْ فكاك وَدْ كَنْتَيْبَايْ حسن، التى انجبت له ثلاثة من الأبناء هم: (١) أحمد و(٢) حامد و(٣) عمر (لا عَقِبَ له) وبنتين هما: (٤) عائشة و(٥) سِتَّل. ثم تزوج أختها "سِتَّل وَلَتْ فكَاك" التى انجبت له: ابنه (١) محمد، وبنتين هما: (٢) أمنة و(٣) فاطمة. ثم تزوج بنت درار وَدْ سليمان من "عَدْ تَكْلَيْس" فانجبت له ثلاثة من البنين هم: (١) الأمين و(٢) محمود و(٣) علي، وبنت واحدة هي (٤) زينب، وكل هولاء البنات تزوجهن أشخاص من عَدْ شيخ حامد ليتكرر هذا النسي الطاهر. أحمد وَدْ شيخ عامر تزوج "زينب وَلَتْ عثمان وَدْ إدريس وَدْ أري وَدْ هبتيس وَدْ جِرَينَتْ وَدْ كَنْتَيْبَايْ فكاك"، ورزق منها (١) محمد و(٢) عائشة. محمد وَدْ شيخ الأمين وَدْ شيخ عمر تزوج "حجليت" وَلَتْ كَنْتَيْبَايْ حسن (أخت كَنْتَيْبَايْ حامد بك) ورزق منها أربعة من البنين. حامد وَدْ شيخ محمد وَدْ شيخ عامر تزوج "فاطمة" وَلَتْ كَنْتَيْبَايْ حسن ورزق منها بنين وبنات. تزوج محمود وَدْ شيخ محمد وَدْ علي بنت كَنْتَيْبَايْ هداد فانجبت له ولدين وبنت هم: (١) ألأمين و(٢) علي و(٣) آمنة. ثم تزوج بنت جاوج وَدْ عمر "عد هبتيس" فانجبت له: بنين وبنات. تزوج الأمين وَدْ محمود وَدْ شيخ محمد "جِمع" وَلَتْ عثمان هَرْشَايْ "عد هبتيس" فانجبت له: بنين وبنات هم: (١) محمود و(٢) محمد علي و(٣) مالك و(٤) ستل

و(٥) بخيتة. تزوج محمد عثمان وَدْ محمود وَدْ شيخ محمد بنت كَنْتَيْبَايْ محمود "عد هبتيس" فانجبت له: (١) محمود و(٢) فاطمة و(٣) عائشة. تزوج الشيخ محمد وَدْ شيخ محمود وَدْ شيخ محمد "ستل" وَلَتْ حسين "عد هبتيس" فرزق منها: (١) عمر و(٢) الحسين و(٣) فاطمة و(٤) مريم (وهي والدة الأستاذ محمد علي نقاش واخوانه واخواته). محمد عثمان وَدْ شيخ محمد وَدْ علي تزوج بنت جِرَينَتْ، "عد هبتيس" ورزق منها: بنين وبنات هم: (١) محمد الحسن و(٢) ستل - تزوجها ذمات أكد – من النَّابْتَابْ و(٣) زهرة - تزوجها محمد عثمان إبراهيم وَدْ شيخ محمد. محمد الحسن بن محمد عثمان وَدْ شيخ محمد تزوج ستل وَلَتْ فكاك "عد تماريام" ورزق منها: بنين وبنات هم: (١) أبوبكر و(٢) علي و(٣) الأمين و(٤) حامد (لا عقب له) و(٥) عائشة - تزوجها محمود حامد محمود، و(٦) أمنه - تزوجها محمد ألأمين اسماعيل و(٧) حواء - تزوجها محمد عثمان الأمين. حمد (همد) وَدْ شيخ محمد وَدْ شيخ علي تزوج فاطمة أكد "عد هبتيس" ورزق منها: (١) محمد و(٢) علي و(٣) ابوبكر و(٤) زينب و(٥) زهرة و(٦) حليمة و(٧) بخيته و(٨) ستل. أبو بكر وَدْ حمد وَدْ شيخ محمد وَدْ علي تزوج بنت علي شيخاي، "عد هبتيس"، ورزق منها ابنه "هُمَّد". محمد علي وَدْ شيخ محمد وَدْ علي تزوج من بنت عمر وَدْ جاوج، "عد هبتيس"، فانجبت له: بنين وبنات منهم: (١) يعقوب و(٢) حامد و(٣) محمد عثمان و(٤) حواء. محمد وَدْ مالك وَدْ شيخ محمد وَدْ علي تزوج من بيت أسْجَديْ فرزق: بنين وبنات منهم: (١) ألأمين و(٢) أحمد و(٣) أمنه و(٤) حواء و(٥) خديجة و(٦) مريم و(٧) زينب و(٨) بخيتة. ياسين وَدْ شيخ محمد وَدْ علي تزوج زينب وَلَتْ حسن وَدْ كَنْتَيْبَايْ، "عد هبتيس"، فرزق منها ثلاث بنات هنَّ: (١) عائشة و(٢) حليمة و(٣) أمنة. الأمين وَدْ شيخ علي وَدْ شيخ الأمين (أخ غير شقيق للشيخ محمد وَدْ علي) تزوج بنت جِرَينَتْ وَدْ فكاك، "عد هبتيس"، ورزق منها ابنه محمود. عبد الرحيم وَدْ حامد وَدْ شيخ محمد وَدْ علي تزوج أمنة وَلَتْ كَنْتَيْبَايْ حامد بك (ذريتها بنات حيث لم ترزق منه بالبنين)، وبعد طلاقها تزوجها كَنْتَيْبَايْ عثمان ورزق منها ابنه حسن وَدْ كَنْتَيْبَايْ عثمان.

ولا ننسى زعيم عد شيخ حامد الحالي (٢٠١٤م) مولانا الشيخ عامر بن الشيخ الأمين، والدته هي فاطمة بنت محمد وَدْ كَنْتَيْبَايْ عثمان، وجدته كما ذكرنا هي جَمِعْ[(١)] بنت علي وَدْ فايد، شقيقة القاضي محمود وَدْ علي وَدْ فايد وَدْ شاوش وَدْ نورالدين وَدْ جلايدوس.

ما سبق كان يتعلق بفرع "عَدْ شيخ عَلِي وَدْ الأمين وَدْ شيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ"، والأن نذكر بعضاً من الزيجات التى تمت مع "عَدْ شيخ طه وَدْ شيخ الامين وَدْ شيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ"، وهم فرع آخر من فروع عد نَافْعُوتَايْ. فقد تزوج شيخ الأمين وَدْ حامد وَدْ طه وَدْ شيخ الامين وَدْ شيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ "مَكَّة" وَلَتْ إِزَازْ وَدْ جميل "عَدْ تَكْلَيس" التى انجبت له حسن ومحمد وعائشة وفاطمة. ومن هذا النسل المبارك خرج القطب الرباني الشيخ "طه وَدْ حسن وَدْ الأمين"، شيخ عَدْ تَكْلَيْس الأشهر، والذي تنسب اليه الكثير من الكرامات[(٢)]. تزوج عثمان وَدْ نافعوتاي وَدْ

---

(١) ينبغي عدم الخلط بينها وبين بنت عمها "جَمِعْ بنت محمد وَدْ فايد" التى تزوجها الشيخ: أبوبكر حاج محمود من الفايداب كما ذكرنا.

(٢) إنَّ كرامات سيّدنا طه وَدْ حسن تكاد لا تصدق ومن ذلك ما أخبرتني به جدتي أم أبي "سَعِيَدة وَلَتْ سليمان وَدْ شَلْعَايْ" رحمها الله، وهي قصة طريفة ما كنت لأصدقها لو لا أن جدتي هي التى روتها لي كفاحاً عن حادثة وقعت لها هي وليس لغيرها. قالت جدتي: كنت بنت صغيرة "شِمْبِريبْ" عندما تقدم جدك لخطبتي وهو كبير السن ومحجوب البصر. كان جدي جميل قد أنجب ولداً واحداً هو عمّي "محمد" (أمه وَلَتْ محمد وَدْ إِزَازْ وَدْ جميل)، ثم هجرها، وتقدمت به السن وأصيب بالعمى، فانزوى جانباً ومعه بعض اتباعه. فزاره ابن عمه (محمد وَدْ درار ـ والد محمود "يبتيت")، وحثّه على الزواج. فطلب جدي من والد جدتي (والدها من دُوبْعَاتْ) الموافقة على زواجه من بنته. ونظراً للظروف الاجتماعية التى كانت سائدة وقتها، وافق والد جدتي وأخبر جدتي بأنه التزم بتزويجها لجميل وَدْ جِمِعْ. قالت جدتي: بكيت وقلت لوالدي: كيف تزوجني لرجل طاعنٍ في السّن وأعمى؟؟ لكن والدها أصرَّ وتمت مراسم الزواج دون رضاها. قالت: كنت مكرهة على ذلك الزواج ولكن لا حول لي ولا قوة. قالت جدتي: اثناء تفكيري في مصيري تذكرت شخصاً واحداً يستطيع أن يقف في وجههم جميعا وهو الشيخ طه وَدْ حسن. قالت: فذهبت للشيخ طه وقصصت عليه قصتي واستيائي من الزواج برجل كهل وأعمى، وقلت له: أنت الوحيد الذي يستطيع ردَّهم!! قالت: فضحك شيخ طه وَدْ حسن وقال لي: "حَلِيبَتْ: ثَلَثْ قَبَحِيتْ هَلَّوْ إِتْلِكِ"!!

عبد القادر وَدْ طه وَدْ شيخ الامين ود شيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ فاطمة وَلَتْ عتيل وَدْ جلايدوس وَدْ إزاز وَدْ جميل "عَدْ تَكْلَيْس" وأنجب منها أولاد وبنات. أما أخوه محمود وَدْ نافعوتاي وَدْ عبد القادر وَدْ طه فقد تزوج أيضا من عَدْ تَكْلَيْس "عاشة وَلَتْ عبدو وَدْ محمد حاج" ورزق منها أولاداً وبنات.

إنَّ ما ذكرناه لا يعتبر إحصاءً حصرياً لتوالد عد شيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ وبقية الأسر الدينية في الحباب، فهنالك آخرون كثر توالدوا في الحباب، وإنَّ ما ذكرناه من أمثلة أعلاه كان على سبيل المثال لا الحصر، وقصدنا منه أنْ نبيّن للقاريء أنَّ لقب "أهل السَّادَة" الذي كان يطلقه الأشراف والأرتيقا في توكر على الحباب لم يأتِ من فراغ.

*****

ومعناها يا شبيهة الحليب ستُنْجِبِينَ له ثلاثة أولاد "حُمر"!! قالت جدتي: فكأنما نزل عليَّ كلامه كالماء البارد، وذهبت لبيت زوجي طائعةً راضية!! سبحان الله؛ فقد انجبت جدتي فعلاً ثلاثة أولاد فقط وبنت واحدة لم تعمر، وكان والدي "إبراهيم" أكبرهم ثم عمّي "آدم" ثم عمّي "عُمَر"، وكلهم "قَيْحِيتْ" بالرغم من انَّ والدهم كان أسمر اللون!! لا شك إنها كرامة من كرامات ذلك الشيخ الوقور ... رحمهم الله جميعا.

الباب الثالث

اللهجةُ الحَبابِيَّةُ ـ «التَّجْرِي Tigre»

مقدمـــة:

كنت في آواخر الستينات من القرن المنصرم (القرن العشرين)، تلميذاً صغيراً في الصفّ الثاني أو الثالث بمدرسة «رِوِينَا الإبتدائية» بالقضارف، وكان مدرس اللُّغة العربية ـ كالعادة في ذلك الزمن الجميل ـ عالماً بدقائق اللُّغة العربية، حافظا للشعر الرَّصين. وكان يلقي على اسماعنا الصغيرة، اثناء درس مادة اللُّغة العربية، أبياتاً من الشعر الفصيح بمناسبة وبغير مناسبة. وذات صباح، أتى في حديثه على ذكر كلمة «بَكْرَة»، ووجه حديثه للتلاميذ سائلاً عن معنى هذه الكلمة. ويبدو أنَّه كان واثقاً من عدم معرفتهم لمعناها، حيث قال لنا: قطعاً لا أحد منكم سيعرف معنى كلمة «بَكْرَة». ولحسن الحظ، كنت أعرف لهجة أهلي بحكم التصاقي الشديد بجدتي لأبي الحاجة «أم إبراهيم»[١]، مربيتي الأولى حيث توفيت والدتي[٢] قبل أن أبلغ العامين،

---

(١) هي المرحومة بإذن الله «سَعِيدَة بنت سليمان وَدْ شلعاي وَدْ دِرَارْ وَدْ محمودْ وَدْ كِدَانْ» من قبيلة الدويعات. أمُّها من قبيلة المُدا (ستبو) وهي: بخيتة (أم سَعِيدَة) وَلَتْ محمد وَدْ محمودْ وَدْ إنْدُول ولقبه ظِرَارَات ويُعرف رهطه بـ (عَدْ ظِرَارَات). أنجب سليمان وَدْ شلعاي (والد جدتي سَعِيدَة) من بخيته هذه ولداً واحداً هو: إدريس وَدْ سليمان (أب محمودْ)، وثلاث بنات هن: (١) سَعِيدَة – جدتي أم أبي، وهي البِكْرُ، ولذا يكنى أبوها بـ "أبْ سَعِيدَة"، ثم (٢) سعَدِيَّة التي تزوجها سعَدْ وَدْ إدريساي وَدْ بخيت ـ عَدْ أمْحَرَايْ ـ من المُدا (سأبور) وأنجب منها: محمودْ وإبراهيم وَدْ سعَدْ وآخرين، ثم (٣) مريم (تزوجها: محمد وسعيد وَدْ سليمان وَدْ حَمَّاد وَدْ زايد (المُدا) وتوفيت قبل أن تنجب). أمَّا والد جدتي (سليمان وَدْ شَلْعَايْ) فأمُّهُ هي: فاطمة وَلَتْ أبْرَا وَدْ علي وَدْ حَمَّاد وَدْ زايد (المُدا ـ أتِيلِ). وأمَّا والده (شَلْعَايْ) فأمُّهُ هي: «دَارَتْ وَلَتْ أمير وَدْ مُوسَى» من قبيلة سَبْ لعَاليتْ. و شَلْعَايْ هذا له أخ أكبر منه اسمه «نَجْعَايْ Nagai» وأخ أصغر منه اسمه «تَسَّايْ Tassai». بالإضافة الى (١) فاطمة – والدة جدتي – فإنَّ "أبْرَا وَدْ علي وَدْ حَمَّاد" له ثلاث بنات هن: (٢) مكة – تزوجها إدريساي (أبو سعَدْ) وَدْ بخيت وَدْ أمحراي وانجب منها سعَدْ (والد إبراهيم وَدْ سعَدْ) وآخرين، (٣) حِجَّتْ، و(٤) وبنت رابعة لا أعرف إسمها. سليمان وَدْ حَمَّاد (أخو علي وَدْ حَمَّاد والد أبْرَا) خلف أولاداً منهم: سعيد وَدْ

على كلتيهما شآبيبُ الرحمة. تأملت برهةً في معنى الكلمة وقلت في نفسي: دعني أقول له معناها كما في لهجتنا. وفعلاً كنت الوحيد الذي رفع يده للإجابة على السؤال، وقلت للأستاذ: كلمة «بَكْرَة» تعنى الناقة الصغيرة، فبُهت الرجل! وقال: من أين لك معرفة معنى هذه الكلمة التى كانت تستخدم في الشعر الجاهلي؟ وقطعاً لم أجبه وقتها بأنَّ «رُطَانَتِنَا» هي المصدر!!.

وللحقيقة أقول رغم إنّني كنت ألاحظ كغيري، أنَّ أسماء أعضاء الجسد كلُّها عربيةٌ في لهجتنا، إلاَّ أنَّني لم أكن أدرك أنَّ كل لهجتنا عربية صرفة، إلى أنْ وقعت حادثة شدت انتباهي من جديد إلى هذه اللَّهْجَة، وهي إنّنا عندما كنا طلاباً في جامعة الخرطوم، في بداية الثمانينات، أُقِيمَ في الجامعة اسبوعٌ ثقافيٌّ عن ولاية البحر الأحمر، وكان الحَبَابُ ممثلين بنخبةٍ من ابنائهم على رأسهم الأستاذ: حامد محمد آدم (أدَّالَا)، والأستاذ: حامد حسين كَنْتِيْبَايْ، فضلاً عن فرقتهم الفنية. وفي إحدى أمسيات الاسبوع، اعتلى المنصة محاضراً الأستاذ الوقور المرحوم «محمد الأمين شريف» (من الأرتيقا)، وهو للعلم خال البروفسير: حسن أبو عائشة. ذكر الأستاذ: محمد الأمين أثناء محاضرته أنَّ لهجة «التِّجْري» ما هي إلاَّ «مَسْخاً شائِهاً» للغة العربية!!. وكان هذا التعبير مستفزاً لبعض الإخوة الحضور، خاصة الأستاذ: حامد حسين، الذي اعتلى المنصة مباشرةً، واسمع المحاضر كلاماً لا اعتقد أنه كان متوقعاً. بَيْدَ أنَّ حديث

سليمان- الذي تزوج أمنة (أم محمد) وَلَتْ محمد وَدْ جِمَّد قَيِحْ - عَدْ زايد - وأنجب منها أولاده ومنهم محمد وَدْ سعيد. محمد وَدْ سعيد هذا تزوج امرأة أخرى (بعد وفاة زوجته الأولى - مريم) وخلف منها كلاً من: عبدالله ومحمد سعيد وحامد محمد سعيد (توفي مؤخراً في الرياض؛ رحمه الله). كما خلف سليمان وَدْ حَمَّاد بنات منهم والدة الشيخ: علي عمر (أنظر ما ذكرناه بشأنه عند حديثنا عن "مملكة بَحَايْلاَيْ" في الباب الثاني من هذا الكتاب). البنت الثانية لمحمد وَدْ جِمَّد قَيِحْ تزوجها محمودْ وَدْ علي وَدْ سلطان (عَدْ أدَاكِن - المُدا، أتلل) وأنجب منها أولاداً منهم: إدريس محمودْ علي سلطان.

(٢) هي المرحومة بإذن الله «ستُّ الملوك» واختصارها «ستَّل» بنت محمد علي هُمَّد محمد جميل، من فرع عَدْ نورالدين، من عَدْ تَكْلِيْس.

الأستاذ محمد الأمين كان، بالنسبة لي، فتحاً جديداً لكون الأستاذ محمد الأمين يُجيد التحدث بلهجة التِّجْري على أحسن وجه، وكان في ذات الوقت ملماً باللُّغة العربية ولغة «البِدَاوِيِتْ»، وشهادته هذه حفزتني لكي أبحث في هذا «المَسْخِ الشَّائِه»، لأكتشف فيما بعد أنَّ اللَّهْجَة الحَبَابية هي أقرب اللهجات إلى اللُّغة العربية التى تحدثت بها العرب العاربة!! بل أستطيع أنْ أقول إنَّ من أراد أن يستمع لجانب من اللغة العربية غضاً كما تحدث به يعرب بن قحطان فليأتي لبادية الحباب!!، وذلك بالطبع بدون الانتقاص من أصالة وعراقة الحميريين الآخرين في ظفار وبلاد الشِّحِر وبقية ربوع اليمن السعيد، وغيره. فعلى سبيل المقارنة، خذ مثلاً إحدى أقدم اللهجات التى ما زال يتكلم بها بقايا الحِمْيَرِيين في بلاد المهرة في اليمن، حيث تجد أنَّ لغة «المهرة» قد اختفى منها حرف العين تماماً، وكما نعلم فإن حرف العين هو أحد الحروف التى تميز اللغات السامية من غيرها. فيقولون مثلاً: «خودا» بدل «خَدَعَ» و«بضَاتْ» بدل «بضَاعَة»، ويقولون «سَبُوْ» بدل «أسْبُوع»، ويقولون «أرْبَأ» بدل «أرْبَعة»، وهكذا، بينما ظل حرف العين حاضراً بقوة في اللهجة الحبابية، فخدع هي خدع، وبضاعة تنطق «بضَاعَتْ»، واسبوع تنطق «سِبُوعْ»، وأربعة تنطق أرْبَعَتْ.

بَيْدَ أنَّني، وقبل مناقشة عروبة لهجة الحَبَاب، يجب أن أشير إلى أنَّ العروبة والانتماء اليها ربما شَكَّل مصدر فخر، في زمن من الأزمان، ولكن ما عادت العروبة، ولا الانتماء اليها، يستهوي كثير من النَّاس في وقتنا الراهن، بحكم أنَّ العروبة تمرُّ بأضعف أطوارها. لكن الحقيقة تظل هي الحقيقة، رغم تعاقب العصور وتصاريف الدهور، وسيظل العرب الحقيقيُّون هم الوحيدون الذين يدافعون عن هويتهم، وينافحون عنها، لأنَّ الزَّبد يذهب جفاءً وأما ما ينفع النَّاس فيمكث في الأرض. نقول كل ما سبق؛ وفي قناعتنا اليقينية أنَّ الله أعَزَّ الأميين بالإسلام، وإذا طَلَبَ العربُ العزة في غير الإسلام فلن يجدوها، أو كما قال الخليفة العادل عمر بن الخطاب: نحن قومٌ أعزَّنا الله بالاسلام فإنْ ابتغينا العزَّة بغيره أذلَّنا الله. لهذا عند النظر في هذا البحث، لاينبغي التعويل على أي شَيْء آخر، سوى أننا نسعى لإقرار

الواقع وتبيان الحقيقة، شاء من شاء وأبى من أبى.

وفي البدء أود أن أنبّه إلى أنَّ اللَّهْجَة[٣] التى نحن بصددها، تعرف محلياً بلهجة «التِّجْري[٤] Tigre» بفتح الـرَّاء وإمالتها قليـلاً كـما في الكلـمة الانـجليـزية «X-Ray»، وأحيانا تعرف بلهجة «التِّجْرَايِتْ Tigraiet». ولكنني ولأغراض هذا البحث، سأستخدم مصطلح «اللَّهْجَة الحَبَابية»[٥]، بدلاً من استخدام مصطلح لهجة «التِّجْري»[٦]. هذا وبعد صدور الطبعة الأولي من هذا الكتاب سألني أحدهم

(٣) بعض الناس يخلط بين مصطلحي «لغة» و«لهجة» ولابد أن نشير هنا إلى أن اللُّغة هي مجموعة من الكلمات والتعابير والجمل التى تستخدم للتواصل الصوتي والكتابي بين أفراد أمة أو فرقة من الناس طبقا لقواعد ونظم ثابتة تحكم الأداء الصوتي لتلك اللُّغة وكتابتها، بينما اللهجة هي استخدام لغة من اللغات الموجودة سلفاً بأداء صوتي لا يتقيد بالكامل بقواعد ونظم تلك اللُّغة وذلك برغم أن اللهجة تستخدم نفس الألفاظ والتعابير الموجودة في تلك اللُّغة أو مفردات مشتقة منها. فاللُّغة شجرة واللهجات فروع لها. في الصفحة ٥٥ من كتابه «المقتضب في لهجات العرب»، طبعة ١٩٩٦م، يعرف الدكتور: محمد رياض كريم اللهجة اصطلاحا بقوله: اللهجة هي «مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة». ثُمَّ يضيف قائلا: «وتلك الصفات التى تتميز بها اللهجة تكاد تنحصر فيالأصوات وطبيعتها وكيفية صدورها، فالذي يفرق بين لهجة وأخرى هو بعض الإختلاف الصوتي في غالب الأحيان». ولهذا السبب استخدمنا في هذه الدراسة مصطلح لهجة الحَبَاب بدلا من مصطلح لغة الحَبَاب حيث اللُّغة الأصل هي اللُّغة العربية (وبالذات الجنوبية - الحميرية).

(٤) بعض الناس يكتبها «التقري» أو «التقرايت»، بالقاف، وهذا خطأ وإنما الصحيح هو أن تكتب «التِّجْري» وبحيث تنطق الجيم بالطريقة اليمانية أو ما يعرف حاليا بالجيم القاهرية أو المصرية.

(٥) لقد أقرَّ المؤرخ العامري محمد صالح ضرار هذا المصطلح من قبلنا؛ أنظر كتاب «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين»، مرجع سابق، صفحة ٧ والهامش رقم ٦ في نفس الصفحة.

(٦) يبدو أن كلمة «تِجْرَي» مأخوذة ومشتقة من لفظة «تجارة» المعروفة وذلك لأن غالبية أهل اليمن الذين وفدوا لمنطقة شرق إفريقيا منذ أزمان سحيقة كانوا وما زالوا يحترفون التجارة، في حين أنَّ السكان المحليين لا يميلون للتجارة وإنما حرفتهم الرئيسة هي الرعي. وبالتالي فإن لغة هولاء الوافدين اليمنيين ربّما عرفت بلغة التُّجَّار ومن ثمَّ تحرفت قليلا الى «لغة التجري» ، علما بأن هذه الكلمة «تُجَّار» يقابلها محليا لفظ «تُجُّر» وهو وزن من أوزان الجمع في اللغة العربية،

سؤالا يبدو أنه كان انكارياً: هل كان جدود الحباب عندما نزلوا من كبسا الى الساحل يتكلمون التِّجْرَي؟! فقلت بدون شك كانوا يتحدثون لهجة التِّجْرَي وذلك لعدة شواهد أولها: أنَّ أشْعَارَهم القديمة وأمثالهم المتوراثة ما تزال تروى بلهجة التِّجْرَي، ولو كانت بغيرها لوصل للناس شيئ منها حتى لو كان مثلاً شارداً أو بيت شعر يتيم (بالتِّجْرِنْيَا أوغيرها) منسوبا لهم، خاصة وأنَّ كثيرين من رواة التراث، في كافة قبائل المنطقة، يحفظون الأمثال والأشعار وينسبونها الى أصحابها. ثانيا: ليس هنالك دليل واحد يمكن الركون اليه للقول بأن جدود الحباب كانوا يتحدثون لغة أو لهجة أخرى غير التِّجْرَي عند نزولهم الى الساحل. أما المغالطات التى يرددها البعض وابتدعها في الأصل السير جيرالد كيندي ترفاسكس G.K.N Travaskis عندما قال إنَّ بيت أسْجَدَيْ تحولوا الى استخدام لغة

مثل «قُصَّر» جمع قاصر، وبالتالي «تُجَّر» جمع تاجر. ولمعرفة المزيد عن هذه اللهجة يمكن الاطلاع على المراجع التالية:

- Moritz Von Beurmann: «Vocabulary of The Tigre Language», Published with a Grammatical Sketch by Dr. A. Merx, of the University of Jena, Halle Buchhandlung Bes Waisenhauses, London, Truebner & Comp. 60, Paternoster Row, 1868.
- Enno Littmann: «Publications of the Princeton Expedition to Abyssinia», published and printed by Leyden, Vol. I & II. 1910.
- Leslau, Wolf: Short grammar of Tigre (Publications of the American Oriental Society Offprint Series 18). New Haven: American Oriental Society [Reprinted from Journal of the American Oriental Society 65: 1-26, 164-203, 1945].
- Littmann, Enno and Maria Höfner: Wörterbuch der Tigré-Sprache. Wiesbaden: Franz Steiner, 1962.
- Nakano, Akio and Yoichi Tsuge (collaborator). 1982. A Vocabulary of Beni Amer Dialect of Tigré. Tokyo: Institute for the Study of Languages and Cultures of Asia and Africa.
- Raz, Shlomo: Tigre Grammar and Texts (Afroasiatic Dialects 4). Malibu: Undena, 1984.
- Raz, Shlomo: Tigre, The Semitic Languages, Robert Hetzron, ed., 446-456. London: Routledge, 1997.
- Elias, David L: «Tigre of Habab: Short Grammar and Texts from the Rigbat People», Ph.D dissertation. Harvard University, 2005.

أرقائهم[٧]، وكـذلك فعل الماريا، حسبـما قـال في كتـابه باللغة الانجليزية بعنوان «Eritrea: A colony in Transition»، فهي تخمين لا يقبله عقل ولا يسنده دليل أو منطق. ولمزيد من المعلومات حول هذه النظرية السَّمجة يرجى مراجعة الصفحة رقم ٤٢ من كتاب إس إفناديل «التركيب السكاني في إرتريا»، ترجمة: جوزيف صفير، الطبعة الأولي بالعربية ١٩٧٧، بيروت. إنَّ رأي ترافاسكس هذا لا يتصف بالعنصرية البغيضة فحسب بل يجافي المنطق والواقع حيث كيف يستقيم القول بأن الغالب يتبع ثقافة المغلوب؟ لقد جاء القوم من كبسا وهم يتحدثون التِّجْرَي التى كانت سائدة في تلك البقاع حتى أكسوم كوريث شرعي للغة الأم "الجَعِيز" (وليس الجِئِز كما درج كتابتها)، حيث ما تزال كنائس الحبشة حتى اليوم تتلو العهد القديم (الإنجيل) بلغة «الجَعِيز Ge'ez» وهي اللغة التى انبثقت منها التِّجْرَي وتعتبر من أقرب اللهجات اليها. بل وما تزال هنالك قرى في كبسا تتحدث بالتِّجْرَي حتى هذا اليوم، وهي لهجة، كما سنوضح بالتفصيل، تحدث بها نجاشي أكسوم عندما وفد اليه المسلمون المهاجرون الأوائل فقال «دَبِر» بمعنى جبل وقال «شيِّم» بمعنى سادة وقال «غجَّاي أو غضَّاي – مأخوذة من شجر الغضى» بمعنى العود الصغير في لهجة التِّجْرَي. ثُمَّ إنَّ الوثيقة التى سنشير اليها في بحثنا هذا، والتى تتحدث عن رحيل الفونج من عنسبا الى سنار، توضح بجلاء أنَّ لغة الحوار بين اسجدي وزعيم الفونج كانت التِّجْرَي، وهذا بالطبع كان في أول حضور أسجدي ومن معه من كبسا الى الساحل في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. إنّ ما يراه ترفاسكس لا ننكره نحن فحسب بل هنالك عدد من الباحثين المرموقين قد انتقدوا هذه النظرية وفندوها، ومن ذلك مثلا الكاتب "هاري

(٧) لمزيد من المعلومات حول هذه النظرية السَّمِجَة يرجى مراجعة الصفحة ٤٢ من كتاب: إس. إف. ناديل «التركيب السكاني في إرتريا»، ترجمة: جوزيف صفير، الطبعة الأولي بالعربية ١٩٧٧، بيروت.

إنجلوند «Harri Englund» الباحث في أكاديمية فنلندا ومعهد الدراسات الآسيوية والإفريقية بجامعة هلسنكي[٨].

ليس هذا فحسب بل إنَّ الذين يعتقدون أنَّ لهجة التِّجْرَي هي التى كانت سائدة في الساحل قبل مجئ بيت أسجدي ربما يحتاجون الى إعادة النظر في أمر متى تحول سكان المنطقة من لغتهم الأصلية "الجَعِيز" الى لسانهم الجديد "التِّجْرَي"!! بمعنى آخر هل التِّجْرَي جاءت الى المنطقة مع بيت أسْجَدي ومن هاجر معهم من كبسا؟ هذا إحتمال وراد ولكن الاحتمال الأرجح عندي هو إنَّ المنطقة المعنية (الساحل وكبسا) كانت كلها قد تحولت قبل مجيء بيت أسجدي الى لهجة التِّجْرَي، وذلك بدليل ما أورده المؤرخ جي. إم. هاردن «J. M. Harden» الذي ذكر أنَّ التحدث بلغة الجَعِيز قد توقف منذ القرن العاشر الميلادي، أي قبل حوالي خمسة قرون من حضور بيت أسجدي من كبسا، وسنطرق لهذا الكتاب فيما بعد. إذَنْ نستنج من هذا الكلام أنَّ بيت أسجدي كانوا يتحدثون (قبل خمسة قرون من نزولهم الى الساحل) لغة أو لهجة أخرى وهي في الغالب نفس لهجتهم الحالية للأسباب التي سنذكرها. وعندما جاء بيت أسجدي الى المنطقة وجدوا نفس لغتهم (لهجتهم) سائدة في منطقة الساحل بحكم التطور الطبيعي للأشياء المترابطة والثقافات المتداخلة. يقول جيمس بروس الذي كتب مذكراته بعد طوافه بشرق إفريقيا قبل أكثر من ٢٤٠ عاماً من وقتنا الراهن (٢٠١٤م)، إنَّ أسلاف البدو أو الرعاة «Shepherds» من سكان منطقة التِّجْرَي Tigre كلها، بما فيها الجبال المحاذية للبحر الأحمر، كانوا يتحدثون لغة الجعيز «Geez»:

«The predecessors of those people that settled in Tigre from the mountains of Habab were shepherds adjoining to the Red Sea; that they speak the language of Geez».[9]

(٨) فضلاً أرجو مراجعة كتاب:

«Rights and the Politics of Recognition in Africa Postcolonial Encounters», Edited by Harri Englund and Francis B. Nyamnjoh, Zed Books, September 2004).

ويمضي جيمس بروس فيقول إنَّ هولاء الرعاة (Shepherds) هم سبأييون (Sabeans) وإنَّهم كانوا يعبدون الشمس والقمر والنجوم:

«The Shepherds were Sabeans, worshipping the host of heaven the sun, moon, and stars»[10].

ويخلص الى حقيقة بالغة الأهمية بالنسبة لبحثنا هذا وهي قوله إنَّ الحباب كانوا يشكلون الجزء الشمالي لمملكة بَحَر نَجَاش، وإنَّ منطقة الحباب كانت تعرف بأرض الجعيزيين وإنَّ لهم لغة واحدة فقط يسمونها "الجعيز" أو "لغة الجعيزيين"[١١]:

The «northern province of the Baharnagash is called the Habab, or the land of the Agaazi, or Shepherds; they speak one language, which they call Geez, or the language of the Agaazi».[12]

ولمعلومات القارئ فإنَّ «بَحَر نَجَاش Baharnagash» أو "بَحَر نَجَاس"، وتكتب أحياناً «بَحَر نَقَاسBarnagas»، التى ذكرها جيمس بروس في الفقرة السابقة هي مملكة قديمة كانت تحتل مساحة واسعة من الساحل الممتد شمال إرتريا وشرق السودان الحالي. وتوضح الخرائط القديمة موقعها الى الشرق مباشرة من مملكة "مروي"، وجنوب ممكلة البلو، وكانت منطقة الحباب الحالية (بين مصوع وسواكن) تمثل الجزء الشمالي من مملكة بَحَر نَجَاش (بالجيم اليمانية). وكما ذكرنا فإنَّ جيمس بروس يقول في الفقرة السابقة إنَّ الجزء الشمالي من بَحَر نَجَاش (من مصوع الى سواكن)، كان يسمى الحباب أو أرض الجِعِيزيين Agaazi أو الرعاة

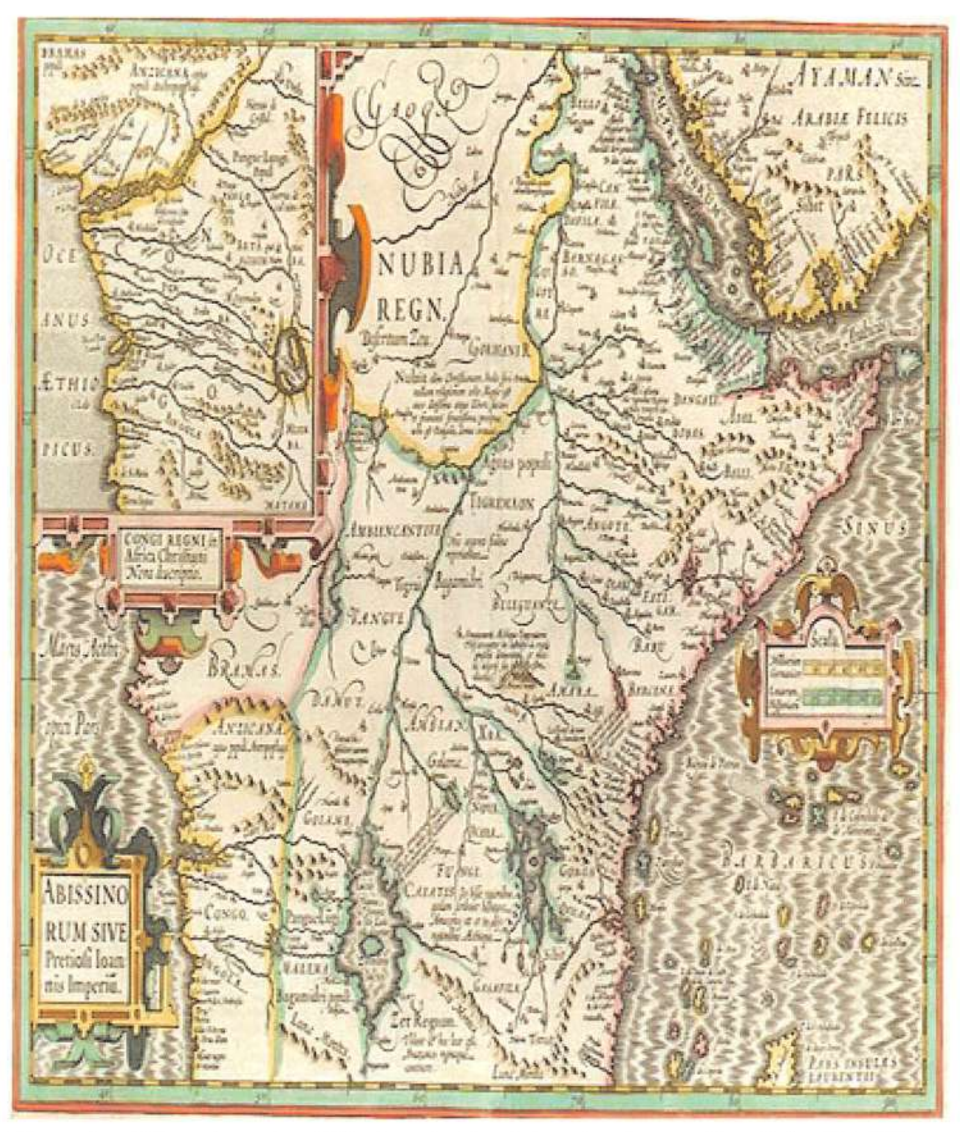
(9) «Travels to Discover the Source of the Nile, in the Years 1768, 1769, 1770, 1771 1772, and 1773» By James Bruce, Printed in Five Volumes in Edinburgh in 1790, op cit, Vol. III, p. 340.

(10) James Bruce, Vol. I, op cit., p. 395.

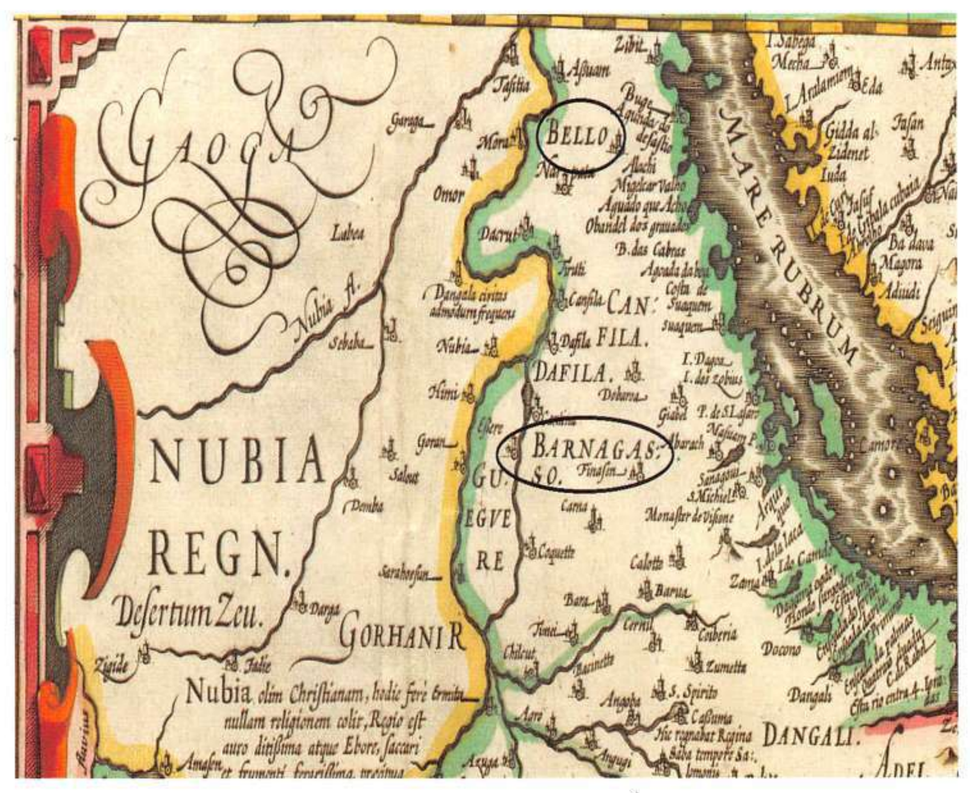
(١١) المقصود بلغة الجِعِيز هنا "التِّجْري" التى ورثتها لأن لغة الجِعِيز قد اندثرت منذ القرن العاشر الميلادي كما أشرنا.

(12) James Bruce, Vol. III, op cit. p, 250.

Shepherds وهو مصطلح يطلقه المؤرخون الغربيون على السبأيين المقيمين في شرق إفريقيا.



خريطة لمنطقة شرق إفريقيا رسمت في عام ١٥٦٥-١٥٦٦م بواسطة الرسام Gerardus Mercator (البلجيكي - الألماني) ونشرت في عام ١٦٣٠م.



جزء مكبر من الخريطة يوضح أنَّ البلو Bello كانوا في منتصف القرن السادس عشر (عام ١٥٦٥-١٥٦٦م) يتمركزون في القطاع الذي يعرف الآن بولاية نهر النيل في السودان، بينما احتلت مملكة بحر نجاس Barnagas المناطق التى كانت تقع شرق مروي القديمة.

ومن المعلوم إنَّ لغة الجعيز (أو لهجة "التِّجْرَي" قبل أن تتطور من أصلها الجعيزي) كانت هي اللغة السائدة في مملكة أكسوم وشمال الحبشة على أقل تقدير، فضلاً عن أجزاء من شرق السودان الحالي، بل وربَّما امتد أثرها الى مملكة مروي في وسط السودان، وهذا أمرٌ يحتاج الى بحث علمي متخصص(١٣). وهي اللغة التى

(١٣) في تحليل له لمادة كتابنا هذا قال الدكتور: عبد القادر الخزين، من قسم التاريخ والآثار (جامعة النيلين)، إنَّ هذا الكتاب يمكن أنْ يساعد في محاولة فكِّ رموز لغة مملكة مروي بعد أنْ أخفقت كل المحاولات السابقة، مشيراً الى أنَّ شعار مملكة مروي كان "العَصَا" حيث توجد العَصَا في كثير من الجداريات والرسوم التى خلفها المرويُّون. وكما هو معلوم فإن العِصِيَّ (جمع عَصَا) في لغة الجَعِيز ولهجة الحباب تسمى "مَرَوِي"، والعَصَا الواحدة تسمى "مُورَا".

تحدث بها نجاشي أكسوم عندما وفد اليه المسلمون المهاجرون الأوائل فقال «دَبِر» بمعنى جبل وقال «شيَّم» بمعنى سادة وقال «غجَّاي أو غضَّاي – مأخوذة من شجر الغضى» بمعنى العود الصغير في لهجة التِّجْرَي.

نعود الى السؤال الانكاري ونقول إذَنْ لا مجال، لا عقلاً ولا نقلاً، للقول بإنَّ سكان مناطق الساحل قبل هجرة بيت أسجدي كانوا يتحدثون لغة مختلفة عن لغة بيت أسجدي وإنَّما الجميع، كما أكد جيمس بروس، كانوا – في الأصل – يتحدثون لغة واحدة هي «الجعيز Geez» وتحولت لغتهم الجعيزية بمرور الوقت الى لهجة انبثقت عن لغة الجعيز وتعرف حالياً بلهجة «التِّجْرِي Tigre» والتى تطورت تدريجيا من أصلها الجعيزي (لغة أهل الجنوب) لتنحو في بعض جوانبها نحو اللغة الفصحى (لغة أهل الشمال) لأسباب سنتطرق اليها في هذا البحث. إننا نرجح أن يكون التحول من لغة الجعيز الى لهجة التِّجْرِي قد على مراحل وتدريجياً عقب إنهيار ممكلة أكسوم وبدء هجرة عرب الشمال بمجموعات كبيرة نسبياً الى المنطقة بعد ظهور وانتشار الاسلام. وبعد أنْ تشكلت لهجة التِّجْرَي من أصلها الجعيزي وما دخل عليها من تعابير وتراكيب من عربية الشمال، أصبحت لاحقاً تميل أكثر الى اللغة الفصحى نتيجة للتأثير الثقافي الهائل للأسر الدينية، وهي أسر كانت تتحدث بلغة عرب الشمال التى تختلف عن لغة عرب الجنوب كما سنوضح.

ولعله من المفيد للباحثين أن نذكر في هذا السياق إنَّه، عند نزول بيت أسجدي ومن كان معهم من كبسا الى الساحل في حدود عام ١٥٠٠م، كانت لهجة التِّجْرَي حاضرة بقوة في مناطق كبسا عموما. وحتى لا يكون الكلام مرسلاً بدون دليل، نحيل القاريء والباحث الى كتاب «تحفة الزمان أو فتوح الحبشة» لمؤلفه: شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الجيزاني، الشهير بعرب فقيه. يتحدث الكتاب في مجمله عن الحروب التى خاضها في تلك الفترة في بلاد الحبشة (بما فيها كبسا) الإمام أحمد بن إبراهيم غُرَيْ المعروف بالإمام أحمد الغازي، ولقب "غُرَي" يعني "الأعسر" أو "الأشول" باللغة الصومالية، وحرف في المراجع العربية الى "جران" أو "قران".

وهو من منطقة هرر الحبشية التى تقع الى الجنوب من هضبة كبسا، بل وجنوب بلاد التِّجْرَايْ كلها. وقد تمكن الإمام أحمد من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من أراضي الحبشة في الفترة من ١٥١٧ الى ١٥٤٣م وهي الفترة لتى توافق تكوين حلف بيت أسجدي بعد هجرتهم من كبسا الى الساحل في حدود عام ١٥٠٠م. ما يهمنا في حروب الإمام أحمد الغازي هو ورود إشارات متعددة الى انتشار لهجة التِّجْرَي في مناطق المرتفعات الحبشية التى كان يخوض فيها الإمام حروبه، وهذا يدل على أنَّ لهجة التِّجْرَيْ كانت معروفة في تلك الأصقاع، على الأقل في ذلك الوقت، وبالتالي لا يَسْتَغْرِبنَّ أحدٌ عندما نقول إنَّ بيت أَسْجَدَيْ ومن جاء معهم من كبسا مثل زين وكازين وزاجر وبَقِلْ لَهَبْ وجُورِيتَا وواطوت وغيرهم كانوا يتحدثون التِّجْرَي عند حضورهم للساحل. يتحدث الكتاب عن مناطق شتى في شمال الحبشة ومنها بلاد "هُوبَتْ"(١٤) والتى يقول عنها إنَّ أهلها من "البلو" وإنهم قد انتظموا في القتال مع الإمام. ومن المعروف أنَّ البلو يتحدثون بلهجة التِّجْرَي، وامتداهم في تلك الأصقاع وفي ذلك الوقت، يدلنا على أن لهجة التِّجْري كانت حاضرة بقوة في مرتفعات كبسا، ولا غرابة أذا هاجر مثلاً قومٌ من بلو "هوبت" في تلك الفترة من الهضبة الى الساحل في أن نقول عنهم إنهم كانوا يتحدثون التِّجْرَي، وبالتالي لا غرابة البتة في أنَّ بيت أَسْجَدَيْ كانوا يتحدثون التِّجْري عند هجرتهم للساحل، ولو كانوا يتحدثون غيرها لفرضوا لسانهم كما فرضوا سلطانهم وعاداتهم الأستقراطية!! وهذا هو المنطق الطبيعي للأشياء. ثُمَّ يتطرق الكتاب الى خبر ملك الحبشة في ذلك الوقت وكان يدعى "وناج"، ويقول إنَّ هذا الملك عندما علم بنية الإمام أحمد في غزو بلاده بدأ في الاستعداد للحرب في "بيت أمحره" موطن ملكه، فجمع "الجموع وجيَّش الجيوش واجتمعت عليه قبائل التِّجْرَي وقبائل أقو وقبائل قجام وأهل بقى مدر"(١٥). ثُمَّ يتطرق الكتاب للحروب التى خاضها الإمام أحمد ويذكر أهم قواده

---

(١٤) تقع في المرتفعات التي تجاور منطقة زيلع.

(١٥) صفحة ٣٩ من الجزء الأول من كتاب: «تحفة الزمان أو فتوح الحبشة» لمؤلفه: شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الجيزاني، طبعة وليام آند نورجيت، كامبرج، ١٨٩٤.

ومنهم، كما ورد نصاً في الكتاب: "الأمير أبو بكر الملقب بقطين عبارة عن النحيف وهو من الشجعان والفرسان المعدودين ممن يضرب بهم المثل"[١٦]. لاحظ الاسم "قَطِين" وقارن بين معناه في لهجة التِّجْرَي والمعنى الذي أورده صاحب الكتاب لتعرف مدى انتشار لهجة التِّجْرَي في تلك الأصقاع وقتئذ.

والتِّجْري لهجة يختلف أداؤها (نطقها) من منطقة إلى أخرى، فمثلاً نجد جزءاً من الحباب وكافة بني عامر، خاصة أهل بركا والقاش وكسلا وما حولها، يبدلون حرفي «الذال» و«الزّاي» بحرف «الدَّال» فيقولون، على سبيل المثال: «عبد العديد» بدلاً من «عبد العزيز» و«ديت» بدلاً من «زيت»، و«دبدتْ» بدل «زِبْدَتْ ـ زبدة» و«إدَاعَتْ» بدل «إذاعة»، وهكذا، وهذا أمرٌ ناتجٌ عن تأثرهم القوي بلغتهم الثانية وهي «البِدَاوِيِتْ»، والتي لا تعرف الذال والزاي والحاء والخاء والعين، بحكم أنها لغة حامِيّة وليست سامِيّة. وفي المقابل نجد في قبائل الساحل ميلاً قوياً نحواستخدام حرف الذال محل الدال فيقولون مثلاً: «فِذَاكَ أَبْويَّ» بدل «فداك أبوي». ومن المعروف إنَّ لهجة التِّجْري تتحدث بها حالياً (٢٠١٢م) قبائلُ كثيرةٌ في إرتريا والسودان، منها الحَبَابُ بالطبع، وبنو عامر وماريا ومنسع، وبعضُ الحلنقا (الحلنجا) والحُمْرَان، وجزءٌ قليلٌ من الباريا والبلين، وعددٌ أقلُّ من الرشايدة والشكرية النَّوَايْمَة وغيرهم. وهي لهجة تنتشر في مثلث تتمثل قاعدته في الشريط السَّاحِلي الممتد من جزر دهلك إلى سواكن، ويمتد رأسه الى منطقة وَدَّ الحِليوْ، جوار نهر سيتيت ونهر باسلام.

إن أقدم محاولة لدراسة لهجة التِّجْرَي تتمثل في الكتاب الذي ألفه في عام ١٨٦٨م، أيْ قبل أكثر من مائة وأربعين (١٤٠) سنة من الآن، المستشرق الرحالة مورتز فون بويرمان Mortiz von Beurmann بعنوان: "أبجدية لغة التِّجْرَي"، حيث ذكر عدداً من القبائل التي تتحدث التِّجْرَي ومنها قبائل جزر دهلك وقبائل

(١٦) صفحة ٤٥ من نفس المرجع.

سمهر والحباب ومنسع وجِمَّجَان وبيجوك وماريا وبني عامر وألْقَدَيْن (Algadain) وسَبْدَرَاتْ والحلنقا (الجَلَنْجَا). وقال بالإضافة الى هولاء هنالك قبائل تتكلم وتفهم التِّجْرَي وهم قبائل البوجوس (مسحليت) وبيت طوقي (البلين) والباريا. ثُمَّ ختم تلك الفقرة قائلا: إن أفضل نطق للتجري هو الذي يوجد لدى الحباب [١٧]:

«The finest pronunciation is found with the Habab».

وهذه اللهجة «التِّجْري» تعرف بمسمى «هَاسَيْتْ Hasait»، بفتح السين وإمالتها قليلا، لدى ذلك القسم من البجة الذي يتحدث بلغة «التَّبْدَاوِيتْ». وبامعان النظر والتدبر، نستنتج من عرف البُجَة السائد حالياً، وتسميتهم لهذه اللَّهْجَة بمسمى «هَاسَيْتْ»، ومن يتحدثون بها بمسمى «هَاسَا»، أنَّ أشهر من تحدث في شرق السودان بهذه اللَّهْجَة أو باللغة الأم "الجعيز"، منذ زمن بعيد، هم قوم من البُجَة كانوا يعرفون بـ «الخَاسَا».

منْ هم الخاسا؟:

يعتبر «الخاسا»[١٨] (والباريا) أقدم مجموعتين من البُجَة لهما وجود ممتد وقائم حتى الآن على الأرض، وبالتالي فإن الأمانة تقتضي أنْ نقول إنَّ الخاسا (والباريا) هم السكان الأصليّون «Indigenous people» لمنطقة شرق السودان الحالي حيث يذكر المؤرخون القدماء أنَّ «الخاسا» عاشوا في المنطقة الواقعة بين «النيل والبحر الأحمر» منذ أزمان سحيقة، وعاصروا مملكة أكسوم التى تأسست في القرن الرابع قبل الميلاد (عام ٣٢٥ ق. م.). فقد ذكر ملك أكسوم، الملك «عيزانا»، بالاسم كلاً من «الخاسا» و«الباريا»، في النقش المعروف بنقش عيزانا، وبيَّن أنَّ سبب غزوه، في القرن الرابع قبل الميلاد، لمملكة مروي في أواسط السودان هو ـ ضمن

(١٧) راجع الصفحة رقم (٧) من كتاب:
«Vocabulary of The Tigre Language», written by Moritz Von Beurmann, Published with a Grammatical Sketch by Dr. A. Merx, of the University of Jena, Halle Buchhandlung Bes Waisenhauses, 1868,London, Truebner & Comp. 60, Paternoster Row.

(١٨) تكتب في بعض المراجع «الخاسه» بالهاء، وأحياناً «الخاسة» بالتاء.

أسباب أخرى ـ اضطهاد النوبة «الزُّرق» لجيرانهم من «الخاسا» و«الباريا». واعتماداً على ترجمة الدكتور أسامة عبد الرحمن النور التى وردت في مجلة «الآثار والأنثروبولوجيا السودانية - أركاماني»، العدد الأول، أغسطس ٢٠٠١ م، قال عيزانا: «هجمتُ على النوبا حين أشهر أهلها الحرب وتفاخروا: لن يجتاز التكازى، قائلين لأهل النوبا. أساءوا معاملة أهالي مانجورتو والخاسا والباريا، على الزرق هجموا، وعلى الحمر هجموا ... إلخ».

ويبدو أنَّ «الخاسا» هم قسم من (الحِمْيَرِيين) الذين استوطنوا هذه المنطقة منذ قرون سبقت ميلاد المسيح، وذلك بالنظر إلى لسانهم (العربي) وارستقراطيتهم المفرطة، والتى اشتهر بها بنو قضاعة عموماً. أو ربما يكون «الخاسا» هم في الأصل قسم من الهكسوس الذين وفدوا من الجزيرة العربية إلى مصر وتمكنوا من حكمها، وانتقل جزء منهم إلى شرق أفريقيا. إنَّ ما يدفعني لهذا القول هو وجود قرائن قد لا ترقى الى مرتبة الدليل القاطع ولكن لا بأس من ذكرها وتتمثل في الآتي:

أولًا: إنَّ نقوش قدماء المصريين تَطْلِقُ على أمة الهكسوس عموما مسمى «هيكا خاسيت «Heka-chaset / Heka-chasut»، ومعناه: «حكام أرض الغير «TheRulers of Foreign Lands»». وهذا يعني أنَّ الهكسوس كانوا يُعْرَفون، على الأقل ضمن نطاق مصر وما حولها، بمسمى «خاسيت»، وهو لفظ قريب جداً من لفظ «الخاسا» أو «الخاسة» الذي تم تدوينه فيما بعد من قبل المؤرخين العرب، بل ويكاد يتطابق مع تسمية «هَاسَيْتْ» التى يطلقها أهل التَّبْدَاوَيتْ على لهجة التِّجْرَي. ولهذا ربما يكون مسمى «خاسا» أو «خاسة» تحريفاً لإسم الهكسوس «خاسيت»، وبالتالي فإن «الخاسا» هم بقايا من أمة «الخاسيت» أو الهكسوس.

ثانياً: من الثابت أنَّ للهكسوس أسماء سامِيَّة معروفة مثل: «بَعل» و«انَاس» و«شيشاي» وغيرها، وهذه الأسماء هي من قبيل الألفاظ الشائعة والمتداولة في لهجة التِّجْرَي التى كان يتحدث بها قوم «الخاسا».

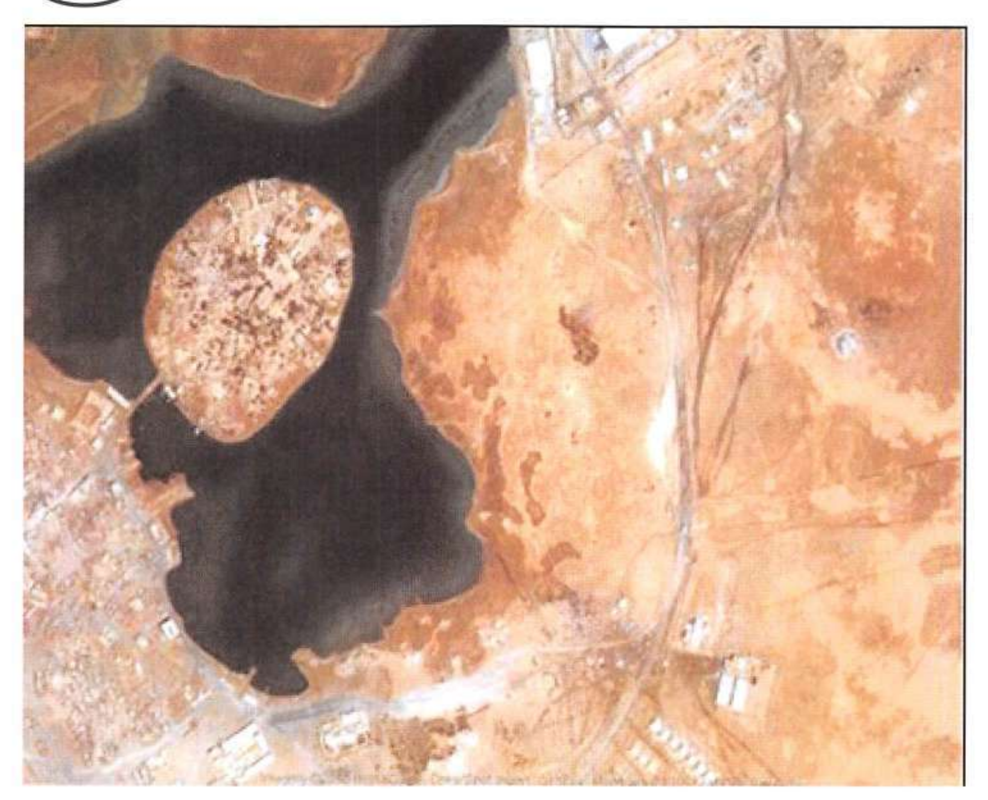
ثالثاً: كما ذكرنا، حَكَمَ الهكسوسُ مصر خلال الألفية الثانية، وامتد سلطانهم إلى معظم مصر، وإنْ ظل الجنوب تحت حكم الفراعنة، مع الخضوع لسلطة الهكسوس العَلِيّا

في الشمال. بَيْدَ أنَّ التجارة في جنوب مصر كانت بِيَدِ الهكسوس، وهذا يعني ببساطة أنهم كانوا على احتكاك بسكان أرض البُجَة، وربما ساكنوهم. لكن الأهم من ذلك هو أنه عندما تم هزيمة الهكسوس على يد الملك أحمس الأول، تفرق الهكسوس في البلاد شرقا وجنوبا، ولا شك أنَّ قسما منهم التحق أو احتمى بالبُجَة، وهم أقرب الأمم اليهم بعد مصر من الجهة الجنوبية، وبالتالي ربما تبقى قسم منهم في أرض البُجَة منذ القدم، عرف فيما بعد بالخاسة تحريفا لخاسيت.

وسواء كان «الخاسا» من بقايا الهكسوس أو قسماً آخر من الوافدين من جزيرة العرب، فإنهم قد احتفظوا باللسان الحِمْيَرِي، بعكس أقسام أخرى من العرب (من الحِدَارَبِ وغيرهم)، الذين اتخذوا لغة البُجَة الحامية «التّبْدَاوَي Tubdaway» لساناً لهم، وتملكوا جزءاً من قبائل البُجَة. ويعتبر «الخاسا» أول من أسلم من البُجَة، وظلوا يعتنقون الإسلام ويسيطرون في المنطقة لعدة قرون إلى أنْ ظهر الحدارب (بعد إزالة حكم البلو)، لينافسوهم المكان والسلطان. وكانت للخاسا مملكة تدار من سواكن مقر ملكهم. وكان لهم وجود قوي في المنطقة برمتها، حيث يقول المؤرخون: إنَّ «بلاد الخاسة» كانت تمتد من شمال أكسوم حتى سواكن، ومن النيل إلى البحر. قال المقريزي في كتابه «المواعظ والاعتبار»، متحدثاً عن سواكن وأهلها قبل حوالي ستمائة عام (توفي عام ٨٤٥ هـ): «وجزيرة سواكن أقل من ميل في ميل، وبينها وبين البر[١٩] الحبشي بحر قصير يخاض، وأهلها طائفة من البُجَة تسمى: الخاسة، وهم مسلمون، ولهم بها ملك»[٢٠].

(١٩) ورد النص في الأصل كما يلي: «وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير يخاض»، ونعتقد أن هنالك خطأ مطبعي فالأصح هو «البر» وليس «البحر»، حيث لا يعقل أن يتحدث المقريزي (وابن سليم) عن بحر (يخاض) يفصل الجزيرة عن البحر الحبشي (المالح)، وإنما الصحيح والواقع هو أن بين الجزيرة والبر (الحبشي) أو بر العجم كما كان يسمى أحيانا، بحر ضحل كان يخوض فيه الناس مشيا للوصول إلى الجزيرة، وبنيت الشاطة (الجسر) فيما بعد.

(٢٠) صفحة ١٩٧ من الجزء الأول من كتاب: «المواعظ والاعتبار» أو ما يعرف بالخطط المقريزية، لأحمد بن عليّ المقريزي، طبعة مصر سنه ١٩١٦م.



صورة علوية لجزيرة سواكن وهي تبدوا تماما كما وصفها المقريزي، قبل حوالي ستمائة عام (توفي سنة ٨٤٥ هـ) ، جزيرة بيضاوية طولها ميل وعرضها أقل من ميل والمسافة بينها وبين اليابسة (البر الحبشي كما أسماه المؤرخ) عبارة عن بحر ضحل بني عَلِيّه فيما بعد جسر سمي بجسر الشاطة وهو واضح في الصورة.

وتحدث عنهم قبل ذلك ابن حوقل ـ في القرن الرابع الهجري ـ في كتابه «صورة الأرض»، فقال عن البُجَة بنواحي بركا (بركة): «ويتصل بها ممَّا يلي سواحل البحر الخاسا[٢١]، بطون كثيرة في السهل والجبل»[٢٢]. ويبدو أنَّ سطوة وجبروت هؤلاء القوم في تلك المناطق الشاسعة قد استمرت لفترة طويلة، حيث إننا نجد من يكتب عنهم وعن بلادهم في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، ويوضح لنا أنَّ مجموعة من «الخاسا» من شعب البُجَة كانت تعيش فى المنطقة ما بين النيل وأكسوم (الحبشة)،

(٢١) وردت في الأصل بصيغة «الجاسة» وهو بلا شك تصحيف وخطأ مطبعي.

(٢٢) كتاب «صورة الأرض» لأبي القاسم بن حوقل النصيبي، مكتبة الحياة للطباعة والنشر، ١٩٩٢، بيروت، لبنان، صفحة ٥٩.

ونستنج من كلامه أنَّ اسم «الخاسا» ربما اطلق عليهم بسبب عادة تتمثل في أنهم كانوا "يخصون" عبيدهم، ويتهادون فيما بينهم بالبشر (المخصيّين)، وكانوا يفاخرون بذلك. قال إبن سعيد الغرناطي[٢٣]: «وفي شمالي سحرته من النيل إلى البحر بلاد الخاسه»[٢٤]. ويردف قائلا: «وقد أُشْتُهِرَ عنهم أنَّهم يخصون من يقع إلى أيديهم، ويدفعون ذكور الآدميين في صداقاتهم ويفتخرون بذلك»[٢٥].

و«سحرته» المذكورة في هذا النص ربَّما تكون «أكسوم» لمن يجعل موقعها جنوب أسمرا، وربَّما تقع داخل حدود السودان الشرقي الحالي لمن يجعلها تحادد النيل كما ورد وصفها مثلاً في كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لمؤلفه "ابن فضل الله العمري"، وفي كلا الحالتين نجد أنَّ «الخاسا» كانوا يسيطرون على مساحة شاسعة تكاد تغطي شرق السودان الحالي كله، حيث كانت مملكتهم، كما يقول النص السابق، تبدأ من المنطقة الواقعة إلى الشمال من سحرته، وتغطي المساحة الممتدة «من النيل إلى البحر»، ويتخذون من سواكن سوق الرقيق الأكبرفي المنطقة. ورغم زوال سلطان الخاسا، ظلت سواكن تؤدي هذا الدور إلى عهد قريب. يقول بوركاهارت الذي مرَّ على سواكن قبل مائتي سنة تقريبا (عام ١٨١٤م): «ويمكن أن تعد سواكن ـ على العموم ـ سوقاً من أهم أسواق العبيد في شرق إفريقية، فهي تستورد كل عام من شندي وسنار عدداً من العبيد يختلف من ألفين إلى ثلاثة آلآف، ولا يضارعها في هذا غير إسنا وأسيوط من مدن مصر، ومصوع من مدن الحبش»[٢٦]. هذا وقد أشرنا في موضع آخر إلى ما قاله شيخ الربوة الدمشقي (توفي عام ٧٢٧هـ) والذي ذكر أنَّ الخاسة طائفة من السودان وينقسمون إلى فرعين: «خاسة السّفلى كفَّار،

---

(٢٣) اسمه بالكامل: علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد العماري المغربي الغرناطي، وهو عالم وشاعر ومؤرخ أندلسي، ولد بغرناطة في عام ٦١٠هـ وتوفي عام ٦٨٥ هـ.

(٢٤) كتاب: «الجغرفيا» لإبن سعيد الغرناطي المغربي، فقرة الجزء الرابع من الإقليم الثالث.

(٢٥) نفس المرجع.

(٢٦) «رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان»، مرجع سابق، الصفحة رقم ٣٥٠.

وخاسة العُلْيَا مُسلمون»[٢٧].

ويبدو أن الخاسا قد مرَّ عليهم عصر تقلص فيه وجودهم حتى انحصر في جزيرة سواكن فقط، ثُمَّ دُحِرُوا تماما، كما دُحِر غيرهم، ربما بعوامل الفناء الطبيعي أو لكثرة حروبهم، وربما لتجبرهم وظلمهم، وربما بسبب إزاحتهم من قبل لاعبين جدد ظهروا في المنطقة، أمثال الحدارب والأرتيقا والحَبَاب والنابتاب والهَدَنْدِوَا وغيرهم. وقد علمت أن لفظة «الخاسا» غير معروفة وغير متداولة تماماً في إرتريا في الوقت الراهن، ولا تطلق على أي قوم هنالك. أمَّا في السودان فيطلقها المتحدثون بالبِدَاوِيِتْ على كافة المتحدثين بالتِّجْري من حباب وبني عامر وغيرهم، ولكن هؤلاء لا يقبلونها، بل يعتبرونها شتيمةً وإهانةً لهم، وقد جرت وقائع، وسالت دماء بسبب هذا المسمى، ولكن هنالك مجموعة صغيرة هي «عَدْ عمير وَدْ محمود»، مقرها توكر وما حولها، يطلقون على أنفسهم مسمى خاسا (هاسا)، ويعرفون لدى أهلنا بمسمى «هاسا كَرْ» أو «هاسا كَرْتِيَيْ» أي «خاسا توكر»، وهم فرع صغير من فروع قبيلة بني عامر[٢٨]، ولهم عمدة وشيخ معتمدان لدى ناظر بني عامر، وأول عمدة لهم هو الشيخ "جميل هاسا" تلاه الشيخ عيسى ثُمَّ الشيخ موسى ثُمَّ الشيخ أبو محمد. هذا ويجدر بي هنا أنْ أشير إلى أنَّه ورد في الصفحة رقم ٣٢٤ من كتاب «معجم قبائل العرب» للأستاذ عمر رضا كحالة أن «الخاسة» هم: «فرع من الحرابي، من عقار، من قبيلة السعادي التي تسكن الصحراء الغربية».

---

(٢٧) «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» تأليف الشيخ: شمس الدين أبي عبدالله محمد الأنصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، طبع في مدينة بطربورغ في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية عام ١٨٦٥م بواسطة أغشطس بن يحي المدعو مَهْرَنْ، أستاذ الألسنة الشرقية في المدرسة العظمى الملكية بمدينة قوبنهاغ، صفحة ٢٦٩.

(٢٨) محمد صالح ضرار: «تاريخ سواكن والبحر الأحمر»، مرجع سابق، ص ٣٥. كذلك راجع كتاب: «العبابدة في الصحراء الشرقية والسودان الشرقي وقبائل أخرى» لمؤلفه: حسن أحمد حسين خليفة العبادي، المأمور بحكومة السودان سابقاً، طبعة ١٩٤٠م، مطبعة السلام.

اختلاف اللهجة الحَبابية عن الفصحى:

إن اللَّهْجَة الحَبَابية هي من أقدم اللهجات العربية، وهي أحد الورثة الشرعيين للسان العربي الذي كان سائداً أيام العرب العاربة، من سَبَأْ وأبنائه ومنهم حِمْيَر وكهلان الذين توزع نسلهم في البلاد، خاصة بعد انهيار سد مأرب، فأصبح يضرب بهم المثل ويقال: «تفرَّقُوا أَيْدِي سَبَأ». ولعله من المناسب أنْ نعطي هنا نبذة مختصرة عن العرب فنقول: إنَّ المؤرخين قد قسَّموا العرب إلى ثلاثة أقسام هي:

١ـ العرب البائدة؛ ومنهم عاد وثمود وجديس؛

٢ـ العرب العاربة؛ وهم الأغلبية[٢٩]، حيث انتشرت قبائلهم في كافة أرجاء الجزيرة العربية، قبل وبعد الإسلام، ومنهم من انتقل إلى خارج جزيرة العرب لينتشر في شرق وشمال أفريقيا وغيرهما.

٣- العرب المستعربة؛ وهم أبناء اسماعيل ويسمَّون بالعرب العدنانية (العدنانيين) ومنهم قريش. والعرب العاربة هم أصل العرب، وينتهي نسبهم إلى يشجب

(٢٩) ورد في كتاب «الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة» لمؤلفه: محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمسانيُّ، الشهير بالبُرّي، أن عبد الملك بن حبيب السُّلميُّ الأندلسيُّ قال: سمعتُ محمد بن سلام البصريَّ النسَّابة يقول: العرب ثلاث جراثيم: نزارٌ واليمنُ وقضاعةُ. قلت: فنزارٌ أكثر أم اليمن؟ فقال: ما شاءت قضاعة، إن تمعددت فنزار أكثر، وإن تيمَّنت فاليمن أكثر. وقد رجح ابن إسحاق والكلبي والهَمْدَاني وابن خلدون وآخرون كثر، تيمُّنَ قضاعة وحِمْيَرَتَها. قال إبن إسحاق أن جد قضاعة هو: «قضاعة بن مالك بن حِمْيَر بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان.». وقال ابن الكلبيّ أن جدهم هو: «قضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرَّة بن زيد بن مالك بن حمير». أما السهيلي فقال: «الصحيح أن أم قضاعة هي «عكبرة» مات عنها مالك بن حمير، وهي حامل، فتزوجها معد بن عدنان، فولدت قضاعة على فراشه، فتبنّاه وتكنى به، فنُسب إليه»، وفي هذا الشأن يقول شاعر قضاعة (الأفلح بن يعقوب) مفاخراً بانتمائه لحمير:

يـأيُّها الدّاعي ادْعُنا وأبشر
وكـن قضـاعياً ولا تَنـزَّر
نحن بنو الشيخ الهجان الزهر
قضـاعة بن مـالك بن حـمير
النسب المعروف غير المنكـر.

ابن يعرب[٣٠] بن قحطان بن عَابِر بن شَالِخ بن أَرْفَخْشذ بن سَام نُوْحٍ، ولذلك يسمون بالعرب القحطانية (القحطانيين) أو شعب قحطان. وكما هو معلوم فإن اليمن هي مهد العرب العاربة، وبها كان عرش سَبَأ الذي يُعَد أشهر وأقدم ملوك اليمن. ثُمَّ تداول الملك بعده أبناؤه وأحفاده من حِمْيَر وكهلان وعمرو بن سبأ وغيرهم.



جزء من آثار مملكة سبأ والمتمثل في بقايا معبد الشمس في مأرب.

ومن المهم لبحثنا هذا أن نشير إلى أنَّ أعداداً كبيرةً من كهلان قد خرجت من

(٣٠) انفرد المؤرخ ابن إسحاق بتقديم «يعرب» على «يشجب» فقال: إن سبأ هو ابن يعرب بن يشجب ابن قحطان.

اليمن قبل سيل العرم، لينتشروا جنوباً عبر البحر الأحمر، وشمالاً حتى الشام والعراق. لكن أشهر قبائل سبأ على الإطلاق هي حِمْيَر، حيث أنَّ حِمْيَر هو الإبن الأكبر لسبأ. وحِمْيَر هذا إسمه الأصلي هو "العَرَنْجَج"[٣١] واشتهر بلقب حِمْيَر بسبب كثرة لبسه للثياب الحُمْر. والي حِمْيَر هذا تنتمي قبائل كثيرة منها حضرموت قضاعة[٣٢] التي منها جهينة وبَلِيّ (البَلَوْ ـ البَلِيّون)، التي يعتقد أنَّ جزءاً منها قد انتقل إلى منطقة شرق إفريقيا قبل آلاف السنين، وخاصةً بعد إنهيار سد مأرب.

قال المثلم بن قرط البَلَوِي:

ألـم تَـرَ أنَّ الحيَّ كانوا بغبطةٍ	بمأرب إذْ كانـوا يحلّـونها معـا
بَلِيٌّ وبَهْـراء وخَـوْلان إخـوةٌ	لعمرو بن حاف فـرع من قد تفرَّعا

إذَنْ تفرق السَّبَئِيّون في البلاد، وهاجر قسم مقدر منهم نحو شرق أفريقيا، التى كانت تعرف كلها بالحبشة، بما فيها السودان الحالي، ونشروا معهم لسانهم العربي الجنوبي، والذي يتميز منذ القدم باختلافات في الأداء وبعض التراكيب عن لسان أهل شمال الجزيرة، حتى إنَّه روي عن أحد علماء عرب الشمال في القرن الثاني الهجري قوله: «ما لسان حِمْيَر بلساننا، ولا لغتهم بلغتنا»[٣٣].

وقبل أن نتطرق إلى أوجه الإختلاف بين لسان عرب الجنوب ولسان عرب الشمال، يجب أن نشير إلى أن الجزيرة العربية كلها، شمالها وجنوبها، كانت منذ القدم،

---

(٣١) اسمه بالكامل هو حِمْيَر «العَرَنْجَجُ» بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر وهو «هود» عليه السلام بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح ۞.

(٣٢) هم أحفاد قضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرَّة بن زيد بن مالك بن حمير، وهو قول ابن إسحاق والسهيلي والكلبي وطائفة من أهل النسب، كما قال ابن كثير.

(٣٣) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني، ينتمي للمدرسة البصرية وهو أحد القراء السبعة، عاصر الإمام الحسن البصري وتوفي في سنة ١٥٤هـ. قال عنه ابن خلكان: «كان أبو عَمْرو أعلمَ النَّاس بالأدب والعربية والقرآن والشعر». راجع كتاب «وفيات الأعيان»، لإبن خلكان، الجزء الثالث، ص ٤٦٦.

وما زالت إلى يومنا هذا، تعجُّ بلهجات، تختلف كل واحدةٍ منها عن الأخرى، ويكاد أحياناً ألاَّ يفهم حيٌّ من العرب جيداً لهجة حيٍّ آخر. ولهذا تحدث النَّاس منذ القدم عن «طُمْطُمَانِيَّة» حِمْيَر و«تضجع» قريش، و«عَنْعَنة» تميم، و«كَشْكَشَة» أسد وربيعة، و«كَسْكَسةَ» هوازن وبعض من ربيعة، و«تلتلة» بهراء، و«عجرفية» ضبة، و«فحفحة» هُذَيْل، و«غمغمة» قضاعة، وهكذا.

بل نسمع في وقتنا الراهن «الشَّنْشَنَة» و«اليَنْيَنَة» و«الجَنْجَنَة»، حيث نقصد بالشَّنْشَنَة ما كان يعرف بالكشكشة وهي قيام البعض، خاصة في العراق والخليج، بقلب الكاف في آخر الكلمة شيناً، فيقول أحدهم مثلا مخاطبا إمرأة: «الله يغربلش ويغربل اللي عطاش اللَّيْسَنْ»، ويقصد بذلك: «الله يغربلك ويغربل الذي اعطاك رخصة السواقة (السياقة)!! ونقصد باليَنْيَنَة، قلب الجيم ياءً، فبدل أنْ يقول أحدهم: «جُمْعَة»، يقول «يُمْعَة»، وبدل «رَجَّال» يقول «رَيَّال»، وهكذا. ونقصد بالجَنْجَنَة، قلب الكاف والقاف جيماً إذا وقعت في آخر الكلمة؛ مثلاً يقول أحدهم: «الفريج» بدل «الفريق»، و«فتِّحِي عينج» بدل «افتحي عينك»، وهكذا.

أمَّا حرف «القاف» اليوم فأقم عليه مأتماً وعويلاً في كل مكان من ربوع العالم العربي، حيث يقلب «ألِفاً» في الشام ومصر، فيما يعرف بـ «الأنانة»، فيقولون مثلا: «تأبْرِنِي» بدل «تقبرني»، و«ألْتِ لَّكْ» بدل «قلت لك»، ويقلب «غيناً» في السودان وغيره، فيقولون مثلا: «ليلة الغدر» بدل «ليلة القدر»، ويقولون «غلفاء» ويقصدون «قلفاء»، بمعنى انثى غير مختونة!!. ويقلب القاف «جيماً» يمانية في كثير من لهجات العرب، ولا سيّما لهجات شمال اليمن، والسعودية ودول الخليج (باستثناء عُمان) فيقولون مثلا «عَجِيم ageem» بدل «عَقِيم» و«جُمْ gum» بدل «قُمْ»، وهكذا. ويقلب القاف «كافاً» في فلسطين والأردن، فيقولون مثلاً: «ياروح كلبي» بدل «يا روح قلبي» و«خمس دكايك» بدل «خمس دقائق»!!. أما القاف في غالبية شمال اليمن فقد هَوِيَّتَه وأصبح ينطق مثل الجيم اليمانية تماماً حيث يصعب على المستمع انْ

يعرف ما المقصود عندما يتحدث أحدهم مثلاً فيقول: «جَرَار garar» بدل «قَرَار» أو مثلاً يقول: «أجْرَب agrab» بدل «أقرب»، فهنا عليك أنْ تجتهد لتعرف ما المقصود لأنه، على سبيل المثال، كلمة "تَجَارُب" تنطق بنفس الطريقة التي تنطق بها كلمة "تَقَارُب"، وشتان ما بين المعنيين!!

وهكذا تتعدد الأمثلة، ويختلف الأداء من بلد إلى بلد، بل ومن منطقة إلى أخرى، لينزوي القاف خجولاً ويتيماً في بلاد ظَفَار في عُمَان، وبعض مناطق تهامة وجنوب اليمن وبعض الجيوب في شمال أفريقيا (تونس) وشرقها، ولا سيّما أرض الحباب[٣٤].

وتدعيماً لزعمنا بإختلاف ألسنة العرب منذ القدم، والى اليوم، نشير إلى ما ذكره الإمام الطبري في تفسيره حيث قال: «كانت العرب، وإنْ جمع جميعُها اسمُ أنَّهم عربٌ، فهم مختلفوا الألسن بالبيان، متباينوا المنطق والكلام»[٣٥]. ليس هذا فحسب، بل إنَّ القرآن الكريم، وإنْ نزل بلسان قريشٍ، إلاَّ أنَّه نزل على سبعةِ أحرفٍ، أي استخدم سبع لهجات تعود إلى قبائل عربية مختلفة، هي: قريش (لسان غالبية القرآن)، وهُذَيْل، وهوازن، وتميم، وثقيف، وكنانة، فضلاً عن لغات اليمن

(٣٤) انظر مثلاً كيف ينطق الحباب لكلمة «قِدِيتْ» بمعنى العطر، والفعل «قِتَلُّهْ» أيْ «أقْتُلُهُ»، و«قَدَمْ بَلْ» أي تقدم، و«قِبَرْنِّي» أي أقبُرْنِي، و«قَرْقِفْ» أي هُزْ الشي أو أضربه لتنفض عنه الغبار وما شابهه، وكلمة «قُرُوب» أي قريب، و«قَرَرْكُو» أي أصابني القُّر (البرد)، و«قَرُورَتْ» أي القارورة... إلخ. هذا ويجب أن ننبه الى أن هنالك عدداً قليلاً من الكلمات التى تحتوي على حرف القاف ينطقه الحباب (حالياً) بنفس طريقة نطق القاف في باقي اللهجات العربية الراهنة، وربَّما تكون تلك الكلمات القليلة قد أتت الى لهجتهم مؤخراً مع هجرات عرب الشمال ومنها مثلاً كلمة "دَقَّقْ" بمعنى تدقق في الأمر وتحرى وتريّث فيه، ينطقونها «Daggag» خلافاً لنطقهم السليم للقاف. كذلك كلمة "قِمِش" ينطقها الحباب guimish (بالجيم اليمانية) خلافا لنطقهم للقاف عموما، و"القمش" في اللغة العربية هو الشيء الذي لا قيمة له والرَّدِيءُ من كل شيء، وهو نفس المعنى في لهجة الحباب.

(٣٥) كتاب «جامع البيان في تأويل القرآن» لمؤلفه الإمام: محمد بن جرير الطبري، تحقيق الاستاذ: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م، الجزء الأول، الصفحة ٢١.

السبأ ـ حِمْيَرِيَّة. ونُسِبَ هذا القولُ إلى جماعةٍ من الفقهاء، منهم البيهقي والأبهري. بَيْدَ أنَّ الثابت هو إنَّ اللِّسان العربي الذي تحدث به، وما زال يتحدث به أهل جنوب الجزيرة العربية، هو بلا شك لسان يختلف في كثير من الأوجه عن عموم لسان أهل الشمال، على اختلاف لهجاتهم، وفي ذلك يقول عالم اللُّغة المعروف ابن جني: «وبعد فلسنا نشك في بُعْدِ لغة حِمْيَر ونحوها عن لغة بني نزار»[٣٦].

ويؤكد ابن خلدون اختلاف القوانين والقواعد، التى تحكم لغة أهل شمال الجزيرة العربية، عن تلك التى تحكم لغة أهل جنوب الجزيرة. يقول ابن خلدون متحدثاً عن الخط الحِمْيَرِي الذي يسمى المُسْنَد[٣٧]: «وهو كتابة حِمْيَر وأهل اليمن الأقدمين، وهو يخالف كتابة العرب المتأخرين من مضر كما يخالف لغتهم. وإنْ الكل عربياً إلاَّ أنَّ مَلَكَةَ هؤلاء في اللِّسان والعبارة غير ملكة أولئك. ولكل منهما قوانين كلية مستقرأة من عبارتهم غير قوانين الآخرين. وربما يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة»[٣٨].

وقد صدق ابن خلدون في إقراره بغلط الكثيرين ممن لا يعرفون خصائص لغة حمير، فمن اللَّطائِف في هذا الصدد ما ذكره الإمام جلال الدين السيوطي وغيره من المؤرخين حيث قال: «ورُوِيَ أنَّ زيد بن عبد الله بن دارم وفد على بعض ملوك حِمْيَر

---

(٣٦) راجع كتاب الخصائص لابن جني، الجزء الأول، صفحة ٣٩٥، طبعة ١٩١٣.

(٣٧) «المسند» أو ما يعرف بخط المسند «الحميري» يعنى «الكتابة» في اللُّغة العربية الجنوبية، وقد يرمز اليه أحيانا بلفظ «مزند» بدل «مسند». يقول الدكتور جواد علي: «يظهر أن المسند كان القلم الرئيسي في جزيرة العرب قبل الإسلام، وأن جزيرة العرب كانت تكتب به قبل المسيح». وبهذا الخط «المسند» كتبت نقوش مروي القديمة وحضارة مأرب وسبأ وحمير وأكسوم، وما زال مستخدما حتى الآن في الحبشة وإرتريا، وإن توقف استخدامه في اليمن بعد انتشار الإسلام. ويجب أن ننوه هنا إلى أن المسند «الحميري» ليس له علاقة البتة بخط المسند المعروف الآن بين خطوط حروف اللُّغة العربية المستخدمة في زماننا الحاضر.

(٣٨) راجع «مقدمة ابن خلدون»، وهي الجزء الأول من «تاريخ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر»، مرجع سابق، ص ٢٨٨.

فألْفَاهُ في مُتَصَيَّدٍ له، على جبل مشرف، فسلم عليه وانتسب له، فقال له الملك: «ثبْ» أيْ اجلس[٣٩]، وظن الرجل أنه أُمر بالوثوب من الجبل فقال: ستجدني أيها الملك مِطْوَاعاً! ثُمَّ وَثَبَ من الجبل فهلك، فقال الملك: ما شأنه؟ فخبروه بقصته وغلطه في الكلمة فقال: أمَّا أنَّه ليست عندنا عَرَبِيَتْ [هكذا في المصدر][٤٠]، من دخل ظَفَار حَمَّر»[٤١]، أي فليتعلم الحِمْيَرِيَّة. وفي هذا الصدد يوضح الهَمْدَاني أن لهجات أهل اليمن تتميز بها أسماه «بالتَّحْمِير»، أي أنَّها متأثرة بلغة حِمْيَر، وتبعاً لدرجة هذا التأثير، يصف لهجات بعضهم بأنها غير فصيحة، بل ويصف بعضهم بأنهم «غُتْم»[٤٢] أي رَطَّانَةٌ لا يُفْهَمُ كلامهم، وذلك بالرغم من أنَّ أصل ومنبع اللُّغة العربية، كما هو معلوم، هو هولاء العرب العاربة، أهل اليمن. يقول الهَمْدَاني في كتابه «صفة جزيرة العرب» واصفاً لسان أهل بعض مناطق اليمن: «أهل الشِّحِر والأسْعَاء ليسوا بفُصَحاء، مَهْرةٌ غُتْمٌ، يشاكلون العجم؛ حضرموت ليسوا بفصحاء، وربَّما كان فيهم الفصيح، وأفصحهم كِنْدَة وهَمْدَان، وبعض الصَّدَف؛ سَرْو مَذْحِج ومأرِب وبَيْحَان وحَريب فصحاء، ورديّ اللُّغة منهم قليل؛ سَرْو حِمْيَر وجَعْدَة ليسوا بفصحاء، وفي كلامهم شيء من التَّحْمِير، ويَجُرُّون في كلامهم، ويحذفون فيقولون: يا بن معَمّ، في يا بن العم، وسِمَعْ[٤٣] في أسْمَعْ؛ لَحْجٌ وأبْيَن ودَثِينَة أفصح، والعامريّون من كِنْدَة والأوْدِيّون أفصحهم؛ عدن لغتهم مولّدة رديّة، وفي بعضهم نُوك وحماقة، إلاَّ من تأدَب؛ بنو مَجِيد وبنو واقد والأشْعر لا بأس بلغتهم؛ سافلة المَعَافِر غُتْمٌ، وعاليتها

---

(٣٩) «وثب» يثب وثبا معناها القَفْزُ والطَّفْرُ في لغة مضر (الفصحى)، وأمَّا بالحِمْيَرِيَّة فإن «ثِبْ» معناها "«اجلس»، والوِثَبُ: هو السَّرير والفِرَاش (في لغة حِمْيَر) و«المُوْثَبَانُ» (في لغة حِمْيَر) هو الملك الذي يقعد ويلزم السّرير ولا يغزو.

(٤٠) الحَبَابي إلى اليوم لا يقول «العربية» وإنما «عَرَبَيَتْ» تماماً كما نطقها الملك الحِمْيَري.

(٤١) راجع كتاب «المزهر في علوم اللُّغة وأنواعها» للإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، تحقيق: فؤاد علي منصور، الجزء الأول، الصفحة ٢٠٣.

(٤٢) «غُتْمٌ» جمع مفرده «أغْتَم» وهو الذي لا يفصح في كلامه، و«الغتماء» هي التى لا تفصح.

(٤٣) ما زال الحباب يقولون «سِمَعْ» بدل «اسمع».

أمْثَلُ، والسَّكَاسِك وسط؛ بلد الكَلاع نجدية مثيل، مع عُسْرَةٍ من اللسان الحِمْيَرِي؛ سراتهم فيهم تعقد؛ سخلان وجَيْشَان ووَرَاخ وخَضِر والصُّهَيْب وبَدْر قريب من لغة سَرْو حِمْيَر؛ ويَحْصِب ورُعَيْن أفصح من جُبْلان، وجُبْلان في لغتهم تَعَقُّد؛ حقْل قتاب فإلى ذِمَار الحِمْيَرِيَّة القُحَّة المُتَعَقِّدة؛ سَرَاة مَذْحِج مثل ردمان وقران ونجدها مثل رَدَاع وإسْبِيل وكَوْمَان والحَدَا وقَائِفة ودِقْرَار فُصَحَاء؛ خَوْلان العالية قريب من ذلك، سحمّر وقرد والجبلة وملح ولحج وحَمْض وعُتْمَة ووَتَيح وسِمْح وأنس وألْهَان وسَطٌ، وإلى اللُّكْنَةِ أقرب؛ حَرَاز والأخْرُوج وشمّ وماضِح والأحْبُوب والحَجَادِب وشَرَف أقْيَان والطَّرف وواضِع والمَعْلَل خلَّيطي من متوسط بين الفصاحة واللكنة، وبينها ما هو أدخل في الحمِيْرِيَّة المتعقدة، لا سيما الحضُورِية من هذه القبائل؛ بلد الأشعر وبلد عَكّ وحَكَم بن سعد، من بطن تِهَامَة وحوازها، لا بأس بلغتهم إلا من سكن منهم القرى؛ هَمْدَان من كان في سراتها من حَشِد خلّيطي من فصيح مثل عُذَر وهِنْوَم وحَجُور، وغُتْم مثل بعض قُدَم وبعض الجَبَر»[٤٤].

ثم يشير الهَمْدَاني إلى لهجاتٍ مركبةٍ من لغة حِمْيَر والعربية الفصحى فيقول: «بلد وَادعَة بنو حَرْبٍ أهل إمالةٍ في جميع كلامهم، وبنو سَعْد أفصح، من ذِمَار إلى صَنْعَاء متوسط، وهو بلد ذي جُرة؛ صَنْعَاء في أهلها بقايا من العربية المحضة، ونُبَذٌ من كلام حِمْيَر، ومدينة صَنْعَاء مختلفة اللغات واللهجات، لكل بقعةٍ منها لغة، ومن يُصاقب شَعُوب يخالف الجميع، شَبام أقْيَان والمَصَانِع وتُخْلَى حِمْيَرِية مَحْضَةٌ، خَوْلان صَعْدَة: نجديُّها فصحاء، وأهل قَدّها وغورها غُتْمٌ، ثُمَّ الفصاحة من العِرْض في وَادعَة فجَنْب، فيَام، فزُبَيْد، فبني الحارث، فما اتصل ببلد شاكر من نجران إلى أرض يِام، فأرض سنْحان، فأرض نَهْد وبني أسامة، فعَنْز فخَثْعَم فهِلال فعامر بن ربيعة، فسَرَاة الحجْر، فدَوْس فغامد فيَشْكُر ففَهْم فثقيف فبَجِيلة، فبنو عليّ، غير أنّ أسافل سروات هذه القبائل ما بين سَرَاة خَوْلان والطائف دون أعاليها في الفصاحة، وأمّا

---

(٤٤) «صفة جزيرة العرب» لمؤلفه: أبو محمد «الحسن» بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني، طبعة قديمة في ليدن (هولندا) سنه ١٨٨٢م، صفحة ١٣٤-١٣٥.

العروض ففيها الفصاحة، ما خلا قراها، وكذلك الحجاز فنجد السفلى فإلى الشام وإلى ديار مضر وديار ربيعة فيها الفصاحة، إلا في قراها، فهذه لغات الجزيرة على الجملة دون التبعيض والتَّفنين»(٤٥).

وبالإضافة إلى ما ذكرنا، فإنَّ لسان أهل اليمن، كان وما زال، يتميَّزُ بأداء خاص للغة العربية. ومن أهم مظاهر الإختلاف التى نلحظها إلى اليوم، بين لسان أهل اليمن «Yamani Accent»، وامتداداتهم في شرق وشمال أفريقيا، وبين باقي اللهجات العربية السائدة في أجزاء أخرى من الوطن العربي، (وخاصةً شمال ووسط السعودية، وبعض دول الخليج ومصر والعراق والشام وعرب السودان الشمالي) تتمثل في اختلاف التركيز «Stress» على نطق الكلمة أثناء الكلام، حيث يكون الضَّغْط عند أهل اليمن (ومن نحا نحوهم في عُمان وشرق وشمال أفريقيا)(٤٦) على آخر الكلمة. وفي إشارة إلى مطٍّ آخر الكلمة يقول الهَمْدَاني في

(٤٥) نفس المرجع، ص ١٣٦.

(٤٦) ما زال تأثير اللسان اليمني ملحوظا في لهجات شمال أفريقيا وذلك لكون قبائل اليمن كانت تمثل القطاع الأكبر من جيوش الفتح الإسلامية التى وصلت إلى المغرب. وبالرغم من تأثر لهجات العرب في تلك الجهات باللُّغة الفرنسية بدرجة كبيرة، إلاَّ أن المراقب يلاحظ المط والمد الذي يحدث في أواخر الكلمات خاصة في لهجات بعض القبائل في تونس والجزئر والمغرب وموريتانيا. وقد سبق أن أشرنا إلى علاقة اللهجة الحسانية في تلك الجهات التى تأثرت بلهجة حمير. ومن المصادفات الجميلة أنه، وأثناء وضع اللمسات الأخيرة لهذا البحث، حدثت ثورة تونس وشاهد الناس على شاشة قناة الجزيرة ذلك الشاب الذي غمرته الفرحة بانتصار الثورة وهروب زين العابدين بن علي، واستبدت به زهوة الانتصار، فوقف في قارعة الطريق ملوحا بيَدَيْه وهو يردد: «تحيا تونس الحرة . . المجد للشهداء . . الحرية للتوانسة . . . بين عالي هاراب، بين عالي هاراب». وما يهمنا هنا هو طريقة نطق عبارة «ابن علي هرب»، اسمع كيف يمط «ابن» إلى «بين» و«علي» إلى «عاليي» و«هرب» إلى «هاراب»، وذلك بالتركيز على الحروف الأخيرة، وهذا إسلوب شائع في المغرب العربي من تونس حتى موريتانيا حيث ما زالت لهجتهم تحتفظ ببعض من الارتباط الحميري خاصةً وأنَّ الجزء الأعظم من قبائلهم تعود إلى اليمن كما نوهنا في موضع آخر. وهذا المطُّ والجرّ هو الذي كان يشير اليه الهَمْدَاني من

وصفه للهجات أهل اليمن: إن أهل صَعْدَة وبلد سفيان بن أرحب يقولون: «قِيدْ بَعِيرَاك ورأيت أخَواك»[٤٧]. ومن جانب آخر، نَلْحُظ عند الحباب وسلطنة عمان وأهل اليمن عموما (باستثناء المناطق الشمالية وبعض المناطق في الوسط والشرق) النطق السليم لحرف القاف، مع احتفاظ هولاء جميعا بنطق حرف «الجيم» بطريقتهم الخاصة (الطريقة السَّبَئِية ـ الحِمْيَرِيَّة)، إذْ ما يزال «الجيم» عندهم ينطق، إلى يومنا هذا، بنفس الطريقة التى ينطق بها حرف «g» في اللُّغة الإنجليزية، أو ما يعرف بالجيم «القاهرية» عند البعض، نسبةً لأهل القاهرة في مصر[٤٨]. كما تتميز لهجات القبائل اليمنية، باستثناء سكان شمال اليمن، بقلقلة القاف[٤٩]، وترقيق حرفي «الرَّاء» و«اللاَّم». استمع مثلاً لنطق الحباب لكلمة «مرير» - من المرارة - على وزن فعيل بمعنى «مسيخ أو غير طاعم» فإن الراء تنطق لديهم رقيقة خفيفة في حين أنَّ المستعربين عموماً نجدهم يفخِّمون حرف «الراء»، بحيث يوضع طرف السان في موضع متأخر عن موضعه الطبيعي في الحنك، فيأتي نطق «الرَّاء» غليظاً بدل أنْ يكون رقيقاً إذا نطق بوضع طرف اللسان على الحنك العلوي قريبا من الثنتين والرباعية. كذلك لاحظ نطق كلمة «مَرَّة» تجد «الرَّاء» عند المستعربين تأتي مفخمةً

خصوصية لهجة الحميريين في اليمن وقوله إنهم «يَجُرُّون في كلامهم»، مثل قولهم «قيد بعيراك» بدل «قيد بعيرك».

(٤٧) «صفة جزيرة العرب»، مرجع سابق، ص ١٣٥.

(٤٨) يقال أن سبب شيوعها في اللهجة القاهرية هو أن غالبية جيش عَمْرُو بن العاص، عندما فتح مصر، كانت من قبائل اليمن وأن من استوطن فيها من العرب بعد ذلك، حتى منتصف القرن الخامس الهجري، كانت غالبيتهم من أهل اليمن. لمعرفة المزيد في هذا الشأن راجع كتاب: «البيان والإعراب عمَّا بأرض مصر من الأعراب» تأليف: أحمد بن عليّ المقريزي، تحقيق: إبراهيم رمزي، طبعة ١٩١٦، مطبعة المعارف، مصر.

(٤٩) مثلا لاحظ نطق الحَبَاب للقاف في الكلمات التى تحتوي على هذا الحرف مثل كلمة «لَقَّطْ» بمعنى خذ من الأرض و «قِبِّب» بكسر القاف والباء الأولى بمعنى التحقير والازدراء. كذلك لاحظ نطق القاف في المثل الشائع لديهم «رفعيت القلم ترفعك». كذلك لاحظ نطقهم للقاف في «قتل» و«قمل» و«قطَّان» و«قُرُوب» و«قدم بل» وهكذا. كذلك لاحظ نطقهم لحرف الراء في كلمات مثل «مرق ـ الحساء»، «الرحمن»، «ربي»، «قرورة»، «مرَّة» وغيرها تجد الراء مرققة.

مجلجلةً، لها صدى من داخل الفم، رغم أنَّ حرف الرَّاء ليس من حروف الاستعلاء التي يتوجب تفخيمها. أمَّا أهل اليمن فما زالوا يرققون الرَّاء في كلمة «مَرَّة» ونحوها، وهو الأصل في كل حروف «الاستفال» التي يجب أن ترقق، ومنها «الرَّاء» كما يقول علماء التجويد. كذلك الحال عند غير أهل اليمن بالنسبة لحرف اللاَّم، حيث ينطقونه غليظاً مُشَدَّداً.

لكن الاختلاف بين لهجة أهل الجنوب وأهل الشمال لا ينحصر فقط في طريقة نطق الحروف، والأداء الصَّوتي للكلمة، وإنَّما يمتد إلى طريقة تركيب الجملة. فقد كان الحِمْيَرِيُّون، منذ قديم الزمان، يقلبون (تَاءَ) الفاعل وضمير المخاطب (كافاً)، وظلت بعض اللَّهجات على ذلك المنوال، حتى بعد اختلاط القبائل بسبب الفتوحات الإسلامية. ومثال ذلك ما رواه «عبد القادر» البغدادي في كتابه: «خزانة الأدب»، عن الراجز الحِمْيَري في جيش الحجاج بن يوسف الثقفي، يخاطب عبد الله ابن الزبير في مَكَّةَ:

يا ابْنَ الزُّبَيْرِ طالَمَا عَصَيْكَا
وطالَمَا عَنَيْكَنَا إلَيْكَا
لَتُجْزَيَنَّ بالَّذِي أَتَيْكَا
ونَضْرِبَنْ بسَيْفِنَا قَفِيكَا

وأورد ابن منظور في «لسان العرب» هذا الرَّجْز الحِمْيَرِي بعد أنْ قال: «ومن العرب من يجعل التَّاء كَافاً»[٥٠]. كذلك نشير إلى ما رواه الكسائي عن قول أحد رجال اليمن: (رَكَضْكَ) يقصد (رَكَضْتَ)، وما رواه أبو حاتم السجستاني، حيث ذكر أنَّ أحد رجال اليمن قال: (سُؤْكَ ظنّاً)، ويعني بذلك سُؤْتَ ظنّاً. وتعليقاً على

(٥٠) أنظر الصفحة رقم ٣٦٤ من الجزء ١٥ من قاموس «لسان العرب» لمؤلفه: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

هذه اللُّغة، ورد في كتاب: «شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك»، أنَّ من الشائع والمطرد إبدال الكاف من تاء الضمير، كقول الراجز: «يا ابن الزبير طالما عَصَيْكَا». ويحكى أن الشاعر «سحيم» عبد بني الحسحاس كان إذا أُنشِدَ شعراً حسناً، قال: «أحْسَنْكَ والله»، يريد أحْسَنْتَ والله، وهو كثير، ومن أجود شعره قوله:

كأنّ الثُّريَّا عُـلِّقـتْ فوقَ نَحْرِهَا — وجَمْـرَ غضًى هبَّتْ لهُ الرِّيحُ ذاكِيا
إذا اندَفَعَتْ في رِيطَةٍ وخَمِيصَةٍ — ولاثَـتْ بأعْـلَى الرأسِ بَـرداً يمَانِيا
تُـرِيكَ غداةَ البَيْنِ كـفَّـاً ومِعْصَمَاً — ووجْـهاً كـديـنـارِ الأعــزَّةِ صـافـيا

إنَّني قد وقفتُ على كثيرٍ من المحاولات التى قام بها البعض، لإثبات أنَّ «التَّجْري» هي لهجةٌ عربيةٌ، ومن ذلك بعض المقارنات السَّاذجة بين مسميات أعضاء الجسد في اللُّغة العربية ونظيراتها في «التَّجْري»، ليدللوا على عروبة «التَّجْري»، فيقولون مثلاً: «عَيْنٌ» يقابلها «عِنْ» المخففة في لهجة التَّجْري و«أُذُنٌ» يقابلها «إذِنْ» و«أنْفٌ» يقابلها «آنِفْ»، و«يَدٌ» يقابلها «إيدي»، وهكذا.

وأنا أقول إنَّ هذه محاولاتٌ في نظري سطحيةٌ وغير علمية، لكونها لم تتطرق إلى تراكيب لهجة «التَّجْري» وبنائها اللغوي «Structure»، بما في ذلك إصول الكلمات واشتقاقاتها، وما طرأ على بعض الألفاظ من تحور عبر الحقب وقواعد الأداء اللفظي للدلالة على الأسماء والأفعال وترتيب الكلمات في الجملة الواحدة، وكيفية التأنيث والتذكير والتعبير بصيغة الفرد وصيغة الجموع، وإلْحَاق الصِّفةِ بالموصوف، ونظم الشِّعْر مع التزام القافية والرَّوي، وطريقة الأداء الصَّوتي، وغير ذلك من أدوات التعبير باللُّغة، ابتداءً بأصغر كلمة لها معنى «phoneme» ثُمَّ الجملة المفيدة «Morpheme» ثُمَّ القواعد التي تحكم ترتيب الكلمات «Syntax» وحتى ينتهي الوضع الى تكوين نص مترابط المعنى «Context». والحقيقة هي إنَّ مجرد دخول كلماتٍ عربية في لغةٍ ما، لا يجعلها لغةً عربيةً مهما كثرت المفردات العربية المستخدمة في تلك اللُّغة، وإلاَّ فإنَّ اللُّغة «السَّوَاحْلِية» المنتشرة في شرق أفريقيا، لاسيَّما كينيا وتنزانيا، ويتحدث بها بعض العُمَانِيين، وكذلك لغة «الأورْدُو»، المنتشرة في باكستان

والهند، واللُّغة الفارسية والتركية والكردية، لأصبحت جميعها بهذا القياس لغاتٍ عربيةً، لكثرةٍ ما فيها من مفردات عربية. ولكن كافة تلك اللُّغات ظلت بعيدةً كل البعد عن اللُّغة العربية، لكونها احتفظت ببنائها اللُّغوي وأدوات تعبيرها، وصِيَّغِها، وقواعدها الخاصة، فضلاً عن أعجمية مفرداتها.

وإذا حصرنا البحث في محيطنا الجغرافي والإقليمي، نقول: إنَّه ليس بالأمر العسير تحديد ما إذا كانت لغة من اللغات الكثيرة التى من حولنا، هي لغة عربية أم أفريقية. فهنالك إختبارٌ أوليٌّ بسيطٌ، يمكن أنْ يقوم به أيُّ شخصٍ لمعرفة ما إذا كانت لغةٌ أو لهجةٌ معينةٌ تَمُتُّ إلى العربية بصلةٍ أمْ لا، وهو أنْ يُلاحَظَ فقط نطق أهلِ تلك اللُّغة لحرفي «الحاء» و«العين». فإذا كان الحاء والعين من ضمن حروف تلك اللُّغة، فإنَّ هذه، كما نقول في القانون، قرينة أولية Prima facie evidence - ولا نقول دليلاً قاطعاً - على أنَّ تلك اللُّغة يمكن أن تكون ذات صلة باللُّغة العربية أو متأثرةً بها. أمَّا إذا كان نطق «الحاء» في تلك تلك اللُّغة يقلب إلى «هاء»، ونطق «العين» يقلب إلى «ألف»، فهذا دليل أوليٌّ على أن تلك اللُّغة هي من اللغات الأفريقية، وربما لا تَمُتُّ بصلةٍ إلى لغة العرب أو لغات الساميين عموماً.

أصل اللهجة الحبابية:

إنَّ كثيراً من الباحثين، ومنهم جواد عَلِيّ (ومن قبله المؤرخ الروماني بليني Pliny)، يرى أن لغة الأحباش يعود أصلها إلى لغة «الجَعِيز Geez»[٥١] أو «الأجاعزيان»،

(٥١) لمعرفة المزيد عن هذه اللُّغة يمكن الاطلاع على المراجع التالية:

- Dillmann, August. 1899. Ethiopic Grammar, 2nd ed., edited by Carl Bezold and translated by James A. Crichton. London: Williams and Norgate [reprinted 1974, Amsterdam: Philo Press].
- Lambdin, Thomas O. 1978. Introduction to Classical Ethiopic (Harvard Semitic Studies 24). Cambridge, MA: Scholars Press [reprinted 2006. Winona Lake, IN: Eisenbrauns.]
- Leslau, Wolf. 1989. Concise Dictionary of Ge‘ez (Classical Ethiopic). Wiesbaden: Harrassowitz.

وهم قومٌ من عرب الجنوب، كانت منازلهم تقع بالقرب من ميناء «عدن»، وهاجروا في وقتٍ مبكرٍ إلى السواحل الأفريقية (أو ما كان يعرف بالحبشة – برّ الحبش)، وكونوا هنالك مملكة، وفرضوا لغتهم في الحبشة. وإلى لغة الجَعِيز هذه يُرْجِعُ كثيرٌ من النَّاس، أصل لهجة «التَّجْري». ونحن هنا نؤكد أنَّ كلمة «جَعِيز geez» ما تزال مستخدمةً في اللَّهْجَة الحَبَابية، وتعني «الرحيل» أو «السفر»، من الفعل «جَعَزَ» بمعنى «سافر»، والمصدر «جَعِيز» (بالجيم اليمانية). ويطلق على المسافر الواحد «جَعَاز» مخففةً من «جَعَّاز» على وزن «فَعَّال»، ويطلق على جَمْعِ المسافرين لفظ «جَعَازْيَام»، وهي صيغة جَمْعٍ حِمْيَرِيةٍ معروفة.

بَيْدَ أنَّ القول بأنَّ لهجة «التَّجْري» تعود إلى لهجة «الجَعِيزِيين» أو المهاجرين، يحتاج إلى دليلٍ وتوضيحٍ. وفي سبيل ذلك، اتصلت ذات مرة بالأستاذ/ أحمد حسين شرف الدين، مؤلف كتاب «اليمن عبر التاريخ»، وسألته عن معرفته بلهجة «الجَعِيزِيين»، فلم أجد إجابةً شافيةً، غير الإشارة إلى أنَّها اللُّغة المستخدمة في نواحي الحبشة!! هذا وقد نما إلى علمي أنَّ من يعرف لهجة «التَّجْري»، يستطيع فهم التراتيل والقراءات الدينية المستخدمة في الكنائس الحبشية ـ القبطية، لاسِيَّما في الصلوات التى تقام على الموتى، حيث أنَّ لغة التَّعَبُّد في الكنائس الحبشية هي، إلى الآن، اللُّغة الجَعِيزِيَّة (التى لا يفهمها الأحباش، ولا يتكلمونها الآن)، وذلك منذ اعتمادها لغة للكنيسة القبطية في عهد دولة أكسوم، حيث تم ترجمة الإنجيل إلى اللُّغة الجَعِيزِيَّة «geez»، في الفترة ما بين القرن الثالث والرابع الميلادي.

ليس هذا فحسب، بل إنَّ من يعرف لهجة التَّجْري، يمكنه، ربَّما بشَيْءٍ من التَّركيز والعناء، فهم نصوصِ اللُّغة الحِمْيَرِيَّة، التى كتبت بها النقوش في مأرب، وبقية أنحاء

- Leslau, Wolf. 1987. Comparative Dictionary of Ge‘ez. Wiesbaden: Harrassowitz.

اليمن. ذلك لأنه وطبقاً لبعض الدراسات المحايدة(٥٢) تُعَدُّ لهجة التِّجْري «Tigre» أقرب اللَّهجات السامية للغة الجَعِيز «geez» الحِمْيَرِيَّة، ويليها قرباً إلى لغة الجَعِيز اللَّهْجَة التِّجْرِينِيَّة «Tigrinya»، التى يتحدث بها الآن سكان مرتفعات إرتريا، وبلاد التِّجْرَايْ في شمال إثيوبيا. ومن المعروف أنَّ اللُّغة العربية، قبل ظهور وانتشار الإسلام، كانت تنحصر في وسط وجنوب جزيرة العرب، وأنَّ المنطقة الوحيدة ـ خارج جزيرة العرب ـ التي كانت تتحدث بالعربية قبل انتشار الإسلام هي منطقة شرق أفريقيا، أو الحبشة كما تعرف في المراجع التاريخية. فقد كان جزء كبير من العراق الحالي يتحدث بالآشورية والآرامية، وأمَّا مناطق الشام فكانت تتحدث اليونانية أو الآرامية، والمناطق المتاخمة لإيران كانت تتحدث بالفارسية، أما مصر فقد كانت تتحدث بالقبطية أو اليونانية، والسودان الحالي كانت تسوده اللُّغة النوبية في وسطه وشماله ولغة البُجَة في شرقه. وأما مناطق شمال أفريقيا فكانت تتحدث باللُّغة البربرية/ الأمازيغية أو اليونانية أو اللاتينية.

إذَنْ؛ نحن نتحدث عن منطقة سادت فيها اللُّغة العربية، منذ أمدٍ بعيد بلسان عرب الجنوب، وعلى وجه التحديد بلسان القوم الذين عرفوا بالجَعِيز أو ألأجَاعِزْيَان. وفي إطار بحثي عن مدى إرتباط وتأثر لهجة الحَبَاب ـ التِّجْري ـ بلغة الجَعِيز، اطلعت على كتاب (باللُّغة الإنجليزية) هو:

«An Introduction to Ethiopic Christian Literature»(53)

تحدث صاحب هذا الكتاب عن هجرة مجموعتين ساميَّتين من جنوب الجزيرة العربية (اليمن) إلى الحبشة (شرق أفريقيا)، في الفترة التى سبقت ميلاد المسيح عليه

(٥٢) راجع كتاب: «المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور: جواد علي، مرجع سابق، وكذلك راجع المراجع الأجنبية التى أشرنا اليها في الفقرة السابقة من الهامش.

(53) See: «An Introduction to Ethiopic Christian Literature» By J. M. Harden, D.D., LL. D. Canon of St. Patrick's, Dublin, [1871-1931], London, Society for Promoting Christian Knowledge, New York and Toronto: The Macmillan Co., 1926.

السلام، مبيناً أنَّ باب المندب كان المعبر، وأنَّ الهجرة لم تتم دفعةً واحدةً، وإنَّما كانت على فتراتٍ متقطعة. وذكر أنَّ المجموعتين هما: مجموعة الجَعِيزِيِّين(٥٤) («geez» or «ge'ez»)، التي استقرت بالقرب من أكسوم من الناحية الشمالية (جهة إرتريا حالياً)، ومجموعة أجداد الأمْحَرَا(٥٥)، والذين استقروا حول بحيرة تانا:

«Ethiopic Church Literature is much more concerned with a second and much later immigration. This was of Semitic tribes who crossed over from South Arabia, probably by the straits of Bab-el-Mandeb. They did not come all at once, but at different dates. Of the tribes who came two chief groups are to be distinguished, the Geez, who settled more to the north in the neighbourhood of Axum, and the ancestors of the Amhara, whose settlements were further south on the east and south-east of Lake Tsana. It is not known at what date these settlements were made, but it must have been before the Christian era».(56)

إلاّ أنَّ أكثر ما يعنينا في هذا الكتاب، هو أنَّ مؤلفه أكد بالقطع، انقراض لغة الجِعِيز موضحاً أنَّ التحدث بها ربما توقف منذ القرن العاشر الميلادي(٥٧):

(٥٤) نظراً لعدم وجود حرف العين في لغاتهم يكتبها الأوروبيّون «ge'ez» أو «geez»، وللأسف فإن كثيراً من الناس يجارون نطق كلمة «ge'ez» فيكتبونها «جِيْز»، وهذا أصبح خطأً شائعاً، والأصح هو أنْ تُكْتب «جَعِيز» (والجيم دائماً يمانية).

(٥٥) يكتبها البعض «أمْهَرَا» وهو خطأ.

(56) J. M. Harden, op cit, p 1.

(٥٧) كان التَّعَبُّدَ في كنائس وأدْيِرَةِ الدولة الأكسومية يتم فقط باللُّغة الجَعِيزية، وقد بلغني أن التَّعَبُّدَ في كنائس وأدْيِرَةِ الحبشة ما زال الى اليوم يتم باللُّغة الجَعِيزية، حتى بالنسبة للذين لا يجيدونها. وكانت «لغة الجَعِيز Ge'ez» هي اللُّغة الرسمية للكنيسة في دولة أكسوم ولذلك فإن كافة المراجع الدينية القديمة في الحبشة قد سُطِّرَتْ بهذه اللُّغة، ومنها المرجع الأساسي لأكسوم المسمى "عظمة الملوك" (The Kebra Nagast أو Kebra Negast) . وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في الصفحة ٩٦ من الجزء الثاني من كتابه القيم (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية): «أما في إثيوبيا، فقد تأثرت اليهودية هناك بكل من الإسلام والمسيحية، فيهود الفلاشاه يخلعون نعالهم ويصلون في مسجد، ولكنهم يتلون صلواتهم بالجَعِيزية، لغة الكنيسة القبطية». لقد ذكرني هذا الوضع بحال يهود اليمن؛ فهم يتحدثون فيما

«The Geez language is not now spoken. It is quite unknown when it ceased to be used as the language of daily life. Possibly it was about the tenth century. It continued in use, in a more or less debased form, for several centuries longer as a literary language. At present it is used merely as the ecclesiastical language, and is, it is said, unintelligible even to many of the priests».(58)

وخلص المؤلف إلى أنَّ لغة الجَعِيز أخذت شكلاً جديداً وحديثاً، في هيئة لغتين ولدتا من رحمها هما: لهجة التِّجْري (اللَّهْجَة الحَبَابية) ولهجة التِّجْرِينْيَا (لسان أهل مرتفعات إرتريا ومنطقة التِّجْرَايْ، التى بها أكسوم في شمال شرق إثيوبيا):

«The Geez language has, however, its modern representatives in daughter or kindred languages. Two, which may be described as daughter languages of Geez, are still spoken in the north of the country, including the Dahlak Islands in the Red Sea. Of these two languages or dialects, the first is known as Tigre, the second as Tigray or Tigrina»(59).

مهما يكن من أمر فإنني، ولعدم معرفتي بأساليب وقواعد لغة الجَعِيزِيِّين، لا أستطيع أنْ أنفي أو أصادق على صحة القول بأن لهجة الحَبَاب تعود إلى لغة الجَعِيزِيِّين، ولكنني أستطيع أن أوكد أنَّ التراكيب والصيغ والقواعد والمفردات، التى تستخدم في لهجة التِّجْري هي أقرب ماتكون لبعض اللهجات السائدة إلى اليوم في بعض مناطق اليمن وعُمَان، وخاصة منطقة الشِّحِر(٦٠)، وظَفَار، وإبْ، والمخلاف، ومنطقة الكَلاع، ومنطقة رازح الواقعة في صَعْدَة، حيث ما يزال السكان يقلبون (تاء) الفاعل وضمير المخاطب (كافاً) فيقول الشخص، على سبيل المثال: «ما سَمَعْكُو» بدلاً من «ما سمعتُ» و«ما كَتَبْكَا؟» بدلاً من «ماذا كتبت؟»، وهذا بالضَّبْط أحد معالم لهجة الحَبَاب، وما يميزها عن اللهجات العربية الأخري السائدة حالياً

بينهم ومع غيرهم من المجتمع باللغة العربية، ولكنهم الى اليوم يتلون صلواتهم في معابدهم باللغة العبرية، بما في ذلك الذين لا يجيدون التحدث بها.

(58) J. M. Harden , op cit, p 1.

(59) Ibid, p 5.

(٦٠) «الشِّحِر» الآن هي إحدى كبريات مدن حضرموت، وكان مسمى «الشِّحِر» يطلق في الماضي على المنطقة السَّاحِلية الواقعة بين عُمَان وكافة ساحل حضرموت.

(باستثناء بعض لهجات أهل اليمن، كما ذكرنا)، حيث يتم قلب (تاء) الفاعل وضمير المخاطب (كافاً)، كما بينا في الأمثلة السابقة، وكما أشرنا إلى ذلك في معرض حديثنا عن لغة الحِمْيَرِيين منذ قديم الزمان، والذين كانوا يقلبون (تاء) الفاعل وضمير المخاطب (كافاً) وهذا ما ظلت عليه قبائل كثيرة حتى يومنا هذا.

علاقة الحَباب بسبأ وحمير:

قوم سبأ أو السَّبَئِيّون هم نسل عبد شمس (ويقال له «عامر» ويلقب بـ «سبأ» لأنه أول من ابتدع السبيَّ في الحروب) بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ويقول المؤرخون إن سبأ هو أبُ القبائل القحطانية الكبرى التى تناسلت من إبنيه حمير وكهلان، وهي:

(١) قبائل حِمْيَر بن سبأ، التى منها بَلِيٌّ وجهينة[٦١]، وكلاهما من قضاعة، وأقربائهم من قبائل حَضْرَموت الذين هم أبْنَاء حِمْيَر الأصْغَر، فضلاً عن كَلْب وبَهْراء وعُذْرة ونَهْد وجَرْم ومَهْرَة، وغالبية قبائل حمير ظلت في اليمن.

(٢) قبائل كهلان بن سبأ التى منها مجموعة يغلب وجودها في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية مثل هَمْدَان وكِنْدَة ومَذْحِج (وتشمل مالك وطيء ومرة) والأشعر[٦٢] والأزد (وهم أقسام كثيرة منها: أزد شنوءة وأزد السَّرَاة وأزد عُمَان، فضلا عن خزاعة والأوس والخزرج)، وأنمار (بقسميها: بجيلة وخثعم)، ومنها مجموعة أخرى يغلب وجودها في المناطق الشمالية للجزيرة العربية مثل عَامِلةُ وجذام ولخم وغسان.

---

(٦١) هم وقبيلة بَلِيّ أبناء عمومة حيث أن البليين هم نسل بَلِيّ (بفتح الباء وكسر اللام وتشديد الياء) بن عمرو بن الحافي بن قضاعة الحميري بينما جهينة هم نسل جهينة ابن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة الذي هو جد كل من كَلْب وبَهْراء وخولان وتنوخ ونَهْد ومَهْره وجَرْم بالاضافة إلى جُهينة وبَلِيّ.

(٦٢) هنالك اختلاف بين المؤرخين فيما يتعلق بالأشعريين، فالبعض نسبهم إلى كهلان "الأشعر بن أدَد بن زيد بن كهلان بن سبأ"، وآخرون قالوا إنَّ «الأشعر» هو أحد أبناء "سبأ" مباشرة.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن هنالك خلاف بشأن نسب «قضاعة»، فبعضهم ينسبه إلى العرب العدنانيين، ولكن الأغلبية تَنْسِبُ قضاعة إلى حِمْيَر «العَرَنْجَجِ»، وفي ذلك قال السهيلي: «والصحيح إنَّ أمّ قُضَاعَة (وهي جكرة) مات عنها مالكُ بن حمير وهي حامل، فتزوجها مَعَدّ بن عَدْنَان، فولدت قُضَاعَةَ على فراشه فتبنَّاه فنسب اليه. قال المؤيد: وكان قُضَاعَةُ مالكاً لبلاد الشِّحْرِ وقبره بجبل الشِّحْر موجود»[٦٣]. ومن قضاعة جاءت قبائل جسيمة منها بَلِيّ (البَلِيّون أو ما يعرف عندنا بـ "البلو"، وجُهَيْنَة وهما القبيلتنان اللتان لهما وجود مؤثر، منذ عهد قديم، في المنطقة التى يتناولها هذا البحث. ونحن نعلم أن شعوب منطقتنا هم خليط ناتج في الأساس من نسل كل قبائل سبأ، سواء كانت حِمْيَر أو كهلان، ولكننا نركز في كثير من الأحيان على حِمْيَر، لأنَّه كان منهم ملوك اليمن وأقْيَالُها[٦٤] وأذواؤها لفترة طويلة، وهم أكثر القحطانيين شهرة، وأكبرهم أثراً في الآخرين. ولنا سبب آخر يجعلنا نركز على حِمْيَر وهو أن المؤرخين أشاروا إلى وجود قبائل حميرية منذ القدم (قبل الميلاد) في المنطقة التى نحن بصددها ومن ذلك قبائل الجَعِيزيين والبلو.

ثم ليعلم القارئ إنَّني في هذا البحث لا أدَّعِي القطع أو الحسم بأن الحَبَاب الموجودين حالياً هم سَبَئِيُّون أو حِمْيَرِيُّون بالكامل، فهذا ما لا يعقل خاصةً وأنَّ المنطقة (كما قال الكونت روسيني من قبل) تمثل بحقٍ "متحفاً للشعوب" وخاصة شعوب الجزيرة العربية، من عرب بائدة وعاربة ومستعربة، حيث لم تنقطع الهجرة اليها منذ فجر التاريخ والى الآن، ولم تقتصر تلك الهجرة على طائفة بعينها. ويشير المؤرخون إلى الموجات البشرية المتعاقبة التى كانت تنتقل منذ القدم من اليمن إلى

---

(٦٣) «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» « لمؤلفه: أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، طبعة ١٩٢٢م، دار الكتب المصرية، صفحة ٣١٥-٣١٦ من الجزء الأول.

(٦٤) مفردها «قَيْل» بمعنى السيد والزعيم والكبير، وهو لقبٌ كان يطلق على رؤساء حِمْيَر وأكابرها الذين هم دون الملك الأعظم، ومنهم: القيل «ذو أصبح» جدُّ الأصابح، والقيل «ذو رُعَيْن» جدُّ يافع، والقيل «ذو يَزَن» جدُّ العوالق، وهكذا.

المنطقة التى نحن بصددها، واختلطوا بالشعوب الحامية التى وجدوها هنالك. وسبق أنْ أشرنا إلى نزوح قبائل الجَعِيز (وليس الجِيْز) قبل ألفين وخمسِ مِائَة[٦٥] عام على الأقل، من جنوب اليمن إلى سواحل شرق أفريقيا، حيث لعبوا دورا مهما منذ القرن الخامس قبل الميلاد في إعطاء هذه المنطقة سحنتها السامية وثقافتها العربية. ومن ذلك ما ذكره أحد المؤرخين اليونانيين (مجهول الاسم) في كتاب بعنوان: «الطواف حول البحر الأحمر Periplus of the Erythraean Sea»، وهو كتاب يعتقد أنَّه أُلِف في القرن الأول الميلادي (أي قبل ألفي عامٍ تقريباً)، حيث أشار إلى أنَّ السفن كانت تسافر بانتظام من حِمْيَر إلى سواحل شرق أفريقيا. ولم ينقطع هذا الحراك بين جانبي البحر بل اشتد بتعاقب السنين وتوالي الفتوحات. ومما شجع الانتقال المستمر من جزيرة العرب إلى برِّ الحبش طلبُ الرزق واستحسانُ الهجرة من قبل الدين الجديد الذي انتظم الجزيرة العربية، وفوق هذا وذاك استمرار القتال لمدة تزيد على مائة عام بين الأمويين ومن ناوءهم من الأشراف وأتباعهم حتى إنَّ جيش الأمويين استباح المدينة المنورة، رغم قدسيتها وفعل الأفاعيل بالصحابة وأبنائهم، واغتصب الحرائر حسبما يروي ابن كثير حيث ذكر، على لسان المدائني، أنَّ مسلم بن عقبة، الذي كان يقود جيش يزيد بن معاوية، قد احتل المدينة بعد موقعة الحَرَّة عام ثلاثة وستين للهجرة، وقتل مايزيد على عشرة آلاف، فيهم سبع مائة من وجوه النَّاس من المهاجرين والأنصار، وأباح عقبة وجيشه المدينة لمدة «ثلاثة أيام، يقتلون مَنْ وجدوا من النَّاس، ويأخذون الأموال». ثُمَّ يقول: «ووقعوا على النساء حتى قيل إنَّه حَبِلَتْ أَلْفُ إمرأةٍ في تلك الأيام من غير زوج»[٦٦].

---

(٦٥) رغم أن البعض يكتبها «خمسمئة» إلاَّ أننا آثرنا أن نكتبها «خمس مائة» كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾، الآية (٢٥) من سورة الكهف.

(٦٦) راجع كتاب: «البداية والنهاية» لإبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق الدكتور: عبد الله عبد المحسن التركي، الناشر: هجر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م، الجزء الحادي عشر، صفحة ٦٢١.

ثم دالت دولة المظالم الأموية، وجاء العباسيّون ليَقِدُوا ناراً على العلويين أنكى وأمرّ، وليُقْتَل الطالبيّون والأمويّون معاً، طوال العصر العباسي. هذا فضلاً عن اشتداد القحط وانتشار قطّاع الطُّرق في الحجاز، من وقت لآخر. كل هذا الحراك الجهنمي المستمر نتج عنه نزوح مستمر للعرب من جزيرتهم تجاه برِّ العجم، فمنهم طالبُ لأمنٍ ونجاةٍ، ومنهم متقربٌ إلى الله بالدعوة والهجرة، ومنهم باحثٌ عن الرزق؛ تعددت الأسباب والوجهة المفضلة دائماً واحدة وهي شطر البَّر الحبشي، حيث وجد الأسلاف الأمن والعدل ورغد العيش.

وفي هذا الصدد، يشير عثمان صالح سَبّي، رحمه الله، إلى الحروبات التى تعاقبت على الحجاز عقب قيام الأمويين بتحويل الخلافة إلى ملك عضود، فيقول: كانت «الثورات المتعاقبة التى شغلت التاريخ الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري مورداً لا ينضب لجماعاتٍ وأفراد مهزومين، يهاجرون إلى البلاد البعيدة. وشمال شرقي أفريقيا ـ السودان، إرتريا، الحبشة، الصومال ـ بموقعها الجغرافي القريب من الجزيرة العربية كانت ملجأ لهؤلاء»[٦٧]. ولهذا كان من الطبيعي أنْ تصبح شعوب المنطقة، التى نحن بصددها، نتاجاً تراكمياً لكل تلك الأمم المهاجرة، ولكن القدح المعلى في هذا النسيج كان من نصيب السَّبَئِيِين عموماً والحميريين خصوصاً وعلى رأسهم قبائل قضاعة (بَلِيّ وجُهَيْنَة). وهذا نلاحظه في المظاهر الثقافية، لا سيّما التأثيرات اللغوية والدينية التى حافظ عليها الحَبَاب بعد أن ورثوها من أسلافهم «السبأ ـ حميريين».

وقبل أن نعطي أمثلة لتأثر الحَبَاب بالثقافة الحِمْيَرِيَّة، بما فيها الدِّيانات القديمة لأهل اليمن وإلهُهم السَّماوي (المقه) أو القمر، والذي ما تزال آثار معبده العملاق «أوام» توجد في مأرب باليمن، أريد أن أوكد ملاحظةً شخصيةً وقفت عليها طوال فترة بحثي هذا وهي أنَّ لهجة الحَبَاب الحالية قد تأثرت بالمضرية في بعض ألفاظها،

---

(٦٧) سبي، مرجع سابق، ص ١٠١.

بسبب هجرات عرب الشمال، ولهذا ربما لا تتطابق الحبابية تماما مع اللُّغة الحِمْيَرِيَّة[٦٨] القحة، وإنْ ظلَّ بناؤها اللُّغَوِي ثابتاً على النسق الحِمْيَرِي، كإبدال تاء المتكلم والمخاطب بالكاف، وإبدال «أم» في محل ألف ولام التعريف (طُمْطُمَانِيَّة حِمْيَر)، مثل قولهم «أمْزُلال» بدل «الزُّلال»، والجرّ والمطّ في آخر الكلمات، مع إبقاء القاف مقلقلاً، والرَّاء مُرَقَّقاً، ونطق الجيم بالطريقة الحِمْيَرِيَّة، واعتماد التنوين بالنون بدل الوقوف بالتسكين عند نهاية الجملة، مثل قولهم «أنيابو سَبُعْتَنْ» ويعنون «أنيابه سَبْعَةٌ»، والمحافظة في كل الأحوال على تسكين التاء في آخر الكلمة إذا كانت الأسماء والصفات تنتهي بتاء، مثل قولهم «عَرَبْيَتْ» بدل «عربية» وقولهم «بلدتْ سعيدتْ» بدل «بلدة سعيدة»، و«أرضتْ فايحتْ» بدل «أرضة فائحة ـ واسعة»، وقولهم «بَكْرَتْ دَارَّتْ إبْ حَلِيبْ» بدل «بَكْرَةٌ دارَّةٌ بالحَلِيبِ» وهكذا، وهذه كما نعلم أساليب شائعة في الحِمْيَرِيَّة.

ولكي نعطي للقارئ نموذج للكلام الحِمْيَرِي نورد هنا النص الحِمْيَرِي الذي ذكره الهَمْدَاني في الإكليل، والذي يقول: «أقسمن أنجوم أبربع ذو تغيب لو يرى سد بتع ما بين حاز وبيت دفع»[٦٩]، وهذا النص الحِمْيَرِي معناه أقسمت أنَّ الأنجم الأربعة لن تغيب حتى يرتوي سد «بتع». وهذا النص يتفق في بنائه وبعض كلماته مع الحبابية ولكن لا تتطابق كلماته تماما مع الحبابية.

(٦٨) ليس كل الكلمات والعبارات الحميرية مفهومة في لهجة الحَبَاب (الحالية)، فمثلاً ورد في كتاب «الروض الأنف» للسهيلي أنَّ «معدي كرب» تعنى بالحميرية وجه الفلاح، حيث (المعدي) بلغة حِمْيَر هو الوجه و(الكرب) هو الفلاح، وبالتالي فإنَّ «أبو كرب» تعنى بالحميرية أبو الفلاح. والوجه في لهجة الحَبَاب لا يسمي (معدي) وإنما يسمى «جظ» ـ والجيم دائما يمانية ـ فيقولون مثلا «جَظْ كلم gasz kalam» أي «قبيح الوجه» وقد يسمونه (وجْهاً)، ومن أساليب الشتم المعهودة لديهم عبارة: «أسْوَد الوَجِه». كذلك فإنَّهم لا يسمون الفلاح (كربا) وإنَّما الكرب عندهم هو الصعوبة والمشقة والمفرد لها «كُرْبَتْ»، بضم الكاف أو كسرها، والجمع «كُرَب».

(٦٩) راجع «الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير»، لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهَمْدَاني.

مثال آخر للغة الحميرية هو النقش الذي ترجمه العالم البلجيكي «ريكمنس G. Ryckmans» ، ونشره في مجلة «Le Museon» بعنوان «B Osma. Mus. No. 281» ونصه: «نفس قدس سميفع أشوع ملك سبأ ... بسم رحمنن وبنهو كرشتن غلبن»، ومعناه: «الذات المقدسة سميفع أشوع ملك سبأ ... بسم الرحمن وابنه المسيح الغالب»[٧٠]. وبالرغم من أنني فهمت المعنى الإجمالي للنقش إلاَّ أنني وجدت صعوبة في أن أفهم بعض كلماته إلا بعد أن اطلعت على الترجمة[٧١]، وذلك بالرغم من تشابه طريقة التعبير بالحَبَابية[٧٢] والحِمْيَرِيَّة. يقول الدكتور جواد: إنَّ أبرهة ترك «وثيقة مهمة على جانب خطير من الأهمية، وهي النص الذي وسم «B Glaser 618» و «B CIH 541» عند الباحثين في العربيات الجنوبية»[٧٣]. وهذا النص، كما يقول الدكتور جواد، يعتبر «ثاني نص طويل يصل الينا من اليمن» ويتناول ترميم سد مأرب مبتدئا بالصيغة التالية: «بحيل وردا ورحمت رحمنن ومسحو ورح قدس سطرو ذن مزندن. إن أبره عزلي ملكن اجعزين رمحز زبيمن ملك سبأ وذ ريدن وحضرموت ويمنت واعربهمو طودم وتهمت»، أي «بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح القدس سطروا هذه الكتابة. إن أبرهة نائب ملك الجعيزيين رمحز زبيمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في النجاد وفي تِهَامَة».

بَيْدَ أَنَّنَا، ورغم قلة النصوص الحِمْيَرِيَّة التى اطلعنا عليها وجدنا كثيراً من الكلمات العربية التى تحتوي على حرف «الخاء» تنطق بحرف «الحاء»، وهذا أمر

(٧٠) راجع الجزء الثاني من كتاب «المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام» لمؤلفه الدكتور جواد علي، الناشر: دار الساقي، الطبعة الرابعة ٢٠٠١م.

(٧١) ربما يعود هذا لطريقة كتابة النص وليس لاختلاف الكلمات بين الحميرية القديمة والحبابية، وذلك لأن النقش لا يعتمد على حركات الاعراب المعروفة حاليا وإنما مثلا تكتب النون مرتين للدلالة على التنوين، وتضاف واو للكلمة للدلالة على الرفع، وهكذا. لاحظ أن «رحمنٌ» كتبت في النقش «رحمنن» وكلمة «وابنه» كتبت «وبنهو».

(٧٢) لاحظ التنوين بالنون في «رحمنن» و«غلبن»، ولاحظ طريقة نطق التاء في «تهامت» و«رحمت».

(٧٣) راجع كتاب المفصل، مرجع سابق، ج ٦، الصفحة ١٧٣.

تنفرد به لهجة الحَبَاب واللُّغة الحِمْيَرِيَّة عموماً. فمثلا كلمة «وَرِخ»[٧٤] بالحاء، تعني الشهر أو القمر في اللهجة الحَبَابية، أمّا في لغة عرب الشمال فربما القياس هو أن تنطق «وَرِخ» ومنها جاءت «أرَّخ، يأرِّخُ، تأريخاً». وكلمة «حنق» تعنى بالحبابية «خنق»، فيقولون مثلا: «حِنَقُّو» بدل «اخْنُقْهُ»، ولذا يُسَمَّى الحباب السوار الذي يربط حول الرقبة «حنَّاقَتْ» بدل «خَنَّاقَة»، والعدد «خمسٌ» ينطق «حمس» بدون نقطة الخاء عند الحباب وكلمة "نفخ" ومشتقاتها في الفصحى تقابلها "نفح" (بالحاء) في الحبابية، و"خلف" ومشتقاتها في الفصحى تقابلها "حلف" (بالحاء) في الحبابية، و"خبزة" ومشتقاتها في الفصحى تقابلها "حبزة – حبزَتْ" (بالحاء) في الحبابية، وهكذا. كذلك أشرنا في موضع آخر إلى أنَّ كلمة «حُو» في الحَبَابية بمعنى «أخُو» تقابلها «حُو ـ أحُو» في الحبابية – الحِمْيَرِيَّة وكلمة «خَال» تنطق في الحَبَابية والحِمْيَرِيَّة «حَال» بدون نقطة الخاء، وكذلك كلمة «خَالة» تنطق بدون إضافة نقطة الخاء فيقول الحَبَابي: «حالتو» أو «حالتي» بمعنى «خالتي». ومما يثير الانتباه هنا أنَّ كلمة «حَمُو»، ذات العلاقة بهذه المعاني، ظلت في اللغتين (الجنوبية والشمالية) كما هي «حَمُو»، وكذلك ظلت كلمة

(٧٤) يقول الدكتور: جواد علي في الصفحة ٨٠، الجزء ١٦ من كتابه: «المفصل»، مرجع سابق: «ويعبر عن الشهر بلفظة «ورخ» في العربيات الجنوبية. والجمع «أورخم» «أورخ». ولفظة «ورخ» تعني القمر في عربية القرآن الكريم. وهي من الألفاظ السامية القديمة، وتؤدي معنى «أرخ» وتأريخ أيضاً. فكان العرب الجنوبيّون إذا أرادوا التأريخ بالأشهر، قالوا: «ورخ كذا»، أي: «شهر كذا»». انتهى كلام د. جواد، وأعلق على ذلك فاقول: ربما كان هنالك خطأ في النقل من المصدر أو ربما أخطأ الناس في قراءة النقوش السَّبَئِيَّة التى استقوا منها تلك المعاني (وهذا ما أرجحه) حيث كما تلاحظ أثبت الدكتور جواد الكلمة بصيغة «ورخ» بحرف الخاء، وأنا اعتقد أن اللفظ الصحيح هو «وَرِحْ Warih»، بالحاء وليس الخاء ، والجمع «أَوَرِّحْ Awarrih» كما هو مستخدم حاليا لدى الحَبَاب حيث أنهم يسمون الشهر «وَرِحْ» والأشهر «أَوَرِّحْ». ولعل ما يسند استنتاجنا هذا المعلومات التى وجدناها في مصدر محايد هو موقع "ويكيبيديا، الموسوعة الحرة «Wikipedia, the Free Encyclopedia». ورد في ذلك الموقع أن أصل تسمية "أريحا" الذي تسمى به عدد من البلدات في كل من فلسطين والأردن وسوريا (بلاد الشام) يعود إلى أصل سامي كنعاني حيث أن الاسم أريحا عند الكنعانيين "تعني القمر والكلمة مشتقة من فعل (يرحو) أو (اليرح) في لغة جنوبي الجزيرة العربية تعني شهر أو قمر". انتهى ما ورد في الموسوعة. وكلمة يرح (Yareah) عند الكنعانيين، وهم ساميون كما نعلم، تعني القمر وتقابلها (ورح) عند الحباب، وتعني كذلك القمر، ولذلك تعرف مدينة "أريحا" الفلسطينية بمدينة القمر.

«حَمَاة»، الأمر الذي يدل على صحة ما نقول من أن أصل «الخاء» في تلك الكلمات هو «الحاء»!!

وإذا أردنا أنْ نُعْطِي نماذج للتأثيرات الواضحة التى تركها الأقدمون من السبأ - حِمْيَرِيِّين بصفة عامة على الحَبَاب، نقول إن المرء من الحباب إذا أراد أن يعبّر عن رضائه عن شئ أو استنكاره لشئ لا يليق بالفاعل يخاطب الفاعل فيقول له: «طَيْء أَبُوكَ» ان كان ابنه، أو مَنْ هو في مقامه، ويقول لبنته: «طَيْء أَبُوكِ». وإذا كان المخاطب أخاه، أو من يقوم مقامه، يقول له: «طَيْء حُوكَ»[٧٥] وهكذا. ووجه الاستدلال هنا هو أنَّ «طَيْء» كما هو معروف هو مَذْحِج بن أدَد بن زيد بن بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سبأ، ومنه جاءت قبيلة طَيْئ المعروفة. ويبدوا أن المهاجرين إلى منطقة الحباب من طَيْء ومَذْحِج الآخر (مالك) الكهلانيين، وأبناء عمومتهم الحِمْيَرِيين من قضاعة (وما تفرع منها مثل جهينة)، كانوا يعتزون بطَيْء اعتزازاً شديداً، حتى إنَّه صار عرفاً لديهم أن يذَكِّر الأبُ إبنَه والأخ أخاه، فيقول له: أنت ابن طَيْء فلا تبتأس أو يقول له: أنت أخو طَيْء فلن تفعلَ ما يُشِين!!. ثُمَّ أصبحت تلك المفردات جزءاً من لغة الأحفاد لدرجة أن النَّاس في الحباب إلى اليوم يرددون تلك العبارات: «طَيْء أَبُوكَ» و«طَيْء حُوكَ» بتلقائية، وربما دون وعْي بأصلها، وذلك عند الرضا أو الاعتزاز وربما لاستنكار قول أو فعل لا يليق بالفاعل. وعلى هذا النحو يستخدم الحباب عبارة "إنَاسْ تَبْعَتْ" و"إناس تَبْعينَايْ" للدلالة على الرُّجولة. ووجه الاستدلال هنا هو إنَّ وصف "تَبْعَتْ" و"تَبْعينَايْ" يعود بنا بعيداً الى الوراء حيث كان الحميريون يطلقون لقب "تُبَّع" وجمعها "التَّبَاعِنَة" أو "التَّبَابِعَة" على ملوكهم، وقد أشار القرآن الكريم أكثر من مرة الى "قوم تُبَّع".

(٧٥) «حوك» بالحاء بعد حذف الألف هي بدل «أخوك». انظر شرحنا في موضع آخر من هذا الكتاب للاختلاف القائم منذ القدم بين لهجات جنوب وشمال الجزيرة العربية.

مثال صارخ آخر للتأثير السبأ ـ حِمْيَرِي على الحباب هو أنّه بالرغم من إفول نجم سبأ، وتفرقهم في البلاد شذر مذر قبل ثلاثة آلاف سنة على الأقل، ما زال الحَبَابُ إلى هذا اليوم يطلقون صفة «السَّبِئ» على من أرادوا مَدْحَه وتعظيمه. فالمروءة والشهامة عندهم تعرف بـ «السَّبْأَنَة» وينطقونها مخففةً «سِبِنَّتْ»، ولهذا يقولون للرجل الشهم «سِبِنَّتْ بُهْ» أي له مروءة وشهامة، ويقولون: «فُلان وَدْ سَبْ تُو» يعني أن فلاناً هو ابن سبأ «يعنى ابن ناس أكابر» لرجولته أوشهامته أو أي صفة محمودة، ويطلقون على جمع الرجال أو الشعب كافة لفظ «سَبْ»[٧٦]، وهي لفظة مخففة لسبأ[٧٧]. وضمن هذا المفهوم جاء الاسم المشهور لقرية «سَبْدَرَاتْ» وهي من مقطعين في الأصل: «سَبْ» بمعنى رجال و«دَرَاتْ» وهي منطقة في جبال الماريا، الذين ينطقونها أحيانا «ذَرَا» أو «ذَرَاتْ»[٧٨]. هذا وقد أُطْلِقَ اسم «سَبْدَرَاتْ» فيما بعد على فرعٍ من بني عامر يسكنون بالقرب من كسلا، وهم في الأصل من منطقة أو جبل «دَرَاتْ». بل إنَّ أحفاد السَّبَئِيِين قد أطلقوا اسم «مأرب»[٧٩] على النهر

(٧٦) ربما كانت كلمة «شَعَب» أصلها «سَبَأ» أي أبناء الجد سبأ، وتحورت كلمة «سَبَأ» بمرور الوقت إلى شَعْب نتيجة لتقارب مخارج الحروف وهنالك ما يسند هذا الاعتقاد في معاجم اللُّغة. فقد استخدمت هذه الكلمة منذ القدم للدلالة على القبائل الحميرية وفي هذا يقول محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني المشهور بالزَّبَيْدِي في كتابه «تاج العروس من جواهر القاموس» الشَّعْبُ: بَطْنٌ من هَمْدَان. وقال الفَرَّاء: حَيٌّ مِنَ اليَمَنِ وإِلَيْهِ نُسِبَ عَامِرُ بْنُ شَرَاحِيلَ الفقيهُ المَشْهُورُ قاله ابْنُ فَارِس والأَزْهَرِيّ والفَارَابِيّ. وقيل: شَعْبٌ: جَبَلٌ باليَمَن نَزَلَهُ حسَّانُ بْنُ عَمْرو الحِمْيَرِيُّ وَوَلَدُه فنُسِبُوا إِلَيْه فَمَنْ كَانَ مِنْهُم بالكُوفَةِ يُقَالُ لَهُم شَعْبِيُّون مِنْهُم عَامِرٌ الشَّعْبِيّ وعِدَادُه في هَمْدَان ومَنْ كَان منهم باليَمَن يُقَالُ لَهُم آلُ ذِي شَعْبَيْنِ ومَنْ كان مِنْهُم بِمِصْرَ والمَغْرِبِ يُقَالُ لَهُم الأَشْعُوبُ. أما الأزهري في معجم «تهذيب اللُّغة» مادة شعب يقول: «الشَّعب: أبو القبائل الذي ينتسبون إليه، يعنى يجمعهم ويضمهم».

(٧٧) أمَّا الناطقون بلهجة «التِّجْرِينْيَا»، في المرتفعات الإرترية وشمال إثيوبيا، فيطلقون على الزوج والرجل عموماً «سَبْآي» أي «سبئيٌ»، وعلى الزوجة والمرأة عموماً لفظة «سَبْأَيْتِي» أي «سبئيَّةٌ»، وكما هو معلوم فإنَّ لهجة التِّجْري ولهجة «التِّجْرِينْيَا» هما من رحم واحد وإنْ كانت «التِّجْري» هي الأقرب للجعيزية الحميرية، كما ذكرنا في موضع آخر.

(٧٨) «ذرا الشيء» وذراة الشَّيْء « أوله أو أعلاه، من الذروة، ولهذا يقال «ذرا الجبل» بمعنى أعلاه.

(٧٩) بمجرد منبعه من الهضبة الحبشية يعرف هذا النهر باسم «مَرَبْ»، تخفيفا للاسم الأصلي «مأرِبْ»، ثُمَّ ينطلق نحو الغرب والشمال، حيث يطلق عليه اسم ««القاش Gash»»، عند تمدده في أراضي غرب إرتريا وشرق السودان.

الذي يفصل الجزء العلوي منه حالياً بين دولة اثيوبيا ودولة إرتريا، كما اطلقوا اسم «عين سبأ» ـ وتكتب مخففة «عنسبا» ـ على النهر الذي يجري في السَّاحِل، ويتَّحِد مع خور بركة (بَرْكَا) قبيل دخوله مدينة توكر، وتكوينه لدلتا توكر.

وهكذا نجد العديد من المسميات للأرض اليمنية(٨٠) أطلقها هؤلاء القوم على مواطنهم الجديدة مثل: هَجْر(٨١)، وعقيق(٨٢)، وأسماط(٨٣)، وحَبَاب(٨٤)،ولابا (لابه)(٨٥)، وأوَدْ(٨٦) ومرسى تَكْلايْ(٨٧)، وجِعِر(٨٨)، (بالجيم اليمانية)، وأقرع

(٨٠) للتحقق من اسماء مناطق اليمن التى سنذكرها في هذا الباب يمكن الرجوع لكتاب: «معجم البلدان والقبائل اليمنية» لمؤلفه إبراهيم أحمد المقحفي، دار الكلمة ٢٠٠٢، صنعاء.

(٨١) «هجر» منطقة معروفة في أرض الحباب وتعتبر عاصمة البُجَة التاريخية وآخر من أقام بها من الحكام بحلياي وأبناؤه في حوالي القرن السابع عشر. وكانت عاصمة الحكم الحميري تسمى "هجر" ومازالت آثارها موجودة حتى الآن في اليمن. ومسمى هجر يطلق في جزيرة العرب على عدد كبير من القرى القديمة والحديثة، وكانت البحرين تعرف بهجر وكما ذكرنا في موضع آخر كانت مدينة الرياض ـ العاصمة السعودية ـ تعرف سابقاً بهجر. هذا فضلا عن هجر نجران، وهجر جازان، وغيرهما من المدن المعروفة في الجزيرة العربية (لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع فضلا راجع حديثنا عن هجر في هذا الكتاب).

(٨٢) «عقيق» مرسى مشهور يقع جنوب سواكن، و«العقيق» بفتح فكسر فسكون، اسم وادٍ مشهور بالقرب من صعدة في اليمن، وهو مسكن فرع من قبيلة همدان، والعقيق بلدة في مديرية لحج، والعقيق وادي في حضرموت.

(٨٣) قرية في أرض الماريا تقابلها قرية أصماط التابعة لقرية هزم في أرحب في اليمن.

(٨٤) "حباب" هو اسم القبيلة ويطلق في اليمن على عدد من القبائل القحطانية فضلاً عن قرى وأودية كثيرة، منها قبائل «با حَبَاب» التى تعيش حول مدينة الشِّحِر بحضرموت، ومنها «وادي حَبَاب» الذي ذُكِرَ في كثير من النقوش القديمة، فقد كان مقر الأقيال (الزعماء) من بني «جَدْن»، ومنها قرية حباب في منطقة حَصُبَان بمحافظة تَعِز، ومنها «قرن حباب» في مدينة حَجَّة.

(٨٥) «لابة» منطقة في ارض الحباب كان يسكنها الفونج قبل رحيلهم إلى جهة سنار، و«لابة» في الأصل تطلق على الأرض التى تعلوها حجارة سوداء، وهذا المسمى منتشر في الجزيرة العربية ولاسيما اليمن.

(٨٦) اسم علم، ويقابله في اليمن «بنو أَوْد» بن الصعب بن سعد العشيرة بن مَذْحِج، قبيلة حِمْيَرِيَّة في محافظة أَبْيَنْ.

(٨٧) مرسى تكلاى ربما سمي على «تُخْلِي» الاسم القديم لجبل «مَسْوَر» في محافظة لحج، ويعود الاسم في الأصل إلى «تُخْلِي» بن عمرو بن مَعْدِي كَرِبْ بن شرحبيل الأَصْبَحِي الحِمْيَرِي.

(أجْرَعْ ـ بالجيم اليمانية)[89] وشِعْب[90]، وعندل[91] ودجين (دقين)[92]، قدم[93]، وجِذْجِد[94]، سروا[95]، وحَلْحَلْ[96]، وقَبْقَبْ[97] (جَبْجَبْ - بالجيم اليمانية)، وجُلْبُوب[98] وعين حريش[99] وغارعُوبَل[100]، وجَلَبْ (بالفتح)، وجِلِبْ

(٨٨) جبل في أرض الحباب ويقابله في اليمن جبل «جُعُرْ» وهو أعلى جبال «وُصَاب» في محافظة ذَمَار.

(٨٩) «أقْرَع» منطقة في أرض الحباب، و«أقْرَع» في الأصل اسم جد حِمْيَري يسمى: «أقْرَع» بن الهُميسع بن حِمْيَر، ثُمَّ أصبح يطلق بعد ذلك على الأشخاص والبلدات، ومن ذلك قرية «بيت أقْرَع» وقرية «أقْرَع» بالقرب من صعدة في اليمن.

(٩٠) «شِعْب» اسم لعدد من المناطق في أرض الحباب ويقابلها في اليمن عدد من المناطق بهذا السم ومنها: «شِعْب» وهو مركز إداري في أرحب شمال صنعاء، و«الشِّعْب» وهو وادي أسفل جبل الضالع، و«شِعْب» وهم قبيلة من حاشد تسمى «شِعْب عُذُر» ... إلخ.

(٩١) «عندل» منطقة في اليمن استقر فيها بنو راشد «بطن من حمير» بعد أن هاجروا اليها في القرن الثالث الميلادي عقب سيل العرم.

(٩٢) قرية في القاش وتقابلها في اليمن «دِكَيْن»، حصن أعلى بلدة دمُّون في وادي حضرموت.

(٩٣) قَدَم (أو «جَدَم» بالجيم اليمانية)، جبل في أقصى جنوب أرض الحباب، انطلق منه الحلنقا إلى داخل الحبشة في بداية هجرتهم، ويقابله في اليمن سلسلة جبال بركانية تسمى «جَدَم»، تقع بالقرب من مدينة الروضة، إحدى قرى جُعَار في محافظة أبين.

(٩٤) منطقة في أرض الحباب، ربما سميت في الأصل على «جَدَاجِد» بليدة قديمة في محافظة «ريمة» في اليمن، و«الجَدْجَد» كما ورد في معجم الوسيط هي الأرض الصُّلبة المستوية.

(٩٥) «السَّرْو» لُغَةً هو ما ارتفع من الأرض عن مجرى السيل، و«سَرَوَا» جبل في أرض الحباب تقابله جبال «السَّروات» في اليمن.

(٩٦) قرية في السَّاحِل تقابلها في اليمن «الحَلْحَل»، قرية في بلاد حاشد بمحافظة عمران، وبنو «حَلْحَل» من قبائل الجوف.

(٩٧) منطقة في أرض الحباب يقابلها قرية «جَبْجَبْ» في جبال الكلاع بمحافظة أبين وهنالك عدد من القرى بهذا الاسم في اليمن وخاصة محافظتي إبْ وأبْيَنْ.

(٩٨) جُلْبُوبْ (بالجيم اليمانية)، مرسى في أرض الحباب، ويقابلة في اليمن بليدة جَلْبُوب في ديار يافع بمحافظة لحج وقرية الجَلْبُوب في بلاد الحَدَا.

(٩٩) منطقة في أرض الحباب يقابلها في اليمن «حِرَيش» إحدى قرى الجرابح السفلى في محافظة الحديدة، وآل «با حِرَيْش» بحضرموت.

(١٠٠) الغار معروف وغار «عوبل» منطقة في أرض الحباب وتقابلها في اليمن «عوبل» التى ينسب اليها آل «العوبلي» و«العوابل»، من قبائل الشعيب في منطقة الضالع، واليهم ينسب الشاعر اليمني: محمد حسن عوبلي.

(قِلِبْ)[١٠١] بالكسر، وصرح[١٠٢]،وغيرها، من أسماء قرى وجبال ووديان لا تحصى ولا تعد.

ارتباط الحباب بالموروث الحميري:

إن ارتباط الحَبَاب (وغيرهم من القبائل التى من حولهم) بالسَّبَئِيِين والحِمْيَرِيين أمر واضح للعيان، من حيث عوامل التاريخ والجغرافية واللُّغة والبنية الجسمانية، والموروث الثقافي، وغير ذلك من أوجه التشابه التى يهتم بها علم الأنثروبولوجيا (Anthropology). ولا يقتصر ذلك على مفردات اللُّغة الحِمْيَرِيَّة، التى تشكل جزءاً كبيراً من لهجة الحَبَاب ، وإنَّما يتعداه إلى طقوس دينية ظلت متوراثة إلى وقتنا هذا وإنْ تمسحت بمُسوحٍ إسلامية. ولكي نعطي أمثلة على الطقوس (الدينية) الموروثة من السَّبَئِيين والحِمْيَرِيين وخلفائهم (حضارة أكسوم) نشير إلى الآتي:

١ـ من المعروف أنّ السَّبَئِيين والحِمْيَرِيين، وأهل أكسوم من بعدهم (قبل اعتناقهم للمسيحية)، كانوا يعبدون الإله «عَشْتَر» (إله السماء والنجوم) وهو كبير الآلهة عندهم ويسمونه الإله (عَثْتَر) أو (عَشْتَر)[١٠٣]. وقد لوحظ أنّ مسلات أكسوم تنتهي في أعلاها برسم على شكل هلال (يرمز إلى القمر) وقرص (يرمز إلى الشمس)، شأنها في ذلك شأن النقوش التى عثر عليها في اليمن وتتناول آثار السَّبَئِيين. والغريب أن الحَبَاب ما زالوا إلى اليوم يسمون السماء «عستر» في إشارة إلى ذلك الإله القديم الموروث من الحِمْيَرِيين.

---

(١٠١) جَلَبْ (بالفتح) وجِلِبْ (بالكسر) اسماء مناطق في أرض الحباب منها جَلَبْ قِبْل وجَلَبْ سَقْلا (سَجْلا) ويقابلها في اليمن قرى كثيرة بمسمى «جَلَبْ» في محافظات أَبْيَنْ وذَمَار وصنعاء.

(١٠٢) صِرْح (بكسر الصاد وسكون الراء) منطقة في أرض الحباب وتقابلها في اليمن منطقة «صِرْحَة» في بريم وبها قرية أثرية.

(١٠٣) يبدو أنَّ السَّبَئِيين من الغساسنة وغيرهم قد نقلوا معهم ديانتهم عند هجرتهم إلى العراق وشمال الجزيرة العربية عموماً، حيث نجد الكلدانيين يطلقون اسم عشتار على أحد أهم آلهتهم ويرمزون له بكوكب الزهرة. و«عشتار» في معتقدهم هو إله الحب والعشق والخصوبة.

٢ـ عند بزوغ الهلال في أول كل شهر كانت تقوم النساء القرويات إلى عهد قريب بأخذ «المُوْكَسْ»، (اسم آلة من وكس الشَّيْء يكس، والموكس هي عصا تستخدم لخلط الطحين في الإناء أثناء تجهيز العصيدة)، وتقرع بها إمَّا شعبة بيتها أو «الكَلِعْ»(١٠٤) أو «الدُّوَان»(١٠٥) (وهي آنية فخارية كانت تستخدم بدلاً من القدور المعدنية الحديثة)، وفي أثناء القرع ينظر النساء إلى الهلال، ويرددن أدعيةً «إسلاميةً» منها: «هَيْلَلْ، مُبَارَك إتْ تَا خيرْكَا لبخيت نتْبَارَك، خَيْرَايْ خَيْر بَخِيتْ، قَدَامِيتْ لَحَدِّقْ، وحَارِيتْ وَسِّكْ»، ومعنى ذلك: هللت يا مبارك، فلتبارك بخيرك، أنت الخير البخيت، تترك لنا ما عندنا سلفاً (قَدَامِيتْ)، وتأتينا بالمزيد!!). ويبدو أن هذه الأدعية (الموجهة للهلال ـ القمر) قد حلت محل أدعية «جاهلية»(١٠٦) كانت سائدة وقت عبادة القمر من قبل الحِمْيَرِيين، حيث من المعروف أنَّ الحِمْيَرِيين كانوا يعبدون الشمس والقمر. قال الله تعالى متناولاً قصة بلقيس، ملكة سبأ: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

٣ـ عند تأخر نزول المطر كان نساء الحَبَاب (فقط دون الرجال) يخرجن في وقت العصر قبيل غروب الشمس إلى أقرب منطقة عالية يسمونها «دَبّتْ»، يحملن

(١٠٤) «الكَلِعْ» كلمة دارجة في لغة حِمْيَر جمعها «كِلاَع» ومن ذلك بنو الكلاع بن شرحبيل بن حمير.

(١٠٥) كلمة «دوان» تعني الوعاء من الفخار في شكل جرة يستعملها عربان الحَبَاب إلى اليوم.

(١٠٦) من الامثلة الصارخة لتمسك الشعوب بعاداتهم القديمة أو تأثرهم بها عادة «عيد النار» التى ما زال الشعب الإيراني يمارسها حتى اليوم رغم تدينهم الظاهر وتمسكهم بالإسلام. ومن المعروف أن الفرس كانوا يقدسون النار في الجاهلية (قبل الإسلام) ثُمَّ تحولوا للإسلام ولكن ما زال «عيد النار» يلقى شعبية كبيرة في ايران لدرجة أن المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية الايرانية انتقد أكثر من مرة هذا العيد واصفا إياه بأنه يرمز «الى عبادة النار» ورغم ذلك بقي الاحتفال بهذا العيد مترسخاً لدى الإيرانيين في كل سنة في الليلة التى تسبق آخر يوم أربعاء من السنة الإيرانية حيث يشعلون النار في سبع بؤر ويقفون فوقها.

جرائد شجر الدوم أو النخيل و«بليلة» من الذرة، ويُرددْنَ عبارات عديدة يمكن ان نذكر منها نموذج مثل: «أبْرَيْ فَقَرْنَا (فَجَرْنَا) دَبْرَيْ، من كُلّ أمْرٍ فَقَرْنَا دَبْرُو، يا الله بالعَفُو»، أو نحو ذلك، ومعنى ذلك نبرأ من الشر وطلعنا الجبل، تبرأنا من كل أمر وصعدنا إلى الجبل. ومن جهة أخرى يردد الأطفال: «أبُوتُو أسْتِينِي»، بمعنى يا جدتي اسْقِنِي، فترد النساء «رَبِّكُمْ لأسْتَيْكُمْ»، بمعنى ربكم يسقيكم، وبعد ذلك ينزلون من «الدَّبَة» ويتوقعون هطول المطر!!. ومثل هذه الطقوس بالطبع لا نجد لها أصلاً في الإسلام، بل لا تمارسها الأمم الأخرى التي تأثرت مثلاً بخزعبلات بعض الجهلاء ممن ينسبون أنفسهم للطرق الصوفية (وهي منهم براء)، ولهذا فإننا نعتقد أنَّ هذا يعتبر طقساً من الطقوس القليلة التي بقيت من عبادة الشمس والقمر، وإنْ تزيَّنت بأدعية إسلامية نتيجة للجو العام الذي لا يسمح بترديد أدعية جاهلية. نقول هذا وفي ذهننا قصيدة "ترنيمة الشمس" التي أوردناها في موضع آخر من هذا الكتاب والتي كان الغرض منها أيضا الاستسقاء أو استجلاب المطر.

٤ـ تقوم المرأة الحامل عند بلوغ الشهر التاسع من الحمل بالجلوس أمَامَ بيتها ويتم احضار صبي ليجلس في حِجْرِها من وقت المغرب حتى يختفي القمر[١٠٧]، وبعد ذلك يتم إعداد وليمة مصغرة للنساء والصبيان تسمى «سِنْفَأ Sinfa'a»، وعند الولادة تُطْلَق «الزغاريد» إذا كان ذكراً، ويُسَمِّيه والده أو أحدُ الأقارب الحاضرين. ولكن أهم الطقوس هو أنهم يضربون الجرس ويوقدون النار أمام البيت، ويربطون حزمةً من جريد أو سعف (أوراق من شجر النخيل أو الدوم) في الشعبة الأمامية من بيت النَّفَسَاء (في الجهة الخارجية من البيت)، ويأتوها بالحليب والسّمن واللّحم، ولا يتركون النَّفَسَاء لوحدها. وبعد إكمال مدة النّفاس (أربعين يوماً)، تخرج النَّفساء أمام بيتها وتتعدى ثلاثة مرات النّار،

(١٠٧) لاحظ أن الأمر كله مرتبط بظهور القمر ومغيبه.

ويزينون شعر المولود، ولا يحلقونه بالكامل، بل يتركون من شعر المولود جزءاً في مؤخرة الرأس يسمى «حِرُورَا Hiroara»، وبعضهم يترك جزء من الشعر في مقدمة الرأس يسمى «قصَّتْ» أو يتكون الشعر على أحد جوانب الرأس ويسمى «تنكلت Tinkillat» أو يترك جزء من الشعر فأحد الجوانب الأمامية للرأس يسمى «شدغ Shidiq» (تحريف للصدغ)، كلٌ حسب عادته. ويمكث الطفل بهذا الوضع حتى ختانه الذي يتم غالباً قبل بلوغه سن العاشرة. وهذه كلها عادات لا شك أنها مرتبطة بطقوس دينية قديمة، ليست بالطبع مسيحية ولا إسلامية، ولا نجد لها مثيل في المحيط الإفريقي، ولذلك فهي في الغالب من الموروث الحِمْيَري، وربما تكشف آثار الحِمْيَريين في المستقبل عن صور تشابه ما ذكرنا، خاصة وأننا نجد لها مثيلاً لدى بعض قبائل اليمن.

٥ـ عندما تضع المرأة طفلها يفرض عليها العرف ألاَّ تخرج من بيتها لمدة أربعين ليلة، فإذا كان المولود ذكرا يتم قطع أعواد خضراء (من شجرة غير يابسة)، ويتم فرك العيدان حتى تخرج شراة توقد منها النار، ويتم أشعال نار تسمى «مَدْجَأ» أمام منزل النفساء طوال مدة الأربعين ليلة، كل ليلة يتم تزويد النار بالحطب. وفي اليوم الأربعين تتهيئ النفساء للخروج فتقوم بالغُسْلِ والتَّوَشِّي بالحناء وأخذ الطيب ولبس الزينة من ذهب وغيره، ثُمَّ يجتمع اليها جوارها من النساء ويتم تغطية كافة جسدها بثوب أبيض، وعند منتصف النهار يتم اشغال نار، ثُمَّ يطلب منها أن تتخطى سبع مرات فوق هذه النار، وبعد ذلك تجلس أمام النساء، حاملةً طفلها، فتخاطبها إحدى المُسِنَّات قائلةً لها: «حَرَاس (ومعناها بالحبابية النَّفَسَاء) مِنْ أيَ مَطْأَكِ؟» أي «يا نفساء من أين جِئْتِ؟» فترد النَّفَسَاء «مِنْ بَابْ أكْسُوم!!». فتسألها العَجُوز: «وماذا كنت تطلبين عندما حضرت؟» فترد النَّفَسَاء: شوم إجِلْ لِتْشَيَمْ (السيد لأجل أنْ يَسُود ويُطَاع)، ذرء إجِلْ لِبْقَلْ (الذرء – الشهار- لأجل أن تنبت وتصير بقْلاً)، ضرع إجِلْ لِطْلَلْ (الضَّرع لأجْلِ أنْ يلين)، جَاشَّايْ إجِلْ لإتِي (الضيف لأجْلِ أنْ يأتي -

يحضر)، بَعَلْ عَدْ إجِلْ لظْنَخْ (سيِّد المنزل لإجْلِ أن يَسْتَقِر)، نُوُوش إجِلْ لِعْبَي (الصغير لكي يكبر)، عَبِي إجِلْ لِذْوي (الكبير لكي يعمر)..الخ. بعد ذلك تخلط كمية من الحليب بالطحين ويمسح به رأس الطفل ويحلق له شعره الذي يجمع ويضاف اليه كمية من المحلب ويحفظ.

إذَنْ نحن، عندما نتحدث عن اللَّهْجَة الحَبَابية، إنّما نتحدث عن ثقافة متكاملة وتراث خلفه السَّبَئِيّون والحِمْيَرِيُّون القدامي، ومنهم بالطبع الجَعِيزيّون. ولهذا فإنَّ لهجة الحَبَاب لم تستمد فقط جزء كبير من ألفاظها وكلماتها من لغة الحِمْيَرِيين، بل من الرّاجح أنْ تكون لهجة الحَبَاب قد ورثت بعض قوانينها وقواعدها الأساسية من لغات الحِمْيَرِيين، ولا سيَّما الجَعِيز، وقد أشرنا إلى الألفاظ المشتركة بين لهجة الحباب والحِمْيَرِيَّةِ، وتحدثنا عن استخدام الحباب في لهجتهم لحرف «الكاف» بدل تاء المتكلم والمخَاطَب، واتّباعهم لطُمْطُمَانِيَّة حمير، واعتماد لهجتهم للجيم اليمانية. ونضيف هنا، وعلى سبيل المثال، استخدامهم للصيغ الحِمْيَرِيَّة مثل صيغة الجمع «أفْعُول» بدل «فُعُول». فمثلا يجمع الحِمْيَرِيُّون كلمة «شَعَب» على صيغة «أشْعُوب» و«نجم» على صيغة «أنْجُوم»، وهذا ما يفعله الحَبَاب إلى اليوم حيث يجمعون كلمة «قَلْب» مثلاً على «أقْلُوب» و«كبد» على صيغة «أكبود» و«شَعَب» على صيغة «أشْعُوب» و«قَبْر» على صيغة «أقْبُور»، و«سَاعِد» على صيغة «أسْعُود»، وهكذا نجد هذه الصيغة دارجة لديهم، وعليها يكون الجمع في الغالب.

بَيْدَ أنّه، وممَّا لا شك فيه، أنَّ لهجة الحَبَاب قد تأثرت في نفس الوقت بالتطور الذي حدث للغة الفصحى «المضرية»[١٠٨]، التى طغت على لغة أهل الجنوب بعد ظهور الإسلام، وبفضل القرآن الكريم وعلومه. والدليل على ذلك أننا نجد في اللَّهْجَة الحَبَابية بعض المفردات ـ التي تحتوي على حرف الجيم ـ يتم

(١٠٨) منسوبة إلى جدهم الأكبر مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

نطق الجيم فيها بالطريقة السائدة حالياً (وليس بالطريقة اليمانية)، ذلك خلافاً للعادة لدى الحَبَاب عند نطقهم للجيم، والتى تنطق دائماً بالطريقة اليمانية، مما يدل على أنّ هنالك مفردات حديثة نسبياً أتي بها متحدثون جدد وفدوا من أماكن في جزيرة العرب لا تنطق الجيم بالطريقة اليمانية. ومثال لتلك الكلمات الحديثة، نطق الحباب لكلمة «جَبَبْ» و«جَبِيبْ» بمعنى اللُّعَاب، و«جِرْطَاط» بمعنى الشلتوت، و«جَفَر» بمعنى الطرف أو الجانب. مثال آخر للكلمات الحديثة التى دخلت لسان الحباب كلمة "جلبتْ"، معنى سفينة و«جِنَى jina»، بكسر الجيم وفتح النون، بمعنى طفل أو ثمرة، فَحَرْفُ الجيم هنا ينطقه الحَبَاب حالياً بالطريقة العادية (jalbat) و (jina) بينما المفترض أن ينطق بالطريقة اليمانية (galbat) و (guina) كما هو الحال مثلا في كلمات «جِنَازَتْ guinazat بمعنى جنازة)» و«جُوَار» و«جُبْ»، كلها تنطق بالطريقة اليمانية. كذلك من الكلمات الحديثة كلمة «جلوط»[١٠٩]، من «جلط يجلط، جلطاً وجلوطاً»، بمعنى طلى، يطلي، طلياً، ومنها قولهم «دَمْ جِلَطُّهْ» أيْ أسِلْ دَمَه أو اجلطه بالدم!! فحرف الجيم هنا ينطقه الحَبَاب حالياً بالطريقة العادية (Jilat)، وتحمل الكلمة نفس المعنى الدارج في بقية اللهجات العربية السائدة حالياً.

شواهد على تأثر لهجة الحباب بلغة عرب الشمال:

عندما نستعرض الوضع الراهن للهجة الحباب ينبغي ألاَّ ننسى التأثير الكبير على الحَبَاب ثقافيا من الهجرات المتوالية لعرب الشمال الى منطقتهم وخاصة مشائخ الدين الذين وفدوا اليهم من العراق والشام والحجاز (بلهجتهم الشمالية المختلفة عن لغة أهل اليمن) أمثال الشيخ أحمد وإبنه الشيخ حامد وَدْ نَافِعُوتَايْ (من ذرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه) وأسَر دينية أخرى مثل «عَدْ شيخ محمود» و«عَدْ

(١٠٩) «جلوط» عبارة عن علاج شعبي عند الحَبَاب حيث يتم ذبح بهيمة (غالبا خروف أو معزة) لهذا الغرض وبعد سلخ البهيمة يستخدم جلدها كماعون يصب فيه دم البهيمة ومحتويات معدتها ويتم ادخال المريض جزئياً داخل ذلك الماعون بعد تفصيده بشفرة الحلاقة (الموس).

دِرْقِي»[١١٠] و«عَدْ مُعَلِّم»[١١١]، وكلها هجرات حديثة نسبياً للمنطقة. هذا فضلاً عن الدور الكبير الذي لعبته الطائفة الختمية في ربوع الحَبَاب، وبالتَّالي تأثرت لهجتهم لتَخْرُجَ قليلاً أو كثيراً عن طابعها اليماني، حيث أنه، وبطبيعة الحال، لم يكن هؤلاء السادة الوافدون من الحجاز وغيره يتحدثون لهجة أهل الجنوب (اليمن) ولذلك تركوا أثراً واضحاً في إدخال نطق الجيم بالطريقة السائدة. وربّما لهذا السبب نجد الحَبَاب الآن ينطقون حرف الجيم في عددٍ قليلٍ من المفردات بالطريقة العادية، ونلاحظ ذلك بصورة أوضح في المفردات المتدوالة في أذكار الختمية وتلاوة «المولد»[١١٢] مثل كلمات «جَنَّتْ - الجنة» و«جَبَنَتْ - بمعنى القهوة» و«جليل» و«جهنم» و«جَوْر- بمعنى التَّعَدِي والظُلْم»[١١٣] وغيرها، تنطق الآن بالطريقة العادية، بينما يظل نطق الجيم عندهم يمانياً في غالب المفردات الأخرى المحتوية على حرف الجيم، مثل قولهم «رُجُوم Rigoom» بمعنى رجيم أو ملعون، ومثل «جِلَيُه gilayu» بمعنى أجليه أي أبعده أو أخطفه. يقول الحباب: «مِي قَدَرْ جَلَيكُم؟» بمعنى ما المصيبة التى أخذتكم أو أجلتكم؟. هذا وقد هدانا التأمل في هذا الموضوع إلى شَيْء هام جداً يعزز ما نقول وهو أن أسماء بيت أسجدي القديمة تنطق الجيم فيها بالطريقة اليمانية؛ مثلاً أسجدي تنطق Asgade، بالجيم اليمانية، وجَبِرْكِتُوس

(١١٠) جدهم هو الفقيه "محمد" الذي ينتهي نسبه الى عبد الله بن الزبير، حيث أنجب الفقيه "محمد" الشيخ إبراهيم الذي أنجب كلاً من "محمود"، الإبن الأكبر الذي تفرع منه "عد شيخ محمود"، والشيخ "أحمد"، المشهور بأحمد "دِرْقِي"، الذي تفرع منه "عَدْ دِرْقِي".

(١١١) جدهم هو الشريف ابراهيم المعلم وينتهي نسبهم الى الامام حسن المثنى بن الامام حسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(١١٢) «المولد» عبارة عن كتيب صغير ألفه صاحب الطريقة الختمية ويحتوي على أوصاف وشمائل الرسول صلى عليه وسلم نظمها في شكل سرد نثري وقصائد شعرية وأدعية ويقوم أتباع الطريقة الختمية بتلاوة هذا الكتيب في مجالس منتظمة وبطريقة معينة.

(١١٣) يجب أن تلاحظ أن «جور» بمعنى الجوار والمعية والصحبة ما تزال تنطق بالجيم اليمانية عند الحَبَاب فمثلا يقولون: «مَنْ هلاً جُوَارِكُم guwaraikum» من يوجد بجواركم، أما «جُوْر» بمعنى التعدي والظلم فينطقها الحباب بجيم عربية أهل الشمال السائدة حاليا.

تنطق Gabir Kittos كذلك بالجيم اليمانية، وجَرْجِيس تنطق Garguees ، واسم الشاعر أمير وَدْ جَبَّاه، ينطق Gabbah، بالجيم اليمانية. ولكن في فترة لاحقة، وهي الفترة التى وفدت فيها الأسر الدينية التى أشرنا اليها (بنهاية القرن السابع عشر تقريباً)، نلاحظ أنَّ الجيم في أسماء الحباب أصبح يُنْطَقُ جيماً عادية (غير يمانية) فمثلا جَاوِج وَدْ فِكَاك (الذي حكم الحَبَاب في الفترة ما بين ١٧٩٠ إلى ١٨٣٠م تقريباً)، لا ينطق Gawig بالجيم اليمانية كما يفترض، ولكن ينطق Jawij بالجيم العادية ـ جيم أهل الشمال، وكذلك الحال بالنسبة لكل الأسماء المحدثة بعد نهاية القرن السابع عشر، كلها لا تنطق بالجيم اليمانية، وإنَّما بالجيم العادية مثل عَنْجَه وفُوجَاج وجَبِيب وعجين وحِجَّاف وجَرَّار وجِمِع وحِجَّتْ (حِجَّةٌ) وجَبِيل وعجيل وغير ذلك، وكلها أسماء جديدة نسبياً، ممَّا يسند زعمنا بأن التغير في لهجة الحباب كان وراؤه الهجرات الحديثة للوافدين من عرب الشمال.

مهما يكن من أمر فإنني أقول عن إدراك وقناعة راسخة إنَّ اللَّهْجَة الحَبَابية هي من أقدم اللهجات العربية لكونها ولدت من رحم لغة العرب العاربة، وهي في نفس الوقت، ومع عدم إغفال التأثير الحِمْيَرِي الكبير عليها، تتفق إلى حد كبير مع اللُّغة الفصحى (المُضَرِيَّة) في بعض تراكيبها ومفرداتها وصيغها المتعلقة بالأسماء والأفعال وطريقة الأشتقاق. ومع أن صيغتي النفي والنهي قد تأثرتا بالحِمْيَرِيَّة (حيث يستخدم حرف «إيْ» كأداة للنفي والنهي بدل لا النافية أو الناهية)، إلاَّ أنَّ الصّور النحوية الأخرى ظلت متفقة مع المضرية مثل المبتدأ والخبر والتأكيد والاستفهام والأمر والحال والصفة والتمييز والاشتقاق واسم الآلة واسم الزمان واسم المكان، وأدوات التعبير باللغة كالشعر والرجز. كما يمكننا أنْ نزعم أن اللَّهْجَة الحَبَابية تعد واحدة من أقدم اللهجات العربية، وأقربها إلى لغة الأولين (أقول اللَّهجات وليس لغة الكتابة)، وذلك لاحتفاظها إلى اليوم بالمفردات القديمة للغة العربية، كما كان يستخدمها شعراء الجاهلية، وكما وردت في القرآن الكريم، وذلك يعود لسبب أنَّ الناطقين بها لم يتحرروا بعد من قيود البداوة، وانحصر

اختلاطهم على مر العصور بالرافد العربي الذي يأتيهم عبر البحر تباعاً.

ومن جانب آخر شكل لهم الأحباش، والذين يتحدثون لهجة سامية نبعت في الأصل من اللُّغة العربية، سداً منيعاً من تأثير اللُّغات الأفريقية، ولهذا ظلت هذه اللَّهْجَة محصورة في محيط جغرافي ضيق نسبيا، يمتد من أرخبيل دهلك حتى سواكن، بمحاذاة ساحل البحر الاحمر مع بعض الانتشار في المناطق المنخفضة الواقعة غرب إرتريا وشرق السودان، ولاسيّما حول نهر بَرْكَا والقاش وسيتيت، على امتداد جريان تلك الأنهار داخل إرتريا والسودان، وبالتالي ظلت لهجة الحَبَاب، بصفة عامة، بعيدةً عن عوامل التلوث اللُّغَوي الذي يصيب أي لغة تتعرض للمدنية والمزاحمة من قبل لغات أخرى، كما حدث لبعض اللَّهجات العربية السائدة حالياً في بعض المناطق، حيث دخلت كثير من المفردات الهندية والفارسية والإنجليزية في اللهجات المحلية لدرجة أن الجاهل يحسبها مفردات عربية. وليس أدلَّ على نقاء اللَّهْجَة الحَبَابية من احتفاظها بالأسماء العربية القديمة للحيوانات والموارد الطبيعية والأشجار وما يرتبط بنشاطات الحياة اليومية من رعي وزراعة وتجارة، حيث نجد أسماء وتعابير تكاد تكون منقرضة في عالمنا العربي الراهن، ولن تجدها إلاَّ في اللَّهْجَة الحَبَابية، وبطون أمّهات مراجع التُّراث. ومن الأمثلة على ذلك كلمات مثل: «أثافي» و«مظعن» و«شَمْلَتْ» أي (شَمْلَةٌ) و«مطحن» و«ثفال» و«عقال» و«شكال» و«حبل مَسَد» و«عُكَّتْ» أي (عُكَّة)، و«مِدِر» و«شُرُم» و«قَدَاد» بمعنى شجر «القتاد»، و«جِرْمَتْ»[١١٤] بمعنى الجمال أو الجودة عموما، و«أكُل»

(١١٤) «الجِرْمُ» بكسر الجيم يعنى الحسن والصفاء؛ فإن قالت العرب « جرم لونه» يعنون: صفا لونه وحسن. ورد في المعجم الوسيط: «جَرِم لونه ـَ جَرَماً: صفا». وورد في لسان العرب: «وأجرم عظم لونه وصفا إذا صفا». وربما من هذا المعنى تطور لفظ «قرم» ومشتقاته، بمعنى السيد والعظيم.

قال الشاعر الأمير: خالد الفيصل، يمدح الملك فهد:

نحمد الله شيخنا راعي عـزوم ✲✲✲ والعظايم مالها غير العظام

شيـخنا قَرْمٌ تحَدَّر مِنْ قُـرُومْ ✲✲✲ الملك إبن الملك إبن الإمام

بمعني ثمر، وخاصة الذُّرَة، و«دِنَنْ» بمعنى انحنى، من دنا يدنو، و«جِبْ» و«أجْبَابْ» بمعني حفرة وجمعها حُفُـر، و«سفوف» بمعنى كل دواء يؤخذ مطحوناً غير معجونٍ، مثل سفوف حبِّ الرُّمان، و«حمق» بمعنى ضعف وهزل، و«نَكَأ» بمعنى خَدَشَ أو نزع قشرة الجرح و«كَلأ» بمعنى منع وحمى وغيرها كثير تجدها في الإستعمال الدَّارج للحباب، ويندر أن تجدها خلاف ذلك إلاَّ في الشِّعْر الجاهلي وقواميس اللُّغة!!.

شواهد سَبأ ـ حميَريّة متبقية:

إنَّ اللَّهْجَة الحَبابية هي من اللَّهجات القليلة التي ما تزال إلى يومنا هذا تستخدم مفردات من لغة سبأ وحِمْيَر (العرب العاربة)، مثل كلمة «عثتر» أو «عَسْتَر» بمعنى «سماء»، وهي إشارة إلى الإله «عثتر»، أو النجم[١١٥] الذي كان يعبده السَّبَئِيُّون والحِمْيَرِيُّون من بعدهم، وكذلك كلمة «مِدِر» بمعنى الأرض، و«حُو» بمعنى أخو و«حال» بمعنى «خال» و«سِمْ» بمعنى إسْم، و«إنَاس» بمعنى رجل، و"تَبْعَتْ" بمعنى ذكر وجمعها "تَبْعِن"، ومنها "التَّباعِنة" أو "التَّبابِعة" وهم ملوك حِمْيَر، و«أنْسَيِتْ»[١١٦] بمعنى إمرأة، و«بَعْل» بمعنى زوج أو مالك الشيء، و«بَأس» بمعنى الحرب و«حِيلَتْ» بمعنى قوة، و"لِيلِيتْ" بمعنى الليلة، و"جب" بمعنى الحفرة، وغير ذلك كثير من المفردات الحِمْيَرِيَّة التى لايمكن حصرها. وربَّما لهذا السبب، نجد تشابهاً بين لهجة هَمْدَان ولهجة الحَبَاب، باعتبارهما قد تأثرتا بنفس المصدر، وهو اللُّغة الحِمْيَرِيّة (لغة الحُكَّام)، حيث أنَّ هَمْدَان من نسل كهلان، الذي هو أخو حِمْيَر ومن أبناء سبأ كما ذكرنا. من ذلك مثلاً إنَّ الحَبَاب ما زالوا يستخدمون كلمة «سَحْل» من سَحَلَ يَسْحَلُ سَحْلاً، بمعنى بَرَدَ السكينَ أو السيفَ بالمَبْرَد، الذي يطلق عليه «المَسْحَل» في كلا اللهجتين الحبابية والهَمْدَانية. ورد في كتاب:

---

(١١٥) وقد أشار القرآن الكريم لهذا في قوله تعالى في الآية ٢٤ من سورة النمل: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، يعني ملكة سبأ «بلقيس».

(١١٦) «أنْسَيِتْ» في الحَبَابِيَّة والحِمْيَرِيَّة تقابلها «أُنْسِيَّةٌ» في العربية الفصحى. قال يزيد بن معاوية:

أُنْسِيَّةٌ لَوْ رَأتْهَا الشَّمْسُ مَا طَلَعَتْ ... مِنْ بَعْدِ رُؤْيَتِهَا يَوْماً عَلَى أَحَدِ

«الأنساب» لمؤلفه الصحاري، والذي تحدث فيه عن أصل قبيلة بني السّحُول (وهم بطن من هَمْدَان)، وتطرق لشرح كلمة «السّحُول» قائلاً[١١٧]: «السّحُول: فعول من السَّحْل، وهو الثوب الأبيض، أو يكون اشتقاقه من سَحَلْتُ الشيء أسْحَلُه إذا قشرته أو بَرَدْته بمَبْرد، أي سحلته بمَسْحَلٍ والمَسْحَل بلغتهم[١١٨] المَبْرَد».

ليس هذا فحسب، بل إنَّ اللَّهْجَة الحَبَابية هي اللَّهْجَة الوحيدة (حسب علمي)، التى ما تزال تحتفظ بأسماء قديمة لشخوصٍ من السَّبَئِيين والحِمْيَريين. ولكي نعطي أمثلة على ذلك نقول: إنَّ الحَبَاب، إلى الآن، يطلقون على بناتهم وأبنائهم ومناطقهم أسماء سبأ-حميرية، مثل «دلَّتْ» (دلّة)[١١٩]، و«هِدَاد»[١٢٠]، «أكَدْ»[١٢١] أو «إكِدْ» و«رحيب»[١٢٢]، و«عَرِيب»[١٢٣]، و«يجنس»[١٢٤]، «نَاشِح»[١٢٥]،

---

(١١٧) راجع كتاب: «الأنساب» لمؤلفه: أبي المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العَوْتَبِي (العُماني)، المتوفى في عام ٥١١هـ.

(١١٨) يقصد هَمْدَان.

(١١٩) دلّة (دلَّتْ) هي أم كل من طيء ومالك إبني أدد بن زيد بن بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ.

(١٢٠) «هدَاد» هو أحد أبناء حِمْيَر العشرة طبقا لبعض المؤرخين، وهنالك هدّاد بن زيد بن مناة بن الحَجْر بن عمران رهط الديل بن هدَاد الأزدي. ومن قدماء العرب المشهورين: هدَاد بن مداد وكذلك هِدَاد بن شداد بن عاد (راجع تاريخ ابن خلدون، ص ٣٣٨ وص ٣٤٨). وهنالك عدد كبير من مناطق اليمن يحمل إلى الآن اسم «هَدَاد»، بفتح الهاء والدال، ومنها مناطق ذَمَار وضُوْرَان آنِس وحَجَّة وصدَّان.

(١٢١) أكد Accad اسم لقوم ساميين قحطانيين من منطقة يافع الحميرية اليمنية، قام بعض أسلافهم قبل فترة طويلة من بداية التاريخ الميلادي بغزو العراق وتأسيس مدينة «أكد» على نهر الفرات، ومن ثمّ انبثق الأكديون.

(١٢٢) من المشهورين بهذا الاسم: الملك موهب بن مرة بن رحيب (راجع تاريخ ابن خلدون، صفحة ٣٤٠).

(١٢٣) "عريب" اسم دارج لدى السبأيين عموما ومن ذلك عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير، وعريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، والحَبَاب إلى اليوم يطلقون اسم «عريب» على الأرض المرتفعة شرط أن تكون مستوية.

و«كـلـب»، و«حُـبُـوب – الأحْـبُـوب» و«الـقـينا»(١٢٦)، و«شاور»(١٢٧)، و«جَعْوَة – بالجيم اليمانية»(١٢٨)، و«مدين»، و«مران»(١٢٩)، و«سموي»(١٣٠)، و«عمَير»، و«أبير»(١٣١)، و«حِوَال»، و«إياس» (إياسو)، و«سمور»، و«سمرة»، و«أوَد»، و«فِكَاك»، و«إزَازْ» أو «أدد»(١٣٢)، و«سرجون»(١٣٣)،.... إلخ، يحسبها الجاهل

---

(١٢٤) اسم «يحنس» وما شابهه يحسبه البعض اسم حبشي والحقيقة أنه اسم يماني قديم وللدلالة على ذلك نشير إلى أن كتب التاريخ تحدثنا عن الصحابي الجليل وبر بن يحنس الأنصاري الذي بعثه الرسول (ص) والياً على صَنْعَاء. أما «إزَازْ والتي ينطقها الحَبَاب أحيانا «إداد» فهو في الأصل اسم لجد قبيلة من اليمن يسمى أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ بن حمير، كما أنَّ «أداد» و«بعل» و«عشتار» هي أسماء آلهة كان يعبدها السبأيون وأحفادهم.

(١٢٥) «نَاشِح» ، بكسر الشين، اسم دارج لدى الحباب، يقابله لدى السبئيين في اليمن اسم «نَاشح» بطن من بني مالك بن جُشَم بن حاشد، ومنهم الإمام القدوة: مسروق ابن الأجدع، أحد كبار التابعين ومن المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ابن أخت عمرو بن معد يكرب. قال عنه أبو داود: "كان أبو الأجدع أفرس فارس باليمن"؛ راجع: سير أعلام النبلاء – الذهبي – ج ٤ – الصفحة ٦٤.

(١٢٦) كلب والقين ينتسبان إلى قضاعة (من حمير) وهم بطنان من قضاعة.

(١٢٧) بطن من قبيلة حاشد الهمدانية.

(١٢٨) جَعْوَة أو "قَعْوَة» هي الأميرة البلوية المشهورة والتى تولت الحكم بعد أخيها السلطان مكتر، وأمَّا في اليمن «القَعْوَة»، بفتحٍ فسكون ففتح: تطلق في الوقت الراهن على منطقة شمال باب المندب، تبعد بمسافة ٨٠ كيلومتر عن عدن جهة الغرب.

(١٢٩) «مران» اسم قديم كان متداولاً لدي السبأيين ومنهم: «ذو مران الأكبر»، جد الجهيرة بنت حمرة ذي مران الأكبر، وهي أم مالك الصامخ، أحد ملوك همدان المشهورين.

(١٣٠) سموي في لهجة الحَبَاب تطلق على حوض الماء الذي يعمل لشرب البهائم وإذا كان كبيرا يسمونه «شرم»، وسموي في الأصل هو اسم لأحد سادات «ذي مليح» واسمه «وهب ذو سموي اليف» من أحفاد السَّبَئِيين، راجع المفصل، مرجع سابق، الجزء ٣ ص ٣٢٦.

(١٣١) أبير هو جد أسماء بنت مخربة بن جندل بن أبير بن نهشل بن دارم (وأسماء هذه هي أم أبي جهل عمرو بن هشام).

(١٣٢) هذا الاسم «أدد» يتنقل كثيرا بين أبناء وأحفاد سبأ ولكن أشهرهم هو أدد (وهو طيء) بن زيد بن كهلان بن سبأ وتنتسب إلى أدد بن زيد قبائل طيء وبني مرة وهَمْدَان (أوسلة) ومالك (ويعرف أيضا بمَذْحِج واليه تنسب قبائل مَذْحِج). وقد ولد مالك أو مَذْحِج هذا كلا من سعد العشيرة بن مالك ومُرَاد (ويسمى يحابر) بن مالك وخالد بن مالك، وعبس بن مالك،

أعجميةً، وهي في الأصل أسماءُ العرب العاربة، وكانت متداولةً لدى السَّبَئِيين عموماً، ولها معانيها المعروفة في لغتهم، ولا تستخدم حالياً، حسب علمي، إلاَّ عند الحَبَاب.

ولهجة الحَبَاب هي لهجة عريقة وقديمة بكل المقاييس. نعم هي لهجة عتيقة تعاقبت عليها الأمم بعد السبأين والحميريين حتى جاء الإسلام، فتكلم بها أو أجادها المهاجرون الأوائل من صحابة رسول الله (ص) عند مكوثهم مع ملك الحبشة في أكْسُوم، حسب اعتقادنا، أو في «دَبَارْوَا» بالقرب من أسمرا حسب اعتقاد الأستاذ/ محمد سعيد ناود[١٣٤]، أو في السودان حسب اعتقاد البروفسير عبد الله الطيب والبروفسير حسن الفاتح قريب الله، اللّذان يحسبان أنَّ الهجرة كانت لبلاد السودان الحالي، وليس الحبشة الحالية، ولهما أسانيدهما في ذلك، وإنْ كُنَّا لا نتفق مع رأيهما.

لماذا لا نتفق مع رأيهما؟

يري الدكتور عبد الله الطيب أنّ هجرة الصحابة كانت إلى شمال السودان الحالي

وقبائل مَذْحِج اليوم تعتبر إحدى أكبر القبائل الحميرية وتوجد في اليمن وجنوب السعودية واليهم ينتمي فرع الحَبَاب الموجود في منطقة عسير.

(١٣٣) هو الملك القحطاني الأصل الذي أسس مملكة الأكديين في مدينة «أكد» في بلاد ما بين النهرين (العراق).

(١٣٤) للأستاذ محمد سعيد ناود (الحَبَابي) رأي يردده دائما وهو أنّ هجرة الصحابة رضوان الله عليهم كانت إلى إرتريا الحالية، وليس إلى الحبشة (بمعنى إثيوبيا). يقول ناود إنّ نجاشي الحبشة، الذي استضاف الصحابة، كان اسمه (أصمحه بن أبحر) ولقبه (بحر نقاش)، وكان مقيما في منطقة دباروا التى تقع إلى الشمال من أسمرا بحوالي ٢٥ كيلومتر. واستدل على ذلك بوجود أثار في تلك المنطقة، وما توصلت اليه بحوث كل من المهندس فتحي غيث في كتابه (الإسلام والحبشة عبر التاريخ)، والدكتور رجب محمد عبد الحليم في كتابه (العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصاري الحبشة في العصور الوسطى)، فالأول يشكك في وجود ذلك الملك في الحبشة بمعنى إثيوبيا الحالية، وأمّا الثاني فيؤكد صراحة أنّ النجاشي المعني كان مقيما في دباروا.

وليس الحبشة بموقعها المعروف، وتبنى نفس هذا الرأي الدكتور حسن الفاتح الشيخ قريب الله الذي مضى لأبعد من ذلك عندما قال إنَّ بلاط النجاشي كان في سوبا (الخرطوم حالياً!!) وإن مساكن الصحابة كانت هنالك. إنَّ محور الأسانيد الذي بنى عليها العالمان الجليلان رأيهما هذا هو اعتقادهما بأن النيل المذكور في السيرة (كما سنوضح) مقصود به النيل المعروف في السودان حالياً. فقد استدل الدكتور عبد الله الطيب في كثير من المحاضرات التى القاها في هذا الشأن بما ورد من ذكر للنيل في القصة التى روتها أم سلمة عن المعركة التى دارت بين النجاشي وخصومه. وقبل أنْ نبين فساد هذا الاستدلال، نشير في عجالة الى حججٍ أَوْهَنَ ذكرت لبرهان هجرة الصحابة الى السودان[١٣٥]. فقد أورد الدكتور حسن الفاتح الشيخ قريب الله اسانيد أخرى ليدلل على صواب رأيه ومن ذلك:

١- بعد المسافة الى الحبشة بَرّاً - قَدَّر المسافة من ساحل البحر الى الموقع المفترض (أقرب نقطة نيلية في الحبشة في بحيرة تانا!!) بسبعمائة كيلومتر؛
٢- إنَّ خروج الصحابة في هجرتهم الاولي كان في شهر رجب من السنة الخامسة من النبوة وأنهم وصلوا إلي الحبشة في نفس الشهر، وهذا يدل علي أن الأرض التي هاجروا إليها كانت قريبة جدا من ديارهم وإلا لما أمكنهم أن يصلوا إليها في أيام.

وفي أغرب نتيجة تتناقض مع كل المعطيات، خلص العالم الجليل الى إنَّ هجرة الصحابة رضوان الله عليهم كانت الى وسط السودان الحالي وبالتحديد الى مملكة علوا، وإنَّ مساكن الصحابة كانت في سوبا (أي بالقرب من الخرطوم الحاليةّ!!).

ولا أدري كيف وصل العالم الجليل الى هذه النتيجة التى تتناقض مع الاستدلالات التى قدمها هو بنفسه لإثبات أن الهجرة لم تكن للحبشة، فالمسافة براً

(١٣٥) للاطلاع على مزيد من الأسانيد التى قيلت لتأييد الزعم بأن هجرة الصحابة كانت للسودان الحالي (وليس الحبشة أو أرتريا)، أنظر كتاب: «السودان، دار الهجرتين الأولى والثانية للصحابة» للشيخ الدكتور حسن الفاتح الشيخ قريب الله، طباعة المؤسسة العامة للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان، الخرطوم ١٩٩٦م.

من الساحل الى الخرطوم تعادل على الأقل ضعف المسافة من الساحل الى أكسوم (عاصمة ملك الحبشة في وقت الهجرة)، هذا اذا استبعدنا اي مدينة أخرى ذات موقع أقرب للشاطيء مثل دباروا في أرتريا، والتى يرى البعض إنَّ الهجرة كانت اليها. ولو افترضنا أن الصحابة نزولوا أولا في سواكن كما يرى الدكتور حسن، ثُمَّ سلكوا الطريق براً الى سوبا وسط السودان، فانهم بلا شك كانوا سيحتاجون لفترة أطول من الفترة الى قد يصلون فيها من الساحل (أياً كان الموقع) الى أي مدينة في الهضبة الحبشية (أياً كان الموقع)، حيث كانت كلها تابعة لأكسوم في ذلك الوقت. ولا أدري كيف فات على الدكتور الجليل ما ذكره ابن هشام عن ابن اسحاق في السيرة العطرة من أنَّ النجاشي، إبَّان معركته مع منافسه، قد هيأ للصحابة سفناً وطلب من جعفر بن أبي طالب ومن معه أن يركبوا تلك السفن وقال لهم: "فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظَفرتُ فاثبتوا"، فهل تلك السفن كانت مجهزة لتجري في البحر أم النيل؟ وهل كانت تلك السفن معدة للسفر بها من سوبا الى الحجاز أم الى مصر ـ ذلك لأن النيل لا يسير تجاه الحجاز ولا يتصل بالبحر الأحمر وإنما يذهب الى مصر!! وإذا افترضنا أن النجاشي كان في سوبا، فهل يعقل أنْ يجهز السفن في (سوبا) ويوصي الصاحبة بالركوب فيها إذا انهزم لتجليهم بسرعة الى الحجاز؟ وربما يقول قائل إنَّها أعدَّها لهم على ساحل البحر الأحمر، فنقول: إذا كان القصد من أعداد السفن هو استخدامها للهروب السريع من خطر منافسه إذا انتصر، فهل غفل النجاشي عن الخطر الذي كان يتهدد الصحابة في البر؟ ألم يدُرْ في خلد النجاشي أنَّ خصمه ربَّما يقضي على الصحابة في المسافة بين سوبا (الخرطوم) وساحل البحر المالح وهي بلاد شاسعة ويفترض أنَّ بها الكثير من المناصرين لخصم النجاشي، ناهيك عن المصاعب االتى كانت ستعترضهم خلال سيرهم في تلك الوهاد والوديان والسهول والجبال، والعدو ليس من خلفهم فقط وإنما يفترض أنه يتصيدهم من كل جانب عبر أتباعه حتى يصلوا الى السفن ويبحروا بها آمنين!! هل بعد كل تلك المهالك كانت حيلة السفن الرابضة على ساحل يبعد قرابة ألف كيلومتر ستجدي نفعاً؟!!.

نعود الى الاستدلال الأساسي الذي ربَّما أوحى لعالمٍ في قامة البروفسير عبد الله الطيب ليقول بهجرة الصحابة الى السودان الحالي، وليس الحبشة (أكسوم) وهو ذكر النيل في قصة أم سلمة. وخلاصة القصة هي إنَّ رجلا خرج على النجاشي وثار عليه فخاف المهاجرون أن ينتصر خصم النجاشي ويسيئ للمسلمين. ثُمَّ سار النجاشي بجيشه إلى ذلك الثائر عليه، وحسبما روت أمُّ سلمة فإن نهر «النيل» كان يفصل بين الموقع الذي نزل فيه المسلمون وموقع المعركة بين النجاشي وخصومه. ويبدو أن المهاجرين لم ينخرطوا في القتال ولكنهم كانوا متلهفين لمعرفة نتيجة المعركة فقالوا هل من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثُمَّ يأتينا بالخبر؟ فانبرى لتلك المهمة المهاجر الصحابي الزبير بن العوام، وكان من أصغر المهاجرين إلى الحبشة سناً، فنفخوا له قربة رُبِطَتْ على صدره، ثُمَّ سبح عليها حتى مضى إلى الجانب الآخر من «النيل»، وأخذ يرقب المعركة، فما لبث الزبير أنْ عاد من مهمته وكان المسلمون يرقبون من بعيد، وأراد أن يبلغهم النتيجة فرفع صوته فلم يصل إليهم فلوح بثيابه ويديه، وبدت عليه علامات الفرح بالنصر. وتعليقاً على ما سبق نقول إنَّ ذكر «النيل» أوْهَمَ العالم الجليل البروفسير عبدالله الطيب بأن الهجرة كانت لمنطقة حول حوض النيل بالسودان الحالي، وتبعه في ذلك الشيخ البروفيسر حسن الفاتح قريب الله. ومع احترامي للعالمين الجليلين أقول إنَّ مؤرخي العرب والمسلمين كانوا يعتبرون أنَّ كلَ نهر في الحبشة جزءا من النيل. وهذا الأمر صحيح إلى حد كبير حيث إنَّ هنالك ستة أنهر على الأقل كلها تنطلق من الحبشة لتصب في النيل، ويشمل ذلك الفرع الرئيسي للنيل الأزرق الذي ينبع من بحيرة تانا، وكذلك نهر تكازي ـ أتبرا. ونحن لا نشك في أنّ مقر ملك النجاشي كان في أكسوم أو ما جاورها من أرض التجراي في شمال اثيوبيا وجنوب إرتريا الحالية، وإنّ كل قول خلاف ذلك يسقط سقوطاً مدوياً، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار لغة الحوار التى كانت سائدة في بلاط النجاشي وهي لغة الجِعِيز Geez حيث قال النجاشي للمهاجرين انتم «شيوم» في بلدي وقال لهم: ما أحب أنّ لي «دبر» ذهب وإني آذيت رجلاً منكم. ولا اعتقد ان لغة الجِعِيز كانت منتشرة في شمال السودان الحالي وهو المعروف في ذلك الوقت بانه

منطقة مقفولة للنوبيين أصحاب اللغات الحامية البعيدة كل البعد عن العربية، ولم يكن للعرب وجود يذكر بينهم حينئذ. أمّا الإشارة إلى «النيل» في قصة أم سلمة فلا تنهض كدليل على أن الهجرة كانت لشمال السودان. بل إن المقصود بالنيل في تلك القصة هو في الغالب أحد نهرين، وكلاهما يوجدان ليس ببعيد عن أكسوم. فإما أن يكون المقصود بنهر النيل هنا النهر الواقع جنوب غرب أكسوم وهو نهر تكازي (Tekezé River) الواقع على بعد ٤٥ كيلومترا تقريبا (إذا افترضنا وجود طريق مستقيم بين أكسوم وتكازي). ويعتبر نهر تكازي الرافد الأساسي لنهر عطبرة الذي يصب مباشرة في النيل ولذلك فإن نهر تكازي هو بالفعل جزء من النيل ويجوز أنْ يسمى (النيل) بل ويعرف أحد روافده إلى اليوم في اثيوبيا بمسمى نيلي Nili (أي النيل) ويعتبر تكازي نهراً أساسياً في اثيوبيا، حيث ينبع من أعالي الهضبة الحبشية (وبالتحديد من الجبال الواقعة شرق بحيرة تانا)، ليجري تجاه الشمال، ثُمَّ الشمال الغربي، ليشق الجزء الجنوبي من دولة اكسوم التاريخية، ثُمَّ يتجه غرباً ليشكل فيما بعد الحدود بين إرتريا وإثيوبيا، ويتغير اسمه إلى نهر سيتيت (Setit River) حتى يدخل الحدود السودانية، ويلتحم بالرافد الثاني لنهر عطبرة. الاحتمال الثاني هو إنّ الإشارة إلى النيل في قصة أم سلمة يقصد بها النهر الواقع في المنطقة الشمالية الغربية من دولة أكسوم التاريخية وهو نهر مأرب (Mareb River) ، الواقع على بعد ٣٥ كيلومترا تقريباً (إذا افترضنا وجود طريق مستقيم بين أكسوم وتكازي). إنّ نهر مأرب ينبع من الجبال الواقعة جنوب أسمرا، ليس بعيدا من منطقة عدي جرات (Adigrat) في بلاد التجراي ـ وهذه المنطقة تعد من صميم مملكة أكسوم التاريخية ـ ويشكل الجزء العلوي من هذا النهر الحدود بين اثيوبيا وإرتريا حاليا، ويمر بعد ذلك نحو الشمال الغربي داخل الآرضي الإرترية ليتغير اسمه إلى نهر القاش (Gash River) ، ويواصل جريانيه نحو الغرب إلى أن يدخل الحدود السودانية ويمر عبر مدينة كسلا ثُمَّ يتجه شمالا إلى المنطقة الواقعة شرق أروما، ليغور في الرمال ويتبخر ماؤه ولا يصل إلى النيل أو البحر. إذنْ من الناحية الجغرافية نجد أكسوم واقعة بالقرب من نهرين أساسيين هما تكازي ومأرب، وهما يجريان نحو النيل ويشكل أحدهما كما قلنا

رافداً اساسياً للنيل، بينما تنقطع رحلة الآخر. ولذلك ليس من المستغرب أن يطلق العرب على أيّ واحدٍ منهما النيل. هذا جانب، والجانب الآخر والأهم من حجتنا هو إنَّ المؤرخين العرب يطلقون مسمى «النيل» على كل الأنهار التى تجري في أفريقيا، شرقها وغربها. ومن ذلك مثلاً ما ذكره القزويني في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد» عن بلدة سمهر حيث يقول إنها «قرية بالحبشة، بها صناع الرماح السمهرية، وهي أحسن الرماح؛ قاله الصولي، وقال غيره: إن هذه القرية في جوف النيل يأتيها من أرض الهند على رأس الماء كثير من القنا، يجمعها أهل هذه القرية يستوقدون رذاله ويثقفون جيده ويبيعونه»(١٣٦). انتهى كلام القزويني. ومن المعلوم أن بلاد سمهر تقع في أقصى إرتريا، وهي بعيدة كل البعد عن النيل (المعروف حاليا)، وتجاور بلاد العفر في الصومال، ولكن بها أنهار أو خيران محلية، وقد أطلق المؤرخون كما لاحظنا اسم «النيل» على أحد الأنهار التى تمر بتلك القرية.

بَيْدَ أنَّ أوضح مثال لزعمنا أنَّ العرب كانوا يطلقون كلمة «النيل» على كل نهر في أفريقيا هو ما ذكره الإدريسي في كتابه المسمى: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، حيث يطلق مسمى «النيل» على نهر في بلاد التكرور، ويحدد تلك البلاد في فقرة «الإقليم الأول» من «الجزء الأول» من كتابه بقوله: «إنَّ هذا الإقليم الأول مبدؤه من جهة المغرب من البحر الغربي المسمى ببحر الظلمات (المحيط الاطلسي) وهو البحر الذي لا يعلم ما خلفه». ثُمَّ يورد وصفاً لمدن وسكان ذلك الإقليم فيقول: «وفي هذا الجزء الذي رسمناه من المدن: أوليل وسلى وتكرور وبريسى ودو ومورة، وهذه البلاد من أرض مقزارة السودان. فأما جزيرة أوليل فهي في البحر وعلى مقربة من السَّاحِل وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان وذلك أن المراكب تأتي إلى هذه الجزيرة فتوسق بها الملح وتسير منها إلى موقع النيل وبينهما مقدار مجرى فتجري في النيل إلى سلى وتكرور وبريسى وغانة وسائر بلاد ونقارة وكوغة وجميع بلاد السودان

(١٣٦) «آثار البلاد وأخبار العباد» لزكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت، ص ٤٥.

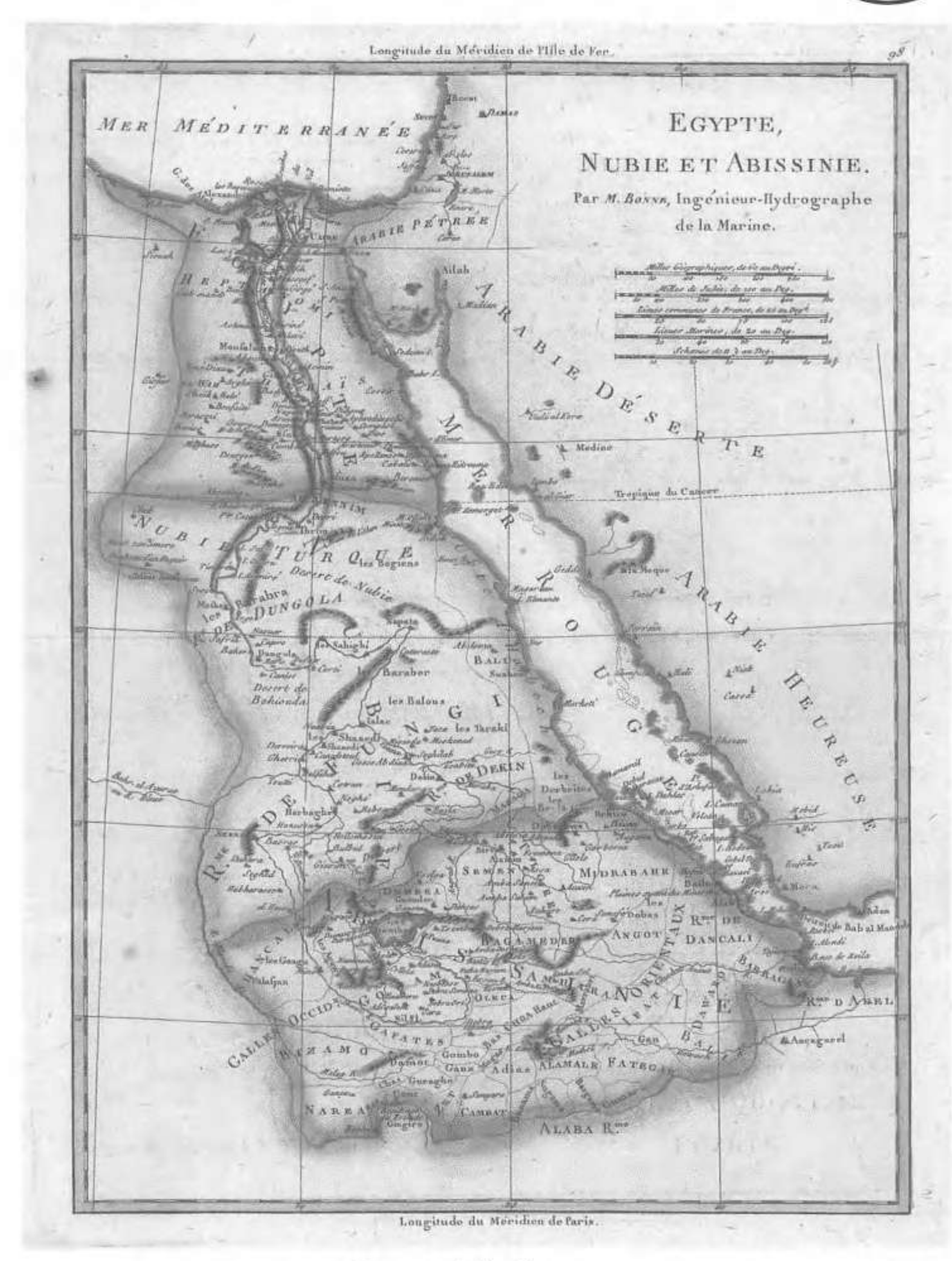
وأكثرها لا يكون لها مأوى ولا مستقر إلا على النيل بعينه أو على نهر يمد النيل». وتعليقا على ذلك نقول إن الإدريسي من الواضح لا يقصد نيل مصر والسودان الحالي، وإنّما يقصد نهراً آخر (نعتقد أنه نهر النيجر) يسميه «النيل»، يقع في غرب أفريقيا في بلاد «سلى وتكرور وبريسى وغانة وسائر بلاد ونقارة وكوغة». ويصف لنا عملية شحن الملح من جزيرة أوليل التى في المحيط (بحر الظلمات) ليمر عبر البحر إلى النيل الذي «على مجرى» من البحر، يعني ليس ببعيد من الجزيرة، ومن ثمَّ تجري المراكب على «النيل» محملة بالملح إلى تلك الأمم التى يسكن معظمها على شاطئ ذلك «النيل»، وليس لهم مستقر «إلاّ على النيل بعينه أو على نهر يمد النيل» كما يقول. وتأكيداً على أنَّ النيل هنا لا يعنى نيل مصر والسودان نشير إلى قول الإدريسي: «ومدينة «سلى» على ضفة نهر النيل وبشماله، وهي مدينة حاضرة، وبها مجتمع السودان ومتاجر صالحة وأهلها أهل بأس ونجدة، وهي من عمالة التكروري، وهو سلطان مؤمر، وله عبيد وأجناد وله حزم وجلادة وعدل مشهور، وبلاده آمنة وادعة وموضع مستقره، والبلد الذي هو فيه مدينة تكرور وهي في جنوب النيل، وبينها وبين سلى مقدار يومين في النيل وفي البر. ومدينة تكرور أكبر من مدينة سلى وأكثر تجارة، وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز، ويخرجون منها التبر والخدم، وطعام أهل سلى وأهل تكرور الذرة والسمك والألبان ... إلخ».

هذا وقد أفاض الادريسي في وصف نيل بلاد التكرور وأهلها ثُمَّ أفرد «الجزء الرابع من الإقليم الأول» في صفحة كاملة من كتابه للحديث عن نيلنا المعروف في مصر والسودان فقال متدحثا عن إقليم النوبة وبعض بلاد الحبشة: «وفي هذا الجزء افتراق النيلين، أعني نيل مصر الذي يشق أرضها وجريه من الجنوب إلى الشمال، وأكثر مدن مصر على ضفتيه معاً وفي جزائره أيضا».

كذلك نجد إشارات مبهمة إلى النيل في عمق أرض البُجَة حيث يقول بن حوقل (ت ٣٥٠هـ) في كتابه «صورة الأرض»: «وبلدهم بين النيل والبحر... نواحي

قلعيب ... ويتصل بها مما يلي سواحل البحر الخاسة، بطون كثيرة في السهل والجبل، وكان هذا الجبل آخذا بأوديته من نواحي البحر المالح إلى دكن وهي أرض مزارع أحواف بجري اليها ماء النيل. . .الخ».

ولفائدة القاريء فإنَّ منطقة «دكن» المشار اليها في نص ابن حوقل السابق يقصد بها منطقة نهر القاش (الجاش – بالجيم اليمانية) الحالية، وهي منطقة أَسَّسَ فيها (فيما بعد) قومٌ يسمون العنساب (رهط السلطان مكتَّر والأميرة «جَعْوة Gaawa») مملكة كانت تعرف بمملكة الدكن أو "دجين – بالجيم اليمانية – وتكتب "دقين" مسايرة للنطق السائد حالياً). والعنساب (من عنسبا – عين سبأ) هم قوم (يعتقد أنهم جزء من البلو) كانوا يسيطرون على أجزاء من حوض نهر "عنسبا"، ثم نزل بيت أسجدي (الحباب) من كبسا الى الساحل في حدود عام ١٥٠٠م وتمكنوا من إزاحة العنساب (والفونج) من حوض عنسبا. ونعتقد أن اسم قرية «دقين ـ أو بالأصح دجين – بالجيم اليمانية» والتى تقع حالياً في دلتا القاش شمال كسلا، هو من إرث هذه المملكة. (راجع تعليق الباحث المصري الشاطر بصيلي عبد الجليل على هذا النص في كتابه «تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط»). كذلك لا ندري ما إذا كانت هنالك علاقة بين "دكن" والاسم المعروف «دكين Dakeen» المتداول حاليا.



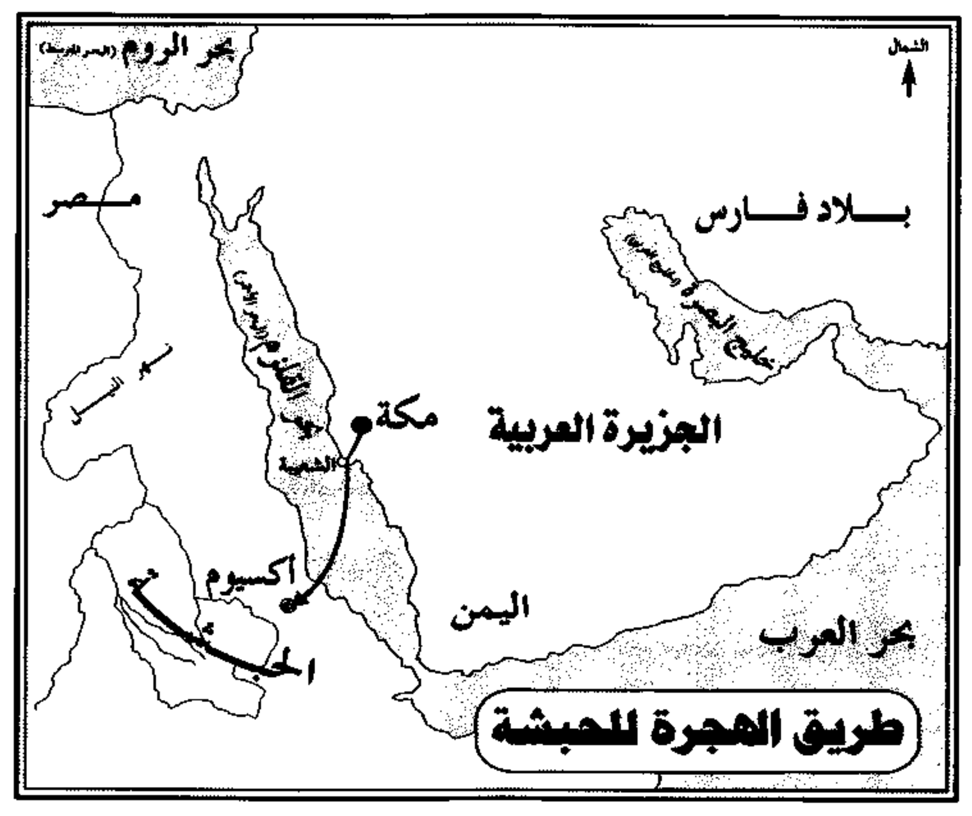
خريطة نشرت بواسطة ريجوبيرت بوني Bonne, Rigobert في باريس في عام ١٧٨٧-١٧٨٨م يتضح فيها موقع مملكة دجين (دقين Dekin) حول نهر القاش (الجاش) وجنوب منطقة كسلا الحالية، وكما نرى فإن وجود البلو قد انحصر (في تلك الفترة – أواخر القرن الثامن عشر) في المنطقة التي تقع شمال سواكن بينما نجد مملكتهم في الخرائط الأقدم تمتد لمساحة أكبر.

وعلى هذا النسق يسير ابن بطوطة فيصف لنا «خيل البحر»، التى رآها في رحلته في غرب أفريقيا فيقول عنها إنها «أغلظ من الخيل ولها أعراف وأذناب، ورؤوسها كرؤوس الخيل، وأرجلها كأرجل الفيلة. ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تنبكتو إلى كوكو، وهي تعوم في الماء، وترفع رؤوسها وتنفخ». راجع كتاب «رحلة ابن بطوطة».

وخلاصة القول إنَّ المؤرخين العرب كانوا يعرفون الحبش واقليم الحبشة أكثر من معرفتهم لأي شعب أو اقليم آخر في القارة الأفريقية. فإذا ارادوا تخصيص جنس ما (من أجناس السودان وهي لفظة عامة تشمل الحبش والسود في عرف العرب) يختلف عن الحبش ذكروا ذلك الجنس باسمه المعروف لديهم. فمثلاً نجدهم يتحدثون عن النوبة والبُجَة وأجناس السودان الأخرى من تكرور وزغاوة وغانا وكوكو والزنج وغيرها. وكانوا يعزون الأشياء إلى مصادرها في تلك المناطق دلالة على معرفتهم بها، ومن ذلك قولهم سفينة عدولية (نسبة إلى مدينة عدوليس جنوب مصوع)، والنجب البختية (نسبة إلى مدينة بختة البجاوية)، ورماح سمهرية نسبة إلى بلاد سمهر، وجارية نوبية، وهكذا. قال الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد:

كَأَنَّ حُـدُوجَ المَالِكِيَّةِ غُـدْوَةً خَـلاَيَا سَفِيْـنٍ بِالنَّـوَاصِفِ مِنْ دَدِ
عَدَوْلِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِيْنِ ابْنَ يَامِنٍ يَجُـوْرُ بِهَا المَـلاَّحُ طَوْراً وَيَهْتَـدِي

ولذلك لو كانت الهجرة إلى السودان الحالي، الذي كان يسكنه في ذلك الوقت عنصران معروفان للعرب هما البُجَة والنوبة، لكان من باب أولى أنْ يقال (ولو مرةً واحدةً) إنَّ الصحابة هاجروا إلى ملك البُجَة أو ملك النوبة أو إلى علوا أو سوبا أو هجر أو سواكن أو عيذاب أو وادي العلاقي أو دونقلة، ولكن كل هذا لم يحدث رغم شهرة تلك الشعوب والأماكن في ذلك الوقت، بل كل كتب التراث لا تحتوي أي إشارة لتلك المناطق عند الحديث عن الهجرة، وإنَّما تصرح بأن الهجرة كانت لملك الحبشة، وبلاده التى «تلي اليمن».



أمّا محاولة الاستدلال بكلمة النيل المذكورة في نص أم سلمة فهي محاولة باطلة لأنَّ العرب، كما أوضحنا كانوا يطلقون مسمى النيل على أي نهر في بلاد الحبشة، بل وأفريقيا كلها، ولهذا فإنَّ الإشارة إلى النيل في قصة أم سلمة لا تعنى نهر النيل المعروف لدينا حاليا، ولا تصلح كدليل على أنَّ الهجرة لم تكن للحبشة (المعروفة). وخلاصة الخلاصة إنَّ الهجرة بدون أدنى شك كانت إلى الحبشة، والتى لا تعنى بالضرورة «إثيوبيا» بحدودها الحالية، ولكن قطعاً تشمل منطقة شمال إثيوبيا حيث مرتفعات التجراي (أكسوم) والهضبة الإرترية الحالية والمتمثلة في أقاليم سراي وأكلي جُوزَايْ (بالجيم اليمانية) وحماسين. وحيث إنّ أكسوم كانت أشهر الممالك في تلك البقاع في ذلك الوقت فإن المنطق في غياب الدليل المخالف يقضي بالضرورة إلى أنَّ مملكة أكسوم كانت محط الهجرة.

نعود الى لهجة الحَبَاب فأقول: إنَّ منبع هذه اللهجة هي اللغة «الجَعِيزِيّة» التى كانت لغة البلاط والكنيسة في تلك العصور، وهي لغة تحدث بها أو على الأقل فهمها المهاجرون الأوئل من المسلمين إلى الحبشة بدليل أنهم كانوا يدركون ما يقول أهل أكسوم وبالأخص عندما تحاوروا مع ملك الحبشة وبطارقته بدون واسطة أو «تُرْجُمَان» كما ورد في كتب السيرة. وظلت كلماتها عالقةً في أذهانهم حتى بعد الرجوع للحجاز، وربّما نقلوها لغيرهم فقد تحدث جعفر بن أبي طالب، والسيدة عائشة أم المؤمنين عن «الزفن»(١٣٧)، بمعنى الرقص، بل وتحدث بكلمات منها الرسول الأعظم (ص) عندما قال: «أشَكُو مِنْ دِرِد»(١٣٨)، وعندما قال «سَنَهْ سَنَهْ» أي حَسُنٌ حَسُنٌ(١٣٩). وللدلالة على هذا الزَّعم، نشير إلى القصة الطويلة، والحوار الإيماني الثَّر

(١٣٧) عن عكرمةَ مَوْلَى ابْنِ عبَّاسٍ، عن عائشةَ أُمِّ المُؤمنين، قالت: «أَتَانِي رَسُولُ اللهِ (ص) وَأَنَا أَطَّلِعُ إلى حَبَشَةٍ يَزْفِنُونَ، فَجَاءَ النَّبِيُّ (ص) حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «هُنَّ بَنَاتُ أَرْفَدَةَ». فَجَعَلُوا يَزْفِنُونَ حَتَّى كُنْتُ أَنَا الَّتِي ذَهَبْتُ». وتعنى عائشة بكلمة « يَزْفِنُونَ» يرقصون. وكلمة «زفن» ما يزال معناها الرقص في لهجة الحَبَاب ولكنه الرقص الذي يكون للتعبير عن الحزن في حالة الموت فقط، ويقتصر الزفن لدى الحباب على النساء، وينجلي في أبهى صوره خاصةً إذا كانت شخصية الميت مرموقة، حيث تلبث نساؤهم ملابس الميت وتأخذ السيف لترقص به في عادة يسمونها «زَفِن». وورد في كتب السيرة أن جعفر بن أبي طالب بعد رجوعه من الحبشة حزم ذات مرة نفسه بثوبه واصبح يحجل (يرقص) فقيل له ما هذا يا جعفر فقال هذا «زفن» تعلمناه من أهل الحشبه.

(١٣٨) اورد ابن كثير في الجزء الأول من كتابه تفسير القرآن العظيم، الصفحة ٩١، أن الرسول (ص) مر على ابي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال: « أشكم درد» ومعناها أيوجعك بطنك؟ «أتشكو من درد؟» قال نعم، قال: قم فصل فان الصلاة شفاء. وكلمة «درد» ما تزال تستخدم حتى اليوم في اللهجة الحَبَابية بمعنى البطن وأحيانا تنطق «دِرِط».

(١٣٩) روي البخاري عن عبد الله بن المبارك عن أم خالد بنت خالد بن سعيد أنها قالت: أتيتُ رسول الله (ص) مع أبي، وعليّ قميص أصفر، فقال رسول الله: «سَنَهْ سَنَهْ». قال رواي الحديث عبدالله يعني بالحبشية حسن حسن. وأم خالد هذه كانت صبية ضمن المهاجرين الذين هاجروا إلى الحبشة ونشأت على اللسان واللهجة التى كانت سائدة في دار الهجرة بالحبشة وهي بلا شك لغة كانت قريبة من لغة المهاجرين وإلاَّ لما تيسر للمهاجرين بيان دعوتهم لأصحاب البلاط الحبشي والتعايش من أول يوم مع قوم يجهلون لغتهم. وكلمة «سَنَهْ» أو «سنا» ما زالت

الذي تم في بلاط عظيم الحبشة، بين المهاجرين المسلمين من جهة، والنجاشي وقساوسته من جهةٍ أخرى. لقد اجتهد فقهاء السيرة، وحرصوا على نقل ما دار في ذلك الحوار بالحرف، لدرجة أنّهم كانوا يشرحون الكلمات العربية الفصيحة، التى قد يستشكل فهما على البعض. روى صاحب كتاب «الروض الأنف»(١٤٠) عن ابن سحاق عَنْ أُمّ سَلَمَةَ(١٤١)، زَوْجِ رَسُولِ اللهِ (ص) فيما بعد، قَالَتْ: لَمّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارِ النّجَاشِيّ(١٤٢)، أَمِنّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللهَ تَعَالَى، لا نُؤْذَى وَلا نَسْمَعُ شَيْئاً نَكْرَهُهُ فَلَمّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشاً، ائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا إلى النّجَاشِيّ فِينَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ جَلْدَيْنِ وَأَنْ يُهْدُوا لِلنّجَاشِيّ هَدَايَا مِمّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا الأَدَمُ فَجَمَعُوا لَهُ أَدَماً كَثِيراً، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بِطَارِقَتِهِ بِطْرِيقاً(١٤٣) إلاّ أَهْدَوْا لَهُ هَدِيّةً ثُمّ بَعَثُوا بِذَلِكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَأَمَرُوهُمَا بِأَمْرِهِمْ وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعَا إلى كُلّ بِطَرِيقٍ هَدِيّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلّمَا

مستخدمة إلى اليوم في اللهجة الحَبَابية وتعني حسن وجيل وهي اختصار لكلمة «سناء» بمعنى الضياء والنور وهو دائما رمز للجمال والفأل الحسن في اللُغة العربية والامر كذلك بالحَبَابية.

(١٤٠) راجع الصفحات من ١٤٦ إلى ١٥٤ من المجلد الثالث من كتاب: «الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام» لمؤلفه: أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت.

(١٤١) هي هند بنت أبي أمية المخزومية، أبوها سهل بْن الْمُغِيرَةِ بْن عَبْد اللَّهِ بْن عُمَر بن مخزوم ويكنى جدُها بزاد الركب لكرمه. تعد أم سلمة من السابقات في الإسلام، وكانت ضمن من شهد المهجرتين إلى الحبشة، ثُمّ رجعت إلى مَكَّة، وهاجرت مع زوجها إلى المدينة وصارت أول امرأة مهاجرة تدخل المدينة. استشهد زوجها أبو سلمة في المدينة من أثر جرح في غزوة أحد، فتزوجها النبي (ص) لتصبح أماً للمؤمنين.

(١٤٢) قال أبو طالب بن عبد المطلب يمدح النَّجَاشِي:

تَعَلّمْ أَبَيْتَ اللّعْنَ أَنّكَ مَاجِدٌ ... كَرِيمٌ فَلا يَشْقَى لَدَيْكَ الْمُجَانِبُ
تَعَلّمْ بِأَنّ اللهَ زَادَكَ بَسْطَةً ... وأَسْبَابَ خَيْرٍ كُلّهَا بِكَ لازِبُ
وأَنّكَ فَيْضٌ ذُو سِجَالٍ غَزِيرَةٍ ... يَنَالُ الأعَادِي نَفْعَهَا وَالأَقَارِبُ

(١٤٣) البطريق هو القائد والجمع بطارقة أي قواد (ضُبَّاط بالمعنى الحديث).

النّجَاشِيّ فِيهِمْ ثُمّ قَدّمَا إلى النّجَاشِيّ هَدَايَاهُ ثُمّ سَلاهُ أَنْ يُسَلّمَهُمْ إلَيْكُمَا قَبْلَ أَنْ يُكَلّمَهُمْ. قَالَتْ فَخَرَجَا حَتّى قَدِمَا عَلَى النّجَاشِيّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ بِطَارِقَتِهِ بِطَرِيقِ إلاّ دَفَعَا إلَيْهِ هَدِيّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلّمَا النّجَاشِيّ، وَقَالا لِكُلّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ إنّهُ قَدْ ضَوَى إلى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْنَا إلى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدّهُمْ إلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلّمَهُمْ إلَيْنَا وَلا يُكَلّمُهُمْ، فَإِنّ قَوْمَهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْناً، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ.

ثُمّ إنّهُمَا قَدِمَا هَدَايَاهُمَا إلى النّجَاشِيّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمّ كَلّمَاهُ فَقَالا لَهُ أَيّهَا الْمَلِكُ إنّهُ قَدْ ضَوَى إلى بَلَدِك مِنّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِك، وَجَاءُوا بِدِينٍ ابْتَدَعُوهُ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ وَقَدْ بَعَثْنَا إلَيْك فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدّهُمْ إلَيْهِمْ فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْناً، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ.

قَالَتْ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إلى عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ كَلامَهُمْ النّجَاشِيّ. قَالَتْ: فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ صَدَقَا أَيّهَا الْمَلِكُ قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْناً، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ فَأَسْلِمْهُمْ إلَيْهِمَا، فَلْيَرُدّهُمْ إلى بِلادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ. قَالَتْ: فَغَضِبَ النّجَاشِيّ، ثُمّ قَالَ: لاهَا اللهِ إذْن لا أُسْلِمُهُمْ إلَيْهِمَا، وَلا يَكَادُ قَوْمٌ جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ حَتّى أَدْعُوهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ عَمّا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ أَسْلَمْتهمْ إلَيْهِمَا، وَرَدَدْتهمْ إلى قَوْمِهِمْ وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتهمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْت جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي». ثُمَّ يواصل ابن إسحاق روايته فيقول نقلا عن أم سلمة إنها قَالَتْ: «ثُمّ أَرْسَلَ إلى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ (ص) فَدَعَاهُمْ فَلَمّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا تَقُولُونَ لِلرّجُلِ إذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاَللهِ مَا عَلِمْنَا، وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيّنَا (ص) كَائِناً فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

فَلَمَّا جاءُوا، وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، سَأَلَهُمْ فَقَالَ: لَهُمْ مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي، وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ؟ قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ وَيَأْكُلُ الْقَوِيّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إلى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ [المحارم والدماء] وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ - لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً - وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ[١٤٤].

قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإسلام: فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ اللهِ فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إلى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلّ مِنْ الْخَبَائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إلى بِلادِكَ وَاخْتَرْنَاك عَلَى مَنْ سِوَاك، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِك، وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَك أَيُّهَا الْمَلِكُ. قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيّ: هَلْ مَعَك مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ نَعَمْ، فَقَالَ النَّجَاشِيّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيّ قَالَتْ فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْراً مِنْ ﴿كهيعص﴾ قَالَتْ فَبَكَى وَاَللهِ النَّجَاشِيّ، حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ ثُمّ قَالَ النَّجَاشِيّ: إنّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ انْطَلِقَا، فَلا وَاَللهِ لا أُسْلِمُهُمْ

(١٤٤) فرضت الزكاة، في أصح الأقوال، في مَكَّةَ المكرمة، وأما الأموال التى عليها زكاة، وتقدير الأنصبة الزكوية، والمستحقين للزكاة، كل ذلك فرض في المدينة. وبالنسبة للصلاة فقد فُرضت في ليلة الإسراء وكان ذلك في مَكَّةَ قبل الهجرة بثلاث سنين، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وبعد الهجرة تم تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة في مَكَّةَ المكرمة.

إِلَيْكُمَا». قَالَتْ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاَللّهِ لأَتِيَنّهُ غَداً عَنْهُمْ بِمَا اسْتَأْصَلَ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ. قَالَتْ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ - وَكَانَ أَتْقَى الرّجُلَيْنِ فِينَا: لا نَفْعَلْ فَإِنّ لَهُمْ أَرْحَاماً، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا. قَالَ وَاَللّهِ لأُخْبِرَنّهُ أَنّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قَالَتْ: ثُمّ غَدَا عَلَيْهِ مِنْ الْغَدِ فَقَالَ لَهُ أَيّهَا الْمَلِكُ إنّهُمْ يَقُولُونَ في عيسى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلا عَظِيماً، فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ فَسَلْهُمْ عَمّا يَقُولُونَ فِيهِ. قَالَتْ فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْهُ. قَالَتْ وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهَا قَطّ. فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ ثُمّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاَللّهِ مَا قَالَ اللهُ وَمَا جَاءَنَا بِهِ نَبِيّنَا، كَائِناً فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ. قَالَتْ فَلَمّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ قَالَتْ: فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيّنَا (ص) هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ. قَالَتْ فَضَرَبَ النّجَاشِيّ بيده إلَى الأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُوداً، ثُمّ قَالَ وَاَللّهِ مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْت هَذَا الْعُودَ[145].

قَالَتْ: فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ، وَاَللّهِ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ شُيُومٌ بِأَرْضِي - وَالشّيُومُ الآمِنُونَ - مَنْ سَبّكُمْ غَرِمَ ثُمّ قَالَ: مَنْ سَبّكُمْ غَرِمَ ثُمّ قَالَ: مَنْ سَبّكُمْ غَرِمَ مَا أُحِبّ أَنّ لِي دَبْراً مِنْ ذَهَبٍ وَأَنّي آذَيْت رَجُلا مِنْكُمْ». قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: «وَالدّبْرُ - بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: الْجَبَلُ»، ونكتفي بهذا القدر من القصة الطويلة التى رويت عن أم سلمة.

إِنّنَا نستخلص من هذه القصة المليئة بالقيم، والتى تواتر ذكرها في كثير من كتب السيرة، حقيقةً مهمةً وهي إنَّ النَّجَاشِي، الذي كان بدون شك يتحدث بالجَعِيزِيَّة،

(١٤٥) هنالك روايات تقول أن النجاشي قال «وَاَللّهِ مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْت هَذَا «العضاي ejchai» ، وقد أشرنا لمعنى هذه الكلمة في موقع آخر من هذا البحث.

كان يفهم ما يقوله المهاجرون ويستوعب معاني كلامهم بدون واسطة أو «تُرْجُمَان» كما ذكر الفقهاء، والعكس صحيح بالنسبة لاستيعاب المهاجرين للحوار.

ولعل قائلاً يقول إنَّ النجاشي قد سبق أن تعلم اللُّغة العربية[١٤٦]، فنقول ما بال من كان حوله من الأحباش (البطارقة والقساوسة)، هل جميعهم تعلموا اللُّغة العربية من قبل؟ ألمْ «يتناخروا» عندما ذكر جعفر أنَّ عيسى بن مريم هو عبد الله؟ ألمْ يُدْلِ بعضهم برأيه أثناء الحوار وقالوا للنجاشي: صدق رسولا قريش فارسل المهاجرين إلى قومهم؟ ألم يبكوا جميعا ـ بما فيهم النجاشي ـ حتى اخضلت لحاهم وابتلَّتْ مصاحفهم حين سمعوا ما تلاه جعفر عليهم من سورة مريم؟ وهذا ما كان ليكون لولا تفاعلهم المباشر مع طلاوة القرآن وبلاغته، ممَّا يدلّ على أنَّ لغتهم كانت قريبة من اللُّغة العربية إنْ لم نقل متطابقةً معها، وبالطبع كان المهاجرون يفهمون ما يقوله النجاشي وقومه بدليل السِّجال في الكلام الذي دار بين الفريقين، ناهيك عن سنوات عديدة عاشها المهاجرون في تلك البلاد، وما يقتضيه ذلك من التعامل مع السكان المحليين، دون أي يكون معهم مترجمين.

وقد يسأل سائل: وما علاقة هذه القصة بلهجة الحَبَاب؟ فنقول إنَّ كلمتين (على الأقل) وردتا في نص القصة السابقة تشيان لنا بوضوح أن اللُّغة التى كانت سائدة في تلك الأنحاء (سواء كانت الحبشة الحالية أم السودان الحالي) هي لغة تطورت، بشكل من الأشكال بمرور الزمن، وتفرعت منها لهجة مقاربة لها نسميها اليوم اللَّهْجَة الحَبَابية. ودليلنا على ذلك ليس عوامل الجغرافيا والتاريخ لوحدها وإنَّما الكلمات التى قالها النجاشي حيث أن كلمة «دَبِرْ Dabir» التى وردت في القصة فسَّرها الفقهاء بأنها تعنى الجبل في لغة الأحباش، وهي ما زالت إلى اليوم وبنفس

---

(١٤٦) هنالك بعض الروايات تقول إن النجاشي تربى في صباه في الجزيرة العربية حتى أجاد اللُّغة العربية لذا لم يحتج إلى ترجمان يترجم له كلام رئيس الوفد الذي أرسله رسول الله (ص) إلى الحبشة.

النطق، تعنى الجبل في لهجة الحَبَاب، بينما الأحباش ينطقونها «دَبْرِي» بكسر الرَّاء وإضافة ياء في آخر الكلمة، وهذا يدلُّ على قدم وعراقة لهجة الحَبَاب.

كذلك وردت في القصة كلمة «شُيُوم»، وفسَّرها ابن هشام بأنَّها تعني (الآمنين)، وقد حاول السّهيلي تفسير هذه الكلمة عند شرحه لسيرة ابن هشام في كتاب الروض الأنف فقال: «شُيُوم» يحتمل «أنْ تكون لفظة حبشية غير مشتقة، ويحتمل أن يكون لها أصل في العربية، وأنْ تكون من شمت السيف إذا أغمدته، لأنَّ الآمن مغمد عنه السيف أو لأنه مصون في صوان وحرز كالسيف في غمده».

أنظر كيف أرهق السُّهيلي نفسه لكي يعطي معنىً لهذه الكلمة !!

بَيْدَ أنّنَا نجد المعنى واضحاً في لهجة الحَبَاب، خاصةً وإنَّ كلمة «شُيُوم» تستخدم إلى اليوم وتنطق مخففة « شُوم» بمعنى رئيس أو زعيم أو صاحب الشيمة. ولهذا فإنَّ المعنى الصحيح لكلمة «شُيُوم» التى وردت في قصة أم سلمة هو «سادةٌ وأحرار»، أي أراد النجاشي أنْ يقول للمهاجرين أنتم أحرار وسادة مكرَّمين محترمين في بلدي ولن يمسَّكم أحدٌ بأذى. وهذه الكلمة «شُيُوم»، على وزن فعول، أصلها من الشيمة، وبالنسبة للمراجع التى توردها بلفظ «سيوم» فربما قال النجاشي «شُيُوم» وسمعتها أم سلمة «سيوم» لتقارب النطق ولاختلاف لهجتها عن لهجة القوم، أو ربما كان النجاشي مثل بلال الحبشي لايجيد نطق الشين!![١٤٧].

(١٤٧) كان الصحابي الجليل بلال بن رباح مؤذنا للصلاة وكان دائما يقول: «أسهد الا لا إله» فكان الرسول يقول: «إن سين بلال عند الله شينا»، وهو حديث ذكره الإمام ابن قدامة في المغني وقال البعض إنه حديث موضوع. ومن المدهش إنني لاحظت في وقتنا الراهن (٢٠١٣م) أنَّ هنالك أشخاص في ربوع مصر والشام وغيرها يقلبون الشين سيناً فيقولون مثلاً: "سَجَر" بدل "شَجَر"!!. وهنالك أغنية ريفية مشهورة كتب كلماتها الشاعر المصري عبد الرحمن الأبنودي بعنوان "تحت السَّجر يا وهيبة" يردد فيها مغنيها "محمد رشدي" تحت السجر بدلاً من تحت الشجر!!.

وخلاصة القول: إنَّ كلمة «شُيُوم» بمعنى مُسَيّد (أي صار سيداً ورئيساً) في لهجة الحَبَاب، مشتقةً من الشيمة، وتعني بالفصحى حسن الخلق وطيب المعاشرة، وكل ما يتصف به الإنسان من الصفات النبيلة. قال أبو فراس الحمداني: «أراكَ عصيَّ الدَّمع شيمتك الصَّبر». ولهذا السبب اطلقها الحَبَاب على كبرائهم (الذين يفترض فيهم وجود هذه الصفات النبيلة)، ويقصدون بالشيمة الزعامة والسيادة، ويطلقون على رئيسهم أو كبيرهم لقب «شوم» أي سيّد ورئيس للقوم. ولفظة «شوم» هي في الأصل «شُيُوم» فخففت إلى شُوم.

ومن هذه الكلمة بالتحديد جاء مصطلح «شُمَاجَلِي shumagalle» أو «شُمَاجَلِه» ـ والجيم دائما يمانية ـ وتعني السادة أو النبلاء، وهو لفظ مركب من «شيمة» و«لأجله» أي الشيمة له أو لأجله. وهذا يذكرني بمصطلح «المَانْجُلُكْ» الذي كان سائداً أيام السلطنة الزرقاء، وهو لفظ مركب من «ما نجل إلاّ إيَّاك» أو نحوه. والطريف أن الفونج كما ذكرنا كان قد تم إجلاؤهم من أرض الحَبَاب قبيل تكوينهم لدولة الفونج في سنَّار، ولهذا ربما أخذوا هذه الطريقة في التعظيم من العرف الطبقي الذي كان سائداً لدى الحَبَاب والذي يقسم النَّاس إلى شُمَاجَلِّي (نبلاء) وتِجْري (رعيَّة)، أو أخذها العبدلاب (القواسمة) من الأحباش، خاصةً وأنَّ مناطق سكناهم تمتد حتى جبال بني شنقول التي تقع داخل الأراضي الحبشية.

ولهجة الحَبَاب، وإنْ كانت قحطانية المنبع، إلاَّ أنَّها أيضاً قرآنية المنزع (والذي كما نعلم، نزل في مجمله بلسان قريش العدنانية). ويحتوي القرآن الكريم، وهو نفسه يشار اليه أحيانا، بالاسم الحِمْيَرِي (مُصْحَف)، تعابير خاصةً لا تجدها إلاَّ في لغة حِمْيَر، التي تطورت منها اللَّهْجَة الحَبَابية، ولذلك يسهل علينا فهم كثير من معاني كلمات القرآن التي قد تصعب أو تستشكل على البعض، لكونها وردت بلسان حميري يشكل الجزء الأساس من لهجتنا المستخدمة يوميا. ولكي ندلل على ما نقول، وحتى لا يكون الحديث مرسلاً على عواهنه، دعونا نضرب مثلين أثنين فقط لما

يستشكل فهمه من كلمات القرآن على الآخرين. مثلاً استشكل على المفسرين معنى كلمة «رهو» في قوله تعالى، في الآية ٢٤ من سورة الدخان: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾، فقد أورد ابن جرير الطبري(١٤٨) اجتهادات المفسرين في ذلك حيث قال بعضهم: الرَّهو هو السكون، ومن هؤلاء مقاتل الذي قال: اترك البحر رهواً وراهياً أي: ساكناً، فسمي بالمصدر، أي ذا رهو. وقال كعب: اتركه رهوا يعنى «اتركه طرقاً». وقال قتادة: رهوا يعنى طريقاً يابساً. وقال آخرون: الرَّهو معناه الانفراج.

وفي الحقيقة فإنَّ «الرَّهْو» و«الرَّهْيُ» في لهجة الحَبَاب إلى اليوم هو الإرْخَاء وعدم احكام القَفْلِ والسّدِّ، فيقولون مثلاً: أرْهِيَّ (أرْهِيهَا) بمعنى أرْخِهَا ولا تشدها، والرَّاهِي عندهم هو الشيء الرَّاخِي أو المفتوح جزئياً وغير المسدود بالكامل، ولهذا قد يسمى بعضهم بنته باسم «أرْهيتْ»، لأنها فرجت على أمها عند ولادتها التى لم تتعسر. إذَنْ «رَهْواً» معناها ببساطة «مفتوحاً» وغير مغلقٍ، وهذا هو المعنى والتفسير الأقرب لقوله تعالى: «وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً»، أي اتركه مفتوحاً ولا تحاول غلقه يا موسى بعدما فتحته بالعصا، وانفلق حتى أصبح كل فرق كالطود العظيم. هذا ونشير هنا الى أنَّ القرطبي قد ذكر عدة تفاسير لهذه الآية ثم ختم كل ذلك بمعنى مقارب لما توصلنا اليه، إعمالاً للهجتنا، حيث قال: "وقيل: ليس الرَّهو من السكون بل هو الفرجة بين الشيئين؛ يقال: رَهَا ما بين الرِّجْلين أي فرج. فقوله: {رهواً} أي منفرجا".

المثال الثاني هو كلمة «يمكرون»، من المَكْر، والتى وردت كثيراً في القرأن، واستشكل فهم معناها على بعض النَّاس إلى اليوم، حيث يتبادر إلى ذهن الكثيرين أنَّ معناها هو الخداع والمراوغة، لدرجة أنَّ بعضهم يتحرج من اطلاق هذه الصفات

(١٤٨) راجع «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» - الشهير بتفسير الطبري - للإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.

على المولى سبحانه وتعالى، فتراه يبحث عن المبرارات لتأويل المعنى. وقد اطلعت على أقوال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفَال: ٣٠]، فيقول: لا يجوز أن يقال إن الله يوصف بالمكر أو بالخداع، إنما يقال إن إضافة المكر إلى الله في القرآن معناه أن الله تعالى يعاقب الماكرين على مكرهم. وعلى هذا النسق يقول المفتي السعودي الشيخ صالح بن فوزان الفوزان إنَّ المكر المضاف إلى الله جل وعلا والمسند إليه، ليس كمكر المخلوقين، لأنَّ مكر المخلوقين مذموم، وأمَّا المكر المضاف إلى الله سبحانه وتعالى فإنه محمود، لأن مكر المخلوقين معناه الخداع والتضليل، وإيصال الأذى إلى من لا يستحقه، أما المكر من الله جل وعلا فإنه محمود، لأنه إيصال للعقوبة لمن يستحقها فهو عدل ورحمة. هذا أجتهاد يؤجر عليه صاحبه، ولكن المرء يجد صعوبة في التفريق بين خداع مذموم وخداع محمود، بل تنهار الحجة كلها عندما تقرأ قوله تعالى في الآية ٤٢ من سورة الرعد: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، حيث لا ينبغى لنا أن نقول إنَّ الخداع والتضليل جميعاً لله.

وللخروج من هذا الاشكال نقول إنَّ القرآن، كما يعلم الجميع، قد نزل بعدة ألسن ومنها اللسان العربي الجنوبي (حمير)، وربما كلمة مكر لها مدلول الخداع والمراوغة في عربية أهل الشمال، حيث ورد في لسان العرب عن ابن سيده أن من معاني المكر الخديعة. كما ورد في نفس القاموس عن ابن سيدة أيضاً أن من معاني المكر: التدبير والحيلة في الحرْب. وهذا هو المعنى الدارج في لهجتنا العربية الجنوبية حيث أنَّ مادة «المكْر» تعنى التخطيط والتدبير والتناصح في الأمر. يقول لك الحَبَابي: «مِكَرَنِّي» أيْ «امْكُرْنِي» بمعنى خطط لي ودبرني وانصحني. ويقول لك: «مِي مِكِرْ تُو إلِّي؟" بمعنى ما هذا التدبير والتخطيط والنصيحة؟

وفي الحقيقة إذا تأملت في كل الآيات التى وردت فيها كلمة «مَكْر» ومشتقاتها تجد أن المعنى لا يستقيم إذا فسرنا «المَكْر» بمعنى الخداع والمراوغة، ولكن المعنى

يستقيم تماماً عندما تعرف أنَّ من معاني المكر في اللغة العربية التخطيط والتدبير والتناصح عموماً. مثلاً انظر لقوله تعالى في الآية ٥٤ من سورة آل عمران: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ، وكذلك قوله تعالى في الآية ٣٠ من سورة الأنفال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، فهل يستقيم أن نقول إن معناها هو أنَّ الله (جلَّ شأنه) هو خير الخادعين؟ أو خير المضلين؟ تنزه الله تعالى عن ذلك. إنَّ المعنى المراد هو أنَّ الله هو خير المخططين وخير المدبرين وخير الناصحين. وبهذا المعنى يستقيم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:١٠]، حيث لا معنى يعقل إذا قلنا: ﴿يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ يخدعون أو يضلون السَّيِّئَاتِ، ويستقيم المعنى تماماً في قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥]. وعلى ذلك قس قوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣]، وهكذا[١٤٩].

---

(١٤٩) لولا الإطالة لكان بإمكاننا الاسترسال في هذا الجانب والإشارة إلى اللبس الذي حدث للمفسرين في عدد آخر من الكلمات الحميرية في القرآن ومنها كلمة يَتَسَنَّهْ في قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾. فقد قيل عنها الكثير من الاجتهادات واختلف الفقهاء في أصلها ورسمها، فبعضهم حذف الهاء وقرأها «لم يتسن»، ومنهم من قرأها «لم يسن»، بحذف التاء والهاء، ومنهم من قال إن أصلها هو من « سَنْهة» ومنهم من قال إن أصلها من «سانَيْتُه مساناة» ومنهم من قال إن أصلها من «يتسنن» ومنهم من قال إن أصلها من «أسِنَ الماء»، وكل ذلك لمعرفة معناها، وكانت النتيجة لديهم أن «لم يتسنه» معناها أن الطعام والشراب «لم يتغير» وهذه نتيجة تبدوا مجافية لسياق الآية كلها والتي تتحدث عن التغيير الذي حدث بطول المدة (مِائَةَ عَامٍ) التي أمات الله فيها ذلك الرجل ثُمَّ بَعَثَهُ بقدرته. قَالَ تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. فالسياق واضح وهو أن الله جلت قدرته أراد أن يبين للرجل أنه لبث فترة طويلة. إنَّ علماءنا الأفاضل قد فهموا من قوله تعالى: «لَمْ يَتَسَنَّهْ» معنى أن الطعام والشراب لم يتغير، وهذا تفسير لا يستقيم مع سياق الآية بدليل التغيير الذي أصاب الحمار الذي مات واصبحت «عظامه بيضاء تلوح

نعود إلى لهجة الحَبَاب فنقول إنَّ القرآن غنيٌّ بالمفردات التى نستخدمها يوميا في لهجتنا ومن تلك الكلمات، وعلى سبيل المثال لا الحصر: الفعل «يَكْلَؤُكُمْ» بمعنى يحرسكم ويحميكم ويحفظكم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٤٢]، والفعل «ينغضون» بمعنى يحركون، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:٥١]، والفعل «فَطَرَنِي»[١٥٠]، بمعنى خلقني، وفاطر بمعنى خالق ومبدع، كما في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٧]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، و«البأس» بمعنى الحرب كما في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧]. وهكذا نجد الكثير الكثير من الكلمات والتعابير القرآنية الدارجة في لهجة الحَبَاب مثل كلمة «حَبَطَ» بمعنى ورم وانتفخ (فسد)، و«سفاهة» بمعنى الجنون وخفة العقل، و«بَعْلٌ» بمعنى السيِّد أو الزوج أو الرَّب ـ المالك، و«بَقْل» بمعنى النبات والزرع عموماً،

نخرة» كما قال المفسرون، فكيف يستقيم المعنى إذا فسرنا «لم يتسنه» بمعنى لم يفسد الطعام ولم يتغير خلال مائة سنة؟! وأما التعليل من بعضهم بأن الله تعالى أراد أن يري ذلك الشخص قدرته على حفظ الطعام والشراء بدون تغيير رغم مرور مائة عام ورغم أن الطعام هو مما يتسارع اليه الفساد، فإن هذا تعليل بعيد عن سياق الآية دعك من المنطق. ولو أنهم أستطاعوا ردَّ هذه الكلمة «يتسنه» إلى أصلها الحميري «سَنَهْ أو سَنَى – من الضياء والحسن» بمعنى حَسُنَ وطَابَ لما وقعوا في كل هذا الخلط ولكان المعنى «لم يتسنه» هو عكس تفسيرهم تماما أي أن الطعام قد تغير وفسد ولم يعد صالحا، وبهذا يستقيم المعنى مع ما حدث للحمار، بل وهذا المعنى يتسق مع طلب المولى عز وجل من الرجل النظر إلى ما حوله ليعرف ويتأكد أن سنين طويلة قد مرت عليه وليس يوماً أو بعض يوم، كما كان يعتقد.

(١٥٠) يقول الحباب: «مِي فِطِرْ تُو إِلِي؟» بمعنى: ما هذا الشَيْء الجديد الذي جئت به وابتدعته؟ ويقولون: «إلِي فِطِرْ جَدِيدْ تُو»بمعنى: هذا شَيْء لم يكن موجوداً من قبل. روي عن ابن عباس أنه قال: «كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما [لصاحبه]: أنا فطرتها، أنا بدأتها».(راجع تفسير بن كثير، الصفحة ٥٣٢ من الجزء السادس، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٩٩٩م).

والفعل «رِجَزْ»(١٥١) - أصلها «ارْجُزْ» بمعنى اطعن بهدف التعذيب، والرِّجْزُ هو العذاب كما في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:١٦٢]، و«ذَرَءَ» بمعنى بَذَر، والذرء بمعنى النسل أو التكاثر، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك:٢٤]، و«كِفْلين» بمعنى نصيبين، والكِفْلُ والكِفَّالُ هو النصيب والحظ عند الحَبَاب، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٢٨]، و«ابْلَعِي» بمعنى ازدردي، كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي﴾ [هود:٤٤]، و«وَرِق» بمعنى الذهب، كما في قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:١٩]، و«يحبرون» بمعنى يجتمعون ويأنسون، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم:١٥](١٥٢)، واللب بمعنى العقل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، و«مناكبها» بمعنى أكنافها، كما في قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، و«تارةً» بمعنى مرَّة، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ [الإسراء:٦٩] (١٥٣)، و«أناس»، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]، وكلمة «أناس» هي اسم جمع في الفصحى، بمعنى الرجال أو القوم، ويستخدمها الحَبَاب للمفرد بمعنى «رجل»، و«النَّفْرُ» بمعني الانصراف والتفرق، تماماً كانت تقول العرب: نَفَرَتِ الدابةُ، تَنْفِرُ نِفاراً ونُفُوراً ودابةٌ نافِرٌ، وكما قال الله تعالى:

---

(١٥١) يقول الحَبَاب رِجَزُّو (ارْجِزْهُ) بمعنى أطعنه، والرِّجَّاز عندهم هو الذبيحة أو الفدية تدفع (غالبا) بوسطة المعتدي أو القاتل وأهله كنوع من العقاب مقابل الضرر الذي سببه.

(١٥٢) ما زال أهلنا الحَبَاب يسمون التجمع في المناسبات «مَحْبَر» وهي اسم مكان على وزن «مَفْعَل» من الفعل حبر يحبر وهم يحبرون.

(١٥٣) يقول الحَبَاب: «تَرَتْ حَتّي» بمعنى تارة أخرى (واحدة).

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، و«سرح» بمعنى التحرك والسفر (عكس تريحون)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:٦]، و«هارئ» بمعنى ضعيف ومهترئ، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:١٠٩]، وكما يقول الحباب: «شايب هارئ»، وعبارة «ويْ أنَا» التى تستخدمها نساء الحباب لاظهار الندم تماماً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص:٨٢]، وغير ذلك كثير كثير يصعب علينا حصره(١٥٤).

وهذا أمر غير مستغرب لأنه:

أولاً: اللُّغة الفصحى، التى أصبحت لسان العرب المستعربة، إنَّما نشأت وتطورت من الأصل، وهو لغة القحطانيين (العرب العاربة)، ولذلك لا غرابة في أنْ نجد تشابهاً بين اللهجات والألسن التى تطورت من أصلٍ واحدٍ، وكما هو ثابت فإنَّ العربية الفصحى أصلها لسان يماني، واليمنيّون هم من أورثها قريشاً عن طريق جُرْهُمَ، «وإنَّما وقعت العناية بلسان مضر، لَمّا فسد بمخالطتهم الأعاجم، حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر

(١٥٤) ما أنْ استمع لقوله تعالى في الآية ٤٣ من سورة إبراهيم ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾، إلا وتذكرت وصف الحباب لأي شخص تبرز بطنه ويتقعر ظهره بأنّه رجل «قُنُع» وامرأة «قِنِعِتْ»، وهي حالة مغايرة لحالة الشخص الأحدب. قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَغَيْرهما إنَّ وصف: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ الوارد في الآية الكريمة معناه «رافعي رؤسهم»، وهو تفسير يتسق مع وصف الحباب للشخص «القُنُع» الذي يكون رأسه مرفوعاً بالضرورة، ليس فخراً واعتزازاً وإنَّما بسبب وضع الظهر (تَقَعُّرُهُ).

والمغرب، وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولاً، فانقلب لغة أخرى»[١٥٥].

وكما قال ابن خلدون: «ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحِمْيَرِي» بمثابة اللسان المضري مع اللسان الجديد الذي نشأ بعد اختلاط العرب بالأعاجم بعد الفتوحات. ووجه الاستشهاد في ذلك هو أن المضريين، بمرور الزمن، قد تغيرت عندهم «كثير من موضوعات اللسان الحِمْيَرِي وتصاريف كلماته»[١٥٦] حتى غدت الحِمْيَرِيَّة والمضرية لسانين مختلفين، أيْ إنَّ الأمر قد انتهى إلى أنْ تكون هنالك لغتان من أصل واحد: لغة مضر، والتى تمت العناية بها «من أجل الشريعة»[١٥٧]، ولغة حِمْيَر التى ظلت «لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها»[١٥٨].

ثانياً: ظلت أرض الحَبَاب، بحكم الموقع الجغرافي على الشاطئ المقابل لجزيرة العرب، أول من يستقبل وفود المهاجرين على مر العصور من قبائل شمال وجنوب الجزيرة العربية. فتدفق إلى مناطقهم الحالية المهاجرون من جزيرة العرب على مر العصور وتعاقب الدهور، خاصةً بعد انهيار سد مأرب وطوفان سيل العرم. فأتت قبائل سبأ وحِمْيَر، ولاسيَّما قضاعة (قبائل بَلِيّ ـ البلو، وجهينة ـ العرب العاربة) إلى المنطقة لينضم اليهم، في فترة لاحقة، أقوام من ربيعة ونزار، وخاصة كنانة[١٥٩] (العرب المستعربة)، وتلاقح هذا وذاك لنخلص في النهاية إلى خليطٍ من عرب حِمْيَر ونَزَار، ولهجةٍ هجينٍ هي

(١٥٥) «مقدمة ابن خلدون»، الجزء الأول، صفحة ٣٥٩.

(١٥٦) نفس المصدر.

(١٥٧) نفس المصدر.

(١٥٨) نفس المصدر.

(١٥٩) ونقصد بهم أحفاد كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

اللَّهْجَة التي يتحدث بها الحَبَاب حالياً. لقد تشكلت لهجة الحباب في البدء باللسان اليماني القحطاني، معنىً ومبنىً، ومن ثمّ تأثرت، بمرور الوقت وتعاقب الهجرات، باللسان المضري، حيث لم تنقطع الهجرات عبر البحر الأحمر، بل ظل تقاطر القبائل النزارية يزداد بعد الفتح الإسلامي، خاصةً عقب انهيار ممالك النيل النوبية، حيث انفتح طريق جديد للهجرة إلى أرض الحَبَاب يتمثل في وادي النيل، وكانت الهجرة إلى المنطقة قبل ذلك كانت تتم عن طريق البحر الأحمر. ومما لاشك فيه إنَّ هؤلاء المهاجرين قد انصهروا في الكيان القحطاني الذي سبقهم، وذلك بحكم دواعي الإقامة والتجاور والمصاهرة وطلب الحماية وغيره. ولذلك ازدهرت لهجة الحَبَاب بحكم التلاقح مع لهجات الوافدين الجدد في كل مرة، ومنهم الأسر الدينية التي جاءت من الحجاز، والتي لعبت دوراً خطيراً في ثقافة المنطقة، مثل عَدْ شيخ حامد وَدْ نَافعُوتَايْ وعَدْ دِرْقِي وعَدْ مُعَلِّم. وظلت الهجرات العربية تترى ودائرة الاتصال تتوسع، حيث بدأ الاحتكاك بقبائل الشكرية والضباينة واللَّحَوِيين والقواسمة وبني كاهل وبنى هلبة[١٦٠] وبني رشيد[١٦١] (الزُّبَيْدِية) الذين وفدوا مؤخراً للمنطقة من وسط الجزيرة العربية، وليس من جنوبها كما كانت العادة.

وعوداً إلى علاقة اللَّهْجَة الحَبَابية بلغة القرآن نجد أن لهجة الحَبَاب ما تزال تحتفظ بعدد يصعب حصره من المفردات القرآنية، وبنفس المعانى التي وردت بها في الكتاب الكريم، وهذا في حد ذاته أمرٌ غير مستغرب، ولكن المدهش حقاً هو أنَّ كثيراً من تلك التعابير القرآنية لا تجدها مستعملةً الآن في اللّهجات العربية الأخرى،

---

(١٦٠) ظل قسم بني هلبة الموجودون في شرق السودان جزءا من الحَبَاب إلى عهد قريب وكانت لهم مشيخة منفصلة تعرف ببني هلبة أو (الهلبكسة).

(١٦١) يقول المؤرخ محمد صالح ضرار أنه شاهد في عام ١٩٢٥ م عوائل كثيرة من الرشايدة وخاصة من فرع البراطيخ قد اندمجوا في الحَبَاب واصبحوا جزءا منهم. انظر الصفحة (٨) من كتاب «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق.

بل لا تجدها في الإستعمال الفصيح للّغة العرب في وسائط التواصل المعاصرة من صحافة وتلفاز ومذياع وكتب ومجلات وغيرها. وبالمقابل ظلّت لهجة الحَبَاب حتى اليوم محتفظةً بهذه التعابير والمفردات.

ولنضرب مثلاً لذلك بالفعل «بتك» «يبتك»، ومصدره «البتك» والفعل الرُّباعي منه «يُبَتِّك» (بتشديد التاء). فقد ورد الفعل «يُبَتِّك» في القرآن الكريم بمعنى يقطع ويشق، حيث قال المولي في الآية ١١٩ من سورة النساء: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾. قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: و«البتك» هو القطع. وهذا هو المعنى تماماً الذي يستخدم لهذه الكلمة لدى الحَبَاب، فهم يقولون: «بِتكُّه» يعنون «ابْتكْهُ»، أي «اقطعه»، ويقولون: «نَسَبْ بتُوكْ»[١٦٢] يقصدون نسباً مبتوكاً أي مقطوعاً، و«سيف بَاتِكْ» تعني سيفاً قاطعاً. وهكذا هم يستخدمون كل الأوزان الاشتقاقية من الفعل «بتك» للتعبير عن القطع.

مثال آخر هو الفعل «كَفَلَ» ومصدره «الكِفْل» بمعنى الجزء أو القسم من الشَّيْء. قال تعالى في الآية ٨٥ من سورة النساء: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾. قال الطبري في تفسير هذه الآية: «الكفل» هو النصيب والحظ[١٦٣]، وهذا تماما المعنى الذي تستخدم به الفعل «كَفَلَ» ومشتقاته عند الحَبَاب، فإذا قال لك أحدهم

---

(١٦٢) «بتوك» جاءت على وزن صيغة المبالغة «فعول» مثلما نقول بقرة حلُوبٌ ورجلٌ خجولٌ. وهذه الصيغة «فعول» هي صيغة دارجة بكثرة في لهجة الحباب حيث يقولون مثلا: حُبُوط، من حبط الشيء إذا تورم وفسد، وأُكُوب، من أَكَبَ الشيء وأكَبَّ عليه، إذا حفظه ورعاه وانحنى عليه، وبُرُود، من برد الشيء، ولُجُوم، من اللجم، وتطلق على الأبكم، وغُمُوض، تطلق على من أغمض عينيه وقطَّبَ وجهه، وهكذا.

(١٦٣) راجع كتاب: «جامع البيان في تأويل القرآن» لمؤلفه للأمام أبي جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م.

«كِفَلَنّي» أي «أكفلني»، فهو يقصد «اقسم لي» وإذا قال: «كِفَّال هبنّي» يقصد «اعطني كفلاً أو جزءاً».

وهكذا نجد الكلمات القرآنية متواترة في لهجة الحَبَاب، حيث ابتعد عنها غيرهم في لهجاته، وظلوا هم محافظين عليها، وهذا يدل على فصاحة لهجتهم من جهة (باعتبار القرآن مقياساً للفصاحة)، ومن جهة أخرى يدل على قدم هذه اللَّهْجَة وعراقتها. أضف إلى ذلك أنه، وباستثناء بعض التأثيرات التى تبقت من العهد الحِمْيَري، فإن اللَّهْجَة الحَبَابية تستخدم نفس الأساليب والتعابير البلاغية المستخدمة في اللُّغة العربية الفصحى من تورية واستعارة وكناية واشتقاق اسم الآلة[١٦٤] وأسم الزمان والمكان بنفس الوزن وتقديم الموصوف على الصفة (بعكس اللغات الحامية الموجودة في المنطقة) واضافة حرف التاء للدلالة على التأنيث وغير ذلك من أدوات اللُّغة العربية كما هو معروف.

وظل الشعر عند المتحدثين باللَّهْجَة الحَبَابية محتفظاً بالقافية والرَّوِي، تماماً كالشعر الجاهلي، مع التأثير الإسلامي الواضح، حيث تبدأ القصيدة، في غالب الأحيان، بذكر الخالق وقدرته، وتنتهي بالصلاة على النبي ﷺ . أمَّا الأغاني عندهم فتبدأ غالباً بمناداة ليلى واللَّيل (يا ليلا، وَيْ لالي، لالُويْ، لالَيْ، ألالِيّ، ألالَيْنَا ...

(١٦٤) من اللطائف التى حدثت أثناء البحث أن زوجتي كانت تحسب أنني أبالغ في ارجاع كل كلمة من لهجة الحَبَاب إلى اللُّغة العربية ومرة كانت تجهز شواء وتناولت ما يعرف في لهجتنا بالمنقب وهي آلة من الحديد تستعمل لأمساك الفحم المتقد وتسمى بالعامية السودانية «ماشه» أو «مارشه» واعتقد أنه اسم أعجمي ربما أخذ من النوبيين. المهم هو إنَّ زوجتي قالت وهي تمزح: «إياك أن تقول إنَّ كلمة «مَنْقَب» عربية أيضاً!» فقلت هذه من أفصح كلام العرب، فهي اسم آلة على وزن «مفعل»، ومشتقة من الفعل «نقب»، أي بحث في الأرض وحفر فيها بحثا عن شيْء ما وقياسا على هذا الاستخدام يطلق الحَبَاب اسم «منقب» على الآلة التى يستخدمونها لدفن الجمر أو إزالة التراب والرماد عنه لاستخدامه مرة أخرى، فبهتت عند سماع ذلك. وربما لا يعلم القارئ أن الناس قديما كانوا بعد الانتهاء من استخدام النار يدفنون الجمر في الرماد والرمل ويعودون لاستخدامة فيما بعد نظرا لكون أدوات الإشعال من كبريت وغيره لم تكن متوفرة للبدو فيما مضى.

إلخ)، وهو ما يعرف بالنسيب والتشبب في الشعر العربي. كل هذا من أقوام يعيشون حياة البدواة، ولم يدرسوا في المدارس، بل لم ينالوا أدنى حظ من التعليم، ولكنهم توارثوا هذه الفنون جيلاً عن جيل. فإذا أضفنا إلى هذا المضمون هيئتهم الجسمانية المتمثلة في أجسامٍ صحاحٍ، وبطونٍ خماصٍ، وألوانٍ قمحيةٍ أقرب إلى السمرة [١٦٥]، وقاماتٍ مربوعةٍ وأنوفٍ حميمةٍ وشعورٍ مسدلةٍ (أو مجدولةٍ فيما سبق من أجيال)، وسروايل بيضاء، وسيوفٍ مستقيمةٍ[١٦٦] تُحْمَلُ دوماً على الكتف، وجنبيةٍ مربوطةٍ بالخصر، وعصيّ غليظةٍ يهش بها صاحبها على غنمه ويقضي بها مآرب أخرى، وحرائر خجولاتٍ يلتحِفْنَ بثياب حُمرٍ وصُفرٍ وخُضرٍ من صادر الهند، يسمونها «فُوطَتْ ـ الفُوطَة»، وتتبلم بها نساؤهم حتى تكاد لا تُرَى عيونهن[١٦٧]، فإن هذه، لا شك صورة العربي وحريمه، قد اكتملت في تلك الأصقاع بلا منازع.

---

(١٦٥) غالب ألوان العرب السمرة، لا البياض الجاهر ولا السواد الفاحم، ولونهم أقرب ما يكون إلى لون أرضهم أو أديم الصحراء، ولهذا يفرقون بينهم وبين الآخرين فيصفون البيض بالبيضان والسُّود بالسودان والحُمْر بالحمران، أما انفسهم فيميزونها بالسمرة أو الخضرة ويتباهون بذلك. قال الفضل ابن عباس (شاعر بني هاشم):

وأنا الأخضر من يعرفني   أخضر الجلدة من بيت العرب

وقال المتنبي عند مروره بشعب بوان في فارس:

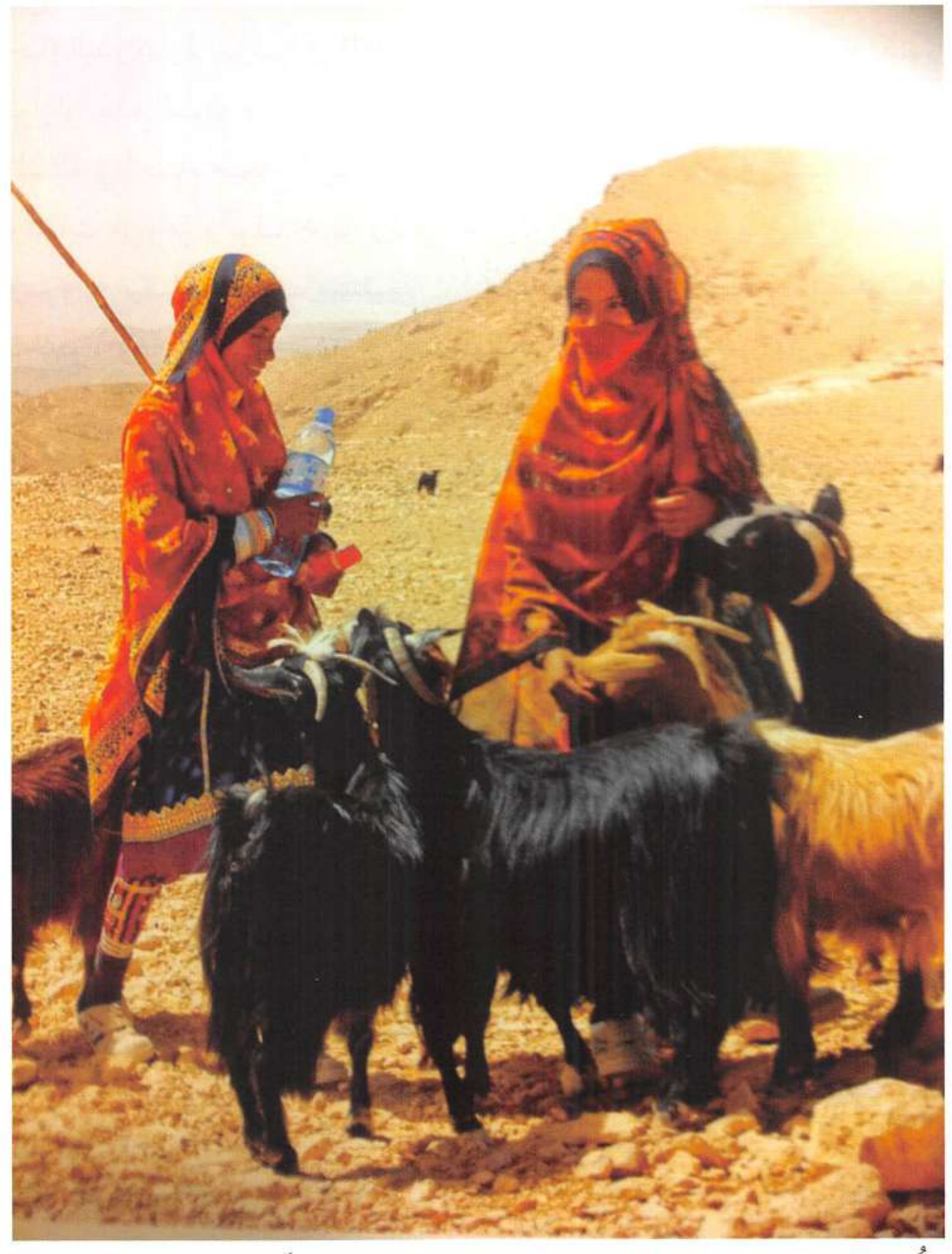
ولكن الفتى العربيّ فيها   غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

يقول: أنا الفتى العربي أصبحت غريب الوجه في شعب بوان (فارس) لأني أسمر اللون وأهل الشعب شقر الوجوه كما هو معلوم (راجع شرح ديوان المتنبي للواحدي).

(١٦٦) شرفني الله بزيارة الآثار الأسلامية، المنقولة من مكة المكرمة إلى المتحف الإسلامي في اسطنبول (متحف طوب قابي سراي Topkapı Sarayı ـ تركيا)، ورؤية سيف علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وجعفر الطيار وعمار بن ياسر وخالد بن الوليد والزبير بن العوام، وكلها سيوف مستقيمة، تتطابق في شكلها مع ما يحمله أهلنا من سيوف متوارثة.

(١٦٧) عادة «التَّبلُّم» أو «التبرقع» هي عادة عربية قديمة ومتأصلة، خاصةً في المجتمعات البدوية. قال الشاعر تَوْبَةَ بْنِ الحُمَيِّرِ:

وَكُنْتُ إِذَا مَا زُرْتُ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ   فَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورُهَا



كلُّ مَنْ يعرف بادية الحباب سوف لن يتردد مطلقاً في القول بأنَّ هذه الصورة لبدويتين من الحباب، ولكن نقول له مهلاً، فهذه الصورة منشورة في الدليل السياحي لسطنة عُمَان، وأوردناها هنا فقط للمقارنة، وتأكيداً لما ذكرناه في الفقرة السابقة.

أهمية اللهجة الحَبابية:

إنَّ أهمية اللَّهْجَة الحَبَابية تكمن في أنَّها، جنباً إلى جنب مع بعض اللّهجات الشبيهة بها في اليمن، تعتبر الأقرب للغة العرب العاربة، وبالتالي توفر لنا تفسيراً منطقياً للتطور في المعنى واللفظ، الذي اعترى مفردات لغة العرب على مر العصور. وفي هذا الصدد، يقول الدكتور جواد عَلِيّ: «وفي العربية الجنوبية قبائل تتكلم اليوم بلهجاتٍ يرجع نسبها إلى اللهجات العربية الجنوبية القديمة، لأن في ألفاظها وفي تراكيب جملها، ودراستها في هذا اليوم ضرورة لازمة لمن يريد الوقوف على تأريخ اللُّغة العربية قبل الإسلام، ومن الضروري كذلك وجوب دراسة اللهجات «الشَّحْرِيَة» و«المهرية» و«السقطرية»، و«الحباية- التِّجْري»، ولهجات السَّواحل الأفريقية المقابلة لجزيرة العرب للوقوف على تطور اللغات العربية الجنوبية، وعلى حل رموزها التي لا تزال مغلقة وغير معروفة عند علماء هذا اليوم لما لهذه اللهجات من صلات بالعربيات المذكورة»[١٦٨]. وحتى لا يكون حديثنا مرسلاً نعطي أمثلة على زعمنا بأهمية لهجة الحَبَاب لمعرفة كنه وأسرار اللُّغة العربية، فلنأخذ مثلا الفعل «بَدَا، وتَبَدَّا» بمعنى صار الشخص بدويا، ومصدره «البداوة». فهذا الفعل ومشتقاته يستخدم اليوم للدلالة على سكان الصحراء والأرياف عموماً. ولكن من أين جاء هذا المعنى؟ لا أظن أنَّ أحداً عنده الإجابة، ولكنني أجدها في اللَّهْجَة الحَبَابية!! حيث أنَّ لفظة «بَدَا» تعني عندهم «ضاع» و«فُقِدَ»، و«البادي» عندهم هو الضائع، والانثى «بَادْيَتْ - أي بَادِيَةٌ» أي ضائعة. وإذا قالوا لك «بَدْيْنَا» يقصدون ضِعْنا. ومن المعروف أنَّ هنالك ارتباط، بطريقة أو أخرى، بين معاني الكلمات المتقاربة التركيب في اللُّغة العربية[١٦٩]، ولذلك لا نستبعد أنْ يكون أصل الفعل

---

(١٦٨) راجع كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» لمؤلفه الدكتور جواد علي، الناشر: دار الساقي، الطبعة الرابعة ٢٠٠١م.

(١٦٩) يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: «ولو استقريت تراكيب اللغة كلها لوجدت مواد كل تركيب ترجع إلى أصل واحد»، وأشار إلى أنَّ تراكيب الهمزة مع الباء تدل على النفور، مثل: أبَّ وأبت وأبد وأبر وأبق، وتراكيب الألف مع الزاي تدل على الضيق، مثل: أزر وأزق وأزل وأزم، والباء مع الدال تدل على الابتداء والظهور، مثل: بدأ وبدا وبدح وبدر وبدع ... إلخ.

«بَدَّدَ»، «يُبَدِّدُ»، «تَبْدِيداً»، بمعنى يضيع ويهدر الشَيْء، هو الفعل «بَدَا» بمعنى ضاع، لأنَّه عادةً يكون الفعل الثلاثي على وزن «فعَل»، فإذا أُرِيدَ تحويله إلى الفعل الرباعي، يتم تشديد أو تكرار الحرف الأوسط (عين الفعل). فمثلاً يتحول الفعل الثلاثي «قَسَم» إلى «قسَّم»، بتشديد السين، ويتحول الفعل «عَلِم» في صيغته الرباعية إلى «علَّم»، والفعل «قَدِم» إلى «قدَّم»، وهكذا.

ويظهر لي أنَّ الاستعمال الحالي لكلمة «بدوي» بمعنى ساكن الصحراء والفلوات، قد تطورت من الفعل الأصلي «بَدَا» بمعنى ضاع حيث أنَّ الشخص قديماً، إذا فارق أهله أو فُقِـدَ بحيث لم تعرف له جهة، يكون الاعتقاد دائماً بأنَّه تاه في الصحراء. ولهذا إذا فارق الشخص مساكن قومه، كان يقال له «بَدَا» أي تغيّب في الصحراء بعيداً عن مضارب أهله. ألا ترى أنَّ قدماء العرب، من شعراء وغيرهم، كانوا يستعملون كلمة الحاضر كمعنى مضاد ومقابل لكلمة البادي!! وهذا زعم يسنده دعاء الاستسقاء المأثور: «اللهم اغثنا غيثاً هنيئاً مريئاً، سحاً غدقاً مجلجلاً، نافعاً غير ضارٍ، عاجلاً غير آجلٍ. اللهم تحي به البلاد وتسقي به العباد، وتجعله بلاغاً للحاضر والباد. اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب، ولا هدم ولا غرق».

ووجه الاستدلال هنا هو أنه في اطار الثنائية التي بني عليها الدعاء، نرى أنَّ لفظة «البادي» قد استخدمت في مقابل الحاضر. وهكذا في نظرنا تطور استعمال كلمة «بَدَا» من معناها الأصلي، وهو ضاع وفُقِد، إلى المعنى الجديد وهو السكن في الفلوات والصحراء، بعيداً عن مضارب القوم الجماعية. وفي الحقيقة فإن الايحاء بمعنى الضياع في البداوة واضح، وإننا وإنْ تَبَدَّا أهلنا، لابدَّ أنْ نقر بأنَّ البداوة لا تسبب في ضياع الأفراد فقط، وإنَّما أيضاً تتسبب في فقدان أهم ميزة تميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات الحية وهي الذاكرة الجمعية، وتوارث المعرفة، والبناء على

راجع كتاب: «تاريخ آداب العرب»، تأليف: مصطفى صادق الرافعي، مكتبة الإيمان، الجزء الأول، صفحة ١٥٠.

جهد السابقين للإتيان بما هو انفع للبشرية. ولهذا نجد الأمم الأقل بداوة قد هذبتها قيم الحضارة المكتسبة بالتعايش الاجتماعي، وتطورت في مفاهيمها للحرية والعدالة والمساواة، وتقدمت في العلوم لكونهم يستفيدون من تراكم المعرفة التى يوفرها لهم المجتمع. وهذا الأمر مفقود لدى البدو حيث ينعدم الوعاء الاجتماعي أو الذَّاكرة الجمعية، التى يمكن من خلالها الاحتفاظ ومن ثمَّ توارث أي جهد إنساني خلاق يقوم به الفرد أو مجموعة من الأفراد. ولذلك نجد، منذ القدم، تفضيلاً للحضر على البدو، وربَّما لهذا السبب كان الخليفة عمر ينهى عن التبدي بعد الإقامة في الحضر. ولعلنا في هذا الصدد نستشهد بقول الله تعالى، على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠]، حيث اعتبر يوسف مجيئ أهله إلى حاضرة مصر من نعم الله تعالى عليه. وفي مقارنة بين أهل البادية وأهل الأمصار (القرى والمدن) قال الله تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٩٧]. قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية: «الْعَرَب: جِيل مِنْ النَّاس وَالنسبة إِلَيهِم عربِيّ بَيِّن العروبة، وهم أهل الأَمْصَار، والأعراب منهم سكان البادية خاصة».

مثال آخر لتطور الألفاظ العربية هو الفعل «جرى يجري جريا» وفعل الأمر «إجْرِ» بمعنى اركض. نرى أنَّ هذا الفعل قد تطور استخدامه من مصدر ما يزال مستخدماً لدى الحباب وهو كلمة «إجِر iguier»، بكسر الهمزة (مع مراعاة نطق الجيم بالطريقة اليمانية)، وتعني باللَّهجَة الحَبابية القدم أو الرجل. وفي اعتقادنا كانت هذه الكلمة سائدةً قديماً في اللغة العربية، ثُمَّ تدريجياً انصرفت إلى الفعل الذي يقوم به ذلك العضو من الجسم وهو «الجري»، ومن ثُمَّ اشتُقَتْ منه كل الكلمات المتعلقة بهذا الفعل مثل جرى ويجري وفعل الأمر اجْرِ، تماماً كما اشتُقَ فعل «عاين، يعاين»

من العين، و«أدّي، يؤدي» من اليد، و«ساق، يسوق» من السَّاق، وهكذا. ولكن ظلت العين واليد والساق مستخدمة في اللُّغة، بينما إختفت كلمة «إجِر» بمعنى رجل بمرور الزمن وتطوّر اللُّغة، أو ربما تحورت إلى «رِجِل» لكون هذه الكلمة ليس لها اشتقاق يدل على فعلها الثلاثي حيث لا أحد يقول: رَجَلَ، يَرْجُلُ، وإن كانت هنالك صيغة للفِعْلِ الرُّباعِي المَزِيد وهي «ترَجَّلَ، يترجل». بَيْدَ أنَّ الحَبَاب ما زالوا يستخدمون الى اليوم كلمة «إجِر» بمعنى «رِجْل» بكسر الراء، مما يدلُّ على عراقة وقدم لهجتهم. واللَّهْجَة الحَبَابية هي الوحيدة التى تقدم لنا هذا التفسير (مع مراعاة نطق الجيم في«إجِر» بالطريقة اليمانية).

مثال آخر هو كلمة «تأبين»، بمعنى تكريم الميت والثناء عليه، نجدها قد تطورت بطريقة مثيرة وطريفة في نفس الوقت، حيث أن كلمة «إبّنَتْ» بكسر الألف وتشديد الباء «ibbant»، تعني باللَّهْجَة الحَبَابية «حَجَر»، أيَّ حجرٍ، كبيراً كان أم صغيراً، والجمع «إبَن» بكسر الألف وفتح الباء «iban»، على وزن «دِمَن» جمع «دِمْنَة» (وكلاهما من صميم اللَّهْجَة الحَبَابية). أما في اللغة الفصحي فإن كلمة «أُبْنَة»، بالضم تعني: العُقْدة أو العجرة أو النتوء الذي يكون في العُود أو في العَصا، وجمْعُها «أُبَنٌ». وإذا رجعنا إلى معنى إبّنَة (إبّنَتْ) في لهجة الحباب، فإننا نجد أنَّ كلمات اللغة العربية المشتقة من هذه الكلمة تتسق مع المعنى الذي يسود في لهجة الحباب أكثر من اتساقها مع معنى النتوء أو العجرة التى في العود. فمثلاً يطلق وصف «مأبون» على الرجل الذي به داء الحَكَّةِ في دُبُرِه، ونعتقد أن هذا الاشتقاق جاء من الأبنة بمعنى الحجر، فقد ورد في الآثار أنَّ سراة العرب وأشرافها، ممن أصابه هذا الدَّاء كانوا لا يبحثون عن ماء الرجال، كما يفعل المخنَّثون عادةً، ولكنهم كانوا يذهبون إلى الخلاء، ويحكُّ الواحد منهم إسته بالأحجار كما تقول كتب التُّرَاث[١٧٠]، ومن هنا جاء في نظرنا وصف هذا الداء بالأُبْنَةِ، نسبة إلى الأبنة وهي الحجر، ووصف المُبْتَلى به

(١٧٠) يروى أن أبا جهل كان مصابا بداء الأبنة ولكنه كان يلقم دبره حجراً ويقول واللات والعُزّى لايركبك رجل.

بالمأبون، أو يقال إنَّ به «أُبْنَة». كذلك نعتقد أنَّ أبْنَة ـ أَبَنَتْ ـ بمعنى الحجر، هي الأصل الذي أُشْتِقَّتْ منه كلمة «تَأبِين» بمعنى الثناء على الميت وتكريمه. فكما هو معروف، كان من عادات العرب، منذ القدم، تكويم الأحجار على قبر الميت تكريماً له، خاصةً عند زيارة القبر، ولذلك فإن التأبين في الأصل هو وضع الأحجار أو «الإبَن» - بفتح الباء - ورصها على قبر الميت تكريماً له.

وبمرور الوقت صار التأبين والتكريم بالاحتفال بذكرى الميت، بدلاً من زيارة القبر، ووضع الأحجار. وهكذا نسي النَّاسُ المعنى الأصلي، ومرة أخرى لن تجد تفسيرا لهذا التطور الاَّ من خلال اللَّهْجَة الحَبَابية لكونها ما تزال تطلق اللفظة الأصلية أبْنَة ـ أَبَنَتْ ـ على الحجر، ونحن نلفت أنظار الباحثين المتخصصين ونقول لهم: هنالك فرصة عظيمة تتوفر بدراسة هذه اللَّهْجَة القديمة، وبالتالي معرفة التطور الذي حدث للغة العرب، ولا سيَّما الجنوبيين على مر العصور.

ونضرب مثالاً رابعاً، وهو في غاية الأهمية لفهم تطور اللُّغة العربية، حيث نجد الحَبَاب يستخدمون الفعل «بَلْ» بمعنى «قُلْ» وهذا الفعل «بَلْ» هو صورة مخففة للفعل الثلاثي «بَهَلْ»، ويعنى بالحَبَابية (وبالحِمْيَرِيَّة) القول والكلام والأمر بالقول والتحدث والمناجاة ... إلخ. وهذا معنى قديم كان دارجاً في لغة العرب الجنوبيين، فقد ذكر الهَمْدَاني أنه وجد نقشا مكتوباً بخط المسند (الحِمْيَرِي) وبه أفعالاً كتب ضمير المتكلم فيها (بالكاف) بدل التاء ومنها «الفعل (بَهَلْكُ) أيْ: أمَرْتُ»[١٧١]. وتكمن الأهمية في معرفة الطريقة التى تحورت بها هذه الكلمة «بَهَل» ومشتقاتها فى لهجة الحَبَاب.

فالفعل «بَهَلَ» كان في اللُّغة الحِمْيَرِيَّة (وما زال في لهجة الحَبَاب) يعنى القول

---

(١٧١) راجع بحث قدمه الدكتور: عبد الله محمد القدسي، أستاذ اللغويات المساعد بجامعة تعز، في منتدى السعيد الثقافي يوم ٢١ فبراير ٢٠٠٨م بعنوان: «اللهجات اليمنية بين القديم والحديث».

وخاصةً إذا كان في صيغة الأمر ولكنه تطور في اللُّغة العربية الفصيحة ليعنى النداء والمناجاة والدعاء بالقول ولا تجده بهذا المعنى في القواميس ولكن دليلنا هو الفعل الرباعي من هذا اللفظ وهو «ابتهل» أي القيام بالمناجاة وطلب العون والنصر والخير بمناجاة الخالق عز وجل. ولا شك أن الفعل الرباعي «ابتهل» اصله الثلاثي هو «بَهَلَ» تماماً كما هو الحال بالنسبة للفعل: ابتعد أصله بَعُدَ، واقترب أصله قَرُبَ وهكذا. ويبدو أن العرب قديما كانت تستخدم الكلمة «بَهْلٌ» بمعنى القول والفعل الثلاثي منها «بَهَلَ» بمعنى قال و«بهلتُ» بمعنى قلتُ و«ابْهَلْ» بمعنى «قُلْ». وبمرور الوقت اختفي الفعل الثلاثي وظل الفعل الرباعي ابتهل مستخدما ليشتق منه الابتهال ويبتهل وغيره. وهنا تكمن أهمية لهجة الحَبَاب حيث احتفظت باستخدام هذا الفعل الثلاثي المنقرض «بهل» بمعناه الاصلي، وكما هي العادة حذف حرف الألف في فعل الأمر «ابْهَلْ» فاصبح ينطق «بَهَلْ» بمعنى قُلْ، مثلما هو الحال في «سِمْعِي» بدل «اسْمَعِي» و«بِلَغْ» بدل «ابْلَغْ».

وفي بعض الأحيان يحذفون الهاء التى تعقبها اللام لثقلها[١٧٢] فيقولون «بَلْ» بدل «بهل» بمعنى قل، ويقولون: «إي تيبل» بدل «إي تبهل» بمعنى لا تقل وكلها بحذف الهاء لثقلها كما قلنا، وهذا أمر شائع في اللُّغة العربية. أما المصدر «البهل» فيستخدم فيه الهاء كما في أصل الكلمة فيقولون لك «مِي بَهَل تُو إلّي؟» أيْ «ما هذا القول أو الكلام؟».

مثال آخر لا يقل أهمية وهو تطور الفعل «أرخ، يؤرخ، تأريخا». وهذا الفعل أصله حِمْيَري مشتق من كلمة «وَرح» بالحاء وليس الخاء. وهذه الكلمة تعنى الشهر أو القمر ومازال أهلنا الحَبَاب يسمون الهلال «وَرِح». وكما هو معروف فإن كثيراً

---

(١٧٢) إذا التقى الهاء واللام في كلمة ما فإنه يتم حذف الهاء في كثير من اللهجات العربية لثقل نطقها مع اللام. مثلا يقال في العامية السودانية: "الناس مالوم؟" يعنى ما لهم، ويقال: "البنات ما لن؟" يعنى ما لهن.

من الكلمات في اللُّغة الحِمْيَرِيَّة (واللَّهجَة الحَبَابية) تنطق الخاء حاءا (بدون نقط) مثل «أخو» تنطق «أحو» وتختصر إلى صيغة «حُو»، وهكذا الوضع في «خَال» تنطق «حَال» و«خَالَة ـ خَالتو» تنطق «حَالتو» وتختصر إلى «حَلْتُو» و«أخونا» تنطق «حُونا» مع حذف الألف كما هي عادة البدو عندما يقولون مثلا «بُونَا» بدل «أبونا».

نعود إلى تطور كلمة «تأريخ» فنقول أصلها «وَرَح» بالحِمْيَرِيَّة، والحِمْيَرِيُّون كما هو معلوم، أهل حضارة وكانوا أسبق من غيرهم إلى معرفة الزراعة والحساب والفلك وكانوا يؤرخون للحوداث بمنازل «الوَرِح» أي «يُوَرِّحُون» بأيام الهلال أو القمر وعندما انتقل هذا المفهوم إلى عرب الشمال أخذت الكلمة حسب اعتقادنا النطق السائد لبعض الكلمات (أقول بعض الكلمات) التى تبدأ أو تنتهي بالحاء فتقلب (أحيانا) «خاءً» كما أشرنا من قبل(١٧٣) ولهذا جاءت الاشتقاقات المختلفة لهذا الكلمة مثل «وَرَّخَ ـ أرَّخَ»، يؤرخ، تأريخا» ... إلخ، ولكن لا يعرف النَّاس أن أصل هذه الكلمة هو «وَرِح»، ولا يدرون كيف تطورت وجاءت منها المعاني المعروفة اليوم، وهذا ما قصدناه من أهمية لهجة الحَبَاب.

كذلك تكمن أهمية لهجة الحَبَاب في كونها تعتبر إحدى أقدم اللهجات العربية وبالتالي قد توفر لنا تفسيرا لبعض الكلمات التى لا يعرف مصدرها في اللُّغة أو أختلف النَّاس على معناها. مثلا اسم «إيَاد» المتدوال بكثرة في عصرنا الراهن قد لا يدرك الكثيرون معناه رغم أنّه اسم عربي قديم ولكن الحَبَاب ما زالوا يستخدمون هذه الكلمة إلى اليوم بمعنى «شهاب» أو «قبس»، أي العود المشتعل. ومثلّ "طفح" الشيئ أصلها استوى الشيئ وبلغ الحد ومن ذلك جاء المثل "طفح الكيل". يقول

---

(١٧٣) ربما كان السبب في انتشار حرف الخاء في عربية الشمال راجع إلى تأثرها بالعبرية التى كانت تنتشر شمالا في بلاد العبرانيين ـ الكنعانيين. قال حسان بن ثابت مشيرا إلى لغة عرب الشمال:

تقولون مانونخ ودونخ وكنتم ... إذا ما التقينا كالرصاص على الجمرِ

وقديما قرأت في مجلة العربي التى تصدر في الكويت بحثاً ذكر فيه صاحبه أنَّ العربيَّ إذا أراد أنْ يعبر عن الألم أو الحزن وما شابهه يقول "أحْ" بالحاء، وأما العجمي فيقول "أخْ" بالخاء !!.

الحباب "أكان طافحت" أي مكان مستوي؛ ويقولن: "اطفح" أي اجلس على راحتك (مستويا).

مثال آخر لكلمة قديمة هو كلمة «مَكَّةَ» قيل عن معناها الكثير فبعضهم قال إنَّ أصل الكلمة آرامي وبعضهم قال إنها تحريف لكلمة (مقرب) أو (مقربة) وبعضهم قال أن أصلها «مكا» وتعني بالبابلية البيت وقيل إنَّ اسم «مَكَّةَ» مشتق من الاسم السَّبَئِي (مكورابا)، ومعناه (مقدس) وقيل الكثير غير ذلك. بَيْدَ أَنَّنَا نرى أنَّ اسم مَكَّةَ أصلها عربي حميري، من الفعل «مَكَّتْ». إنَّ الفعل مكَّ (بتشديد الكاف، وأصله «مَكَكَ»)، يعنى بالحَبَابية ذاب الشئ أو سال ماؤخه أو زيته من شدَّة الحرارة، ومكَّتْ الزبدة مثلا تحولت الى حالة سائلة بسبب الحَرّ. وفي الأصل، فإنَّ الفعل الثلاثي لهذه الكلمة هو «مَكَكَ». وطبقا لقواعد اللُّغة العربية، يتم ادغام الحرفين المتشابهين المتتاليين في بعضهما ويستعاض عن التكرار بالشَّدَّة، ولذلك يكون الفعل الماضي منها مَكَّ (بتشديد الكاف) للمذكر و «مَكَّتْ» (بتشديد الكاف) للمؤنث، ولهذا نرى أن مسمى «مَكَّةَ» المكرمة قد جاء من الفعل «مكَّتْ»، بمعنى ذابت من شدّة الحَرّ، تماماً كما يستعملها الحَبَاب بهذا المعنى حتى هذا اليوم. ومعروف أنَّ جو مَكَّةَ شديد الحرارة ولا يستبعد أن العرب العاربة قد سمتها مَكَّةَ لشدة الحرارة فيها خاصةً وأنَّ مَكَّةَ كانت موطنا لقبيلة جُرْهُم القحطانية[١٧٤] قبل أن تؤول سيادتها لقريش.

مثال آخر هو كلمة «الشام» التى اختلف المؤرخون في معناها فقال الفراهيدي إنها من مشأمة القبلة، أي يسار أو ميسرة القبلة. قال الحموي عن ذلك إنه قول فاسد لأنَّ القبلة «لا شامة لها ولا يمين، لأنَّها مقصدٌ من كل وجه، يمنة لقوم هو

(١٧٤) هولاء هم أحفاد جُرْهُم بن قحطان، وهنالك قبيلة من العرب البائدة كانت سائدة في عهد عاد وثمود كانت تسمى أيضاً جُرْهُم، ولذلك لزم التنويه.

شامة الآخرين»[١٧٥]. وقال الأنباري: إما أنَّها من اليد الشُّؤْمَى أي اليد اليسرى، أو إنها من الشامة، لكثرة قراها التي تشبه الشامات. وقال ابن المقفع: إنها مأخوذة من اسم «سام» بن نوح، فتغيرت السين إلى شين!! وقال الكلبي: سُميت بشاماتٍ لها حمر وسود وبيض، ولم ينلهَا سَام قط. وقيل إنَّها سميت على مدينة «شامين» التي كانت قائمة في فلسطين في عهد النبي سليمان. انظر كيف تباعدت تفاسيرهم لمعنى كلمة «الشام».

لكن كلمة «شام» بالحَبَابية تعني «الحب». وإذا أخذنا في الاعتبار أنَّ أشهر من سكن الشام هم الغساسنة، من سبأ، وإذا أخذنا في الاعتبار تعلق العرب بالشام منذ القدم، ورفعهم لشأنها حتى اليوم كما في قولهم المعاصر: «الشام شامك إنْ الدَّهر طامك»، وإذا استصحبنا مدح الرسول (ص) للشام أكثر من مرة، ومن ذلك قوله: «الشام صَفْوَةُ الله من بلاده»، فيمكننا أن نقول إنَّ العرب السبأيين من غسان هم الذين اطلقوا اسم «الشام» على تلك المنطقة ليعبروا عن حبهم لها، وبالتالي فإن اسم الشام معناه الحب كما هو الحال في لهجة الحَبَاب حالياً.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أنَّ لاسم «صَنْعَاء» تفسيرٌ مقنعٌ في اللَّهْجَة الحَبَابية، حيث ذكرنا في موضع آخر ما ورد في كتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري، و«معجم البلدان» لياقوت الحموي، حيث ذكرا أن الحبشة هم الذين أطلقوا اسم (صَنْعَاء) على العاصمة اليمنية، بعد أن كانت تسمى في القديم (أَزَال أو ذِمَار). وعندما استولى الأحباش على اليمن، ووصلوا «أَزَال» وجدوها مدينةً حصينةً مبنيةً بالحجارة، فقالوا هذه «صنعة»[١٧٦]، ومعناها حصينة، فسميت صَنْعَاء. وفي الحقيقة فإن لفظة صَنْعَاء هي على وزن فعلاء مثل حمراء وجرداء وما تزال هذه اللفظة مستخدمة في لهجة الحَبَاب إلى اليوم وهي مشتقة من المصدر «صِنع» بمعنى الحصانة

(١٧٥) «معجم البلدان» لياقوت الحموي، مرجع سابق، باب الشين والألف وما يليها.

(١٧٦) كثير من الناس لا يدركون أن لغة الأحباش، خاصة في العصور المتقدمة، (قبل أن يدخلها شيْء من اللغات الأفريقية) هي ذاتها لغة الحميريين، بشكل أو آخر.

أو المنعة وما يزال الحَبَاب حتى اليوم يطلقون على الشَيْء الحصين والمصون أو القاسي (عكس اللين) وصف صُنُعْ (على وزن فُعُلْ)، وقد يطلق هذا اللفظ مجازا على الشخص الشريف أو النبيل وهو بطبيعة الحال حصين ومنيع!!

ولا تقتصر أهمية اللهجة الحبابية في فهم الكلمات القديمة التي فقدت اليوم معناها الأصلي، بل يمكن أنْ تساعد اللهجة الحبابية في فهم أصل بعض الكلمات الدراجة الاستعمال اليوم لمعاني ليست معانيها الأصلية. ولنضرب بذلك مثلاً بكلمة "طبيب" التى تستخدم في وقتنا الراهن للدلالة على الحكيم أو ما كان يعرف بالنَّطاسي سابقاً (أو "ألدكتور" بلغة العصر). إنَّ كلمة طبيب تعني في اللهجة الحبابية الحاذق والماهر على وجه العموم، ونعتقد أنَّ المعنى الحالي قد انبثق وتطور من هذا المعنى وتُرِكَ المعنى الأصلي بمرور الوقت، وهذا باب يطول فيه الشرح، ولكننا نكتفي بهذا القدر.

لطائف عند بداية البحث في اللهجة الحَبابية:

منذ أنْ عكفْتُ على إعداد هذا البحث، أصبحتُ أفكِّر في كل كلمةٍ أعرفها من لهجة الحَبَاب، وأحاول ردَّها إلى أصلها ولم أواجه مشكلة مع معظم الكلمات حيث يتطابق النطق الدارجي مع نطق الكلمة الفصيحة أو يتناغم معه في غالب الأحيان، ولكن هنالك بعض الكلمات الدارجة قد تحور نطقها بمرور الوقت، وبالتَّالي يتغير شكل كتابتها. وهذا الأمر لا يقتصر على لهجة الحَبَاب فقط وإنما هو الحال كذلك في كافة اللهجات المتداولة في عالمنا العربي، حيث تبتعد الكلمة الدارجة في بعض الأحيان كثيراً عن الأصل الفصيح حتى يشق على المرء معرفة الكلمة الأصلية. مثلا تأمل كلمة «هسع» الدارجة الاستعمال أصلها «هذه الساعة» وكلمة «إيش؟» أصلها «أي شَيْء؟»، وكلمة «عشان» أو «علشان» أصلها «على شأن»، والفعل «يبي» أصله «يبغي»، والفعل «بدِّي» أصله «بوُدِّي»، وهكذا. وأخذاً في الأعتبار مثل هذا التحول في اللهجات وجدتُ الكثير من العبارات التى نستخدمها في لهجة الحَبَاب لا تبتعد كثيراً عن أصلها بَيْدَ أنَّني واجهت بعض الصعوبات ومنها أنني احترت في

أصل كلمة «قَسّي» بمعنى أجلس في اللَّهْجَة الحَبَابية، وشكل الأمر معضلة بالنسبة لي لكونني لم أجد لها تخريجاً مناسباً.

وذات مرةٍ كنت استمع إلى تلاوة للقرآن الكريم وجاء القارئ الى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، مريم [٧٢]، فصِحْتُ قائلا: وجدتها . . . وجدتها، وكانت فرحتي في تلك الليلة لا تقل عن فرحة «أرخميدس» عندما اكتشف بالصدفة أنَّ حجم الجسم يتناسب طردياً مع كتلته، فقد أدركت أنَّ كلمة «قسي» اصلها «اجثي» بمعنى اجلس، واذا اتبعنا القواعد التى سنذكرها من أجل فهم لهجة الحَبَاب، فإن الكلمة يجب أنْ تكتب «جسي»، وهي الصيغة الدَّارِجة (العاميَّة) للفعل الأصلي «اجثي»، وجرياً وراء عادة البدو، تم حذف ألف الأمر ليصبح الفعل «جثي»، كما هو الحال في «سمعي» بدل «اسمعي» و«قرئي» بدل «اقرئي» وهلمَّ جرا. وطبعاً الجيم تنطق بالطريقة اليمانية كما كررنا مراراً، وأمَّا السين فهي تحريف لنطق الحرف الاصلي «الثاء»، وهذه مشكلة عامة فى معظم اللهجات العربية حيث لايتم التفريق بين نطق السين والثاء.

وفي هذا السياق كنت أبحث عن أصل كلمة «قِسْ» أو «قِيس» الدَّارجة في لهجة الحَبَاب بمعنى «إمشي» أو ابتعد، (والأصح "جس" بالجيم اليمانية). وكنت يائساً من أن أجد لها معناً في اللُّغة العربية، رغم قناعتي بأن لهجة الحَبَاب كلها عربية، بَيْدَ أَنَّني لجهلي، كنت أحسب كلمة «قِسْ» من الكلمات الدخيلة على لهجتنا. وحدث أَنَّني كنت في رحلةٍ إلى بلاد شنقيط بموريتانيا، فقال مُضِيفُنَا الموريتاني: «باكر نقيس نواكشوط»!! فتملكتني دهشة كبرى ولم أصدق سمعي فقلت له: أتقول غداً سنذهب إلى نواكشوط؟ قال نعم. فقلت: ولكن كلمة «نقيس» نستعملها في لهجتنا في شرق السودان بنفس المعنى، ولكنِّي كنت أحسبها كلمةً غير عربية، لأني لم أجد لها

معنى مناسب في اللُّغة[١٧٧]. فقال محدثي الموريتاني كلمة «قيس» تستخدم بمعنى «امشي» في اللَّهْجَة الحسانية السائدة في موريتانيا، والتي يعود أصلها لقبائل يمانية هاجرت إلى بلاد المغرب العربي عند الفتح الإسلامي. فطلبت من محدثي الموريتاني أن يشرح لي أصل كلمة «قيس» ما هو أصلها ومن أين جاءت فقال: إن البدو اثناء بحثهم عن المرعى الجيد يرسلون بعض الاشخاص إلى المناطق التى لم يطرقوها من قبل ويقولون له «قس» لنا المسافة واستكشف لنا المكان قبل ان نتحرك اليه ببهائمنا وعوائلنا.

قال محدثي: وبهذه الطريقة تطور استخدام كلمة قس أو قيس لتعني «اذهب» وماضيها قاس أو قيسا وقسنا وقاسوا وقيسوا إلى آخره. ورغم أنَّ احتكاكي بالوفد الموريتاني كان رسميا وقصيراً الا أنني لاحظت أن الأمر لا يقتصر على كلمة «قس» بل هنالك عدد آخر من المفردات والتعابير المشتركة بين اللهجتين الحسانية والحبابية قد لانجدها في اللهجات الأخرى أو الفصحى المتداولة حاليا، ومن ذلك مثلاً قول الموريتانيين: (فلان يتفجَّع لك - بالجيم اليمانية) بمعنى يتوقع ويأمل منك عطاءً ونوالاً، وهو لفظ يستخدم بنفس النطق والمعنى في لهجة الحَبَاب.

كذلك لاحظت تشابهاً في طريقة نطق الكلمات «Accent»، ولاحظت وجود تعابير مشتركة بين اللَّهجتين، فمثلا يقول لك من يستمع لحديثك: «حَقّْ والله» وهو تعبير يقصد منه في اللَّهْجَة الحسانية المصادقة على ما قيل، ويستخدم الحَبَاب نفس التعبير بذات المعنى. كذلك يقولون في اللَّهْجَة الحسانية: «ما شالله» بدل «ما شاء الله»، وهو أسلوب يشترك معهم فيه الحباب، وتتميز به كافة قبائل اليمن منذ القدم، ويعرف باللخلخانية.

---

(١٧٧) بعد أن استمعت لتفسير زميلي الموريتاني، وردت لي خاطرة وهي أنَّ كلمة «قِسْ» رُبَّما يكون أصلها الفعل المعروف «جِسْ»، بالجيم اليمانية، بمعنى «تحسس» وأسبر غور الشيء»، من جَسَّ يَجُسُّ جَسّاً، وتحولت لمعنى «امشي» في اللَّهجة الحبابية بنفس الطريقة التى تحولت بها كلمة «قِسْ» في اللهجة الحسانية، وذلك قياساً على التفسير الذي قدمه لي زميلنا الموريتاني.

كل هذا كان فتحا آخر بالنسبة لي، وطمأنني أكثر أن لهجتنا هي لهجة عربية سليمة وليست «مسخاً شائهاً» كما قال المرحوم محمد الأمين شريف!!

ولقد مرَّت بي شخصياً تجارب في هذا المجال لا أودُّ ذكرها خشية الإطالة ولكني أذكر هنا، على سبيل المثال لا الحصر، قصتين طريفتين. القصة الأولى أنني كنت في مدينة الرياض في السعودية في أواخر الثمانينات أبحث عن أشخاص (حمّالين) يساعدونني في نقل امتعتى من منزل إلى منزل وتوجهت إلى حارة البطحاء لكون الإخوة اليمنينون يتمركزون بها وهم الذين كانوا يقومومون بمهنة «التحميل» في ذلك الوقت. وجدت أحدهم واتفقنا على المهمة ولكنه طلب مني أن أرافقه لبيت زميله ليصحبة في أداء المهمة وفعلا توجهنا إلى بيت زميله فطرق على الباب وأنا بجانبه وأصبح يصيح: «قاسم هلّو؟» فرد عليه أحدهم من الداخل: «ما هلّوش!!». هنا طبعا انتابتني الدهشة لتشابه هذه اللَّهْجَة مع لهجتنا رغم الاختلاف الطفيف.

إن هذا اليماني لو كان حبابيا كان سيسأل «قاسم هلا؟» بدل «هلّو» والاجابة عليه ستكون: «إي هلاّ» بدلاً من «ما هلّوش!». ولعل ما سمعته عن تشابه لهجتنا مع اللَّهْجَة اليمانية كثير لايتسع المجال لذكره ولكنني أشير إلى قصة أخرى طريفة في هذا الشأن. يحكي أن أحد ابناء الحَبَاب كان مغتربا في المنطقة الجنوبية من السعودية بمحاذاة اليمن السعيد فقبضت عليه شرطة المرور لارتكابه مخالفة مرورية. واثناء الحجز المؤقت سأله العسكري السعودي عن العلامات التى في وجهه (وكان الحَبَابي مشلخا) فاجابه بقوله «هذه شلوخ» فلم يفهم العسكري كلمة شلوخ ولكن أحد زملائه من العساكر شرح له الأمر بلهجتهم المحلية (جنوب المملكة) وقال للعسكري: «إنه يقصد مشيدل بكلمة شلوخ»، فضحك الحَبَابي وقال لهما لوكنت أعلم ان لهجتكم فيها كلمة «مشيدل»، كما هو الحال عندنا، لما استخدمت كلمة

شلوخ!!(١٧٨).

القصة الثانية تتلخص فيما رواه لي الصديق العزيز الأستاذ: ابراهيم أحمد شلية، ابن تُوكَر الأصيل، الذي يعتز دوماً بتراث أهله البُجَة ويجيد التحدث بالبِدَاوِيِتْ واللَّهْجَة الحَبَابية في آن واحد، فضلاً عن عربيةٍ جزلة. قال إبراهيم إنه عندما كان في سبعينات القرن الماضي مغتربا في مدينة الرياض بالسعودية اضطر للاستعانة بصبي يمني للخدمة في منزله (حيث لم تكن خادمات المنازل متوفرات كما هو الحال اليوم). وبعد فترة لاحظ ابراهيم وكذلك لاحظ أهل بيته أن الصبي كان يتكم بلهجة أقرب ما تكون للهجة الحَبَاب فيقول ما «رأيكو» و«ما سمعكو» وهكذا، الأمر الذي جعل زوجة ابراهيم تشك في أن الصبي ربما يعرف «الرطانة» فاصبحت تتحدث معه بلهجة الحَبَاب ولكنه لم يفهم كثيراً مما تقول. يقول ابراهيم: سألنا الصبي عن لهجته تلك فقال إن أهله في اليمن يتحدثون بهذه الطريقة. ثُمَّ قال لي ابراهيم إنَّهم علموا بعد ذلك أن جزءاً من قبائل اليمن ما يزال يتحدث بنفس الطريقة حيث تقلب تاء الفاعل (المتكلم) وضمير المخاطب (الفاعل) كافا تماما، كما هو الحال في اللَّهْجَة الحَبَابية، وهذا أمر أفضنا في شرحه في هذا الكتاب.

مهما يكن من أمر فإن هنالك كثيراً من المفردات العامية التى لا تزال مستخدمة في الجزيرة العربية تتطابق مع اللَّهْجَة الحَبَابية ولا تجد لها مقابلا في اللُّغة المكتوبة. مثلا يقول لك القُصْمَان (أهل القصيم في السعودية): «شاي بُهْ؟» ويقصد: «هل

(١٧٨) يبدو أنَّ عادة «الشلوخ» والتى تعرف لدى الحَبَاب بـ «مشيدل أو شيدلي واحيانا بالمطارق» يبدو أنها انتقلت لكل قبائل السودان الشرقي من «الحداربة» وهم في الأصل قبيلة يمانية (حضارمة) استقراطية كانت تحكم البُجَة من سواكن، وقد تفشت هذه العادة وسط البُجَة وكافة عرب السودان الشرقي لاسيما قبائل الجعليين. قال الشاعر الحَبَابي إدريس ود أمير يصف محبوبته المشلخة: «ثلث ثلث بديبا شيدلي لحدارب» يعنى بها ثلاثة شلوخ في كل جانب مثل شلوخ الحدارب. وهنالك قبائل في اليمن ما تزال تتشلخ (تتمشدل ـ بلهجة الحباب) حتى الآن تماما كما يفعل أهلنا.

يوجد شاي؟» وقد يقول لك أحدهم: «من هو بُهْ؟» ويقصد بذلك: «من الموجود؟» وقد يقول لك: «أبوك بُهْ؟» ويقصد: «هل أبوك موجود؟». ونحن في اللَّهْجَة الحَبَابية نستخدم كلمة «بُهْ» استخداما مطابقا فنقول «مي بُهْ؟» يعنى «ماذا عنده؟» ونقول كذلك مثلا «شاي به ما ألبه؟» يعنى «أيوجد شاي أم لا؟» وهكذا. كذلك يستخدم القصمان لفظا آخر لا نجده في القواميس ولكنه دارج بينهم ألا وهو كلمة «يم» بمعنى الطرف أو الجهة. فمثلا يقولون لك «روح يمه» بمعنى إذهب اليه. ولدى الحَبَاب استخدام مماثل لهذه الكلمة فقد يقول لك الحَبَابي: « يَمُّه إي علكو» بمعنى لم أكن بطرفه و«يم ألبو» بمعنى لا حدّ له ولا طرف، أي كثير جدا، ويقولون: «يَمْكَ إي هَلا» بمعنى ليس بطرفك فهو بعيد وهكذا. مثال آخر لكلمة دارجة لدى الحَبَاب ونجدها بنفس الاستخدام في دول الخليج هي كلمة «فِطَنْ» وأصلها «افطن» بمعنى انتبه، فقد سمعت بعضا من أهل الامارت العربية المتحدة يقول «والله كنت فاطنُه» أي كنت مدركا ومنتبها لذلك. والحَبَاب يستخدمون نفس التعبير ويقولون مثلا: «عُيُونْ تُو ما فَاطِن؟» بمعنى هل هو مجنون (معيون) أم واعي (فاطن). وبدون شك هنالك سيل من الكلمات والتعابير المتشابهة الاستخدام في اللهجات العربية المختلفة ولا نستطيع هنا حصرها.

وأمَّا علاقة اللَّهْجَة الحَبَابية باللهجات السارية في اليمن، فهذا أمر آخر يطول فيه الحديث حيث تتطابق كثير من المفردات العامية مع لهجة الحَبَاب ويحسبها الجاهل غير عربية مثل كلمات: هبني (اعطني)، وحِقف (الحُضْن) وجمعها أحقاف[١٧٩]، وشَمَال (الهواء) وعكّة (وعاء السمن) وشملت (شملة ـ الغطاء من الصوف أو القطن)، وجِرَاب ومَسْوَد (مَزْوَد)، وزمبيل وأثافي، و"ذرء" بمعنى حرث الأرض، و"عوبل" نوع من الشجر، و"سرح، ويتسارح" بمعنى الحركة والسفر، و"شطط، ومشطوط" بمعنى مزّق وممزق أو ممزّع، و"نكث" بمعنى الانتقال، وعجيج (الأزعاج برفع الصوت)، وكَلِع (إناء من الفخار)، ودمن (جمع دمنة) وميشدَل

(١٧٩) هي في الأصل كتلة أو قوز من الرمل المعوج، ولذلك يطلق الحباب على الحضن مسمى حقف.

(شلوخ) ومطحن وسفال (ثفال) وحقان أو حقين بمعنى اللبن الرائب، وقِثِن (فرع الشجرة)، وعَناق (سَّخْلَة) وحَقُو بمعنى الخصر (أو زينة تربط في منطقة الحَقُو أو الخصر) وكَلأ (بمعنى منع وحمي)(١٨٠)، وسامد، من سمد، يسمد، أسْمَدَهُ، بمعنى ألبسه لبس الفرح والزَّهو، و"تبَتْ" بمعنى الهضبة الأرض المرتفعة قيلاً ...الخ من المفردات، وسيل من التعابير مثل «قِدِمْ» ويقابلها «قَدْ هُمْ» في اللَّهْجَة اليمانية و«هَلاً» ويقابلها «هَلُّو» في اللَّهْجَة اليمانية. وهكذا تجد ما لا حصر له من المفردات والأسماء والتعابير التى تتطابق في اللهجتين الحَبابية وبعض اللهجات اليمانية، وربما لا تجدها في الاستخدام اليومي لبقية اللهجات العربية.

القواعد الخاصة لفهم اللهجة الحبابية:

في البدء يجب أن نشير إلى أن كافة الشعوب العربية الموجودة حالياً لا تتحدث تلقائيا اللُّغة العربية الفصحى (كما كانت تتحدثها بها قَيْسٌ وتميم وأسد من قبل)، وإنَّما كل طائفة من هذه الشعوب تتحدث الآن لهجةً خاصةً بها، قد تقترب من اللُّغة العربية الفصيحة أو تبتعد عنها، ولكنها في النهاية ليست اللُّغة العربية الفصيحة التي كانت تتحدث بها قريش ومن جاراها. وهذه المشكلة ليست بنت اليوم، وإنَّما اشتكى منها ابن خلدون قبل ما يزيد على ستة قرون حينما قال: إنَّ «لغة العرب لهذا العهد [يقصد عهده](١٨١) لغة مستقلة مغايرة للغة مضر ولغة حمير»(١٨٢).

ويكفي دهشة أن نشير هنا إلى أنَّ في اليمن وحدها في وقتنا الراهن (٢٠١٢م) يوجد زهاء ٣٧ لهجة مختلفة عن بعضها، علاوة على وجود لغتين قديمتين هما المهرية

---

(١٨٠) يستخم الحَبَاب الفعل «كلأ، يكلأ» بمعنى يحمي أو يمنع تماما كما استعملها شاعر هُذَيْل قديما حين قال:

فأُبْنا لنا ربحُ الكِلاء وذِكْرُه وآبوا عليهم فَلُّها وشِهامُها

قال ابن جني في شرح هذا البيت: «الربح» الدولة و«الكلاء» مصدر كالأتة أي نحن نتكالأ وينصر بعضُنا بعضاً لأن كلمتنا واحدة.

(١٨١) عاش ابن خلدون في الفترة من عام ١٣٣٢م إلى عام ١٤٠٦م.

(١٨٢) «مقدمة ابن خلدون»، الجزء الأول، صفحة ٣٥٨.

والسُّقطرية، وذلك حسبما جاء في بحث علمي وتقصي لمدة ١٨ عاما قام به الباحث اليمني محمد عبد الله القرشي[١٨٣]. فإذا كان هذا هو الحال في مهد العرب، فماذا يكون الحال في الأصقاع الأخرى؟ ولهذا نعتقد لو أنَّ رجلاً من عَلْيَا هوازن (وهم أفصح العرب كما قال أبو عمرو بن العلاء)، بُعِثَ اليوم في أرض العرب ربَّما كان سيظن أنَّه بعث في بلاد الأعاجم، وربَّما كان سيردد قول المتنبي:

مَغانِي الشِّعْب طِيباً فِي المَغَاني ... بمنزِلَةِ الرَّبيع مِنَ الزَّمانِ
وَلكِنَّ الفَتَى العَرَبِي فيها ... غَرِيبُ الوَجْهِ وَاليَدِ واللِّسانِ

بَيْدَ أنَّ الدِّراسة المذكورة أكدت أنَّ اللَّهجات اليمنية الحالية قد حافظت على عددٍ غير قليلٍ من المفردات المعروفة في اللُّغة العربية الجنوبية، بلهجاتها المختلفة، ولاسيَّما السَّبَئِيَّة والمَعِينِيَّة والحِمْيَرِيَّة والقتبانية والحضرمية. وفي حقيقة الأمر فإنَّ اللُّغة العربية الفصحى أو الفصيحة، والتي نحاول اليوم، بِلأْي وجهد، استخدامها في وسائل الإعلام ومنابر الخطابة، وفي تأليف الكتب وكتابة المقالات والمحررات المتعلقة بشؤون الادارة والسياسة وغيرها، هذه اللُّغة لا يتكلم بها أحدٌ من عرب اليوم سليقةً، وإنَّما يتعلمها الجميع ـ بلا استثناء ـ في المدارس ودور العلم الأخرى. بل قد يكون التحدث بالفصحى في غير المجالات الرسمية مثار ضحكٍ وتندر، وذلك لأنَّ النَّاس يحبذون التحدث بلهجاتهم المحلية بدلاً من التحدث باللُّغة الفصيحة. إذَنْ اللُّغة الفصحى في الوقت الراهن هي لغة تكتسب فقط بالتَّعَلُّم، ولهذا لا نستغرب إذا وجدنا بعضاً من الأعاجم (سواء كان من أسيا أو أفريقيا أو أروبا) يجيد الحديث باللُّغة العربية الفصيحة أكثر مما يجيدها أهلها من سكان الجزيرة العربية. وقد شهد جيلنا المؤتمرات والقمم التي يعقدها الملوك والرؤساء العرب، وشاهدنا جميعا الصعوبة واللحن الذي يعاني منه بعض أكابر القوم من العرب (عاربة ومستعربة!!) عندما يحاول إلْقَاءَ كلمته باللُّغة العربية الفصحى، التي يفترض أنَّها لغته، بينما نجد رئيساً من جزر القمر مثلاً، أو رئيس وزراء من البوسنة، يتحدث بلغة عربية

(١٨٣) راجع صحيفة «الجمهورية» اليمنية الصادرة بتاريخ الخميس ٢٦ مارس ٢٠٠٩ م.

فصيحة يحسد عليها!!.

إنَّني اتمنى أن يسعدني الحظ واتمكن من وضع قاموس خاص باللَّهْجَة الحَبَابية[١٨٤]، على نسق القاموس الذي وضعة المرحوم البروفسير عون الشريف قاسم (اليماني الأصل) عن العامية السودانية[١٨٥]. ولكن حتى نتمكن من القيام بهذه المهمة، أو يتمكن غيرنا من القيام بها، أقول للقارئ هنالك قواعد لفهم هذه اللَّهْجَة التى تبدو للمستمع كأنها لسان غير عربي، ولكن بمجرد فهم هذه القواعد تنفتح أمامه مغاليق وأسرار هذه اللَّهْجَة، ويجد لغةً عربيةً رصينةً وأصيلةً. ونورد هنا للقارئ بعض القواعد المهمة لفهم اللَّهْجَة الحَبَابية:

(١) عند التحدث بلهجة الحَبَاب يجب دائماً مراعاة نطق حرف الجيم بالطريقة اليمانية (الجيم القاهرية). مثال ذلك كلمة «جمل» يجب أن تنطق «gamal»، و«جَدَر»، بمعنى المرض والمصيبة إلتى تصيب الجسم، ومنها اشتق حسب اعتقادي مسمى مرض الجَدَرِي، يجب أنْ تنطق «gadar»، و«جَبْأ»، بمعنى حدث وصار الشَيْء، يجب أنْ تنطق «gaba'a»، و«حَنْجَل»، بمعنى الرأس أو الجمجمة، يجب أنْ تنطق «hangal»، و«رُجُوم»، بمعنى مَرْجُوم وملعون، من الرجم، يجب أنْ تنطق «rogoom»، و«جَبِر» بمعنى عبد، من الاجبار والجبرية، يجب أنْ تنطق «gabir» بالجيم اليمانية، و«جوار» من الجيرة والقرب، يجب أنْ تنطق «guwar»، و«انجب»، المشتقة من مكان الانجاب، يجب أنْ تنطق «angab»، و«جِنَحْ» بمعنى الْتَفِتْ وانْظُرْ (وهي كلمة عربية فصيحة) يجب أنْ تنطق «ginah»، و«رَجْرِجْ» من الرَّجْرَجَة، يجب أنْ تنطق «ragrig»، و"عِرَجْ" في الحبابية (اعْرجْ - بالفصحى) بمعنى أرْكَبْ أو ارْتقِ، يجب أنْ تنطق «irag» -

(١٨٤) قرأت أن ليسلو Leslau قد وضع قاموسا للتجري، بَيْدَ أنّني لم اتمكن من الاطلاع عليه.

(١٨٥) نشير هنا إلى كتاب الدكتور/ عون الشرف قاسم: «قاموس اللهجة العامية في السودان».

بالجيم اليمانية - من عرج، يعرج، عروجاً ومعراجاً. وهكذا فعند البحث عن المعنى، ينبغي مراعاة العودة لحرف الجيم لمعرفة أصل الكلمة. وهذا الموضوع يتسبب في خلط لكثير من النَّاس ومن ذلك نجد أن القرية المعروفة «أبو جمل» قرب كسلا يكتبها الجاهلون بهذه اللَّهْجَة «أبو قمل»، فانظر مدى التحريف الذي يصيب الاسم والمعنى. أمَّا حرف «القاف» الذي ينطق لدى عرب الشمال عموماً بالطريقة اليمانية، فهو في غالب الأحيان ينطق «قافاً» مرققة لدى الحباب كما هو الحال في «قلم» و«قرب» و«حنق» و«شَرَقْرَق»، وهكذا، وذلك بالرغم من أنَّ هنالك كلمات قليلة دخلت لهجة الحباب في وقت متأخر عن طريق المهاجرين من عرب الشمال كما أوضحنا في موضع آخر، اصبحت فيها القاف تنطق مثل الجيم اليمانية مثل كلمة «جَقْلَبَةْ»، و«جَقْلَبَتْ» بمعنى الخراب وسوء الحال. ورغم أنني لم أجد هذه الكلمة «جقلبة» في المعاجم، إلاَّ أنَّها كلمة دارجة في بعض اللهجات العربية المعاصرة، ومنها اللَّهْجَة العامية السودانية. و«الجَقْلَبَةُ» في اللَّهْجَة الحبابية والعامية السودانية بمعنى واحد وهو الهَمُّ وعدمُ الإرتياح ممّا هو طارئ. يقول الحباب «تجَقْلَبْنَا» يعنى ساء حالنا، ويقولون في العامية السودانية «شُغُل مجَقْلَبْ» يعني سيء، والفعل «جَقْلَبَ» الرجل يعني: ضاق صدره[١٨٦] واعتراه الخوف. ويقول المثل السوداني المشهور: «الخيل تجَقْلِبْ والشُّكُرْ لِحَمَّاد!!»[١٨٧]. وهذا المثل معناه إنَّ الخيل تتعب ويسوء حالها في الحروب والشكر يكون للغير. ووجه الاستشهاد هنا هو أن الحباب ينطقون الجيم في هذه الكلمة بطريقة عرب الشمال كما هو سائد الآن (بالجيم المعطشة) بينما ينطقون القاف في هذه الكلمة مثل نطق الجيم غير المعطشة (القاهرية أو اليمانية) وهذا يخالف نطقهم لحرفي الجيم والقاف في غالبية كلامهم مما يدل

---

(١٨٦) راجع صفحة ٢٠٤ من كتاب «قاموس اللهجة العامية في السودان»، مرجع سابق.

(١٨٧) هذا المثل قالته قبائل الكواهلة (المضرية) عقب معركة العقيدات في جنوب الجزيرة، بين الكواهلة وحَمَّاد النَّايِر، أحد أمراء المهدية في عهد الخليفة عبد الله التعايشي.

على أن هذه كلمة وافدة على لهجتهم.

(٢) كما هو معروف في لسان القبائل اليمانية منذ القدم فإنَّه يجب التنبيه إلى أنَّ (تاء) الفاعل (بالنسبة للمتكلم المفرد وكذلك بالنسبة للمُخَاطَب، مفرداً كان أو جماعةً) في لهجة الحَبَاب، يتم ابدالها دائما بحرف الكاف. فمثلا تاء المتكلم (الفاعل) في كلمة «قَرَأْتُ» وفي كلمة «تَعبْتُ» تقلب كافاً في لهجة الحَبَاب فتنطق الكلمة «قَرَأْكُ» و«تَعَبْكُ»، بابدال كاف مضمومة (في مكان التاء المضمومة). وعلى هذا قس كل الأفعال التى يقوم بها المتكلم المفرد (الذكر والأنثى) مثل: «سَعَيْكُ» بدل «سَعَيْتُ» و«أَتَيْكُ» بدل «أَتَيْتُ» و«كَتَبْكُ» بدل «كَتَبْتُ» و«صَلَّيْكُ» بدل «صَلَّيْتُ» و«صُمْكُ» بدل «صُمْتُ». وهكذا الحال في تاء المُخَاطَبين (الذكر والأنثى، المفرد والجماعة) حيث يتم ابدالها بحرف الكاف (مع الاحتفاظ بنفس علامة الإعراب). مثلا إذا أراد أحدهم أن يقول لك: «من أي مكان أَتَيْتَ؟» سيقول لك: «مِنْ أيَ أكَانْ(١٨٨) أَتَيْكَ؟»، وإذا أراد مخاطبتكم بصيغة الجماعة فسيقول لكم: «مِنْ أيَ أكَانْ أَتَيْكُمْ؟» وهكذا يقولون: «مِي بَلَغْكَ؟» بمعنى «ماذا بَلَغْتَ؟» و «أيَ بلد سَكَنْكَ؟» بمعنى «أي بلد سَكَنْتَ؟ و«مِي رَأَيْكَ؟» بمعنى «ماذا رَأَيْتَ؟»، و«مِي سَمعْكَ؟» بمعنى «ماذا سَمعْتَ؟» و«ومِي رَفَعْكُم؟» بمعنى «ماذا رَفعتُّم؟»، و«من أسرْكُمْ؟» بمعنى من ربطتم أو أسرتم، و«من قَتَلْكُمْ» بمعنى من قتلتم، إلى آخره. ولعنا نلاحظ أن أداة الاستفسار «ما» يتم إمالتها، كما هو الحال في بعض اللَّهجات العربية الأخرى، فمثلاً بعض النَّاس من قبائل السودان الشمالي يقول لك «مِي كَدِي؟» أو «مُو كَدِي؟» ويعنون «أليس كذلك؟»، ويقولون: «مُو أنا» و«ومِي أنا» ويقصدون «ما أنا» وهكذا. وفي السعودية قد يقول لك الشخص «مُو هُو بأنا» ويقصد «ما هو بأنا» أو «لست أنا». أما بالنسبة للمخاطبة المفردة فيتم ابدال التاء المكسورة بكاف مكسورة

(١٨٨) لاحظ أن «مكان» تنطق عندهم «أكان»، وتنطق "بكان" في بعض مناطق السودان.

فبدلاً من «بَلَعْتِ» يقول الحباب: «بَلَعْكِ» بكسر الكاف، وبدلاً من «سَعَيْتِ» يقولون: «سَعَيْكِ»، وهكذا. وكذلك الحال بالنسبة لجمع المخاطبات حيث يتم ابدال التاء بكاف، فيقولون: «سَعَيْكن» بدلاً من «سَعَيْتُن» و«زَفَنْكن» بدل «زَفَنْتُن» و«ظَعَنْكن» بدل «ظَعَنْتُن»، وهكذا. أما ضمير جمع المتكلمين (الفاعلين) فهو النون والألف (نا) كما هو الحال في الفصحى فيقولون: (قرأنا وسعينا وكتبنا وتعبنا وظعنا وأتينا ... إلخ). ولعله من المفيد أنْ نشير هنا إلى أنَّ عادة إبدال التَّاء بالكاف هي عادة قديمة، اشتهرت بها القبائل اليمنية. بل تقول الدِّراسات التي أجريت على اللُّغات السامية أنَّ الأصل في ضمير الفاعل هو «الكاف»، وليس «التَّاء»، حسبما ذكر الدكتور عبد الله محمد القدسي، أستاذ اللُّغويات المساعد بجامعة تعز، في بحث قدمه في منتدى السعيد الثقافي يوم ٢١ فبراير ٢٠٠٨م بعنوان: «اللَّهجات اليمنية بين القديم والحديث».

هذا وقد أورد الدكتور عبدالله ما رواه الكسائي قديماً عن قول أحد اليمنيين «رَكَضْكَ»، بالكاف وليس بالتاء، بمعنى (رَكَضْتَ)، وما رواه أبو حاتم السجستاني أنَّ يمانياً قال مرةً بلُغَتِهِ: (سُؤْكَ ظَنّاً) أيْ: (سُؤْتَ ظَنّاً). كما أورد ما ذكره وَهْبُ بن مُنَبِّه، (صاحب كتاب: «التِيْجَان من أخْبَار مُلُوك حِمْيَر»، الذي قال: قالت أمي: (رأيك بنحلم كولدك ابن من طيب) أي: (رأيتك في الحلم قد ولدت ابناً طيباً). كذلك أشار الدكتور عبدالله إلى النقوش التي وجدها الهَمْدَاني مكتوبةً بخط المسند حيث وجد أفعالاً كُتِبَ فيها ضمير المتكلم (بالكاف) بدل التاء، مثل الفعل (بَهَلْكُ) أي: أمرتُ. ولعله من المفيد ان نورد القصيده الحِمْيَرِيَّةَ التي كشف عنها ونقلها وترجمها ونشرها عالم الآثار اليمني وأستاذ اللغات السامية في جامعة صنعاء الدكتور: يوسف محمد عبد الله. والقصيدة نشرها الدكتور يوسف في العدد الخامس من مجلة ريدان في عام ١٩٨٨، وهي عبارة عن نقش بخط المسند (الحميري) على

صخرة في «ضاحة الجذمة» في وادي قانية الواقع في ناحية السوادية في لواء البيضاء اليمني. ويجب أنْ نشير هنا الى أنَّ الدكتور يوسف وجد صعوبة كبيرة في فهم معاني القصيدة لأنَّ "معظم مفرداته بل وتراكيبه غير معهودة لدى دراسي النقوش اليمنية القديمة" كما قال، ولهذا ترجمته للنصوص هي "محاولة لنقل المعنى" دون قطع بصحتها. والقصيدة أطلق عليها مسمى "ترنيمة الشمس" لكونها مناجاة لمعبود الحمريين "الشمس"، ونحن إذْ نورد نص القصيدة الحميرية نأمل من القارئ الكريم مقارنة نسق أبيات هذه القصيدة مع ما أوردناه في هذا الكتاب من قصائد حبابية، وذلك لمعرفة البناء اللُّغوي للهجة الحباب، ومدى تأثرها بلغة حِمْيَر، كما نأمل ملاحظة أنَّ التاء في «مأت» جاءت مفتوحة (غير مربوطة) و«تاء» المخاطب قد قُلِبَتْ إلى «كاف»، كما هي العادة في لغة حمير:

نشترن خير كمهذ هقحك (نستجير بك يا خير فكل ما يحدث هو مما صنعت)
بصيد خنون مأتْ نسحك (بموسم صيد خنوان مائة أضحية سَفَحْتَ).
وقرنو شعب ذقسد قسحك (ورأس قبيلة «ذي قسد» رفعت).
ولب علهن ذيحر فقحك (وصدر علهان ذي يحير شرحت).
وعليت أأدب صلع فذحك (والفقراء في المآدب خبزاً أطعمت).
وعين مشقر هنبحر وصحك (والعين من أعلى الوادي أجريت).
ومن ضرم وتدأ هسلحك (وفي الحرب والشدة قوّيت)
ومهسع يخن أحجي كشحك (ومن يحكم بالباطل محقت)
ونوي تفض ذكن ربحك (وغدير " تفيض " لما نقص زيّدت)
وصرف ألغد دأم دوضخك (ولبان " إلعز " دائماً ما بيّضت)
وجهنللت هنصنق فتحك (وسَحَرَ اللات إن اشتد ظلامه بلّجت)
وذي تصخب همسمك برحك (ومن يجأر ذاكراً نعمك رزقت)
وين مزر كن كشقحك (والكَرْم صار خمرا لما أن سطعت)
ورسل لثم ورم فسحك (وللإبل المراعي الوافرة وسّعت).

وسن صحح دأم هصححك	(والشرع القويم صحيحا أبقيت).
وكل يرس عرب فشحك	(وكل من يحفظ العهد أسعدت).
وكل أخوت ذقسد هبصحك	(وكل أحلاف ذي قسد أبرمت).
ولليت شظم دأم تصبحك	(والليالي الغُدر بالاصباح جلّيت).
وكل عدو عبرن نوحك	(وكل من أعتدى علينا أهلكت).
وكل هنحظي أملك ربحْكَ	(وكل من يطلب الحظَّ مالاً كسَّبت).
وأك ذتعكد أرأ كفقحك	(ورضي من تعثر حظه بما قسمت).
ومن شعيب عرأن هلجحك	(وفي (الشعيب) الخصبَ أزجيت).
وجب يذكر كلن ميحك	(وبئر" يذكر" حتى الجمام ملأت).
حمدن خير عسيك توحك	(الحمدُ يا خير على نعمائك التي قدّرت).
هنشمك هندأم وأك صلحك	(وعدك الذي وعدت به أصلحت).
هردأكن شمس وأك تنضحك	(أعتنا يا شمس إن أنت أمطرت).
تبهل عد أيسي مشحك	(نتضرع إليك فحتى بالناس ضَحّيت).

(٣) بما أننا بصدد الحديث عن لهجة دارجة - وليس لغة مكتوبة - يجب التنبيه إلى أن بعض الكلمات لا تنطق بكامل أحرفها كما هو الحال في أي لهجة دارجة الاستعمال. ومن ذلك أن الحَبَاب يحذفون دائماً حرف الألف من فعل الأمر الثلاثي تماماً كما هو الحال في اللهجات العربية الأخرى. فمثلا في الكويت قد يقول المرء مخاطباً زوجته أو أخته أو غيرهما من الإناث: «سِمْعِيني» بدل أنْ يقول لها «اسْمَعِيني» فقد حذف الألف من فعل الأمر، وهذا بالضبط ما يحدث عند الحَبَاب فقد تقول المرأة وهي تلاطف ابنها «قبرني» وتقصد «اقبرني» بمعني يطول عمرك وتعيش بعدي حتى تقبرني، وقد يقول المرء منهم «رفعني» وهو يقصد «ارفعني» أو «مكرني» يقصد أمكرني وانصحني أو يقول «حِلَبًا» يقصد «احلبها» أو «كِتَبْ» ويقصد «اكتب» أو «قِرَأ» ويقصد «إقرأ» وهكذا.

(٤) عند كتابة اللهجة الحبابية يجب مراعاة حركات التشكيل في أصل الكلمة

وعدم إضافة أحرف زائدة لها مجارة للنطق حتى لا تفقد الكلمة معناها الأصلي. مثلاً الفعل "دَوْرَرَ" في لهجة الحباب بمعنى ضاخ رأسه أو فقد توازنه، من دار، يدور، يجب الاّ تكتب "دوررا" بزيادة ألف، وإلاّ سيصعب فهمها كلغة عربية.

(٥) من خصائص لهجة الحباب أنهم يبتدؤون كل فعل مضارع بحرف اللّام، وهذه لغة قديمة استعملها القرآن في كثير من المواضع كما سنوضح. ولو توقف الأمر عند هذا الحد لهان الأمر للآخرين ليفهموا هذه اللَّهْجَة لكن مما يزيد الطين بلة، أنَّ الحَبَاب، وكما هي عادة الحِمْيَرِيين، يقومون بعد الابتداء باللام بحذف «الياء» من بداية الفعل المضارع، فمثلا يقولون لك: «ربي عافيتْ لهبك» ويقصدون «ربي ليهبك العافية» وهكذا. وأشرنا الى أنَّ استخدام اللام في بداية الفعل المضارع هي لغة قديمة ولها شواهد عديدة في الشعر الجاهلي ومن ذلك قول الشاعر الجاهلي أبي عمرو أُحَيْحة بن الجُلاح بن الحريش، سيد الأوس في الجاهلية:

فَمَنْ نَالَ الْغِنَى فَلْيَصْطَنِعْهُ صَنِيعَتَهُ وَيَجْهَدْ كُلَّ جَهْدِ

هذا وقد استخدم القرآن الكريم الفعل المضارع المسبوق باللام في مواضع كثيرة، وحاول النُّحاة وعلماء الكلام ايجاد تفسير لها فقالوا إنها زائدة، وقالوا هي لام التعليل، وقالوا هي لام الجحود وقالوا لام الدعاء، حسب موضعها، وفي كل الأحوال تظل لاماً تسبق الفعل المضارع كما هو الحال في لهجة الحباب. وكمثال لما نقول أنظر الى قوله تعالي: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، البقرة [١٨٦]، وقوله "ما كان الله لينذر المؤمنين﴾، آل عمران [١٧٩]، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، النساء [٢٦]، وقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، النساء [١٦٨]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ

فِيهِمْ﴾، الأنفال [٣٣]، وقوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، يونس [٥٨]، وقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾، هود [١٠]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾، يوسف [١٣]، وقوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ يوسف [٦٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾، إبراهيم [٣٠]، وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾، العنكبوت [٦٦]، وقوله: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، الزخرف [٧٧]، وقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ الانشقاق [١٩].

(٦) هنالك إشكال آخر يصعِّب مهمة المستمع للهجة الحَبَاب وهذا الاشكال ناتج عن استخدام أدة التعريف «أل» كما هو الحال في اللُّغة المضرية حيث نجد الحَبابية (في كثير من الأحيان) قد فارقت أصلها الحِمْيَري[١٨٩] في هذا الجزء من الكلام لأن الثابت هو أن الحِمْيَرِيَّة لا تستخدم أداة التعريف «ال»، ولكن نتيجة للتأثير الذي طرأ فيما بعد على لهجة الحَبَاب بسبب انتشار الإسلام الذى يعبر عنه دائما بلغة مضر يبدو أن الحَبَاب، في مرحلة من المراحل، تحولوا الى استخدام أداة التعريف «ال» ولكنهم، شأنهم في ذلك شأن اللهجات الأخرى، يحذفون الألف ويتركون اللام من اداة التعريف «ال» فلا يقولون مثلا «الجمل» ولكن يقولون «لجمل» ويقولون «لرأس» بدل «الرأس» ويقولون «لبيت لقديم» بدل «البيت القديم» ويقولون «لفرس لظليم» بدل الفرس الظليم (الأسود)، وهكذا. وهذا أمر نجده في كثير من اللهجات العربية السائدة حالياً فمثلا يقول النَّاس في الخليج وفلسطين والأردن «لِمْسَامح كريم» بدل «المُسَامِح كريم» وفي قطر يقولون مثلا «لِوْسَيل» بدل «الوسيل» ويقولون «لَخْويا» بدل «الأخوية»، وفي ليبيا يقول البدو «راس لانوف» بدل «رأس الأنوف»، ويقولون «لوادي لَحْمر» بدل «الوادي الأحمر»، وفي تونس يقولون «لَحِبيب» بدل «الحبيب» ويقولون «بُو

(١٨٩) أشرنا في موضع آخر من هذا الكتاب الى طمطمانية حمير واختفائها تدريجيا من لهجة الحباب.

رقيبة» بدل «أبو رقيبة»، وفي الجزائر يقولون «بَلْحاج» بدل «أبو الحاج»، وفي السودان يقول عرب الشكرية «شحم ألْبِلْ» ويعنون بذلك لحم الإبل، وهكذا فالأمر تقريباً شائعٌ في كافة اللهجات العربية. قال شاعر البطانة:

أَلْبِلْ والبنات مَا مِنَّهِنْ تُوْبَاتْ ومَقَادِيرِ الزَّمَانْ مَا مِنَّهِنْ حُوِيَاتْ
والبَارِي الهَرَفْ لأبُدْ مِنْ الوَقْعَاتْ والبَاكُلْ طِعِمَاتْ المُشَرِّكْ مَاتْ

(٧) كما هي عادة بعض قبائل اليمن من قديم الزمان فإن الحَبَاب في بعض المواضع يبدلون حرف اللام في أداة التعريف (ال) بحرفي الألف والميم، خاصة قبل تأثرهم بلغة "مضر" على النحو الذي ذكرنا في موضع آخر، وهذا ما يعرف بطُمْطُمَانِيَّة حِمْيَر التى أثرت في لهجة الحَبَاب وإن قلَّ الأمر أو كاد أن يختفي الآن، فمثلا لا يقولون المُوَلِّد (بمعنى القابلة التى تُوَلِّدُ النساء) ولكنهم يقولون «أُمُّولِدْ»، ولا يقولون المَغْرب ولكن يقولون «أمَّغْرب». وربما يقول قائلٌ: أخطأت يا ود جميل فإن هذا ناتج عن إضغام الألف في الميم مع إهمال اللام الساكنة فنقول له: ماذا تقول في «أَمْبَرَمِي» التي هي في الأصل «ألبَرَمِي» وماذا تقول في «أمْهَمِيمَيْ» التي هي في الأصل «الهَمِيمَي»؟؟ وهكذا نجد كثيراً من الأماكن في مناطق الحَبَاب تبدأ بلفظ «أمْ» وهي في غالب الأحيان بدلٌ من ألف ولام التعريف فنجد مثلا «أمْزُلال» بدل الزُّلال و«أمْسَفِري ـ بلد حَمَد جَرْجِيس» بدل «السَّفَر» و«أمْعُضَام» بدل «العظام» وهكذا. إن عادة ابدال حرف اللام هذه عادة حميرية قديمة تعرف بـ «طُمْطُمَانِيَة» حِمْيَر، واشتهرت بها كل قبائل حِمْيَر. وفي هذا الصدد يقول الهَمْدَاني في كتابة «صفة جزيرة العرب» عند حديثه عن لغات قبائل اليمن: «فخيوان (قبيلة) فصحاء وفيهم حميرية كثيرة في صَعْدَة، وبلد سفيان بن أرحب فصحاء إلا في مثل قولهم «أم رجل» و«قيّد بعيراك» و«رأيت أخواك»، ويشركهم في إبدال الميم من اللام في «الرجل» و«البعير» وما أشبهه الأشعر وعك وبعض حكم من أهل تِهَامَة وعذر مطرة ونهم

ومرهبة وذيبان». وقد أشرنا في موضع آخر إلى قول الهَمْدَاني: «سرو حِمْيَر وجعدة ليسوا بفصحاء وفي كلامهم شيء من التحمير ويجرون في كلامهم ويحذفون فيقولون: يا بن مَعَمْ في يا بْنَ العَمْ، وسِمَعْ في أسْمَع». كما يمكن أن نشير إلى حديث النَّمِرِ بن تَوْلَبِ أن الرسول (ص) قال: «ليس من أمبر أمصيام في أمسفر» ويقصد أن الرسول (ص) قال: «ليس من البر الصيام في السفر» ومن ذلك قول الشاعر الحِمْيَرِي الأصل بُجير بن عَنْمَة الطائي:

إن مـــولاى ذو يعاتبـــني لا إحنـــة عنـــده ولا جرمـــه
ينصرـــني منـــك غـــير معتـــذر يرمى ورائي بأمسهم وأمسلمة[190]

وفي هذا السياق يفهم قول ذي الكَلاع الحِمْيَرِي مخاطباً معاوية بن أبي سفيان بشأن خلافه مع عَلِيّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: «عليك أمْرَأي وعلينا أمْفِعَال» أي عليك الرأي، وعلينا الفعال. لذلك يجب الانتباه إلى أن كثيراً من اسماء الأماكن والقرى في أرض الحَبَاب، ومن تحدث بلهجتهم، تحتوي على البادئة «أمْ» وهي قد لا تعنى بالضرورة أنها استبدال لحرف التعريف «ل» ولكن كثيراً منها يعود إلى أداة التعريف مثل «أمزلال» وهو أول موضع نزل به الحَبَاب في السَّاحِل أصلها «الزلال» أي الماء الزلال الذي يوجد في المنطقة، ونتيجة لعادة ابدال لام التعريف بالميم كما ذكرنا اطلق عليها الحَبَاب «أمزلال»، ونعتقد هذا ما حدث لكلٍ من «أمبيرمي» (أصلها البيرمي) و«أمسفري» (أصلها السفر) و«أمعضام» (أصلها العظام) و«أم مكبان» (أصلها المكبان) و«أمحجر» (أصلحها الحجر)، وهكذا.

(٨) ذكرنا أنَّ الجمع لغير العاقلين عند الحِمْيَرِيين عموماً يكون على صيغة "أفْعُول". أما الجمع للعاقلين الذكور يكون عادة على صيغة متواترة في لهجة الحَبَاب ولدى الحِمْيَرِيين عموماً وهي صيغة «فعاليام» فمثلا «جعاز» بمعنى رحَّال أو كثير السفر، تجمع على صيغة «جعازيام» وسليم أو سلوم تجمع على

(١٩٠) «بأمسهم» تعنى «بالسهم» و«أمسلمة» تعنى «السلمة» و«ذو» كلمة تعني «الذي» بالحميرية.

صيغة «سلومام» واكوب (بمعنى محفوظ أو مُصَان) تجمع على صيغة «أكوبام» و«ترود» (بمعنى قوي) تجمع على صيغة «ترودام»، وهذا ما نجده لدى الحِمْيَرِيين فمثلاً يجمعون بني «ثور» على صيغة بني «ثورام»[١٩١]. أما الجمع للإناث فيكون على صيغة فعايل (مثال لذلك "أنس عَبَايٍّ" أو صيغة فعالات (مثال لذلك: سلومات وجرومات، ستورات ...الخ).

(٩) من مميزات اللهجة الحبابية أن التصغير ـ وايضا التحقير ـ يكون دائما على صيغة "فَعَيْلايْ" فيقولون: بيتاي تصغيراً لبيت ويقولون: دكيناي تصغير دُكَّان، ومحيزاي تغير محاز (مجرى النهر الذي تنحاز اليه المياه). أما تصغير الاناث فيكون على صيغة "فِعْلَتِيتْ" أو "فَعَيْلَتْ" أي فُعَيْلة كما في الفصحى، ومن ذلك مثلا: حفرتيت تصغيراً لحفرة، وبغلتيت تصغيراً لبغلة و"وَلَيْتَتْ" وأيضاً "وَلَيْتَيِيتْ" تصغيرا لولت ـ مؤنث ولد "البنت"، وهي لغة قديمة كما ذكرنا.

(١٠) كما هي العادة في لغة الحِمْيَرِيين فإن لهجة الحَبَاب لا تعرف التاء المربوطة في آخر الكلمة، وإنَّما التاء عندهم في آخر الكلمة دائما تكون على وضع السكون (ساكنة)، وهذا يقتضي (عند الكتابة) تثبيت التاء المفتوحةً بدلاً من نطقها مثل الهاء، فيقولون لك مثلا: (مِنْ أَيِ قَبِيلَتْ إِنْتَ؟) بدل (من أي قَبِيلَةٍ أنت). وهذا أمر متوراث عند قبائل حِمْيَر منذ القدم. قال الصاغاني في كتابه «العباب الزاخر»[١٩٢]: «ومن العرب مَنْ إذَا سَكَتَ على الهَاء جعلها تاءاً؛ وهو طَيْء [وطَيْء كما نعلم قبيلة سبأية الأصل][١٩٣]؛ فقال: هذا طَلْحتْ، وخُبز الذُّرَتْ». ثُمَّ استشهد ببيت شعر قديم ينسب إلى سؤر الذئب، والذي استخدم كلمة «الجَحْفَتْ» بدل «الجَحْفَةِ». قال الشاعر سؤر الذئب:

---

(١٩١) راجع المفصل، مرجع سابق، الجزء ٢ ص ٨.

(١٩٢) راجع كتاب «العباب الزاخر واللباب الفاخر» لرضي الدين الحسن الصّاغاني (ت ٦٥٠هـ).

(١٩٣) جدهم هو جلهمة بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

ما ضَرَّهَا أَمْ ما علَيْها لوْ شَفَتْ   مُتَيَّماً بنَظْرةٍ، وأَسْعَفَتْ؟
قد تَبَلَتْ فُؤَادَه وشَغَفَتْ   بل جَوْزِ تَيْهاءَ كَظَهْرِ الجَحْفَتْ

وكما أكَّد الدكتور: جواد علي، فإنه لا توجد «في خط المسند «الذي كانت تكتب به العربية الجنوبية، ولاسيَّما لغة حِمْيَر»، تاء قصيرة، أيْ: التاء التي نكتبها تاءً قصيرةً في أواخر الكلم. فالتاء هي تاء طويلة أبداً، وردت في أول الكلمة، أو في وسطها، أو في آخرها، فلفظة «سنة» تكتب «سَنَتْ»، و«عمرة»، اسم امرأة يكتب «عَمْرَتْ»، وهكذا»[١٩٤]. وذكر الرافعي أنَّ «بعض العرب يبدل هاء التأنيث تاءً في الوقف، فيقول: هذه أَمَتْ، «في أمَهْ»، وسُمِعَ بعضهم يقول: يا أهل سورة البَقَرَتْ، فقال مُجِيبٌ: ما أحفظ منها ولا آيَتْ! ويؤخذ ممَّا ذكره ابن فارس في «فقه اللغة» أنَّ هذه اللهجة كانت من اللغات المسماة المنسوبة إلى أصحابها في القرن الرابع»[١٩٥].

وهذا هو الوضع السائد إلى الآن لدى الحَبَاب، فهم مثلا يقولون: «أَكْلَتْ» بدل «أَكْلَة»، ويقولون: «بَغْلَتْ» بدل «بَغْلَة»، ويقولون: «مَدْرَسَتْ» بدل «مَدْرَسَة»، وهكذا. وهذا هو نفس إسلوب لغة الحِمْيَرِيين، حيث نجد في النقوش المكتشفة حديثاً أنهم كانوا يقولون: «رَحْمَتْ» بدل «رَحْمَة»، و«تِهَامَتْ» بدلاً من «تِهَامَة». كما نلاحظ في نقوش السَّبَئِيين، بصفة عامة، أنَّ اسم كِنْدَة يكتب «كِنْدَتْ»، واسم ربيعة يكتب «رَبِيعَتْ». ومن الأسماء المعروفة لنساء السَّبَئِيين «عمرَتْ» و«شمَّتْ»، وهكذا. وليس أدل على ما نقول من قصة زيد ابن عبد الله بن دارم مع أحد ملوك حِمْيَر، والتي أشرنا اليها في موضع آخر، وكل الذي يهمنا في تلك القصة هنا هو أنَّ الملك الحِمْيَرِيَّ قال: «أمَّا أنَّه ليست عندنا «عَرَبِيَّتْ»، من دخل ظَفَار حَمَّر، أي فليتعلم

(١٩٤) راجع الجزء الخامس عشر من كتاب «المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام» لمؤلفه: الدكتور جواد علي، مرجع سابق، ص ٢٢١.

(١٩٥) «تاريخ آداب العرب»، مرجع سابق، الجزء الأول، صفحة ١٣٦ ـ ١٣٧.

الحِمْيَرِيَّة.» وكما تلاحظ فإنَّ التاء رسمت مفتوحة (وليست مربوطة) وجاءت ساكنة في لفظة «عَرَبِيَتْ»، ويقصد العربية.

(١١) يجب التنبيه إلى أنَّ الحَبَاب قد يطلقون أحيانا اسم الجزء من الشيء على الشيئ كله، أو يطلقون كلمة محددة الدلالة على كل ما هو من جنسها. فمثلا كلمة «مِدِر» تعنى بالحَبَابية الأرض بصفة عامة، ولكن كلمة «مَدَر» ـ بفتح الميم والدال ـ تعني في الأصل قطع الطين اليابس، وقيل: الطين العلك الذي لا رمل فيه[١٩٦]. كلمة أخرى أن نستشهد بها في هذا الصدد هي لفظة «طِبْ» والتى تعنى في الأصل مقدمة الضرع أي جزء من الضرع الذي يعرف بـ «الحَلَمَة» في العامية السودانية، وجمعها أطباء. قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: «الطبي من أطباء الضرع، وكل شيء لا ضرع له نحو الكلبة فلها أطباء». بَيْدَ أنَّ الحَبَاب يطلقون كلمة «طِبْ» و«أطْبَايْ (أطباء)» على الضرع عامة وإذا قالوا: «طَبَيْكَ» يقصدون «رَضَعْتَ»، و«طَبَاي» عندهم هو «الطَّبَاء» أي الرضَّاع، أي كثير الرضاعة. وكذلك في كلمة «نَحَر» والتى تعنى مقدمة الصدر، ويطلقها الحَبَاب على الصدر كله. كلمة أخرى تستخدم للدلالة على جنسها وهي كلمة «جِرَاب girab» (بالجيم اليمانية المكسورة)، يستخدمها الحَبَاب للدلالة على أيِّ وعاءٍ، ولا يحصرونها على «الجراب»، ذلك الوعاء الجلدي المعروف. فإذا كان الوعاء مصنوعاً من جلد الماعز يطلقون عليه «المَسْوَد» أو «المَزْوَدْ». والجراب كما هو معروف في اللُّغة العربية هو الوعاء الجلدي المصنوع من جلد الماعز، ولكن الحَبَاب يطلقون هذه الكلمة على كل ماعون، حتى لو كان مصنوعا من الحديد، فيقولون مثلا: «جِرَابْ بُكُمْ؟» أيْ «هل لديكم ماعون؟». ويجمعون الجراب على وزن أفعلة، فيقولون «أجِرْبَتْ agirbat» أي مواعين أو أوعية. قال ابن منظور في

---

(١٩٦) راجع مادة (مدر) في الصفحة ١٦٢ من الجزء الخامس من قاموس «لسان العرب» لمؤلفه: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

لسان العرب: «والجِرابُ الوِعاءُ مَعْرُوف، وقيل هو المِزْوَدُ، والعامة تفتحه فتقول الجَرَابُ، والجمع أَجْرِبةٌ وجُرُبٌ وجُرْبٌ غيره، والجِرابُ وِعاءٌ من إِهاب الشَّاءِ»(١٩٧). لاحظ أنَّ ابن منظور قال إنَّ «العامة تفتحه»، أي تقول: «جَرَاب» بفتح الجيم، وهنا نجد الحَبَابَ أفصح من غيرهم، حيث ينطقون هذه الكلمة بالكسر وليس بالفتح، فيقولون «جِرَاب» على وزن فِعَال، تماماً كما هو الحال بالنسبة لكلمة «إِزار» و«فِرَاش» و«نِعَال» . . .الخ.

(١٢) يجب التنبيه إلى أنَّ الحَبَابُ يقومون بابدال حرف «الهاء» وحرف «الذال» في أسماء الإشارة إلى «تاء»، فيقولون: «هَتُو تُو»بدلاً من «هَذا هُو»و«هتا تا» بدلاً من «هذه هي» و «مَنْ تُو؟» بدلاً من «مَنْ هُو؟»، وهكذا. وكما تلاحظ فإنَّ حرف «الهاء»، وكذلك حرف «الذَّال»، قد استبدلا بحرف «التاء». وهذه لغة يمانية قديمة، كانت تتحدث بها كِنْدَة وذبيان وغيرها من قبائل اليمن، ومن تأثر بهم من عرب الشمال من مضر، ومنهم هُذَيْل الذين سكنوا السَّرَاة، بجوار قبائل الأزد السَّبَئِية. ورد في قاموس «لسان العرب»، لمؤلفه محمد بن مكرم بن منظور: أنَّ «تا» و«ذي» لغتان في موضع «ذه»، تقول: «هاتا فلانة» في موضع «هذه فلانة»، وفي لغة «تا فلانة» في موضع «هذه فلانة». قال النابغة:

هـا إِنَّ تـا عِـذْرَةٌ إِنْ لا تَكُـنْ نَفَعَـتْ ... فَإِنَّ صـاحِبَها قَـدْ تـاهَ في البَلَـدِ

(١٣) كذلك يجب التنبيه إلى أنَّه، كما كانت تفعل بعض قبائل اليمن منذ القدم، فإنَّ الحَبَاب ما زالوا يحذفون الهمزة إذا وقعت في آخر الكلمة. ولذلك من الدارج لديهم مثلاً قول: «ما شا الله» بدل «ما شاء الله»، وهذه عادة يمانية قديمة تسمى «اللخْلَخانِيَّة». ورد في كتاب «فقه اللُّغة وسر العربية»، لأبي منصور الثعالبي، أنَّ اللخْلَخانِيَّة تَعْرِض في لغة أعراب الشِّحْرِ وعُمان، كقولهم مَشا

(١٩٧) راجع مادة (جرب) في قاموس «لسان العرب»، مرجع سابق.

الله، أيْ ما شاء الله. وهذه اللخْلَخانِيَّة لا ينفرد بها في وقتنا الراهن الحَبَاب فقط، بل لاحظت أنَّ الكثير من الأعراب في اليمن وعمان، وحتى موريتانيا، يتَّبِعُون نفس الإسلوب.

(١٤) نتيجةً لتأثير اللسان الحِمْيَري، فإن الحباب لا يستخدمون في لهجتهم حروف النفي «لا»، و«ما» المستخدمتان في اللُّغة العربية الفصحى، ويستعاض عنهما بحرف «إِي» بكسر الألف، ولذلك يستخدم الحَبَاب حرف «إي» للنفي والنهي بدلاً من أداتي النفي والنهي «لا» و«ما». والغريب إنَّ حرف «إي» يستخدم الآن في بعض اللهجات العربية الأخري للإثبات، وليس النفي، بحيث إذا قال لك أحدهم «إي والله» فهو يصادق على ما قلت، ولكن الحَبَاب يستعملون حرف «إي» للنفي، فيقولون مثلاً: «إي تقْرَبْ» بمعنى «لا تَقْرَبْ» و«إي سَمْعَنَا» بمعنى «ما سَمِعْنَا»، ويقولون: «إي تحلب» بدلاً من «لا تحلب» و«إي تكتب» بدلاً من «لا تكتب» و«إي كون» بدلاً من «لا يكون»، و«إي تسمعي» بدلاً من «لا تسمعي» و«إي رأيكو»بدلاً من «ما رأيت»، وهكذا، وهذا أحد التأثيرات المتبقية من لغة حِمْيَر على اللَّهْجَة الحَبَابية. إنَّ هذا الأمر يسبب إشكالا كبيرا في فهم أبسط الكلمات العربية في اللسان الحَبَابي. فاذا أضفت إلى ذلك أيّ تطور أو تحور في الكلمة التى تلي حرف النفي «إي»، فإن الوضع يصبح أكثر تعقيداً للشخص الذي لا يدرك كنه هذه اللَّهْجَة. فأحيانا نجد حرف النفي «إي» قد يتحور قليلاً في بعض الاستخدامات، بحيث يضغم في الكلمة التى تليه. فمثلاً يقال «إيْ بُهْ» أي لا يوجد، ومن ذلك «عَيبْ إيْ بُهْ» (بمعنى: لا عيب له). إذن؛ فإن لفظة «إيْ بُهْ» المكونة من حرف النفي «إيْ» و«بُهْ» بمعنى يوجد تستخدم لنفي الشَيْء بالجملة، بَيْدَ أنَّ هذه الصيغة «إيْ بُهْ» تحورت بمرور الزمن وكثرة الاستعمال إلى صيغة مخففة هي «ألَبُهْ» فبدلاً من أن يقولوا «لُبْ إيْ بُهْ» بمعنى لا لب له يقولون «لُبْ ألبُهْ» أي لا عقل له وبدلاً من قول «شَرْ إيْ بُهْ» يقولون «شَرْ

أَلْبُهْ» أي ما به شر، وهكذا.

(١٥) في لهجة الحَبَاب، وعند نطق الاسماء والصفات التي تنتهي بالف ممدودة (تنتهي بهمزة)، يتم استبدال الهمزة في آخر الكلمة بحرف الياء. وهذا عرف حِمْيَري قديم، وله سند في اللهجات العربية الأخرى التى ما تزال قائمة، خاصةً الخليجية منها، فمثلا كلمة «ماء» تنطق «مَايْ» عند الحَبَاب، وعند كثير من سكان دول الخليج العربي. وما نريد أن نوضحه هنا هو أنَّه في لهجة الحَبَاب، يتم حذف الهمزة من كل الأسماء والصفات التى تنتهي بألف وهمزة، وتستبدل بحرف «ياء»[١٩٨]، فمثلا يقولون «أسْمَايْ» بدل «أسْمَاء» و«بَكَايْ» بدل «بَكَّاء» و«كِرَايْ» بدل «كِرَاء» و«هِدَايْ» بدل «هِداء» و«طَبَايْ» بدل «طَبَّاء»، و«سَعَايْ» بدل «سَعَّاء» وهكذا، مع احتفاظ كل هذه الكلمات بنفس معانيها المعروفة في اللُّغة العربية. وعلى ذلك فقس كل الكلمات المشابهة مثل كلمة «عبَّايْ» بدل «عبَّاء»، بمعنى الكبير الممتلئ (المُعَبَّأ)، وكلمة «حَجَّاي» بدل «حَجَّاء» بمعنى كثير المحاججة أو الحكي، وكلمة «هُوبَايْ» بدل «هُوبَاء» بمعنى الذي يهوب ويطوف، و«بعْرَايْ» بدل «بَعْرَاء» بمعنى كثير البعر. كذلك يقولون «عَدَّايْ» بدل «عَدَّاء» و «حَسَّاي» بدل «حَسَّاء» و«دَمْبَايْ» بدل «دَمْبَاء» و«أدْمَايْ» بدل «أدْمَاء - جمع دِمَاء»، وهكذا.

---

(١٩٨) لاحظت في اللهجة العامية السودانية أن كثيرا من الكلمات التى تنتهي بألف وهمزة يقلب آخرها إلى «ألف وياء» تماما كما هو الحال عند الحَبَاب مثل «بكَّاي» بدل «بكَّاء» بمعنى كثير البكاء و«جرَّاي» بدل «جرَّاء» بمعنى كثير الجري و«سوَّاي» بدل سواء، بمعنى كثير الفعل «من سوى، يسوي» و«صلاي» بدل صلاء، بمعنى كثير الصلاة وهكذا. وهذا طبعا لا يستقيم مع القياس في اللُّغة العربية الفصيحة (عربية الشمال) ولا أدري ما إذا كان هذا ناتج عن تأثر العامية السودانية باللهجة الحَبَابية (الحميرية) مثلما ما تأثرت بلغة التَّبْدَاويتْ في نطق أسماء القبائل بإضافة «ألف وباء» في نهاية اسم بعض القبائل عند الانتساب (مثل العبداللاب، الخوجلاب، النافعاب، الانقرياب، الشعديناب، الجميعاب، الخ).

كذلك الحال عند حالة الانتساب إلى قبيلة أو قرية أو بلد أو مدينة أو منطقة أو صنعة أو حرفة أو خلافه، فإن الحَبَاب يضيفون ياء إلى الكلمة إذا كانت تنتهي بألف مثل «بيت مَعْلايْ» للدلالة على الانتساب إلى «بيت مَعْلا»، و«هَنْرِوَايْ» للدلالة على الانتساب إلى «الهندندوا»[١٩٩]. أمَّا إذا كانت لا تنتهي بألف فيتم إضافة ألف وياء لها للدلالة على النسبة فيقولون مثلا «تُوكَرَايْ» نسبة إلى «توكر» و«حبشْتَايْ» للدلالة على الانتساب إلى حَبْشَتْ، (الحبشة) و«تَكْرُورَايْ» نسبة إلى «تكرور». وهكذا يقولون: «حَبَابَايْ» بدل حَبَابِيّ و«بني عَامرَايْ» بدل «عامِرِيّ»، و«فونجَايْ» بدل «فونْجِيّ»، و«قوميَايْ» بدل «قَوْمِيّ»، وعلى ذلك فقس. ويجب أن ننبه إلى أنَّ هذه القاعدة تنطبق فقط في حالة المذكر، أمَّا بالنسبة للمؤنث فيظل الوزن كما هو في اللغة الفصحى، فيقولون «حَبَابِيتْ، وبني عَامْرِيتْ وفُونْجَايِتْ وحَبَشْتَايِتْ وتَكْرُورَيِتْ وقُومْيَايِتْ، وهكذا. ورغم أن هذه القاعدة تطبق في الغالب في حالة الانتساب، إلاَّ أنها تطبق أحياناً في حالة التصغير، وأيضا في حالة التحقير (تماما كما هو الحال في الفصحى)، فيقول الحَبَاب مثلا: «جِنيتَاي» تصغيرا للجَنَى أو الطفل.

(١٦) يجب التنبيه للأصل العربي لبعض الكلمات إلتى تحورت مع مرور الوقت إلى شكل جديد، ربما يحسبه الجاهل كلاماً أعجمياً. فمثلاً كلمة «مِيْتُو» الدارجة بكثرة في اللَّهْجَة الحَبَابية، تستخدم للاستفسار، وتعنى «ماذا» أو «ما هو». وفي الأصل، كانت كلمة «مِيْتُو» تتكون من عبارة الاستفسار «ما هِيَّتُهُ؟» بمعنى ما حقيقة الشَيْء، وبمرور الوقت وكثرة الاستعمال، تحور اللفظ من الكلمة الأصلية «ما هِيَّتُهُ» إلى الصيغة المختصرة «مِيْتُو».إنَّ ما جرى من تغيُّر

(١٩٩) الدال في كلمة «هدندوا» ينطقها البُجَة مخففة وبحيث تخرج من مكان قريب من الاسنان بحيث تنطق بين نطق الدال والراء، ولهذا نجد الحباب لا يقولون «هدندوا» وإنما «هَرَنْرِوَا» أو يخففونها أحيانا إلى «هَنْرِوَا».

وتحوُّر لكلمة «مِيْتُو» يذكرني بما جرى من تغيُّر وتحوُّر لكلمة دارجة وكثيرة الاستعمال فيما يعرف الآن بالعامية السودانية، وهي كلمة «بَرَايْ». فقد لاحظت استغراب ألناس (من غير السودانيين) عند سماعهم لهذه الكلمة، بل ربما يضحكون ويتندرون علينا عند استخدامنا لها لأنهم يحسبونها أعجمية رغم أنها كلمة من صميم اللغة العربية!!. إن التأمل والاجتهاد هدانا الى أنَّ كلمة «بِرَأيِ» نشأت في الأصل من كلمة «بِرَأيِ» من «الرأي» يعنى: بقرأري وبإرادتي (بكَيْفِي). وبمرور الزمن وكثرة الاستعمال وتأثير اللهجة خففت الكلمة من «بِرَأيِ» الى «بَرَايْ»، وبالتالي خففت وتحورت كلمة «بِرَأْيِكَ» الى «بَرَاكْ»، و«بِرَأْيِنَا» الى «بَرَانَا» و«بِرَأْيِكُمْ» الى «بَرَاكُمْ» وهكذا. وهذا التحريف أو الاختصار موجود في باقي اللهجات العربية المعاصرة، فمثلا كلمة «هَسَّعْ» المستخدمة في العراق والسودان وغيرهما، أصلها «هذه السَّاعة»، وبمرور الوقت تم تحويرها أو اختصارها إلى «هَسَّعْ». كذلك كلمة «شِنُو» المستخدمة في السودان وبعض بلدان الخليج، أصلها «أيُّ شيءٍ هُو»، وبمرور الوقت تم تحويرها أو اختصارها إلى «شِنْهُو» ثُمَّ الى «شِنُو»، بل وأصبحت تنطق «شُو» في بلاد الشام. وهكذا نجد كثيراً من الألفاظ في اللهجات العربية المختلفة، إمَّا تم تحريفها إلى كلمة جديدة كليا، مثل كلمة «هيك» في اللَّهْجَة الشامية، حيث كان أصلها «هكذا»، أو تحورت إلى نطق مقارب للكلمة الأصلية مثل «إيشْ» في اللَّهْجَة الخليجية حيث كان أصلها «أيُّ شَيْء». وفي الحقيقة هنالك عدد كبير من الألفاظ العربية قد تحرف أو تحور نطقها في كثير من اللهجات، خاصةً عندما تكون الكلمة شائعة التداول مثل: «نحن» و«هنا» و«هنالك» و«هذا» و«ذلك» و«هكذا» و«كذلك»...إلخ، ولهذا السبب نجد كثيرا من هذه الكلمات الكثيرة الاستعمال قد تم تحريفها أو تحويرها في اللهجات العربية التى نعرفها اليوم، إلى شكل ونطق مختلف. مثلا كلمة «هنا» نجدها قد تحورت إلى «هُوْن» في اللَّهْجَة اللبنانية و«هان» في اللهجة الفلسطينية، و«هِنَانَا» في اللَّهْجَة العراقية

و«هِنيًا» في اللَّهْجَة النجدية و«هِنَا»، بكسر الهاء، في اللَّهْجَة السودانية. كذلك كلمة «هُنَالِكَ» تنطق «هُنيكْ» في لبنان و«هِنَاكْ»، بكسر الهاء في السودان، وكلمة «نَحْنُ» تنطق «إحْنَا» في العراق و«حِنَّا»، بكسر الراء وتشديد النون في اللَّهْجَة النجدية، بينما ينطقها الحَبَاب «حِنَا»، بكسر الحاء وفتح النون.

(١٧) عند النظر في أصل أيِّ كلمة من الكلمات في اللَّهْجَة الحَبَابية، يجب مراعاة الخلط الذي يحدث دوماً في اللَّهجات العامية بين نطق الأحرف التى تتقارب مخارجها مثل: الدَّال والضَّاد، والذَّال والزَّاء، والسِّين والثَّاء...إلخ. ومن ذلك مثلاً قد تقول الحَبَابية لإبنها: «فذاك وَلْيّ» وتقصد «أنا فداك يا ولدي» (مع اخفاء الدال في ولدي فتنطق «وَلْيّ» بدل «ولدي»). ومن ذلك كلمة «مِثل» التى لها استعمالات متعددة في لهجة الحَبَاب بمعنى المشابهة والتماثل، ولكنهم ينطقونها «مِسِل» بينما تنطق «مِتِل» في لهجات عربية أخرى، وكلمة "أثر" تنطق "أسر" بالسين بدل الثاء، و"ثقل" ينطقونها "سقل" وما زالوا يستخدمون الأفعال المشتقة من "الثقل – بمعنى الشيء المعلق لغرض الوزن أو خلافه). وكذلك نجد كلمة «قميص» ينطقها الحَبَاب «قميش»، بينما تنطق «قميس» في لهجات عربية أخرى، وهكذا. لذا عند النظر في المعنى، يجب مراعاة فروق نطق الحروف، لإرجاع الكلمة لأصلها.

(١٨) يجب أنْ ننبه إلى أنَّ حروف «الصَّاد» و«الضَّاد» و«الظَّاء» تنطق من قبل الحَبَاب، في بعض الكلمات (وليس كل الكلمات)، بطريقة مختلفة بعض الشَيْء عما هو دارج في اللهجات العربية الأخرى. فإذا كانت الكلمة تحتوي على حرف ينطق بين الظاء والطاء، أو ينطق بطريقة تشابه نطق ts أو tz أو sz في الإنجليزية، فإنَّ أصل الحرف ـ في الغالب ـ هو «الظَّاء». انظر مثلاً كيف ينطق الحباب كلمة «ظلْمَتْ»، أي ظلمة، بمعنى السواد (من الظَّلام)، تنطق بطريقة مشابه لنطق szilmat أو tsilmat ، وكذلك كلمة «مَظْعَن»، بمعنى

المركب، سواء كان من الدواب أوغيرها (من ظَعَنَ، يَظْعُنُ، ظَعْناً)، ينطقها الحباب بطريقة مشابه لنطق maszaan . كذلك أستمع لنطقهم لكلمة "قرظ" ينطقونها qarasz ، و"القرظ" هو الشجر المعروف الذي يسمى القرض في بعض اللهجات العربية الأخرى. كذلك الفعل "ظفَّ ـ من ظفف الماء" بمعنى انقطع وتوقف، ينطقها الحباب szaffa فيقولون مثلاً: «لباسكم ظفَّ szaffa» أي جفَّت ملابسكم وانقطع عنها الماء والبلل، ومن معاني «الضَّفَفُ» في العربية الزوال والانقطاع، وقالَ الفَرّاءُ: الضَّفَفُ هو الحاجَةُ. ويقول الحباب: «ظينَ ـ بفتح النون ـ szaina» بمعنى الرائحة (من الظيان وهو في لغة العرب الياسمين البري). ويقولون: حِظَبْ hiszab وحظبنا haszabna بمعنى اغسلوا ، وغسلنا. وقس على ذلك كل الكلمات الأخرى التي تنطق بطريقة مشابه حتى تردَّ حروف الكلمة إلى أصلها. هذا ونشير هنا إلى أن لهجة بني عامر ومن ينحون نحوهم تختلف في هذا الأمر عن لهجة الحَبَاب، حيث أنَّ كل كلمة من الكلمات التي نتحدث عنها يُقلَبُ فيها الصاد والضاد والظاء الى حرف الطاء[٢٠٠]، فمثلاً يقولون: «طِلْمَتْ» بدل «ظِلْمَتْ»، ويقولون «مَطْعَن» بدل «مَظْعَن»، وهكذا. وهذا القياس في «ظِلْمَتْ» و«مَظْعَن» ينطبق على كثير من الكلمات مثل «ظُفْر»، بما فيها الأظلاف، و«ظَلِّيم» بمعنى أسود، و«حَظُور» بمعنى الشوك الذي تعمل به الحظيرة، و«ظراط»، وهلم جرا؛ مثلا يقول الحَبَاب: «ولْ حَرَام لَظَرَّاط» أي ولد الحرام الظَّراط (وكلمة «ظراط» كما هو معلوم تحورت في معظم اللهجات العربية من أصلها وهو «ضراط»). ويقولون «ظبط ـ أي اضبط»، بمعنى امسك أو اقبض (والفعل «اظبط» كما هو معلوم تحور في معظم اللهجات العربية من أصله وهو «اضبط»). وفي بعض الأحيان يكون أصل ذلك الحرف هو «الصَّاد» كما هو الحال في نطقهم لكلمة «صَمَم»، بمعنى

---

(٢٠٠) وهذه عادة قديمة لدى النبطيين. ورد في معجم لسان العرب، باب حرف الظاء، أن ابن جني قال متحدثا عن حرف الظاء: "ولا يوجد في كلام النبَط ، فإذا وقعت فيه قلبوها طاءً".

انعدام السمع، فهم ينطقونها szamam ، ويطلقون على الأصم لفظ «صُمُوم»، على وزن فُعُول. كذلك فإن الفعل «رَقَصَ» من رقص يرقص بمعنى يتحرك، ينطقونه «raqisz» ومنها قولهم "إجل مي تِتْرَقَّص هليكا" من أجل ماذا تكثر الحركة؟ وكلمة «صَعْدَا» بمعنى أبيض ينطقونها «szada»، وفعل الأمر "اصْفعه" (من صَفَعَ يَصْفَعُ صَفْعاً) ينطقونها «صِفْعُه szifo» بحذف ألف الأمر كما أوضحنا، والصفعة عندهم تنطق "صفعتْ" والتاء دائما مفتوحة وساكنة بسبب التأثير الحميري. وفي بعض الأحيان يكون أصل ذلك الحرف هو «الضَّاد» كما هو الحال في نطقهم لكلمة «غضب» فهم ينطقونها qaszab ، والفعل "غضبوا" مثلا ينطقونه «qaszabu»، وهكذا. إن هذا الكلام يقودنا إلى نقطة مهمة جداً وهي إنَّ الشمس لدى الحَبَاب تسمى «ظَحَايْ szahai»، وقياساً على ما ذكرنا، فإنَّ أصلها هو «ضَحَاء» أو «صَحَاء» من «الضحو» أو «الصحو»، وكلاهما كلمتان فصيحتان بمعنى واحد وهو النور أو الوضوح عموماً. ولذلك يسمى الوقت الذي يلي طلوع الشمس ضَحَاءً، وضُحَىً. ويوصف الجو بأنَّه صَحْوٌ إذا كانت الشمس ظاهرةً، ليس دونها غيمٌ أو خلافه. قال الدكتور جواد علي: النور هو «صَبْحتْ» في الحضرمية، وذلك كما ورد في هذه الجملة: («صَبْحَتْ عينو» أي: «نور عينه»)[٢٠١]. انتهى كلام الدكتور جواد.

وقال الزمخشري: «جئته ضحوةً وضُحَى وضَحَاءً وضَحْياً، وضَاحِيْتُه: أتيته ضحوة، وضحينا بني فلان، نحو: صبحناهم، ونزلوا بضاحية البلد وضواحيه: بظاهره. وهم ينزلون الضواحي، وفعل ذلك ضاحية: علانية، وأنشدني بيت شعر ليس فيه حلاوة ولا ضحاء، أيْ ليس بواضح المعنى،

---

(٢٠١) راجع الصفحة ١٧ من الجزء الخامس عشر من كتاب: «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور: جواد علي، الناشر: دار الساقي، الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

وفرس أضحى وجمل هجان ولا يقال: أبيض». وورد في نفس المصدر، في باب «ص ح و» وصف: «وأصحت السماء، والسماء مصحية، وأصحى يومنا، ويوم مصح، وهذا يوم صحو: ووجهه كمصحاة اللُّجين»[٢٠٢]. وقال ابن منظور: «الصَّحْو«هو «ذهابُ الغَيْم، يومٌ صحوٌ وسَماءٌ صحوٌ، واليومُ صاحٍ وقد أَصْحَيا وأَصْحَيْنا أَي أَصْحتْ لنا السماء وأَصحَت السماءُ فهي مُصْحِيةٌ انْقَشَع عنها الغَيْم، وقال الكسائي فهي صَحْوٌ ... والصَّحْوُ ارْتِفاعُ النهارِ. قال سُوَيْد تَمْنَحُ المِرْآةَ وَجْهاً واضِحاً مثلَ قَرْنِ الشمس في الصَّحْوِ ارْتَفَعْ ... والمِصْحاة جامٌ يُشْرَبُ فيه ... قال ابن بري المِصْحاةُ إناءٌ مِن فِضةٍ»[٢٠٣].

إذَنْ؛ يمكننا الإطمئنان إلى القول بأن «ظَحَايْ» أصلها «ضَحَّاء» أو «صَحَّاء»، كلاهما بمعنى واحد، على وزن فَعْلاء من الضحو أو الصحو، و«ضحاء» أو «صحاء» هنا تعنى المضيئة، الواضحة، الظاهرة، وهي الشمس بكل تأكيد، وهل يوجد شَيْء أوضح من الشمس!! ولذلك جاءت الصفة «ضحاء ـ صحاء» على وزن صيغة المبالغة «فَعْلاء»، تماماً كما يقولون: ليلة لَيْلاء، للدلالة على شدة ظلامها، أو قَمْرَاء للتأكيد على بزوغ القمر. وبما أن اللَّهْجَة الحِمْيَرِيَّة تحول الألف والهمزة في آخر الكلمة إلى ألف وياء[٢٠٤] كما هو الحال في «ماي» بدل «ماء»، انقلبت «ضَحَّاء» أو «صَحَّاء» إلى «ضَحَايْ» أو «صَحَايْ»، (مع تخفيف الشدة المفترض وجودها في حرف الحاء). وطبقا لقواعد اللَّهْجَة الحَبَابية، فإنَّ الضَّاد والصَّاد تقلب في بعض الأحيان، كما بيَّنا، إلى حرف ينطق بين الظاء والطاء، حسبما فصَّلنا فيما سبق، ولذلك فإنَّ الكلمة تنطق لدى الحباب «ظَحَايْ Szahai» أي الشمس، بينما تنطق

(٢٠٢) راجع كتاب «أساس البلاغة» لمؤلفه أبي القاسم الزمخشري، باب «ض ح و».

(٢٠٣) راجع «لسان العرب» لابن منظور، مرجع سابق، مادة «ص ح و».

(٢٠٤) لمعرفة المزيد عن تفاصيل هذه القاعدة راجع القواعد الخاصة باللهجة الحَبَابية حسبما فصلنا في هذا الباب «اللهجة الحَبَابية ـ التِّجْرِي Tigre».

«طَحَايْ Tahai» لدى بني عامر، طبقاً للقاعدة التي ذكرنا.

أما إذا كانت الكلمة تحتوي على حرف ينطق بطريقة تشابه نطق حرف ch اللاتيني كما هو الحال في كلمة church على سبيل المثال، أو ينطق بطريقة قريبة من نطق البدو حالياً في الجزيرة العربية لحرف الكاف، كما هو الحال مثلاً في عبارة «كيف حالك» حيث ينطقونها «chef halach»، وكلمة «كاديلاك» ينطقونها «chadillach» ونطق بعض أهل الخليج لكلمة «بَاكِر bachier» وكلمة «كِدَا chida» وكلمة «تَشْبَرَا» ينطقونها «chabra»، ويقصدون بها سوق الخُضَر والفاكهة، وغير ذلك من نطقهم لحرف الكاف، فإنَّ أصل ذلك الحرف الذي ينطق ch في لهجة الحباب هو ليس كافاً كما في لهجة أهل الخليج وإنما هو في الغالب «ضاد». انظر مثلا كيف يَنْطُقُ الحَبَاب كلمة «ضَغِط» التي ينطقونها بصورة تقترب من نطق chaqit. وانظر كيف ينطقون فعل الأمر "أغمض" عينك مثلاً، ينطقونه «aqamich» أو شيئاً من هذا القبيل. كذلك لاحظ نطقهم لكلمة «ضَبِيب»، على وزن «فَعِيل»، وكذلك «ضَبَّاب» على وزن «فعَّال»، من ضبَّ يضبُّ، فهم ينطقون «ضَبِيب» بصيغة «chabeeb»، وينطقون «ضَبَّاب» بصيغة «chabbab» ، فيقولون مثلاً: «أكَان ضبَّاب chabbab» ويقصدون مكاناً ضيقاً، وقس على ذلك باقي الكلمات التي فيها نُطْقٌ مُشَابِهٌ لتعرف أنَّ حرف «ch» في لهجة الحباب هو في الأصل «ضاد». وهذا القياس ينطبق على كلمات مثل «عِضَّتْ» وتنطق «echat» ، ومعناها شجرة (مؤنث)، أياً كان نوعها، وأما العود (مذكر) فهو «عِضَّايْ» عند الحباب، والجمع «عِضَيْ» بمعنى الشجر بصفة عامة[٢٠٥]. وهذه الكلمة تقابلها بالفصحى «عِضةٌ» بمعنى شجرة وجمعها «عِضَاةٌ» بمعنى الشجر. قال المُبرّد في كتابه «الكامل في اللُّغة والأدب»[٢٠٦]

(٢٠٥) راجع «لسان العرب» لابن منظور، مرجع سابق، مادة «ص ح و».

(٢٠٦) المُبرّد في كتابه: "الكامل في اللُّغة والأدب"، الجزء الثالث، الفقرة الخاصة بأوس بن حجر.

العضاة: «شجر ضخام، فبعض العرب يقول للواحدة: عضاهة، وللجميع: عضاة. على وزن دجاجة ودجاج، وبعضهم يقول للواحدة: عضة، فيقول في الجمع عضوات. وعضهات، فتكون من الواو ومن الهاء». ثُمَّ أورد قول الشاعر:

هذا طريق يأزم المآزمـــا وعضوات تقطع اللّهازما

كذلك الحال في كلمة «غَضَض»، وتنطق قريبا من نطق كلمة ghachach بالحروف اللاتينية، تعني بالحبابية القش والغثاء (الهالك البالي من أوراق الشَّجر) عموما. ونعتقد أنَّ هذه الكلمة «غَضَض» جاءت في الأصل من «الغَضَى»، وهو شجر صحراوي معروف[٢٠٧]. على كل حالٍ يجب دائماً التنبه الى أصل حرف ch في أي كلمة بها نطق مشابه مثل كلمة «ضِجَر chigar» بمعنى شَعَر، و«ضِمَغ chimagh» (اضْمَغْ) بمعنى «اهمز»، فيقال: «ضِمَغُه» أي اهمزه لاخراج ما فيه من ماء أو هواء أو نحوه، و«ضِيض cheech» أو «طِيط» بمعنى الهياج وكثرة الكلام (من طاطَ الفحْلُ في الإِبل إذا هدر وهاج)، و«قِرَضُّهْ qirracho – أي اقْرِضْهُ ـ بمعنى اقطعه، من قرض يقرض، بمعنى «قطع، يقطع»، ومن ذلك نشأ الاسم المتداول لدى الحَبَاب: «قِرُوض qirooch» ، بمعنى مقطوع، ويطلق هذا الاسم عادةً على الشخص قصير القامة. وفي أحيان قليلة يكون أصل الحرف ch هو حرف «الصَّاد»، كما هو الحال في نطق الحَبَاب لكلمة «أصابع» فانهم ينطقونها

(٢٠٧) قال مالك بن الريب التميمي:

ألا لَيتَ شِعري هَل أَبيتَنَّ لَيلَةً بِجَنبِ الغضى أزجي القَلاصَ النَواجِيا
فَلَيتَ الغضى لَم يَقطَعِ الرَكبُ عرضَه وَلَيتَ الغضى ماشى الرِّكابَ لَيالِيا
ولَيتَ الغضى والأثلَ لم يَنْبُتا معاً فإنَّ الغضى والأثلَ قد قَتَلاَنِيا
وَلَيتَ الغضى يَومَ إرتَحلنا تَقاصَرَت بِطولِ الغضى حَتّى أَرى مَنْ وَرائِيا
لَقَد كانَ في أَهلِ الغضى لَو دَنا الغَضى مَزارٌ وَلَكِنَّ الغَضى لَيسَ دانِيا

achabie، بحيث يكون نطق الصَّاد في «أصابع» مشابه لنطق ch ، وكلمة "فِصَّال"، بمعنى الجزء، من فصل الشئ فِصَالاً وفِصَّالاً، ينطقه الحباب «fich-chal»، أو قريباً من ذلك. كذلك الحال في نطق كلمة «صْرَم» بمعنى اصْرَمْ أي اقْطَعْ، ينطقونها cherum ، وكلمة «رصُوق» التى تنطق «rochooq» ومعناها ملتصق، والفعل «رصَقه richaqo» أي أرْصُقْهُ بمعنى «اعْجُنْهُ» و«الْحَمْهُ» في بعضه[٢٠٨].

(١٩) تحتفظ لهجة الحَبَاب ببعض المفردات القديمة، التى لا تستخدم في وقتنا الراهن مع صحتها وفصاحتها، مثل الفعل «لَطَأ» بمعنى لزق و«اللَّطْءُ» بمعنى لزوق الشيء بالشيء[٢٠٩]، ورأيت فلانا لاطِئاً بالأرض بمعنى لزم الآرض. ومثل الفعل «طَرَسَ» بمعنى فسد «طارس» هالك ومتعب، و«أطرسي" بلجة الحباب أي أطرسه بمعنى ارهقه. ومثل كلمة «الوَدْق» ومعناها الوقوع إلى الأرض ولذا سُمّي القَطْرُ ـ المطر ـ «وَدْقاً». قال تعالى: في الآية ٤٣ من سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾. وهذه الكلمة «الوَدْق» غير مستخدمة الآن، ولكن الحباب يستخدمون الفعل «وَدَقَّ» بمعنى وقع، و«الوَادِق» و«الوَدَّاق» (بصيغة المبالغة) هو الشخص أو الشي الذي يقع على الأرض. مثال آخر هو كلمة «فُوكَ» بمعنى «فمك»، لا تستخدم حالياً الاّ لدى الحَبَاب فيقولون: «أفوك» يقصدون «فمك»، بينما نجد اللهجات العربية الأخرى لا تعرف هذا الاستخدام، وإنَّما ترمز للفم بمفردات مثل: «تم» و«خشم» وغيرها. يقال في المثل العربي القديم «يداك أوكتا وفوك

(٢٠٨) رصق، يرصق، رصقاً، تعني في اللغة الفصيحة الالتصاق والاندماج. ورد في كتاب "تهذيب اللغة" لمؤلفه: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، مادة رصق، أنه يقال: "جَوْزٌ مُرَصَّقٌ إذا تعذَّرَ خروج لُبِّهِ منه ومُرْتصِقٌ مثله، والْتَصَقَ الشيء وارْتَصَقَ والْتَزَقَ بمعنى واحد".

(٢٠٩) راجع كتاب «كتاب العين» لمؤلفه: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، الجزء ٧، ص ٤٥٣.

نفخ». مثال آخر للكلمات القديمة التى ما زالت اللَّهْجَة الحَبَابية تحتفظ بها وتنفرد باستخدامها كلمة «بُذُح» أو «بُدُخ» بمعنى واحد وهو الكثرة والاتساع. ورد في معجم «تاج العروس»[٢١٠] كلمة «بدح» بإهمال الدال وإعجامها ـ أي «بدح» أو «بذح» ـ تعنى كل ما توسع، فتبدحت الناقة معناها توسعت وانبسطت والبداح هو المتسع من الأرض. وبهذا المعنى يستخدم الحَبَاب إلى اليوم هذه الكلمة الفصيحة، فقد يقول لك الحَبَابي: «مال بُذُحْ أَبْدَا» يعنى ضَيَّعَ مالاً كثيراً، و«فلان بُذُحْ فارس تُو»يعنى أن فلاناً فارسٌ لدرجة كبيرة، وهكذا. مثال آخر للكلمات القديمة هو «سِر» والجمع «أَسْرَار»، يستخدمها الحباب بمعناها المعروف، وهو إخفاء الأمر، ولكن لهم استخدامات أخرى لهذه الكلمة، فهم يستخدمونها بمعنى الجزء من الشيء، فيقولون «سَرُّه هَبَّنِي» بمعنى «أعطنى جزءاً منه»، وهو استخدام قديم كما هو في الحديث النبوي الشريف: «صوموا الشهر وسِرَّه» أي أَوَّلَه وقيل مُسْتَهَلَّه وقيل وَسَطَه. وكما قال أبن منظور في لسان العرب: «سِرُّ كُلِّ شيء جَوْفُه». كما أن الحباب يستخدمون لهذه الكلمة «سر» وجمعها «أَسْرَار» بمعنى الخطوط وماشابهها، مثل الأوردة والشرايين، حيث يقول الحباب مثلاً: «أَسْرَارُه فَجْرَتْ» أي تورمت أوداجه وانتفخت، إمَّا فرحاً أو غضباً، أو من الهذال والضعف وغيره. واستخدام «سِر» و«أَسْرَار» بمعنى الخطوط هو استخدامٌ جاهليٌّ قديمٌ، توقف الآن إلاَّ عند الحباب، حسب علمي. ورد في لسان العرب: «السُّرُّ والسِّرُّ والسَّرَرُ والسِّرارُ كله، خط بطن الكف والوجه والجبهة. قال الأعشى:

فـانظُرْ إلى كـفٍّ وأَسْرارهـا ... هَـلْ أَنـتَ إنْ أَوعَـدْتَني ضـائري؟

يعني خطوط باطن الكف، والجمع أَسِرَّةٌ وأَسْرارٌ، وأَسارِيرُ جمع الجمع،

(٢١٠) انظر مادة هتف في «تاج العروس من جواهر القاموس» لمؤلفه: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزَّبِيْدِي.

وكذلك الخطوط في كل شيء»(٢١١). قال عنترة في معلقته:

ولقَد شَربْتُ مِنَ المُدَامةِ بَعْدَما ... رَكَدَ الهَواجرُ بالمشوفِ المُعْلَمِ
بزُجاجَةٍ صَفراءَ ذاتِ أَسِرَّة ... قُرِنَتْ بِأَزْهَر في الشَّمالِ مُقَدَّمِ

والمقصود بذات «أسِرَّة» في معلقة عنترة، ذات خطوط. وفي حديث عائشة في صفته، (ص): «تَبْرُقُ أسارِيرُ وجهه»، قال أبو عمرو: «الأَسارير» هي «الخطوط التي في الجبهة»(٢١٢).

مثال آخر نجده في كلمة «بَأْس» التي يستخدمها الحَبَاب بمعنى المحاربة والشجار. ورد في قاموس «المحيط في اللُّغة» لمؤلفه الصاحب بن عباد: «البأس: الحرب، رجل بئيس ؛ قد بؤس بآسة: وهو الشجاع، والبأساء: اسم للحرب». وفي حقيقة الأمر فإنَّ اللَّهْجَة الحَبَابية هي مستودع زاخر لعدد كبير من الكلمات العربية الفصيحة التي انقرضت. فقد لا تجد هذه الكلمات، باستعمالها القديم، إلاَّ في بطون الكتب والمراجع والمعاجم القديمة.

مثال آخر لكلمة قديمة نجدها تستخدم إلى اليوم في لهجة الحَبَاب هو كلمة «بعل» فهي تستخدم في لهجة الحَبَاب بمعانى متقاربة هي الملك ومالك الشَّيْء والسيد والزوج ... إلخ، ولانجد لها استخداما مماثلا في الوقت الراهن لا في وسائل الاعلام ولا في غيرها رغم فصاحتها. بَيْدَ أنّنَا نجد هذه المعانى سائدة في القرآن الكريم والحديث الشريف. فقد استخدم القرآن كلمة «بعل» بمعنى الزوج والسيد والرب تماما كما يستخدمها الحَبَاب. قال تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات:١٢٥]. قال عكرمة وقتادة في تفسير كلمة «بعل» في هذه الآية: وهي لغة أهل اليمن وتعني ربّاً. أما «بعل»

---

(٢١١) «لسان العرب» لابن منظور، «سَرَرَ».

(٢١٢) نفس المرجع.

بمعنى الزوج فقد ذكرت كثيراً في القرآن. قال تعالى في الآية ١٢٨ من سورة النساء: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، وقال تعالى في الآية ٣١ من سورة النور: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أي أزواجهن. أورد الإمام القرطبي في تفسيرة أن ابن عباس سمع رجلاً من أهل اليمن يسوم ناقة بمني وقال: من بعل هذه؟ أي من ربها، ولهذا سمي الزوج بعلاً[٢١٣].

أما أحاديث الرسول (ص) في هذا الشأن فيكفينا أن نشير إلى الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) حين قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ (ص): «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحصّنت فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ بَعْلَهَا، دَخَلَتْ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَتْ»[٢١٤] وفي الحقيقة فإن كلمة بعل بكل معانيها (ملك وسيد ومالك وإله وزوج ... إلخ) قد ورثها الحَبَاب من لغة حِمْيَر الذين كانوا يستخدمون هذه الكلمة لنفس هذه المعاني ومن ذلك مثلا كانوا يقولون «بعل أوام» أي رب وصاحب ومالك معبد «أوام» وهو الإله «المقه» – القمر – ويقولون «تألب ريام بعل ترعت» أي الإله «تألب ريام» مالك أو رب «ترعت»[٢١٥].

مثال أخير نضربه في هذا المجال بكلمة "دهر" حيث إن مدلول هذه الكلمة عند الحباب هو الانحدار والاتجاه نحو الأسفل، عكس السمو والعلو، فيقولون مثلاً: "حفْرَتْ دهْرِتْ" أي حفرة عميقة نحو الأسفل. ولعل هذا الأصل في المعنى يوفر لنا تفسيرا مناسبا لكلمة "الدهر" التى وردت في القرآن الكريم أكثر من مرة كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ

---

(٢١٣) انظر تفسير سورة الصافات في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

(٢١٤) رواه ابن حبّان وَصححه الألباني في «صحيح الجامع».

(٢١٥) انظر التاء تنطق ساكنة (ولذلك تكتب تاء مفتوحة) لأن الحميرية لا تعرف التاء المربوطة حيث كل تاء في آخر الكلمة لا بد أن تسكن وهذا هو حال لهجة الحَبَاب كما ذكرنا.

مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]. فقد اختلف الفقهاء في أصل ومعنى كلمة الدهر، وربما توفر لهجة الحباب تفسيراً منطقيا لهذه الكلمة بمعنى الدهر تعنى ما سلف وتقدم الزمن، والله أعلم.

(٢٠) تستخدم اللَّهْجَة الحَبَابية بعض الكلمات العربية الفصيحة بالمعنى الذي كانت تستخدم فيه في العصور المتقدمة، واصبحت الآن غير مستخدمة، أو ربَّما تغير استخدامها لمعنى آخر بمرور الوقت، مع إنَّ الكلمة هي نفس الكلمة، بكافة اشتقاقاتها وتراكيبها. ومثال لذلك هو الفعل «أتى» بمعنى جاء في العربية الفصحى ولكن الحَبَاب يستخدمونه بمعنى «دخل» وربَّما يكون هذا المعنى أحد الاستخدامات القديمة لهذه الكلمة. على كل حال إذا قال لك الحَبَابي «إتِي» بكسر الألف، يقصد «إئتِ» بمعنى «إدْخُلْ» وإن قال لك: «بيتكَ أتيكَ؟» فهو يتساءل: «أدخلتَ بيتكَ؟» وإذا قال: «إيْ تأتِي» فهو يقصد «لا تدخل»، وهكذا. ولكون لهجة الحَبَاب هي من أقدم اللهجات التى ما تزال موجودة، فإنك تجد فيها كثيراً من الكلمات الفصيحة التى ما تزال مستخدمة بمعانيها القديمة، رغم أنَّ الفصحى التى نتداولها اليوم لا تستخدم تلك الكلمات. مثال لذلك كلمة فصيحة وقديمة ما زال الحَبَاب يستخدمونها بنفس معناها القديم وهي كلمة «آمن» بمعنى صدق، فهم يقولون «إمنني» بمعنى «صدقني» ويقولون «بربِي من تأمن» بمعنى «إذا تصدق بربِي». ولا أعلم في استخدامنا للفصحى في زمننا هذا استخداما لكلمة «آمن» بمعنى صدَّق كما هو الحال في لهجة الحَبَاب رغم صحة المعنى وفصاحته. قال تعالى في سورة يوسف الآية ١٧: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾. وهكذا يمكننا أن نشير على سبيل المثال لا الحصر الى كلمة «دِنِي» بمعنى أقرب، و كلمة «جِبْ» بمعنى حفرة وكلمة «أُكُل» بمعنى ثمر وكلمة «وَيْ» بمعنى التحسر كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَّ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن

مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص:٨٢]، وكلمة «كور» بمعنى السرج أو الرحل[٢١٦]، وكلمة «حِمَاط» بمعنى الحرقة والحكاك، وكلمة «مِلِط» بمعنى الفقد وعدم الرجوع، و كلمة «نفط ونِفَّاط» بمعنى المخاط، وكلمة «دَمْغَتْ ـ دمغة» بمعنى الرأس، وكلمة «تَرَف» بمعنى المتروك أو ما تبقى من النعمة والتركة[٢١٧]، والفعل «جَحَف» بمعنى الغرف والأخذ، و«جَفَف – بالجيم اليمانية» بمعنى التعبئة والجمع، و«جَهَف – بالجيم اليمانية» بمعنى الرغبة والاشتهاء في التملك، وغير ذلك من الكلمات الفصيحة التى لا حصر لها تستخدم إلى اليوم في اللَّهْجَة الحَبَابية بمعناها الأصلى، ولا تسخدم في باقي اللهجات، أو حتى الفصحى المتداولة حالياً.

(٢١) بعض الكلمات في لهجة الحَبَاب قد لا تجدها في القواميس، حيث لا يعقل أنْ تكون القواميس قد احصتْ كل كلام العرب، لا سيّما وإنَّ اللُّغة تتجدد بمرور الزَّمن، حيث تتميز اللُّغة العربية بكثرة اشتقاق المعاني، وكما قال بعض الفقهاء قديماً «كلام العرب لا يحيط به إلا نبيّ!!». ولكي نعطي مثالاً على غزارة لغة العرب، وكثرة اشتقاقها، نقول إنَّه يكاد لا يوجد في اللُّغة العربية اسم أو فعل لا يقابله لفظ آخر، أو ألفاظ أخرى، بنفس المعنى، بل إنّ لبعض الأسماء عشرات بل مئات المترادفات، فمثلاً للعسل (٨٠) أسماً، وللأسد (٦٧٠)، وللْحَيَّة (٥٠٥) ـ وبالمناسبة الحَبَاب يسمونها «أرْوي Arway»، أمَّا لفظ «حية» فيطلقونه على الأسد الذي يسمونه (حَيَتْ) – وللحجر (٧٠)، وللكلب (٧٠)، وللسيف (١٠٥٥)، وللناقة (٢٥٥)، وللبعير (١٠٥٠)، وللشمس (٥٢)، وللخمر (٢٥٠)، وللبئر (٨٨)، وللماء

---

(٢١٦) ورد في قاموس «لسان العرب»، مرجع سابق، ج ٥، الصفحة ١٥٤، أن الكور بالضم تعنى الرحل، والجمع أكوار.

(٢١٧) روي عن أبن عرفة في الصفحة ٣٧٣ من الجزء الأول من كتاب «العباب الزاخر» للصاغاني أنه قال: المترف هو «المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع منه، وإنما قيل للمتنعم مترف لأنه مطلق له لا يمنع من تنعمه».

(١٧٠)[٢١٨] وهكذا.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنَّ الهدف من وضع القواميس كان في الأساس لخدمة الفقه الإسلامي، وبالتالي خدمة اللسان الذي نزل به القرآن، وهو لسان قريش (أي لسان عرب الشمال)، ولهذا في الغالب لم تكترث تلك القواميس للسان أهل الجنوب الاً بالقدر الذي يتداخل فيه مع اللسان المضري. ولذلك يجب ألاً نستغرب إذا وجدنا في بعض اللهجات العربية، ومنها الحَبَابية، بعض المفردات العربية التى أغفلها أصحاب القواميس. وفي هذا الشأن لاحظت وجود عدد من المفردات في لهجة الحَبَاب، وتستخدم في نفس الوقت، من قبل لهجات عربية أخري بنفس المعنى أو بمعنى مقارب. فمثلاً يسمون السِّجارة أو الدُّخان «تِتِنْ» في السعودية وعموم الخليج، وهي كلمة لا تجد لها معنى في القواميس، ولكن الحَبَاب يطلقون لفظةً مشابهةً وهي «تَنَانْ» على الدخان، والفعل منها «تَنَّنْ» بمعنى يخرج منه الدخان. مثال آخر نجده في لهجة أهل الخليج حيث يذمُّون المرأة بأنها «حَنَّانَة» إذا كانت كثيرة الكلام، ونجد استعمالاً مشابهاً لمادة «حَنَنَ» في اللَّهْجَة الحَبَابية، حيث يقولون «تَحَنِّن» بمعنى تتحدث كثيراً ويسمون المزمار حَنُونَة. وقد لا تجد هذه المعاني لمادة "حَنَنَ" في القواميس. وقد سبق أن أشرنا إلى كلمة «قِيسْ» أو «قِسْ» بمعنى إمشي حسب اللَّهْجَة الحَبَابية، حيث لا نجدها بهذا المعنى في القواميس، ولكننا نجدها تستخدم بنفس المعنى ونفس النطق في اللَّهْجَة الحبابية في شرق إفريقيا والحسانية في موريتانيا (أقصى شمال إفريقيا)، وذلك رغم البعد الجغرافي بين الحَبَاب وبني حسان في المغرب العربي[٢١٩].

(٢١٨) راجع كتاب «المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام»، مرجع سابق، ج ١٦، الصفحة ١٨٥.

(٢١٩) علمت أن بني حسان أصلهم من حِمْيَر من اليمن وبالتالي فلا استغرب ان تكون بعض المفردات من لهجتهم مطابقة للهجة الحَبَاب السَّبَئية.

مثال آخر هو كلمة «سَكَيْ» وتعنى لدى الحَبَاب «الهرب»[٢٢٠]، والفعل «سَكَى» بفتح السين والكاف والألف المقصورة (على وزن سعى) بمعنى «هرب»، واسم الفاعل «ساكي» و«سكاي» على وزن فاعل وفعال، مع مراعاة قلب الهمزة ياء، كما اشرنا فيما سبق. ولم أجد لهذه الكلمة هذا المعنى في القواميس، ولكنني وجدت لها معنىً مشابهاً في العامية السودانية. فمثلا يقال لك: «سُكُّه» بمعنى «طَارِدْهُ» أو «إجْرِ وراءه»، ويقال: «سَكَّانِي» بمعنى جرى ورائي، و«لا تَسُكَّني» بمعنى «لا تطاردني»، وهكذا. مثال آخر كلمة «دُوَان» وتعني وعاء من الفخار في شكل جرة يستعلمها عربان الحَبَاب في البادية إلى اليوم لحفظ الحليب والعجين وخلافه، وقد وجدتُ هذه الكلمة في شعر المحلق، شاعر البطانة المعروف حيث يقول، مناجياً حبيبته «تاجوج»:

قَـــاعِدْ في رَجَـــاكِ لامْنَ الْقَمَّرْ غَابْ

(ظللتُ في انتظارك حتى غاب القمر).

وحتى الـكَبْـكَـبُوهُ كَبْـــد الدَّوَايِنْ راب

(وحتى اللَّبن الذي وضع في الدَّوَاين ـ جمع دُوَان – تخمر وتروَّب).

ومن الكلمات التى لا تجدها في القواميس كلمة «هَلاًّ»، بفتح الهاء وتشديد اللام، ومعناها لدى الحَبَاب «حاضر» أو «موجود»[٢٢١]. مثلا يسأل أحدهم عمّا إذا كان عثمان وجعفر موجودين في البيت فيقول: «من هَلاً جُوَّه؟» يقصد من الموجود بالداخل؟» فتكون الإجابة على نحو: «عثمان هَلاً وجعفر هَلاً . . .الخ «أي يوجد عثمان وجعفر. ورغم إنني لم أجد في المعاجم كلمة «هَلاًّ»

(٢٢٠) قال إِزَازْ ودْ جيل: «سَكَيْ حَاطِرْ حِلالي * وكِلاً ظَجَّاي إيْ رَكِيبْ». يقول هروب الشجاع ناتجٌ عن الغلبة وعدم الحيلة «حلالي»، وبخل الكريم ناتج عن العدم.

(٢٢١) من العبارات الدارجة في لغات كثير من الدول العربية والاسلامية (مثل تركيا) عبارة «الله هلاًّ» ونعتقد أن معناها الأصلي هو «الله موجود».

بمعنى «موجود»، لاحظت استعمال أهل اليمن لهذه الكلمة بنفس المعنى وقد اشرنا إلى أن اليماني قد يسألك: «فلان هَلُّو؟» ويقصد «هل فلان موجود» فيرد المسؤول: «ما هَلُّوشْ!» يعني لا يوجد، والحال هو كذلك في لهجة الحَبَاب مع اختلاف طفيف في النطق كما أشرنا. وهنالك مثال من غزة هاشم، في فلسطين السليبة، حيث سمعت إحداهن تشتكي في التلفاز من الحصار المفروض عليهم من قبل إسرائيل وتقول: «أطفالنا يحقلوا الفطور والحليب» وتقصد أن أطفال غزة لا يجدون فطورا ولا حليبا. والاستشهاد هنا يتعلق بكلمة «يَحْجَلوا ـ بالجيم اليمانية» حيث تعنى العدم في لهجة الحَبَاب، والمصدر عندهم لهذه الكلمة هو «حِجْلان» بمعنى العدم (والجيم دائماً يمانية) و«الحَاجِل» هو المُعْدم الفقير، ومرة أخرى لم أجد ذكر لهذه الكلمة في القواميس.

الباب الرابع
الحَباب والبُجَة

الحَبَابُ مكونٌ أساسيٌ من مكونات شعب البُجَة، قديماً وحديثاً، وذلك بحكم اللُّغة والثقافة والعادات والتقاليد، وبحكم عوامل التاريخ والجغرافيا. وفي الحقيقة لا يوجد اختلاف بين المؤرخين حول انتماء الحباب للبجة، حيث أنَّ الثابت هو أن قبائل منطقة شرق السودان هم نتاج طبيعي للتزاوج والمصاهرة، التى تمت بين البُجَة الأقدمين والعرب المهاجرين على مرّ العصور. وهذا ما أقر به الغرباء بعد التجربة والمشاهدة والتعايش مع هؤلاء القوم، ومن هؤلاء السير جيرالد ترفاسكس Sir Gerald Trevaskis والذي كان، خلال الفترة من ١٩٤١ وحتى ١٩٤٨م، مسؤلاً عسكريا في الإدارة البريطانية لإرتريا. يقول السير ترفاسكس: «بالرغم من ادعائها للإصول العربية فإنَّ معظم عوائل التّجْري هم في الغالب أحفاد البُجَة الأقدمين والمهاجرين السَّبَئِيين والحِمْيَرِيين».

«Despite their claims of Arab ancestry most Tigre families are probably the descendents of early Beja, Sabean, and Himyaritic immigrants»[1].

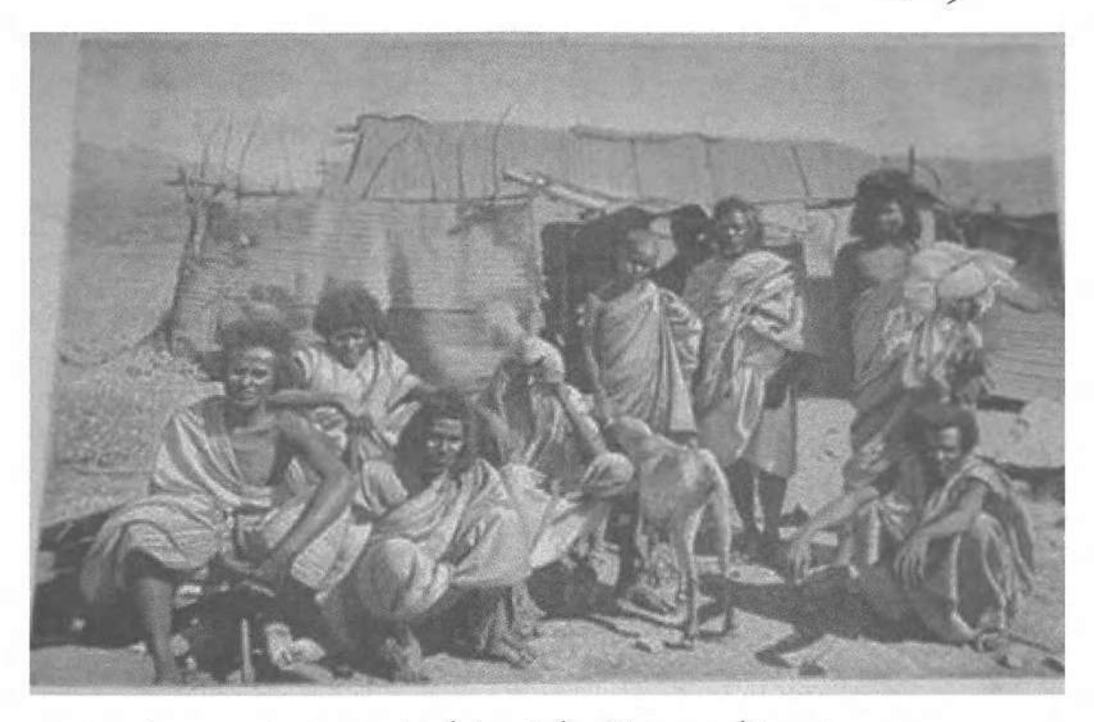
بَيْدَ أنَّ أقدم إشارة مؤكدة وصريحة بين أيدينا، والتى ذكرت بوضوح أنَّ الحَبَاب هم من البُجَة، ما ذكره مكتشف منابع النيل «جيمس بروس»، عندما طاف بشرق إفريقيا (في الفترة من ١٧٦٨ وحتى عام ١٧٧٣م) أي قبل أكثر من ٢٤٠ عاماً من الآن (٢٠١٤م)، حيث وصف الحَبَاب بأنّهم البُجَة عندما كتب يومياته ومشاهداته في المنطقة الممتدة من سواكن إلى مصوع[٢].

---

(1) See page 13 of «Eritrea: A Colony in Transition, 1941-52» by Gerald Kennedy Nicholas Trevaskis, London: Oxford University Press for Royal Institute of International Affairs, 1960.

(٢) سبق أن أوردنا في هذا الكتاب ما قاله جيمس بروس في هذا الشأن في الباب الأول، فقرة «إصول قبائل الحَبَاب».

ذكرنا أنَّ الحَبَاب هم بُجَاةٌ بحكم عوامل وشواهد كثيرة منها اللُّغة، حيث إنَّ قسماً كبيراً من البُجَة، سواء كان في إرتريا أو في السودان، يتحدث بنفس اللسان الذي يتحدث به الحَبَاب، وهو لسان «التِّجْري»، (والجيم دائماً يمانية). نقول هذا الكلام وفي ذهننا أنَّ كل قبائل بني عامر والحَبَاب، وجزء من الأرتيقا والكمالاب والأشراف يتحدثون التِّجْري، بل وكما قال مستر اندر بول، في كتابه «قبائل البُجَة السودانية»، فإنَّ الحَلَنْقَا كانوا يتحدثون بهذا اللسان قبل أن يتحولوا للحديث بلغة البِدَاوْييتْ.



صورة قديمة لأسرة من الحَبَاب أخذت في أو قبل عام ١٨٩١ م وتوجد في مواقع متعددة من الانترنت.

ولعل قائلاً يقول إنَّ لغة البُجَة هي «البِدَاوْييتْ» فقط فنقول له: على رسلك يا هذا فإنَّ «البِدَاوْييتْ» هي فعلا لغة أصيلة تحدث بها البُجَة الأقدمون، وما زالت تتحدث بها قبائل عريقة ومنها قبيلة «البُجَة» الأصلية أو (إبداوى) الموجودة في خور

بركة في إرتريا، والتى تتبع إدارياً لمجموعة بني عامر، كما أشرنا في موضع آخر، ولكن المؤرخين ذكروا لنا أسماء قبائل اعتبروها من صميم البُجَة، مثل البازا والباريا، وما زالت تلك القبائل موجودة حتى الآن وتحمل نفس الأسماء كما يعلم الجميع، ولها لغات خاصة بها، ليس لها أي علاقة بلغة «البِدَاوْيِيتْ»، لا من قريب ولا بعيد. وربما لهذا السبب قال ابن حوقل قبل ألف عام أو يزيد (توفي سنة ٣٥٠هـ) عند حديثه عن الحدارب في كتابه صورة الأرض: «ولغتهم لغة تعم البُجَة، وجميعها أعجمية، ولبعضهم لغة ينفرد بها». إذَنْ منذ قديم الزمان كان لبعض البُجَة «لغة ينفرد بها»، ومنها بالطبع لسان الحَبَاب. وهذا شئ منطقي خاصةً ونحن نعلم أن إقليم البُجَة إقليم واسع يمتد من مرسى برنيس في مصر (مقابل جدة) إلى جزر دهلك في إرتريا، وبه قبائل متعددة، وإنْ كانت جميعها تتمتع بثقافة مشتركة.

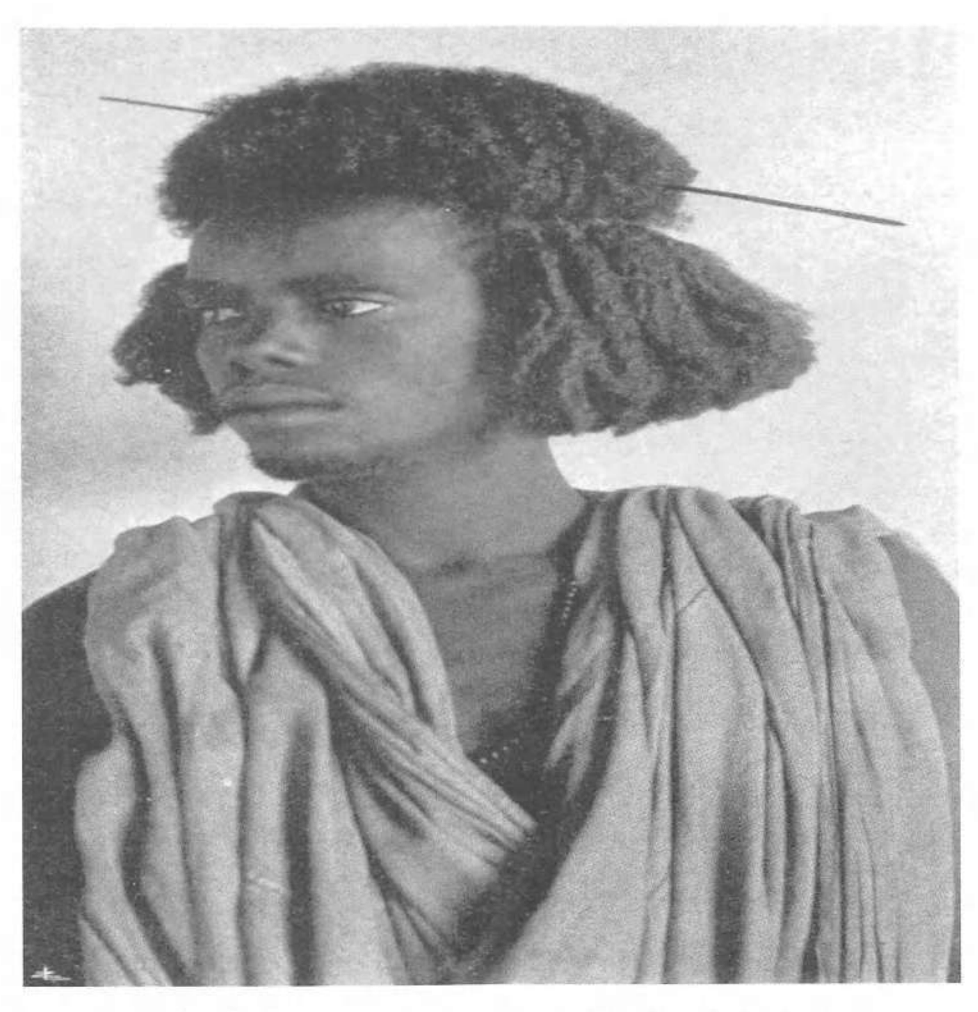
ذكرنا أنَّ الحَبَاب هم بجة بحكم العادات والتقاليد، وهم يشتركون مع القبائل الأخرى في مورثات ومظاهر ثقافية لا تجدها في المنطقة الاَّ عند البُجَة. فهم يلبسون السروال الطويل والعراقي والصديري، ومن تقدم به السن، أو من يحتل مكانة اجتماعية مرموقة، فلا بد أن يلبس «الشَّقَّة» أو «السواكنية» كما يسمونها، وتتكون هذه اللِّبسة من سروال و«عرَّاقي» و«صديري» وعمة وثوب «بنغالي»، يسمى «العشاري»، لأن طوله عشرة أذرع. أمَّا الشباب منهم (خاصةً الأجيال السابقة) فيرسلون شعورهم[1] ويجدلونها بطريقة معينة تشبه لبدة الأسد، ويضعون عليها الخلال (ويسمونه «مَدَرْجَف – بالجيم اليمانية». قال جدنا جمع وَدْ جلايدوس، متحسراً على شبابه:

هَمْ أَلَبُو وجَاكُو كمثل إلاَّ قِرجِنَّتْ (ليتني كنت بدون هم مثل هذه الطفلة «قرجنت»).

بَظِحْ بَاظِحْ وجَاكُو ساقُو إتُّو أكِلَّتْ (ليتني كنت شابا يضع الأخلة جمع خلال- في شعره).

---

(١) يجدر بنا أنْ نشير هنا إلى أنَّ بعض قبائل حمير في اليمن ما تزال ترسل وتجدل شعر رؤوسها خاصة في منطقة «تولب» في يافع البعوس.



صورة قديمة (قبل عام ١٩٣٦م) لشاب من الحَبَاب، من رعاة الإبل أو الأبَّالة،
والصورة موجودة في عدة مواقع في الانترنت بعنوان (HababCameleer).

ودائماً يحملون السيف والجنبية والعصا الغليظة، ويتفنَّنون في القفز والاستعراض بالسيف، ولديهم مهارة في درء السيف بالعصا تسمى «الصَّرْف»، حيث يمكن للشاب الماهر أن يتغلب باستعماله للعصا على عدوه الذي يستعمل ضده السيف.

ومن عاداتهم التي يشتركون فيها مع البُجَة الآخرين، حرص الحَبَاب على الاحترام الزائد للمرأة، سواءً كانت أمّاً أو أختاً أو زوجةً أو حماةً. فمثلاً يعتبرون

ضرب المرأة ليس من شيم الرجال ولا يتعرضون لها بسوء حتى لو أخطأتْ عليهم، بل يعتبر عندهم عيباً أنْ تتشاجر مع إمرأة. ويبالغون في تحشيم المرأة، إلى درجة أنّهم لا يذكرون اسم الأم أو الزوجة بل ينادي المرء منهم زوجته أو أمّه بكنيتها «أم فلان» بدلاً من اسمها[1]، أو يلفت نظرها أو يشير اليها بأي طريقة أخرى دون أن يصرح باسمها كأن يقول مثلاً: «أم الأولاد» بدل أنْ يذكر اسم زوجته، أو يقول: «الوالدة» بدل ذكر اسم أمّه، وهكذا. وبالمقابل تمتنع الزوجات وأمهاتهن (الحَمَوَات) عن ذكر اسم الزوج، وهذه العادة يسمونها «سِرِع Sirie» بكسر السين والراء، حيث من الممنوعات عندهم (على الأقل حتى الجيل السابق) التصريح باسم الزوج واسم والد الزوج، وبعضهن يبالغن فلا يذكرن حتى أسماء إخوة الزوج!!. فإذا اضطرت الزوجة أن تلفت نظر زوجها تقول له على استحياء: «يَهَا» أيْ: «يا هذا»، أو تقول له: «أنتَ إناس» أو «هُويْ» أو «يا أبْ فُلان» أو «أبْ فلانَتْ»، وتُسَمِّي ولدَها أو بنتها، ولكن لا تسميه قط، وكأننا أمام الحالة التى كان يشير اليها الشاعر: محمد سعيد العباسي، حين قال:

يَقُولُ لِي وهُو يَحْكي البَرْقَ مُبْتَسِماً   يَا أنْتَ يا ذَا، وعَمْداً لا يُسَمِّيني

ورغم ما ذكرناه من أنَّ الحَبَابي يستحي من ذكر اسم أمه أو زوجته أو أخته أمام الملأ، لكننا نجد الأمر يختلف في حالة الشِّدّة والحرب، فنجد المرء منهم ينادى أسماء أخواته في ساعة البأس فيقول: «أنا وَدْ فلان، أنا حُو فلانَتْ» ـ يقصد أخو فلانة»[2] ـ ويذكر اسمها. وهذه هي الحالة الوحيدة التى يذكر فيها اسم الأخت، وفي غير ذلك يعتبر ذكرها عيباً، وربما تسبب ذلك في شجار وقتال.

---

(١) لم اسمع قط والدي رحمه الله أن نادى أمه باسمها وإنما كان يقول دوماً «أم إبراهيم» ويناديها بذلك علما بأنه هو ابنها الأكبر «إبراهيم» ولم أعرف أن اسمها «سعيدة» الا بعد ما كبرت وسمعت بعض النسوة من قريناتها ينادينها بذلك.

(٢) هذه عادة عربية أصيلة، ومن ذلك مثلاً أنَّ الملك عبد العزيز بن سعود يرحمه الله كان يتعزي بذكر أخته في الحروب أو في حالة عدم الرضى فيقول: «أنا أخو نورة».

وهذا عرف يكاد يكون سائداً لدى كافة قبائل البُجَة، بل والكثير من القبائل العربية في السودان، وأذكر على هذا النسق المسرحية الشعرية التي كتبها إبراهيم العبادي يصور فيها ما وقع بين طه البَطْحَانَي وحَمَد وَدْ دَكِين الشكري ومطلعها:

أخُوكْ يا رَيَّا أخُوكْ وَكْتَ الخِيولْ بِدَّبْكَنْ
وأخُوكْ يا رَيَّا أخُوكْ وَكْتَ الرِّمَاحْ بِتْشَبْكَنْ
أخوك جبل الثّبات وَكِتَ القواسي يَجْبْكَنْ
كَمْ بَكَّيتْ وكَمْ قَشَّيتْ دِمُوعْ البِبْكَنْ

واشير هنا إلى شعر التراث السوداني:

اخْوَانْ البَنَاتْ تَعَالُو أوَصِّيكُمْ
واوَدَّعْكُمْ نَبِياً لايَخُونْ فِيْكُمْ
اعقُدُوا الطُّرُوفْ لاتْجُونَا بِقَفِيْكُمْ
والموتْ في الخَلا وفي الحِلّة راجِيكُمْ

ونتيجة لهذه العادة «العجيبة»، التى تحرم ذكر اسم الزوج والحمو، تواطء مجتمع النساء في الحَبَاب على أسماء بديلة لاسم الزوج أو الحمو، فمثلاً إذا كان اسم الزوج «محمود» تنادي الزوجة كل طفل أو شخص يحمل هذا الاسم بالاسم البديل وهو «مُعَجّبْ» ـ بالجيم اليمانية ـ وأحيانا «مَحْفُوظ»، وإذا كان اسم الزوج حامد، فالزوجة لا تنطق هذا الاسم، ولكن تنادي من يتسمى به باسم بديل هو «عَنْجَه». وهكذا كل اسم تقريباً له اسم بديل، فاسم «إبراهيم» يقابله «خليل» واسم «عَلِيّ» يقابله «جَبْشَا ـ بالجيم اليمانية ـ قَبْشَهْ» وإسم «إدريس» يقابله «رشيد»، واسم «عمر» يقابله «خَطَّاب»، وهكذا. فاذا لم يوجد اسم بديل، فإن الزوجة تطلق على ذلك الطفل أو الشخص الذي يحمل اسم زوجها، لقباً أو كنيةً أو صفةً مناسبةً مثل: «كُبُوب»

بمعنى مدبب[1]، كناية عن قصر القامة، وإذا كان طويلاً تطلق عليه «رُومَايْ»، وفي كل الأحوال لا تذكر اسمه.

والمرأة عند الحَبَاب لا تُكَلّف بأي عمل خارج منزلها، فهي لا ترعى البهائم ولا تحلبها (بعكس سكان النيل مثلاً)، ولا تزرع في الحقول (بعكس نساء غرب السودان مثلاً)، وعند بعض فروع الحَبَاب مثل فرع بيت أَسْجَدَيْ يحرم على النساء الطَّحْن، وإنّما تكلف خادمتها بذلك، فإن لم تكن لها خادمة، يضطر أبناؤها وزوجها إلى أكل الذرة المغلية «البليلة»، لعدم وجود الطحين، ولا أحدٌ يلومها على ذلك، وطبعاً كل هذا الكلام كان قبل انتشار المدنية والطواحين.

والمرأة عند الحَبَاب، وعند سائر البُجَة، تلبس نوعاً من الثياب المستوردة من الهند يسمى «فُوْطَتْ ـ فوطة» تستر به كامل جسدها و«تتبَلَّم»، أيْ تضع الثوب على وجهها، بحيث لا يُرَى منها الاَّ العيّون. وهي لا تأكل مع الرجال الأغراب ولا أمامهم، ومن الممنوعات أن تأكل مع والد زوجها «الحمو».

من هم البجة؟

إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى بحث دقيق، ذلك لأنَّ المصادر التاريخية التي تناولت أمر البُجَة فيها نوع من التناقض والاضطراب، وتعوزها الدقة، فضلاً عن كون جزء كبير منها كتبت بأيدٍ أجنبيةٍ، في وقت كان فيه توثيق المعلومات محدوداً، إنْ لم يكن معدوماً. لكن في البدء أود أنْ استعرض الاسباب الكامنة، حسب اعتقادي، وراء إطلاق مسمى البجة.

أصل كلمة البجة:

لكن قبل التطرق لمصدر كلمة البُجَة، دعونا نتحدث عن طريقة كتابتها، حيث يرى البعض أنه يجب أن تكتب بصيغة «البِجَا Beja» بكسر الباء واثبات ألف وبدون تاء مربوطة في آخر الكلمة. ومع احترامنا لوجهة نظرهم، إلاَّ أنَّنَا نرى أنَّ

(١) ولذلك يطلق أهل الشام اسم «الكبّة» على اللحم المُكَبَّبْ أي المضموم إلى بعضه.

الإسم يجب أنْ يكتب بصيغة «البُجَة»، بضم الباء وفتح الجيم[1] وباضافة تاء مربوطة في الآخر، والكلمة المرادفة هي «البُجَاة». هكذا كُتِبَ إسمُ البُجَة (بضم الباء) في الخرائط القديمة حيث لم ترد أبدا كلمة Beja (بكسر-الباء) وإنَّما كانت تكتب كانت تكتب «Bugiens» ((يضم الباء)، وكتبت («البُجَة» و«البُجَاة» - يضم الباء) في المراجع التاريخية (العربية) التى استقى منها المستشرقون والكُتَّابُ المعاصرون هذا الإسم، وهذا ما أكدته المراجع الأجنبية، ومنها كتاب اعتبره مهما جدا بالنسبة للمهتمين بتاريخ السودان الحديث، وعنوانه:

«The Anglo-Egyptian Sudan: A Compendium prepared by Officers of the Sudan Government, Edited by Lord Count Gleichen, printed by Harrison and Sons (1905).»

وهذا الكتاب قامت باعداده، كما يقول عنوانه، نخبة من المسؤلين الإنجليز (Prepared by Officers of the Sudan Government) الذين سيطروا على منطقة البُجَة، والسودان عموما، لفترة من الزمن، وعايشوا مجتمع البُجَة عن قرب. وقد ورد في الصفحة رقم ٣١٩ من هذا الكتاب النص التالي الذي يتحدث عن المصدر الذي اشْتُقِيَ منه مسمى البُجَة:

«This name is derived from medieval Arab historians and has been identified with the Bugate and Buka of earlier days. It is applied to the tribes living in the eastern desert who speak various languages belonging to the so-called Hamitic group of languages. The principal tribes are Ababda, Bisharin, Amarar, Hadendoa, Halenga, Beni Amer, Habab».

وفي حقيقة الأمر فإن لفظة البُجَة ليس لها معنى «معروف» في لغة التبداوى[2]

---

(١) نعتقد أنَّ الجيم في مسمى «البُجَة» كانت تنطق بالطريقة اليمانية بدليل أن قدماء المصريين كانوا يُسمُّون سكان منطقتنا بشعب البُكا (Buka) أو البُجَا (Buga)، مع ملاحظة أن الباء في كلا الحالتين مضمومة وليست مكسورة.

(٢) كان الاعتقاد السائد هو أنَّ لغة التبداوى «To-Bedawi» التي يتحدث بها قطاع واسع من البجة هي لغة كوشية Cushitic ، بيد أنَّ هنالك دراسات حديثة برهنت أن التبداوى قد تشترك

«To-Bedawi» ولا في لهجة التجرى «Tigre»، وهما وسيلتا التخاطب الرئيستان المستخدمتان من قبل عموم البُجَة، كما وأنه، وباستثناء مجموعة صغيرة سنتحدث عنها فيما بعد، فانه لا تجد من النَّاس العوام في شرق السودان من يقول إنه من البُجَة.

ولعله من المفيد في هذا الصدد أنْ أشير إلى بحث سبق أنْ نشرتُه في عدة حلقات عن البُجَة وقبائلهم في صحيفة الخرطوم، ومن ذلك الحلقة التى نشرت في العدد رقم ٨٢٥ بتاريخ ٦ مارس ١٩٩٥م، حيث أوردت اجتهادا من عندي يهدف إلى معرفة أصل كلمة «البُجَة». وقد حاول كثير من الباحثين معرفة أصل لفظة «بُجَة»، فقال بعضهم إنها ترجع إلى اللفظ الفرعوني القديم «أبشا»، بمعنى ساكن الصحراء أو البدوى. وبعضهم قال إنها مشتقة من الكلمة الفرعونية «بجأ» ومعناها «المحاربون». غير إنني لا أرى هذا ولا ذاك، بل أعتقد (أقول أعتقد) إنَّ الكلمة أصلها عربي! نعم عربي. وهذا أمر أجد له ما يبرره من الواقع ومنطق الجغرافيا والتاريخ. إنَّ الراجح لدينا هو أنَّ لفظة «البُجَة» أو«البُجَاة» بضم الباء وفتح الجيم، يرجع أصلها إلى لفظة «البُدَاة»، بضم الباء وفتح الدال، ومفردها بدوى. وقد تعرضت الكلمة الأصلية، بمرور الزمن، إلى التغيير لعدة أسباب يعرفها المهتمون بعلم تغيّر وتطوّر نطق الكلمات «Phonological Change». فإن الكلمة قد يتغيّر نطقها من لهجة إلى أخرى، رغم بقاء رسمها كما هو. وقد يحدث تغيّر في صورتها نتيجة لإدخال حروف إضافية عليها، أو نتيجة لعادة الابدال، التي كانت وماتزال مستخدمة عند العرب، حيث إنّهم يستبدلون حرفاً مكان آخر، كما هو الحال في «بكة» بدلاً عن «مَكَّةَ» و«رَيَّال» بدلاً من «رَجَّال» عند الخليجيين، و«تور» بدل «ثور» في بعض لهجات شمال أفريقيا. وما يهمنا هنا هو أن لفظة «البُدَاة» قد تحولت بمرور الزمن إلى «البُجَاة» والى الصورة المخففة منها «البُجَة» نتيجة لعادة الإبدال،

في بعض المفردات مع اللغات الكوشية ولكنها كلغة لا تندرج في اطار اللغات الكوشية بل هي أقرب للغات البربر وقدماء المصريين من حيث معاني الكلمات وتركيب الجملة.

حيث حلَّتْ الجيمُ (اليمانية) محل الدَّال.

قلنا إن اعتقادنا هذا يسنده منطق الجغرافيا والتاريخ، وهذا أمر تطرقنا له باسهاب خلال هذه الدراسة، وأشرنا مراراً إلى قرب منطقة البُجَة من جزيرة العرب، وأشرنا أكثر إلى تغلغل الدم والإرث العربي عموماً وسط البُجَة. ولكننا نركز هنا على ما يسند هذا الزعم من الواقع فنقول: إنَّ مجموعة البُجَة التى أشرنا اليها في الأسطر السابقة ما زالوا يصفون أنفسهم إلى اليوم بأنهم «بُدَا»، والدال هنا تنطق لديهم من مخرج في الفم يقع بين مخرج الجيم والدال، وبحيث يكون اللسان شبه معقوف وموضوعا عند بداية اللثة الداخلية للأسنان. كما نشير هنا إلى أنَّ عادة إبدال الجيم بالدّال أو العكس هي عادة موجودة في منطقة شرق أفريقيا عموماً حيث نجد إنَّ «الجيم» في لهجات صعيد مصر وشمال وشرق السودان تقلب أحيانا إلى «دال»، كما هو الحال في «الدَّيش» بدلاً من الجيش. وقد يحدث العكس فتنقلب الجيم دالا كما هوالحال في «الشَّدَرَة» بدلاً من الشجرة. ليس هذا فحسب، بل إنَّ البُجَة أنفسهم يقومون بأبدال الجيم محل الدَّال في كثير من الكلمات. فمثلاً كلمة «أبداً»، بمعنى النفي القاطع، ينطقها بعض البُجَة «أبجاً»، خاصةً أولئك الذين لا يجيدون القراءة والكتابة. ومن الابدالات المعروفة لفظة «الحداربة» والتى كانت في الأصل «الحضارمة». ولعلي اشتشهد في هذا بما ذكره بوركهارت، الذي تطرق لذكر «الحداربة» في سواكن ثم قال: «هذا نطق الكلمة بلهجة الحجازيين، فهم يجمعون حضرمياً على حضاربة لا على حضارمة»[1]، وبالطبع فإن عادة ابدال الميم بالباء هي عادة قديمة ومتجذرة في الحجاز. وفي نظرنا هذا ما حدث تماماً لكلمة «البُدَاة» حيث استبدلت «الجيم» بالدَّال، فتحولت الكلمة من «البُدَاة» إلى «البُجَاة»، أو إلى الصورة المخففة وهي «البُجَة»، بحذف الألف، مع الإبقاء على ضم الباء وفتح الجيم في كلا الحالتين، وهاتان هما الصيغتان اللتان استخدمتا من قبل معظم المؤرخين العرب

(١) انظر الهامش في الصفحة رقم ٣٤٣ من كتاب: «رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان»، مرجع سابق.

عند الحديث سكان المنطقة التى نحن بصددها.

أمَّا سبب تحول الكلمة إلى «بِجَا Beja»، بكسر الباء بدلاً من الضم، فيرجع إلى خطأ شائع نتج عن استخدام بعض الكتّاب الأوروبيين، ولا سيّما الإنجليز، لكلمة «Beja» بدلاً من «Buja»، عند نقلهم من المراجع العربية التى استقوا منها الاسم (باقرارهم[١]) وتاريخ البُجَة عموماً، ولم يراعوا في ذلك أو بالأحرى، غاب عنهم - أو عن مترجمهم - النطق الصحيح لكلمة «البُجَة» و«البُجَاة» مشكلةً بالضَّمِ والفَتْحِ، وهذا أمرٌ يصعب على كل مَنْ ليس له دراية بأصول نطق ألفاظ اللُّغة العربية، والتي تتميز عن غيرها من اللغات بحركات الضَّمِ والفَتْحِ والكَسْرِ والسُّكُون.

نعود إلى السؤال القائم وهو: من هُمْ البُجَة؟

لقد أختلف المؤرخون في أصل البُجَة، وهل هم حاميّون أم ساميّون، وذلك بالرغم من قناعتي الشخصية بأنَّ كثيراً من الأقوال التى رواها المؤرخون عن تقسيم النَّاس بين حامٍ وسامٍ وغيره لا تكاد تصدق[٢]، وهي عندي أشبه بالأساطير التى ألفها البعض لرفع مرتبة الجنس الأبيض والحَطَّ من مكانة السود على وجه الخصوص[٣].

---

(١) انظر الاقرار بذلك في المرجع السابق «The Anglo-Egyptian Sudan».

(٢) يشكك كثير من العلماء في صحة الحديث الذي أورده «الطبري» في تأريخه منسوبا إلى رسول الله (ص) بروايات متقاربة ومنها: عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي (ص) قال: «ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب، وحام أبو الزنج، ويافث أبو الروم». راجع الجزء ألأول من كتاب: «تاريخ الرسل والملوك» للإمام الطبري.

(٣) تقول الأساطير المستقاة من الإسرائيليات أن النبي نوح كان في حالة سكر، فظهرت عورته ورأى «حام» ذلك المنظر، ولم يقم بستر عورة والده وإنّما نظر اليها، فبادر كل من سام ويافث إلى ستر عورة ولدهما، الأمر الذي أغضب نوح فدعا ربه أن يجعل حام ونسله عبيداً لسام ويافث ونسلهما، ولهذا كما تقول الأسطورة، نزلت اللّعنة بنسل حام فأصبحوا عبيداً سوداً !!! (مساكين نسل حام، ما ذنبهم؟). على كل حال فإن حام قد ولد، حسب زعمهم كوش، وكوش هذا جاء أسوداً ونشأ عنه كل السود الموجودين على ظهر الأرض!. هذه الإسطورة نقلها عدد من المؤرخين (على اختلاف في بعض التفاصيل)، ومنهم الدمشقي في كتابه: «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر»،

مهما يكن من أمر فإنَّ بعض المؤرخين يرى أنَّ البُجَة هم ساميّون من جنس البيض، وبعضهم قال هم من ذرية حام (من ابنه الأبيض كنعان)[١]، وبعضهم قال إنهم من ذرية حام (من ابنه الأسود كوش)، في تضارب واضح. وهنالك من وضعهم في منزلة بين منزلتين: لا سُودٌ ولا بِيضٌ!![٢] وهنالك من قال إنهم من العرب البائدة، أي أنهم من أقدم وأندر سلالات العرب الموجودة على سطح الأرض حتى الآن!![٣]. وبعضهم قال إنَّ البُجَة هم من «أجناس السودان»[٤]،

ص ٢٦٦. إنني لا أحسب هذا إلاَّ افتراءً وكذباً على الله والناس جميعاً بهدف احتقار السود وتمجيد العنصر الأبيض، وسوف اتَّبعُ في هذا الكتاب تقسيم «سامي» و«حامي» و«كوشي» وغيره، ليس عن قناعة بصحة هذا التقسيم، وإنّما لأغراض تسهيل المعرفة، وجرياً وراء ما تَشَكَّلَ من وَعْيٍ خاطئ على مرّ العصور بصحة هذا التقسيم. فعلى سبيل المثال، ونقلاً عن عن الكاتب اليهودي «Gensis» ورد ما يلي في الصفحة ٦٦ من المجلد الأول من كتاب:

(Slaves and Slavery in Muslim Africa):

«God created man and the latter were in the «image» and «likeness» of their Maker. Second, and many generations later, Prophet Noah is said to have become drunk from wine produced from his post-Delug vineyard and private parts were exposed Noah's son Ham saw his father's nakedness but did not cover it, rather he told his brothers Shem and Japheth (Arabic Sam and Yafith), who did conceal it. When Noah became sober and learned what had transpired, he implored God to make Ham's son Canaan (Kan'an) the meanest of slaves to Shem and Japheth and their descendents. Apart from the relegation of Canaan and his progency to slavery, some subsequent Jewish theologians interpreted the curse as one of blackness perpetrated on Ham ... .etc».

(١) نستشف من روايات المؤرخين أنَّ حاماً بن نوح كان، مثل أخيه سام، أبيضاً ولكنه حسب زعمهم، أغضب والده (نوح)، كما ذكرنا سابقا، فدعا عليه بسواد الوجه وبأن يكون نسله عبيداً لأبناء سام، وكان لحام في ذلك الوقت ولداً (أبيضاً) هو كنعان (جد الكنعانيين)، ثم بعد دعاء والده عليه حملت زوجته ووضعت ولدا (أسوداً) هو كوش، وهو أبو الزنج كما يزعمون. انظر كتاب «أخبار الزمان» للمسعودي، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، الطبعة الأولى ١٩٣٨م، صفحة ٦٤.

(٢) راجع الباب الأول من كتاب: «تاريخ السودان» لنعوم شقير، مرجع سابق.

(٣) راجع «المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور جواد علي، مرجع سابق.

(٤) راجع كتاب: «مروج الذهب» لمؤلفه المسعودي.

وهنالك من قال إنَّهم «جنس من أجناس الحبشة»[١].

مهما يكن من أمر، فإنَّ مسمى «البُجَة» (وليس البِجَا كما يكتبها البعض)، واللفظ المرادف «البُجَاة»، يطلق على أمةٍ متجانسةٍ تسكن، منذ آلاف السنين، المنطقة الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر ابتداءً من مرسى رأس بنياس، الواقعة الآن في مصر، وحتى جزر دَهْلَكْ، الواقعة الآن في إرتريا. هذا على شاطء البحر، وأمَّا بعيدا عن البحر فتمتد مناطقهم ابتداءاً من تخوم مدينة أسوان[٢] المصرية في الشمال لتمتد جنوباً إلى منطقة بجا مدر «أرض البُجَة» الواقعة شمال بحيرة تانا، منبع النيل الأزرق في إثيوبيا، مروراً باقليم شرق السودان ومناطق شمال وغرب إرتريا. وقد توالى ذكر سكان هذه المنطقة ووصفهم منذ أزمان سحيقة وحتى عصرنا الحاضر بأنَّهم البُجَة. فقد وصفهم قدماء المصريين بشعب البقا (Buka) ، وشعب الميدجو (Medju) . وأشار اليهم الملك عيزانا (Ezana) في مسلة أكسوم، حيث أورد اسم البُجَة ضمن الشعوب التي امتد اليها سلطانه في القرن الرابع الميلادي. وقد تم وُصِفَ البُجَة في الأوديسة بلفظ الايرمبيين (Erembes)، وفي الحقبة الرومانية اطلق عليهم اسم البلميين (Blemmyes). وذكرهم الإمام على بن أبي طالب منوها بشجاعتهم حيث قال في خطبة الاجناس إنَّ البُجَة «شديدٌ كلبُهم، قليلٌ سلبُهم»[٣].

بَيْدَ أنَّ أقدم وصف للبُجَة بتفصيل معقول هو ما ذكره اليعقوبي، وهو مؤرخ

---

(١) راجع الجزء الأول من كتاب: «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» لمؤلفه: أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه.

(٢) انظر المعاهدة التى أمضاها الخليفة العباسي (المأمون) مع عظيم البجة (كنون بن عبد العزيز) حيث حددت أرض البجة من «حد أسوان» حتى «دهلك». كذلك راجع كتاب: «المسالك والممالك» لابن خُرْدَاذْبَه، مطبعة بريل في مدينة ليدن (هولندا) عام ١٨٨٩م، ص ٢٣٠. كذلك راجع «تاريخ اليعقوبي» وخاصة الفقرة التى تحدث فيها عن المملكة الأولى للبجة والتى ذكر أنها تبدأ من حد أسوان.

(٣) «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، مرجع سابق، الجزء الأول، صفحة ١٩٧.

عاش في العهد العباسي (توفي عام ٢٨٤ هـ). يقول اليعقوبي في كتابه «تاريخ اليعقوبي»[(١)]، إنّ البُجَة هم القوم الموجودون بين النيل والبحر، ويَزْعُم إنَّهم من نسل كوش بن حام بن نوح قائلا: «وكان ولد حام بن نوح قصدوا عند تفرق ولد نوح من أرض بابل إلى المغرب، فجازوا من عبر الفرات إلى مسقط الشمس، وافترق ولد كوش بن حام، وهم الحبشة والسودان لمّا عبروا نيل مصر- فرقتين، فقصدت فرقة منهم التيمن بين المشرق والمغرب، وهم النوبة والبُجَة والحبشة، ...الخ »[(٢)].

ثم يتطرق اليعقوبي لممالك البُجَة فيقول «ولهم عدة ممالك، في كل بلد ملك منفرد. فأول مملكة البُجَة من حدّ أسْوان، وهي آخر عمل المسلمين من التيمن بين المشرق والمغرب إلى حدّ بركات، وهم الجنس الذي يقال له: نقيس، ومدينة المملكة يقال لها «هَجر»، ولهم قبائل وبطون كما تكون للعرب، فمنهم: الحدرات، وحححاب، والعماعر وكوير، ومناسة، ورسفة، وعريريعة، والزنافج، وفي بلادهم المعادن من التبر والجوهر، والزمرد، وهم مسالمون للمسلمين، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن. والمملكة الثانية من البُجَة، مملكة يقال لها «بَقْلِين»[(٣)]، كثيرة المدن، واسعة يضارعون في دينهم المجوس والثنوية، فيسمون الله، عزَّ وجلَّ، الزنجير الأعلى، ويسمون الشيطان صحي حراقة، وهم الذين ينتفون لحاهم، ويقلعون ثناياهم، ويختتنون، وبلادهم بلاد مطر. ثم المملكة الثالثة يقال لها «بازين»، وهم يتاخمون مملكة علوه من النوبة، ويتاخمون «بَقْلِين» من البُجَة، ويحاربون هؤلاء، وزرعهم الذي يأكلونه [........] وهو طعامهم واللبن. المملكة الرابعة يقال لها

---

(١) «تاريخ اليعقوبي» لمؤلفه: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، الكاتب العباسي من أهل بغداد، المعروف باليعقوبي، مطبعة بريل في مدينة ليدن (هولندا) سنة ١٨٨٣م.

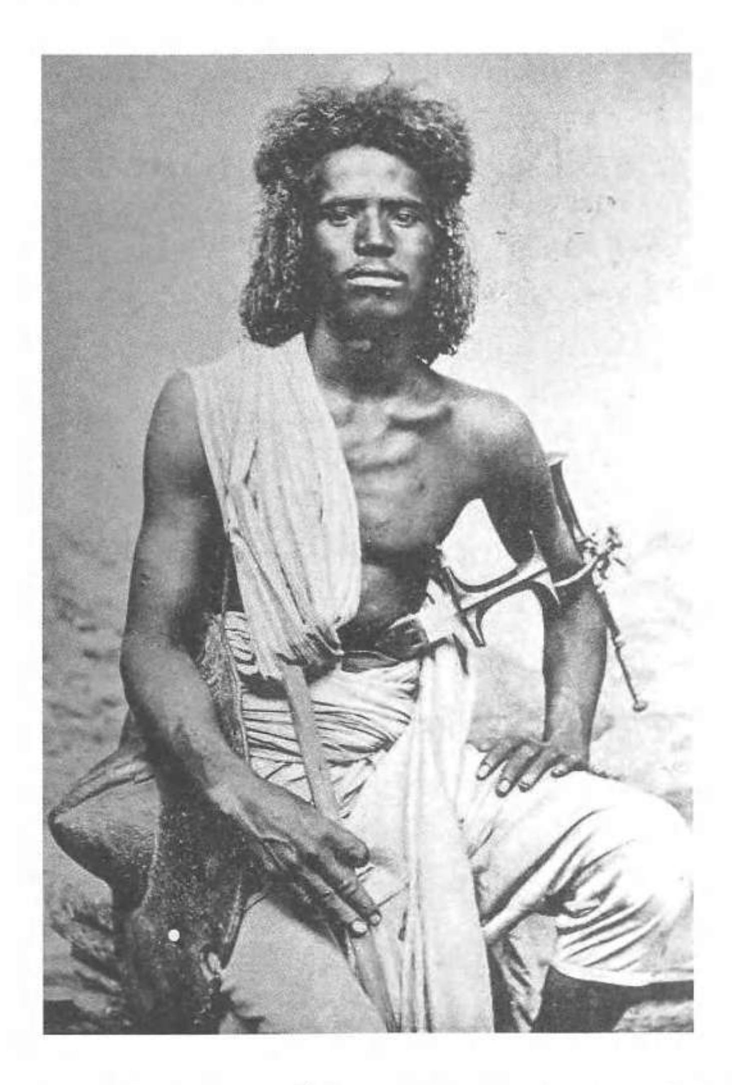
(٢) راجع فقرة «ممالك الحبشة والسودان» في كتاب: «تاريخ اليعقوبي»، مرجع سابق، ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٣) في هذه النسخة من كتاب البلدان المطبوعة عام ١٨٨٣م جاء اسم تلك المدينة في كافة المواضع بالباء «بَقْلين»، بينما ورد ذكرها مرة واحدة فقط وبحرف النون «نقلين» في النسخة الأقدم من كتاب اليعقوبي المطبوع عام ١٨٦٠م.

«جارين»، ولهم ملك خطير، وملكه ما بين بلد يقال له «باضع»، وهو ساحل البحر الأعظم، إلى حدّ «بركات» من مملكة «بَقْلِين»، إلى موضع يقال له «حل الدجاج»، وهم قوم يقلعون ثناياهم من فوق وأسفل، ويقولون: لا يكون لنا أسنان كأسنان الحمير، وينتفون لحاهم. والمملكة الخامسة يقال لها: قطعة، وهي آخر ممالك البُجَة، ومملكتهم واسعة من حد موضع يقال له «باضع»، إلى موضع يقال له «فَيْكون»، ولهم حدٌّ شديدٌ، وشوكةٌ صعبةٌ، ولهم دار مقاتلة يقال لها «دار السوا»، فيها أحداث شباب جلد، مستعدون للحرب والقتال»[١].

أما في كتابه الآخر: «البلدان»، يصف اليعقوبي بالتفصيل الطريق من أسوان إلى أرض البُجَة فيقول: «ومن أراد المعادن معادن التبر خرج من أسوان إلى موضع يقال له الضيقة بين جبلين، ثم البويب، ثم البيضية، ثم بيت ابن زياد، ثم عذيفر، ثم جبل الأحمر، ثم جبل البياض، ثم قبر أبي مسعود، ثم عفار، ثم وادي العَلاَّقي، وكل هذه المواضع معادن التبر، يقصدها أصحاب المطالب، ووادي العَلاَّقي كالمدينة العظيمة به خلق من النَّاس، وأخلاط من العرب والعجم، أصحاب المطالب؛ وبها أسواق وتجارات، وشربهم من آبار تحفر في وادي العلاقي، وأكثر من بالعلاقي قوم من ربيعة من بني حنيفة، من أهل اليمامة، انتقلوا إليها بالعيالات [هكذا في المصدر] والذرية. ووادي العلاقي وما حواليه معادن للتبر، وكل ما قرب منه يعتمل فيه النَّاس، لكل قوم من التجار وغير التجار، عبيد سودان يعملون في الحفر، ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر، ثم يسبك".

(١) راجع فقرة «ممالك الحبشة والسودان» في كتاب: «تاريخ اليعقوبي»، مرجع سابق، ص ٢١٧-٢١٩.



صورة ربما تصلح لأن تكون نمطية عن البُجَة الذين وُصِفُوا منذ القدم بأن «لهم حد شديد، وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، فيها أحداث شباب، جلد، مستعدون للحرب والقتال».

ويستطرد اليعقوبي قائلاً: "ومن العلاقي إلى موضع يقال له وادي الجبل مرحلة، ثم إلى موضع يقال له عنب، ثم إلى موضع يقال له كبان، يجتمع النَّاس به لطلب التبر، وبه قوم من أهل اليمامة من ربيعة. ومن العلاقي إلى معدن يقال له بطن واح مرحلة، ومن العلاقي إلى موضع يقال له أعماد مرحلتان، وإلى معدن يقال له ماء الصخرة مرحلة، وإلى معدن يقال له الأخشاب مرحلتان، وإلى معدن يقال له

ميزاب تنزله بلي وجهينة أربع مراحل، وإلى معدن يقال له عربة بطحا مرحلتان، ومن العلاقي إلى عيذاب أربع مراحل، وعيذاب ساحل البحر المالح، يركب النَّاس منه إلى مَكَّةَ والحجاز واليمن، ويأتيه التجار فيحملون التبر والعاج وغير ذلك في المراكب. ومن العلاقي إلى بركان وهي آخر معادن التبر، التي يصير إليها المسلمون ثلاثون مرحلة. ومن العلاقي إلى موضع يقال له دح ينزله قوم من بني سليم وغيرهم من مضر عشر مراحل، ومن العلاقي إلى معدن يقال له السنطة وبه قوم من مضر وغيرهم عشر مراحل، ومن العلاقي إلى معدن يقال له الرفق عشر مراحل، ومن العلاقي إلى معدن يقال له شختيت عشر مراحل، فهذه المعادن التي يصل إليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر»[1].

ثم يستطرد اليعقوبي ويقول: «ومن العَلاَّقي إلى أرض البُجَة الذين يسمون الحداربة والكذبين خمس وعشرون مرحلة، ومدينة ملك البُجَة الحداربة يقال لها هَجر، يأتيها النَّاس من المسلمين للتجارات. والبُجَة ينزلون خيام جلود، وينتفون لحاهم، وينزعون فلك ثدي الغلمان لئلا يشبه ثديهم ثدي النساء، ويأكلون الذرة وما أشبهها، ويركبون الإبل، ويحاربون عليها كما يحارب على الخيل، ويرمون بالحراب فلا يخطئون. ومن العَلاَّقي إلى أرض البُجَة الذين يقال لهم «الزنافجة» خمس وعشرون مرحلة. والمدينة التي يسكنها ملك «الزنافجة» يقال لها «نَقْلِين». وربَّما صار المسلمون إليها للتجارات، ومذهبهم مثل مذهب الحداربة، وليس لهم شريعة، إنَّما كانوا يعبدون صنماً يسمونه حجاجوا»[2].

---

(١) راجع فقرة «معادن التبر» في كتاب «البلدان» لليعقوبي.

(٢) راجع فقرة «بلاد البُجَة» في كتاب «البلدان» لليعقوبي، وتوجد منه طبعة قديمة (١٨٦١م) في مكتبة جامعة تورنتو.



صورة لنفر من شباب البُجَة حيث يبدو الأثر العربي للبلو ظاهراً للعيان.

ويذكر الإمام ابن جرير الطبري (توفي عام ٣١٠هـ) في تاريخه المعروف بكتاب: «تاريخ الرسل والملوك» البُجَة في معرض سرده لحوادث عام ٢٤١ هجرية ويقول عنهم: «وهم جنسٌ من أجناس الحبش بالمغرب»[١]. ثم يتطرق لذكر غارة البُجَة على أرض مصر والحملة التى وجهها خليفة المسلمين جعفر المتوكل على الله (بن

(١) «تاريخ الطبري – تاريخ الرسل والملوك»، لإبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٥، الجزء التاسع، ص ٢٠٣.

المعتصم بن هارون الرشيد) سنة ٨٥٦م بقيادة محمد بن عبد الله القُمِّيِّ[١] لحرب البُجَة. ثم يتطرق للخدعة التى تم بها هزيمة البُجَة وكيفية إعطاء الأمان لزعيمهم عَلِيّ بابا «عَلِيّ أُولْبَاب» الذي سافر إلى بغداد ووقف بباب دار الخليفة وهو يلبس درَّاعةَ ديباجٍ وعمامةً سوداءَ منحت له من قبل القُمِّيِّ، ومعه من البُجَة نحو «سبعين غلاماً على الإبل بالرحال ومعهم الحِرَاب في رءوس حرابهم رءوس القوم الذين قتلوا من عسكرهم، قتلهم القمي»[٢].

وهذا المنظر أوحى فيما بعد لمؤلف كتاب «ألف ليلة وليلة» إسطورة «عَلِيّ بابا والأربعين حرامي». والغريب أن زعيم البُجَة «عَلِيّ بابا» ظل على دينه رغم زيارته لبغداد ولم يسلم وكما قال الطبري خرج عَلِيّ بابا من بغداد «وهو مقيم على دينه فذكر بعضهم أنه رأى معه صنما من حجارة كهيأة الصبي يسجد له»[٣].

أما أبن الفقيه (توفي عام ٣٤٠ هـ)، فيقول: «البُجَة ما بين النيل وبحر اليمن وهو بحر القُلْزُم بمصر» ويضيف: «وفيما بين أرض النوبة والبُجَة جبالٌ منيعةٌ، وهم أصحاب أوثانٍ، وفي بلادهم معدن الزبرجد، والبُجَة أصنافٌ ... الخ»[٤].

أما المسعودي (توفي عام ٣٤٦ هـ)، فيصف البُجَة في عام ٣٣٢هـ، بأقوال تكاد تتطابق مع ما قاله اليعقوبي عنهم. يقول المسعودي في كتابه «مروج الذهب»: «لما تفرق ولد نوح في الأرض، سار ولد كوش بن كنعان[٥]، «ومنهم البُجَة حسب زعمه) نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر، ثم افترقوا فسارت منهم طائفة ميمنة بين

---

(١) نسبة إلى مدينة قُمْ الفارسية، ولكنه في الأصل ينتمي إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري.

(٢) «تاريخ الطبري – تاريخ الرسل والملوك»، نفس المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٣) «تاريخ الطبري – تاريخ الرسل والملوك»، نفس المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٤) «مختصر كتاب البلدان» لأبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه، طبع في مدينة ليدن (هولندا) بمطبعة بريل سنة ١٣٠٢هـ، صفحة ٧٨.

(٥) يجب التنبيه إلى أن هنالك «كوش» بن حام بن نوح وهنالك «كوش» بن كنعان بن حام بن نوح.

المشرق والمغرب وهم النوبة والبجة والزنج، وسار فريق منهم نحو المغرب وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم»[١].

ثم يضيف في موضع آخر قائلا: «وأما البُجَة فإنها نزلت بين بحر القُلْزُم ونيل مصر، وتشعبوا فرقا، وملّكوا عليهم ملكاً، وفي أرضهم معادن الذهب، وهو التبر، ومعادن الزمرد، وتتصل سراياهم ومناسرهم على النُّجُب إلى بلاد النوبة، فيغيرون ويسبُون، وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البُجَة، إلى أنْ قويَ الإسلام وظهر، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعه بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم، وتزوجوا في البُجَة، فقويت البجه بمن صاهرها من ربيعه، وقويت ربيعه بالبُجَة على ما ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار، وصاحب المعدن في وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ أبو مروان بشر بن إسحاق، وهو من ربيعه، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعه وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألف حراب على النُّجُب من البُجَة بالحجف البجاوية، وهم الحداربة، وهم المسلمون ممن بين سائر البُجَة، وباقي البُجَة كفار يعبدون صنما لهم»[٢].

أمّا الإصطخري (ت ٣٤٦ هـ) فقد نقل عنه[٣] ابن حوقل كثير من المعلومات المتعلقة بالبُجَة، دون أن يشير إلى ذلك، ولهذا ستجد كثيرا مما قاله الإصطخري منقولا ـ أحياناً ـ بالحرف لدى ابن حوقل. قال الإصطخري: «والبجة قوم أصحاب أخبيةِ شَعْرٍ أشدُّ سواداً من الحبشة في زيِّ العرب، لا قرى لهم ولا مدنٌ ولا زرعٌ، إلاَّ

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، الطبعة الخامسة، الجزء الثاني، الصفحة رقم ٤.

(٢) نفس المرجع، صفحة ١٨.

(٣) راجع كتاب: «مسالك الممالك» للإصطخري، أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، طبعة بريل في مدينة ليدن (هولندا) عام ١٩٢٧، ص ٣٥.

ما ينقل اليهم من مدن الحبشة واليمن ومصر. والنوبة. وينتهي حدُّهم إلى ما بين الحبشة وأرض النوبة وأرض مصر على نحوٍ من عشر مراحل حتى ينتهي إلى حصنٍ على البحر يسمَّى عَيْذَاب، ويسمى مجمع الناس بهذا المعدن «العَلاَّقِي»، وهو رمال وأرض مبسوطة لا جبل بها، وأموال هذا المعدن يرتفع إلى أرض مصر، وهو معدن ذهب لا فضة فيه. والبجة قوم يعبدون الأصنام وما استحنوه»[1].

ثم يضيف الإصطخري: «والمعدن ليس في أرض مصر. ولكنه في أرض البُجَة وينتهي إلى عَيْذَاب، ويقال إن عَيْذَاب ليست من أرض البُجَة، وإنَّما هي من مدن الحبشة، والمعدن أرضٌ مبسوطةٌ لا جبل فيها، وإنَّما هي رمال ورضراض، ويسمى ذلك المكان الذي فيه مجمع النَّاس العُلاَّقِي، وليس للبُجَةِ قُرَى ولا خصب فيه غناء، وإنما هم باديةٌ ولهم نُجُبٌ، يقال إنَّ ما في النُّجُبِ أسْيَرَ منها»[2].

نأتي إلى ابن حوقل (توفي عام ٣٥٠ هـ)[3] فقد أورد وصفاً جيدا لقبائل البُجَة وأرضهم وعاداتهم حيث يقول عنهم في كتابه: «صورة الأرض»[4]: «وهم أصحاب أخبيةِ شعر، وألوانهم أشدُّ سواداً من الحبشة، في زيِّ العرب»[5]. وفي إشارةٍ إلى أنهم كانوا مسيحيين (لهم أصنام) أو وثنيين (يعبدون ما استحسنوا)، يقول

(١) كتاب: «مسالك الممالك» للإصطخري، أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، طبعة بريل في مدينة ليدن (هولندا) عام ١٩٢٧، ص ٣٥.

(٢) نفس المرجع، ص ٥٤.

(٣) حسبما ورد في كتاب «هدية العارفين» للباباني، فقد توفي ابن حوقل في سنة ٣٥٠ هـ، وأما الزركلي فيرى أنَّ ابن حوقل قد توفي سنة ٣٦٧هـ.

(٤) يوجد هذا الكتاب تحت طبعتين مختلفين: الطبعة الأولى بعنوان: «المسالك والممالك والمفاوز والمهالك»، والطبعة الثانية بعنوان: «صورة الأرض» ربما للتفريق بين هذا الكتاب وكتب أخرى بنفس العنوان ومنها كتاب «المسالك والممالك» لإبن خُرداذبه، وكتاب: «مسالك الممالك» للإصطخري.

(٥) «صورة الأرض» لأبي القاسم بن حوقل النصيبي، مكتبة الحياة للطباعة والنشر، ١٩٩٢، بيروت، لبنان، صفحة ٥٥.

في نفس الصفحة: «وكانت البُجَة أمةٌ تعبدُ الأصنام بهذه الناحية وما استحنوه إلى سنة إحدى وثلاثين «هجرية»، فإن عبد الله بن أبي سَرْحٍ لَمَّا فتح مدينة أسوانَ، وكانت مدينة أزليّة قديمة، وكان عَبَرَ اليها من الحجاز، قهرَ جميعَ مَنْ كان بالصعيد، وبها من فراعنةِ البُجَة وغيرهم. وأسلم أكثرُ البُجَة إسلام تكليف»[١].

ثم يورد ابن حوقل وصفاً مفصلاً لأرض البُجَة فيقول: «وبلدهم بين النيل والبحر، ويصل اليهم التجار بالصوف والقطن والحيوان من الرقيق والإبل، فيكون غاية ما يقطعونه من بلدهم ويمكنهم التصرف فيه نواحي قلعيب، وهي مواضع ذوات مياه في أودية متصلة بجبل يعرف بملاحيب، وأكبر أوديته وادي بَركة[٢]. وبين قلعيب وبَركة غياضٌ عاديةٌ ذوات اشجار، وربما كان دائرة الشجرة من أربعين زراعاً إلى خمسين زراعاً وستين زراعاً، وأفنيتها مراتع الأفْيِلَةِ والزرافات والسَّبُعِ والكركدنّ[٣] والنمر والفهد، إلى سائر الوحوش، سائمةً راتعةً في غِيلِها ومياهها وغياضها. ويتصل بحدِّ ملاحيب من شقِّهِ الشرقي، وادٍ يُعْرَفُ بصيغيوات، كثير الماء أيضاً والشجر والخَمر والوحش.

وبنواحي بركة بطون كديم، وهي المعروفة بعجات من البُجَة. ويتصل بها مما يلي سواحل البحر الخاسَة[٤]، بطون كثيرة في السهل والجبل. وكأنَّ هذا الجبلَ آخذٌ بأوديته من نواحي البحر المالح إلى دُكن[٥] وهي ارضٌ مزارعٌ أحوافٌ يجري اليها

(١) نفس المرجع، صفحة ٥٥.
(٢) مازال موجوداً حتى الآن بنفس المسمى، ينبع من مرتفعات إرتريا وينتهي في دلتا توكر.
(٣) «الكركدن» هو وحيد القرن أو ما يعرف بالخرتيت.
(٤) انظر الفقرة إلى افردناها للخاسا في الباب الثالث من هذا الكتاب.
(٥) «دُكن» ربما تكون إشارة إلى قرية «دقين» (دجين ـ بالجيم اليمانية) الحالية في منطقة نهر القاش.

ماءُ النيل[1]، ويزرع عليها الذُّرَةَ والدُّخْنَ أهلُ النُّوبَةِ ومن يحضر معهم من البُجَة. وفي شقِّ بَركة قبائلُ كثيرة تعرف ببازين وبَارْيَهْ[2]، وهم أممٌ كثيرةٌ، قتالهم بالقِسِيِّ والسِّهَامِ المسمومة والحِرَابِ بغير دَرَقٍ.

ومن رسم بَارْيَهْ قلعُ ثناياها وبَخْرُ آذانها[3]، ويسكنون في جبالٍ وأوديةٍ، ويَقْتَنُونَ البقر والشَّاءَ، ويزرعون. والذي بين وادي بركة وجبالها[4] المدعوّ ملاحيب، راجعاً إلى الإسلام، قلعيب وانبوريت وجبال دَروريت ومياه متصلة وبلدان عامرة، لبيواتيكه من قبائل البُجَة تزيد على الإحصاء، ولا يُبْلَغُ عددها لتوغُّلهم في أعمال الصحاري. وبركة تقارب جزيرة باضع، وبينهما يومٌ وتكون نحو ثلاث مراحل، مملوءة ببطون قعْصَة، وهي أجَلُّ بطون البُجَة الدَّاخِلِةِ وأكثرها مالاً وأعزُّها. ومن دون هؤلاء الماتين المتصلون بدُهرا وسيتراب وغركاي ودُحنت، إلى الجبل المعروف بمسهار. وتحاذي سواكن بطون تُعرف برقابات[5] وحنديبا، وهم خُفراء على الحدربيَّة[6]، وخفارتهم لعبدك وهم تحت يده، و«عبدك» خال وَلَد أبي بكر إسحق

---

(١) كلمة النيل هنا تشير إلى نهر من الانهار الموجودة في المنطقة وفي الغالب هو خور القاش، حيث جرت العادة على إطلاق لفظ النيل من قبل المؤرخين العرب على الأنهار والتي تقل أو تنعدم في جزيرة العرب.

(٢) ما يزال البازين (البازا) والباريا موجودين حتى الآن في تلك المناطق وبنفس مسمياتهم.

(٣) وهذه عادات القبائل النيلية إلى اليوم.

(٤) لعله تصحيفٌ مقصودٌ به «جبلها».

(٥) لعله يقصد «رِقْبَات» أو بالأصح «رِجْبَاتْ Rigbat» بالجيم اليمانية، وهي من أقدم القبائل في أرض الحباب ولهم وجود مقدر حتى الآن في كل من الحَبَاب وبني عامر.

(٦) الحدربيّة والحَدَارْبَة والحِدَارِبْ (ومفردها الحِدِرْبِي) كلها بمعنى واحد، وترمز إلى قومٍ من الحميريين وفدوا في عصور قديمة إلى منطقة البُجَة من حضرموت (الحضارمة انقلبت إلى الحداربة) واختلطوا بسكانها. وبحكم عادة توريث ابن البنت، آلت اليهم زعامة البُجَة في فترة من الفترات (خاصة بعد زوال حكم البلو)، إلى درجة أنَّ كلَّ قومٍ يتكمون لغة البُجَة (البِدَاوِيتْ) كانوا يُسَمَّون الحَدَارْبَة أو الحِدَارِبْ. وقد أفاض كثير من المؤرخين ومنهم القلقشندي الذي قال عنهم في كتابه: «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب»، باب «الألف واللام مع الحاء المهملة»: إنَّ

ابن بشر، صاحب العلاقيّ. وبعض هؤلاء القوم في خفارة «كُوك» خال أبي القاسم حسين بن عَلِيّ بن بشر، وعبدك وكوك رئيسا الحدارب أجمع، وفيهم رئيسان: رئيس لأهل كل بيتٍ ذمامٍ، ورئيسٌ يسوسهم. فأما بطون الحدارب فمنهم العريتيكه[1] والسوتبارو والحوتمة والعكنبيرا والنجريروا والجنيتيكه، والواخيكه، والحربيب بطنٌ واحدٌ. ويتفخذ لهؤلاء القوم كلّ بطنٍ إلى نحو مائة فخذٍ، ولكل فخذٍ رئيسٌ أو رئيسان، وجميعهم منتجعون لا حاضرةَ لهم. وتكون بلادهم التى تمطر وتُزرع وينتجعونها بمواشيهم طولاً نحو شهرين مسيرةً، والعَرْضُ من البحر إلى النِّيل. ومشاتيهم على البحر المالح والسواحل، ومصائفهم الأودية التي في وسط البلد، ذوات مياهٍ مراعٍ تقوم بهم، وخريفهم فيما قارب النيلَ مُغرِّبين عن بلادهم بديار

«الحدارية - بطنٌ من العرب بسواكن من بلاد البجاة، ذكرهم المقر الشهابي ابن فضل الله في كتابه «التعريف بالمصطلح الشريف» ولم ينسبهم إلى قبيلة، ذكر أنه كان لهم شيخ يسمى «سمرة بن مالك» وأنه ذو عددٍ جم وشوكة منكية، يغزو الحبشة وأُمَمَ السودان، ويأتي بالنَّهبِ وبالسبايا، وله أثرٌ محمودٌ وفعلٌ مأثورٌ. وذكر أنه وفد على السلطان وعقد له لواءاً وشُرِّفَ بالتشريف، وقُلِّدَ ذلك وكتب إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته، والركوب معه للغزو متى أراد وكتب له تقليداً بأمرة عربان القبلة مما يلي قُوص ومنشور له بها يفتحه من البلاد».

والحِدَارَبُ اليوم قوميةٌ مُعْتَرَفٌ بها في إرتريا، وتشمل كافة المتحدثين بالبِدَاوِييتْ، بما فيهم اللَّبَتْ والسُّنْكَاتْ كِنَابْ. وكان للحَدَارِبَة وجود قوي في كافة مناطق البُجَة حتى عهد قريب، ثم انخفض صيتهم بسبب ظهور قوى جديدة في الساحة. وفي وقتنا الحاضر هنالك وجود مُقَدَّر للحَدَارِبَة (الأصليين) في شكل عوائل متفرقة في القبائل، وخاصة البلين والبيت جوك في باب جنقرين، وكثير من البوادي والمدن الإرترية والسودانية، لا سيّما مصوع وبَرْبَر والأُبَيِّض وسَواكِن، وذلك بحكم ممارستهم للتجارة. قال المادِحُ السوداني المعروف «حاج الماحي» في مدحته المشهورة «أبْ جَاهاً حَوَانَا»:

في جدَّة النُّزُولْ طايِبْ هَوَانا	ونَمرق في سَوَاكْن لينا شَانَا
من سُوقْ الحَدَارِبَة أَهَل الرّطَانَة	انْصَرَفْنا مِنْ بِيعْنَا وشِرانا
من الخُوَّة تمشي مقدامانا	وقُلْنَالْمُ نَعُود الله أنْ حَيَانَا

(١) لعَلَّه يقصد الأرتيقا، والتى ربما كانت تنطق العرتيكا في ذلك الوقت وتحورت فيما بعد إلى الأرتيقا، خاصة أن كثيراً من البُجَة لا يحسنون نطق العين لكون لغتهم (البِدَاوِييتْ) حَامِيَّة. ولا شك أن الأرتيقا هم حضارمة في الأصل، وربما كانوا فرعاً من الحدارية.

قليلةِ الشَّجر كثيرةِ نباتِ الأرض والغُدْرَانِ. وطعامهم اللحم واللّبن خاصةً، وضعفاؤهم يأكلون الوحش كالغزال والنَّعام والحمار، وهم مسلمون بالاسم، ومياسيرهم لا يرون أكلَ الصيد ولا مخالطة آكلِه ولا استعمال آنيةِ مَنْ استجاز ذلك واستحلَّه، ولا يحلبون فيها ولا يشربون. ولُغَتُهم لُغَةٌ تعمّ البُجَة، وجميعها أعجميةٌ، ولبعضهم لُغَةٌ يَتَفَرَّدُ بها»[١].

وتعليقا على ما ذكره ابن حوقل حول لغة البُجَة نقول: ما زال البُجَة يتكلمون «البِدَاوْييتْ» وهي لغة حاميةٌ أعجميةٌ، ولكن قسم كبير منهم ينفرد بلغةٍ خاصةٍ به مثل «التِّجْري» الحِمْيَرِيَّة والتى انبثقت منها «اللَّهْجَة» الحَبَابية. هذا فضلاً عن أن البازين لهم لغة حامية خاصة بهم وكذلك الباريا (وهي من القبائل النيلية الكبرى الواسعة الانتشار في شرق أفريقيا، ولاسيّما في إرتريا وجنوب السودان وإثيوبيا).

ويقول ابن مسكويه (توفي سنة ٤٢١ هـ)عن البُجَة إنهم: «جنس من أجناس الحبشة وفي بلادهم معادن ذهب فهم يقاسمون من يعمل فيها»[٢].

ويتحدث الإدريسي (ت ٥٦٠هـ) عن أرض البُجَة فيقول: أرض البُجَة هي «بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد، وليس بأرض البُجَة قرى ولا خصب وإنّما هي بادية جدبة، ومجتمع أهلها ومقصد التجار منها إلى وادي العلاّقِي وإليه ينجلب أهل الصعيد وأهل البُجَة، وهو واد فيه خلق كثير وجمع غزير. والعَلاَّقِي في ذاته كالقرية الجامعة والماء بها من آبار عذبة»[٣]. ثم يقول: «ومن وادي العَلاَّقِي إلى عيذاب من أرض البُجَة اثنا عشر يوما، ومن بلاد البُجَة مدينة «بختة»، وهي أيضاً قرية مسكونة وبها سوق لا يعول عليها، وحولها قوم ينتجون الجمال ومنها معايشهم، وهي أكثر

(١) «صورة الأرض» لإبن حوقل، مرجع سابق، صفحة ٦٠.

(٢) راجع كتاب: «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» لابن مسكويه، مرجع سابق، الجزء الأول.

(٣) «نزهة المشتاق في إختراق الآفاق» للشريف الإدريسي، مرجع سابق، ص ٣٦.

مكاسبهم. وإلى هذه القرية تنسب الجمال البختية، وليس يوجد على وجه الأرض جِمَالٌ أحسن منها ولا أصْبَرَ على السَّير ولا أسرع خُطاً»[١].

أما ياقوت الحموي (توفي عام ٦٢٦ هـ) فيقول: «وشرقيُّ النوبة أمةٌ تُدْعَى البُجَة، ذكروا في موضعهم، وبين النوبة والبُجَة جبالٌ منيعةٌ شاهقةٌ، وكانوا أصحاب أوْثَان»[٢]. وفي موضع آخر يقول: «[والبُجَاءُ] «قومٌ سودٌ أشدُّ سواداً من الحبشة»[٣]. ويقول في موضع ثالث، نقلاً عن الزمخشري: «بُجَاوةُ: أرضٌ بالنوبة، بها إبلٌ فرهةٌ، وإليها تنسب الإبل البجاوية منسوبة إلى [البُجَاءِ]، وهم أمُمٌ عظيمةٌ بين العرب والحبش والنوبة[٤].

أما القزويني (ت ٦٨٢هـ) فيقول: «البُجَة بلاد متصلة بأعلى عيذاب، في غرب منه، أهلها صنفٌ من الحبش، بها معادن الزمرد . . . الخ»[٥].

ونأتي الآن إلى إبن سَعِيد الغرناطي المغربي (توفي عام ٦٨٥ هـ) الذي يتحدث عن البجة في معرض وصفه لطريق الحجاج الخارجة من مدينة أسوان باتجاه الجنوب، فيقول: «وغربيها[٦] العَلاَّقِي وهي مدينة ملك البجا، حيث الطول ثلاث وستون درجة والعرض عشرون درجة وثلاث دقائق. و[البُجَا]، سودانٌ فيهم مسلمون ونصارى وأصحاب أوثان، وهم الذين يسيرون بالحجاج والتجار في تلك الصحاري على جمالهم. والمشهور عنهم الأمانة. والخوف في هذه الطريق من غارات

(١) نفس المرجع، صفحة ٣٧.
(٢) «معجم البلدان» لياقوت الحموي، مرجع سابق، باب «النون والواو وما يليهما»، مادة «نوبة».
(٣) «معجم البلدان» لياقوت الحموي، مرجع سابق، باب القاف واللام وما يليها.
(٤) «معجم البلدان» لياقوت الحموي، مرجع سابق، باب النون والواو وما يليها.
(٥) «آثار البلاد وأخبار العباد» لمؤلفه: زكرياء بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت، صفحة ١٨.
(٦) يقصد غرب طريق الحجاج الخارجة من أسوان.

النوبة على الجمال الصهب. وجبل العلاقي مشهور يوجد في أوديته الذهب الطيب. وتقع منه عيذاب، الفرضة[١] المشهورة حيث الطول أربع وستون درجة ونصف والعرض إحدى وعشرون درجة وعشرون دقيقة، وعرض البحر منها إلى جدة درجتان»[٢].

ويصف ابن سعيد بعض مناطق البجة فيقول: «وسواكن صغيرة جداً، أقل من ميل وبينها وبين البر الحبشي مجاز يقطع بالسباحة، وبين سواكن وعيذاب في البحر نحو سبع مراحل. وفي غربي سواكن على نيل الحبشة بلاد التاكه، وهم أخوة الحبشة الذين على هذا النيل»[٣].

أما الدمشقي (توفى عام ٧٢٧هـ) فيقول: «ومن طوائف السودان أيضاً: البُجَاة ببحر القُلْزُم وإلى مجرى النيل، وهم صنفان: حَدَارِبَه – ومَلِكُهم يسكن مدينة هَجَر، والزَّنافِجَة – ومَلِكُهُم يسكن مدينة نَقْلَيْن[٤]، وكلهم يتفون لحاهم ويدعون شعراتٍ يسيرةً، وهم عرايا من المخيط ملتحفون بثياب مصبَّغة، ولهم مدائن «أوتِل» و«عَدَل» وجزيرة دَهْلَكْ وجزيرة سواكن ومدينة «عيذاب» فرضة التجار من اليمن ومصر، ويتصل بهم طائفةٌ من السودان تسمى «خاسة» السّفلي كفَّار، وخاسة العُلْيا مُسلمون»[٥].

---

(١) «الفرضة» يقصد بها الميناء.

(٢) راجع فقرة «الجزء الرابع» من «الإقليم الثالث» من كتاب «الجغرفيا» لإبن سعيد الغرناطي المغربي.

(٣) نفس المرجع، والمقصود بالنيل هنا «نهر الجاش ـ بالجيم اليمانية» الذي يكتبه البعض بالقاف «القاش» وهذا من قبيل الخطأ الشائع.

(٤) أثبتها الدمشقي هنا بالنون «نقلين»، بينما اثبتها اليعقوبي بالباء «بَقْلِين» في كثير من المواضع، فيماعدا مرة واحدة في كتابه «البلدان» المطبوع المطبوع عام ١٨٦٠م، ولا نعلم ما إذا كان ذلك ناتج عن تصحيف أم إنَّ الاسم هو فعلاً «نقلين» وتحرف إلى «بقلين».

(٥) «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» تأليف الشيخ: شمس الدين أبي عبدالله محمد أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، طبع في مدينة بطربورغ في مطبعة الأكاديمية

ويقول أبو الفداء (توفي عام ٧٣٢ هـ) متحدثاً عن «أُمَم السودان» الكثيرة: «ومن أممهم البُجَا وهم شديدو السواد عراة، ويعبدون الأوثان، وهم أهل أمن، وحسن مرافقة للتجار، في بلادهم الذهب، وهم فوق الحبشة إلى جهة الجنوب على النيل»[1].

كذلك يتطرق الإمام ابن كثير (توفي عام ٧٧٤هـ) للبُجَةِ في معرض حديثه عن وقائع عام ٢٤١ هجرية، فيقول عنهم: «والبُجَة طائفةٌ من سُودَانِ بلادِ المغرب»[2]، ثم يذكر قصة حربهم مع القُمِّيِّ بسردٍ مشابهٍ لما أورده الطبري.

أما ابن بطوطة (توفى عام ٧٧٩هـ) فيذكر في كتابه: «رحلة بن بطوطة» إنَّه أثناء ترحاله نزل في مرسي بجاوي يعرف برأس دوائر، يقع بين عيذاب وسواكن، ويصف البُجَة بأنهم: «أهل نجدة وشجاعة»[3]، حيث مرَّ بديارهم في بداية القرن الثامن الهجري، لكونه خرج في رحلته من طنجة في عام ٧٢٥ هـ، ومرَّ ببلاد البُجَة قبل عام ٧٣٤ هـ في طريقه إلى الصين، وانتهي من تصنيف كتابه في عام ٧٥٧ هـ. يقول ابن بطوطة: «ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة»[4]. ويضيف: «ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين، وتغيرت الريح بعد ذلك وصدَّتْنَا عن السَّبيل التي قصدناها، ودخلت أمواج البحر معنا في المركب، واشتد المَيْدَ بالنَّاس،

الإمبراطورية عام ١٨٦٥م بواسطة أغشطس بن يحي المدعو مَهْرَنْ، أستاذ الألسنة الشرقية في المدرسة العظمى الملكية بمدينة قوبنهاغ، صفحة ٢٦٩.

(١) «راجع فقرة «أمم السودان» في كتاب: «المختصر في أخبار البشر» لمؤلفه: أبي الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن ايوب.

(٢) «البداية والنهاية» لإبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق الدكتور: عبد الله عبد المحسن التركي، الناشر: هجر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م، الجزء الحادي عشر، ص٣٧٧.

(٣) «رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار»، طبع بالمطبعة الأزهرية بمصر، الطبعة الأولى عام ١٩٢٨م، الجزء الاول، صفحة ١٥٥.

(٤) نفس المرجع، صفحة ١٥٤، وما يزال أهلنا الحباب يسمون السفينة أو المركب «جلبتْ»، من جلب الشيئ يجْلبه ويحْضره.

ولم نـزل في أهـوالٍ حتـى خرجنـا في مرسـى يعـرف بـرأس دوائـر، فـيما بـين عيـذاب وسـواكن فنزلنا به»(١).

ثم يستطرد قائلاً: «وقصدت إلينا طائفة مـن البُجَـاةِ، وهـم سـكان تلـك الأرض سـودُ الألـوان، لباسـهم الملاحـف الصُّـفر، ويشـدون عـلى رؤوسـهم عصـائبَ حُمْـرَاً عرض الأصبع، وهـم أهـل نجـدة وشـجاعة، وسـلاحهم الرمـاح والسـيوف، ولهـم جِمَالٌ يسمونها الصُّهُبُ، يركبونها بالسروج، فاكترينا منهم الجـمال وسـافرنا معهـم في برية كثيرة الغزلان، والبُجَاةُ لا يأكلونهـا وهـي تـأنس بـالآدمي ولا تنفـر منـه. وبعـد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حي من العرب يعرفون بأولاد كاهـل، مختلطـين بالبُجَـاةِ، عارفين بلسانهم. وفي ذلك اليـوم وصـلنا إلى جزيـرة سـواكن، وهـي عـلى نحـو سـتة أميال من البر، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب إليها في القـوارب، وفيهـا صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وهي جزيرة كبيرة، وبها لحوم النّعـام والغـزلان وحُمُـرُ الوحش، والمعزي عندهم كثير والألبان والسمن، ومنها يجلب إلى مَكَّةَ»(٢).

ثم يصف لنا ابن بطوطة حاكم سـواكن في ذلـك الوقـت (حـوالي النصـف الأول من القرن الثامن الهجري) فيقول: «وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصـولي إليهـا الشريف زيـد بـن أبي نمـي، وأبـوه أمـير مَكَّـةَ، وأخـواه أميراهـا بعـده، وهمـا عطيفـة ورميثة اللّـذان تقـدم ذكرهمـا، وصـارت إليـه مـن قبـل البُجَـاة، فإنهم أخوالـه ومعـه عسكر من البُجَاة، وأولاده كاهل وعرب جهينة، وركبنا البحر مـن جزيـرة سـواكن نريد أرض اليمن»(٣).

أما القلقشندى (توفى عام ٨٢١هـ) فيتحدث عن بلاد السودان ويقول عنهـا إنّهـا

(١) نفس المرجع، صفحة ١٥٤.

(٢) نفس المرجع، صفحة ١٥٥.

(٣) نفس المرجع، صفحة ١٥٥.

بلاد متسعة الأرجاء، رحبة الجوانب، ويقول إن المشهور منها ست ممالك: «المملكة الأولى بلاد البُجَا». ثم يستطرد قائلاً: «والبُجَا، بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف في الآخر[1]، وهم من أصفى السودان لوناً. قال ابن سعيد: وهم مسلمون ونصارى وأصحاب أوثان، ومواطنهم في جنوبي صعيد مصر ممّا يلي الشرق، فيما بين بحر القُلْزُم وبين نهر النيل على القرب من الديار المصرية، وقاعدتهم سواكن، بفتح السين المهملة والواو، وكسر الكاف ونون في الآخر[2]. ثم يتطرق لوصف سواكن قائلاً إنها «بليدة للسودان حيث الطول ثمان وخمسون درجة والعرض إحدى وعشرون درجة». ويضيف القلقشندي: «أخبرني من راها أنها جزيرة على طرف بحر القُلْزُم من جهته الغربية، قريبة من البرّ يسكنها التجار، وصاحبها الآن من العرب المعروفين بالحداربة - بالحاء والدال المهملتين المفتوحتين وألف ثم راء مهملة وباء موحدة مفتوحة وهاء في الاخر»[3].

ونأتي الآن للمقريزي (توفي ٨٤٥ هـ) الذي لم يقطع بنسب البُجَة، ولكنه يشير إلى ما كان سائداً في عصره فيقول: «وقيل إنَّ البُجَة من ولد حام بن نوح، وقيل من ولد كوش بن كنعان بن حام، وقيل البُجَة قبيلة من الحبش، أصحاب أخبيةٍ من شعرٍ، وألوانهم أشدُّ سواداً من الحبشة، يتزيّون بزيّ العرب، وليس لهم مدنٌ ولا قرىً ولا مزارع، ومعيشتهم ممّا ينقل إليهم من أرض الحبشة، وأرض مصر والنوبة. وكانت البُجَة تعبد الأصنام، ثم أسلموا في إمارة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وفيهم كرم وسماحة، وهم قبائل وأفخاذ، لكل فخذ رئيس، وهم أهل نجعةٍ[4]،

---

(١) هذه من المرات القليلة لدي المؤرخين العرب التي ورد فيها اسم «البُجَة» بدون إثبات تاء مربوطة في الآخر، ولكن ظل ضم الباء وفتح الجيم قائماً. لاحظ أيضا ما اورده الغرناطي.

(٢) «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» لمؤلفه: أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، طبعة عام ١٩١٥م بالمطبعة الأميرية بالقاهرة، الجزء الخامس، صفحة ٢٧٤.

(٣) نفس المرجع، صفحة ٢٧٤.

(٤) المقصود أنهم أهل بادية، لا يستقرون في المدن.

وطعامهم اللحم واللبن فقط»[١].

هذا وقد سجل المقريزي وصفاً مفصلاً للبجة، نقلاً عن مؤرخ مصري يدعي «عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني»، الذي ضاعت كتبه للأسف، ونحن فيما يلي نورد بعض ما نقله المقريزي عن الأسواني من نصوص عن البُجَة، ونضيف اليها بعض التعليقات. يقول المقريزي نقلاً عن ابن سليم: «اعلم أن أول بلد البُجَة من قرية تعرف بالخربة[٢] معدن الزمرذ في صحراء قوص، وبين هذا الموضع، وبين قوص نحو من ثلاث مراحل»[٣]. وبعد أن يصف معادن الجوهر والزمرد في بلاد البُجَة يقول: «وآخر بلاد البُجَة «هو» أوّل بلاد الحبشة، وهم في بطن هذه الجزيرة، أعني جزيرة مصر إلى سيف البحر المالح مما يلي جزائر سواكن وباضع[٤] ودهلك، وهم بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعي بأخبية من جلود»[٥].

ومن هذا الوصف يتضح لنا، وحسبما حدده ابن سليم، إنَّ أرض البُجَة كانت تمتد من صحراء قوص في مصر إلى جزر دهلك في أقصى إرتريا الحالية، وهذا ما تم التأكيد عليه في المعاهدة التى أبرمها الخليفة العباسي المأمون مع عظيم البُجَة كما سنرى. ثم يتطرق ابن سليم لعادات البُجَة وتقاليدهم، ويذكر صفة يتميز بها البُجَة حتى اليوم وهي احترامهم الشديد للمرأة، فيقول: «وأنسابهم من جهة النساء، ولكل بطن منهم رئيس، وليس عليهم متملك ولا لهم دين، وهم يورثون، ابن

(١) «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٩٧.

(٢) «تقع الآن في مصر وتعرف بخربة الملك. قال صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت ٧٣٩ هـ) في كتابه: «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع»، ص ٤٥٧: «خربة الملك، وهي على ستة مراحل من قفط، مدينة على شرقيّ النيل، وهنالك جبلان يقال لأحدهما العروس وللآخر الخصوم، فيها معادن الزمرُّد».

(٣) «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٩٤.

(٤) باضع هي مدينة مُصَوَّع الحالية (وليس جزيرة عيري كما يدعى البعض جهلاً أو لحاجةٍ في نفسه).

(٥) «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٩٤.

البنت وابن الأخت دون ولد الصلب، ويقولون: إن ولادة ابن الأخت وابن البنت، أصح فإنَّه إنْ كان من زوجها أو من غيره، فهو ولدها على كل حال»[١].

ويذكر لنا ابن سليم أنَّ السلطة المركزية لقبائل البُجَة كانت في منطقة تسمى «هَجَر»، وهي منطقة يبدو أنَّ كلَّ من أراد تملك أمر البُجَة لابد أن يسيطر عليها. يقول ابن سليم: «وكان لهم قديماً رئيس يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه، يسكن قرية تعرف: بهجر»[٢]. وتعليقا على هذه الجزئية نقول في هذه المنطقة بالتحديد كان يسكن عظيم البُجَة كنون بن عبد العزيز الذي أمضى في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين هجرية (٢١٦ هـ - ٨٣١م) المعاهدة التى كتبت بينه وبين عبد الله بن الجهم قائد جيش العباسيين في زمن الخليفة المأمون. وهجر عبارة عن جبل شامخ يمثل نهاية سلسلة الهضبة المرتفعة التى تكون جبل (رورا حباب) في نقفا وتمتد شمالا حتى جبل هجر الذي يقف شامخا ليس ببعيد عن الشاطئ حيث يستطيع من يعتليه رؤية السفن والمراكب في البحر الاحمر. ويقع الجزء الأكبر من جبل هجر حالياً داخل أراضي دولة إرتريا وجزءٌ منه داخل الحدود السودانية[٣]. ويتكون جبل هجر من قسمين هما: هجر الكبير «هجر عبَّايْ» وهجر الصغير «هجر نُؤُوشْ»[٤]، وكان هذا الجبل مقرا لنصاري اليمن الذين انقذهم الملك غالب من بطش اليهود في هجر نجران ثم أصبح المقر الأشهر لملوك البُجَة، ثم أصبح هذا الجبل فيما بعد مقرا لأسجدي. وبعد القسمة الأولى لأرض الحَبَاب أصبح جبل هجر تابع لبَحَايْلاَيْ حيث أصبح هجر الكبير المقر الصيفي لزعماء بَحَايْلاَيْ بينما كانت «عدوبنا» تمثل المقر الشتوي لهم، وكان جبل هجر يزرع من قبل بيت بَحَايْلاَيْ إلى أن زال ملكهم في منطقة مقدام بحلول القرن الثامن عشر واستوطنت جبل هجر بعد ذلك قبيلة

---

(١) نفس المرجع، ص ١٩٤.

(٢) نفس المرجع، ص ١٩٤.

(٣) حسب منتزجر تقع «هَجَرْ» على خط عرض ٣٧ و١٦ شمالا، راجع سبي، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٤) يمر خط الحدود الحالي بين السودان وإرتريا على هضبة «هجر نؤوش» أي جبل هجر الصغير.

بيت عوض. ثم يأتي ابن سليم لذكر أكثر شيءٍ اشتهر به البُجَة على مر العصور وهو اهتمامهم بالإبل والمطايا النجيبة والتي يعتزُّون بها اعتزازهم بابنائهم. يقول ابن سليم عن البُجَة: «ويركبون النجب الصهب، وتنتج عندهم، وكذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضاً»(١).

ثم يطرق إلى خفة اجسامهم وتمكنهم التام من التعامل برشاقة مع الإبل فيقول: «وأبدانهم صحاح وبطونهم خماص، وألوانهم مشرقة الصفرة، ولهم سرعة في الجري يباينون بها النَّاس، وكذلك جمالهم شديدة العدو صبورة عليه، وعلى العطش، يسابقون عليها الخيل، ويقاتلون عليها، وتدور بهم كما يشتهون، ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره، ويتطاردون عليها في الحرب، فيرمي الواحد منهم الحربة فإن وقعت في الرمية طار إليها الجمل، فأخذها صاحبها، وإنْ وقعت في الأرض ضرب الجمل بجرانه الأرض فأخذها صاحبها»(٢).

وهنا نود أن نشير إلى أنه، حتى في وقتنا الحاضر (عام ٢٠١٤ ميلادية)، تعتبر الإبل البجاوية من أنقى وأجود أنواع الأبل، والأغلى ثمنا، ويتسابق عليها أهل الخليج بغرض الفوز في سباق الهجن، وهي كما كانت تعرف قديماً تعتبر إبلاً أصيلةً، وكانوا قديماً ينعتونها بالإبل البختية، نسبة إلى مدينة بختة البجاوية. ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى واقعة هروب المتنبي من الفسطاط بمصر إلى الكوفة في العراق، وهو على ظهر ناقة بجاوية سريعة، شقت به صحراء سيناء، ومجاهل النقب، وبوادي نجد، إلى أنْ أوصلته العراق، وكل ذلك في زمن قياسي لم تستطع خيل كافور الإخشيدي أنْ تدركه، فخاطب المتنبي ناقته «البجاوية» تلك، كما لو كان يخاطب أصدق أصدقائه:

---

(١) «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٩٤.

(٢) نفس المرجع، ص ١٩٤.

ألا كُلَّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى فِدَى كُلِّ ماشِيَةِ الهَيْذَبَى
وَكُلَّ نَجَاةٍ بُجَاوِيَّةٍ خَنُوفٍ وَمَا بِيَ حُسْنُ المِشَى
وَلكِنَّهُنَّ حِبَالُ الحَيَاةِ وَكَيْدُ العُدَاةِ وَمَيْطُ الأذَى
ضَرَبْتُ بِهَا التِّيهَ ضَرْبَ القِمَارِ إمَّا لِهَذَا وَإمَّا لِذَا
إذا فَزِعَتْ قَدَّمَتْهَا الجِيَادُ وَبِيضَ السُّيُوفِ وَسُمْرُ القَنَا
فَمَرَّتْ بِنَخْلٍ وَفِي رَكْبِهَا عَنِ العَالَمِينَ وَعَنْهُ غِنَى
وَأمْسَتْ تُخَيِّرُنَا بِالنِّقَابِ وَادي المِيَاهِ وَوَادي القُرَى
وَقُلْنَا لَهَا أيْنَ أرْضُ العِرَاقِ فَقَالَتْ وَنحنُ بِتُرْبَانَ هَا

وفي سياق حديثه عن جودة وسرعة إبل البُجَة، يورد ابن سليم قصة رهان كسبه رجل من البُجَة أعور، وكان يركب جملاً أعوراً، ورغم الإعاقة «المزدوجة»، بزَّ ذلك البجاوي بجمله الأعور الخيل العواتي وسبقها. يقول ابن سليم: «ونبغ منهم في بعض الأوقات رجل يعرف بكلاز شديد مقدام، وله جمل ما سُمع بمثله في السرعة، وكان أعور، وصاحبه كذلك، التزم لقومه أنه يشرف على مصلى مصر- يوم العيد، وقد قرب العيد قرباً لا يكون للبلوغ إليها في مثله حقيقة، فوفى بذلك، وأشرف على المقطم وضربت الخيل خلفه فلم يلحق»[1]. ثم يصف ابن سليم البُجَة بأنهم «أصحاب ذمة»[2]، ثم يمتدح كرمهم ومبالغتهم في الضيافة لدرجة أنهم ينحرون جمل الضيف لإكرامه إذا لم يجد المضيف ما يكرم به ضيفه ومن ثم يعوضه بأحسن منه. يقول ابن سليم: «وهم يبالغون في الضيافة، فإذا طرق أحدَهم الضيفُ ذَبحَ له، فإذا تجاوز ثلاثة نفر، نَحر لهم من أقرب الأنعام إليه سواءً كانت له أو لغيره، وإنْ لم يكن شيء نحر راحلة الضَّيف، وعوضه ما هو خير منها»[3].

بعد ذلك يتناول ابن سليم نوع السلاح الذي كان يستخدمه البُجَة فيقول:

---

(١) نفس المرجع، ص ١٩٤.
(٢) نفس المرجع، ص ١٩٤.
(٣) نفس المرجع، ص ١٩٤.

«وسلاحهم الحراب السباعية مقدار طول الحديدة ثلاثة أذرع، والعود أربعة أذرع، وبذلك سميت سباعية والحديدة في عرض السيف لا يخرجونها من أيديهم إلا في بعض الأوقات، لأن في آخر العود شيئا شبيها بالفلكة يمنع خروجها عن أيديهم»[1]، ويستطرد فيقول: «ودرقهم من جلود البقر مشعرة، ودرق مقلوبة تعرف باكسومة «نسبة إلى أكسوم» من جلود الجواميس، وكذلك الدهلكية «نسبة إلى دهلك» ومن دابة في البحر، وقسيّهم عربية كبار غلاظ من السحر والشوحط يرمون عليها بنبل مسموم، وهذا السم يعمل من عروق شجر الغلف يطبخ على النار حتى يصير مثل الغرا»[2]. ثم يذكر ابن سليم خيرات بلاد البُجَة في ذلك الوقت فيقول: «وبلدانهم كلها معادن، وكلما تصاعدت «يعني الجبال» كانت أجود ذهبا وأكثر، وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنيطيس والمرقشيتا والجمست والزمرذ وحجارة شطبا، فإذا بلت الشطبة منها بزيت وقَدَتْ مثل الفتيلة وغير ذلك، مما شغلهم طلب معادن الذهب عمّا سواه»[3]. ثم يخبرنا ابن سليم عن حالة ماثلة أمامنا حتى اليوم وهي إنَّ «البُجَة لا تتعرض لعمل شيء من هذه المعادن!!»[4]. ويا لهفي على مناجم أرياب في أيامنا هذه، فكم من أطنان لا حصر لها من الذهب نقلت من تلك البقاع من قبل الشركات الفرنسية وأهلها يتضورون جوعاً، تماماً كما قال شاعر في شريف لا يكاد يجد قوتاً:

أيشكُو لئيمُ القوم كظاً وبطنَةَ	وَيَشْكُو فتى الفِتْيانَ مسّ سُغَوبِ
لأمرٍ غَدا ما حَوْلَ مَكّةَ مقفِراً	جدِيباً وباقي الأرْض غَيْرُ جدِيب

نعود إلى ما نقله المقريزي عن ابن سليم، حيث وصف لنا بيئة أرض البُجَة في زمانه وما فيها شجر وحيوانات مفترسة وطيور فيقول: «وفي أوديتهم شجر المقل

---

(١) نفس المرجع، ص ١٩٤.

(٢) نفس المرجع، ص ١٩٤.

(٣) نفس المرجع، ص ١٩٤-١٩٥.

(٤) نفس المرجع، ص ١٩٥.

والإهليلج والإذخر، والشيح والسنا والحنظل، وشجر البان[١] وغير ذلك، وبأقصى بلدهم: النخل وشجر الكرم والرياحين، وغير ذلك مما لم يزرعه أحد، وبها سائر الوحش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقردة وعناق الأرض والزباد، ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب قليلة البقاء إذا صيدت، ومن الطيور: الببغاء، والنقيط، والنوبي، والقماري، ودجاج الحبش، وحمام بازين، وغير ذلك»[٢]. ثم يفاجئنا ابن سليم بوصف جزء من البُجَة ليس «منهم رجل إلا منزوع البيضة اليمنى»[٣]!! ويشير إلى عادة الختان الفرعوني فيقول: «وأمّا النساء فمقطوع أشفار فروجهن وإنه يلتحم حتى يشقّ عنه للمتزوج بمقدار ذكر الرجل، ثم قَلَّ هذا الفعل عندهم»[٤]. ثم يورد المقريزي مشاهدات عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني في أرض البُجَة ويقول: «وفيهم جنس آخر في آخر بلاد البُجَة يقال لهم: البازة، نساء جميعهم يتسمون باسم واحد، وكذلك الرجال»[٥].

وتعليقاً على ذلك نقول إنَّ البازة أو «البازين» ما زالوا موجودين حتى يومنا هذا، وهم الذين قال عنهم ياقوت الحموي: «بازه بزيادة هاء في آخرها، بلد بأرض السودان وراء سواكن يذكر مع «نافة؟» يجلب منه الحمام البازي إلى مَكَّةَ شرفها الله»[٦].

هذا وقد انحصر وجود البازا حالياً في غرب إرتريا في الجبال التي حول نهر

---

(١) أعتقد أنه يقصد شجر «اللُّبان» وهو منتشر خاصة في جبال البحر الأحمر، أما شجر «البان» المعروف في مدن السودان فقد تم استيراده من استراليا في فترة لاحقة بكثير.

(٢) «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٩٥.

(٣) نفس المرجع، ص ١٩٥.

(٤) لم يَقِلّ هذا الفعل الشنيع بل مازالت عادة ختان الإناث موجودة حتى الآن (٢٠١٤م) لدى كافة قبائل البُجَة، وبنفس الوصف الذي أورده المقيريزي قبل حوالي ستمائة عام.

(٥) «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٩٥.

(٦) «معجم البلدان» لياقوت الحموي، مرجع سابق، باب «الباء والألف وما يليهما».

القاش وإنْ كانوا من قبل منتشرين، هم والباريا، في سهل البطانة ومنطقة الجزيرة، ويدل على ذلك قول اليعقوبي (توفي عام ٢٨٤ هـ) في كتابه «تاريخ اليعقوبي» بازين، وهم يتاخمون مملكة علوا من النوبة، ويتاخمون بَقْلِين من البُجَة» وجميعنا نعرف موقع مملكة علوا.

ثم يتطرق المقريزي لعلاقة البُجَة بجيرانهم في مصر. فيقول: «وفي البُجَة شر وتسرع إليه، ولهم في الإسلام وقبله أذية على شرق صعيد مصر. خرَّبوا هناك قرى عديدة، وكانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحيانا لحاجتهم إلى المعادن، وكذلك الروم لما أن ملكوا مصر، ولهم في المعادن آثار مشهورة، وكان أصحابهم بها وقد فتحت مصر.

قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: وتجمع لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، في انصرافه من النوبة على شاطئ النيل البُجَة، فسأل عن شأنهم، فأخبر: أنَّ ليس لهم ملك يرجعون إليه، فهان عليه أمرهم وتركهم، فلم يكن لهم عقد ولا صلح، وكان أول من هادنهم عُبَيْدُ الله بن الحبحاب السلوليّ، ويذكر أنه وجد في كتاب ابن الحبحاب، لهم ثلاثمائة بكر في كل عام حين ينزلون الريف، مجتازين تجاراً غير مقيمين، على أن لا يقتلوا مسلماً ولا ذمّياً، فإن قتلوه فلا عهد لهم، ولا يؤوا عبيد المسلمين، وأنْ يردّوا آبقيهم إذا وقعوا إليهم.

ويقال: إنهم كانوا يؤاخذون بهذا وبكل شاة أخذها البجاوي فعليه أربعة دنانير، وللبقرة عشرة، وكان وكيلهم مقيماً بالريف رهينةً بيد المسلمين، ثم كثر المسلمون في المعدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم، وأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب إسلاما ضعيفا، وهم شوكة القوم ووجوههم»[1].

ويقول المقريزي إنَّ البُجَة كثرت أذيتهم على المسلمين، حتى جاء عهد الخليفة

(١) «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٩٥.

العباسي المأمون الذي أخرج إليهم عبد الله بن الجهم، فدخل في عدد من المعارك معهم نتج عنها إبرام معاهدة شهيرة بينه وبين زعيم البُجَة آن ذاك «كنون بن عبد العزيز»، الذي كان يقيم في «هَجَر» عاصمة البُجَة التاريخية، وهذه نسخة المعاهدة كما أوردها المقريزي: «هذا كتابٌ كتبه عبد الله بن الجهم، مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبي إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله، في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين، لكنون بن عبد العزيز عظيم البُجَة بأسوان، إنّك سألتني وطلبت إليَّ أنْ أؤمنك وأهل بلدك من البُجَة، وأعقد لك ولهم أماناً عَلَيَّ، وعلى جميع المسلمين، فأجبتك إلى أنْ عقدت لك، وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت، واستقاموا على ما أعطيتني، وشرطت لي في كتابي هذا، وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر- إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكاً للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزَّه الله تعالى، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين إلاَّ أنّك تكون في بلدك ملكاً على ما أنت عليه في البُجَة، وعلى أنْ تؤدي إليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البُجَة، وذلك مائة من الإبل، أو ثلاثمائة دينار وَازِنَةً داخلةً في بيت المال، والخيار في ذلك لأمير المؤمنين ولولاته، وليس لك أن تخرم شيئاً عليك من الخراج، وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمداً رسول الله (ص) أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به، أو قتل أحدا من المسلمين حرا أو عبدا، فقد برئت منه الذمة، ذمة الله وذمة رسوله (ص)، وذمة أمير المؤمنين، أعزَّه الله، وذمة جماعة المسلمين، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم، وعلى أنَّ أحداً منكم إنْ أعان المحاربين على أهل الإسلام بمالٍ أو دله على عورةٍ من عورات المسلمين، أو أثر لعزتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه، وعلى أنَّ أحداً منكم إنْ قتل أحداً من المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأً حراً أو عبداً أو أحداً من أهل ذمة المسلمين أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالاً ببلد البُجَة، أو ببلاد الإسلام أو ببلاد النوبة أو في شيءٍ من البلدان براً أو بحراً، فعليه في قتل المسلم عشر- ديَّات، وفي قتل العبد المسلم عشر- قيم، وفي قتل الذمي عشر ديّات من ديّاتهم، وفي كل مال أصبتموه للمسلمين، وأهل الذمة عشرة

أضعافه، وإنْ دخل أحد من المسلمين بلاد البُجَة تاجراً أو مقيماً أو مجتازاً أو حاجّاً فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم، ولا تؤوا أحداً من آبقي المسلمين، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردُّوه إلى المسلمين، وعلى أن تردّوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك، وعلى أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحاً، ولا تدخلون المدائن والقرى بحال، ولا تمنعوا أحداً من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها براً ولا بحراً، ولا تخيفوا السبيل، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين، ولا أهل الذمة، ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالاً، وعلى أنْ لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر، وسائر بلادكم طولاً وعرضاً، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة. وعلى إنَّ كنون ابن عبد العزيز[1]، يقيم بريف صعيد مصر وكيلاً يفي للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج، وردّ ما أصابه البُجَة للمسلمين من دم ومال، وعلى أنَّ أحداً من البُجَة لا يعترض حدّ القصر إلى قرية يقال لها قبان، من بلد النوبة حدّ الاعمدة، عقد عبد الله بن الجهم، مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز، كبير البُجَة الأمان على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا، وعلى أن يوافي به أمير المؤمنين فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة، وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البُجَة لقبض صدقات من أسلم من البُجَة، وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم، وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق. ولكنون بن عبد العزيز، ولجميع البُجَة: عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين، وذمة الأمير أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد، وذمة عبد الله بن الجهم، وذمة المسلمين بالوفاء، بما أعطاه عبد الله بن الجهم، ما وفى كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه، فإن غير كنون، أو بدل أحد من البُجَة، فذمة الله جل اسمه، وذمة أمير المؤمنين، وذمة الأمير أبي إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد، وذمة عبد الله

(١) بالرغم من دلالة الاسم فإن «كنون بن عبد العزيز» كان مسيحيا وظل على دين المسيح حتى بعد ابرامه لاتفاقية السلام مع وكيل الخليفة المأمون.

بن الجهم، وذمة المسلمين بريئة منهم، وترجم جميع ما في هذا الكتاب حرفاً حرفاً، زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبد الله بن إسماعيل القرشي»[1].

يقول المقريزي إنَّ هذا الصلح مع البُجَة لم يدم طويلً حيث عاد البُجَة إلى «غزو الريف من صعيد مصر، وكثر الضجيج منهم إلى أمير المؤمنين، جعفر المتوكل على الله، فندب لحربهم، محمد بن عبد الله القُمِّيّ، فسأل أن يختار من الرجال من أحب، ولم يرغب إلى الكثرة لصعوبة المسالك. فخرج إليهم من مصر في عدة قليلة، ورجال منتخبة، وسارت المراكب في البحر، فاجتمع البُجَة لهم في عدد كثير عظيم قد ركبوا الإبل، فهاب المسلمون ذلك، فشغلهم بكتاب طويل كتبه في طومار ولفه بثوب، فاجتمعوا لقراءته، فحمل عليهم، وفي أعناق الخيل الأجراس، فنفرت الجمال بالبُجَة، ولم تثبت لصلصلة الأجراس، فركب المسلمون أقفيتهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقتل كبيرهم، فقام من بعده، ابن أخيه، وبعث يطلب الهدنة، فصالحهم، على أن يطأ بساط أمير المؤمنين، فسار إلى بغداد، وقدم على المتوكل، بسرّ مَنْ رَأى في سنة إحدى وأربعين ومائتين، فصولح على أداء الإداوة والبقط، واشترط عليهم أن لا يمنعوا المسلمين من العمل في المعدن. وأقام القُمِّيُّ بأسوان مدة، وترك في خزائنها ما كان معه من السلاح وآلة الغزو، فلم تزل الولاة تأخذ منه حتى لم يبقوا منه شيئا، فلما كثر المسلمون في المعادن، واختلطوا بالبُجَة، قلَّ شرهم، وظهر التبر لكثرة طلابه، وتسامع النَّاس به فوفدوا من البلدان، وقدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري، بعد محاربته النوبة في سنة خمس وخمسين ومائتين، ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب، فكثرت بهم العمارة في البُجَة حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة إليهم من أسوان، ستين ألف راحلة، غير الجلاب التي تحمل من القُلْزُم إلى عيذاب، ومالت البُجَة إلى ربيعة وتروّحوا إليهم. وقيل: إنَّ كُهَّان البُجَة قبل إسلام من أسلم منهم، ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة ولكنون معاً، فهم

(١) نفس المرجع، ص ١٩٥-١٩٦.

على ذلك، فلما قتل العمري، واستولت ربيعة على الجزائر، والاهم على ذلك البُجَة، فأخرجت من خالفها من العرب، وتصاهروا إلى رؤساء البُجَة، وبذلك كُفَّ ضررهم عن المسلمين»[١].

وبعد أن أورد ابن سليم (حسبما نقله المقريزي) وصفاً لا بأس به عن الحداربة (بجة السواحل) وخفرائهم من الزنافج، يتطرق المقريزي (نقلا عن ابن سليم) إلى عادات البُجَة الداخلة المقيمين في المنطقة الممتدة من صحراء مملكة علوا «مما يلي البحر المالح إلى أول الحبشة».

أمّا ابن الوردي [٢]، فيقول أرض البُجَة تجاور «الحبشة من الشمال، وهي بين الحبشة والنوبة، وهم شديدو السواد عراة الأجساد، ويعبدون الأوثان، ولهم عدة ممالك، وهم أهل أنس وحُسْنٍ وتلطف مع التجار»[٣].

دور قبيلة البلو:

إننا عند الحديث عن البُجَة حَرِيٌّ بنا أنْ نتطرق ولو بشيء من الإيجاز، لقبيلة «البلو» وذلك للدور الخطير الذي لعبته هذه القبيلة في تشكيل قومية البُجَة على مر العصور. إنَّ اسم «البلو» هو اسم محلي يطلقه المتحدثون بلهجة التِّجْري على قبيلة «بَلِيّ»، بفتح الباء وكسر اللاّم وتشديد الياء، وهي كما سبق أن ذكرنا، بطن من بطون قضاعة من حِمْيَر من يعرب بن قحطان. وتعتبر بليّ من أقدم القبائل العربية التى هاجرت إلى المنطقة لتستقر وسط البُجَة وتستوطن شرق السودان منذ مئات السنين قبل الميلاد. ثم تكاثرت بليّ بمرور الوقت حتى أصبحت في العصور التى اعقبت

---

(١) نفس المرجع، ص ١٩٦ـ١٩٧.

(٢) هو عمر بن مظفر المعرّي الكندي المعروف بابن الوردي توفي عام ٧٤٩ هـ، وقيل عام ٨٦١هـ.

(٣) انظر كتاب: «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» لإبن الوردي، طبع سنة ١٣٤١هـ في مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، صفحة ٤٥.

انتشار الإسلام قوةً ضاربةً على طول السَّاحِل من «برنيس» [١] في مصر- إلى «باضع»[٢] وجزر دهلك في إرتريا، وتملكت زمام حكم البُجَة لأزمان متعاقبة، وشكلت طبقة ارستقراطية لدرجة أنَّ اسم «البلو» و«البلويب» ارتبط في لغة البُجَة بالسيادة والشرف. واشتهر منهم عظماء في التارخ نذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر، كنون بن عبد العزيز وسمرة بن مالك وعلي بابا (علي أولباب) ومُحَّد إدريس أدراييب (آخر ملوك البجة من البلو)، ومن المشاهير المعاصرين من البلو أسرة كيكيا في مصوع. ترجع مطالع هجرة البلو من الجزيرة العربية إلى شرق أفريقيا إلى القرن الثالث قبل الميلاد حين بدأ اهتمام البطالمة بتجارة البحر الاحمر، وما نتج عن ذلك من ظهور الموانيء العديدة والممتدة على طول السَّاحِل الأفريقي للبحر الأحمر مثل برنيس وعيذاب وسواكن وباضع وعدوليس وغيرها، حيث إزدهرت التجارة عبر هذه الموانئ التى كانت معبرا للسلع مثل البخور وسن الفيل وأصداف السلاحف وريش النعام والرقيق. وكان البلو قوم ذو بأس شديد، ولهم صبر وجلد وهم ذوو خبرة بشؤون الصحراء، وكانوا من القوة والمنعة والسيادة بحيث غدا اسم «البلو» في اللُّغة البجاوية (البِدَاوْيِيتْ) مرادفاً للفظ سيد أو عربي. وعلى الرغم مما عرف عن قبائل البُجَة من النفور من كل غريب يطأ بلادهم، فقد اتيح للعناصر العربية على مر العصور، ولا سيّما قبيلة البلو، أنْ تختلط بقبائل البُجَة، وأنْ تبسط سلطانها على معظم هذه القبائل عن طريق الزواج، وما يترتب عليه من حقوق حسبما يقضي به نظام وراثة الأم. يقول الإدريسي (ت ٥٦٠هـ): «وبين أرض النوبة وأرض البُجَة قوم رحالة، يقال لهم البليّون، ولهم صرامة وعزم، وكل من حولهم من الأمم يهادنونهم ويخافون ضرهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية»[٣].

(١) تعرف الآن برأس بنياس.

(٢) تعرف الآن بمصوع.

(٣) «نزهة المشتاق في إختراق الآفاق» للشريف الإدريسي، مرجع سابق، صفحة ٣٧.

ويورد الإدريسي ذكر غارات البلو على أسوان في حدود مصر فيقول عن أسوان: «وربما أغار على أطرافها خيل السودان المسمين بالبليين، ويزعمون أنهم روم وأنهم على دين النصرانية من أيام القبط، وقبل ظهور الإسلام، غير أنَّهم خوارج في النصارى يعاقبة، وهم متنقلون فيما بين أرض البُجَة وأرض الحبشة، ويتصلون ببلاد النوبة، وهم رحالة ينتقلون ولا يقيمون بمكان»[(١)].

هذا وقد كشفت الآثار حديثاً عن شواهد قبور ومساجد مدفونة في سنكات، تعود إلى قبيلة بَلِيّ. وبغض النظر عن الدور الخطير الذي لعبته هذه القبيلة في تاريخ البُجَة، فإنها تعرضت في العصور المتأخرة إلى الانقراض خاصةً لإنَّهم كانوا محاربين أشداء ودخلوا في مواجهات شتى مع غيرهم. والآن تبقت منهم عوائل متفرقة في قبائل البُجَة المختلفة ولا سيما الحبَاب.

(١) نفس المرجع، صفحة ٣١.



خريطة قديمة لمنطقة شرق إفريقيا رسمها جيرارد ميركاتور «Mercator, Gerard» في عام ١٦٣٢م يتضح فيها أنَّ مملكة البلو Bello ظلت محتفظة بموقعها في شرق النيل حتى منتصف القرن السابع عشر (على أقل تقدير)، والخريطة نشرت لأول مرة في أمستردام - هولندا، وموجودة في مكتبات الجامعات الغربية بعنوان: «Abissinorum, Pretiosi Ioannis Imperium».



جزء مكبر من الخريطة حيث يبدو اسم البلو Bello واضحاً.

كان هذا بعضاً ممَّا قالته العرب عن البُجَة. اما الفراعنة فقد أطلقوا عليهم لفظ «أبشا» وتعنى بلغة الفراعنة ساكن الصحراء «البدو». أما فرعون مصر، رمسيس الثاني، فقد اطلق عليهم كلمة «بجأ» بضم الجيم اليمانية واثبات همزة على الألف، وتعنى «المحاربين» ومن المعروف أنَّ البُجَة كانوا يستخدمون جنودا في جيوش فراعنة مصر لامتيازهم بالشجاعة والقوة، وقيل إنَّ البُجَة كانوا السبب الأساسي في طرد الهكسوس[1] من مصر بعد أن حكموها عنوةً لمدة تزيد على مئتي عام.

أما الإغريق والرومان فقد اطلقوا على المنطقة الواقعة جنوب مصر لفظ اثيوبيا، وهو لفظ يشمل البُجَة والنوبة والاحباش. ويبدو ان معرفة هؤلاء بالمنطقة كانت ضعيفة لدرجة أنَّ بعض رواياتهم لاتعدو عن كونها محض خيال وأساطير ما انزل الله بها من سلطان. فعلى سبيل المثال نورد هنا ما ذكره احد الرومان ويدعى بليني «PLINY» ، (توفى عام ٧٩ قبل الميلاد) حيث يصف البلميين، وتعنى عندهم البُجَة، بقوله: «قيل إنَّهم ليس لهم رؤوس وإنَّ أفواههم وأعينهم ملتصقة بصدورهم» ثم يشير إلى مكان غير محدد في داخل شرق أفريقيا ويزعم أنَّ سكانه «ليس لهم أنوف وأنَّ وجوههم مسطحة تماماً وأنَّ جزءاً منهم ليس له شفةٌ عُلْيَا أو لسان، وهنالك مجموعة أخرى تتميز بأفواهٍ مغلقة «sealed» وإنَّما لديها ثقبٌ واحدٌ فقط يتنفسُ به ويستخدمه لامتصاص السوائل عن طريق أنابيب مصنوعة من قش الشوفان..».

لقد أوردنا كل هذا لندلل على مدى الخلط الذي وقع فيه المؤرخون عند حديثهم عن البُجَة. ومهما يكن من أمر فاننا نخلص إلى أنَّ البُجَة كانت أمة عظيمة وكان لها حضورها المتواصل بين الشعوب المعروفة، ولم يكن بامكان أيّ مؤرخ أنْ يصرف

---

(١) قام الهكسوس بغزو مصر والاستيلاء عليها خلال الألفية الثانية قبل الميلاد إلى أن وصل الملك أحمس الأول إلى السلطة فاستعان بمحاربين أشداء، يقال إنهم البُجَة، وتمكن بمساعدتهم من طرد الهكسوس.

النظر عنها، ولذلك نجدهم يجتهدون في وصفهم ووصف مناطقهم.

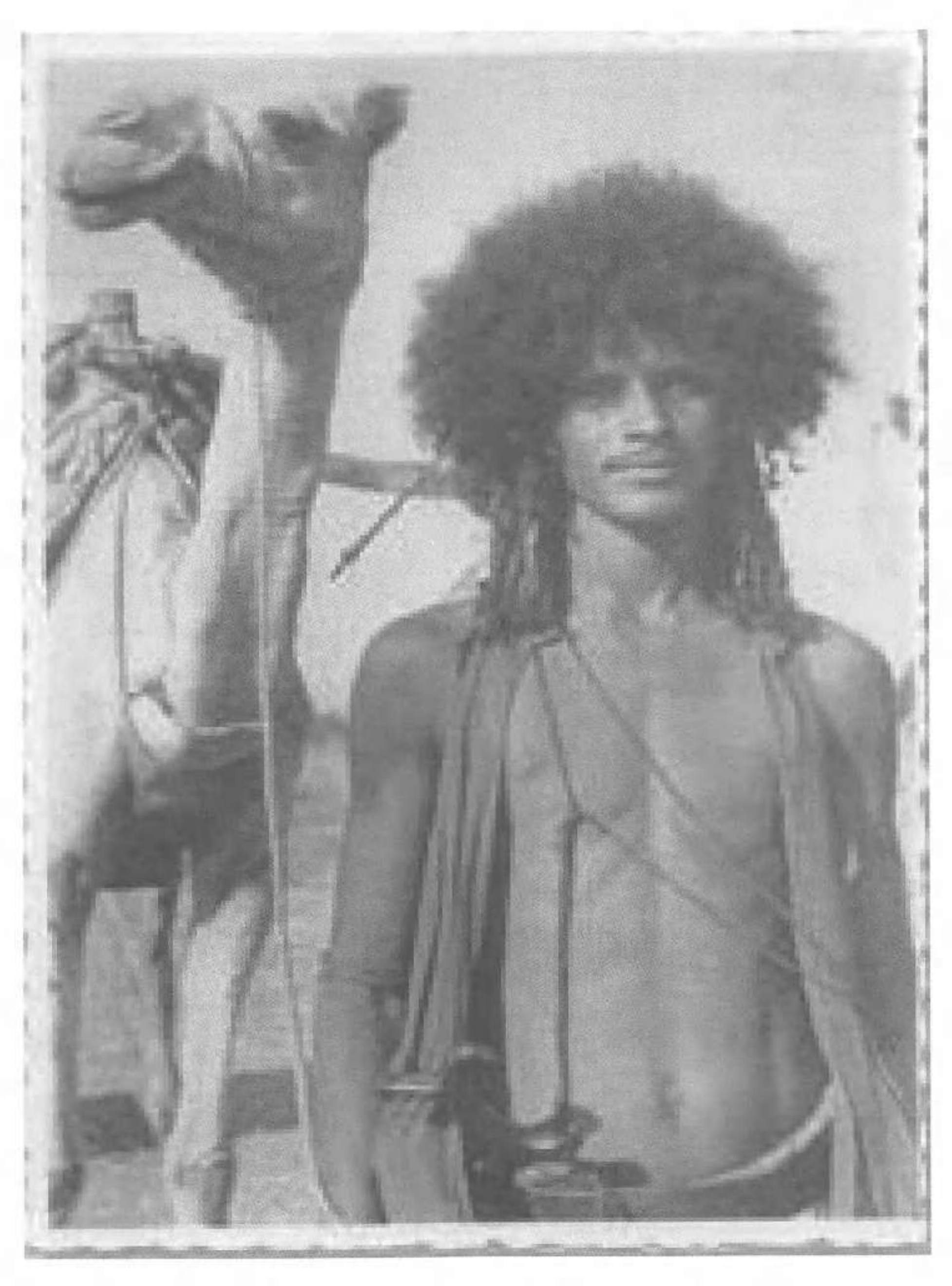
أمّا في الوقت الراهن، فإن الموسوعة البريطانية (Encyclopaedia Britannica) تعرف البُجَة بأنّهم «مجموعة من القبائل المتجولة والتي تحتل منذ أكثر من أربعة الاف عام قبل الميلاد، أو أكثر، الجبال الواقعة بين البحر الأحمر ونهر النيل ونهر عطبرة وذلك ابتداء من منطقة خط العرض الذي يمر بأسوان وحتى الهضبة الإرترية. ثم تستطرد الموسوعة فتقول: «هنالك مجموعة من الحاميين الخلص توجد ضمن قبائل بني عامر في المنطقة الجنوبية من اقليم البُجَة، وهي مجموعة صغيرة تتميز بقامات سلكية وانوف مستقيمة وشعر مجعد ولون داكن واجسام رفيعة وقوية».

وإذا استعرضنا الوضع في الوقت الراهن فإننا، وباستثناء مجموعة صغيرة تقطن أعالي خور بركة داخل اريتريا بالقرب من الحدود السودانية الحالية، فانه لا نجد من النَّاس العوام في شرق السودان من يقول إنه من البُجَة اذا سألته عن قبيلته (لا نتحدث هنا عن المثقفين أو من تأثروا بالرؤى السياسية، وإنما نقول العوام)، وذلك لكون من ينتسبون للبجة حالياً إنما ينتمون إلى قبائل حديثة التكوين نسبيا بعد قرون من تصاهر واختلاط الغرباء من عرب وأحباش وأقباط وزنج وهنود وغيرهم مع البُجَة الأولين[١]. ولذلك يمكننا القول بأن البُجَة الخلص يتمثلون في وقتنا الراهن (٢٠١٤م) في قبيلة «إبداوي» ثم «اللبت»، ويرتكز وجودهما في الجزء الغربي من إرتريا بالقرب من الحدود مع السودان، وكذلك لهم وجود مقدر في الركن الشمالي

---

(١) الغريب في الأمر أن كافة القبائل التي تنضوي الآن تحت قومية البُجَة تزعم أنها عربية الأصل وأبدأ بأهلي الحباب الذين يزعم بعضهم أنهم هاشميّون، والحَلَنْقَا يقولون أنهم من هوازن، والهدندوا يقولون أن جدهم عربي جاء من الحجاز إسمه أحمد المبارك، وبعض بني عامر ينتسب إلى العباس (جعليين)، والأمأرأر والبشاريين ينتسبون إلى كاهل من نسل الصحابي الزبير بن العوام، والملهيت كناب يزعمون أنهم من نسل أبي بكر الصديق، ومن المسلم به في الشرق قبائل الأشراف والأرتيقة هم من نسل آل البيت النبوي الطاهر.

الشرقي من اثيوبيا وبالتحديد في المنطقة المعروفة باسمهم إلى اليوم (بجا مدر Beja Midder) أي أرض البُجَة. يقول الأستاذ محمود أبو عائشة (أخ البروفسير حسن أبو عائشة) في كتابه «سواكن أم الحواضر» في الصفحة ٢٥٨: «يمكننا القول أن هناك عناصر استطاعت الاحتفاظ بهوية البُجَة الأصلية وعاداتهم وتقاليدهم القديمة. ونستطيع أن نحصر هذه العناصر في وقتنا الحاضر في عدة بيوتات من بيوتات بني عامر ويشملهم جميعاً اسم (البداويب)» ثم يتطرق للحديث عن قبيلة «إبْدَاوي» فيقول: «البُجَة (إبْدَاوي): الاسم هنا لقبيلة صغيرة محدودة موجودة في خور بركة وتتبع إدارياً لمجموعة بني عامر. وهي في الواقع تعتبر من أكثر القبائل في شرق السودان وإرتريا محافظة على الأصول القديمة للبجة الذين كانوا في مرحلة ما قبل الإسلام. وتحتفظ هذه القبيلة بكثير من الخصائص البدوية المحضة التي كانت طابع البُجَة القدامى، واغلب وجودهم في الجبال حول مناطق خور بركه وساوة وجميل وغيرها من مناطق المنطقة الغربية من إرتريا. كما أن لهم وجود في جنوب غرب إرتريا وشمال غرب إثيوبيا وخاصةً في المنطقة بين الحمرة وغندر مما يؤكد أن بيجا مدر (Beja Midder) هي أرض من أراضي البُجَة، والبداويب يتسوقون في اغردت وأم حجر والحمرة وكسلا وتوكر . . . . مفرد القبيلة يسمى (إبداوى) بالدال الثقيلة التي تنطق بثني اللسان إلى سقف الحلق عند نطق الدال بدلاً من إلصاق اللسان بالثنايا العُلْيا كما هو مخرجه في النطق وهم أي (البداويب) غير اللبت الذين يجتمعون معهم في العادات والتقاليد، والمتحدثون (بالبداوييت يعرفون أنفسهم عند الجمع بـ (البداوييت) مع اعترافهم بوجود قبيلة (إب داوى) بعنصرها الحالي في أعالي خور بركة». انتهى كلام أبي عائشة.



صورة حديثة نسبيا لأحد شباب البُجَة من قبائل بني عامر في المنطقة الجنوبية من اقليم البُجَة. وكما تلاحظ فإن الوصف الوارد في الموسوعة البريطانية ينطبق بحذافيره على صاحب هذه الصورة.

وخلاصة الخلاصة، وكما يقول الأستاذ محمد أدروب أوهاج في كتابه (من تاريخ البجا) إنَّ «اسم البجا لا يكاد يعنى في الوقت الحاضر عنصراً بعينه بل هو مجموع كل هذه العناصر الموجودة في المنطقة ممن يعتبرون أنفسهم منهم، ولا يكاد يخرج من هذه الدائرة إلاّ أولئك الذين يحرصون من جانبهم على أنْ تكون المسافة بينهم وبين سكان المنطقة محفوظة»[1]. وإذا استثنينا البُجَة المقيمين في إرتريا واثيوبيا، وتركنا جانباً بعض القبائل التى ورد ذكرها في كتب التاريخ بالاسم، باعتباهم جزءاً أساسياً من البُجَة مثل الباريا والبازا وغالبيتها موجودة حالياً في غرب إرتريا حول منطقة بارنتو والقاش عموماً، فإنَّ البُجَة في السودان الحالي ينقسمون إلى عشرة قبائل تتكون من ستّ نظارات وأربع عموديات مستقلة وهي:

نظارة الهَدَنْدِوَا، نظارة الأمارأر، نظارة الحَبَاب، نظارة البشاريين، نظارة الحَلَنْقَا، نظارة بني عامر، عمودية الأرتيقه، عمودية الأشراف، عمودية الكميلاب وعمودية الملهتكناب. وكما يقول الأستاذ محمد ادروب: «هذه هي القبائل العشرة التي يضمها اسم البجا في الوقت الحاضر، وهذا يعني أنَّهم مجموعة من القبائل جمع بينها السكن كما جمعت اللُّغة والتاريخ، وهناك صلات عرقية بينها في كثير من الأحيان، من غير أنْ تعزلهم عن قبائل السودان الأخرى»[2].

*****

(١) راجع كتاب «من تاريخ البجا – الكتاب الأول» للأستاذ/ محمد أدروب أوهاج، طبعة ١٩٨٦م، مطبعة دار جامعة الخرطوم للنشر، صفحة ١١.

(٢) نفس المرجع، صفحة ١٢.

الباب الخامس
الحَبَاب والثورة المهدية

رغم أنّ المنطقة التي نتحدث عنها في هذا الكتاب كانت تخضع مباشرةً لحكم قبائلها بدون وجود سلطة مركزية على الأرض، إلاَّ أنّها من الناحية المرجعية كانت تحت مظلة الحكم العثماني، وذلك منذ أواسط القرن السادس عشر (اعتبارا من عهد السلطان سليم)[١] وحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولم تكن تعرف في ذلك الوقت بأي اسم آخر سوى أرض الحَبَاب[٢] وتقع ما بين سطلتي العثمانيين في مدينتي مصوع وسواكن حيث كانت قبائل منطقة شرق السودان ومنها الحَبَاب بالطبع ترفع شكاويها الى حكام هاتين المدينتين وتورد عشور بهائمها (الطُّلْبة – الدقنية – الضريبة) اليهم باعتبارهم ممثلين للدولة العثمانية التى كانت تحكم المنطقة. أمّا غرب أرض الحَبَاب فكانت تقع مديرية التاكا (كسلا) ومديرية سنحيت (كرن) وما حولها من مناطق مثل أميديب وأوهيل وغيرهما من المدن والبلدات. وفي عام ١٢٨١هـ (الموافق ١٨٦٥-١٨٦٦م) صدر أمر سلطاني تم بموجبه التنازل عن مدينتي مصوع وسواكن الى الحكم المصري (مقابل زيادة الجزية السنوية التى تدفعها مصر للباب العالي). ومنذ ذلك التاريخ أسس المصريّون محافظتين لتلك المنطقة هما محافظة مصوع ومحافظة سواكن، وأصبح الخديوي في القاهرة هو الذي يعين حاكم المنطقة «الحكمدار». وفي عهد إسماعيل باشا توسع حكم المصريين في المنطقة ليشمل في عام ١٨٧٤م كلا من عَايْلَتْ وسنْحِيت «كرن». وفي ٢ أبريل ١٨٨٢م، ظهر لأول مرة مسمى «إقليم شرق السودان» حيث صدر أمر الخديوي في مصر بتقسيم

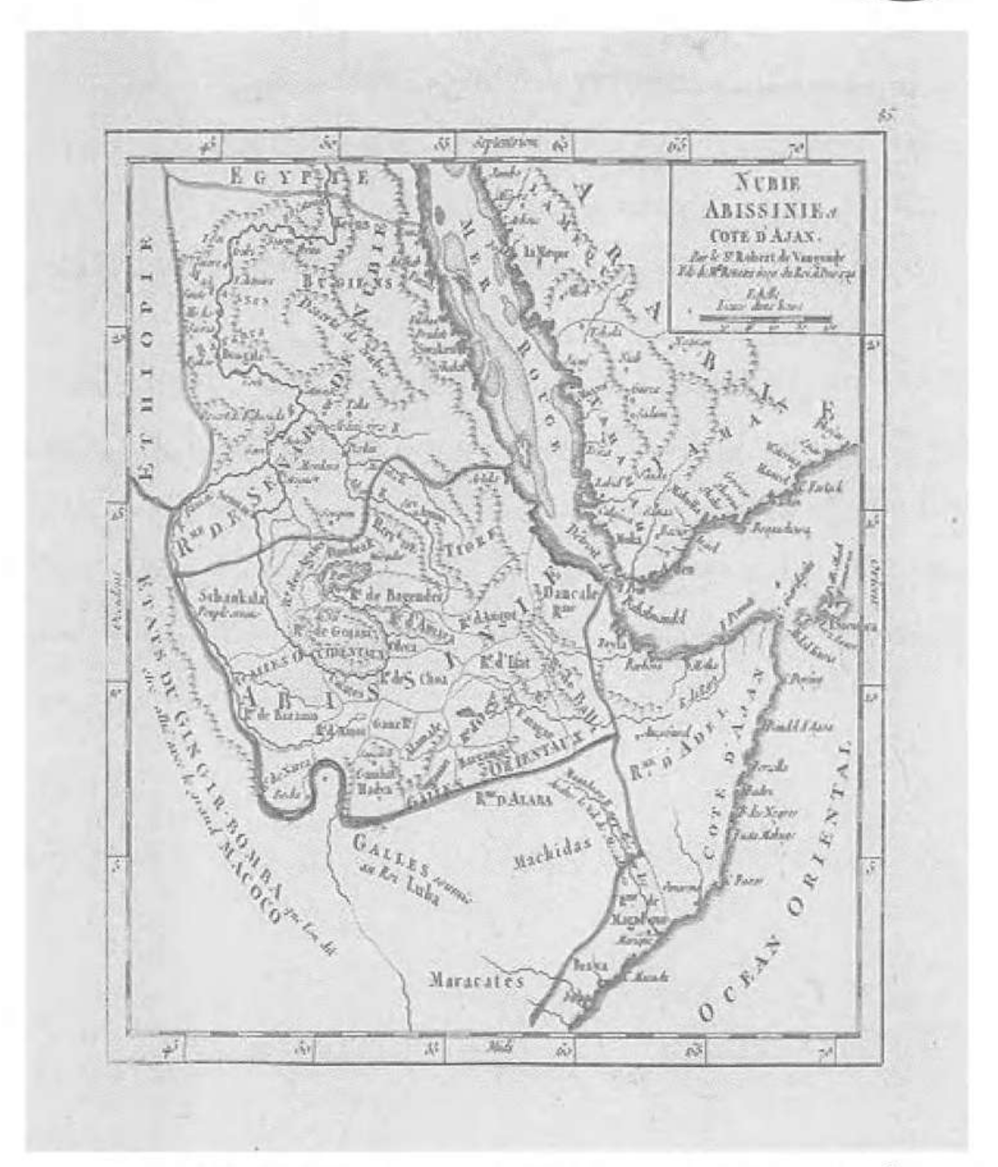
---

(١) استولت الدولة العثمانية على مصوع في عام ١٥٥٧م وبعد ذلك بسنوات قليلة استولت على سواكن.

(٢) راجع ما ذكره الأستاذ عمر رضا كحالة عن هجرة الرشايدة الى «أرض الحَبَاب» في الصفحة ٤٣٤ من كتابه القيم «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة»، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة.

السودان الى أربعة أقاليم هي: (١) إقليم غرب السودان (وكان يتكون من مديريات دنقلة ودارفور وكردفان وشكا وبحر الغزال)، و(٢) إقليم وسط السودان (وكان يتكون من مديريات بربر والخرطوم وسنَّار وفشودة وخط الاستواء)، و(٣) إقليم شرق السودان (وكان يتكون من مديرية التاكا ومحافظة مصوع الى باب المندب ومحافظة سواكن)، و(٤) إقليم عموم هرر وملحقاتها ومحافظتي زيلع وبربرة.

وعليه إذا نظرنا لخارطة السودان قبيل ظهور الدعوة للمهدية في عام ١٨٨١م نجد السودان قطرًا شاسعًا يمتد من دافور الى باب المندب تقريباً، ومن مصر الى خط الإستواء، وأمّا إقليم شرق السودان فكان يشمل أرضًا واسعةً تمتد من بلاد التاكا (كسلا والقاش) مرورا بسنحيت (كرن) حتى مصوع ومنها الى حدود مصر بمحازاة البحر الأحمر مروراً بسواكن ثم الاتجاه جنوبا عبر المنطقة الواقعة شرق النيل مرورا بنهر أتبرا (عطبرة).



خريطة نُشِرَتْ في عام ١٧٤٩ من قبل روبرت دو فاجوندي (R. de Vaugondy) توضح الوضع السياسي للمنطقة وحدود مملكة سنار (دولة الفونج) في تلك الفترة. وكما يظهر من الخريطة فإن منطقة الحباب كانت بالكامل ضمن الإطار السياسي لدولة الفونج.

نعود الى الحَبَاب فنقول نتيجة لطبيعة الجو الحار للمنطقة السَّاحِلية في فترة الصيف (ويطلق عليها الحَبَاب مسمى "حَجَايْ" بالجيم اليمانية) فإن كل قبائل

الحَبَاب، شأنهم في ذلك شأن القبائل الرعوية الأخرى في المنطقة، يقضون الصيف في المناطق المرتفعة (ورحلة الصيف هذه يسمونها «سَبِك Sabic»). وتعتبر نقفا مصيفاً ممتازاً لاعتدال جوها ونقاء هوائها وصفاء مائها. أما فترة الشتاء (ويطلق عليها الحَبَاب مسمى « قَيم Qaiem») فيقضونها عادة في السواحل جوار البحر، وخاصةً مناطق وَدْ جَان Wad Gan وتحْرَا ومنْبَر شُوَار ومدْرُورِيَتْ Madroriat وفَلْكَتْ وأفْرَع ورحِيب وتَكْلايْ وقُرورا، وكل مناطق أفْحَارين حتى سواكن (ورحلة الشتاء هذه يسمونها «ساجم Sagim» والجيم دائما يمانية)[١].

وكان المقر الشتوي للحباب في ذلك الوقت في مدينة سواكن ومنطقة مقدام والقنوب عموما. وبحكم إقامة كَنْتِيْبَايْ حامد في سواكن نشأت بينه وبين عثمان دقنة علاقة صداقة ومصالح تجارية لاسيّما وأنَّ الحَبَاب كانوا يتحكمون في مفاصل مهمة من الحياة في سواكن في ذلك الوقت بسبب عدة عوامل منها الحجم الكبير للأموال التى كان يوردها الحَبَاب كطلبة (Tribute) لمحافظ سواكن التركي، هذا فضلا عن النفوذ الكبير لشخصية حامد بك وسط وجهاء المدينة وزعماء القبائل، ووجود رجل الحَبَاب النافذ إدريس بك محمد[٢] (مدير جمرك سواكن وأحد كبار التجار في المدينة)، ووجود قاضي سواكن القاضي عبدالقادر حسين، ووجود رجل

---

(١) راجع الصفحات ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢ من كتاب:

«The Earth and its Inhabitants, Africa», by Elisee Reclus, edited by A. H. Keane, B. A.

حيث يقول مؤلفه إليسي ريكلس:

«يتجول الحَبَاب بين الجبال والسواحل بحثا عن الماء والمرعى. إن مرتفعات نقفا الفريدة، والتى يمكن اعتبارها المرتكز بالنسبة لأرض الحَبَاب، يتم إخلاؤها في وقت الشتاء تماما وتترك، وتصبح مرتعا للوحوش المفترسة»:

«The Hababs roam amongst the surrounding mountains and plains in search of water and pastures. During the winter the lonely Nufka plateau, which may be considered the centre of the Habab country, is completely abandoned to the wild beasts».

(٢) تم استعراض بعض أدواره في الفلم الذي أخرج مؤخرا عن عثمان دقنة.

الدعوة الشيخ محمد النور حسين إمام وخطيب الجامع الحنفي الوحيد في سواكن، فضلاً عن وجود القطب الكبير زعيم الختمية و«راجل» سواكن السيد محمد عثمان (تاج السر) الميرغني المشهور بتاج السر (والدته من الحَبَاب وكذلك أخوه السيد عبدالله المحجوب المدفون في حلة حمد في الخرطوم بحري) الذي كانت تربطه علاقة وطيدة بكَنْتِيْبَايْ حامد خاصةً وأنَّ إحدى زوجات تاج السر كانت من الحَبَاب (فاطمة بنت محمد قَيح وَدْ نصرالدين أم الحسن والحسين). ليس هذا فحسب بل وإنَّ قبيلة الحَبَاب كانت تعد في ذلك الوقت من أغنى القبائل[1] في المنطقة مالا وعددا وللدلالة على ذلك نشير الى أنه حتى بعد تضعضع الأحوال وما حدث من تكتلات وانقسامات في القبيلة فإن قيمة الضريبة (الطلبة) على قطعان الماشية التى تسلمها كَنْتِيْبَايْ محمود من القبيلة قبيل رحيله الى مَقَدَّام (جنوب تكر) في عام ١٨٩٥م قد بلغت ٢٥ ألف ريال نمساوي Maria Theresa (أبو طيرة)[2] وهو مبلغ ضخم للغاية بمقاييس ذلك الزمن، ولهذا كان لابد من التعامل مع الحَبَاب وزعيمهم من هذا المنظور[3]. ومن أراد التوسع في هذا الموضوع يمكنه الرجوع الى دار الوثائق المصرية في القاهرة ومراجعة الوثائق التالية:

(١) ذكر المؤرخ محمد صالح ضرار إنَّ الحَبَاب كانوا في ذلك الوقت «من أغنى وأكثر قبائل شرق السودان». راجع صفحة ٢٥٠ من كتابه: «تاريخ سواكن والبحر الأحمر»، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، الدار السودانية للكتب.

(٢) كتاب «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق، صفحة ٥٨.

(٣) كان كَنْتِيْبَايْ حامد بك يسطر سيطرة مطلقة على المنطقة الممتدة بامتداد السَّاحِل من وادي أدهرا شمال مصوع الى سواكن وهي المنطقة التى كانت تعرف بأرض الحَبَاب (أنظر كتاب «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» تأليف عمر رضا كحالة، العلم للملايين بيروت ١٩٦٨ م) وهي منطقة كبيرة كانت تسكنها أكثر من ٤٣ قبيلة كلها تورد عشورها لكَنْتِيْبَايْ حامد بك فضلا عن أخذه للجمارك على كل البضائع التى كانت تمر في تلك المنطقة بل والأشخاص الغرباء الذين يمرون بالمنطقة وهذا كان من أحد الاسباب التى اوردها الطليان لشن الحرب على الحَبَاب وزعيمهم حامد بك حسبما سنفصل في موضعه.

(١) الوثيقة رقم 044400-5036 والتى تحتوي على كشف بالمربوط على قبيلة الحباب على المواشي بطرف كل شيخ عام ١٨٨١م.

(٢) الوثيقة رقم 006357-5036 والتى تبين النقدية المتحصلة من الحباب.

ثم بدأ الإمام المهدي دعوته الى الثورة في ربيع ١٢٩٨هـ (مارس عام ١٨٨١م) وعقب انتصاراته الباهرة خاصةً بعد حصاره للأبيض واستيلائه عليها في يناير ١٨٨٣م بدأت تتوجه اليه الوفود وزعماء القبائل لمبايعته وكان من ضمن من حضر الى الأبيض جماعة من شرق السودان فيهم المجاهد عثمان أبوبكر دقنة حيث قاموا بمبايعة المهدي في أوائل عام ١٨٨٣م (١٣٠٠هـ) وتم في تلك السنة تعيين عثمان دقنة أميرا على شرق السودان. فتوجه الأمير عثمان الى شرق السودان ومعه أربعة خطابات من المهدي الى قبائل شرق السودان وما يهمنا هنا هو الخطاب المؤرخ في ٨ مايو ١٨٨٣م الموجه الى القبائل القاطنة في محيط سواكن (ومنها الحَبَاب والكميلاب والحسناب) حيث وصل الأمير عثمان الى أركويت قادما من الأبيض بعد رحلة طويلة وشاقة فوجد فيها خاصته من أهله الدقناب ولكن المدهش أن من بين مستقبيله في أركويت كان قاضي سواكن وأمير الحَبَاب في الجهاد الشيخ عبد القادر حسين[1] وأخوه محمد النور حسين حيث كانا من أوائل النَّاس الذين بايعوا الأمير

---

(١) القاضي عبد القادر حسين كان قاضي سواكن أيام ظهور المهدية وهو حجازي الأصل ومولود في الحَبَاب وكان يحسب عليهم لقرابته بهم وهو من نسل الشيخ عمر محمد محي الدين بن احمد بن محمد القملي الذي كلف في عام ١٧٨٢م بتولي القضاء بمذهب الدولة ولذلك يعتبر أول قاضي في سواكن يحكم طبقا للمذهب الحنفي على خلاف مذهب أهل سواكن وهم شافعية. ويعتبر القاضي عبد القادر حسين من أوائل الناس الذين بايعوا الأمير عثمان دقنة حيث كان هو وأخوه محمد النور من ضمن النفر الكريم الذين استقبلوا عثمان دقنة عند قدومه بالخطابات الأربعة الموجهة من المهدي في ٨ مايو ١٨٨٣م الى قبائل المنطقة ومنها الحَبَاب (خطاب القبائل التى حول سواكن) حيث وصل عثمان دقنة الى أركويت في أغسطس ١٨٨٣م فبايعه الناس هنالك ومنهم الدقناب فضلا عن القاضي عبد القادر وأخيه محمد النور (راجع كتاب أمير الشرق لمؤلفه سليمان صالح ضرار، الطبعة الأولى، صفحة ٤٩).

في أركويت في أغسطس ١٨٨٣م وبذلك شهدا البيعة التى تمت بين الأمير وأهله الدقناب في أركويت وانخرط أمير الحَبَاب المجاهد عبد القادر حسين في القتال بنفسه حتى إنَّ خادمه قد قتل بعد البيعة بقليل في معركة حصن سنكات. يقول المؤرخ محمد صالح ضرار إنه وبعد «تنازل وزارة نوبار باشا المصرية عن كافة حقوقها بالسودان يوم (١٧/ ١/ ١٨٨٥م) ومجيء غردون باشا لتسليم البلاد لأهلها. خرج صاحب الفضيلة القاضي عبد القادر حسين «قاضي سواكن» الى تأماي لمبايعة الأمير عثمان دقنة، فعينه الأمير عاملا على سواحل بلاد الحَبَاب حتى مصوع، وهذه المحلات مشحونة بأقارب وأصدقاء فضيلته»[1].

وبهذا يمكن أن نقول إن الحَبَاب (ممثلين في أميرهم في الجهاد القاضي عبد القادر وَدْ حسين) يعتبرون من أوائل النَّاس الذين نصروا الأمير عثمان دقنة في جهاده وهم بالطبع آخر القبائل في شرق السودان التى أمدَّتْ الأمير بالعتاد والرجال كما سنبين لاحقا. ليس هذا فحسب بل يكفي الحباب فخراً إنهم شاركوا في آخر معركة على الاطلاق خاضها الأنصار ضد الاستعمار الانجليزي وهي معركة "أم سنطة" التى شهدها زهاء مائة وسبعين رجلاً من الانصار كان من ضمنهم سبعون فارسا من الحباب، أي أنَّ الحباب كانوا يمثلون أكثر من ٤٠٪ من آخر جيش للمهدية حارب الانجليز. يقول مؤخ المهدية اللواء معاش أبو قرون عبد الله أبو قرون: "إنَّ الحباب لم يحاربوا مع عثمان دقنة فقط في شرق السودان ولكنهم كانوا في معركة "أم سنطة" وهي الجزء الأخير من معركة أم دبيكرات"[2]. المهم هو إنَّ الأمير عثمان بدأ في استقطاب القبائل للدعوة الوليدة وتمت دعوة الحَبَاب للانضمام للثورة المهدية بموجب مكاتبات ورسائل بين الأمير عثمان دقنة وحامد بك. وفي هذا الصدد يذكر

---

(١) راجع كتاب «تأريخ شرق السودان، ممالك البُجَة، قبائلها وتاريخها»، الجزء الأول، مر مجع سابق، راجع صفحة ٤٤٠.

(٢) صحيفة "ألوان"، العدد رقم: ٣٧٨١ بتاريخ ٢٠ فبراير ٢٠٠٧م، الصفحة ٨.

أحد التقارير البريطانية[١] أنَّ الشيخ "عمر وَدْ محمد"، وهو أحد زعماء الحباب، قد التحق مبكراً بصفوف قوات المهدية وشارك في حروبها "المقدسة". هذا وقد لعب القاضي عبد القادر حسين (قاضي سواكن) الدور الأكبر في إقناع قبائل الحَباب بالانضمام للمهدية كما سنرى لاحقا.

إن حالة الاستقطاب هذه لم ترض المستعمر الإنجليزي[٢] الذي كان يتوجس من أي تحرك وكان يراقب أي اتصال يتم مع «الدراويش» ولهذا أصبح حامد بك في موضع شك في نظر المستعمر كما أصبح في حرج مع صديقه الأمير عثمان دقنة بسبب اقامته في سواكن التي تم حصارها من قبل المهديين واضحت هدفا حربيا لهم ولهذا اضطر كَنْتَيْبَايْ حامد للخروج من سواكن والانتقال جنوبا الى مرسى تَكْلايْ (رارات) حيث تم اتخاذه مقرا مؤقتا للحكم وقت الشتاء أما الصيف فيكون غالبا في نقفا «حملهال»[٣]. وبذلك أصبح حامد بك في وضع يُمَكِّنه علنا من مبايعة صديقه القديم الأمير عثمان دقنة واثمرت جهود القاضي عبد القادر فقد جمع كَنْتَيْبَايْ حامد وفد المبايعه الذي تكون من عدد كبير من الفرسان الذين تم اختيارهم من كل قبيلة تابعة للحباب وارسلهم بقيادة القاضي عبدالقادر حسين وأخويه هِدَاد وَدْ حسن وهُمَّد وَدْ حسن[٤] وابنه الكبير محمد الى مقر الأمير عثمان دقنة في تاماي وحضر الوفد مع بقية وفود قبائل الكميلاب والحسناب وغيرهم الى الأمير في عام ١٨٨٥م وكان مع وفد الحَبَاب مؤن وأقمشة لجيش الأنصار «تحملها قافلة مؤلفة من مائتي

---

(١) إنظر الصفحة رقم ١٨٧-١٨٨ من كتاب:
«Suakin and Massawa under Egyptian Rule, 1865-1885», by Ghada Hashem Talhami, published in 1979 by the University Press of America in Washington D.C.

(٢) كان يعرف إسمياً بالحكم التركي المصري، ولكن السيطرة الفعلية كانت للمستعمر الإنجليزي.

(٣) «حَمْلْهَال» تعنى بالحَبَابية الخضراء و«حَمَلِيل» هو الأخضر بلهجتهم. ويقصدون بذلك "الأسمر"، و«حَمْلَي» هو نوع من الخضروات.

(٤) قتل هُمَّد ود حسن فيما بعد ودفن في سواكن في حارة أبي الفتح وما زال شاهد قبره منصوبا الى اليوم بين قبر السيدة فاطمة والسيدة زينب.

جمل»، فبايع الحَبَاب بصفة رسمية الأمير عثمان دقنة في تاماي على نصرة الدعوة المهدية وتم تقسيم الحاضرين الى رايتين إحداهما برئاسة الأمير خضر بن على الحسنابي والثانية برئاسة القاضي السابق في سواكن الأمير عبدالقادر حسين الذي عين اميرا على سواحل بلاد الحَبَاب[1]. وبعد ستة شهور من البيعة الاولى (أي في اواخر عام ١٨٨٥م) طلب الأمير عثمان دقنة من الحَبَاب ومن بقية القبائل ارسال وفودها اليه للذهاب الى امدرمان ومبايعة الخليفة عبدالله التعايشي. فارسل كَنْتَيْبَايْ حامد ابنه محمد الذي اختير مع الوفد الذي تقرر ان يسافر الى امدرمان لمبايعة الخليفة. وظل الأمير محمد وَدْ كَنْتَيْبَايْ حامد فترة من الوقت ملازما للأمير عثمان دقنة في مقره بسلهات (تاماي) في انتظار السفر الى البقعة ولكن الأجل كان اسرع فقد انتشر الجدري بين الأنصار واصاب الكثيرين ومنهم محمد بن كَنْتَيْبَايْ حامد الذي مات في تاماي الواقعة على بعد اميال قليلة جنوب غرب سواكن ودفن ليس بعيداً من جدة الأعلى (أَسْجَدَيْ) المدفون في قديفرا (أَسْجَدَيْ فرا) في منطقة «دبر عنقا» وهكذا اراد الله ان يكون أول شهيد من الحَبَاب في الثورة المهدية ليس من عامة النَّاس ولكن ابن زعيمهم المحبوب، وكأن لسان حاله يقول كما قال الفيتوري:

هـا هنـا واريـت أجـدادي هنـا	وهـم اختـاروا ثراهـا كفنـا
وسأقـضي أنـا بعـد أبي	وسيقضي ولـدي مـن بعـدنا
نحـن أهرقـنا عليهـا دمنـا	وزرعناهـا سيـوفا وقنـا
وركـزنـا فـوقها أعلامنـا	وتحديـنا عليـها الزمنـا
وسنهديـها إلى أحفادنـا	سيحمـون ثـراها مثـلنا

وفي ذلك العام حدث امر هام تمثل في احتلال الإيطاليين لمصوع في ٥ فبراير ١٨٨٥م[2] وكانت السلطة الفعلية في سواكن قد آلت للانجليز (عقب معركة

(١) راجع منشورات عثمان دقنة وكذلك محمد صالح ضرار: «تاريخ شرق السودان، ممالك البُجَة»، الجزء الأول، مرجع سابق، صفحة ٣٥٥ وصفحة ٤٤٠.

(٢) احتلت إيطاليا ميناء مصوع وانهت سطة الخديوي المصري فيها بالتواطؤ مع الانجليز.

ترنكتات التي وقعت في ٤ فبراير ١٨٨٤م) وبذلك أصبح الميناءان بيد الأعداء، فضاقت أحوال النَّاس وقل المدد للثورة المهدية فضلا عن التذمر الذي حدث من القبائل والشكاوي التى قدمت الى الخليفة عبدالله ضد الأمير عثمان دقنة من زعماء قبائل المنطقة ومن ضمنهم كَنْتَيْبَايْ حامد بك نفسه حيث ظن أن الأنصار قتلوا إبنه الشاب محمد ويبدو أنه لم يصدق أن موت إبنه كان بسبب مرض الجدري كما ادعى الأنصار. اثر ذلك تم استدعاء الأمير دقنة الى البقعة حيث اوكلت اليه قيادة جيوش المهدية من القبائل الراطنة (البُجَة) وتم تكليف الأمير محمد عثمان أبو قرجة ليتولى إمارة شرق السودان. وفعلاً وصل أبو قرجة الى الشرق والتقى بوجهاء القبائل في شرق السودان ومن بينهم كَنْتَيْبَايْ حامد الذي أكرم وفادته ورحب به وجدد له البيعة واتفق معه على تمويل الأنصار وذلك بانشاء ميناء جديد في مرسى رارات (تَكْلايْ Taklai) يتم عن طريقه استيراد المؤمن والسلاح وبحيث يذهب للانصار جزء من ايراد الضرائب التي فرضت على البضائع التي تاتي الى المرسي. وفعلا أصدر كَنْتَيْبَايْ حامد أوامره بفتح ميناء تَكْلاي، وعين الشيخ/ إدريس على نور (والد الخليفة عَلِيّ نور وجد الفنان إدريس الأمير) مندوبا مقيما في الميناء نيابة عن كَنْتَيْبَايْ حامد بك وعين الأمير أبو قرجه مندوبه، وعُيِّنَ الشيخ/ عبد الله المبارك، زعيم قبيلة الرشايدة، ضامنا لتنفيذ الاتفاق بين الطرفين (كَنْتَيْبَايْ وأبو قرجة).

وبموجب الترتيبات المتفق عليها كان يتم فرض رسوم جركية على كافة البضائع الواردة للميناء عبارة عن مبلغ خمسه ريالات مجيدية (أو ما كان يعرف بريال أبي طيرة أو ريال نمساوي) تقسم كالآتي: ريالان للحباب (كَنْتَيْبَايْ حامد بك) وريالان لدعم الثورة المهدية (الأمير محمد عثمان أبو أبوقرجه) وريال واحد للضامن عبد الله أمبارك (مبارك) الرشيدي. وتوسع الميناء واشتهر ولم تقتصر خدماته على توفير السلع فقط وانما كانت تأتي عبر هذا الميناء الإمدادات ومختلف أصناف المؤن والزخيره للدوله المهدية داخل السودان، خاصةً بعد احتلال مصوع وحصار سواكن حيث غدا مرسى تَكْلايْ المنفذ الوحيد في شرق السودان حتى

اشتهر بأنه «ميناء اسلامي حر، فقصده تجار الرقيق وسائر البضائع»[١]. ولتفعيل هذا الاتفاق قام كَنْتِيْبَايْ حامد بالسفر الى مصوع والاتفاق مع أحد كبار التجار فيها يدعى باطوق ليشحن أسلحة وزخائر من مصوع والحجاز وغيرها الى كَنْتِيْبَايْ حامد في مرسى تَكْلايْ مقابل أن يوفر له الحَبَاب كل ملتزمات تجارة باطوق الى اليمن والحجاز ومنها الجلود والحبال والسمن والعسل وغير ذلك من المنتجات المحلية. وهكذا ضمن الأنصار الحصول على المال والسلاح في وقت ضاقت فيه السبل على الأنصار وانقلبت عليهم القبائل[٢] ولكن الحَبَاب دائما كانوا العون والنصير الأمر الذي جعل الأمير الوفي أبو قرجة يكْبِرُ هذا الموقف من الحَبَاب ولهذا، كما سنفصل في موضع آخر، قرر أنْ يطلق على أحد أبنائه اسم «كَنْتِيْبَايْ» وفاءً وتخليداً لمواقف البطل ورجل الحَبَاب القوي كَنْتِيْبَايْ حامد بك.

وعودا الى الموقف التاريخي للحباب من مناصرة الثورة المهدية نقول بحلول عام ١٨٨٥م تمايزت الصفوف في شرق السودان. فطبقاً للتقرير رقم ٦٣ الموجه بتاريخ ٢٠ أبريل ١٨٨٥ من مستر مايسا - نائب القنصل الإيطالى في مصوع - الى وزير خارجية إيطاليا، وقفت القبائل الواقعة بين كسلا وسنحيت (بنوعامر والحلنقا) ضد الثورة المهدية، بينما وقفت القبائل الواقعة بين مصوع وسواكن (الحَبَاب والحسناب والكميلاب) مع الثورة المهدية، ولهذا سيدفع الأخيرون الثمن غاليا فيما بعد. وفي هذا الصدد يقول جونوثان ميران: «لقد قاتل بنو عامر حلف المهدية بحماس شديد

---

(١) «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٢) أنظر ملخص موقف القبائل من عثمان دقنة في تلك الفترة حسبما جاء في كتاب: «السودان المصري الإنجليزي» بالإنجليزية، مرجع سابق، وخاصة ما ورد في الصفة ٢٥٨:

«In the beginning of 1886 Osman Digna once more tried to stir up strife in the neighbourhood of Suakin. The tribes,however, did not greet him cordially, and the attitude of the Amarar, Ashraf, and Habab was doubtful. As the year wore on, the Amarar fought against Digna, shut him up in Tamai, and beat him there (6th September). As the Beni Amer, Bisharin, etc., were showing signs of coming in, Osman Digna escaped, and took refuge in the rich delta of Tokar. Here he remained quiet for another year».

منذ عام ١٨٨٤م وذلك بتأثير من شيخ الختمية في كسلا. وعلى النقيض من ذلك، أظهر جزء من الحباب، ربّما بتأثير من عَدْ شيخ «حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ»، تجاوباً نحو المهدي وناصروا عثمان دقنة، قائد المهدية في شرق السودان».

«The Beni Amer, under the influence of the Khatmi Shaykh in Kassala, fought the Mahdist coalition in the eastern Sudan with zeal in 1884. In contrast, section of the Habab, possibly under the influence of the «Ad Shaykh», displayed pro-Mahdist tendencies and collaborated with the eastern Sudanese Mahdist leader «Uthman Digna»[1].

وذكرنا أن ميناء تَكْلاي أصبح الشريان الذي يضخ الدم في جسد المهدية ليس في شرق السودان فحسب ولكن في كافة انحاء الدولة المهدية نتيجة للحصار والاحتلال الذي طال الموانئ الاخرى في شرق السودان. وفي تعبير جميل يصف أنطوني دو أفري انخراط الحَبَاب في المهدية فيقول إن الحَبَاب قد جرفهم تيار المهدية الى حد بعيد اعتبارا من وصول الأمير عثمان دقنة الى تاماي في أكتوبر عام ١٨٨٤م:

«The Habab were carried along in the pro-Mahdist flood at least so far as those who were in the frontier region, just to the south of Tokar were concerned » [2].

وللدلالة على انخراط الحَبَاب في العمل القتالي نشير فقط على سبيل المثال الى أنَّ الحباب قد شاركوا في معركة هندوب الشهيرة التى وقعت في ١٧ يناير ١٨٨٨م وانتصر فيها الأنصار حيث أصيب الحاكم العام لشرق السودان كتشنر (اللورد كتشنر فيما بعد) بجرح غائر في فكه وتم اجلاؤه سريعا من الموقع قبل أن ينهزم جيش المعتدين. وكانت هذه المعركة ضربة أخرى موجعة بعد أن كسر البجاة المربع الإنجليزي في موقعة تاماي من قبل (في ١٣ مارس ١٨٨٤م) والتي شهدها كذلك الحَبَاب بقيادة أميرهم القاضي عبد القادر حسين.

---

(1) «Red Sea Citizens: Cosmopolitan Society and Cultural Change in Massawa« by Jonathan Miran, ibid, P. 183.

(2) Lords of the Red Sea, op cit, p. 102.



أبطال البُجَة بعد كسرهم للمربع الإنجليزي واستيلائم على مدفع Gatling Gun الذي يظهر في هذه الصورة التى رسمها الفنان دوغلاس جليز Douglas Giles وينبغي ملاحظة تصفيف الشعر بطريقة تحاكي "لبدة الأسد" وهي صورة أشبه ما تكون بصور قدامى الحَبَاب التى نشرنا نماذج منها في مواضع أخرى من هذا الكتاب.

إذَنْ شهد الحَبَاب مع الأمير عثمان دقنة أهم معركتين ضد الاستعمار وكان لهم شرف المشاركة في كسر المربع الإنجليزي في سابقة لم تحدث من قبل حتى إنَّ شاعر البلاط الإنجليزي روديارد كبلنج[1] قد أشاد (مُكْرَهاً) بهذا الانتصار العظيم في قصيدته المعروفة «Fuzzy Wuzzy» حيث قال:

We've fought with many men across the seas,
And some of them was brave and some was not:
The Pathan and the Zulu and Burmese;
But the Fuzzy was the finest of the lot.
We never got a half-port's change of him:
He squatted in the scrub and hocked our horses,
He cut our sentries up at Suakin,
And he played the cat and banjo with our forces.
So here's to you, Fuzzy-Wuzzy,
at your home in the Sudan;
You're a poor benighted heathen
but a first-class fighting man;
We gives you your certificate,
and if you want it signed
We'll come and have a romp with you whenever
you're inclined.

***

We took our chance among the Khyber hills,
The Boers knocked us silly at a mile,
The Burman give us Irriwaddy chills,
And a Zulu impi dished us up in style:
But all we ever got from such as they;
Was pop to what the Fuzzy made us swallow;
We held our blooming own, the papers say,
But man for man the Fuzzy knocked us hollow.
Then here's to you, Fuzzy-Wuzzy,
and the Mrs and the kid;
Our orders was to break you, and
of course we went and did.
We sloshed you with Martinis, and
it wasn't hardly fair;
But for all the odds against you, Fuzzy-Wuz,
you broke the square.
He hasn't got no papers of his own,

---

(١) روديارد كيلنج Rudyard Kipling (١٨٦٥ - ١٩٣٦) هو روائي وشاعر إنجليزي مشهور حاز على جائزة نوبل للأدب في عام ١٩٠٧.

He hasn't got no medals nor rewards,
So we must certify the skill he's shown
In using of his long two-handed swords:
When he's hopping in and out among the bush
With his coffin-headed shield and shovel-spear,
An happy day with Fuzzy on the rush
Will last a healthy Tommy for a year.
So here's to you, Fuzzy-Wuzzy, and
your friends which are no more,
If we hadn't lost some messmates
we would help you to deplore;
But give and take is the gospel,
and we'll call the bargain fair,
For if you have lost more than us,
you crumpled up the square!

***

He rushes at the smoke when we let drive,
And, before we know, he's hacking at our head;
He's all hot sand and ginger when alive,
And he's generally shamming when he's dead.
He's a daisy, he's a ducky, he's a lamb!
He's a India-rubber idiot on the spree,
He's the only thing that doesn't give a damn
For a Regiment of British Infantry!
So here's to you, Fuzzy-Wuzzy,
at your home in the Soudan;
You're a poor benighted heathen
but a first-class fighting man;
And here's to you, Fuzzy-Wuzzy,
with your hayrick head of hair;
You big black bounding beggar;
for you broke a British square!.

نعود الى معركة «هندوب»، فقد شهدها عددٌ لا يقل عن أربعين فارساً من خيرة فرسان الحَبَاب، وسقط لهم في هذه المعركة عدد من القتلى والجرحى، وربّما يكون الأنصاري الذي أصاب اللورد كتشنر في تلك المعركة هو فارسٌ حبابيٌّ، وأيا كانت هويته، ليته تمكن من القضاء عليه، فقد شُفِيَ كتشنر هذا وجهز فيما بعد جيشاً كبيراً لاحتلال السودان، وفعلاً قضى على الثورة المهدية في عام ١٨٩٨م، وأصبح الحاكم العام للسودان كما هو معلوم.



صورة اللورد كتشنر الذي ثم تعينه حاكماً عاماً لشرق السودان في عام ١٨٨٦م وواجهه الأنصار في عدد من المعارك ومنها موقعة هندوب عام ١٨٨٨م، حيث أصيب بجرح غائر في فكه، وفي غضون ثمان سنوات بعد ذلك، قاد الغزو الإنجليزي ـ المصري للقضاء على المهدية خلال حملة إعادة إحتلال السودان ١٨٩٦ – ١٨٩٨م.

لقد أدرك كَنْتِيبَايْ حامد مبكرا أن أعداءه من الإنجليز والإيطاليين والأحباش لن يسكتوا على دعمه المفتوح للثورة المهدية، ولذلك بدأ يعد للأمر عدته ويستعد للمواجهة المحتومة «فاستقل عن كل الحكومات وأنشأ الجيوش والفيالق وأخذ أهبته للطواريء وجعل كل لواء من الرديف السوداني تحت إمرة ضباط ممن احيلوا للاستيداع بأرض الحَبَاب»[١].

ولما كان انتشار الثورة المهدية في شرق السودان يمثل شرأ مستطيرا بالنسبة للأحباش النصارى والإنجليز والطليان التوسعيين على السواء، فقد التقت مصلحة كل تلك الدول على محاربة المهديين ومن شايعهم من قبائل المنطقة، ولذلك اتفقوا على التنسيق فيما بينهم. ولتحقيق هذا الاتفاق قام الكولونيل ساليتا قائد الجيش الإيطالي ومعه كتيبة من الجنود المرتزقة المسلحين ببنادق رمنغتون في ٩/ ٥/ ١٨٨٥ باحتلال منطقة أمبا لقطع الطريق على الأمير عبدالقادر حسين الذي كان قد دخل في قتال مع جيش الرأس ألُولَا (Alula) في موقعة «صِرِحْ جِعِل»[٢] وانتصر عليهم، وطاردهم حتى بلغوا منطقة (جِذْجِذْ Gidgid)[٣]. ثم تقدم بقوات الأنصار حتى وصل منطقة شِعِب Shieb «ونادي بالجهاد المقدس في لَبْكَا ضد الكفار»[٤]. وفي ١٢/ ٥/ ١٨٨٥ نزل الرأس ألُولَا بقواته البالغة خمس ألآف مقاتل في السهل الممتد ما بين أمْبَا وكنْفَر، واشتبك مع قوات الأنصار بقيادة الأمير عبدالقادر حسين، والذي كانت قواته لا تزيد على ألف مقاتل جلهم من الحَبَاب. وبعد معركة ضارية

---

(١) «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٢) «جِعِل» بالجيم اليمانية.

(٣) «جِذْجِذْ» بالجيم اليمانية.

(٤) راجع ضرار، مرجع سابق ص ٤٤٠، وكذلك راجع التقرير رقم ٤٩٣ الموجه من نائب الحاكم العسكري لمصوع الى وزير الخارجية الإيطالي بتاريخ ١٤/ ٥/ ١٨٨٥م في كتاب وثائق الخارجية الإيطالية حول احتلال اريتريا، المجلد الثاني ١٨٨٣-١٨٨٥م، ترجمة ونشر قوات التحرير الشعبية، ١٩٧٨، ص ٣٢١.

وغير متكافئة تمكن الرأس أَلُولَا[١] من هزيمة الأنصار والحَبَاب خاصةً وتغنى المعسكرُ التابعُ للرأس أَلُولَا بهذا الانتصار، حيث أنشد أحد شعراء بني عامر قائلاً:

ألولا أمْعِلْ وادِنْتَتْ حَضْرَيَا	(يوم شهد الرأس ألُولَا معركة وازنتت - منطقة)
سَنْحيتْ تَصَّاغِرْ عَلتْ	(كان السنحيت - يقصد البلين - يومها يتفاخرون)
أنْسَا إجِلْ تِرْأيا	(ويبشرون ويعرضون لتراهم نساؤهم) [٢]
بيت أسجدي من فَوَقِّيَا كريا	(لكن ألولا جندَّل بيت أسْجَدَيْ من الأكتاف)
محاد عَدْ فيدا	(خور عَدْ فيزا - في أرض عَدْ تكْليس)
أورو فيتوراري قيسيا	(استطاع قائد واحد بمفرده الذهاب اليه)
سِجَادَتْ إليوس	(وتمكن من المرور بمضيق إليوس)
إبْ بُرُود فَقْرَيَا	(حيث اعتلاها بسهولة)
دربوش مثل طِرِمْبَتَا	(والدراويش (الأنصار) بمزمارهم - الطرمبة)

(١) الرأس أَلُولَا أبَّا نيقا Ras Alula Abba Nega هو أحد أبرز قواد إثيوبيا في العصر الحديث. ولد ألولا (ولد كيبي Weddi Quibi) كما كان يعرف محليا، في قرية ميناوي Menawee في مقاطعة تقراي بأثيوبيا في عام ١٨٤٧م. تمت ترقيته الى رتبة «رأس» أي نائب الملك بعد انتصاره على المصريين في معارك دارت في العام ١٨٧٥-١٨٧٦م. بعد ذلك أصبح الرأس أَلُولَا حاكما لشمال إثيوبيا باسم ملك أثيوبيا يوحنا الرابع Yohannes the IV وهيمن على مناطق النفوذ الاثيوبي التى امتدت الى شمال التقراي حيث كان مقره في أسمرا ومنها كان يشن حملاته على العثمانيين-المصريين الذين كانوا يسيطرون على السواحل الشرقية لأفريقيا وعاصر الرأس أَلُولَا توسع الثورة المهدية نحو إثيوبيا واحتلال الطليان لشرق أفريقيا مما اضطره لمحاربتهم. وكان الرأس أَلُولَا قبل ذلك يغير من وقت لآخر على قبائل البُجَة بما فيها الحَبَاب ويسلب بهائمهم ويقتل من استطاع من رجالهم وصبيانهم، والغريب أنه كان لا يتعرض للإناث أبدا ولذلك كان النساء يحاولن أيهام جيش ألولا بان الصبي (ان وجد أمام أعين جيش ألولا) ليس الا صبية مربوط حولها «الحقو» وهو خرز ملون يوضع عادة حول خصر الصبية الأنثى (وليس الصبي).

(٢) انضم البلين الى حلف الحباب وكنتيباي حامد بك لمناصرة المهدية وابلى زعيم البلين الشيخ «إبراهيم درماس» بلاءً حسناً في المعارك التى دارت بين الحباب والرأس أَلُولَا، وتماهي زعيم البلين المذكور في حب المهدية لدرجة أنه اطلق على إبنه اسم «عثمان دقنة»، وما زال سيف المجاهد الشيخ ابراهيم درماس محفوظاً في متحف الخليفة عبدالله التعايشي في أم درمان.

رأسا حَرْ بَلْسَيَا (دحرهم الى الوراء- قلب رأسهم على عقب).

وبعد انتصار ألولا على طلائع الأنصار في تلك المواقع المتقدمة، رأت الادارة الإنجليزية في سواكن أنْ تدعم الرأس أَلُولَا وتشجعه على محاربة (الدَّراويش) كما كانوا يسمونهم. لذلك فان الكولونيل شرمسايد Chermside (الحاكم الإنجليزي في سواكن) أرسل عن طريق ماركوبولي Marcopolo (نائب حاكم مصوع المعين من قبل مصر) في ٥/ ٨/ ١٨٨٥م (هدية) الى الرأس أَلُولَا مكونة من ألف بندقية وخمسين ألف دولار[١].

ولما كان الحَبَاب منذ فترةٍ في حرب ضروس مع الأحباش قبل قيام الثورة المهدية، حيث ذكرنا في موضع آخر أنَّ الرأس أَلُولَا نفسه قد غزا الحَبَاب في عهد كَنْتِيْبَايْ حسن وَدْ هِدَاد (والد كَنْتِيْبَايْ حامد)، واستاق كافة مواشيهم، فإننا نرى أنَّ الاستعماريين قد قرروا الاستفادة من هذه العداوة، ووجدوا ضالتهم في عداوة الرأس أَلُولَا للحباب، فجعلوا منه الأداة التي يحاربون بها الحَبَاب وأميرهم عبد القادر ود حسين في الساحل، والأمير مصطفى هدل ومعه مجموعة كبيرة من الحَبَاب (عَدْ تَكْلَيْس) في جبال هَجَر (بالجيم اليمانية). وقد كتب الرأس أَلُولَا الى الكولونيل شرمسايد رسالة بتاريخ ٢٦ أغسطس ١٨٨٥م يؤكد فيها أنَّ عملياته القادمة ضد الدراويش (الأنصار) ستبدأ بعد عيد القديس يوحنا، أي بعد ١٣ سبتمبر ١٨٨٥م[٢].

وفي تلك الاثناء كانت هنالك جبهة أخرى ساخنة، فقد أعد الأمير عثمان دقنة والأمير مصطفى هدل قوة كبيرة للقتال في حامية كوفيت (في أريتريا) الواقعة شرق

---

(١) انظر: ف. ر. ونجيت: المهدية والسودان المصرى (بالانجليزية)، طبع في لندن عام ١٨٩١، صفحة ٢٥٠.

(٢) «وثائق الخارجية الإيطالية»، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

كسلا، والتي سبق أنْ استولى عليها الأنصار. ولهذا صدرت الأوامر الى الرأس ألُولَا أنْ يترك الجبهة الشمالية لبعض الوقت ويتجه الى الجبهة الغربية، لوقف زحف الأنصار. وفعلاً تحرك الرأس ألُولَا بقواته قاصداً كوفيت، وعمد الى تجميع المال والعتاد للمعركة الفاصلة. وقد استفاد الرأس ألُولَا استفادة كبرى من مناصرة بني عامر[1] له ضد الأنصار الذين كانوا يعرفون بلفظ «القوم» لدى بني عامر، وهي لفظة تعادل في معناها لديهم لفظة «الكفار». فقد انضم اليه ناظر بنى عامر دقلل «موسى» مُحَمَّد (الفيل) الذي خلف في الحكم أخاه دقلل عَلِيّ بكيت (عَلِيّ بخيت) الذي قتل بيد الأنصار في ديسمبر ١٨٨٤م. وبانضمام بنى عامر أصبح جيش الرأس ألُولَا مكوناً من عشرة آلاف مقاتل تقريباً. وقد كتب الأمير مصطفى هدل رسالة بتاريخ ٢٩/ ٨/ ١٨٨٥، موجهة الى «ملك الوثنيين وشيطانه الرأس ألُولَا وموسى مُحَمَّد ناظر البنى عامر... الخ «دعاهم فيها الى لقائه وهددهم بالدَّمار إذا لم يستجيبوا لدعوته. وكان في معية مصطفى هدل عدد كبير من قبائل الحَبَاب، وخاصةً من عَدْ تَكْلِيْس حيث كان معسكره في جبل هَجَر. وفي عصر يوم ٢٢/ ٩/ ١٨٨٥م وصل ألُولَا الى كوفيت فوجدها محتلة من قبل الأنصار. وفي صباح ٢٤/ ٩/ ١٨٨٥ وقعت المعركة الفاصلة التي أوقفت تقدم المهدية في أرض بنى عامر.

هذا وقد قاتل الرأس ألُولَا قتال الأبطال حتى قتل حصانه فترجل عنه وقاتل

---

(١) وقف بنو عامر ومنذ البداية ضد الثورة المهدية وذلك باستثناء القليل من الأسر القاطنة في منطقة جنوب توكر، أما الحَبَاب فقد انخرطوا بكافة قبائلهم ومنذا البداية في الثورة المهدية. وتلخيصا لهذا الوضع يقول الدكتور جوناثان ميران Jonathan Miran (استاذ مادة التاريخ في جامعة ولاية ميتشجان) في الصفحة ١٩٣ من بحث له باللُّغة الانجليزية منشور في الانترنت بعنوان:

«A Historical Overview of Islam in Eritrea»:
«In general, the Bani Amer maintained an anti-Mahdist position throughout the period, while segments of the Habab and the ‘Ad Tamaryam strongly supported the Mahdist cause and cooperated with Uthman Diqna’s envoys in the region».

حتى انتصر. وقد لعب فرسان السبدرات وعلى رأسهم الفارس «على نورين» وفرسان ألقدين وباقي فرسان بني عامر، ولا سيّما الفارس «أكد»، دورا حاسماً في هزيمة جيش الأمير الذي قتل منه ما يُقَدَّر بخمسة آلاف شهيد بينهم عدد كبير من أمراء المهدية في شرق السودان. وفي هذا الصدد أنشد دقلل موسى هُمَّد قصيدةً (بالبِدَاوِيْتْ) تغنى فيها كثيرًا بهذا النصر الحاسم على عثمان دقنة ومناصريه[1]، ويذكر فيها إنَّه في هذه المعركة ثأر من الجانبين (الحبش والأنصار) لدم إخوانه، لكون الأنصار كانوا قد قتلوا دقلل عَلِيّ بخيت، بينما سبق للحبش أنْ قتلوا دقلل حامد. كذلك يسخر في القصيدة من انهزام جيش الأنصار، وأورد في ذلك سجالاً شعرياً جميلاً تمثّله على لسان أحد الأنصار الفارين من المعركة يخاطب إمرأة في سنكات تسمى آمنة بِلَيْ Amna Bilai.

إنَّ معركة كوفيت كانت كارثة على الأنصار ومن شايعهم، وكان الحَبَاب أول هدف للمنتصرين. فبالرغم من أنَّ الإنجليز كانوا يتوقعون من الرأس ألُولَا الزحف الى كسلا لإحتلالها بعد نصره الحاسم في كوفيت إلاَّ أنَّ الرأس ألُولَا كان يريد الانتقام من الحَبَاب الذين لم يستجيبوا لدعوته في مقاتلة المهديين في كوفيت. فقد وجه الدعوة لكَنْتَيْبَايْ حامد للاشتراك معه في مقاتلة «الأنصار» في كوفيت ولكن كَنْتَيْبَايْ حامد رفض تلبية هذا الطلب، فقرر الرأس ألُولَا، بعد انتصاره في كوفيت، عدم المضي قدماً الى كسلا كما كان متوقعاً، وإنّما اتجه شمالاً لمعاقبة الحباب بجيش عرمرمٍ غير منهزمٍ. بَيْدَ أنَّ كَنْتَيْبَايْ حامد كان قد تحوط لهذا الخطر الداهم، ولعب بذكاء في ساحة تناقضات المحتلين واستعد لمواجهة الغزو المتوقعَ من عدوه اللّدود «الرأس ألُولَا»، والذي كان يعيش زهوة الانتصار بعد دحره للأنصار في موقعة

---

(١) يقول أنطوني دوأفري في كتابه «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق، صفحة ١١٢، إن الرأس ألُولَا قد وجه الدعوة للحباب للانضمام اليه في تلك المعركة كما فعل بنو عامر، ولكن كَنْتَيْبَايْ حامد رفض هذا الطلب بالرغم من خلافه مع عثمان دقنة في تلك الفترة، وهذا ما أغضب الرأس ألُولَا كثيرا مما جعله يتوجه مباشرة بجيشه لغزو الحَبَاب بعد انتصاره في تلك المعركة.

كوفيت. لذلك قرر كَنْتَيْبَايْ حامد على وجه السرعة مقابلة الحاكم الإيطالي في مصوع (والذي كان يغازله فيما سبق) وتم له ذلك في ٧ إكتوبر ١٨٨٥م. وفي ٩ إكتوبر ١٨٨٥ م وقع كَنْتَيْبَايْ حامد المعاهدة الأولى مع الإيطاليين والتى التزم فيها بحماية قوافل التجارة عبر السَّاحِل. وبهذا - وفي مدة تقل عن شهر بعد موقعة كوفيت - تمكن كَنْتَيْبَايْ حامد من تحييد الإيطاليين مؤقتاً، وتفادى مقتلة كبرى كان الرأس أَلُولَا يريد التخطيط لها مع الإيطاليين.

في تلك المرحلة كانت علاقة كَنْتَيْبَايْ حامد قد ساءت مع الأمير عثمان دقنة، وازداد الأمر سوءاً بوصول خبر موت محمد بن كَنْتَيْبَايْ حامد (في تاماي) حيث ظن كَنْتَيْبَايْ أنَّ عثمان دقنة قد انتقم منه بقتل ابنه محمد، ولذلك قرر كَنْتَيْبَايْ حامد أخذ الثأر لإبنه فزحف من رحيب الى جبال هجر حيث معسكر مصطفى هدل، ولكن مصطفى هدل وبعد التشاور مع أهالى المعسكر (وكان فيهم عدد كبير من عد تَكْلَيْس ـ فرع من الحَبَاب) قرر الرحيل من المنطقة قبل وصول كَنْتَيْبَايْ بجيوشه، وبذلك كبت الله الفتنة بين الحَبَاب والأنصار، ولم تقع المعركة الرهيبة، بل رجع كَنْتَيْبَايْ حامد الى مقره في رحيب جوار مرسى تَكْلايْ، وجلس يتقبل العزاء في إبنه من كافة قبائل البُجَة. لكن أعداء كَنْتَيْبَايْ حامد كانوا دوماً يخططون لاضعافه كهدف استراتيجي لهم، ولهذا نجد أنَّ الرأس أَلُولَا (وحلفاءه من بني عامر) قد وصل بجيوشه الجرارة في أواخر عام ١٨٨٥م الى نقفا فاحتلها وكان معه زعيم بني عامر دقلل هُمَّد (نفس الجيش الذي هزم الأنصار في موقعة كوفيت). وبالطبع لم يجدوا في نقفا أحداً حيث إنَّ الحَبَاب كما ذكرنا كانوا معسكرين في رحيب (جوار مرسى تَكْلايْ)، بينما ظل عَدْ تَكْلَيْس في معسكر الأمير مصطفى هدل في جبال هجر ومعهم شيخهم الأمين وَدْ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ (جد ابراهيم محمود وزير الداخلية السوداني الحالي ٢٠١٢م) وكان عَدْ تَكْلَيْس قد انتظموا في دفع زكاة أموالهم الى الأمير مصطفى هدل والذي كان يرسلها الى الأمير عثمان دقنة في سلحات (تاماي).

من هو كَنْتيبَاي حامد؟

يعتبر كَنْتَيْبَايْ حامد من أعظم الشخصيات التى حكمت الحَبَاب، وامتد حكمه من عام ١٨٧٥م وحتى ألقي القبض عليه في عام ١٨٩٠م، وهو زعيم ثوري بطبعه ووطني غيور لم يرض بالخضوع للمستعمرين، ولهذا دفع الثمن غاليا، وهو باختصار كما وصفه أعداؤه الإيطاليّون في الصورة الفوتغرافية الموجودة في الإرشيف الإيطالي «أحد زعماء الحَبَاب وشرق أفريقيا المتفردين Africa Orientale Un Capo Supremo Degli Habab».

اسمه بالكامل هو حامد وَدْ حسن[(١)] وَدْ هِدَاد[(٢)] وَدْ فِكَاك[(٣)] وَدْ ناود[(٤)] وَدْ إزاز[(٥)] وَدْ فِكَاك[(٦)] وَدْ هِبْتِيس[(٧)] وَدْ مَفْلَس[(٨)]. وأم كَنْتَيْبَايْ حامد هي (لا اعرف اسمها) إحدى بنات فِكَاك وَدْ عَلِيّ وَدْ حامد شلع وَدْ بَارْيَايْ، من قبيلة أسْفَدَا، بيت حجير (القصير)، وأمّا جدّته أمّ أبيه فهي أمَةُ مَارْيَامْ[(٩)] بنت جِمِع وَدْ جَلايْدُوس (عد تَكْلِيْس)، وأشقاؤه من أمه وأبيه هم: هِدَاد وهُمَّد وبَيَضْ (أبيض) ومحمد، وله إخوة آخرون من أبيه هم: فِكَاك وأكد وعثمان وعبدالله.

---

(١) أمه من عَدْ تَكْلِيس أمة ماريام بنت جمع ود جَلايْدُوس.

(٢) أمه من أسْفَدَا بنت علي ود داين.

(٣) أمه من أسْفَدَا بنت موسي.

(٤) أمه من أسْفَدَا بنت حاداي.

(٥) أمه من بقل لهب بنت اشحق (اسحاق).

(٦) أمه بنت اللأبعاي.

(٧) أمه من البلو وهي ست الموك بنت علي البلوي المشهورة بلقب بلويت أم جَبْرِيس.

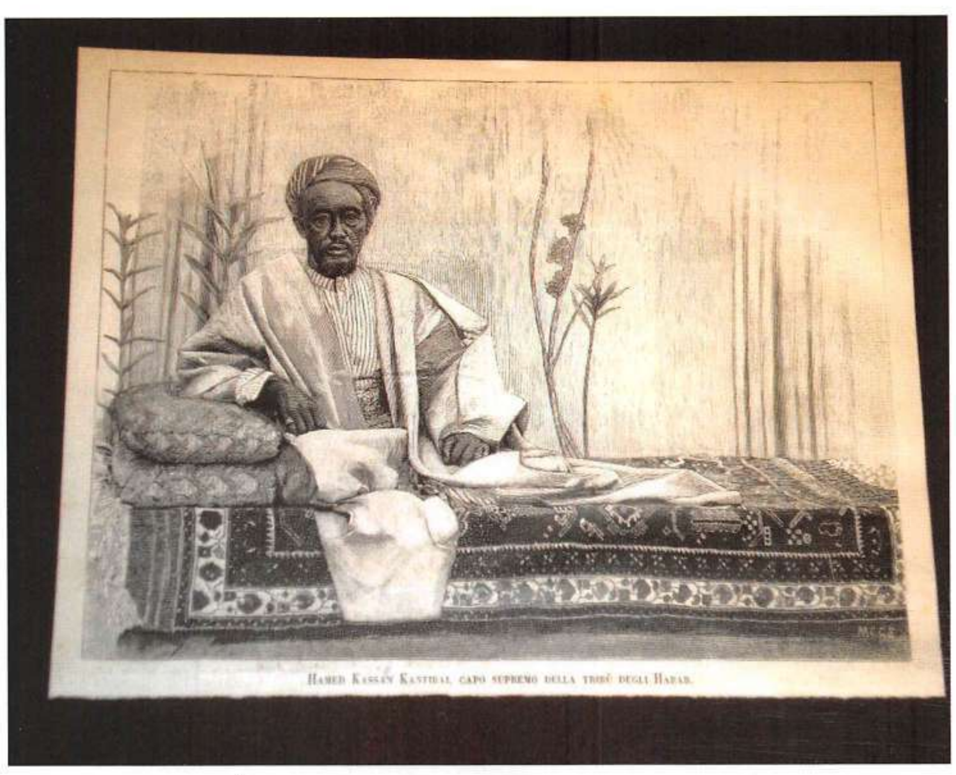
(٨) أمه من الباريا وهي زابدت وَلَتْ هريش وَدْ كرتوت وقيل إنَّ أمه من بيت بكرو.

(٩) إبنها البكر هو إزَازْ ود هِدَاد ثم يليه حسن (والد كَنْتَيْبَايْ حامد) ثم حسين.



صورة كَنْتَيْبَايْ حامد بك وَدْ حسن وهو بكامل لباسه السلطاني. وحسبما رُوي لنا فإنَّ هذه الصورة أخذت له في نهاية عام ١٨٩٤، أي قبيل موته بقليل، ولكن وجدنا نسخة أخرى (على يبدو مرسومة يدوياً) من هذه الصورة تعرض في الإنترنت ويرافقها شرح بالايطالية يفيد بأنها صورة لكَنْتَيْبَايْ حامد حسن (كتبت "كسن"!!) في عام ١٨٨٧م، حيث كتب بجانبها: الزعيم الأعلى لقبائل الحباب في إفريقيا:

«Hamed Kassan Kantibai nel 1887 Capo supremo della tribù degli Habab d'Africa».



رسمة بخط اليد على ما يبدو منسوخة من الصورة الأصلية.

وإذا افترضنا أن كَنْتِيْبَايْ حامد عندما تولى رئاسة الحباب في عام ١٨٧٥م كان عمره ما بين خمسة وعشرين الى ثلاثين سنة حسبما يُرْوي، فإنّنا يمكن أن نقول إنّ كَنْتِيْبَايْ حامد قد ولد تقريبا في الفترة بين عام ١٨٤٥ وعام ١٨٥٠م، وتوفي (في سنة ١٨٩٤) وبالتالي لم يكمل عامه الخمسين على الأرجح، وهكذا هو عمر الأبطال دائماً قصير. قال المتنبي:

أَرَى كُلَّنَا يَبْغي الحَيَـاةَ لنَفْسِهِ حَريصاً عَلَيها مُسْتَهاماً بِـها صَبّا
فحُبُّ الجَبَانِ النّفْسَ أوْرَدَهُ البَقَا وَحُبُّ الشّجاعِ الحرْبَ أوْرَدهُ الحرْبَا

وقال السموأل:

يُقَـرِّبُ حُبُّ المَوتِ آجـالَنا لَنا وَتَكـرَهُـهُ آجـالُهُـم فَتَـطولُ
وَما مـاتَ مِـنّا سَيِّدٌ حَتفَ أَنفِهِ وَلا طُلَّ مِـنّا حَيثُ كـانَ قَتيـلُ

يقال عن كَنْتَيْبَايْ حامد إنه كان نبيها وحازماً منذ صغره، وكان يقال إِنَّه اشبه النَّاس في خصاله بجده الكبير أَسْجَدَيْ. أصيب حامد في صغره بمرض شديد، ولم يكن هنالك بالطبع مستشفيات أو أطباء. كان والده (حسن) رجلاً مسالماً وورعاً، وكان يواجه مشاكل متعددة، حيث حدث في عهده أنْ اعتدى الرأس أُلُولَا بجيوشه على قبائل البُجَة وسلب أموالهم وبهائمهم. وفي عهده بدأت هجرة الرشايدة الى المنطقة (خلال الفترة من عام ١٨٦٧م وحتى عام ١٨٧١م) ودخل الحباب معهم في حرب دموية، بالاضافة الى الضغوط التى كانت تأتي من مندوب الدولة العثمانية في مصوع النائب محمد، وكذلك التي كانت تأتي من منافسي الحَبَاب التقليديين «النابتاب» في بركا والقاش. وكان كَنْتَيْبَايْ حسن يحب ابنه حامد أكثر من غيره، وكان يأمل منه كثيرًا في أنْ يقوّي شوكته لما عرف عنه من نجابة رغم صغر سنه.

ولذلك عندما اشتد به المرض طلب ممن يعتقد في صلاحهم الانقطاع في خلوة للدعاء لحامد طلباً للشفاء وبفضل الله تعالى، ودعاء الصالحين شُفِيَ حامد وأصبح يعين أباه في الحكم حتى بلغ سن الخامسة والعشرين. في تلك المرحلة كان والده كَنْتَيْبَايْ حسن يورّد عشور البهائهم (الطلبة) الى مسؤول الدولة العثمانية في سواكن، ويبدو إنَّ النائب محمد وَدْ عامر، الذي كان آنذاك يمثل سلطة الدولة العثمانية في مصوع، طمع في اخضاع الحَبَاب لسلطته، ولذلك طلب من كَنْتَيْبَايْ حسن ألاّ يقوم بتوريد طلبة الحَبَاب الى سواكن، وإنّما يتم احضارها اليه في مصوع، ليقوم هو بتوريدها الى الدولة العثمانية. يقال إنَّ كَنْتَيْبَايْ حسن (والد حامد) كان شخصا ورعاً ومسالماً، ولذلك لم يشأ أنْ يدخل في نزاع مع النائب العثماني في مصوع، ويبدو أنّه ارسل بعض الهدايا الى النائب[1].

(١) حسبما نقل عن منزنجر في الصفحة ٧٩ من كتاب «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق، فإن الحَبَاب كانوا يدفعون الضريبة (الطلبة) الى سلطنة الفونج في سنَّار وفيما بعد أدوها، وفي شكل هدية فقط، الى النائب في مقره في قرية دخنو (حرقيقو) الواقعة على بعد كيلومترات قليلة جنوب مصوع.

بَيْدَ أنَّ إبنه حامد كان يحرّض أباه على عدم الاستجابة لطلب توريد الضريبة الى النائب، حيث كان يعتقد أنَّ توريد الطلبة عن طريق مصوع يعنى الخضوع لسلطة النائب، وهو أمرٌ لا يقبله الحَبَابُ، ولهذا أرسل حامد رداً الى النائب يتوعده فيه بالانتقام، وهذا ما تمّ بالفعل لاحقاً. ومنذ تلك السِّن المبكرة أصبح حامد وَدْ حسن الحاكم الفعلي للحباب وإنْ احتفظ والده بالصفة الرسمية (كَنْتِيبَايْ).

يقال إنَّ كنتيباي حامد قد حاول في بداية أمره نزع منصب "كنتيباي" من والده لعدم رضاه بسلوكه المهادن لبعض الخصوم، ولا يخلو الأمر من تحريض له من بعض الأشخاص النافذين للقيام بذلك. فقد انقسم الحباب الى فريقين فريق مؤيد للشاب الثائر حامد وفريق مساند لوالده كنتيباي حسن. قال الشيخ/ محمود علي سعد، عمدة عَدْ عَاليَايْ وَدْ فِكَاكْ، إن كنتيباي جسن عندما شعر بتحركات فريق ابنه استنجد بعد عالياي ود فكاك لما عرف عنهم من قوة الشكيمة فقام بإرسال مندوب الى عَدْ عَاليَايْ في مقرهم الذي كان في منطقة "دنو" للحضور اليه ومساندته. فجاء وفد عَدْ عَاليَايْ وَدْ فِكَاكْ في نفر يبلغ زهاء العشرين فارساً وهم على استعداد لمنازلة فريق الشاب حامد. لقد كان حضورهم عند المساء فالتقوا بكنتيباي حسن واطأنوا على أحواله وعلى وجود النقارة معه. بعد ذلك طلب أحد فرسان عَدْ عَاليَايْ المشهورين واسمه "محمد إدريس حمراناي" ضرب النقارة ليلاً وحلف بأمه، كعادة أهل البادية، قائلاً: "أمّي وَلَتْ تَاجِر لالِي إي ضَبَّطَتْ مِنْ جَبِّئ إكِّيتْ كُلُّو لَرِئيَا وسَمَّعَا إجِلْ إيدي !!" وتفسير ذلك إنني أقسم بأمي "بنت تاجر" إذا لم تضرب النقارة في هذا الليل سأقوم بفعل أمرٍ سيئٍ يراه الكل ويسمع به. واستجابةً لقَسَمِهِ هذا ضُرِبَتْ النقارة ليلاً على غير العادة. يقال إنَّ الشاب الثائر حامد عندما سمع صوت النقارة فهم أنَّ هذا يعني إعلاناً للحرب وقال إن هولاء لابد إنَّهم أبناء عَاليَايْ وَدْ فِكَاكْ، فلا أحدٌ غيرهم يستطيع القيام بهذا العمل. أخذ

«The Habab paid formerly tribute to the Fung of Sennar ... In their place stepped later the Naib of Dokono, but the only tribute of the late is a gift».

حامد ود حسن سيفه وركب فرسه وجاء الى موقع ضرب النقارة، ومعه مجموعة من الفرسان المناصرين له، يريدون منازلة خصومهم. وقبل بدء المعركة الرهيبة بين الإخوة الأعداء تدخل أحد شيوخ عَدْ نَافْعُوتَايْ بين الطرفين، وكان هذا الشيخ يحظى بالتقدير والإحترام من كل الأطراف. واستجابةً لمساعيه الحميدة قبل حامد ود حسن بالصلح ونزل من فرسه. وقبل عَدْ عَاليَايْ وَدْ فِكَاكْ بالصلح بشرط أن يظل منصب كنتيباي لوالده كَنْتِيْبَايْ حسن وَدْ هِدَاد، وتم عمل تعاهد (جَلَد ـ بالجيم اليمانية) بذلك، وكفى الله المؤمنين القتال، ورجع عَدْ عَاليَايْ وَدْ فِكَاكْ الى ديارهم سالمين ومرفوعي الرأس.

ثم بعد ذلك مات كَنْتِيْبَايْ حسن وانتقل الحكم وراثةً الى ابنه حامد الذي أصبح رسمياً كَنْتِيْبَايْ الحبَاب تقريبا في عام ١٨٧٥-١٨٧٦م[١]. يقال إنَّ أول ما بدأ به بعد تولي السلطة معاقبة القبائل التى كانت تستغل سماحة والده في اضعاف الحبَاب، ولهذا فإن أول عمل قام به مصادرة كافة البهائم الموجودة لدى القبائل التى بجواره، وذلك لأنَّ الرأس ألُولَا كان قد استولى فيما سبق على بهائم الحبَاب، ولهذا كان النَّاس في ضيق وربّما كانت هنالك مشاحنات بين الحبَاب والقبائل المجاورة لعدم نصرتهم لهم اثناء تصديهم للرأس ألُولَا، ولهذا ربما اراد حامد الانتقام من جهة وتعويض الحبَاب من جهة أخرى. وبعد الاستيلاء على البهائم جمع كل أفرع الحبَاب وطلب منهم أنْ يأخذ كل فرع عدداً من البهائم مساوياً للعدد الذي فقده في غزوة الأحباش لهم.

بعد ذلك جهز كَنْتِيْبَايْ حامد فرسانه واتجه بهم صوب النابتاب في بركا (بركة)، واستخدم شيئاً من الترهيب هنالك، وله واقعة طريفة مع دقلل عَلِيّ بخيت وخادمه يشير اليها الشاعر وَدْ عِوَال في قصيدة مشهورة سنقدم بعضاً منها لاحقاً. ثم اتجه الى مصوع حيث اشتبك مع النائب محمد وأولاده ونال منهم مبتغاه. بعد ذلك رجع

(١) راجع أنطوني دو أوفري «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق، ص ٩٨.

كَنْتِيْبَايْ حامد واستقر في سواكن وجمع كل فروع الحَبَاب وأخبرهم بنيّته في تكوين دولة في السَّاحِل الممتد من سواكن الى مصوع وقدم للعربان وعداً برفع المظالم. هنا استجاب له البعض وسانده في دعوته جزءٌ مقدّر من الحَبَاب، ولكن الغالبية من بيت أسْجَدَيْ رفضت فكرة تحرير العربان، وكان هذا الفريق يضم جزءاً كبيراً ونافذاً من أقارب كَنْتِيْبَايْ حامد نفسه، لا سيّما أخويه الفارسين الخطيرين هِدَاد وهُمَّد وبعض مشايخ بيت أسْجَدَيْ، حيث وقفوا بشدّة ضد توجهات كَنْتِيْبَايْ حامد، وأصبح أخوه هِدَاد يقود المعارضة ويكيد لإخيه حامد مع الآخرين، وكان كل همهم هو عدم المساس بالوضع الطبقي الذي كان سائدا في تلك الفترة، وليت ذلك الفريق أطاع حامد بك فإنَّ حال المنطقة كان حتماً سيختلف عمّا هو عليه الآن، ولكن بتعصبهم وضيق أفقهم قتلوا حامد بك وأحلامه وطموحاته كما سيتضح لنا فيما بعد. وفي إشارة للمؤامرات التى كان يجدها كَنْتِيْبَايْ حامد من أقربائه قال الشاعر الفحل وَدْ جِمْرِيتْ[1] - بالجيم اليمانية (Wad Gimreet) - وهو يمدح كَنْتِيْبَايْ حَامِدْ بِكْ وَدْ حَسَنْ:

سَارْجَانَاتْ مَرْحَبَا بَدِيرْ لأكُوزْ مِنْ لعَلَّبْ	(مرحباً بالفارس إذا يثأر لما مضى)
إبْ رَأسْ دَنُّـو وَدَقْ أرِضْ مجَـابِـبْ	(يجوب الوادي من أوله)
إتْ لأمُرُّو كَيْدَيُو لأكُوزْ إنْدَيْ لأتْقَارِبْ	(يمضي وهو مدرك لهدفه)
سَارْجَانَاتْ مَرْحَبَا بَدِيرْ لأكُوزْ مِنْ دَجُّمْ	(مرحباً بالفارس إذا ذكرت الحوادث)
شَلْجَتْ شِطِيطَانو فَتَّا مِيُـو كَلْحَتَّمْ	(هو مثل شَلْجَتْ شِطِيطَا لا ترحم)
دَرْبَتْ ظَلَايِمْ لَمحَازَاتْ بَيِ إتَّـعَجَّـمْ	(هو مياه الامطار التى تسلك الخيران)
بَـارُود لا إنجليز دِيْبَّـا سَلْفَـا مِنْ قَـدَّمْ؟	(من غيرك وقف أمام بارود الانجليز؟)
سَارْجَانَاتْ مَرْحَبَا شُومْ لَشَيَمْ لَعَبَادِلْ	(مرحباً بالفارس زعيمٌ يعزل الزعماء)
هدندوا نَـدُّوكَ شَـاتَـا أسِـكْ سواكـن	(تنتدب مرة للهدندوا من شاتا لسواكن)
وهَوَاشِيرِي نَدُّوكَ سَبُؤْ صُنُعْ وحَاطِر	(ومرة لهَوَاشِيرِي وأهلها الأشراف الشجعان)
رُوشَانَّا باشَّوَاتْ دِيبْ بَا رَأسُو عَسَاكِرْ	(مباني الباشوات فوقها العساكر - الحرس)

(١) بعضهم يكتب الاسم "وَدْ قِمْرِيتْ" بالقاف وهذا خطأ.

مَغْلُو غالُو وَسِجَا طِينَاتَاتُو سَرَايِرْ	(اللحم يملأ القدور فتشمه الطيور من بعيد)
سَارْجَانَاتْ مَرْحَبَا أَبَ بشِيرْ سَلَامْ عَلَيكَا	(الفارس أبو بشير (كنايته) سلامٌ عليك)
كم حَمَدْ المَهْدِي ظانْحَتْ لاتَا إيِّكَا	(مثل محمد أحد المهدي هم كثير أعداؤك)
إسَاتْ قَابِلْ إيْ تفتَّي من إيتْحَي حَتَيْكَا	(لا تقبل منافسا إلاَّ أن يخضع لك)
كِمْ مَنْصُورْ وَدْ عَلِي عداجَاتَاتْ وَسَيْفَا	(مثل منصور وَدْ عَلِي تجهز كل المؤونة)
بَعَلْ مَنْصُورَة هَدَارِيتْ مِنْ أَبعِبُو نَايُوتَا	(صاحب منصورة تهدر ورثها من جدوده)
مَصِرْ جَمْعَتُّو وتُوْكَرْ أتي حِسْمرُوقَا	(اجتمع بالمصريين ودخل خور توكر الهائج)
حُو زَيْن فازقا عَدَوَا أتّى نُجُوسَا	(هو أخو الزِّين وهو الذي قهر ملك عدوا)
بَيتْ أسْجَدَيْ لَتقَامَرْ خَاينَا ولَطْرُوقَا	(يتحدى من يخونه من بيت أسْجَدَيْ)
تُرُكْ قَيْحِيتْ لَتَقَامَرْ قَلْعَتْ حَيٌّ فَانُوسَا	(ويتحدى التّرك الحُمْر وقلعتهم المنير فانوسها)
حَبَشْ ظَلاَمْ لَتَقَامَرْ جَالَّا قُوجَام نُجُوسَا	(يتحدى ملك الحبش السُّود الجالّا والقوجام)
سَارْجَانَاتْ مَرْحَبَا بَشِيرْ إجِلْ نِفَاخِرْ	(مرحبا أب بشير (كنايته) الذي وبه نفاخر)
مَرْحَبَا عُمُومْ وبَاشَّا مَرْحَبَا قاضِي وتَاجِرْ	(مرحبا بالباشا عموم وبالقاضي والتاجر)
أضْحَى قَمَنّي تُو عقْبَا نَازِعْ ونَاقِلْ	(هو في النهار وحش يقتلع شجر الـ "عَقْبَا")
وَلَالِي قِرَاشَاتُّو هِمْ جَابِي مِنْعَاقِرْ	(وفي الليل مثل النمر)
لاتكْرِيُو اْلبُو سَحْتَامَا لجَأَ وَحاطِرْ	(من تجاسر عليك لا أحد يجيره وإن كان شجاعاً)
أَدَّامْ كِلْيتَا حَمْدَيْهُو ظَجّايْ جَبِي وحاطِرْ	(الشخص يحمد لصفتين: الكرم والشجاعة)
وَإنْتَ بِذْحِتْ تَا حَمْدَيْكَا دِيكَا أدَّامْ إي نَعَادِلْ	(وأما أنت فتحمد لكثير ولا نعادل بك الناس)
حَمْدَيْكَاما إب فَرْهَتْ لاَجُولْ إنْدَيْ تأتباطِرْ	(ومنهم من يحمك خوفا على اجله).

مهما يكن من أمر فإنَّ كَتَيْبَايْ حامد بدأ في التخطيط لهدفه، فاتصل بكل الأطراف الفاعلة في ذلك الوقت، وفي ذهنه تكوين دولة في منطقة السَّاحِل. ولسوء حظِّ كَتَيْبَايْ حامد والحَبَاب، أو قُلْ المنطقة بأسرها، ظهر في الساحة لاعبون جدد حيث بدأ الاستعماريّون التنافس فيما بينهم لإحتلال أفريقيا، وبالمقابل صدع الإمام المهدي بثورته ضد التُرك في سواكن وباقي مدن السودان، وهكذا بدأت موازين القوى تتغير، خاصةً عقب دخول الإنجليز مباشرةً في الخط بعد معركة ترنكتات

التي وقعت في ٤ فبراير ١٨٨٤، واحتلال الإيطاليين لمصوع في ٥ فبراير ١٨٨٥م، وإنهاء سلطة الخديوي فيها بالتواطؤ مع الإنجليز. وهكذا فجأةً أصبحت المنطقة كلها في حالة غليان تتصارع فيها الأفيال، كلٌّ له وجهةٌ هو مُوَلِّيهَا، وأجندةٌ خاصةً يسعى لتحقيقها بكل الوسائل، حيث نجد الإمبراطور يوحنا ـ ملك الحبشة ـ يعمل (عن طريق وكيله في حماسين الرأس أَلُولَا) على طرد الإيطاليين[1]، وبنفس القدر كان الملك يوحنا (ووكيله الرأس أَلُولَا) يريد محاربة الدراويش ومن وقف معهم، لينفرد بحكم المنطقة.

وإيطاليا كانت تريد التوسع في المنطقة لمجابهة نفوذ رصفائها من الدول الاوروبية (خاصةً فرنسا وبريطانيا). والبريطانيّون كانوا يريدون إخماد الثورة المهدية من جهة، ومن جهة أخرى، التوسع شرقاً لحرمان الفرنسيين من بسط نفوذهم انطلاقا من الصومال الفرنسي، حتى لو دعا الأمر الى غض النظر عن طموحات إيطاليا، أو ربّما مساعدتها طالما كان الأمر على حساب الفرنسيين!!. في هذا المحيط التآمري، وهذا التسابق المحموم بين الغزاة وتربص الأعداء وكيد الإخوة وبني العمومة، حاول كَنْتِيْبَايْ حامد العمل جاهداً لبناء دولة في منطقة السَّاحِل، ولأجل هذا الغرض اتصل ـ كما سنرى ـ بكافة الأطراف الفاعلة في ذلك الوقت. بعد أنْ ارتحل كَنْتِيْبَايْ حامد من سواكن، اتخذ مرسى تَكْلايْ (رارات) مقراً له، وقام في

(١) في هذا الصدد ورد ما يلي في كتاب:

«Appletons' Annual Cyclopaedia and Register of Important Events of the Year: 1876-95». New Series, Vol. xxvii:
«The Abyssinians did not desire to possess Massowah, not being able to hold so distant a post, and were willing that it should remain in the possession of Great Britain, but grew jealous when it was handed over to the Italians, whom they immediately suspected of aggressive designs on their territory. Their suspicions increased when the Italians established friendly relations with the Habab tribe, which was in rebellion against the Abyssinians, and when they occupied places in the surrounding country for the troops that had been in dispute between the Abyssinians and Egyptians, but which the latter had never gone so far as to take possession of».

البدء بالاتفاق سراً مع أحد التجار الحضارمة في مصوع يدعى «باطوق»، بحيث يقوم ذلك التاجر بشحن أسلحة وزخائر من مصوع والحجاز وغيرها الى كَنْتَيْبَايْ حامد في مرسى تَكْلايْ، ومقابل ذلك يوفر له الحَبَابُ كل ملتزمات تجارة «باطوق» الى اليمن والحجاز، ومنها الجلود والحبال والسمن والعسل وغير ذلك من المنتجات المحلية.

وبالرغم من أنَّ الإنجليز والطليان والأحباش قد اجتمعوا على محاربة المهديين ومن وقف معهم، إلاَّ أنَّ التنافس بينهم على احتلال الأراضي وبسط النفوذ كان قوياً. ولهذا كانوا ينسجون خيوط التآمر فيما بينهم ليلاً وإنْ تصافحوا نهاراً. فقد كان كل واحد منهم يتوجس خيفةً من حليفه ويتربص به الدَّوائر. وقد حاول كَنْتَيْبَايْ حامد استغلال هذه التناقضات بذكاء[1]. فالتقى في البدء بالرأس أَلُولَا واقنعه بالتعاون معاً (سراً) لطرد الغزاة الجدد للمنطقة (الإيطاليين) وعلى هذا الأساس هادنه وأمن شره لبعض الوقت. ثم ذهب الى مصوع واقنع الإيطاليين بأنه مستعد لاخضاع كافة القبائل لسلطتهم بشرط أن يزودوه بالسلاح حيث قال لهم إنّكم حديثوا عهد بالمنطقة، ولا تعرفون طبيعة السكان وكيفية اخضاع تلك القبائل البدوية لسلطة الدولة، ولكنني قادر على ذلك. ثم اتصل بالمصريين وحاول كسب ودّهم. وفي هذا الشأن يشير ستانلي لين بول (Stanley Lane-Poole)، في كتابه عن واطسون باشا (شارلس مور واطسون)، الى بعض مواقف الحَبَاب أثناء الثورة المهدية فيقول: إنَّ زعيم الحَبَاب وأخاه قد افصحوا كتابةً عن قيامهم بجمع المقاتلين بالقرب من مرسى تَكْلايْ لمحاربة الثوار وأنَّ كَنْتَيْبَايْ حامد، الذي كان يغازل الإيطاليين في مصوع، قد اعرب عن ولائه للحكومة المصرية (التي كانت ما تزال محتفظة بالسلطة - اسمياً - في سواكن، وإنْ فقدتها في مصوع):

«The head Sheikh of the Habab tribe and his brother wrote to say that they were collecting a force near Teklai, and intended to fight

---

(١) انظر صفحة ٤٥ وما بعدها من كتاب «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين»، مرجع سابق.

the rebels. Hamad Kantabai, who had been coquetting with the Italians at Massowah, wrote to express his devotion to the Egyptian Government»[1].

وفعلاً انطلت الحيلة، ولو مؤقتاً، على الإيطاليين (الذين غازلهم كَنْتَيْبَايْ حامد كما تقول الفقرة السابقة)، فأمدُّوه بالسلاح الذي ذهب جزءاً منه لمحمد عثمان أبي قرجة، والجزء الآخر تم اخفاؤه في غابة تسمى مَقَيْدَدِي Maqaidaday، تقع بين «وَدْ جان» و«ألقينا – أَلْجِنَا – بالجيم اليمانية» وليس بعيداً عن مرسى تَكْلايْ. ورويداً رويداً جمع كَنْتَيْبَايْ حامد في هذه الغابة كميات كبيرة من الأسلحة التي كان جزءاً منها يأتي عبر البحر نتيجة لاتفاق كَنْتَيْبَايْ حامد مع التاجر اليمني باطوق. ثم ذهب كَنْتَيْبَايْ حامد الى مصر[٢] (واعرب عن ولائه للحكومة المصرية ونال البكوية)، ولكن هدفه كان مختلفاً حيث احضر معه من مصر ثلاثة ضُبَّاط مهرة لهم خبرة في تدريب الجيوش، يدعى أولهم «فَرَج بُرُوجِي» وثانيهم «مُرْجَان» وثالثهم «سَرُور». قام هؤلاء الضباط الثلاثة ومعهم آخرون بتأسيس جيش نظامي لكَنْتَيْبَايْ حامد مكون من ثلاثة بلوكات (Blocks)، وله عتاد وسلاح وزيّ عسكري مميز. وبحلول شتاء عام ١٨٨٧م كان كَنْتَيْبَايْ حامد قد أكمل أركان بناء دولته أو كاد، حيث فرض ضريبةً على كافة البضائع التى تمرّ بأرض الحَبَاب على امتداد السَّاحِل، سواء تلك التى تتجه جنوباً الى مصوع أو غرباً الى كسلا، وبحيث بلغت ٥٪ على القطن و ١٥٪ على البضائع الحيوية الأخرى مثل السّكر.

لقد استفز هذا الإجراء جميع الاطراف التى كانت تدير الصراع في المنطقة في ذلك الوقت بما فيهم صديق كَنْتَيْبَايْ حامد الأمير محمد عثمان أبو قرجة، والذي كان

(1) Watson Pasha, A Record of the Life-Work of Charles Moore Watson, by Stanley Lane-Poole, Lnr.D. London, John Murray, Albemarle Street, 1919, page 234.

(٢) يقال إن رحلته كانت عن طريق البحر حيث توقف في «أبي رماد» بالقرب من حلايب ودَوَّنَ تفاصيل مهمة عن رحلته في حجر ضخم ويزعم الحَبَاب أن هذا الحجر مدفون في أبي رماد.

عامل (حاكم) المهدية في كسلا، ولهذا وجه الأمير أبو قرجة خطاباً الى كَنْتِيبَايْ حامد يطلب منه التوقف عن كل نشاطاته والحضور الى كسلا، وإلاَّ فأنه يتحمل ما سيحدث له من عواقب إذا لم يمتثل للأمر. أمَّا الإيطاليّون فقد تضرروا كثيراً من فرض ضرائب على البضائع الواردة الى مستعمرتهم الوليدة، وأزعجهم التذمر الذي أبداه التجار والمستهلكون في آن واحد، ولهذا سعوا سعياً حثيثاً لعقد معاهدة ثانية مع الحَبَاب (الأولى كانت بتاريخ ٩ إكتوبر ١٨٨٥م مباشرة عقب انهزام الأنصار في معركة كوفيت حيث أصبح الرأس أَلُولَا يتوعد الحَبَاب لرفضهم محاربة الأنصار في تلك المعركة)[١].

يقول أنطوني دو أفري متحدثا عن أهمية المعاهدة الثانية مع الحَبَاب:

«Saletta {the Italian Governor of Musaua} stressed the principal advantage which the Convention {of 1887 with Habab} would give the Italians: the opening up of commerce with and through the hinterland, access to which essentially had to be through Habab country, and which had become gravely handicapped by the tolls which Hamed imposed, amounting to the equivalent of 5% on cotton and similar goods and up to 15% on items such as sugar, indigo, cloves and soap. These charges, said Saletta, had caused great discontent, not only among the merchants of Massaua but also those of 'Abyssinia' and in the Madhist markets such as the great centre at Kassala»[2].

وفعلاً تم في يوم ٥ يونيو ١٨٨٧م ابرام المعاهدة الثانية بين الإيطاليين والحَبَاب، تكونت من تسع نقاط وقَّع عليها كل من كَنْتِيبَايْ حامد وأخويه هِدَاد وهُمَّد وزهاء (٢٩) شيخاً من رؤساء قبائل الحَبَاب، بما فيهم الشيخ «عامر» أبو شيخ الأمين وَدْ نَافْعُوتَايْ. ومن ثم أرسلت الاتفاقية الى روما لتوقيعها من قبل وزير الحربية

(١) انظر صفحة ١١٢ من كتاب أنطوني دو أفري «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق.

(2) The Nakfa Documents, op cit, p. 8.

الإيطالي[١]. وتعهد كَنْتِيْبَايْ حامد في تلك الاتفاقية بالخضوع لسلطة الإيطاليين. ولكون الإيطاليين لم يكونوا واثقين من التزام كَنْتِيْبَايْ حامد بنصوص الاتفاقية طلبوا ترك رهينة لديهم، ولذلك نصت الفقرة الرابعة من الاتفاقية على بقاء الشيخ محمود بن كَنْتِيْبَايْ حامد رهينةً لدى الإيطاليين لضمان تنفيذ الاتفاقية.

ورغم أنَّ شروط الاتفاقية تبدو مجحفة للحباب إلاّ أنّ الإتفاقية بالنسبة لكَنْتِيْبَايْ حامد، كما يشير أنطوني دو أفري[٢]، كانت ضمن المناورات التكتيكية التى كان يبرع فيها كَنْتِيْبَايْ حامد بهدف لجم عدوه اللدود، الرأس أَلُولَا، والذي ما فتئ يحرض الإيطاليين على الحَبَاب، ويصف كَنْتِيْبَايْ حامد بأنه يتصرف كرجل دولة «an independent sovereign» وليس كشيخ قبيلة. يقول أنطوني دوأفري مستشهداً بما قاله الجنرال ساليتا (الحاكم الإيطالي لمصوع الذي وقع الاتفاقية مع كَنْتِيْبَايْ حامد):

«Ras Alula, he explained, had been enraged, and had told the Italians to prohibit commerce with the Habab, accusing the Kantibai of behaving as if he were an «independent sovereign»; and Emir Mohammed Osman Abu Korgia of Kassala had ordered the Kantibai to cease all his activities and to come to Kassala «for fear of what may befall you if you do not». Against this background, Saletta calculated but a more modest 2% to 2 ½%, in place of the 5% to 15 he had just cited, would yield substantial revenue, as a result of the impetus to trade which the lower rates would create. Such revenue, he emphasised, would justify the Kantibai's substantial stipend»[3].

(٢) أبرم الايطاليون اتفاقية مماثلة مع دقلل الحسين (زعيم بني عامر) بتاريخ ٢ ديسمبر ١٨٨٩م.

(٢) انظر صفحة ٧ من كتاب أنطوني دو أفري «وثائق نقفا»، مرجع سابق.

(3) Ibid, p 8.

وفي الحقيقة، وكما أشار الرأس أَلُولَا، فإن كَنْتِيبَايْ حامد لم يكن زعيم قبيلة فحسب وإنما كان رجل دولة وسياسي بارع، وظَّف خبرته ودهاءه السياسي[1] في استقطاب عساكر الأرطة السودانية الذين تم تسريحهم بعد إخلاء المصريين للسودان، ووفر لهم العتاد والأسلحة «واستقل عن كل الحكومات، فأنشأ الجيوش والفيالق وأخذ أهبته للطوارئ، وجعل كل لواء من الرديف[2] السوداني تحت إمرة ضباط ممن أحيلوا الى الاستيداع بأرض الحَبَاب»[3]، وأوكل القيادة العامة للأرطة الى الضابط محمود حامد. كما أقنع بعض العصابات الحبشية المسلحة بالتحالف معه ضد عدوهم المشترك (الرأس أَلُولَا) ومنهم عصابة بَرَم بَلاس كَافِل وعصابة بهْتَا حَقُوس، وكان لهذه العصابات جنود مدربون على القتال ويستخدمون الأسلحة النارية. كذلك فإنَّ كَنْتِيبَايْ حامد شكل فرقة من فرسان الحَبَاب برئاسة أخيه هِدَاد وَدْ حسن ووزع عليهم السلاح وبذلك تَكَوَّن لديه جيش يملك الخبرة والعدة والعتاد، وقدِّر عدده في مرحلة من المراحل المبكرة بثلاثة عشر ألف (١٣,٠٠٠) جندي وضابط[4].

---

(١) ولد كَنْتِيبَايْ حامد في أسرة يكاد يكون كل افرادها حكاما فقد تقلد المنصب بعده أخوه هداد ود حسن وكذلك ابن عمه مدين وَدْ إزَازْ ود هداد، وإن كانت فترة حكميهما قصيرة. كما تولى الحكم قبله ابن عمه محمد وَدْ إدريس وَدْ هداد المعروف بلقب "عتولاي". وكان كَنْتِيبَايْ حامد قد تولى الحكم بعد والده كَنْتِيبَايْ حسن وَدْ هِدَاد، وتقلد المنصب قبل أبيه اثنان من أعمامه هما (إدريس وأخوه إزَازْ) وكان جده لأبيه (هِدَاد) كَنْتِيبَايْ، وقبله تولى المنصب محمد وَدْ جَاوُج (عمه في الحسبة) وقبل ذلك تولى المنصب ثلاثة من إخوة جده هم (جَرْجِيس وإزَازْ وجَاوُج).

(٢) كلمة «الرديف» هي اختصارٌ مكونٌ من الأحرف الأولى للعبارة الانجليزية «Retired Defence Force» أي «المحالين للمعاش من قوة دفاع السودان».

(٣) تاريخ قبائل الحَبَاب لمحمد صالح ضرار، مرجع سابق، صفحة ٤٥.

(٤) أنظر الى إفادة القنصل العام البريطاني في القاهرة الموجهة الى اللورد سالسبري Salisbury ، رئيس وزراء بريطانيا، والتى أوردها أنطوني دو أفري في كتابه «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق، صفحة ١١٢.

إن هذا العمل الذي قام به كَنْتَيْبَايْ حامد وفَّرَ شكوكاً قويةً لدى أعدائه، وما أكثرهم، بأنَّ الرجل يعمل على تقوية سلطانه لمحاربتهم فيها بعد. ولهذا اصبحت السلطات الاستعمارية تراقب كل ما يقوم به كَنْتَيْبَايْ حامد، ووظف الإنجليز والإيطاليّون قدراتهم الاستخباراتية لمراقبة تحركات حامد بيك. وضمن نطاق هذه الرقابة الاستخباراتية قبضت السلطات الإيطالية على مواطن سوداني وجدوا معه خطابات أحدها موجه الى الحَبَاب من السيد/ محمد عثمان (تاج السر) الميرغني في سواكن، مؤرخ في ٢٢ نوفمبر ١٨٨٦. لقد اهتم الإيطاليّون كثيراً بمضمون هذا الخطاب لما وجدوا فيه من ضالتهم في تعزيز الشكوك التى كانت تنتابهم حيال موقف الحَبَاب. لقد كتب الجنرال جين Gene (حاكم مصوع الإيطالي) الى مستر روبلنت (Robilant)، وزير خارجية إيطاليا في روما يقول له إنَّ خطاب الميرغني الى الحَبَاب يكشف عن حرص السلطات (البريطانية) في سواكن على ضمان ولاء القبائل التى توجد بالقرب من سواكن ومصوع[١].

يقول أنتطوني دوأفري إنَّ الإيطاليين لم يكونوا واثقين من ولاء كَنْتَيْبَايْ وبقية النبلاء من الحَبَاب، وذلك بالرغم من الاتفاقية الثانية التى وُقِّعَتْ بين الحَبَاب والإيطاليين في يونيو ١٨٨٧م، والتى كانوا يعتقدون أنَّها ستجعل كَنْتَيْبَايْ حامد ينضم اليهم ويحارب معهم الدراويش، ولكن خاب ظنهم:

«The Italian were very unsure of the good fiath of the Kantibai and the Habab Shumagalle but in the conditions of the 1887, they had to be careful»[2].

وبتاريخ ٢٩ أغسطس ١٨٨٧م تم تكليف المسؤول عن القبائل المدعو قيصر حق Cesare Hagg بمراقبة كَنْتَيْبَايْ حامد، فقام قيصر هذا بتجنيد أحد العملاء من الأنصار يدعى سالم عبدالله ليقوم بمهام التجسس على كَنْتَيْبَايْ حامد مقابل أجر

---

(١) راجع كتاب «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق، صفحة ١٢٠- ١٢١.

(2) Lords of the Read Sea, op.cit. p152.

محدد[١]. وبعث الجاسوس بتقريره الذي قال فيه، ضمن أشياء أخرى، إنَّ كَنْتَيْبَايْ حامد يعتدى على القبائل الصديقة ويداوم على الاتصال بالأنصار:

«....he carries out raids to the hurt of friendly tribes, and he keeps up contacts with the Dervishes»[2].

وهكذا ثبتت التهمة على كَنْتَيْبَايْ حامد، وشكل اتصاله بالثورة المهدية ودعمه لها سبباً أساسياً لوضعه في القائمة السوداء لكل من الرأس أَلُولَا والإيطاليين والإنجليز، وأصبحوا ينسقون فيما بينهم لإضعاف كَنْتَيْبَايْ حامد ومحاربة الحَبَاب عموماً.

ولو كان الأمر قد توقف عند مرحلة التآمر من الغير لكان أهون، ولكن بعضاً من إخوة كَنْتَيْبَايْ حامد وجزءاً مقدراً من أبناء عمومته من بيت أَسْجَدَيْ، كانوا يكيدون له كيداً كما ذكرنا، ويوقرون عليه صدر أعدائه. لقد عجز القوم عن مسايرة طموح كنتيباي حامد وفكره المتقدم، وربَّما لوكان الأمر عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوه ولكن بعدت عليهم الشُّقَّة، ولم تستوعب عقليتهم المحلية تلك ألأهداف الكبيرة التى كان يخطط لها كنتيباي حامد متصديا في وقت واحد لمنافسين طامحين على المستوى الإقليمي وغزاة طامعين على المستوى الدلي. وأيّاً كانت الأسباب، فإنَّ كنتيباي حامد لم يسلم من الأقارب بنفس القدر الذي لم يسلم فيه من ألأباعد، فقد تآمر عليه بنو جلدته واتفق حلف من بيت أَسْجَدَيْ فيما بينهم على تعيين «هِدَاد» زعيماً للحباب بدلاً من أخيه حامد والتخلص من كَنْتَيْبَايْ حامد بتدبير مكيدة له توقعه في شباك الإيطاليين. هذا ويجدر بنا أنْ نشير هنا الى أنه، وضمن سلسلة طويلة من هذا الكيد، فإنَّ المدعو محمد نور (نائب محافظ مصوع) قدم في وقت مبكر (في أول سنة من حكم كَنْتَيْبَايْ حامد، أي في عام ١٨٧٥-١٨٧٦م) شكوى ضد كَنْتَيْبَايْ حامد الى حكمدار شرق السودان آنذك السيد منزنجر باشا

(١) نفس المرجع، صفحة ١٥٢.

(2) Lords of the Read Sea, ibid, p152.

(Munzinger)، وكان يهدف لجعل الحَبَاب ضمن سلطانه وأنْ يتم توريد الطلبة الى مصوع بدلاً من سواكن. بَيْدَ أنَّ كَنْتَيْبَايْ حامد تمكن من إقناع الحاكم الذي أنصف الحَبَاب وحكم ببقاء نظارة الحَبَاب منفصلة عن مصوع، ولهذا استمر كَنْتَيْبَايْ حامد في توريد طلبة الحَبَاب الى سواكن، وألف بهذه المناسبة قصيدة جميلة يسخر فيها من أهل مصوع قائلا:

حِنَّا بأسْنَا إب حَظِين	(نحن نحارب بالحديد (السيف)
وباضع إبَّا وِرَاقَه	(وأهل باضع – مصوع – يحاربون بالورق)
حِنَّا لجارنا فَجَرْنُهُو	(نحن قضينا غرضنا)
إبْ ربِّي وإبْ لخواجه	(بفضل الله والخواجة)
مِنْ رُوشَانُه كَرينُهو	(لقد انزلنا مولاك من عمارته)
حَسَنْ باضْعَاي مَنْبَاكَه	(يا حسن باضعاي - يا حسن المصوعي)
عَدْ دِرْقِي وَعَدْ معَلِّمْ	(يا شيوخ عَدْ دِرْقِي وعَدْ مُعَلِّمْ)
أيَا قِيسَتْ لا الفاتحه	(أين ذهب دعاؤكم – الفاتحة)
لَقِمْقيْمَلا أفْجْتَه	(إذْ تتمتمون بأفواهكم)
ونَوَانَايْ أسْجَادَه	(وتلوون أعناقكم)

ولكن نائب مصوع، والفريق المناوئ لكَنْتَيْبَايْ حامد، ظلوا دائبين على مكر الليل والنهار، ولم يفلح تقادم السنين في ثنيهم عن الكيد لذلك الرجل العنيد. وحدث ذات مرة أنَّ كَنْتَيْبَايْ حامد كان في زيارة لمصوع ودخل في مشادة كلامية مع نائب محافظ مصوع اخرجت كَنْتَيْبَايْ حامد من دبلوماسيته فجاهر بعدائه لنائب المحافظ ولإيطاليا معاً، وهدد بشن الحرب على سلطة مصوع (التى اصبحت تابعة لإيطاليا آنذاك). واستغل خصومه هذه الحادثة فدبروا له مكيدةً اشترك فيها شخص حبشي- بالتنسيق مع أحد النياب (من بلو مصوع) واثنين من الإيطاليين يدعى أحدهما «كولونيال» والثاني «روقادي»، حيث تم تزوير خطاب باسم كَنْتَيْبَايْ حامد موجه الى زعيم الحبشة. ثم تم اعطاء هذا الخطاب المزور الى رجل حبشي- وتظاهر

بأنَّه خارج من مصوع متجهاً الى الحبشة، فلما غادر المدينة تم الابلاغ عنه من قبل المتآمرين معه. فالقت السلطات الإيطالية القبض عليه، وعند التحقيق معه أخبر السلطات الإيطالية أنَّه مستأجر من قبل كَنْتِيبَايْ حامد وموسى العقاد (-Mussa el-Accad)، وأنَّه مكلف من قبلهما لتسليم خطاب لحاكم الحبشة يحُثَّان فيه الأحباش على محاربة الطليان، ويتعهدان فيه بدعم المحاربين بالرجال والمال والسلاح. إثر ذلك ألقي القبض على كَنْتِيبَايْ حامد (وصاحبيه موسى بك العقاد وسيد الصافي ـ وهما من وجهاء وكبار تجار مصوع).

وفي محاكمة جائرة ومقتضبة[1]، حكم على كَنْتِيبَايْ حامد ورفيقيه بالموت بتهمة الخيانة العظمى، لاتصالهم سراً بعثمان دقنة والتنسيق معه لمحاربة الدولة (انظر تهمة القبض وانظر سبب الحكم بالاعدام). وحضر المحاكمة عدد كبير من الفريق المناوئ لكَنْتِيبَايْ حامد من أهله «بيت أسْجَدَيْ»، وعلى رأسهم أخوه هِدَاد.

يقول أنطوني دوأفري في ذلك: في فبراير ١٨٩٠م قام الجنرال بالداسير أوريرو (حاكم مصوع الإيطالي)، باستدعاء كل من كَنْتِيبَايْ حامد ومساعديه المقربين جداً (موسى العقاد وسيد الصافي) الى منطقة حطملو، خارج مصوع، واعتقلهم وحكم عليهم بالموت بتهمة الخيانة العظمى لإيطاليا نظرا لاتصالهم سراً مع عثمان دقنة، وتآمرهم معه لمحاربة الدولة.

«General Baldassare Orero, who summoned Kantibai Hamed and his two closest collaborators, Musa El Aked and Said El Safi, together with the great body of the Shumagalle, to Otumlo, just out side Missaua. There in February 1890, he had Hamed, Musa and Said arrested, and then tried for their complicity in the crime of

---

(١) وصف الجنرال غاندولفي Gandolfi (حاكم مصوع الذي خلف الجنرال بالداسير) هذه المحاكمة بانها محاكمة فاسدة اعتراها خطأ في تطبيق العدالة:

«An –ill-omened trial» and «a judicial error».

انظر كتاب دوأفري «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق، صفحة ١٦٣.

High Treason, for their secret contacts and conspiracies with Osman Digna. They were condemned to death »[1].

المهم هو إنَّ عقوبة الإعدام لم تنفذ فوراً، وإنَّما تمَّ ارسال كَنْتَيْبَايْ حامد للتحقيق معه الى روما، وبعدها تم ترحيله الى سجن في ميناء عصب (العصيبة) بعد اعطائه سماً يسري في الجسم ببطء. وبعد أن بلغ السم منه مبلغاً وهزل جسده واشتد به المرض، تم احضاره الى مصوع قبيل موته بقليل، وأخبروه بأنتهاء فترة الحبس، فطلب مقابلة ابنه «محمود» وبنته «حليمة». يقول سعيد وَدْ سعيدة (غلام كَنْتَيْبَايْ محمود) إنَّ عمره كان حوالي ثلاثة عشر عاماً عندما حضر هو مع كَنْتَيْبَايْ محمود الى مصوع لمقابلة كَنْتَيْبَايْ حامد فوجدوه في حالة مزرية قد طال شعره وامتدت أظافره وهزل جسمه. يقول سعيد: أمرني كَنْتَيْبَايْ محمود بأنْ أحلق شعر حامد بك، وأقلّمَ أظافره، ففعلت ووفرت له الملابس وأدوات الاستحمام، ثم بعد ذلك تم اجلاسه على سرير في حديقة القصر (السراي)، وحبسما يُرْوَي على لسان سعيد وَدْ سعيدة، أُخِذَتْ له الصورة المشهورة (غالباً في نهاية عام ١٨٩٤م بعد أنْ ضعف جسمه بفعل السم)، والمنشورة حالياً في كثير من مواقع الانترنت تحت عنوان: « Un Capo Supremo Degli Habab» وترجمتها «الزعيم الأعظم للحباب».

بعد ذلك تحدث كَنْتَيْبَايْ حامد الى ابنه محمود ناصحاً له وقال: لقد فعل الإيطاليّون بي ما فعلوا، وأمَّا رهطك «بيت أسْجَدَيْ» فقد ظلموا أنفسهم بالمؤامرة ضدي فعليك بتوخي الحذر منهم. وبعد قليل من الحديث مع ابنه مات كَنْتَيْبَايْ حامد حيث كان السم قد تمكن من جسمه، ولذلك تم دفنه في مصوع، بعيداً عن مقابر أجداده، ويوجد قبره الآن في مكان ليس بعيداً عن قبر السيد هاشم بن محمد عثمان الميرغني (الختم). ورجع كَنْتَيْبَايْ محمود الى أرض الحَبَاب ليستقر فيما بعد في منطقة تُوكَر هو ومن تبعه من القبيلة. وهكذا اجهضت محاولات هذا الزعيم الفذ

(1) Lords of the Red Sea, op.cit. p163.

الذي أهمل التاريخ الذي يدرس في مدارسنا بطولاته بينما احتفى به أعداؤه[1].

إنَّني مهما حرصت على إظهار بطولات هذا الزعيم العظيم فلن أوفيه حقه، لأنه رجل قد سبق عصره بفكره التقدمي. فقد كان يسعى من جهة لإبطال نظام طبقي مجحف ومرهق لكل الأطراف، ومن جهة أخرى كان يمتلك همة عالية ترنوا الى إقامة دولة حديثة تخرج عن نطاق القبيلة الضيق، ولكن الحرب أتته من قومه قبل الآخرين، فلم يتمكن من تنفيذ مشروعه الإصلاحي، وقديما قيل «لاكرامة لنبيٍّ في قومه»، وصدق من قال: «زمّار الحَيِّ لا يُطْرِبْ!!». فعندما دعى حامد بك لحقوق الانسان جابهته غالبية الناس بالحرب والكيد والمكر، ولكن بعد ذلك بعقود جاء المستعمرون الغرباء بنفس الدعوة، وإنْ اختلفت دوافعهم، فتلقفها أفواهٌ وظهر لها مناصرون كان بعضهم يمثل قمة الإقطاع قبل ذلك!!.

مهما يكن من أمر، فإنَّ ما ذكرته يعتبر أول محاولة وطنية لانصاف كنتيباي حامد بك ورد الاعتبار له، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟. وفي الحقيقة فإنَّ كل شهادة أقولها في حق هذا البطل العظيم تعتبر مجروحة كما نقول في القانون (يلتقي نسبنا معه في جده الخامس)، ولكن دعوني فقط اقتطف هذه الأسطر من رجل أوروبيّ كان خصما للحباب، وأصدق البيان ما شهد به الأعداء. يقول أنطوني دو أفري في كتابه: «ملوك البحر الأحمر:

«The Kantibai Hamed was a scheming, hard man. His name came to be known to all those who played a part in the politics and wars of the lands that ranged round his Sahel: to the Emperor John IV of Ethiopia and to his governor and general in the Hamasien, Ras Alula; to the Emperor Menelik 11, John's successor; to the Khedive in Cairo and to Werner Munzinger, his Pasha in Massaua; to Herbert Kitchener, in 1884 a major active in keeping a rein over the tribes to the north of the Sahel, and in 1886, the Governor-

---

(١) أنظر الوصف الرصين والشهادة التي سجلها أنطوني دو أفري عن كنتيباي حامد بك في كتابه «ملوك البحر الأحمر»، وخاصة ما ورد في الصفحة رقم ٩٣.

General of Egypt's Red Sea Territories, with his headquarters in Suakin; to Osman Digna and to Mohamed Osman, respectively the Mahdist Emirs of Tokar and Kassala; to Sir Evelyn Baring in Cairo and to his political head, the British Foreign Secretary; to a succession of Italians - generals, majors, captains and lieutenants - in Massaua and its hinterlands, and to their chiefs in Cairo and Rome; and to all the tribal sheiks, religious leaders and other notables of the peoples spread over the lands north of Massaua, south of Suakin and east of Kassala»(1).

هذا هو كَنْتِيْبَايْ حامد وَدْ حسن وَدْ هِدَاد الذي يمثل كَنْتِيْبَايْ رقم ثمانية عشر للحباب بعد توليه للمنصب من بعد أبيه كَنْتِيْبَايْ حسن وَدْ هِدَاد. هذا هو كَنْتِيْبَايْ حامد الذي تغنى بذكره الأعداء قبل الأصدقاء، فقد خلده الشعراء المحليّون في أشعارهم، ولا سيّما شعراء الرشايدة الذين حاربهم ببسالة. هذا هو كَنْتِيْبَايْ حامد الذي كان الشغل الشاغل للعالم من حوله كما تقول الفقرة السابقة. هذا هو كَنْتِيْبَايْ حامد بك وَدْ حسن الذي دفن بعيداً عن أهله، ودفنت بجانبه الآمال العراض، لكن لا جَرَمَ فبطلنا لم يمت إلاَّ بعد أنْ كلَّتْ يداه، وصدأ السيف بدم أعدائه، واعتلت عليه القنا السُّمْرُ، أو كما قال أبو تمام:

فتىً مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ والضَّرْبِ مِيتَةً	تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إنْ فَاتَهُ النَّصْرُ
ومَا مَاتَ حتى مَاتَ مَضْرِبُ سَيفِهِ	مِنْ الضَّرْبِ واعْتَلَّتْ عَلَيْهِ القَنَا السُّمْرُ
وَقَدْ كَانَ فَوتُ المَوتِ سَهلاً فَرَدَّهُ	إلَيهِ الحِفَاظُ المُرُّ وَالخُلُقُ الوَعِرُ
وَنَفْسٌ تَعافُ العارَ حَتّى كَأَنَّهُ	هُوَ الكُفرُ يَومَ الرَّوْعِ أَو دُونَهُ الكُفرُ
فَأَثبَتَ في مُسْتَنْقَعِ المَوتِ رِجلَهُ	وَقالَ لَهَا مِن تَحتِ أَخْمَصِكِ الحَشرُ
فتىً كُلَّمَا فَاضَتْ عُيُونُ قَبِيلَةٍ	دَمَاً ضَحِكَتْ عَنْهُ الأحَادِيثُ والذِّكْرُ
مَضَى طَاهِرَ الأثْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ	غَدَاةَ ثَوَى إلاَّ اشْتَهَتْ أنَّها قَبْرُ
عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ وقْفَاً فإنني	رَأيْتُ الكَرِيمَ الحُرَّ لَيْسَ له عُمْرُ

وفي نفس اليوم الذي اعتقل فيه كَنْتِيْبَايْ حامد، تمكن الفريق المناوئ له،

(1) Lords of the Red Sea, ibid, p. 93.

ويمساعدة الإيطاليين، من تنصيب أخيه هِدَاد وَدْ حسن في منصب كَنْتَيْبَايْ بدلاً من حامد بك ولكن الحكم لم يدم طويلا لكَنْتَيْبَايْ هِدَاد، حيث اعتقله الإيطاليّون ومات في سجن عصب في أغسطس ١٨٩١م[١]، بينما قتل أخوه مُحَّد ود حسن في مَقَدَّام، ودفن في سواكن في حارة أبي الفتح.

وهكذا فقد الفريق المناوئ لكنتيباي حامد وإبنه «محمود» أشدَّ المنافسين، ويمكن أنْ نقول إنَّ الجو قد خلا للشاب «محمود» ود حامد بك. وبالرغم من إختلاف هِدَاد مع كَنْتَيْبَايْ حامد حول وضع العربان لكنه كان مسانداً قوياً للثورة المهدية، حيث أنَّ هِدَاد هذا هو الذي بايع الأمير أوهاج بن حسن الكميلابي عام ١٨٨٤م، ثم بايع الأمير عثمان دقنة عام ١٨٨٥م في تاماي، ولذا فإنَّ ولاءه للمهدية لم يكن بحاجة الى دليل، غير أنَّه كان متعصباً وعنيفاً ومتسرعاً للشر، وشارك بقوة في المؤامرات التى أدت في النهاية للقبض على أخيه حامد بك وذلك لاختلافه معه بشأن التخلص من الوضع الطبقي الذي كان سائداً.

عندما سمع النَّاس بموت كَنْتَيْبَايْ حامد عمَّ الحزنُ ربوع الحَبَاب، وألَّف الشعراء قصائد عديدةً في مدحه وتأبينه نختار منها أبياتٍ معدوداتٍ للشاعر الفحل وَدْ عِوال Wad Ewal ، والذي قال مخاطباً ابنه الذي كان يسمى عبدالله، وأحيانا «سيفا»:

إي طَمْعَنِّي من حزن وسيفا إلِّي حَلَنْقَاي
مِثِلْ سَبْ مَنْبَانا وإبْ بَيِنَّا قَلْقَلاي
بَشِير نِعْمةُ الدّنْيا لإجِلْ أبْلَعُوتْ وأسْتَاي
باسُــرُو هَيْبَكَّ إلُو تَلْتِل من بِلاَيْ
باسُــرُو هَيْبَكَّ إلُو تَلْتِل من بِلاَيْ

---

(١) انظر المستند رقم ٢٤ والصفحة رقم ٧١ من كتاب «مستندات نقفا»، مرجع سابق.

جَبِـرْ ظَلَّيم هَيْبَكً بَطِحْ إنْتُو مَنْدَلاي
جَمَلْ رَبَـعْ هَـيْبَـكً قِرُون لإجْبَاً وحِلاًّي
يَوْم إكّيتْ بَتَكَتْ مَحيزاي جُولُوطْ مِنْ أدْمَاي
وَيَوْم سَنَّيتْ بَتَكَتْ سَرَاتَكُوتْ إتْ شِيقبَاي
وَيَـوْم دِمَّلْ بَتَكَتْ عَـدُو حَـادِقْ لعِلِيْنَاي
فَتّى وفَرِضْ أمَغْرَبْ إي تِخْلَفَنَّى إبْ عِدَاي
وَرِحْ عَيِرْ رَابِعتُو وَدِيقْ مِي بُو وَأمْسَاي
إت أورَّحَتْ فَازِقَا تُو وإتْ ألَيتْ أبْ قَلاي
بَشِير أمْعِلْ عَـدْ دِقْلَلْ تالقيـوم إب سنـاي
إت جِرَايْ كَرَيُو عَلِيّ بَكِيتْ لأمْعِـلاًّي
وبَشِير أمْعِلْ عَدْ نَايِبْ طَلَّبْ عَلا إجِلْ أتَرْآي

السـبب وراء تسـمية ابن محمـد عثمان أبي قرجة باسم كنتيبناي:

ذكرنا في موضع سابق أنَّ الأمير الشاب محمد وَدْ كَنْتَيْبَايْ حامد قد استشهد في تاماي (سلحات)، مقر عثمان دقنة، وهنا حدث خلاف وساءت العلاقة بين كَنْتَيْبَايْ حامد والأمير عثمان دقنة لأن كَنْتَيْبَايْ كان يعتقد أنَّ الأنصار قد قتلوا ابنه، بينما أصر عثمان دقنة على القول بأنَّ محمداً قد مات بمرض الجدري. وفي الحقيقة فإنَّ علاقة عثمان دقنة مع القبائل الرئيسية في المنطقة في تلك الفترة كانت تمر بمرحلة فتور، بَلْ وعداء. فكما هو معلوم قام نفر من البُجَة الموالين للأنصار بتقديم شكوى الى الخليفة عبد الله ضد الأمير عثمان دقنة، فأرسل الخليفة وفداً لتقصي الحقائق ضم الشيخ الطاهر المجذوب والأمير محمد خالد زقل الدنقلاوي، وعاد الوفد إلي أمدرمان رافعاً تقريره للخليفة عبد الله، فأصدر الخليفة أوامره بفصل الجيش عن العمالة (الادارة الحكومية)، وانتدب الى الشرق الأمير محمد عثمان أبو قرجه ليكون عاملا (حاكماً) على عموم شرق السودان، بينما تم اعتماد الأمير عثمان دقنة أميراً لجيوش

المهدية في الشرق. وكان الأنصار في تلك الفترة يعانون من تمرد جزء كبير من قبائل البُجَة وانقلابهم على عثمان دقنة، كما كانوا يعانون من شح في الموارد ونقص في التموين والسلاح، حيث كانت المنافذ البحرية التى يأتي السلاح عبرها كانت محاصرةً تماماً. فميناء سواكن كان يرزح تحت الاحتلال البريطاني، بينما اضحت مصوع أسيرةً للاحتلال الإيطالي، ولهذا كانت المهدية في أمسّ الحاجة إلي منفذ بحري.

وفي غرة رجب ١٣٠٥هـ (١٣ مارس ١٨٨٨م)، قام كَنْتَيْبَايْ محمود بمكاتبه عامل المهدية (الحاكم العام للمهدية في شرق السودان) أمير البرين والبحرين الحاج محمد عثمان أبو قرجة معلناً ولاءه ومبايعته للمهديه، مقدماً الطاعة وقابلاً البيعة، وأنّه على عهد الله ورسوله (ص) والمهدية، مشيراً إلى أنّه متمكن من عموم أهالي الحَبَاب، وهو في انتظار منشورات المهدية. وفيما يلي صورة للخطاب الذي بعثه كَنْتَيْبَايْ محمود لعامل المهدية الأمير محمد عثمان أبو قرجه:

69/1

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد مع التسليم
وبعد فمن عبد ربه الفقير محمود ابن كنتيباي حامد الى حبيبه في الله تعالى حضرة عامل المهدية
الحاج محمد عثمان ابو قرجه ايده الله آمين بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
اما بعد فان والدي لما علم بفضلكم عليه لم يسعه الاقامه بالحباب بل سافر الى
مصوع وصرت يا سيدي الحبيب انا محبا للمهديه ومؤمنا بها والان متمكنا
من عموم اهالي الحباب فأقدم لكم الطاعه وقابلا البيعه واني معكم على عهد
الله ورسوله والمهديه فامروني بما شئتم فاني مجيبا لاوامركم ومنشوراتكم
العاليه وها انا في انتظارها والسلام
غرة رجب سنة ١٣٠٥

ذكرنا من قبل أنَّ الأمير محمد عثمان أبو قرجة قد غضب من كَنْتَيْبَايْ حامد نتيجة لفرضه ضرائب كما قلنا على جميع البضائع التى ترد من جهة البحر الأحمر اعتبارا من عام ١٨٨٧م. وذكرنا أنَّ هذا الإجراء قد استفز جميع الاطراف التى كانت تدير الصراع في المنطقة في ذلك الوقت، بما فيهم صديق كَنْتَيْبَايْ حامد الأمير محمد عثمان أبو قرجة. ولهذا وجه الأمير أبو قرجة خطابا الى كَنْتَيْبَايْ حامد يطلب منه التوقف عن كل نشاطاته والحضور الى كسلا وإلاَّ فأنه يتحمل ما سيحدث له من عواقب إذا لم يمتثل للأمر. كما رُفِعَ الأمر الى الخليفة عبد الله الذي وجه خطابا الى كَنْتَيْبَايْ حامد منح بموجبه الخليفة عبد الله العفو لكَنْتَيْبَايْ حامد عن أفعاله السابقة (فرضه للضرائب) شرط أن يأتمر بأمر المهدية، وفيما يلي صورة فوتغرافية لخطاب العفو الذي وجهه الخليفة عبد الله الى كَنْتَيْبَايْ حامد بتاريخ ١٥ ربيع الثاني ١٣٠٧ (الموافق ٨ ديسمبر ١٨٨٩م):

بالانضمام على المكرم عثمان بن أبي بكر دقنة والامتثال إليه والقيام معه [illegible]
[illegible] ذلك فقد [illegible] كما ذكرنا لك [illegible] وفي هذا كفاية [illegible]

صورة كتاب خليفة المهدي عليه السلام لحامد كنتيباي بأمانه والعفو عنه فيما سلف بشرط أن [illegible]
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه خليفة
عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق إلى حامد كنتيباي وفقه الله للصواب
أن العبد لا غناء له عن رحمة الله وإنك من العقلاء الذين ينظرون عواقب الأشياء وتعلم أنه لا [نجاة]
لأحد إلا باتباع أثر الرسول صلى الله عليه وسلم وقد كررنا لك المكاتبات بالدعاية إلى الله ولا [باعث]
على ذلك إلا الشفقة عليك وحب الخير لك وما دام أنا طالبنا لك الخير والهداية فقد جددنا لك
هذا بالدعاية إلى الله فإن قابلته بالقبول والامتثال فعليك أمان الله ورسوله والمهدي [illegible]
في نفسك ومالك وكافة متعلقاتك وقد عفونا عنك في جميع ما سبق لكن على شرط أن تبادر [illegible]
على المكرم عثمان دقنة والقيام معه في أمر الدين والانقياد إليه فإن فعلت ذلك فأبشر بالخير [illegible]
الأمان لك وإلا فإثمك عليك وما علينا إلا البلاغ وفي هذا كفاية لمن أدركته العناية [illegible]

صورة كتاب خليفة المهدي عليه السلام إلى أهالي [illegible] بالانضمام على المكرم عثمان دقنة
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه

عقب ذلك التقى كَنْتَيْبَايْ حامد والأمير أبو قرجة وتم الاتفاق بينهما على استخدام مرسى (تَكْلايْ Taklai)[١] لاستقبال السلع والسلاح وامداد الأنصار بما يحتاجون، وبذلك تم تجاوز أزمة الشح في المال والسلاح التى كان يعاني منها الأنصار وتمتنت العلاقة بين الزعيمين. ثم شاء الله أنْ يتمكن الأعداء من القبض على كَنْتَيْبَايْ حامد بالطريقة التى بيَّنا، فأصاب الحزن كل أصدقائه، ولكن حزن أبي قرجة كان أكبر.

وتجسيداً للعلاقة الطيبة والدعم السخي، والمساندة القوية التى وجدها أبو قرجة من زعيم الحَبَاب كَنْتَيْبَايْ حامد بك وَدْ حسن، قرر تسمية ابنه الذي ولد في تلك الفترة باسم «كَنْتَيْبَايْ»، وفاءاً لذكرى صديقه وتيمناً به. هذا وقد نشأت بين كَنْتَيْبَايْ الشرق وكَنْتَيْبَايْ أبوقرجة علاقة أسرية امتدت عبر الاجيال، وكان ناظر الحَبَاب كَنْتَيْبَايْ حسين (حفيد كَنْتَيْبَايْ حامد)، عندما يزور الخرطوم، ينزل لدى أسرة كَنْتَيْبَايْ أبوقرجة دون أهله الأقربين، تقديراً للعلاقة التي جمعت بين الأجداد. وفى منتصف الثلاثينات من القرن الماضي (العشرين)، عمل كَنْتَيْبَايْ أبو قرجه مأموراً في مدينه سنكات، وعندما توفى كَنْتَيْبَايْ حسن وَدْ محمود في سنكات عام ١٩٣٦م، تلقى فيه العزاء المأمور كَنْتَيْبَايْ أبو قرجه. وبالمثل فعندما توفي المأمور كَنْتَيْبَايْ أبو قرجه بحي الأمراء بأم درمان في عام ١٩٥٨م توجه وفد كبير من أعيان الحَبَاب لتقديم واجب العزاء، وكان على رأسهم كَنْتَيْبَايْ حسين بن كَنْتَيْبَايْ محمود، وقد ساهموا في المأتم بدفع مبلغ مائه جنيه سوداني وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك الوقت[٢].

---

(١) يعرف أيضا بمرسى رارات.

(٢) على سبيل المثال كان راتب الطبيب في حدود ١٧ جنيه بينما كان راتب القاضي في حدود ٢٧ جنيه.

ولاتزال أسرة كَنْتَيْبَايْ أبوقرجة حتى الان موجودة في امدرمان وغيرها من المدن وقد تعرفت شخصيا على بعض الرموز من هذه الاسرة الكريمة منهم أمير الأمراء أبو قرجة محمد كَنْتَيْبَايْ أبو قرجة والمهندس أسامة حسن كَنْتَيْبَايْ والدكتورة حياة كَنْتَيْبَايْ والدكتور خالد إدريس (أمه بنت كَنْتَيْبَايْ أبو قرجة). وما تزال أسرة كَنْتَيْبَايْ أبو قرجة تحتفي بالحَبَاب ولا ننسى أن نذكر هنا بكل فخر واعزاز مشاركتهم الفعالة والمقدرة في احتفالات استعادة النَّظَارة التى اقيمت في كل من بورتسودان وتوكر يومي ٢٦ يناير و ٢٨ يناير ٢٠٠٧م حيث تكبدوا المشاق وعناء السفر الى بورتسودان ومن ثم الى توكر لمشاركة الحَبَاب في احتفالاتهم بعودة النَّظَارة فلهم منا التجلة والتقدير.

دور عد تكلنيس في الثورة المهدية:

لقد بينا فيما سبق الدور الذي لعبه الحَبَاب بصفة عامة لمناصرة الثورة المهدية، العدو الأول للانجليز الغزاة، ولا بأس من أن نلقي نظرة سريعة على دور الفرع المشاكس في الحَبَاب «عد تَكْلِيْس» فنقول إنه حدث قبيل ظهور الثورة المهدية أنَّ عمدة قبيلة عَدْ تَكْلِيْس أو ما يسمى محلياً (شُوم عَدْ تَكْلِيْس) الفارس الشيخ جَلايْدُوس[1] وَدْ إزَاز وَدْ جميل كان مسجوناً في سواكن لتمرده الدائم ضد الإدارة التركية، الأمر الذي خلق بينه وبين الأمير عثمان دقنة حلفاً قوياً. وفي عام ١٨٨١م لعب نفر من أخوال الأمير عثمان دقنة من الهندندوا (البشارياب) والارتيقا في سواكن دورا كبيرا في إقناع المحافظ ليطلق سراح الشيخ جَلايْدُوس (والجيم دائما يمانية) الذي خرج من السجن، وإثر خروجه انتزع منصب عمودية عَدْ تَكْلِيْس من

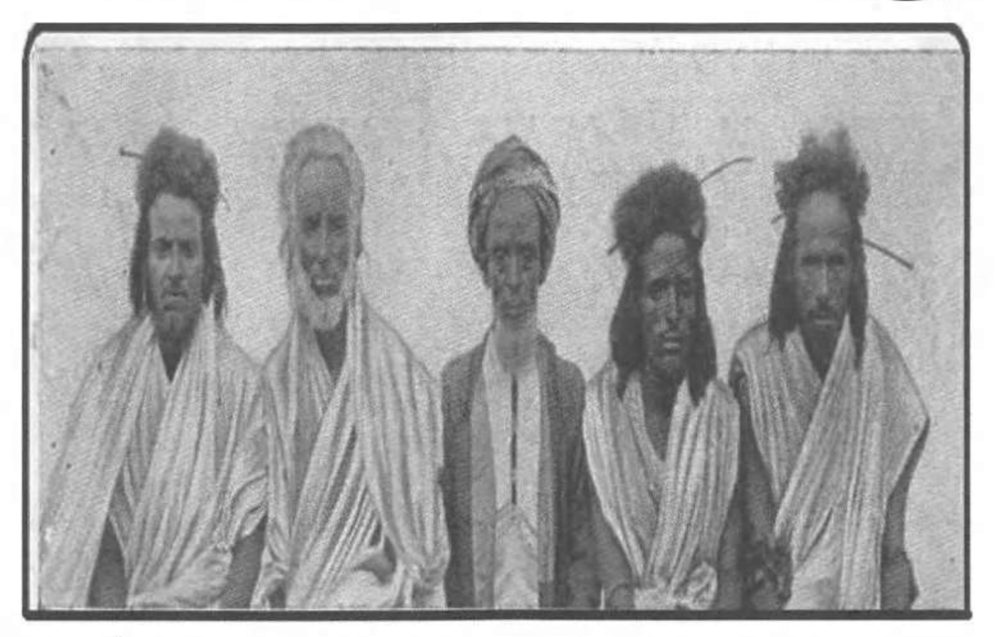
(١) هو جد الضابط بالقوات المسلحة المرحوم عثمان ود فضيل ود جلايدوس ود إزَازْ، الذي خدم في الجيش السوداني منذ عام ١٩٥٨م، وشهد عدداً كبيراً من المعارك في جبل الرجَّاف وغيره من مناطق جنوب السودان، ونقل الى الجبهة المصرية في حرب الاستنزاف، ونال شهادة نوط الجداراة من رئيس الجمهورية المشير جعفر النميري، وتوفي في يوليو ٢٠١١م ودفن بالعزوزاب – جنوب الخرطوم.

نجل ابن عمه(١) الشيخ جمع بن دِرَار بن عتيل بن جميل.

بعد ذلك ترأس الشيخ جَلايْدُوس وفداً كبيراً من عَدْ تَكْلَيْس والتقى بالقائد المجاهد مصطفى هدل الأرتيقي وأعلن تاييد عَدْ تَكْلَيْس للثورة المهدية، وجاء مع جَلايْدُوس الشيخ محمد عثمان كيلاي عمدة (عد كوكوي)، فأوفدهما الأمير مصطفى هدل إلى تاماي (سلهات) لكي يجتمعا بالأمير عثمان دقنة، وعند وصولهما للأمير لقيا منه كل حفاوة وترحيب وإكرام، خاصةً وأنَّ الأمير عثمان دقنة كان يحتفظ بمودة خاصة للشيخ جَلايْدُوس منذ اعتقاله وسجنه في سواكن.

ونستشف من رسائل عثمان دقنة أنَّ مدداً كبيراً من الأموال والسيوف والبهائم كانت تأتي من طرف الشيخ جَلايْدُوس على وجه الخصوص، ويحكي أنَّ الأمير كان في وقت من الأوقات محتاجاً الى مدد من المال فكتب الى صديقه الشيخ جَلايْدُوس طالباً المدد. وصادف أنَّ القبيلة في ذلك العام بالتحديد كانت تعاني من شحٍّ في الموارد لانقطاع المطر وضعف البهائم، فردَّ الشيخ جَلايْدُوس، على غير العادة، بخطاب أكثر فيه من التحايا والسلام والسؤال عن الحال، ولم يتطرق لموضوع المدد المطلوب، فعلق الأمير على ذلك قائلا «الله يهديه شيخ جَلايْدُوس أطلب منه مدداً ويسألني عن الحال!! ». هذا وقد عاش الشيخ جَلايْدُوس الى عام ١٨٨٩م، واعتقله الإيطاليّون بتهمة مساندة «الدراويش».

(١) والد الشيخ جمع هو دِرَار بن عتيل بن جميل، و"دِرَار" هذا هو ابن عم الشيخ جَلايْدُوس بن إرَازْ بن جميل.



صورة قديمة يعود تاريخها لما قبل عام ١٨٨٩ م يظهر فيها في الوسط الشيخ جَلايْدُوس وَدْ إِزاز وَدْ جَمِيل وَدْ جِمع وَدْ جَلايْدُوس وَدْ تَيدْرُوس وَدْ تَكْليْس مع بعض وجهاء قبيلته.

كانت زعامة عد تَكْلِيْس أو يعرف محليا بمنصب "شُوم – من الشيمة بمعنى السيادة والزعامة"، بِيَدِ إِزَازْ وَدْ جميل، فلما تُوفِي (تقريبا في نهاية عقد الثمانينات من التاسع عشر - late 1880s) أراد إبنه وَجَلايْدُوس أنْ يحل محله في المنصب، غير أنَّ جزءاً من عد تكليس، بقيادة أبناء عمه درار ود عتيل ود جميل، رفضوا توليته، فانقسمت القبيلة وتشكل ما يعرف محليا بـ «جَدَبُو Gadaboa»، بالجيم اليمانية، بين بيت وَلَتْ جرجيس بقيادة جمع وَدْ دِرَار وَدْ عتيل ود جميل وبيت وَلَتْ هبتيس بقيادة جَلايْدُوسْ ود إزاز ود جميل، وحدث قتال بين الفريقين ثم عقدت هدنة بينهما. ثم تكرر القتال على المنصب نتج عنه سجن جَلايْدُوسْ في سواكن. وأثناء سجنه تولى المنصب جمع ود درار ود عتيل ود جميل. أما جَلايْدُوسْ فظل في سواكن و"لقي من الأرتيقا والدقناب بسواكن كل إكرام واحترام"[(١)] وسعوا لإطلاق سراحه أو تخفيف القيود عليه، حيث تمكنوا من إقناع محافظ سواكن بالسماح له

(١) محمد صالح ضرار: "تاريخ قبائل الحباب والحماسين"، مرجع سابق، ص. ٩٦.

بالتنقل بحرية على ضمانتهم، فظل جَلايْدُوسْ فترة في سواكن تمكن خلالها من توطيد علاقته بعثمان دقنة وأهله الدقناب عموماً، فضلاً عن أمراء سواكن من الأرتيقا. ثم قامت الثورة المهدية وبدأ الناس يخرجون من سواكن فأطلق سراحه، وسافر الى مصر للحصول دعم لاسترجاع منصب "شوم عَدْ تَكْلَيس" لكن لم يجد ضالته في مصر، فاتجه جَلايْدُوسْ الى الحبشة وجاء بقوة مكنته من الاستيلاء على السلطة. هذا وقد حدثت واقعة طريفة بعد أن استيلاء جَلايْدُوسْ على منصب شوم عد تَكْلِيْس حيث كان الشاعر المعروف "وَدْ جِمْرِيتْ" من يسلم على جَلايْدُوسْ سلاما عاديا مثل الغير أما عقب استيلائه على السلطة جاء وَدْ جِمْرِيتْ الى مجلس "شوم" جَلايْدُوسْ وسلم عليه بترحاب بالغ مقبلاً يده، فقال له جَلايْدُوسْ لماذا سلامك اليوم مختلف عن سلامك لي في الماضي؟ وربما استشعر وَدْ جِمْرِيتْ تهديداً مبطنا من هذا السؤال من رجل عرف بالبطش والعنف وعدم التردد في استخدام السيف[1]، فانشد وَدْ جِمْرِيتْ في ساعته الأبيات التالية:

مرحبابو وَدْعُلُّومْ مَرْبَاتْ مِنْدَيْ أقْسَنَا	(مرحب بود علوم (كنية) الذي أخذ الثأر)
يَومْ سَلامْ أمَانْيَّ تَا وَبَدِيرْ سَلامْ فُقَرَا	(اليوم سلامي حقيقي وسابقا سلام السُنَّة)
عَنْسَبَا حَرْمَازُو قُطُوبْ إنْتُو أقْبَلا	(أقبل فيل عين سبأ اليوم غَضُوباً - غضبان)
قَمَّنَّيْ جَدَلابْ وِلادَا جَابِئْ أسَرَا	(جاء مثل لبوة الغابة وأولادها خلفها - أثرها)
مِنَّا سَبُعْ دُفُونَاتْ كِلْكِلْئِ أفْجَرَا	(من السبع المدفونة اخرج ثنتين ثنتين ؟؟؟؟)
دِيبْ كَبْدُو كَرَيَا مَرَايِرْ لأمْحَرَا	(تحمل مرارت الأمحرا في بطنه)
إتْ مَقْطَنُو كَرَيَا دِينُو إبَّا ضِجَرَا	(وضع على كتفه الجبة التى تشبه النعامة بفروها)
لُوتَا مِيْ جَارْكَا كَبِدْ أُمُّو حَافَنَا	(لا باس فالذي مات احزن قلب أمه)
ولرَيَّا مِيْ جَارْكَا أبَحُورْ إلى سَافَرَا	(ولا ضير فمن ابتعد سافرا الى البحور)
ربِّي لأرْيَنَّاتَا إلاَّ هِنْدَاسْ وَبَعْلا	(الله يمتعنا برؤية هِنْدَاسْ ؟؟ هذه وصاحبها).

(١) لترى جانبا من بطش الرجل وجبروته انظر صفحة ٩٦ من كتاب محمد صالح ضرار: «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق.

يقال إنَّ الحبش، عندما زودوه بالقوة التى ساعدته على استعادة منصبه، طلبوا منه أموالاً ورهينةً ضماناً لسدادها، فرهن لديهم إبنه "عجيل"، وعندما استتب له الأمر ذهب مرة أخرى للحبشة وفدى ابنه بوزنه من الذهب!!.

هذا وقد علق المستشرق إنو لتمان على حروب عد تَكْلِيْس بين بعضهم وبين بني عمومتهم قائلاً إن عد تَكْلِيْس كانوا دائما يعمدون الى إقامة تكتلات للحرب فيما بينهم ومع الآخرين، وأفنوا أنفسهم بالسيوف والحراب. ويقول عند حديثه عن خلاف جلايدوس ود إزاز مع الحلف الآخر بقيادة أبن عمه درار ود عتيل:

«The Ad Takles used always to split up into parties among themselves and to ruin each other with sword and spear. Once they split and were divided into two parties: the party of (Jeme wad Derar was the one ; and the other was the party of Galaydos wad Ezaz. And these two parties met at a place of their country called Laba; and there they wrought havoc with each other. And at another time they destroyed each other's cattle at Ca c amur. And again at another time two parties of them destroyed each other at Ede-Atba. And again at Habaro two parties of them destroyed each other. Therefore they, were always food for the sword and the spear, and everywhere they slaughtered each other. Since the [establishment of the] rule of Egypt, however, they have become people that are safe from each other and have also made peace with all [others]» (□).

ثم خلفه في منصب الزعامة إبنه «عُتَيْل وَدْ جَلايْدُوس»، الذي لم يدم له المنصب طويلا، فانتقلت العمودية الى نصر الدين وَدْ دِرَار[٢] الملقب بـ «إي إشلَّك Eyishallak» ومعناها (الذي لايضفر شعره - كما كانت العادة - وإنما يتركه متدلياً على الأكتاف). ورغم أنَّ الشيخ نصر الدين قد تولى عمودية عَدْ تَكْلِيْس بعد انحسار التأييد للثورة المهدية وانتصار الإنجليز بقتل عبد الله التعايشي في ام دبيكرات،

(1) «Publications of the Princeton Expedition to Abyssinia» by Enno Littmann, Volume 2: Talks, Customs, Names and Dirges of the Tigre Tribes (English Translation) by Late E. J. Brill Ltd., Publishers and Printers, Leyden 1910, p.46.

(٢) هو جد القاضي إدريس محمد نصر الدين الذي أشرنا الى مسودة كتابه غير المنشور عدة مرات في هذا البحث.

والقبض على الأمير عثمان دقنه إلاّ أنَّ كل ذلك لم ينسه التأييد والولاء للثورة المهدية. وفي هذا الصدد يروى أنَّ الشيخ نصر الدين كان عندما يغضب يقول (أَنَا وَدْ مهدي!!) أي أنا الأنصاري الذي تعرفونه جيداً عند الغضب!!. ويقال إنَّ الأحوال المادية للقبيلة قد تحسنت في عهده وانتعشت البهائم، وشهد عهده رخاءً وسعةً في الرزق، ولذلك فإنَّ حرائر القبيلة كن يطلقن عليه لقب (وَدْ مهدي وَدْ حالاب أرَدّيِ) أي ابن المهدي (الأنصاري) الذي في عهده درت صغار الغنم باللبن.

هذا كان غيضاً من فيض، ذكرناه لنبيِّن مدى حماسة الحَبَاب لتأييد الثورة المهدية، وما ترتب على ذلك في المستقبل من عقاب صارم، طال وضع نظارة الحَبَاب وتخفيضها الى عمودية مستقلة تابعة لمجلس ريفي توكر، في الوقت الذي تم فيه تقديم مكافأة سخية لرصفائهم الذين وقفوا وقفة صلبة ضد «القوم»[1].

---

(١) على سبيل المقارنة نورد هنا ما سطره الانجليز أنفسهم في شأن مماثل ونترك الحكم للقارئ.
يقول السيد/ إس إف نادل في الصفحة رقم ٦٣ من التقرير الذي نشر في المجلد رقم ٢٦ من مجلة «السودان في رسائل ومدونات» لعام ١٩٤٥م بعنوان: «مذكرات عن مجتمع بني عامر»:
«In the Sudan some years later (after foundation of Eriteria in 1890) the Bani Amer of that country received a Diglal of their own at the hands of the victor over the Mahdist armies, Lord Kitchner (1897)».

الباب السادس

ظهور كَنتيباي محمود
وتقسيم الحباب بين السودان وارتريا

ذكرنا أنَّ سواكن كانت مقر القبيلة قبيل ظهور الثورة المهدية، وذكرنا أنَّ كَنْتَيْبَايْ حامد اضطر للخروج من سواكن والانتقال جنوباً الى مرسى تَكْلايْ (رارات)، التي اتخذها مقراً مؤقتاً. وذكرنا أنَّ الايطاليين بالتعاون مع الانجليز قد اعتقلوا كَنْتَيْبَايْ حامد وسجنوه ليقتل لاحقاً بالسّم. وبعد اعتقاله تولى الرئاسة (منصب كَنْتَيْبَايْ) أخوه هِدَاد وَدْ حسن، الذي لم يكن على وفاقٍ مع أخيه «كَنْتَيْبَايْ حامد بك» بسبب سياسات الأخير نحو تحرير العربان. ورغم خلافه مع أخيه كَنْتَيْبَايْ حامد، إلاّ أنَّ هِدَاداً هذا كان شديد الحماس للثورة المهدية، فقد سبق أن بايع الأمير أوهاج حسن الكميلابي عام ١٨٨٤م ثم بايع الأمير عثمان دقنة عام ١٨٨٥م في تاماي، ولذا فإنَّ ولاءه للمهدية لم يكن بحاجة الى دليل، وربّما لهذا السبب اعتقله الإيطاليّون بعد فترة قصيرة من توليه الحكم[1].

وبرز في تلك الفترة نجم الشاب القوي محمود بن كَنْتَيْبَايْ حامد بك الذي كان يتولى منصب شيخ المشايخ في القبيلة (خلال الفترة القصيرة التى تولى فيها عمه هِدَاد منصب كَنْتَيْبَايْ). وكان محمود، كدأب أبيه، ينسق أعمال المقاومة مع صديق والده محمد عثمان أبوقرجة الذي كان قد تولى إمارة الشرق في تلك الفترة كما ذكرنا، ولكن الإيطاليين (بالتنسيق مع الإنجليز) تمكنوا أيضاً من القبض على محمود وايداعه في

(١) تولي الحكم لعام واحد تقريباً من فبراير ١٨٩٠ وحتى مارس ١٨٩١م.

السجن. إنَّ الحكم لم يدم طويلاً لكَنْتِيْبَايْ هِدَاد وَدْ حسن، حيث اعتقله الإيطاليّون في يوم ٢١ مارس ١٨٩١م، ومات بعد فترة قصيرة (خلال خمسة أشهر، وربَّما تمَّ تسميمه كأخيه) في سجن عصب في أغسطس ١٨٩١م[١]، بينما قتل أخوه هُمَّد[٢] ود حسن في مَقَدَّام، ودفن في سواكن في حارة أبي الفتح.

وهكذا فقد الفريق المناوئ لكَنْتِيْبَايْ حامد وإبنه «محمود» أشدَّ المنافسين، ويمكن أنْ نقول إنَّهَ بموت هِدَاد وهُمَّد قد خلا الجو لإبن أخيهما الشاب «محمود» وَدْ حامد بك. المهم هو إنَّ السلطات الإيطاليه أفرجت عن الشاب «محمود» في نفس اليوم الذي اعتقلت فيه عمه هِدَاد (يوم ٢١ مارس ١٨٩١م)، وفي نفس اليوم كذلك أصدر الحاكم العام الايطالي آنذاك «أنطون قندولفي Antonio Gandolfi» قراراً اعتمد فيه الشاب «محمود» وَدْ حامد في منصب «كَنْتِيْبَايْ الحَبَاب»، وبذلك آلت رئاسة الحَبَاب لكَنْتِيْبَايْ محمود، فشرع في وضع الخطط سراً للإنتقام من الإيطاليين، وأصبح يعد العدة لذلك. غير أنَّ موازين القوة قد تغيرت في المنطقة لغير صالحة. ولكي نعطي فكرة عن الظروف التى تولى فيها الشاب «محمود» منصب كَنْتِيْبَايْ، دعونا نستعرض الأوضاع بصفة عامة كما كانت تبدوا قبيل القبض على والده حامد بك (أي خلال الفترة من عام ١٨٨٥ وحتى ١٨٩٠م)، حيث نجد أنَّ الخارطة على الأرض كانت مسرحاً لصراع الأفيال. فقد كانت إيطاليا وبريطانيا تتسابقان في اقتطاع أرض البُجَة، وشرق السودان[٣] عموماً، والذي كان في ذلك

---

(١) انظر المستند رقم ٢٤ والصفحة رقم ٧١ من كتاب « مستندات نقفا»، مرجع سابق.

(٢) كان كَنْتِيْبَايْ محمود قد أخفى النقاقير مع الشيخ الأمين بن الشيخ عمر (عَدْ نَافْعُوتَايْ) قبل أن يتسلمها في مقدام، وكان أخوه هُمَّد وَدْ هِدَاد يبحث عنها ويتعقبها بمجموعة من الفرسان. وفي مكان ما بمقدام تم الاشتباك معه وتم جرحه جرحاً قاتلاً نقل على أثره الى سواكن حيث توفي ودفن في حارة أبي الفتح.

(٣) في مارس ١٨٨١م أصدر الباب العالي مرسوماً أطلق على إقليم البُجَة مسمى شرق السودان والذي كان يتكون حسب ذلك المرسوم من مديرية التاكا (كسلا)

الوقت يمتد من التاكا الى مصوع تحت عباءة الدولة العثمانية، ثم خديوية مصر. وكما يقول المؤرخ أنطوني دو أفري فإنَّ المنطقة بأسرها شهدت في السنوات التي أعقبت إعلان قيام الثورة المهدية حالة من الفوضى والاضطراب:

«In the years following the Mahdist revolution, when a Sudanese from Dongola, Mohamed Ahmed, proclaimed himself to be The Mahdi, the « Inspired One» the whole region along the still undelimited Eritrean-Sudan frontier was in a state of chaotic movement».[1]

التقسيم الثاني للأرض[٢]:

عندما تولى كَنْتَيْبَايْ محمود رئاسة الحَبَاب، كان الايطاليون قد أعلنوا، قبل عام تقريباً، عن تأسيس مستعمرتهم الجديدة والتى حملت اسم «إرتريا»، ولكنهم لم يكونوا بعد قادرين على فرض سيطرتهم الفعلية[٣] على نقفا وحِشْكِبْ و«وَدْ جَان» وأَلْقَيْنَا (الأصح أن تكتب «أَلْجَيْنَا» بالجيم اليمانية ولكن البعض يكتبها «أَلْقَيْنَا»)، ورحيب وغاغت وتكلاي وجُلبوب وقرورة، وكذلك لم تكن للإنجليز سلطة فعلية على الأرض في مناطق دروي وشعبت ومرافيت ومنطال وجنت ودرتت وعندل وعيت وعدوينا وعيدب وعيتربا وعدارت وعقيتاي وعقيق، وهي المناطق التى يسميها أهلنا الحَبَاب إجمالا منطقة مَقَدَّام Magaddam. لكن المنطقة عموماً كانت تشهد تغيّراً متسارعا وجذريا، حيث إنَّه ما أنْ حلَّ شهر يناير عام ١٨٩٠م

وسواكن ومصوع وسنحيت (كرن) والقلابات (جنوب القضارف).

(1) The Nakfa Documents, op.cit. p110.

(٢) أنظر الباب الثاني بالنسبة للتقسيم الأول للأرض.

(٣) رغم أن مستعمرة إرتريا قد أنشئت من قبل الإيطاليين رسميا في عام ١٨٩٠م الا أن الإيطالين لم يسيطروا فعليا على الحدود الفاصلة بين السودان وإرتريا الا بعد مرور عشرة أعوام، أي في عام ١٩٠٠م. لمزيد من التفاصيل راجع:

«Notes on Beni Amer Society» written by S F Nadel in Volume 26 of Sudan Notes and Records, 1945, p.52.

حتى أصدر ملك إيطاليا (همبرت الأول) مرسوماً بانشاء مستعمرة اريتريا، ثم تلا ذلك (في حدود سنة تقريبا) هزيمة الأنصار في توكر، والتي خرجوا منها في فبراير ١٨٩١م. وبعد أقل من شهرين فقط من سقوط توكر تم ابرام بروتوكول تقسيم الحدود بين مناطق نفوذ الدولتين ـ انجلترا وإيطاليا ـ حيث تم في ١٥ أبريل ١٨٩١ ابرام بروتوكول تعيين مناطق النفوذ في شرق أفريقيا من البحر الأحمر حتى النيل الأزرق، ثم تلاه بعد أربع سنوات في ٢٥ يونيو ١٨٩٥ اتفاق بين إيطاليا ومصر (باعتبارها أحد طرفي الحكم التركي ـ المصري)، تم بموجبه تخطيط الحدود للمنطقة الواقعة بين البحر الأحمر وخور بركة (بَرْكَا).

وهكذا قسمت هذه الأرض الطيبة مرة أخرى، ولكن هذه المرة ليس بإرادة أصحابها، وإنَّما طبقا لمواقع النفوذ ومصلحة المستعمرين. وتبعا لذلك المقترح الساعي لتقسيم النفوذ، أصبح جزء من أراضي القبيلة، بما فيها «نقفا» و«رحيب» تحت النفوذ الإيطالي، بينما أصبحت أراضيهم في مَقَدَّام تحت النفوذ البريطاني. وفي الحقيقة فإنَّ وجود قسم من القبيلة تحت الإدارة الإيطالية، والجزء الآخر تحت الإدارة البريطانية أدي الى ظهور خلاف بين الإدارتين منذ اليوم الأول من تقسيم الحدود، حيث أنَّ جزءاً من القبيلة، كما يقول وليام يونغ[١] (William Young) رفض منذ البداية (في عام ١٨٩١-١٨٩٢م) دفع الطلبة (الضريبة) لسلطات إيطاليا، وفضل دفعها للسلطات البريطانية وهذا - كما يقول وليام - خلق مشكلة بين الإدارتين. وفي الحقيقة فإنَّ هذا النزاع بين قسمي القبيلة اسْتُغِلَّ كذريعةٍ من قبل المستعمرين لتثبيت نقاط الحدود على الأرض على النحو الذي استقرت عليه فيما بعد.

(١) أنظر المقال الذي حرره وليام يونج بعنوان:

«The Rashayida Arabs vs. the State: The Impact of European Colonialism on a Small-Scale Society in Sudan and Eritrea» by William C Young. Journal of Colonialism & Colonial History, Baltimore: Volume 9, Number 2, Fall 2008.

والنتيجة هي إنَّه ليس الحَبَاب فقط، ولكن كل القبائل البجاوية التي عاشت متنقلة في تلك البقاع على مر العصور، وجدت نفسها فجأة مقسمة الهوية والوجود، وفتت القبيلة بل العشيرة الواحدة الى قسمين، تفصلهما حدود وهمية رسمها المستعمرون بطريقة اعتباطية تحافظ لهم على مناطق نفوذهم، دون مراعاة للتداخلات العرقية والقومية والثقافية والتاريخية التي تربط بين شعوب المنطقة المغلوبة على أمرها. وازاء هذا الوضع لم يكن أمام كَنْتَيْبَايْ محمود إلاَّ أنْ يحسم أمره بين خيارين أحلاهما مرُّ: إمَّا الخضوع لإيطاليا والبقاء في مصيف القبيلة في نقفا (إرتريا)، أو الانضمام للنفوذ البريطاني، والاستيطان في مشاتى القبيلة في مَقَدَّام (السودان) حيث عدوبنا وشرم بَحَايْلاَيْ. واختار كَنْتَيْبَايْ محمود الخيار الأخير، وطلق كَنْتَيْبَايْ محمود إيطاليا طلاقا بائنا لا رجعة فيه!!.

لقد كان كَنْتَيْبَايْ محمود رجلاً متديناً لا يميل الى سفك الدماء، ولكنه كان شديد البأس عند اللقاء، وإذا عزم على شئ كان لا يلتفت الى غيره أبداً، أليس هو القائل: «شِيقْبَاي سَتِّي أَبُوكَا ❋ حَقُو قَنْظَا إبْ نِويتْ»، وتفسيرها: أبوك يركب الصعب إذا نوى على شيء. لقد تأكد كَنْتَيْبَايْ محمود من استحالة التعايش مع الإيطاليين، الذين ما فتئوا يملون شروطهم على السكان بطلب الجمال ودفع الضرائب الباهظة، والتدخل في نمط حياة البدو عموماً، فضلاً عن الموجدة الشخصية لكَنْتَيْبَايْ محمود ضد الإيطاليين والمتمثلة في سجنهم لوالده وقتله بالسَّم. لهذا قرر كَنْتَيْبَايْ محمود عدم التعامل مع الإيطاليين، والانفصال عن سلطتهم نهائياً، والانتقال بكافة الحَبَاب الى المضارب الشتوية للقبيلة في منطقة مقدَّام، والتى أصبحت في ذلك الوقت تحت النفوذ البريطاني، خاصة بعد سقوط توكر في عام ١٨٩١م. ولهذا الهدف جمع كَنْتَيْبَايْ محمود الجنود الذين كانوا تحت إمرته، وكذلك قوات الرديف السوداني والباش بزق الذين كانوا مع والده، جمعهم في صعيد واحد

وطلب منهم تجميع المواشي كلها واستياقها الى ناحية منطقة وَدْ قان[1] (وَدْ جان Wad Gan أي ابن الجن، والجيم دائما يمانية). ثم جمع أعيان القبيلة، وكانوا واحداً وأربعين شيخاً يمثلون قبائل الحَبَاب المختلفة في ذلك الوقت، وأمرهم بالرحيل الى مرعى وَدْ جان، ولم يخبرهم بنيته في الانتقال نهائيا بالقبيلة الى مناطق النفوذ البريطاني، وإنّما أشعرهم بأنَّ الأمر لا يَعْدو أنْ يكون أكثر ممَّا اعتادوا عليه من رحلة الشتاء والصيف، حيث قال لهم عندما سأله بعضهم عن السبب: « حباب بَدِير سبِّك وساجم»، أيْ أنَّ الحَبَاب منذ القدم (من بَدْرِي) يشتي (يَسْبِك) ويصيف (يُسَاجِم)، وبالطبع كان الوقت شتاءً ولذلك من الطبيعي الانتقال الى المشاتي في السواحل. أثناء مكوثه في وَدْ جان كان كَنْتَيْبَايْ محمود يرتب للأمر مع أصدقائه في سواكن، وفعلا حضر فارسان مسلحان من قبيلة الأرتيقا على جواديها، ومكثا يومين في وَدْ جان مع كَنْتَيْبَايْ محمود، ثم رجعا الى سواكن ولا أحد يدري ما تمَّ من ترتيب أثناء حضورهما الى وَدْ جان. بعد ذلك أثمرت الجهود التي بذلها السيد عثمان شيخ (أحد أبرز وجهاء سواكن في تلك الفترة) لتزويج ابنه بأخت كَنْتَيْبَايْ محمود، وفعلا حضر هو ومعه عدد كبير من أعيان سواكن الى وَدْ جان، وتمَّ الزواج شتاء عام ١٨٩٤م. ويبدو أنَّ هذا الزواج كان ضمن مخطط التمويه الذي أعدَّه كَنْتَيْبَايْ محمود ومناصريه لجمع القبيله كلها في مكان واحد، حيث يسهل إقناع النَّاس بالتجمع لحضور زواج أخت الزعيم والرأس الكبير. نقول هذا لأنَّه بمجرد اتمام الزواج، أمر كَنْتَيْبَايْ القبيلة كلها بالرحيل فتحركت القوافل تجاه منطقة مَقدَّام، ونورد هنا باختصار وبتصرف، الأحداث المهمة التي عرفت فيها بعد بتمرد الحَبَاب «Habab Defection»، وذلك اعتماداً على ما ورد من تفاصيل في كتابي أنطوني دو أفري؛ كتابه: «ملوك البحر الأحمر Lords of the Red Sea» وكتابه الآخر:

---

(١) يجب التنبيه الى أن أنطوني دو أفري كتبها خطأ بصيغة Uod Gau وحسب علمنا لا توجد منطقة في أرض الحَبَاب باسم « ود قعو».

«وثـائق نقفا The Nakfa Documents»:

(١) في يوم ٢٤ يناير ١٨٩٥م تحركت قبائل الحَبَاب بأكملها شمالا، من وَدْ جان الى جهة قرورا، ويبدو أن الشيخ حامد وَدْ محمد(١) (أحد شيوخ عَدْ نَافعُوتَايْ) والسيد عثمان شيخ (من أعيان سواكن) كانا من ضمن المرافقين لكَنْتِيْبَايْ محمود في ذلك اليوم. وتعليقا على بداية الأحداث يقول انطوني دو أفري: لابُدَّ أنَّ الفارسين من الارتيقا اللذين حضرا من سواكن الى كَنْتِيْبَايْ محمود في وَدْ جان قد أرسلهما السيد عثمان شيخ:

«Sometime last year [1894], there came to Uod Gau[2] two Artega on horseback,......they must have been sent by Osman Sheik, but we do not know what their mission was».[3]

ثم يستطرد أنطوني دو أفري فيقول: إنَّ عثمان هذا قد حضر بنفسه الى كَنْتِيْبَايْ محمود في وَدْ جان لحضور احتفالات زاج ابنه من أخت كَنْتِيْبَايْ محمود:

«The same Osman Sheik was also, in late 1894, in negotiation with Kantibai Mahmud, with a view to the marriage of the Kantibai's sister to his son......Osman Sheik arrived at Uod-Gan himself shortly after for the wedding celebrations, and about 24 Jauary, the whole of the Habab, the Tigre included, left with him [Osman Sheik] to the north».[4]

(٢) في يوم ٢٧ يناير ١٨٩٥م، وصلت القبيلة الى قرورا، وفوراً بعث كَنْتِيْبَايْ

---

(١) راجع صفحة (٨٩) و (٩١) من كتاب: «وثـائق نقفا The Nakfa Documents» ، مرجع سابق، وكذلك راجع صفحة (٢٤١) من كتاب: «ملـوك البحر الأحمر Lords of the Red Sea» ، مرجع سابق.

(2) Mr. Anthony D'Avray wrote «Wad Gan» mistakenly as «Uod Gau» and this is one of the very few errors in the D'Avray's pefect two books, namely: «Lords of the Red Sea» and «The Nakfa Documents»

(3) Lords of the Red Sea, op cit, p. 236.

(4) Ibid, p. 237.

محمود بخطابين الى سواكن (حاضرة المنطقة آنذك). كان أحد الخطابين موجهاً الى الحاكم الإنجليزي في سواكن الكولونيل «لويد»، والخطاب الثاني كان موجهاً الى السيد «محمد عثمان (تاج السر) الميرغني»، راجل سواكن أو سيدي عثمان (Sidi Osman) حسبما ورد كتاب أنطوني. إنَّ النقطة التى ينبغي التركيز عليها هنا هي أنَّ الحدود بين البلدين، (إرتريا والسودان) اللذين تكونا حديثاً، لم تكن موجودة على الاطلاق عندما انحاز كَنْتِيْبَايْ محمود لمناطق النفوذ البريطاني في يناير ١٨٩٥م، وإنَّما تم رسم الحدود فيما بعد. وعلى الورق فقط. وذلك بعد أربعة أشهر، أي في ٢٥ يونيو ١٨٩٥م، حيث اتفقت إيطاليا ومصر (باعتبار الأخيرة أحد طرفي الحكم الثنائي وصاحبة الولاية على اقليم شرق السودان الممتد الى مصوع) على تخطيط الحدود للمنطقة الواقعة بين البحر الأحمر وخور بركة. لهذا ظلت القبائل تتحرك بحرية في رحلة الشتاء الى السواحل ورحلة الصيف الى الجبال، ولولا هذا الوضع لما تمكن خمسة عشر ألف شخص بكامل عددهم وعتادهم من جنود وسلاح وبهائم ونساء وأطفال من الانتقال من «وَدْ جان» الى «عَدَارَتْ» دون أي اعتراض من أحد، أيٍّ كان. وهذا ما دعى السيد دو أفري للقول:

«It has to be noted ...... that the long period of Mahdist rule in Tokar, and then the expulsion of the Mahtlists without there being put in its place any other firm authority had left a confusion in the nomads' minds as to where any frontier lay; for it was, too a fact that the frontier had never been delimited. The necessary tracing of a frontier line on the ground did not take place till later».[1]

وفي هذا الصدد نشير الى بحث حديث أعده السيد/ جونثان ميران[٢]

---

(1) The Nakfa Documents, op.cit. p 94.

(٢) لقد تحدث كثيرا عن الحباب وعاداتهم في كتابه (باللُّغة الإنجليزية) الذي سبق أن أشرنا اليه بعنوان: سكان البحر الأحمر «Red Sea Citizens».

(Jonathan Miran) من جامعة ويسترون واشنطون، يقول فيه إنَّه حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت القبائل والبضائع والأفكار تنتقل بحرية بين المناطق على طول السَّاحِل الأفريقي للبحر الأحمر، ولكن في نهاية القرن التاسع عشر أصبحت القوى الاستعمارية التى وفدت للمنطقة تضيق وتمنع حرية الانتقال (على الأقل من الناحية الرسمية)، وأصبح هذا المنع يشكل تحديا لتلك القوى:

«To conclude this section, the three macro-level tendencies generated intensified migration and circulation, greater mobility and greater exposure to other areas, products, peoples and ideas which circulated more dynamically across northeast Africa and the Red Sea area. Yet, paradoxically, the imposition of colonial rule in the end of the nineteenth century restricted mobility and confined Tigre societies – at least formally – within the boundaries of Italian Eritrea»[1]

ثم يضيف قائلا إن تمرد الحَبَاب المشهور وانتقال كافة القبيلة في يناير ١٨٩٥م من مناطق النفوذ الإيطالي الى مناطق النفوذ البريطاني يعتبر مثالا صارخا لهذا التحدي:

«The episode which epitomizes this in the most vivid terms is the famous «Habab defection» in January 1895, when almost the entire group left northwestern Eritrea and crossed into the Anglo-Egyptian Sudan as an act of protest against Italian authoritarianism and in order to escape from the heavy taxation imposed by the Italian colonial government.»[2]

---

(1) See page 42 of the Essay written by Jonathan Miran of Western Washington University, titled: «Constructing and Deconstructing the Tigre Frontier Space in the Long Nineteenth Century», published in the «Studi Africanistici. Serie Etiopica» 8, Napoli: Università di Napoli «L'Orientale», 2010.

(2) Ibid, p. 43.

(٣) في يوم ٢٨ يناير ١٨٩٥م وصل كَنْتَيْبَايْ محمود، ومعه ما لا يقل عن خمسة عشر ألفاً من أفراد قبيلة الحَبَاب (بكافة قبائلهم ولا سيَّما أَسْفَدَا وأَلْمدا ورقبات وميكال ودوبعات ودقدقي وزاجِر وسَبْ لعاليت والبراطيخ وعَدْ شيخ وعَدْ درقي... الخ)، الى جنت Genet (والجيم دائما يمانية).

(٤) في أو قبيل يوم ٤ فبراير ١٨٩٥م علم حاكم سواكن الكولونيل «لويد» Colonel Lloyd بتحرك كَنْتَيْبَايْ محمود، فكتب للسلطات الإيطالية مستفسراً عمَّا إذا كانوا يعلمون بتحركات كَنْتَيْبَايْ محمود، كما أبلغ السلطات العليا في القاهرة عن تمرد الحَبَاب على الإيطاليين، وانتقالهم للنفوذ البريطاني. هذا وقد تحرى الإيطاليّون عن المغزى من تحركات الحَبَاب، فأفادهم الشيخ عامر (وَدْ شيخ الأمين وَدْ شيخ عمر - من عَدْ نَافعُوتَايْ) بأنَّه مقتنع بأن كَنْتَيْبَايْ محمود يرغب في الانحياز لمناطق النفوذ البريطاني.

(٥) في يوم ٤ فبراير ١٨٩٥م تحرك كَنْتَيْبَايْ محمود، ومعه كافة الشيوخ، الى منطقة «عدارت» Adaret ، وفي نفس اليوم وصل الى عدارت من سواكن وفد رفيع المستوى، بقيادة الحاكم العام لإقليم شرق السودان في سواكن العقيد لويد Colonel Lloyd والسيد/ محمد عثمان (تاج السر) الميرغني، والشيخ إدريس حامد بك[١] (دِقْلَلْ إدريس فيما بعد)، والسيد أكد وَدْ موسى (عمدة

---

(١) كان الشيخ/ إدريس حامد بك في استقبال كَنْتَيْبَايْ محمود بصفته الشخصية حيث لم يكن لبني عامر في السودان دقلل (ناظر) في ذلك الوقت، وإنما كان كافة بني عامر، سواءً الموجودين في إرتريا أو السودان، يتبعون لدقلل الحسين الذي كان مقره في « هَوَاشَيتْ» في إرتريا. وفقط في عام ١٨٩٧م تم تعيين إدريس حامد بك في منصب ناظر (دقلل)، وهو يعتبر أول دقلل لبني عامر السودان، وهو أخ دقلل بني عامر في إرتريا في ذلك الوقت؛ انظر صفحة ٦٣ من مقال نادل المشار اليه سابقا بعنوان:
«Notes on Beni Amer Society».

عَدْ هاسري)، والشيخ عَلِيّ شابل Ali Shiabil أحد زعماء البهدور، والشيخ عبد الله والشيخ مبارك وَدْ سالم (زعيمي الرشايدة)، لاستقبال كَنْتِيْبَايْ محمود في عدارت، والاجتماع به وبشيوخ الحَبَاب الذين معه. ويعلق السيد أنطوني دوأفري على هذه الواقعة بالقول بأن أهمية هذا اللقاء وأهمية الرجل الملتقى به تتضح من كون أنَّ حاكم سواكن الكولونيل لويد قد قطع كل هذه المسافة، ومعه أكثر الشخصيات الدينية تأثيراً (السيد محمد عثمان تاج السر الميرغني - راجل سواكن)، لملاقاة كَنْتِيْبَايْ محمود، وتكبدوا مشاق السفر من سواكن الى مقر كَنْتِيْبَايْ، وهي مسافة بعيدة بالنسبة لمن يسافر بالدواب أو مشياً على الأقدام، خاصةً وأنَّ الطرق وعرة في تلك المنطقة، وبالطبع لم تكن معبدةً في ذلك الوقت:

«The importance of this meeting must be judged from the facts that Lloyd came such a distance from Suakin and that Morgani, the most illustrious holy man of the Anglo-Egyptian region, accompanied him.»[1]

أثناء اجتماع الحاكم لويد والسيد محمد عثمان الميرغني مع كَنْتِيْبَايْ في عدارت، سأل الحاكم الإنجليزي الشيوخ الذين كانوا بمعية كَنْتِيْبَايْ عمَّا إذا كانوا يمثلون الحَبَاب؟ فقالوا نعم نحن شيوخ الحَبَاب. ولكن عدداً منهم أبدى رغبته في الرجوع لمناطق النفوذ الإيطالي، وعدم البقاء مع كَنْتِيْبَايْ محمود لأنه حسب قولهم عدو «enemy» لهم، (يعلق دوأفري على ذلك بالقول بأن هؤلاء الشيوخ المعارضين كانوا من اتباع خصمه كَنْتِيْبَايْ هِدَاد)[٢]. فغضب كَنْتِيْبَايْ محمود وحدث هرج ومرج، وكاد النَّاس أنْ يقتتلوا. هذا وقد اشتكى بعض الشيوخ وعدد كبير من الرعاة الى الحاكم الإنجليزي عن طبيعة الأرض

(1) The Nakfa Documents, op cit, p 89.

(٢) انظر صفحة ٢٣٧ من كتاب « ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق.

في منطقة درتت Dertit التى خصصت لمرعى بهائمهم لكونها فقيرة المرعى نسبيا، فكان ردُّ الحاكم الإنجليزي يتلخص في أنَّ الحكومتين الإيطالية والإنجليزيه تجمعها صداقة، وسوف يتم ايجاد حل لهذا الموضوع فيما بعد، وطلب منهم عدم الرعي فيما وراء منطقة دِرْتِتْ Dertit وفي حالة مخالفة ذلك الأمر فأنه لا يضمن سلامة بهائمهم.

أمّا كَنْتَيْبَايْ محمود (واتباعه من الشيوخ) فقد أكدوا عدم رغبتهم في الرجوع للمناطق التي يحتلها الإيطاليّون مبررين ذلك بثلاثة أسباب هي:

(١) طلب الإيطاليين من القبيلة تزويدهم كل شهر بعدد من الجمال.
(٢) الطلب المستمر من قبل الإيطاليين بتجنيد الشباب من الحَبَاب.
(٣) الضريبة أو الطلبة المرتفعة التي يطالب بها الإيطاليّون.

وعند نهاية الاجتماع طلب الحاكم الانجيزي من المحتجين الرجوع من «عدارت» الى «جنت»، ووعدهم بأن السيد محمد عثمان الميرغني وكَنْتَيْبَايْ محمود سيضعان الأمور في نصابها. هذا وبالفعل رجع السيد محمد عثمان الميرغني مع كَنْتَيْبَايْ وشيوخ الحَبَاب الى جنت، وكما يقول أنطوني دو أفري في صفحة ٢٣٧، وظف السيد محمد عثمان (تاج السر) الميرغني، أو سيدي عثمان كما أسماه، وكما كان يسمى، كل نفوذه الديني لإقناع الشيوخ المناوئين لكَنْتَيْبَايْ محمود بالبقاء تحت إدارته، وعدم الرجوع للايطاليين واستطاع - بمساعدة الجنود المسلحين التابعين لكَنْتَيْبَايْ محمود - من جمع توقيعات جميع الشيوخ، معلنين عن رضائهم وتعهدهم بالخضوع لسلطة الحكم الثنائي في سواكن.

(٦) في اليوم التالي (٥ فبراير ١٨٩٥م) حضر الحاكم العام الإنجليزي الى جنت (مقر كَنْتَيْبَايْ محمود) في طريقه الى سواكن، ولم ينزل من جمله، ولكنه توقف

قليلا لمخاطبة القوم، فجاءه الشيخ أكد وَدْ عجيل (أحد بيت أسْجَدَيْ المناوئين لكَنْتَيْبَايْ محمود)، وقال للحاكم الإنجليزي أنا وبعض أصحابي لا نريد البقاء مع كَنْتَيْبَايْ محمود لأنه سوف يقتلنا، فردَّ عليه الحاكم العام بأنه لن يصيبه شئ من قبل كَنْتَيْبَايْ، طالباً منه البقاء بهدوء. بعد ذلك استلم الحاكم العام تلك التعهدات من يد السيد محمد عثمان الميرغني، وواصل مسيره على جمله الى عقيق، واستغل مركباً الى سواكن. قال أنطوني دو أفري في صفحة ٢٣٧ من كتابه «ملوك البحر الأحمر»:

«The following day the fifth February, the English Governor arrived at Kenet {Genet}, and without dismounting from his camel, received from Sidi Osman , who handed it to him, a declaration followed by the seals of the notables in which they asked to pass over to the dependency of the Anglo-Egyptian Government».[1]

عقب رجوع الحاكم الإنجليزي الى سواكن، تجمع عدد من الشيوخ والعربان وطلبوا من كَنْتَيْبَايْ محمود الوفاء بوعده المتعلق بتوفير المرعى للبهائهم، وخاصة المنطقة الواقعة بين وَدْ جان Uod Gan وقلبوب Golbub ، فطلب منهم كَنْتَيْبَايْ الصبر حتى نهاية رمضان (١٨ مارس ١٨٩٥م)، حيث ستمكن الإدارة البريطانية، بحلول ذلك الوقت، من تخصيص مراعي وَدْ جان وقلبوب للحباب، واذا اخفقت ادارة الحكم الثنائي في ذلك فسوف يذهب الى القاهرة لرفع شكوى بذلك[٢]. ويبدو أنَّ هذا الكلام لم يقنع البعض، خاصة الرعاة الذين لا تهمهم كثيرًا الأمور السياسية والحدود الدولية المستحدثة، وإيّ إدارة يتبعون، بقدر ما يهمهم المرعى الجيد في المناطق التى ظلوا يتنقلون فيها بحرية على مدى العصور.

(1) Lords of the Red Sea, op cit, p. 237.

(٢) وثائق نقفا، مرجع سابق، صفحة ٩٤.

وفي هذا الصدد يعلق دوأفرى بالقول:

«The bewilderment of the Habab, lords and serfs alike, stemmed basically from their lack of comprehension of the significance of frontiers.»[1]

ثم يشير في نفس الصفحة الى ما قاله الإيطاليّون في شأن عدم إكتراث الحَبَاب بالحدود السياسية الفاصلة بين النفوذين الإيطالي والإنجليزي فيقول نقلا عن المستند رقم ٧٣ الذي حرره المخبر الإيطالي تنيتي مياني Tenente Miani في مارس ١٨٩٥ الى الحاكم العام في أسمرا:

«The choice by the pastoralists of where to go was at one time governed... by the fact of finding for a few months on the coast green and fresh pastures. That would increase in their beasts the production of milk. The pastoralists believe that it is their right to pasture freely in one or another of the slopes leading off the mountains according to their needs and the seasons.... They have the conviction that these considerations are all that there is to justify passing frontiers and into the dependence of other governments.»

وكما أشار السيد دو أفري في الفقرة السابقة فإنَّ الحدود في ذلك الوقت (فبراير ١٨٩٥م) بين البلدين (إرتريا والسودان)، اللذين تكونا حديثاً، لم تكن معروفة للسكان المحليين، وكانوا بالأحرى لا يعترفون بأيٍّ حدود، وإنَّما كانت قبائل ذلك الإقليم ـ بما فيهم الحَبَاب ـ تتحرك بحرية حسب وجود المرعى الجيِّد. وهذا ما أكدته السلطات الإيطالية، حيث يقول رجل المخابرات الإيطالي الضابط «مياني» Tenente Miani في المستند رقم ٧٣ (المشار اليه في كتاب «وثائق نقفا») المحرر في مارس ١٨٩٥ م والموجه الى الحاكم الايطالي في أسمرا: إنَّ إختيار الوجهة التى يرغب الرُّعاة في الذهاب اليها كان ـ في وقت من الأقات ـ يتحكم فيه وجود مرعى

(1) The Nakfa Documents, op cit, p 94.

خصب لعدة أشهر على الساحل، وهذا أمر يدر الألبان في ضروع من بهائمهم. إنهم يعتقدون بأحقيتهم في الرعي بحرية في أي وادٍ من الأودية المنحدرة من الجبال، تبعاً لحاجتهم ومواسم الأمطار..... ولديهم قناعة بأن ما ذكر كاف لتبرير انتقالهم بين سلطة وأخرى على جانبي الحدود:

«The choice {by the pastoralists} of where to go was at one time governed by the fact of finding for a few months on the coast green and fresh pestures, that would increase in their beasts the production of milk. The pastoralists believe that it is their right to pasture freely in one or another of the slopes leading off the mountains, according to their needs and the seasons........ They have the conviction that these consideratons are all that there is to justify passing fortiers and and into the dependence of other govenments».(1)

ويقول الجنرال الايطالي انجيرا Tenente Anghera (في المستند رقم (٥١) المشار اليه في كتاب «وثائق نقفا» المذكور)، إنَّ الحدود في ذلك الوقت (حرر المستند في ١٥ فبراير ١٨٩٥) لم تكن معروفة للمواطنين في تلك الأصقاع:

«But even these were fully convinced that English influence would have protected them much further to the south of the frontier line which was unknown to the natives».(2)

(٧) في يوم ٨ فبراير ١٨٩٥ اجتمع السيد/ أمين أفندي، ممثل حاكم سواكن، مع كَنْتِيْبَايْ محمود في قنت (جنت)، وعقب ذلك توالى حضور الأعيان لمقر كَنْتِيْبَايْ محمود. ويبدو أنَّ الحاكم الإنجليزي كان يريد من عقد الاجتماعات المتكررة الاطمئنان على عدم مواصلة كَنْتِيْبَايْ محمود وجنوده السير شمالا، والالتحاق بمعسكر عثمان دقنة في أدارما. وفي إشارة لهذه المخاوف يقول المستند الاستخباراتي رقم (٧٢)، إنَّ احتمال التحاق كنتيباي محمود ورجاله المسلحين بالمهديين ظل قائماً:

---

(1) Ibid, p. 94.
(2) Ibid, p. 95.

«When the Defection was crumbling, the possibility remained that Kantibai Mahmud, with his armed men, might go over to the Mahdists».[1]

(٨) في يوم ١٠ فبراير ذهب أكد وَدْ عجيل (أحد بيت أسْجَدَيْ المناوئين لكَنْتَيْبَايْ محمود) مع الشيخ إدريس حامد (دِقْلَلْ إدريس فيما بعد)، الى عقيق في طريقه الى مصر ليشتكي حاكم سواكن بحجة أنَّ الأخير لم يستمع لكلامه (انظر حوادث ٥ فبراير ١٨٩٥)، غير أنَّ الشيخ إدريس أقنعه بالرجوع الى (جنت) والتوصل الى اتفاق مع كَنْتَيْبَايْ.

(٩) في يوم ١٥ فبراير ١٨٩٥م وفي منطقة إدي وَدْ قبر Edi wad Gabir بالقرب من عيتربا Aiterba جمع كَنْتَيْبَايْ محمود كل شيوخ الحَبَاب وجعلهم يقسمون على القرآن، أمام كافة أعيان القبائل الحدودية الأخرى في المنطقة، بأنهم سوف لن يعودوا للخضوع لسلطة الإيطاليين. وحسب نص أنطوني دو أفري في صفحة ٢٤٠ من كتاب «ملوك البحر الأحمر»:

«On 15 February, at a place called Eda Uold Gaber, close to Aiterba, there swore on the Koran all the Sheiks with Mahmud, and in the presence of the chiefs of the border tribes, that they would not pass again under the dependence of the Italians».[2]

ليس هذا فحسب بل وحسبما ورد في المستند رقم ٥١ بكتاب «وثائق نقفا»، فإنَّ عدداً كبيراً من قبائل الحدود بما فيهم الرشايدة بزعامة الشيخ مبارك وَدْ سالم والشيخ عبد الله مسيوك (مسعود؟) Abdulla Masciuk والشيخ

(1) Ibid, p. 112.
(2) Lords of the Red Sea, op cit, p. 240. Although Mr. Anthony d' Avray quotes the name «Eda Uod Gaber» correctly in his book «Lords of the Red Sea» he, in his other book «The Nakfa Documents» wrote the name eronously as «Eda Uod Gaben»; see e.g. page 95 of «The Nakfa Documents».

باسط Bascit حضروا في يوم ١٥ فبراير ١٨٩٥م الى منطقة إدي وَدْ قبر، بالقرب من قرية «عيتربا»، واقسموا مع كَنْتِيْبَايْ محمود على عدم الرجوع للإدارة الإيطالية، وذلك بحضور مشايخ كافة القبائل الحدودية.

(١٠) في يوم ١٦ فبراير ١٨٩٥م حضرت قوة من الإيطاليين بقيادة البريقادير جوبيرا «Brigadiere Guerra» الى قرورة فلم تجد أحداً من السكان فذهبوا الى «رحيب»[1] مقر الشيخ حامد وَدْ محمد (أحد شيوخ عَدْ نَافْعُوتَايْ) فوجدوه قد ذهب من رحيب ولحق بكَنْتِيْبَايْ محمود، ثم عرَّجوا على قرية الرشايدة المعروفة بقرية الزُّبَيْدِية فوجدوا زعيم الرشايدة الشيخ/ مبارك ولد سالم قد ذهب الى عقيق ليفعل مثل ما فعل كَنْتِيْبَايْ محمود، وذلك بسبب الضرائب الباهظة التى كان يجمعها الإيطاليّون من الأهالي. هذا وقد وجه كَنْتِيْبَايْ محمود رسالة الى البريقادير جوبيرا عند وصوله الى قرورة نصحه فيها بأن يعود الى رؤسائه في كرن، ويقول لهم إنَّه عاجز عن فعل أي شيء فيما يتعلق بالحَبَاب:

«Kantibai, knowing of the presence of the Brigadiere at Karora, sent him a massage that he, the Brigadiere, might as well go back to Keren, saying that he would have no more anything to do, that concered the Habab».[2]

(١١) في يوم ١٨ فبراير ١٨٩٥م ذهب كَنْتِيْبَايْ محمود الى سواكن للاجتماع بالحاكم العام وفي ذلك اللقاء رفض كَنْتِيْبَايْ محمود بشدة رجوع أي أحد من قومه واتباعه الى الإدارة الإيطالية، ومنذ ذلك الحين حاول النَّاس ايجاد مخرج لهم للرجوع الى مراعيهم في الجانب الخاضع للسيطرة الايطالية، فأصبح بعضهم، حسبما ورد في المستند رقم (٤٧) يدعى بأنَّه من «عَدْ أُكُد

---

(١) تبعد عن قرورا حوالي إحدى عشرة ساعة مشيا على الأقدام.

(2) Lords of the Red Sea, op.cit. p 241.

(فرع من بني عامر)» ليسمح له بالرجوع الى إرتريا بدون اعتراض كَنْتِيبَايْ:

«It seems that the Ad Ocut pastoralists have been given their liberty and will soon re-enter {Eritrea}. Beni Amer pastoralists claim to be Ad Ocud in order to be set free».[1]

(١٢) في يوم ٢٣ فبراير ١٨٩٥م علم الإيطاليّون أنَّ زعيم الرشايدة مبارك وَدْ سالم والشيخ عمر «Omar Scius» (من رؤساء قبيلة الرشايدة) قد أقسما على القرآن بأنْ ينفصلا بقومهما عن الإدارة الإيطالية، مثلما فعل كنتيباى محمود، ولذلك قرر البريقادير جوبيرا ملاحقة الرشايدة، فانطلق من قرورة متعقباً أثر الرشايدة. وفي صبيحة ٢٤ فبراير قام حوالي مائة شخص من الرشايدة، وبحوزتهم ألفي جمل وثلاثة آلاف من الماعز، بمهاجمة البريقادير جوبيرا وجنوده، ولكنه تغلب عليهم بقوة سلاحه، وأَسَرَ الشيخ Bachilalla [٢] (دخيل الله؟) وَدْ سالم وصادر منهم بعض الأسلحة و ٢٠٠ جمل و ١٠٨ من الماعز. وفي مساء نفس اليوم تجمع الرشايدة مرة أخرى، وهاجموا الإيطاليين ولكن انهزموا مرة أخرى حيث قتل منهم أربعة أشخاص وأسِرَ اثنان مات أحدهما فيما بعد بقرورة. أمَّا الجانب الإيطالي فقد أقر بأن أحد جنوده يعتبر في عداد المفقودين. وفي المستند رقم ٥١ الوارد في كتاب «وثائق نقفا»، يشرح رجل المخابرات الإيطالي انجيرا Anghera الاساليب التى اتبعها لبث الفتنة وسط القبيلة وتحريض النَّاس على عصيان أوامر كَنْتِيبَايْ محمود، وحث الرعاة من العربان على العودة الى إدارته، ويذكر أنَّ عدداً من الجواسيس الذين تعاونوا معه قد تم أسرهم ومعاقبتهم من قبل كَنْتِيبَايْ محمود.

---

(1) The Nakfa Documents, op.cit. p 95-96.

(٢) راجع صفحة ٩١ من كتاب « وثائق نقفا»، مرجع سابق. هذا وقد كتب أنطوني نفس الاسم بطريقة مختلفة «Rakilalla» وذلك في كتابه الآخر «ملوك البحر الأحمر»، مرجع سابق، صفحة ٢٤٢.

(١٣) بتاريخ ١٤ مارس ١٨٩٥م، وطبقاً لما جاء في المستند رقم ٥٢، وصل مبعوث الإدارة الإيطالية المدعو كابتانو بيرسيكو Capitano Persico الى سواكن، وبتاريخ ١٧ مارس انعقد اجتماع في مقر الحَبَاب في منطقة درتت Dertit حضره كل من كابتانو بيرسيكو وحاكم سواكن السيد لويد وكَنْتَيْبَايْ محمود وكافة مشايخ الحَبَاب. وفي هذا الاجتماع تم استجواب الشيوخ، كل واحد بمفرده، وإثر ذلك أعلن اثنا عشر (١٢) شيخا ـ من جملة أربعين شيخاً ـ رغبتهم في العودة، هم وأسرهم وأموالهم، الى الادارة الإيطالية، وفعلا تم ارسال هؤلاء الشيوخ الى منطقة جنت حيث كان رجل المخابرات الإيطالي انجيرا Tenete Anghera في انتظارهم. لكن كَنْتَيْبَايْ محمود منع بالقوة أسر الاثني عشر شيخا من العودة (كان بامرته على الأقل أربعمائة عسكري مسلح ومئتي بندقية[1]. ولمن أراد معرفة أسماء هؤلاء الاثني عشر شيخاً عليه مراجعة المستند رقم ٥٢ الوارد في كتاب «وثائق نقفا». وفي هذا الاجتماع بالتحديد، وحسبما ورد في المستند رقم ٥٢، صرح الحاكم العام بضرورة الاستفادة من حادثة تمرد الحَبَاب، وذلك بمناقشة فكرة ترسيم الحدود فكان رد المبعوث الإيطالي بيرسيكو أنه ليس لديه صلاحية مناقشة هذا الموضوع:

«At the conference at Dertit, the English governer proposed that they might profit from the occation by proceeding to a delimination of the frontier, but Persico declared that he had no authority to negotiate».[2]

(١٤) في ١٥ مارس ١٨٩٥م طلب الحاكم العام الإنجليزي اجتماعاً مع كَنْتَيْبَايْ محمود، ليطلب منه السماح لكل من يريد الرجوع الى سلطة الإيطاليين.

---

(١) راجع المستند رقم ٥١ في كتاب «وثائق نقفا»، مرجع سابق، صفحة ٩١.

(2) The Nakfa Documents, op. cit. p 96.

(١٥) في ٣١ مارس ١٨٩٥ م، وحسبما جاء في المستند رقم ٧٢ الوارد في كتاب «وثائق نقفا»، أبدى رجل المخابرات الإيطالي انجيرا «Anghera» شكوكه في أنَّ رحيل قبيلة الحَبَاب لم يكن عشوائياً، وإنَّما كان بتنسيق واتفاق مع إدارة الحكم الثنائي في سواكن، وبرر ذلك بالقول بأنَّه لايمكن لهذا العدد الضخم من القبيلة (خمسة عشر ألف نسمة بسلاحهم وعتادهم) أنْ ينتقل من مكان لآخر في المنطقة الخاضعة لسلطة الحكم الثنائي (من قرورا الى جنت) في خمسة أيام فقط، بدون انتظار رد من السلطات (هنا يشير انجيرا Anghera الى الرسالة التى ارسلها كَنْتَيْبَايْ محمود الى حاكم سواكن بمجرد وصول القبيلة الى قرورا، ولم ينتظر الردَّ). ويرى أنجيرا أنَّ سبب التواطؤ يعود الى كون إدارة الحكم الثنائي ترغب في حرمان الإدارة الإيطالية من تعاون القبائل الحدوية التي تملك الجمال، الأمر الذي سيؤثر سلباً على امداد وتموين الحامية الإيطالية في مدينة كسلا.

«Certain it is that with its demonstrated intention to alienate the camel tribes of our northern frontier, it would have been able to create a certain embarrassment to the supplying of our garrison in Kassala»(1).

(١٦) بحلول مارس ١٨٩٥م كانت القبيلة قد اكملت انتقالها عن بكرة أبيها الى مقدام. وقد شاركت في هذا الانتقال كل الاطراف الفاعلة بها في ذلك خصوم كَنْتَيْبَايْ محمود، ولكن بمجرد وصول القبيلة الى مناطق مَقَدَّام بدأت المعارضة، حيث إنَّه وطبقاً لماورد في المستند رقم (٤٧) المؤرخ في ١٢ مارس ١٨٩٥م، وقف عدد من وجهاء الحَبَاب ضد سياسة كَنْتَيْبَايْ محمود في الانضمام لإدارة الحكم الثنائي في سواكن، وكان من أشدَّ النَّاس معارضةً القيادي البارز «أُكُد وَدْ عجيل» و«عثمان وَدْ هِدَاد وَدْ حسن» و«إدريس وَدْ همد وَدْ حسن» (والأخيران هما إبْنَا عمَّيْه « هِدَاد» و«هُمَّد»، اللذين كانا منذا

(1) Ibid, p. 97.

البداية في المعسكر المناوئ لأبيه كَنْتِيْبَايْ حامد)، و«محمد وَدْ كَنْتِيْبَايْ حسن» (وهو عم كَنْتِيْبَايْ محمود). كانت الأسباب وراء معارضة قرار كَنْتِيْبَايْ محمود بالانتقال لمناطق النفوذ البريطاني متعددة، وكل طرف معارض كانت له أسبابه الخاصة. فمثلا بالرغم من أنَّ شيوخ عَدْ تَكْلِيْس كانوا في صف كَنْتِيْبَايْ «حامد» وكانوا في البداية متحزبين لإبنه كَنْتِيْبَايْ محمود (وهم الذين ضحوا من أجل جعل النَّظَارة في هذا البيت كما بيَّنَا في معركة شِنْجَبْرَا)، نجدهم قد عارضوا قرار كَنْتِيْبَايْ محمود بالانتقال الى مناطق النفوذ البريطاني خوفاً من صحة الشائعات التى كانت منتشرة في ذلك الوقت ومفادها أنَّ الإنجليز كانوا يفكرون في جعل الشيخ «إدريس حامد دقلل» ناظراً على كافة القبائل القاطنة في منطقة الحدود الشرقية، وهذا أمر كان مرفوضاً للحباب جملة، وأولهم أبناء عَدْ تَكْلِيْس بالطبع، الذين اشاعوا الخبر حسبما يشير المستند[1]. وفعلا قاد هذا الفريق فيما بعد حملة لإرجاع القبيلة الى مناطق النفوذ الإيطالي، ولكن كَنْتِيْبَايْ محمود ومناصريه رفضوا هذا التوجه بشدة، فانسلخ جزء من المشايخ واتباعهم من إدارة كَنْتِيْبَايْ محمود وتوجهوا جنوباً نحو مناطق النفوذ الإيطالي، وعندما وصلوا الى قرورا اجتمعوا وعينوا الشاب «عثمان وَدْ هِدَاد» في منصب كَنْتِيْبَايْ[2]، وهو ابن عم كَنْتِيْبَايْ محمود، حيث سبق أنْ تحدثنا عن العم «هِدَاد» الذي كان مناوئا للأب "حامد"، ومن ثم أصبح ابنه «عثمان» مناوئاً للإبن «محمود»!!.

(١٧) بنهاية مارس ١٨٩٥م، برز اتجاه يدعوا الى منع القبائل البدوية من التنقل (كما هي عادتهم) بين المناطق التى أصبحت حينئذ تحت نفوذين مختلفين، الايطالي والبريطاني. فقد حرر رجل المخابرات الإيطالي انجيرا Anghera

(١) انظر صفحة ٩٤ من كتاب « وثائق نقفا»، مرجع سابق.

(٢) انظر صفحة ٩٤ من كتاب « وثائق نقفا»، مرجع سابق.

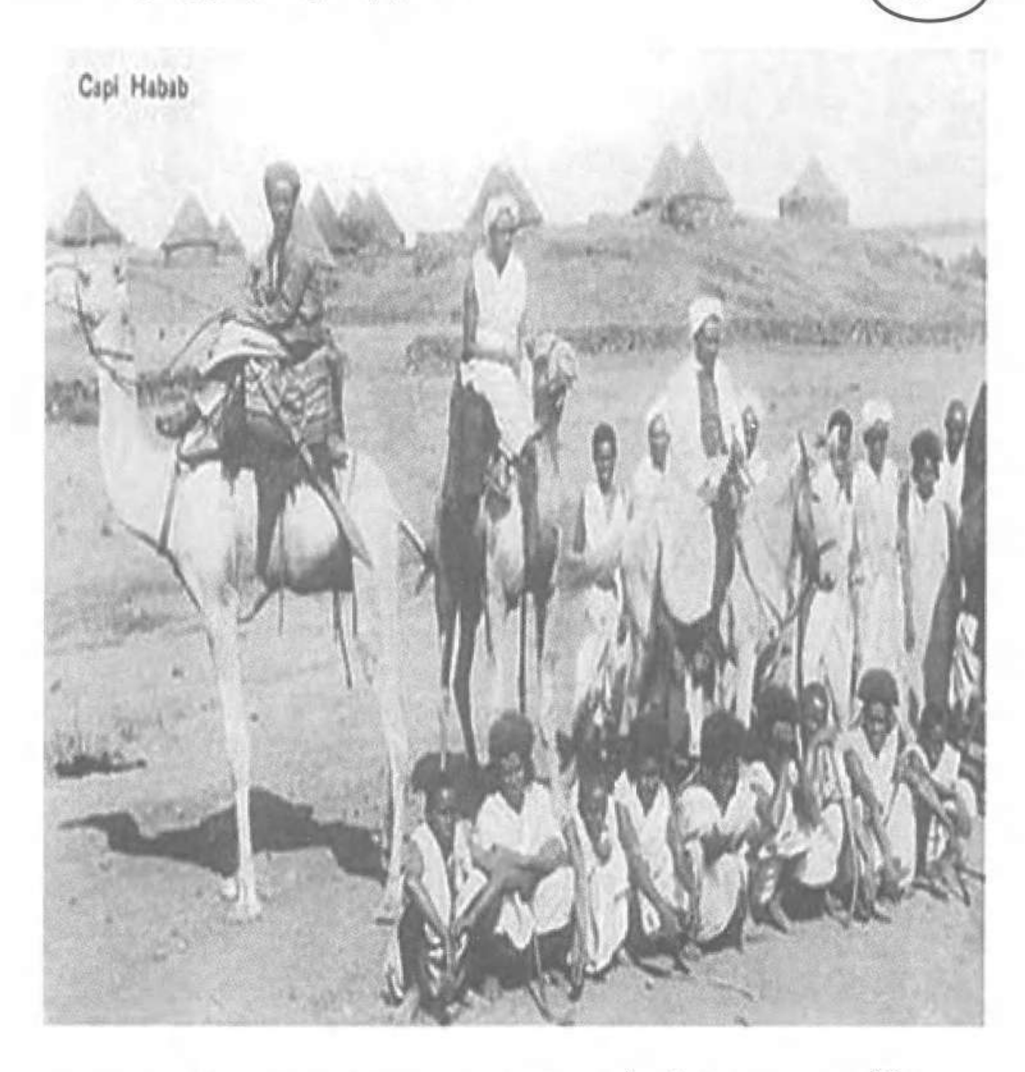
المستند رقم (٧٢) بتاريخ ٣١ مارس ١٨٩٥م، تحدث فيه كثيراً عن أسباب وعواقب تمرد الحَبَاب على إدارته، وأشار الى التواطؤ الذي كان يحس به من قبل إدارة الحكم الثنائي في سواكن تجاه تمرد الحَبَاب، وفي الختام أوصي بمنع القبائل الحدودية، وخاصة الرشايدة وعَدْ هاسري وأفْلَنْدَا، من التمتع بمراعيهم التقليدية داخل الأراضي التى يسيطر عليها الإيطاليّون.

(١٨) في يوم ٢٧ ابريل ١٨٩٥م، وحسبما دونه الضابط الإيطالي بونجيوفاني Tenente Bongiovanni في المستند رقم ٥٣ المحرر في نهاية ابريل ١٨٩٥م، وصل الفريق المنشق عن كنتيباي محمود الى نقفا، ويصف المستند احتفال بعض شيوخ الحَبَاب بالعودة، وتلك الفرحة العارمة التي كست وجوه الرُّعاة عندما شاهدوا المراعي الخضراء في ضواحي نقفا:

«...the nobles celebrated the return to Nakfa and the Joy of the Tigre at seeing the lush grasses for their animals there.»[1]

ومنذ ذلك التاريخ (٢٧ أبريل ١٨٩٥م) انقسم الحَبَاب الى قسمين: قسم بقيادة كَنْتِيَبَايْ محمود وَدْ حامد بك وَدْ حسن (ومعهم رمز السلطة النقاقير السبع) استقر في منطقة مَقَدَّام، وأصبح تابعاً للنفوذ البريطاني (السودان) وقسم آخر خرج عن سيطرة كَنْتِيَبَايْ محمود (كَنْتِيَبَايْ السودان) ورجع الى مناطق النفوذ الإيطالي (إرتريا) وعين عثمان وَدْ هِدَاد وَدْ حسن (ابن عم كَنْتِيَبَايْ محمود) في منصب كَنْتِيَبَايْ إرتريا، واستقر في نقفا.

(1) The Nakfa Documents, op cit, p100.



صورة لكَنْتَيْبَايْ عثمان وَدْ هِدَاد أخذت له في حدود عام ١٩٣٦ وهو (يمتطي صهوة جواده الأبيض) وابنه محمد (على جمله في أقصى اليسار) وبعض اتباعهم بعد فترة من استقرارهم في نقفا وإعلانهم الانفصال عن سلطة كَنْتَيْبَايْ محمود (منذ أبريل ١٨٩٥م).



صورة أخرى في نفس موقع الصورة السابقة، ويظهر فيها كَنْتَيْبَايْ عثمان على فرسه الأبيض وبجانبه بعض وكلائه (على ظهور الخيل)، كما يبدو إبنه «محمد» في اقصى- يسار الصورة (على ظهر جمله). والصورة عبارة عن بطاقة بريد إيطالية مطبوع في الجانب العلوي منها عبارة: Africa Orientale - Uno Sceicco Degli Habab Coi Sottocapi وترجمتها هي: «أحد شيوخ الحباب بمعية وكيل الزعيم – شرق إفريقيا».

لقد كان كَنْتَيْبَايْ عثمان رجلاً صارماً، وله مواقف مشهودة ولا بأس من أنْ نشير هنا الى بعضٍ من مواقفه، لنتعرف على طبيعة الرجل.

واقعة كاروه:

من المواقف المتعلقة بكَنْتَيْبَايْ عثمان الحادثة التى عرفت بواقعة كاروه. قال الشيخ محمود علي سعد، عمدة عَدْ عَالْيَايْ وَدْ فكاك، إنَّ مكان الحادثة يسمى بـ «أفْ قَطَعْ» وكان الحدث تحت شجرة ظليلة تسمى «حُمَّرَتْ»[1]، وهي شجرة ضخمة الجزع ورافة الظل دائمة الخضرة. حضر الإخوة الأشقاء وهم حامد شيخ وَدْ سليمان وإبراهيم وَدْ سليمان الى مكان وجود الزعيم كَنْتَيْبَايْ عثمان الذي كان لا يدري أنَّ القوم (من بني عامر) الذين يتحدثون معه يخططون لإغتياله. وفي أثناء الحديث ضرب إبراهيم وَدْ سليمان عصا كَنْتَيْبَايْ عثمان وقال له عبارة تعتبر أو تسمى فى عصرنا هذا (لغزاً)، حيث قال له: «أبوكا مُورَا لِنِيْش إنْدَيْ كَـرَيَا لُمورَا لعباى إبَّا بَلِّس علا»، ومعناها إنَّ أباك كان يضع العصا الصغيرة ويرد بالغليظة !! ففهم كَنْتَيْبَايْ عثمان اللُّغز وأمر حراسه أنْ يطلقوا النار على هؤلاء الرجال الذين مكروا له، ولكن تدخل الأشقاء حامد شيخ وَدْ سليمان وإبراهيم وَدْ سليمان وقالو للزعيم كَنْتَيْبَايْ عثمان «إنْ قتلتهم فسوف يموتون ولكن نريد أنْ نسجل موقفاً لذا آمرْ حراسك لكي ينزعوا منهم السلاح»، وهو في العادة سلاح أبيض مثل السيوف وغيرها. ففعل كَنْتَيْبَايْ ذلك وجمع الحراس السلاح على جمالهم وتركوهم في مكانهم حيث انطلق كَنْتَيْبَايْ وحرسه قاصدين جهة أخرى (أو كما قال الرواي «تُوَرَّبـو» وتعنى السفر في وقت العصر أو ما بعد الظهيرة، والمصدر من هذا الفعل هو «وَرَبْ»). يقول العمدة محمود: بعد عدة ساعات من السير لحق الشقيقان حامد شيخ وَدْ سليمان وإبراهيم وَدْ سليمان بركب كَنْتَيْبَايْ فى منطقة تسمى «دَبْ دَبَتْ»، وتعنى المكان المنخفض، وتوسطوا لدى الزعيم مرة أخرى حيث طلبوا منه أنْ يردَّ السيوف وبقية السلاح الى اصحابه «لأنَّ القوم الذين سلبتَ أسلحتهم يعيشون معنا

---

(١) «حُمَّرَتْ» أو «حِمَّرَتْ» في اللهجة الحبابية جمعها حُمَّرْ، والحُمَّرُ والحَوْمَرُ كما ورد في لسان العرب هو شجر التَّمْرِ الهِنْديِّ، ويقال له «التَّبَلْدِي» باللهجة العامية السودانية والمفرد "تَبَـلْدِيَّة".

في مكان واحد ولهم معنا مصالح مشتركة فى الماء والكلأ»، فوافق كَنْتيبَايْ عثمان على طلبهم وحملو الأسلحة على جمالهم ورجعوا بها الى اصحابها وردوها اليهم.

يقول العمدة محمود «إنَّ حجم المؤامرة كان كبيراً، ولولا لطف الله أولاً ثم حضور أبناء عالياي الاجتماع الذي تقررت فيه المكيدة، كانت ستحدث فتنة كبرى بقتل كَنْتيبَايْ ومن معه وبالتالى تؤدى الى حرب أهلية فى المنطقة بين الحباب وبنى عامر، ولكن تمت معالجة الموضوع بجهود أبناء عالياى حيث تم تفادى المشكلة وخرج منها الجميع سالمين».

مساندته لقوة دفاع السودان:

موقف آخر يذكر لكَنْتَيْبَايْ عثمان وهو: عندما قامت الحرب العالمية الثانية، ودخلت إيطاليا وبريطانيا في مواجهة، قام كَنْتَيْبَايْ عثمان بتقديم العون والمساعدة لأبنائه من الحَبَاب السودانيين الذين كانوا ضمن قوة دفاع السودان، وكان لموقف كَنْتَيْبَايْ عثمان ورجاله دور كبير في استيلاء قوة دفاع السودان على المدن والقرى الواقعة على طول السَّاحِل الإرتري حتى نقفا. يقول الأستاذ محمد سعيد ناود نقلا عن مستندات الحرب العالمية الثانية إنَّ قوة دفاع السودان عندما بدأت فى التقدم في منطقة جبال البحر الأحمر، وجدت صعوبة في اختراق الهضاب والشعب المنيعة التى تحاذي السَّاحِل، ووصلت بصعوبة الى قرية «ألْجِيْنَا». وحيث أنَّ طبيعة الأرض لاتُمَكِّن القوات النظامية من التقدم السريع بعتادها الثقيل، تقرر أنْ توكل المهمة الى رجال مليشيا «المروج»، لأنها تعتمد على الجمال في تنقلاتها، ولرجالها خبرة بالمنطقة ودروبها وشعابها بحكم أنَّهم من قبائل الحَبَاب التي تسكن المنطقة. وفعلا تمكنت تلك المليشيا التابعة لقوة دفاع السودان من الاستيلاء على قرية «ألْجِيْنَا»، ومن ثم واصلت انتصارتها حتى تمكنت من الاستيلاء على مدينة «نقفا» في عام ١٩٤١م. عند ذلك استقبل كَنْتَيْبَايْ عثمان بكل حفاوة وتكريم قوة دفاع السودان، وذبح لهم الذبائح، وأمر الحَبَاب بأنْ يساعدوا رجال قوة الدفاع السودان فامتثلوا له، وقد

أذاعت هذا الأمر محطة إذاعة امدرمان في حينه.

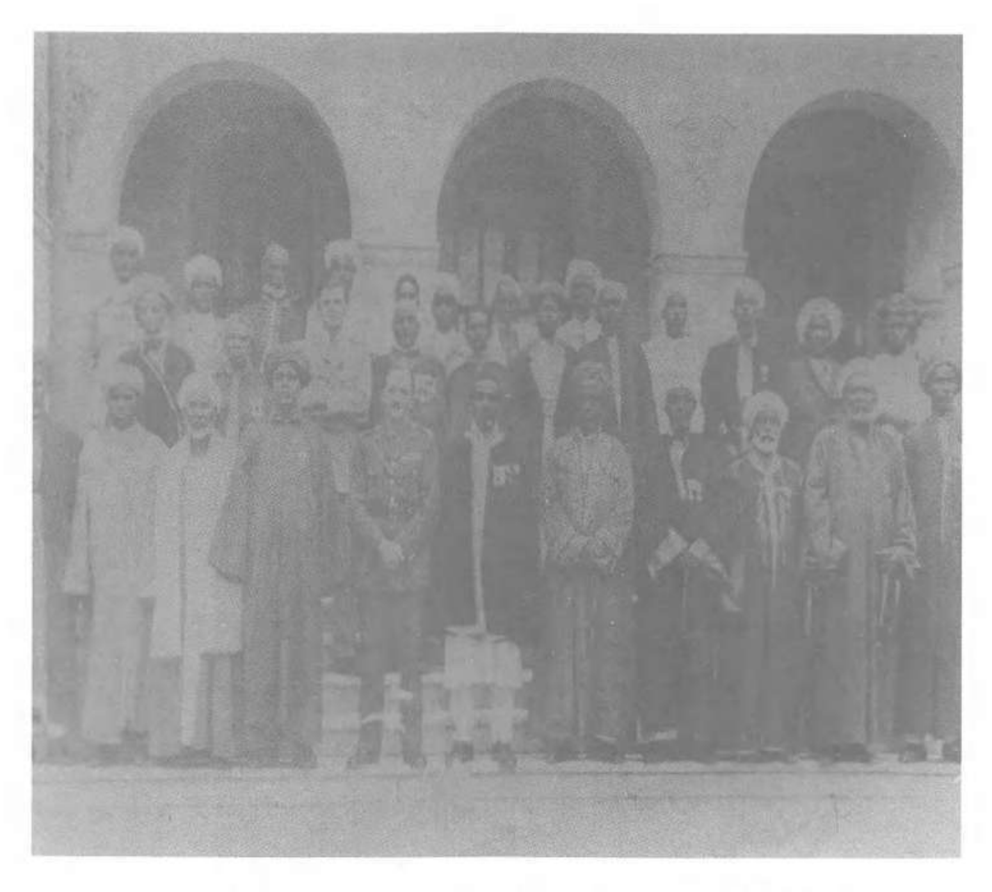
اشتراكه في تأسيس حزب الرابطة الإسلامية:

موقف آخر يتمثل في الخلاف الذي نشب بينه وبين الشيخ إبراهيم سلطان. فمن المعروف أنَّ كَنْتَيْبَايْ عثمان كان من المؤسسين لحزب الرابطة الإسلامية الذي تكون في عام ١٩٤٦م برئاسة السيد/ أبو بكر الميرغني (سيدي بكري)، وتولى الشيخ «إبراهيم سلطان» منصب الأمين العام للحزب. فقد حضر كَنْتَيْبَايْ عثمان الاجتماع التأسيسي للرابطة ومعه شيخ الأمين ود عبد القادر وعشرون من كبار بيت أسْجَدي[١]، بَيْدَ أنَّ كَنْتَيْبَايْ عثمان وعدد كبير من زعماء المسلمين وشيوخ القبائل انسلخ من حزب الرابطة الإسلامية فيما بعد، عندما تولى الشيخ إبراهيم سلطان رئأسة الحزب وأصبح يردد ـ وهو في بداياته السياسية ـ تصريحات معادية لبيت أسْجَدَيْ وبيوتات أخرى من النبلاء، منتقداً النظام الطبقي الذي كان سائداً في بعض القبائل، ومنها الحَبَاب بالطبع. فقد وصل الى مسامع كَنْتَيْبَايْ عثمان كلام مضمونه أنَّ إبراهيم سلطان قد صرح بأنَّه، في حالة فوز حزب الرابطة، سيسعى للانتقام من طبقة النبلاء ووضع المتبوعين في مكان الأتباع، فأقسم كَنْتَيْبَايْ عثمان بأنْ يقف ضد إبراهيم سلطان. وفعلا أصبح كَنْتَيْبَايْ عثمان يناصر الحزب المناوئ للرابطة الإسلامية وهو حزب الوحدة «ليس حباً في عليٍّ ولكن بغضاً في معاوية» كما يقول المثل. ولولا التصريحات الانفعالية وغير المدروسة، التى كان يدلي بها إبراهيم سلطان لما انسحب كَنْتَيْبَايْ عثمان من حزب الرابطة. هذا وقد أقر الشيخ سلطان بخطئه فيما بعد، ولكن بعد فوات الأوان، رحمهم الله جميعاً.

---

(١) لمزيد من التفاصيل في هذا الشأن راجع الجزء الرابع من كتاب:

«National and Class Conflict in the Horn of Africa», by John Markakis, Publisher: Zed Books Limited, 1990.



صورة أخرى لكَنْتَيْبَايْ عثمان وَدْ هِدَاد (الثالث من اليمين) تجمعه، في أربعينات القرن الماضي، بالحاكم البريطاني العام وعدد من أعيان القبائل الإرترية.

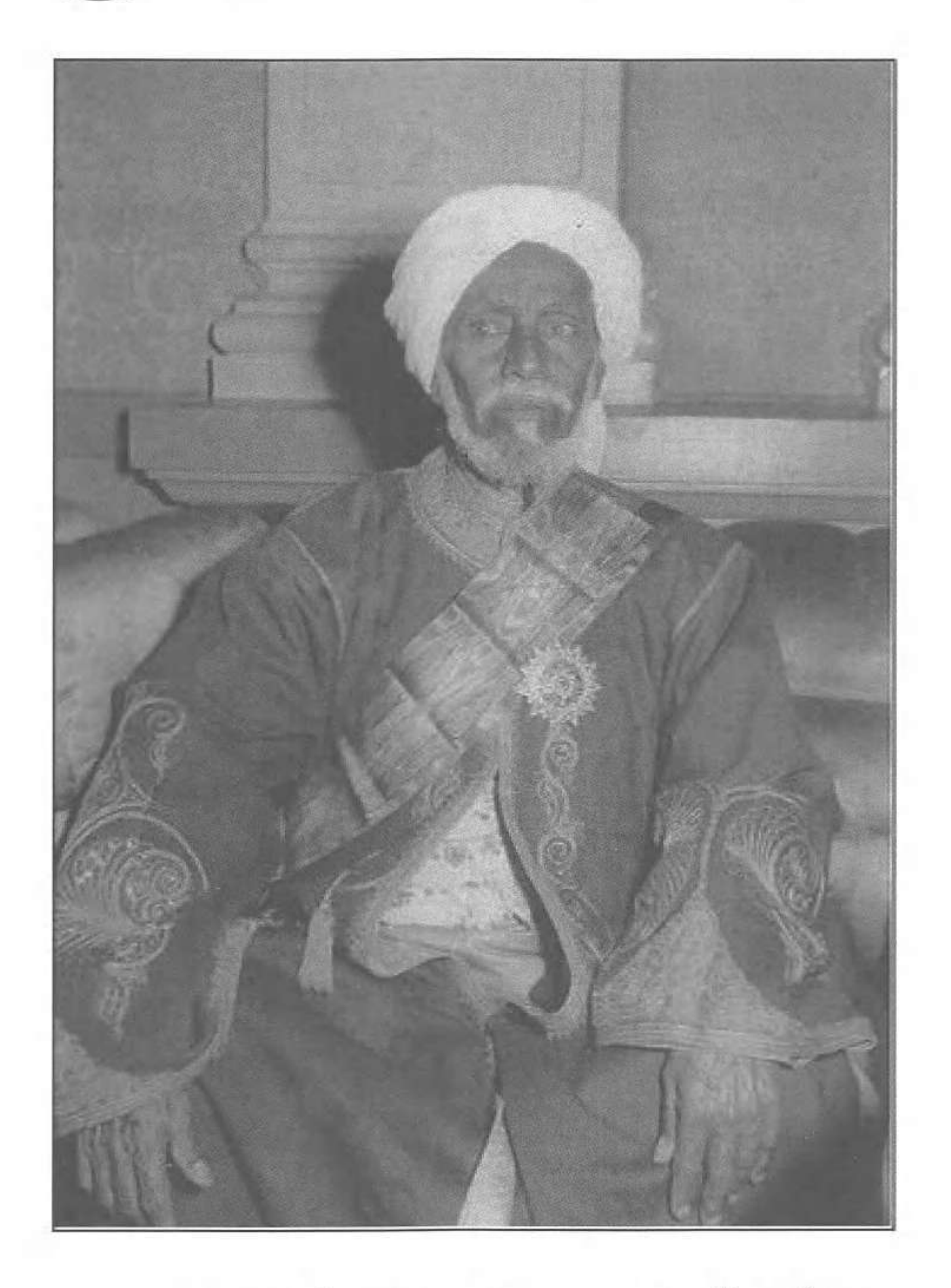
رفضه لبناء كنيسة في نقفا:

موقف ثالث عرف عن كَنْتَيْبَايْ عثمان وهو رفضه لبناء كنيسة في نقفا. فقد كان الحاكم الإيطالى لإرتريا يأتي من وقت لآخر لمدينة نقفا، وفي واحدة من تلك الزيارات قرر بناء كنيسة فيها مع إن جل سكانها من المسلمين. ورغم جبروت الحاكم الإيطالي اعترض كَنْتَيْبَايْ عثمان على ذلك القرار، واشتد النقاش بينهما خاصة عندما علم أنَّ نية الحاكم الإيطالي تتجه، ليس لبناء كنيسة فقط، وإنَّما أيضاً

للترخيص بفتح مراكز لبيع الخمور وممارسة الدعارة المقننة. وبعد أخذ ورد انصرف الحاكم عن فكرة السماح ببيع الخمر وممارسة الدعارة في نقفا، لكنه استمر في الإلحاح على موافقة كَنْتِيْبَايْ عثمان على بناء الكنيسة بحجة أنَّ الإدارة وموظفي الدولة يحتاجون لكنيسة يصلون فيها لها. فدحض كَنْتِيْبَايْ عثمان هذه الحجة قائلا له: فيما يتعلق بحاجة الحاكم للكنسية فإنه يمكنه أن يصلي في الكنائس الجميلة التى توجد فى روما وأسمرا وغيرها، وأمَّا فيما يتعلق بالموظفين فلا حاجة لاستقدام من يحتاج الى كنيسة في نقفا، حيث يمكن الاستعانة بأبناء المنطقة، وإذا كان لابد من استقدام موظفين من خارج نقفا فيمكن الإتيان بهم من كرن أو مصوع أو أغردات.

وفي عام ١٩٢٣م قرر الزعيم كَنْتِيْبَايْ عثمان أداء فريضة الحج، فطلب من الشيخ عامر وَدْ شيخ الأمين (عَدْ نَافْعُوتَايْ) أنْ يرسل معه أحداً من أفراد أسرة الشيخ حامد وَدْ نَافْعُوتَايْ، ولذلك تم ندب الشيخ محمد إسماعيل وَدْ إبراهيم (فرع الشيخ عمر وَدْ شيخ الأمين) الذي رافقه في رحلة الحج.

وبعد حياة حافلة بالمواجهة والمهادنة، والصدام والإحجام، انتقل كَنْتِيْبَايْ عثمان وَدْ هِدَاد وَدْ حسن الى رحمة ربه في مارس من عام ١٩٥٨م.



صورة أخرى لكَنْتيبايْ عثمان وهو يرتدي كسوة الشرف بعد أن تقدمت به السن.

أمَّا كَنْتَيْبَايْ محمود[١] فقد استقر منذ مطلع عام ١٨٩٥م مع اتباعه في توكر، واستقطب القبائل التى من حوله، وتمتع بنفوذ قوي في المنطقة لدرجة أنَّ النَّاس كانوا يغنون له:

حَمُود[٢] ولا سِنَّاتُو	(محمود وأقرانه).
تْقَسَّوْ حَنْتِي عَرَاتُو	(اجلسوا تحت سريره).
حُوكِي عَاشَا بَاشَا	(أخوك يا عائشة بَاشَا).
سَرْتُوكْ حَضَار قَاشَّا	(كريم يستقبل الضيف).

ورغم المصاعب التي واجهها، أسس كَنْتَيْبَايْ محمود كياناً قوياً للحباب في منطقة تُوكَر، ولعب كَنْتَيْبَايْ محمود دوراً بارزاً في الإدارة الأهلية حتى أصبح فيها بعد عضواً بمحكمة توكر، وقاضياً من الدرجة الثالثة وحائزاً على كسوة شرف من الدرجة الأولى. ولكن الإنجليز كانوا يتعاملون معه بحذر، وكانوا دوماً يسعون الى تحجيم الحَبَاب، وتفتيت وحدة هذه القبيلة وإزالتها كليا إنْ أمكن، ولذلك لم يعترف الإنجليز رسمياً بكَنْتَيْبَايْ محمود ناظراً للحباب، وإنَّما ظلوا ينعتونه بالعمدة بدلاً من «الناظر»، وكل ذلك بهدف الانتقام من مواقف الحَبَاب المصادمة دوماً، والمناهضة للطامعين في المنطقة ومؤازرتهم منذ البدء وحتى النهاية للثورة المهدية[٣]. ولهذا نجد

(١) رغم عظمة هذا الرجل فإنني للأسف لم أتحصل على صورة له، وحقيقةً فإنَّ مصادر التاريخ شحيحة بالمعلومات عنه قياسا بدوره وفترة حكمه.

(٢) «حَمُود» هي اختصار لمحمود.

(٣) بعيد إعلان الأمير عثمان دقنة الجهاد المقدس ضد المستعمر جمع كَنْتَيْبَايْ حامد وفدا لمبايعه الأمير تكون من عدد كبير من الفرسان الذين تم اختيارهم من كل قبيلة تابعة للحباب وارسلهم بقيادة اخويه همد ود حسن وهِدّاد ود حسن والقاضي عبدالقادر حسين الى مقر الامير عثمان دقنة في تاماي وحضر الوفد الى الامير في عام ١٨٨٥م ومعه مؤن واقمشة لجيش الأنصار «تحملها قافلة مؤلفة من مائتي جمل»، فبايعوا الامير على نصرة الدعوة المهدية وتم تقسيم الحاضرين الى رايتين احداهما برئاسة الامير خضر بن على الحسنابي والثانية برئاسة

أنّه بالرغم من أنتهاء الحرب وانتهاء حقبة المهدية، ظلت علاقة كَنْتَيْبَايْ محمود بالإنجليز في شد وجذب حسب الظروف. هذا ونشير هنا الى المعاضدة والمساندة التى وجدها كَنْتَيْبَايْ محمود ومن بعده ابنه كَنْتَيْبَايْ حسين من فرع بيت أَتْكَمَيْ. فقد أستقر جزء كبير منهم في منطقة توكر وجنوب توكر بصفة عامة، وكان لهم دور أساسي في المحافظة على قوة قبيلة الحباب بعد إستقرار كَنْتَيْبَايْ محمود بالمنطقة وإنضمام عدد من القبائل التي كانت ضمن كيان الحباب التاريخي الى نظارة بني عامر. ونذكر في هذا الصدد الدور البارز الذي كان يقوم به الشيخ آدم سليمان حَدُوتْ، من بيت أتكمي، الذي كان من أبرز القيادات في مجلس كَنْتَيْبَايْ حسين بن كَنْتَيْبَايْ محمود، وكان مقرباً منه وبمثابة مستشاره الخاص، رحمهم الله جميعاً.

مهما يكن من أمر فإنَّ كَنْتَيْبَايْ محمود كان موضع احترام من الجميع، وقد عينه الحاكم العام للسودان قاضياً بمحكمة تُوكَر، ثم تمَّ منحه في عام ١٩١٣ م ما عرف بكسوة الشرف (Robe of Honour) من الدرجة الثالثة. وفي مارس عام ١٩٣٢م منح الحاكم العام للسودان كسوة الشرف من الدرجة الأولى لكَنْتَيْبَايْ محمود بن كَنْتَيْبَايْ حامد بك.

قاضي الحَبَاب السابق في سواكن الامير عبدالقادر حسين الذي عين اميرا على سواحل بلاد الحَبَاب (راجع منشورات عثمان دقنة وكذلك محمد صالح ضرار: «تاريخ شرق السودان، ممالك البُجَة»، الجزء الأول، مرجع سابق، صفحة ٣٥٥ وصفحة ٤٤٠). وبعد ستة شهور من البيعة الاولى (أي في اواخر عام ١٨٨٥) طلب الامير عثمان دقنة من الحَبَاب ومن بقية القبائل ارسال وفودها اليه للذهاب الى امدرمان ومبايعة الخليفة عبدالله التعايشي. فارسل كَنْتَيْبَايْ حامد ابنه محمد الذي اختير مع الوفد الذي تقرر ان يسافر الى امدرمان لمبايعة الخليفة ولكن الأجل كان اسرع فقد انتشر وباء الجدري بين الأنصار واصاب الكثيرين ومنهم محمد بن كَنْتَيْبَايْ حامد الذي مات في تاماي (سلحات) الواقعة على بعد اميال قليلة جنوب غرب سواكن ودفن بالقرب من جده الأعلى (أَسْجَدَيْ) المدفون في قديفرا (أَسْجَدَيْ فرا) في دبر عنقا قبالة مرسى عقيق.

وبعد ذلك بعدة شهور وبالتحديد في يوم ١٤/ ١٠/ ١٩٣٢م، توفي كَنْتِيْبَايْ محمود ووري الثرى في وادي «جنت Genet بالجيم اليمانية»، وتم نعيه في الجرائد الرسمية للدولة بالصيغة التالية.

وفيات

بمزيد الأسف ينعى صاحب المعالي الحاكم العام كَنْتِيْبَايْ محمود حامد حسن عمدة الحَبَاب المتوفي يوم ١٤/ ١٠/ ١٩٣٢. كان المرحوم قاضياً من الدرجة الثالثة وحائزاً على كسوة شرف من الدرجة الأولى.

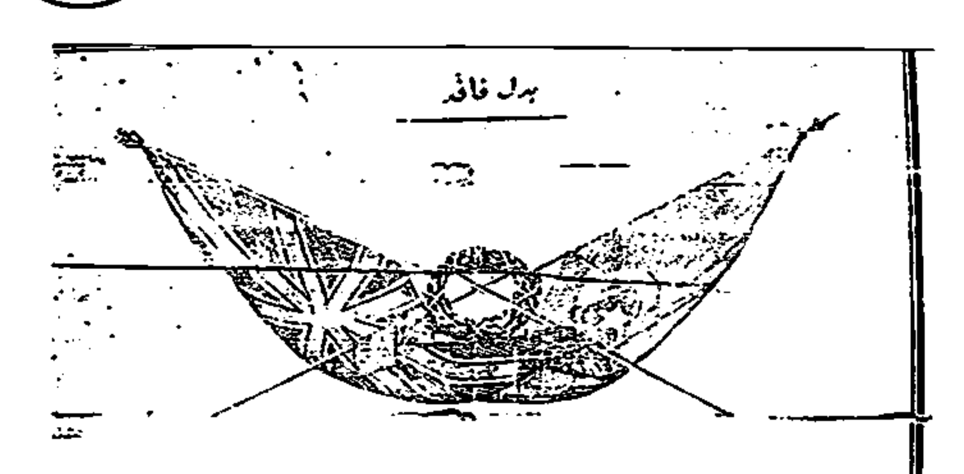
OBITUARY

His Excellency the Governor-General announces with deep regret the death on 14-10-1932 of Kantibai Mahmud Hamed Hassan, Omda of the Habab, a 3rd Class Magistrate and the holder of a 1st Class Robe of Honour.

وهكذا مات الزعيم الكبير كَنْتِيْبَايْ محمود الذي بكاه الكثيرون ونظموا شعرا جميلا في رثائه، ومن ذلك ما قاله الشاعر علي قطين محمد حامد شلع (زعيم قبيلة أسفدا) الذي ذكر مآثر كَنْتِيْبَايْ في قصيدة طويلة نكتفي منه بالأبيات التالية:

لِيلِيتْ فَازْعَامْ مَيناَ لِحَرَمْ مِنْ دَيْ تباكَيَا (ليلة أمس بتنا ساهرين عندما الحريم تباكين)
دَنْجُويَا لا دِخْرَتَنْ نُو هِمْرَارِيبَنْ سَانَيَا (هو آخر من بارَكْنَ وهن أحسنَّ صُنْعاً معه)
عِرِفْ ألف وظِجَابْ إتْ قِرَهَنْ سيا إيَ حَذْقَيَا (فهنَّ لم يقصِّرنَ ولم يتركن شئاً خلفهن)
أمْعِلاَيِتْ إتْ مِنْطَال لِحَبَاب كُلو تلَمّيَا (هنالك يوم مِنْطَال عندما اجتمع كل الحباب)
كِمْ وِنِدَتْ نايْ قهوتْ إتْ شِنْكِيتُو لَنفَيَا (ضم الكل بجانبه بسهولة كمثل تحضير القهوة)
وأمْعِلاَيِتْ إتْ شَرْنِيتْ لحمود نولي شَكْرَيَا (ويوم شَرْنِيتْ عندما أصيب محمود نولي)
إيطاليا تَأمَّرُو أكَيْ حَبَنْ هَبَيَا (تعرفه أيطاليا فقد سامها الخسف والعار)
نَسْأ مِنّا لِعُشُورا ولَئِلاَ حَذِيتْ كَلأيَا (ومنع منها العشور (الضريبة) وكل ما طلبت)
إنجليز ما تَأمَّرُو كُمْ مظأيَا أفْزَهَيَا (كما يعرفه الانجليز فقد أفزعهم عندما أتاهم).

******



عريضة كسوة شرف

نحن حاكم السودان العام قد أنعمنا على الشيخ محمود كنتيباي شيخ الحباب

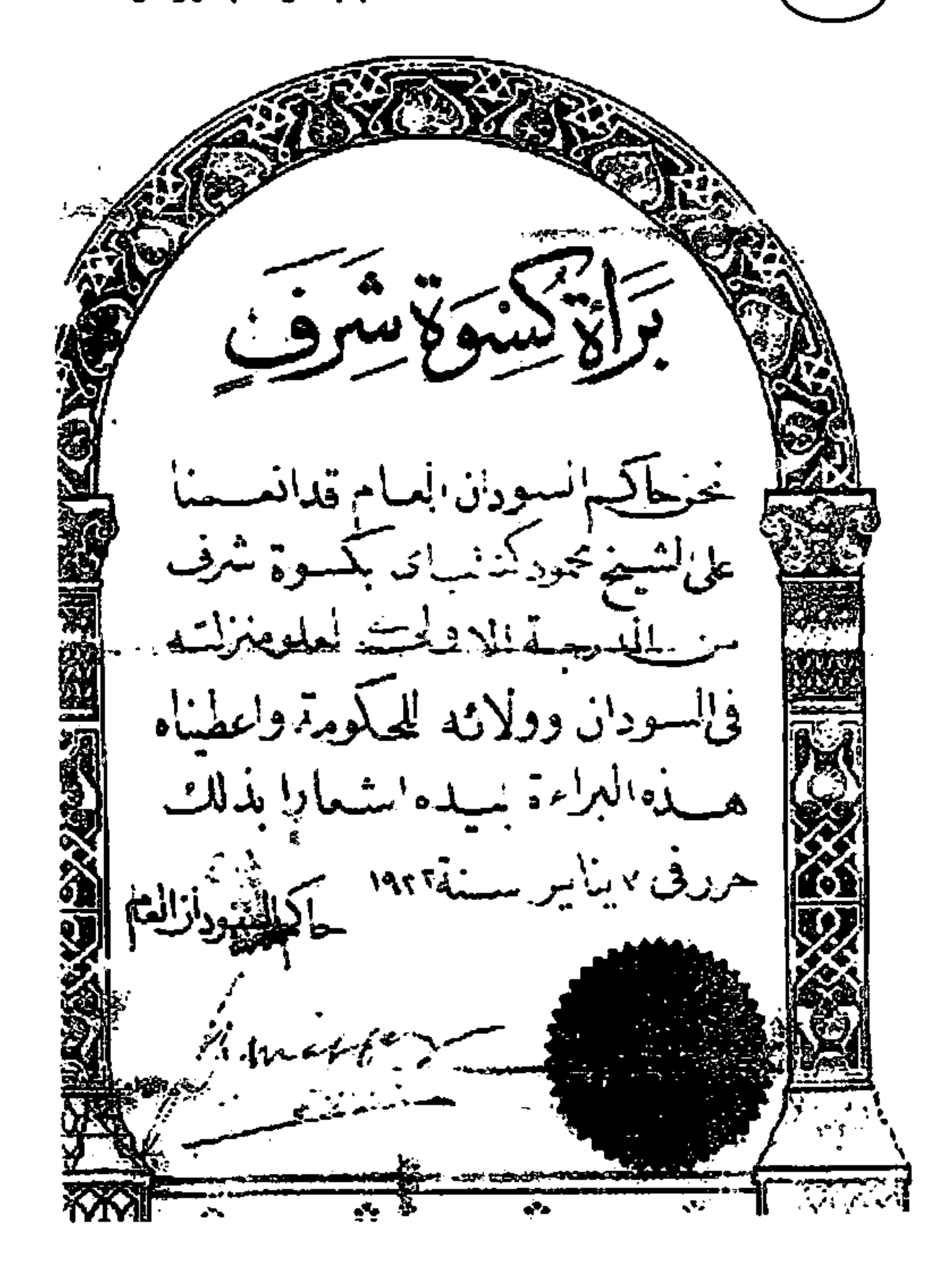
بكسوة شرف من الدرجة الثالثة لحسن خدماته

وولائه للحكومة وأعطيناه هذا بيده إشعاراً بذلك

حرر في مارس سنة ١٩١٢

حاكم السودان العام

Reginald Wingate
Governor General



براءة كسوة شرف

نحن حاكم السودان العام قد انعمنا
على الشيخ محمود كنتباى بكسوة شرف
من الدرجة الاولى لعلو منزلته
في السودان وولائه للحكومة واعطيناه
هذه البراءة بيده اشعارا بذلك

حرر في ٧ يناير سنة ١٩٢٢

حاكم السودان العام

الباب السابع
نظَارةُ الحبَابِ

بوفاة كَنْتَيْبَايْ محمود، انتقلت السلطة الى ابنه الأكبر، كَنْتَيْبَايْ حسن وهو خريج مدرسة سواكن، وكان رجلاً زاهداً وتقيّاً وملازماً للسادة المراغنة في سواكن وسنكات، ولم يعمر طويلاً في منصب الزعامة حيث تُوفي في سنكات في يوم ١٣ يونيو ١٩٣٦م، ودفن في مقابر السادة المراغنة وعقدت مراكز العزاء في كافة مدن الشرق ومنها منزل السيد/ كَنْتَيْبَايْ أبو قرجه الذي كان يعمل في منصب مأمور في مدينه سنكات، حيث تلقى أبو قرجه العزاء في وفاة كَنْتَيْبَايْ حسن، عرفاناً لما كان بين الأباء والأجداد.

بعد وفاة كَنْتَيْبَايْ حسن، تولَّى زمام الأمر أخوه، الرجل القوي والمصادم، كَنْتَيْبَايْ حسين وَدْ كَنْتَيْبَايْ محمود وَدْ حامد بك. لقد انتعش وضع الحَبَاب من جديد في عهد كَنْتَيْبَايْ حسين الذي كان يتمتع بشخصية محبوبة ومؤثرة (Charismatic)، تنصف المظلوم وتسند الضعيف، وتقوم على قضاء حوائج النَّاس دون خوف أو ملل، وتصلح ذات البين؛ شخصية لا تستكين بل تناكف المستعمر، وتقف في وجهه كلَّما اتخذ قراراً ظالماً؛ شخصية أصبحت محوراً لكافة القبائل التى من حول الحَبَاب. وهذا أمرٌ لم يكن ليرضي الحكومة الإنجليزية، التى كانت تظن أنها كسرت شوكة الحَبَاب الى الأبد، خاصةً وأنَّهم قد أذكوا نار الخلافات التى دبَّت وسط العائلة عقب وفاة كَنْتَيْبَايْ حسن في عام ١٩٣٦م. لذلك كان الإنجليز، بمكرهم ودهائهم المعروف، يتحيَّنون الفرص للإنقاض (وفقاً للقانون وبذكاء)، على هؤلاء الحَبَاب المزعجين!! وكانت هنالك بالطبع أوضاعٌ في القبيلة لم تكن مثاليةً، ومن ذلك الوضع الطبقي الذي سبق أن تحدثنا عنه منذ أن قَنَّنَه كَنْتَيْبَايْ «جَرْجِيس» قبل أجيال خلت. ونتيجةً للمتغيرات المحلية والدولية، بدأت الأصوات المضادة لهذا التمييز تعلو، وأصبح هذا الوضع عُرْضَةً لانتقادات كثيرة، واستعمله الإنجليز مبرراً لمعاقبة

قيادة الحَبَاب خاصةً، ورفعوه كقميص عثمان، ليس حرصاً على حقوق الإنسان كما يزعمون دائماً، ولكن انتقاما من الحَبَاب، لأنهم وقفوا ضد المستعمرين الإيطاليين والبريطانيين، على حد سواء، وساندوا بقوة الثورة المهدية. وبحلول الأربعينات من القرن العشرين، وظهور الدعوة لحقوق الإنسان، سلط كثيرٌ من الكُتَّاب الأضواء على هذا النظام وما ترتبت عليه من «عادات»، ومن ذلك التقارير[١] التى كان ينشرها السيد/ إس إف نادل (S. F. Nadel) في مجلة «السودان في رسائل ومدونات»، وما أورده من تفاصيل عن الوضع الطبقي في كتابه الذى نشرته الإدارة العسكرية البريطانية في عام ١٩٤٤م بعنوان «Races and Tribes of Eritrea».

ولسوء حظ الحَبَاب، انتدب الإنجليز لحكم المنطقة رجلاً ذكياً وماكراً، هو مستر: أندرو بول (Mr. Andrew Paul)، والذي تولَّى منصب «مفتش مركز توكر»، وكان يجيد التحدث بلهجة الحَبَاب. ويبدو أن المفتش «أندرو بول» جاء الى توكر بأفكار مسبقةٍ عن الحَبَاب ربما متأثرا بكتابات مستر نادل وغيره. كان «أندرو بول» رجلَ إدارةٍ من الطِّراز الأول، وسياسياً بارعاً لا يُظْهِر عداوته، ولكنه لا ينسى الانتقام أبداً. أضف الى ذلك أنَّ «أندرو بول» قد اكتسب خبرةً واسعةً بالمنطقة وأهلها[٢]، فقد عمل فترةً طويلةً في شرق السودان ، وتدرج في المناصب حتى تولَّى منصب نائب الحاكم، ثم أصبح الحاكم لمديرية كسلا، حيث وقعت حادثة صدامه مع الشيخ حمد قرقيس (جَرْجِيس)[٣]، شيخ الحَبَاب في منطقة أبي علقة (أب علقة) .

---

(١) على سبيل المثال، أنظر التقرير الذي كتبه نادل في المجلد رقم ٢٦ من مجلة «السودان في رسائل ومدونات» لعام ١٩٤٥، الصفحات من ٥١ وحتى ٨٩.

(٢) نشر أندرو بول عدداً من المقالات والكتب عن الحباب، والبُجَة عموما ومنها:

1- 1950: «Notes on the Beni Amer», Sudan Notes and Records Vol. 31, p. 223-245.
2- 1954: «A History of the Beja Tribes of the Sudan», a book reprinted in 1979.
3- 1955: «Aidhab: a Medieval Red Sea Port», Sudan Notes and Records, Vol. 31, p 64-70.
4- 1959: «The Hadareb. A Study in Arab-Beja Relationship», Sudan Notes and Records, Vol. 40, p 75-78.

(٣) من اللطائف التى تحكى عن أندرو بول أنه عندما تم تعيينه لأول مرة مسؤلا بمركز كسلا جمع كل النظار والعمد والمشايخ في مدينة كسلا بهدف التعرف عليهم، وكان القصد غير المعلن هو تحديد

دِمَن - سِلْكِيَايْ، في ريفي كسلا. جاء «أندرو بول» الى وظيفته مفتشاً لمركز توكر خلال الفترة من عام ١٩٤٥م وحتى عام ١٩٤٨م، وطوال فترة هذه الثلاث سنوات كان «أندرو بول» يحيك الدَّسائس للحباب ليل نهار، وكان على خصامٍ شبه دائم مع الزعيم القوي للحباب، ورجل الإدارة الأهلية: كَنْتِيبَايْ حسين وَدْ محمود وكانت بينهما وقائع عنيفة وأحيانا طريفة[1].

الشخص الذي يمكن أن يتولى تقسيم البذور (التقاوي) لمشروع القاش الزراعي. فطلب من الحراس أن يتم إدخال المدعوين الى مكتبه على انفراد، وكان كلما أتى اليه ناظر أو عمدة يسأله عن اسمه وقبيلته ثم يشير تجاهه بأصبعه الوسطى اشارة بذيئة معروف عنها ماذا تعني. فكان هؤلاء الوجهاء يخرجون من المكتب وفي نفسهم شيء من هذا «الخواجة المفتري» ويعلق بعضهم بأنه مجنون (Barouk halai). وهكذا الى أن جاء الدور على عمدة الحَبَاب في منطقة أبي علقه ودمن (سلكياي) الشيخ حمد قرقيس (جَرْجِيس - بالجيم اليمانية)، فدخل على الحاكم الجديد الذي سأله عن اسمه وقبيلته ثم رفع اصبعه الوسطى قائلا «هذا فيك!!» تماما مثلما فعل مع الآخرين. فما كان من الشيخ حمد إلاَّ أنْ رفع يده اليمنى كلها ثم يده اليسرى كلها ثم رجله اليمنى ثم اليسرى قائلا «هذا كله فيك !!!» فضحك الحاكم وخرج الى الناس قائلا لهم إنَّ الشيخ حمد سوف يتولى تقسيم البذور لمشروع القاش. ولعلنا ندرك بحس الاداريين لماذا فعل أندرو بول كل هذا، ذلك لأنه كان لا يعرف أهل المنطقة ولا يريد الاعتماد على تزكية بعضهم لبعض ولذلك دبر هذه الحيلة ليكتشف الشخص المناسب الذي يمكن أن يوليه تقسيم البذور لأن هذا الشخص يجب أن يكون قويا وغير «مجامل» حتى يقسم البذور بالطريقة المقررة، وبالتالي وجد ضالته في حمد قرقيس الذي واجه الحاكم بهذه الطريقة وهو بلا شك أقدر على مواجهة غيره اذا استدعى الأمر.

(١) من المواقف العنيفة التي تحكى أن كَنْتِيبَايْ حسين اختلف مع أندرو بول في موضوع يتعلق بالقبيلة وكان أندرو بول يمتطي صهوة جواده اثناء الحديث مع كَنْتِيبَايْ حسين فما كان من كتيباي حسين إلاَّ أن جذبه من لحيته لينزله من الحصان وهذا أمر كان فيه إهانة كبيرة للحاكم الانجليزي لكنه كما قلنا كان سياسيا بارعا يخطط بهدوء ولا ينجرف وراء رد الفعل ويقال أنه لم ينس هذا الموقف ابدا مما حدا به للانتقام من كَنْتِيبَايْ حسين خاصة والحَبَاب عامة فيما بعد بتخيطيطه للقرارت التي اتخذت بمساندة بعض الجهات في مؤتمر فطفيطو وأدت الى إخراج جزء من قبائل الحَبَاب وضمه الى قبيلة بني عامر. أما من المواقف الطريفة التي تروى أن أندرو بول الذي كان يجيد التحدث باللهجة الحَبَابية اجتمع ذات مرة بصفته مفتش عام توكر بكَنْتِيبَايْ حسين وقال له إن (فلان ـ أحد الأعيان) يقول عنك إنك تأذي العربان التابعين لك وتعاملهم معاملة غير لائقة. فكان رد كَنْتِيبَايْ حسين في غاية التهكم حيث قال لأندرو بول إن مثل هذا الكلام غير مستغرب من ذلك الشخص لأنه رضع من ثدي سيء (طب كلم طابيتو Tib kalam tabito). فاحتار أندرو

وما أن ظهرت بوادر الدعوة لحقوق الإنسان بعد الحرب العالمية الثانية، حتى تلقفها هذا الحاكم الإنجليزي الماكر، ليستعملها ضد الحَبَاب مثل استعمال بني أمية لقميص عثمان[1]. ففي عام ١٩٤٧م انعقد مؤتمر فَطْفِيطُو (في جبال فَطْفِيطُو، الواقعة قبالة مرسى عقيق)، برئاسة مفتش توكر الإنجليزي مستر: أندرو بول. كان هذا المؤتمر للحباب يعقد سنوياً، حيث يجتمع فيه كل أعيان قبيلة الحَبَاب بحضور كَنْتِيبَايْ، وبمعرفة الحاكم الإنجليزي، ويتفاكر فيه المجتمعون حول وضع القبيلة، وتحديد الضرائب (الطُّلْبَة ـ الدقنية) السَّنوية التي ينبغي دفعها للدولة، حسب وضع البهائم وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالقبيلة. وقد حضر المفتش الإنجيزي اجتماع عام ١٩٤٧م، بعد أنْ نَسَّقَ جيداً مع آخرين، لتفتيت القبيلة، وبعد تحريضه لبعض مشايخ قبائل الحَبَاب، وخاصةً بعض الأفراد النافذين من أَلْمَدَا وأسْفَدَا ورِقْبَات[2].

بول فيما يقصده كَنْتِيبَايْ وسأل المشايخ حوله لكنهم اعرضوا عن اجابته لحساسية الموقف. لهذا رجع أندرو بول الى كَنْتِيبَايْ حسين وطلب منه تفسير ذلك القول فرد كَنْتِيبَايْ حسين بان ذلك الشخص في طفولته قد رضع من شطر خادمتهم (الأمة) ولهذا تأثراً بهذا الحليب يمكن أن يقول مثل هذا الكلام الذي لا ينبغي أن يقال من أمثاله!!.

(١) وفي مفارقة صارخة توضح لنا كذب ونفاق البعض في المناداة بحقوق الإنسان واستمرار سياسة الكيل بمكيالين حتى وقتنا الراهن، نجد أنه بعد أن تبنّى البريطانيون في مؤتمر "فطفيطو" تفتيت الحباب بسبب مزاعم الممارسات الطبقية "العنصرية"، نجد نفس القوم في العام التالي (١٩٤٨م) قد آزروا أعوانهم وبني جلدتهم في فرض الممارسات الطبقية "العنصرية" في جنوب إفريقيا ضد السكان السود أصحاب البلاد، بعد أن استعمروها ردحاً من الزمان، حيث صدر أول قانون للفصل العنصري في عام ١٩٤٨م وتلته بعد ذلك قوانين عنصرية أخرى أدت الى حصر السود في مناطق محددة وقسم المجتمع الى ثلاث طبقات: بيضٌ وسودٌ وملونين. وكانت هذه القوانين الجائرة مبنية على سياسة «الأبارتهيد Apartheid» ، وهي كلمة هولندية تعني "الفصل العنصري"، وترتكز على فكرة التَّمَيُّز العرقي للبيض وبالتالي تفضيلهم على من سواهم!!.

(٢) لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع راجع راجع كتاب: «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق، صفحة ٦٩ـ٧٠.



صورة لطيب الذكر أسد توكر وزعيم قبائل الحبَاب: كَنْتَيْبَايْ حسين بن محمود بن حامد بك، يمتشق حسامه أمام نقارة الحبَاب «مَنْصُورَة».

ولعلَّ مما سهل الأمر لمستر أندرو بول أنّه كان يجيد التحدث بلهجة التِّجْري، ولذلك كان الحوار في الاجتماع يتم بهذه اللَّهْجَة. وقد أثار أندرو بول في ذلك الاجتماع الزَّعْم بأن كَنْتِيْبَايْ حسين يعامل العُرْبَان بقسوة، ولابُد من تحرير هذه القبائل بإخراجها من تبعيته. وطلب أندرو بول من تلك القبائل الخروج من حلف الحَبَاب، والانضمام الى قبيلة بني عامر. فحدث هرج ومرج في الاجتماع وحاول بعض زعماء القبائل ولاسيّما وجهاء من ألمُدَا، ومنهم الشيخ «موسى» من عَدْ شيخ إدريس، الحديث عن رغبتهم في تكوين كيان منفصل بدل الانضمام الى بني عامر، فمنعهم أندرو بول من الحديث وقال للشيخ موسى «قَسِّي. . . هِجْيَاكَه آمْرَامَا هِلَّيْنَا» يعني: اجلس فنحن نعرف ما ستقول. ونتيجة لهذا الاجتماع، وبترتيب محكم من المستعمر تم ابتداءً من أول عام ١٩٤٨م ضَمُ عددٍ كبيرٍ من قبائل الحَبَاب، بغير رغبتهم حسبما أكَّد المؤرخ محمد صالح ضرار، الى «بني عامر»، فيما عرف بتحرير قبائل الحَبَاب[١] (Habab Emancipation)، والقبيلة الوحيدة التي أصرَّت على عدم الانضمام لهذا الحلف هي قبيلة «عَدْ دِرْقِي»، حيث تمسكوا بموقفهم وقالوا: إذا كان لا بُدَّ من الإنفصال من الحَبَاب فنحن نطالب بتسجيلنا كعمودية مستقلة تابعة لمجلس ريفي توكر. وهذا ما حدث بالفعل، حيث نجد «عَدْ دِرْقِي»، كما هو الحال الى اليوم، هم الفرع الوحيد الذي سجل باعتباره عمودية مستقلة تابعة لمجلس ريفي توكر، بينما تم إخراج عدد من القبائل الأخرى من حلف الحَبَاب وضمهم الى نظارة بني عامر. وبالرغم من كل المضايقات والمناكفات، ظل كثيرون في ولائهم للحباب لم يغيروا ولم يبدلوا، وهنا أذكر بالفخر والإعزاز الشيخ: محمد عبدالله هُمَّد، من قبيلة أسفدا الأبية، حيث ظل شيخاً للحباب في القضارف، يقدم خدمات جليلة لمجتمعه حتى توفاه الله، وتولى الشياخة بعده الرجل المصادم الشيخ: أبوبكر حامد

(١) أنظر مثلاً المقال الذى سبق أن أشرنا اليه والذي سطّره الإداري البريطاني المشهور كروفورد O. G. Crawford، صاحب كتاب «مملكة الفونج السِّنَّارية»، بعنوان: ««الحباب والحدارب The Habab and Hedareb» في مجلة: السودان في رسائل ومدونات Sudan Notes and Records، المجلد رقم ٣٦، لعام ١٩٥٥، صفحة ١٨٣-١٨٧.

ليمان، من قبيلة عد دقدقي (دَجْدَجي) الأصيلة، وظل ينافح عن الحباب حتى توفاه الله. هذا فقط ما أعلمه أنا، أسجله هنا على سبيل المثال لا الحصر، ولا شك أنَّ هنالك عدداً كبيراً من الأوفياء من تلك القبائل كانوا وما زالوا متمسكين بإرثهم وتاريخهم رغم كل المحاولات التى أرادت أن تنال من عزيمتهم، وأخص بالذكر الأستاذ المثقف: محمد علي هزام، من قبيلة زاقر «زاجر - بالجيم اليمانية»، والذي سجل له التاريخ مواقف مشهوده في دفاعه عن الحباب، فالتحية لهم جميعاً ولأبنائهم وبارك الله في ذرياتهم.



صورة أخذت صباح يوم ١٣ يونيو ١٩٨٧م في الخرطوم، بمناسبة حفل زواج المؤلف، يظهر فيها عمدة الحباب آنذاك: أبوبكر حامد ليمان (الجالس على اليسار حاملا سيفه) يليه عمي: آدم وَدْ جميل ثم السيد/ محمد حاج حامد سعيد ثم السيد/ عمر جيلي (يحمل بندقيته)؛ أما الواقفون فهم من اليمين: السيد/ صالح محمود ثم السيد/ إدريس محمود ثم سعادة المقدم/ داؤود محمد إبراهيم (والد أمِّ أبنائي) ثم السيد/ عثمان شيكاي ثم السيد/ حُمَّد دِرَار.

وهكذا نجد المستعمر قد حاك المؤامرة تلو المؤامرة ضد الحَبَاب، وانتقم منهم بتشتيت قبائلهم ونزع نظارتهم، وعندها اختل التوازن الاقتصادي، وعجز الحَبَاب

عن دفع الضريبة بالكامل، حسبما هو مقرر على النظارات الأخرى، وبالتالي خَفَضَ رسمياً وضعُ القبيلة من نَظَارَةٍ الى عموديةٍ مستقلةٍ تابعةٍ لمجلس ريفي توكر. وهذا العزل والغبن لم يقع فقط على الحباب، ولكن طال الأمر كافة القبائل التى وقفت ضد المستعمر، ومنهم قبائل الكِميلاب والحَسَناب، ولكن غبن الحَبَاب كان أكبر حيث أن المستعمر الإنجليزي، وكما أشار الأستاذ: محمد أدروب أوهاج، تعمد معاقبة الحَبَاب وطمس هويتهم «عندما ضم أجزاءً من القبيلة الى البني عامر، وتلك كانت سياسة المستعمر مع كل قبيلة يشعر أنها لها موقفها المحدد منه فإنه يعمل على إضعافها بكل الوسائل»(١). ومن الصدف الغريبة في هذا الشأن أن نهاية الأربعينات لم تشهد التضييق على الحباب فحسب، بل وتمت في تلك الفترة إزالة مسمى «البجة» من الخارطة السودانية حيث ألغيت الولاية التى كانت تعرف بهذا الاسم «البجة»، في السواحل وحل محله مسمى «البحر الأحمر».

وتتبين لنا روح الانتقام التى كانت لدى أندرو بول بجلاء في كتابه (بالإنجليزية): «A History of the Beja Tribes of the Sudan»، حيث ابتدأ الحديث عن الحَبَاب بمثل حَبَابِيٍّ مشهور، كتبه بلهجة الحَبَاب وبالحروف اللاتينية «La himmam min ata'al hewsito» (٢) ومفاده أنَّ اكتناز لحم النمر ناتج عن أكل الغنم!!

وبالرغم من إنَّ أندرو بول قد أتى هو وقومه لمنطقة البُجَة وللسودان عموماً مستعمرين وغزاة، إلاَّ أننا نجد أندرو بول، كعادة كل المستعمرين، يُنَصِّب نفسه كمُخَلِّص لشعوب المنطقة من الظلم والاضطهاد، ولذا نجده قد كتب بحثاً عن موضوع النظام الطبقي الذي كان سائداً لدى البجة من زمن «الزنافج» ثم خص

---

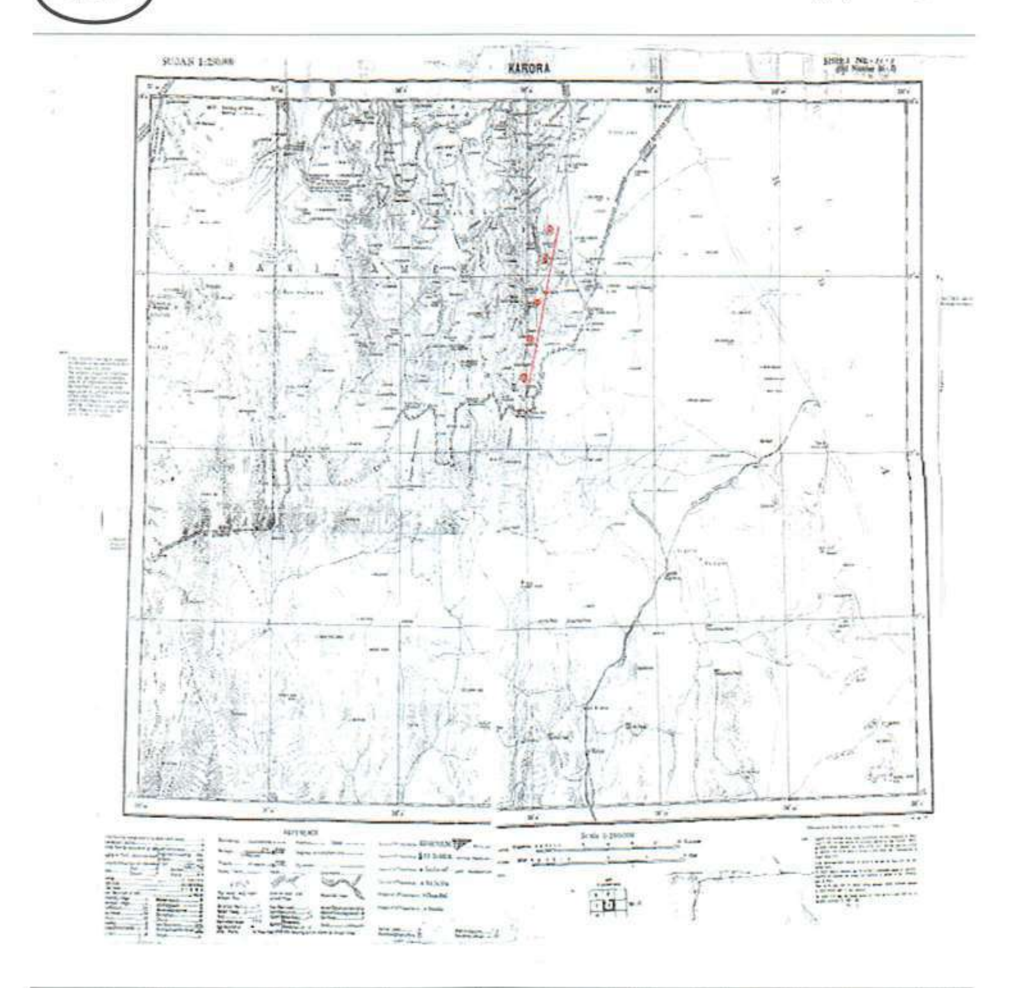
(١) كتاب «من تاريخ البجا – الكتاب الأول» للأستاذ/ محمد أدروب أوهاج، مرجع سابق، صفحة ١٧.

(٢) أنظر الصفحة ٨٠ من كتاب أندرو بول بالإنجليزية:
«A History of the Beja Tribes of the Sudan»,1954.

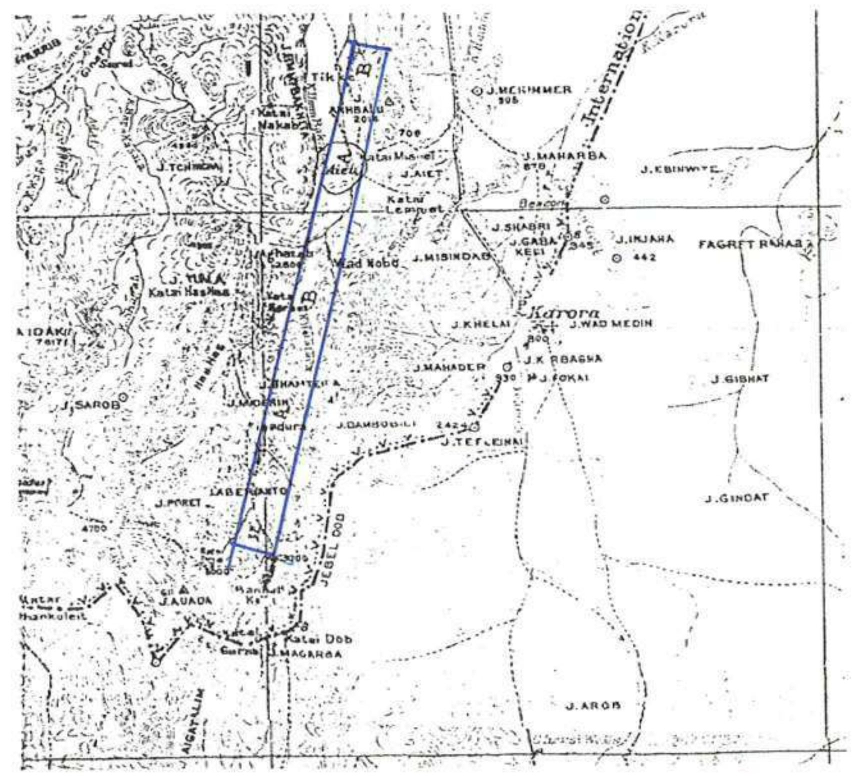
باللَّـــوم «البـلو» و«الحبـاب» و«النَّـابْتـاب»، وأسـهب في ذلك تحت عنـوان «إضطهاد التجري The Subjection of the Tigre» وقـال في ذلك مـا لـم يقـلـه مالك في الخمــــــر!! (راجــع صفحة ٨٠ وما بعــدها في كتابه آنف الذكــر «A History of the Beja Tribes of the Sudan»).

هذا وقد اتخذت الحرب على الحباب أنماطاً متعددة منها محاولة طمس اسم الحباب حيث نلاحظ على سبيل المثال أن الخرائط القديمة التى ظهرت عقب تقسيم الحدود تتضمن اسم الحباب بينما اختفى اسم الحباب من الخرائط التى ظهرت لا حقاً.





الخريطة أعلاه تعود لبداية القرن العشرين وكان آخر تعديل (تحديث) لها جرى في عام ١٩٦٦م، وتبين الخريطة الحدود الإدارية والسكك الحديدية، وتحتوي على التفاصيل الجغرافية للأرض والمجموعات السكانية لمنطقة جنوب توكر بما فيهم الحباب، وقد تم تجميع احداثياتها عن طريق المسح المستوي الذي تم إجراؤه بالتزامن مع عملية التثليث المساحي التي قام بها الميجور كابون Major Capon في عام ١٩٠٢م. وقد تم توفير مسارات الرسم التخطيطي والمعلومات بواسطة الكابتن هيكمان Hickman وكل من السادة فون بيكر Von Becker وماثيو Mathew ونيوبولد Newbold وليا Lea واليس Wallis، كما تم توفير نظام S.D.F. للمنطقة الساحلية للبحر الأحمر من خرائط الأميرالية البحرية. هذا ويجدر بنا أن نشير الى أنَّ الرمز ▲B في الخريطة على امتداد الحدود يدل على العلامات أو النصب أو الأعمدة التي تم بناؤها بواسطة مفوضية الحدود في الفترة بين عامي ١٨٩٩-١٩٠١م.



جزء مكبر من الخريطة يظهر فيه اسم الحباب في منطقة جنوب توكر وذلك بعد ترسيم الحدود بين دولتي إرتريا والسودان وانقسام القبيلة تبعا لذلك.

ومن الصدف العجيبة في هذا الشأن إنَّ نهاية الأربعينات من القرن العشرين لم تشهد التضييق على الحباب فحسب، بل وتمت في تلك الفترة إزالة مسمى "البُجَة" من الخارطة السودانية، حيث ألغيت الولاية التى كانت تعرف بهذا الاسم "البُجَة"، في السواحل، وحل محله مسمى «البحر الأحمر». والغريب أنَّ هذه الحرب الشعواء وهذا الطمس المتعمد لم يَفُتَّ في عَضُدِ الحَبَاب، وخاصةً قائدهم كَنْتَيْبَايْ حسين، الذي ظلَّ شخصاً محورياً لكافة سكان المنطقة من الحَبَاب وغيرهم، فقد كان كَنْتَيْبَايْ حسين ذا شخصيةً محبوبةً من جميع أهالي توكر، وكانت أياديه بيضاء على الجميع دون استثناء، لا يخاف ولا يتردد في قول الحق. ولعَلَّ الطلبة الذين درسوا في تُوكَر من الأجيال التي عاصرت كَنَتَيْبَايْ حسين، ومنهم أناسٌ يتبؤون المناصب في أيامنا هذه، يعرفون ويذكرون إصراره على الحكومة أن تستقطع جزءاً من دخل مشروع

دلتا تُوكَر الزراعي لدعم الطُّلاب الفقراء في المنطقة، وكانت له مواجهات حاسمة في هذا الشأن. كان كَنْتَيْبَايْ حسين يدافع عن كل بجاوي مظلوم، وكان يأتي اليه المتخاصمون من قبائل البُجَة الأخرى ليفصل بينهم، وكانوا يرضون بحكمه نظراً لمواقفه المعروفة وشخصيته المحترمة. وباختصار كان كَنْتَيْبَايْ حسين، كما قال المؤرخ محمد صالح ضرار: «كثير التسامح وأبعد النَّاس عن المجاهرة بالسوء»[1]. وكان يسعى دائما لإصلاح ذات البين بين القبائل ولذا عندما توفي في عام ١٩٨٣م، رثاه الفنان آدم شاش برثاء جميل ذكر فيه مآثر الفقيد ورفضت قبائل الشيتآب والأشراف والأرتيقا نقل جثمانه الى جِنَتْ (بالجيم اليمانية Ginat) حيث كانت رغبة الحَبَاب أن يدفن المرحوم بجوار قبر أبيه، بَيْدَ أنَّ زعماء هذه القبائل الكريمة أصروا على دفنه في وسط توكر وبنوا على قبره قبة بيضاء تقف شامخة الى اليوم. وبوفاة كَنْتَيْبَايْ حسين آلت رئاسة الحَبَاب الى ابنه كَنْتَيْبَايْ محمود بن حسين أطال الله في عمره.

هذا وكما جرت العادة، تبارى الشعراء في ذكر مآثر الفقيد "ود بشير" وهي كناية كَنْتَيْبَايْ حسين، ومن أشهر من رثاه على وتر الرباب الفنان المرحوم آدم شاش، وهنالك عدد من القصائد قيلت بعد وفاة كنتيباي حسين ومنها قصيدة جميلة للشاعر أدم شلال نكتفي منها بما يلي:

سِمْ تُو ومُسَمَّمْ وقطُّو إي لِتْرَدَّي	(هو سم ومسمم والنظر اليه يرهب)
تَوَايْ أمِرْ تُو إبْ قَعْبَابَا ودَّي	(يخطط للأمر ثم يتوكل)
دَنَاكِكُومْ وَدْ بَشِيرْ دُولْ لَمُكْتَبْ لاَتِّي	(يزيحهم من طريقه عند قدومه لمكتبهم)
علامته مَتْكَسِيتْ مِنْ جَرُوبْ إي تَبَدَّي	(فعله مثل الكي لا يزول عن الجسم)
إمبلاَمَّا أفهو إبْ إدْهُو شفَّق وكرَّي	(بالإضافة الى القول يده تسرع وتفعل)
وَدْ عجبين إي رَيْكا لأدَّام جبيء شِتَتَّي	(أما رأيت ود عجبين وتشتت الناس)
جبكسين ما تحَلَّلا ثلث ثمان إتْ قَمَّي	(وأما جبكسين يئس بعد شورة لثلاثة أسابيع).

(١) «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، مرجع سابق، ص ٧٠.

استعادة النظارة:

لم يكترث الحَبَاب في البدء لأمر تخفيض النَّظَارة بل كانوا دائما يقولون إن منصب "كَنْتِيْبَايْ" أقدم وأكبر من منصب "ناظر" الذي استحدثه الأتراك، بل ورفضوا المحاولات الحثيثة التى قام بها في سبعينات وثمانينات القرن الماضي ابنهم حامد محمد آدم أداله لإعادة النَّظَارة، ولكن تبدَّل الوضع في التسعينات وما تلاها، حيث أصبحت الغالبية من الحَبَاب، وخاصة الشباب، تنادي بعودة النَّظَارة، واعدوا للأمر عدته من تقديم الطلب تلو الأخر للمسؤولين ونشر المقالات وتعبئة الشارع وإجراء الإتصالات بصانعي القرار في الدولة. وساعدهم في ذلك تعيين ابن المنطقة الأستاذ: محمد طاهر إيلا، ابن الهَدَنْدِوَا، كبرى قبائل البُجَة، والياً لولاية البحر الاحمر. وبعد أخذٍ وردٍّ ومكايداتٍ من قبل البعض، أصدر الوالي/ محمد طاهر إيلا قراره الشُّجاع (قرار ولائي رقم (٨٥) لسنة ٢٠٠٦م بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ٢٠٠٦م)، تم بموجبه رسمياً استعادة نظارة الحَبَاب، ورُدَّتْ الحقوق المسلوبة الى أهلها. وقد احتفل الحَبَاب بعودة النَّظَارة في حشد مهيب لم يسبق له مثيل انعقد في ميدان فسيح بمنطقة دار النعيم في بورتسودان نهار الجمعة ٢٦ يناير ٢٠٠٧م الموافق (٧ محرم ١٤٢٨هـ)، تلاه احتفال آخر في حاضرة النُّقَّارة مدينة توكر الأبية في يوم ٢٨ يناير ٢٠٠٧ م.



صورة أخذت اثناء الاحتفال بعودة النَّظَارة في عصر يوم الجمعة ٢٦ يناير ٢٠٠٧ م في منطقة دار النعيم بمدينة بور سودان. تجمع الصورة بين المؤلف (على اليمين) والشيخ أبو عَلِيّ مجذوب أبوعَلِيّ (في الوسط) والأستاذ أمين سعد محمد عبدالله (على اليسار).



صورة للمؤلف اثناء القاء كلمته في احتفال إعادة النَّظَارة يوم ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

هذا وقد حضر احتفال بورتسودان عددٌ من المسؤولين على رأسهم الوالي محمد طاهر إيلا ، والشيخ: أبوعَلِيّ مجذوب (الوالي الأسبق)، ومعتمد محلية عقيق الأستاذ: حسب الله صالح حسب الله، ومعتمد محلية توكر، وعدد كبير من المسؤولين بولاية البحر الأحمر، وعددٌ ضخمٌ من سكان المنطقة ومن ضمنهم زعماء الحَبَاب بقيادة كَنْتَيْبَايْ محمود وَدْ كَنْتَيْبَايْ حسين. كما شرف الاحتفال أمير الأمراء أبو قرجة محمد كَنْتَيْبَايْ أبو قرجة والدكتور خالد حسن إدريس (أمه بنت كَنْتَيْبَايْ أبو قرجة)

واللواء ركن (م) أبوقرون عبدالله أبوقرون، وكوكبة من وجهاء الشرق منهم الأستاذ: محمد عثمان المصري، هذا فضلا عن ممثلي مؤتمر البُجَة الذين كانت راياتهم ترفرف في الساحة وهتافاتهم تزلزل المكان من وقت لآخر «بجا حديد، وفجر جديد»، والقى مسؤول الأمانة السياسة لمؤتمر البجة كلمةً حماسيةً أشاد فيها بتاريخ ونضال البُجَة وطالب بوحدة الصف. وحضر ممثلون لكافة قبائل المنطقة بما فيهم الشكرية والرشايدة والنوبة والهوسة وكافة قبائل البُجَة، كبيرها وصغيرها، ولم يتخلف منهم أحدٌ (سوى النابتاب!!)، وقدموا مساهمات عينية متنوعة تمثلت في التبرع للضيوف بعدد كبير من النياق والثيران والخرفان[1].

لقد كانت أمسيةً مشهودةً بحق لم يكترث فيها الحباب لتُرَّهات المرجفين في المدينة، فضربت فيها النُّقَّارة، وعرض أمامها أبناء فرقة الحَبَاب الشعبية بسيوفهم، وقدموا رقصات فروسية ممتعة وسط جمع غفير، بعضهم يمتطي صهوات الجمال البشارية الرشيقة، وبعضهم على أسطح المنازل وفوق الاشجار والسيارات، حيث ضاقت الأرض بما رحبت؛ وتبادلت فيها الوفود الكلمات المعبرة عن المناسبة، وشنف الآذان عدد من المطربين حيث غنى الفنان الكبير: محمد بدري، والفنان الثائر سيدي دوشكا، وفنان الحَبَاب الشَّاب درير محمود. كما قدم الفنان الكبير: حامد عبدالله (من قبيلة ألمدا) أغنيات تراثية جميلة، وارتجل أبيات شعرية معبرة بهذه المناسبة نكتفي منها بالمقاطع التالية:

وإنْذارْ كرَا دِيبُو إنْذَارْ كـرَا دِيبُو (وضع له انذار – بادئة شعرية)

فارس كنتيباي ود حسن من نقارتْ غَالِيتُو (الفارس كنتياي ود حسن أغلى من النقارة)

---

(١) أثناء الاحتفال في مدينة بورتسودان، قدمت قبيلة العجيلاب بقرةً وناقةً، وقدمت قبيلة أسْفَدَا ناقةً، وقبيلة ألْمَدَا ناقةً، وقبيلة الأَمَّازْأر ناقةً، وقدمت قبيلة أقْلِمْبَا ثوراً، وقبيلة رِقْبَات بقرةً، وقبيلة مَنْسَع بقرةً، وقبيلة عَدْ دِرْقِي عجلاً، وقبيلة عَدْ شيخ عجلاً، وقبيلة عَدْ مُعَلِّم وسُبْحَاتُو عجلاً، وقدمت قبيلة كَبِّي خروفين، وقدمت قبيلة عَدْ عَبْدُو خروفين، هذا فضلا عن التبرعات الأخرى التي قدمت من قبائل مختلفة في احتفال توكر الذي تم في يوم ٢٨ يناير ٢٠٠٧م حيث القى الأستاذ «مدني أدروب» ممثل قبيلة الشُّيْتَآبْ كلمةً ضافية، أفاض فيها وأطنب.

وفارس زَمَاتْ وَدْ إكد لتاريخ كَيْنْ جَارِيتُو (والفارس هو زَمَاتْ وما جرى من تاريخ)
وفارس دِقْلَلْ الحِسبن عِيظَاتْ قَبِيل جابيء يتو (والفارس هو دِقْلَلْ الحِسين ظهر القبيلة)
وفارس حَضِيرْ[1] مجَابُو لسَنِّي تمَاسِيتُو (والفارس حَضِيرْ مجَابُو ما أطيب أن تماسيه)
وَدْ ثَابِتْ إيمَانُو لبيتْ مَعْلايْ صَافِيتُو (بيت معلاوي الأصيل ابن ثابت الإيمان)
وفارس هَرِبْ لأَفْلَنْدَايْ حَالفَتْ مَدْجِيتُو (والفارس هو هَرِبْ الأفْلَنْدَاوي وقصته معروفة)
وفارس آدم قُوَعْ فال لِقِبْلَتْ نَاسِئْ تُو (والفارس هو آدم قُوَعْ الذي نال فأل القبلة)
وفارس محمد عثمان ضِيوَايْ[2] وَدْ كَلَيَايْ قَبتو (والفارس هو محمد عثمان ضِيوَايْ)
وفارس محمد حامد فضيل معسكر شلال كَالِئْ تُو (والفارس محمد حمي معسكر شلال)

***

إينِنْ كَرَا دِيبُو إينِنْ كَرَا دِيبُو (وضع له إينِنْ – بادئة شعرية)
من مصوع إتْ حلايب إنْتِلْكُمْ عَلَتْ لإدَارَتْ (من مصوع الى حلايب كانت لكم الإدارة)
تاريخ بُرُودْ إيْكُونْ كِمْ والْعُوتْ سِجَارَتْ (فهو ليس سهلا مثل اشعال السجارة)
بيت أسجدي لَحَايُوتْ فُرَّاس سَبًّا نقارتْ (بيت أسجدي إسود وفرسان وأصحاب نقارة)
حَلِيبَتْ ومَنْصُورَا وحَنَانِيتْ زيادتْ (حَلِيبَتْ ومَنْصُورَا وزيادة عليها حَنَانِيتْ)
حِلاي إمْبَلْ وَزِنْ وهِجْيَا إمْبَلْ عِبَارتْ (الشعر يتطلب الوزن والكلام يتطلب العبارة)

***

إينِنْ كَرَا دِيبُو إينِنْ كَرَا دِيبُو (وضع له إينِنْ – بادئة شعرية)
فُرَّاسْ كإِنّي تودّيْ أدَّامْ نفسو مِي جَنْجِرْ (هكذا فعل الفرسان فالشخص لا يهجو نفسه)
بيت أسجدي لَحَايُوتْ فرَّاسْ سَبًّا نَقَقُّرْ (بيت أسجدي الإسود وأصحاب التقاقير)
إتْ حِدْ حُوبُورْتُو سِجَانَا أدَّامْ جِلْدُو مي وَجُرْ (أنسابنا متداخلة ولا أحد يتخلى عن جلده)

***

إينِنْ كَرَا دِيبُو إينِنْ كَرَا دِيبُو (وضع له إينِنْ – بادئة شعرية)
فُوْقَا لَحِضِيرْ إدَيْو بُورَتْ وَلَيْ حَنكَّبْ (فوقا قصير اليدين وحنكب)
قَدَمْ كُلُّو عَلَتْ نَظَارَتْ أرْبَعَتْ كَتَّبْ (كانت قبل الكل نظارة الكتب الأربعة - جمع كتيباي)
حامد بيه إيْ رَيْكَا إعْلانْ دَوْلَتْ إتْ كَتَّبْ (ألم تر حامد بيه وهو يكتب إعلات دولة)

---

(١) تنطق "Hacheer" .
(٢) تنطق "Cheweye".

***

إينِينْ كَرَا دِيبُو إينِينْ كَرَا دِيبُو (وضع عليه إينِينْ – بادئة شعرية)

سَبْتُو لالِي مِي سَكَّبْ بُرُودْ مِي تُو تَارِيخْ (التاريخ ليس بسهل وأصحابه لا ينامون الليل)

نَصَحتْ مِنْ جبيءْ تأمَّرَا لدِبَيدْ (إذا صدقت النفوس فما جرى معروف)

منتو إمْبَل حسين كنتيباي سابر مكتب إنجليد (مني غير كنتيباي يكسر مكتب الإنجليز)

***

إينِينْ كَرَا دِيبُو إينِينْ كَرَا دِيبُو (وضع عليه إينِينْ – بادئة شعرية)

من قُرُورَا دِيبْ عَقِيق عيْتَرَا وياجَيْ (من قرورا الى عقيق ومن عيترا الى ياجي)

يَهَوْ سِمْعُونا أمَان إجِلْ نِتْهَاجَيْ (يا ناس اسمعونا لكي نحكي الحقيقة)

بدِيرْ عَلَتْ إجْلُومْ شِيمَتْ وحِنْقَاقِي (من قديم كانت لهم الزعامة والدلال)

***

إينِينْ كَرَا دِيبُو إينِينْ كَرَا دِيبُو (وضع عليه إينِينْ – بادئة شعرية)

فُوْقَا لَحضِيرْ إدَيُو حِنكِبْ وبُورَتْ لا لَعَالْيَايْ (فوقا قصير اليدين وحِنكِبْ وبُورَتْ العليا)

إتْسِحِلْ هِلَّيتْ وآوْلَتْ سِمَيتْ جَرْجِيسْ وعَايْلايْ (جَرْجِيسْ وعَايْلايْ في الصعيد والساحل)

إتْ مَثَلْ سَامْعَامُو دَامِرْ كِرْبَا وَدْ بَحَيْلَيَايْ (سمعنا بها في الأمثال دَامِرْ تل وَدْ بَحَيْلَيَايْ).

هذا وقد حضر الاحتفال إعلاميّون من تلفزيون جمهورية السودان والصحف القومية المختلفة، ودُبِّجت المقالات وإجريت التحليلات لهذا الحدث[1]. وكان الاحتفال رائعاً ومنظماً ولم يسبق له مثيل بشهادة أهل المنطقة، وضاق الميدان الفسيح بالنَّاس حتى إنَّ كثيراً من الضيوف الذين حضروا متأخرين لم يستطيعوا الدخول لموقع الاحتفال بسبب شدة الزحام. وفيما يلي نص قرار إعادة النَّظَارة:

(١) راجع المقالات التى نشرت في الصحف بهذه المناسبة ومنها صحيفة السوداني، العدد رقم: ٤٣٩ بتاريخ ٢٩ يناير ٢٠٠٧م، وصحيفة الصحافة، العدد رقم: ٤٨٩١ بتاريخ ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية السودان ولاية البحر الاحمر مكتب الوالـــي	REPUBLIC OF THE SUDAN RED SEA STATE WALLY OFFICE

قرارات الوالي

قرار ولائي رقم (٨٥) لسنة ٢٠٠٦م:

عملاً بأحكام المادة (٢٦) (أ) من دستور ولاية البحر الأحمر الانتقالي لسنة ٢٠٠٥م، مقروءة مع المادة ٥(٢) من المرسوم المؤقت قانون تنظيم الإدارة الأهلية بولاية البحر الأحمر لسنة ٢٠٠٦م،

أصدر القرار الاتي نصه:

أولا: إسم القرار وبدء العمل به:

١) يسمى هذا القرار بالقرار الولائي رقم (٨٥) لسنة ٢٠٠٦م والخاص بإعتماد تعيين ناظر لقبيلة الحَباب.

٢) يعمل به من تاريخ التوقيع عليه.

ثانيًا: إعتمـــــاد:

٣) يعتمد السيد/ كَنْتَيْبَايْ محمود حسين ناظراً لقبيلة الحَبَاب.

صدر تحت توقيعي في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة ١٤٢٧هـ الموافق الثامن والعشرون من شهر ديسمبر سنة ٢٠٠٦م

محمد طاهر أيلا

والي ولاية البحر الأحمر.

الباب الثامن

أهمية النُقارة (النحاس) عند الحَباب

النُّقارة أو «النحاس» هي عبارة عن طبل كبير، يسميها الحباب «نِقَّارَتْ» بكسر النون وتشديد القَّـاف «Niggaret»، تكون غالباً على شكل قدح من مادة النحاس، ويغلق الجزء المفتوح منه بجلد البقر أوغيره بإحكام، لكي يصدر صوتاً عالياً عند الضرب عليه، ويستخدم للإستنفار والإعلام. وكان من أعراف القبائل العربية، في شرق في أفريقيا على الأقل، أنَّ القبيلة التى تمتلك نقارة أو نحاساً هي قبيلة عريقة، ولها مكانة خاصة من الاحترام والهيبة لدى القبائل المجاورة لها، حيث أنَّ النقارة لا تكون لكل قبيلة، وإنَّما هنالك اعتبارات خاصة تتمكن القبيلة بموجبها من امتلاك النقارة. ولهذا لا تجد النقارة عند كل القبائل، وإنَّما تنفرد بها قبائل محددة، عرفت بسطوتها وجبروتها في المنطقة. والنقارة عند قبيلة الحَبَاب كانت بمثابة سلاح الإشارة في الجيوش الحديثة، وكانت النقارة الأداة الأساسية في هذا السلاح حيث يتم تعبئة النَّاس وتحميسهم بضربها على ايقاع معين، ويضاف الى ذلك أنغام الربابة أو ما يعرف عندهم بـ «الوَتَر»، حيث يحتفظ كل فرع في قبيلة الحَبَاب بوَتَرٍ خاص به، يعزف على الربابة، كما تعزف آلة شبيهة بالقرب الاسكوتلندية تسمى «مَلَكَتْ Malakat»، والرَّهط من الحَبَاب الذين يعزفون على هذه الآلة يعرفون بـ «واطوت Watot»، وكانوا بارعين في العزف على هذه الآلة، ولهم مكانتهم الخاصة.

وفي هذا الشأن نشير الى برنامج «عين على السودان» الذي بثته قناة الجزيرة القطرية خلال النصف الأول من شهر يونيو ٢٠٠٨ م حيث ذكر رجل التراث، المثقف السوداني «جراهام عبد القادر»، في حلقة من حلقات «حديث الصباح» من

ذلك البرنامج أنَّ النحاس أو «النقارة» عند قبيلة الحَبَاب تعتبر رمزاً للسلطة والهيبة والعزة. وذكر جراهام أنَّ الحَبَابي يحب النقارة كما يحب أمَّه واذا ضربت يمتشق سيفه ويهز به على رأس النقارة قائلا: «يُمَّه، يُمَّه» أي يناديها كما ينادي أمه اعزازاً لهذه النقارة. وقال جراهام إنَّ «جورج الخامس» ملك بريطانيا العظمى التى كانت وقتها الإمبراطورية الى لا تغيب عنها الشمس، قد انبهر بصوت نقارة الحَبَاب عندما ضربت لمقدمه عند زياته للسودان في عام ١٩١٣م، وقال: «لاشك إنَّ قوماً لهم هذا الإرث هم قوم عظماء».

والنقارة كان لها دور أساسي في استنفار النَّاس عند الملمات، والاستعداد للحرب التى كانت تدور بين القبائل لأسباب مختلفة، حيث كان يسمع صوتها من أماكن بعيدة، ويرتبط الحَبَاب بصوتها وجدانياً لكونها تمثل العزة والكرامة بالنسبة لهم. هذا وقبل أن تستقر النقارة «منصورة» منذ عام ١٨٩٥م في مقرَّها الحالي لدى أسرة كَنْتِيْبَايْ بمدينة توكر، كانت تنتقل عن طريق الحرب بين أبناء العمومة عَدْ هِبْتِيْس وعَدْ تَكْلِيْس كما سنفصل لاحقا.

بَيْدَ أنَّ للنقارة أدواراً أخرى، حيث تضرب في بعض المناسبات كالأعياد وولادة أبناء ذكور لأسرة كَنْتِيْبَايْ، وعند زيارة كبار الشخصيات لمقر الحَبَاب في توكر. وقد اشرنا لحضور الملك جورج الخامس لعرضة النقارة عام ١٩١٣ م، كما استمع لصوتها عدد من المسؤولين وكبار الشخصيات على مرِّ الحقب، ومنهم السيد/ محمد عثمان المرغني، واللواء أحمد الطاهر المجذوب، ورئيس جمهورية السودان الأسبق اللواء جعفر النميري، وغيرهم كثير.

ويعود بعض النقاقير التي في حوزة الحَبَاب حالياً الى سلطنة الفونج، وبعضها يعود الى ملوك الحبشة. ومنذ عام ١٨٩٥ انتقلت النقاقير (الأصلية) للحباب من

نقفا الى توكر ومنذ ذلك التاريخ لم تفارق بيت كَنْتِيْبَايْ إلاّ في مناسبات معينة. ويحتفظ الحَبَاب حالياً في مقر الزعامة في توكر بسبع نقاقير (أربع نقاقير كبيرة وثلاث نقاقير صغيرة) متوارثة جيلاً بعد جيل، وهي كما تبدو في الصورة: (١) منصورة و(٢) بنتها و(٣) حليبت و(٤) بنتها و(٥) كَشَكِّش Kashakkish و(٦) بنتها و(٧) حنانيت.



أمَّا النُّقارة التى توجد لدى قسم الحَبَاب المقيم حالياً في إرتريا فهي نقارة تخص السلطان «بادي»، سلطان سنَّار، وهي نفس النُّقارة التى شاهدها وكتب عنها السيد نعوم شقير بعد زوال حكم المهدية من توكر وسقوطها في يد الحكم الثنائي في عام ١٨٩١م، حيث دخل نعوم شقير المدينة عقب سقوطها، ووجد فيها نقارة مكتوب عليها بخط قديم « هذه نقارة الفضة.... نقارة سلطان الحبشة السلطان ياسو بن السلطان الكبير... بيوم الاثنين... سنة ١١٠٧.... يوم جاء بنفسه فقتله السلطان

بادي في شهر صفر»[1]. وحسبما ذكر المؤرخ محمد صالح ضرار فإنَّ هذه النُّقارة قد أهداها المأمور «محمد بك عبود» الى صديقه (من الحَبَاب) الشيخ «دقلل بن جمع بن جاوج»[2] الذي ذهب بها الى نقفا لكون كل نقارات الحَبَاب التاريخية قد استقرت مع كَنْتَيْبَايْ محمود في توكر، وكان لا بُدَّ أنْ تكون هنالك في نقفا «حَمَلْمَال» نقارة للحباب!!.

ومن المصادفات العجيبة في هذا الشأن أنَّ أحد المهتمين بقضايا التراث، وهو الدكتور عصام عبد الباقي محمد (الركابي)[3]، استشاري طب الأسرة بمؤسسة حمد الطبية في الدوحة، قد ذكر لي أنَّ آخر سلاطين الفونج، عندما أحس أنَّ دولتهم لا محالة زائلة على يد الأتراك الغزاة، جمع كل النقاقير التى كانت بحوزتهم وأرسلها الى جهة ما في شرق السودان (لم يستطع الدكتور عصام تحديدها) قائلاً لهم: «نِحْنَا ما قِدِرْنَا على التُّرُكْ وأَخَيْر نَقَاقِيرْنَا تكون عندكم بدل ما يَاخْدُوها التُّرُكْ!! ». ومن المؤكد أنَّ هذه النُّقارة (التى في نقفا) كانت مملوكة للفونج بدليل ما كتب عليها «.... يوم جاء بنفسه فقتله السلطان بادي في شهر صفر»، فهل يا ترى أنَّ النقاقير السبعة الموجودة لدى الحَبَاب اليوم في توكر (بيد كَنْتَيْبَايْ محمود)، هي أيضاً جزء من النقاقير التى أرسلها سلطان الفونج؟ ربَّما، فهي نقاقير قديمة، ويزعم الحَبَاب أنَّ جزءاً منها يعود الى سلطنة الفونج، ولكن الأمر يحتاج الى بحث وتدقيق.

---

(١) «تأريخ السودان» لنعوم شقير، تحقيق وتقديم الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، طبعة ١٩٨١، دار الجيل، بيروت، صفحة ٨١٦.

(٢) «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، الطبعة الثانية ١٩٩١، ص ٧٣.

(٣) الركابية قبيلة معروفة في السودان يرجع نسبهم الى جدهم «ركاب» ابن أحمد بن عايد الملقب بغلام الله بن عايد، وغلام الله هذا هو رجل يمني من منطقة اللحية قدم الى السودان عن طريق سواكن ثم انتقل الى دنقلا لتدريس علوم الدين ومن ثم انتشر نسله في باقي أنحاء السودان ولاسيما شرق السودان حول القضارف وغيرها، وهم أهل دين وتصوف ومن أشهر أعلامهم المعاصرين شيخ الجمهوريين الأستاذ محمود محمد طه رحمه الله.

الحرب بين بيت أسجدي بسبب النقارة:

النقارة كانت بمثابة الرمز لسلطة وهيبة القبيلة تماماً كما هو الحال الآن بالنسبة للراية أو العَلَم في الدول الحديثة، حيث يتم التعامل معها بقداسة واحترام ويموت النَّاس من أجلها. وكان للحباب نقارة قديمة، وعندما تولي «سَمَر العُول وَدْ جَبرْكِتُّوس» الحكم صار أول كنتيباي للحباب بيد أنه واجه تمرداً من بعض أخوانه، وحصل خلاف كبير جعل «سَمَر العُول» يأمر خادمه بدفن النقارة، ثم دفن معها الخادم نفسه لكي لا يخبر بمكانها، وهكذا دفنت النقارة في مكان مجهول، وبهذا ضاعت النقارة الأولى. بعد ذلك حصل الحَبَاب على نقارة تسمى «منصورة»[1] من دولة الفونج (هذا ما يقوله شيوخ الحباب)، ونقارة أخرى من ملك الحبشة، فضلا عن نقاقير أخرى مجهولة المصدر بالنسبة لنا. وظلت هذه النقارات أو النقاقير مصدر خلاف بين الحَبَاب، وتسببت في وقائع دامية لكونها تمثل رمزاً للسلطة، ومن يملكها يملك رئاسة قبائل الحَبَاب. ومن ذلك ما يروى عن الحروب العنيفة التى دارت ردحاً من الزمن بين أبناء العمومة فرع «عَدْ تَكْلِيْس» وفرع «عد هِبْتِيْس» بسبب الصراع على النقارة، قبل أنْ تستقر بصورة نهائية لدى أسرة كَنْتَيْبَايْ الحالية.

قبل بدء الحرب بين عَدْ تَكْلِيْس وعَدْ هِبْتِيْس، كانت كل قبائل الحَبَاب تخضع لحكم كَنْتَيْبَايْ واحد، واستمر هذا الوضع الى نهاية عهد كَنْتَيْبَايْ «مَفْلَس» وَدْ أبِيبْ، والذي خلفه في منصب كَنْتَيْبَايْ إبنه الأصغر «هِبْتِيْس». فبالرغم من أنَّ إدريس وَدْ مَفْلَس هو الإبن الأكبر لَمْفْلَس، وكان يفترض حسب العرف، أنْ يخلفه إبنه الأكبر، ولكن تم منح الرئاسة «منصب كَنْتَيْبَايْ» لإخيه الأصغر «هِبْتِيْس[2]» وَدْ مَفْلَس، ثم

---

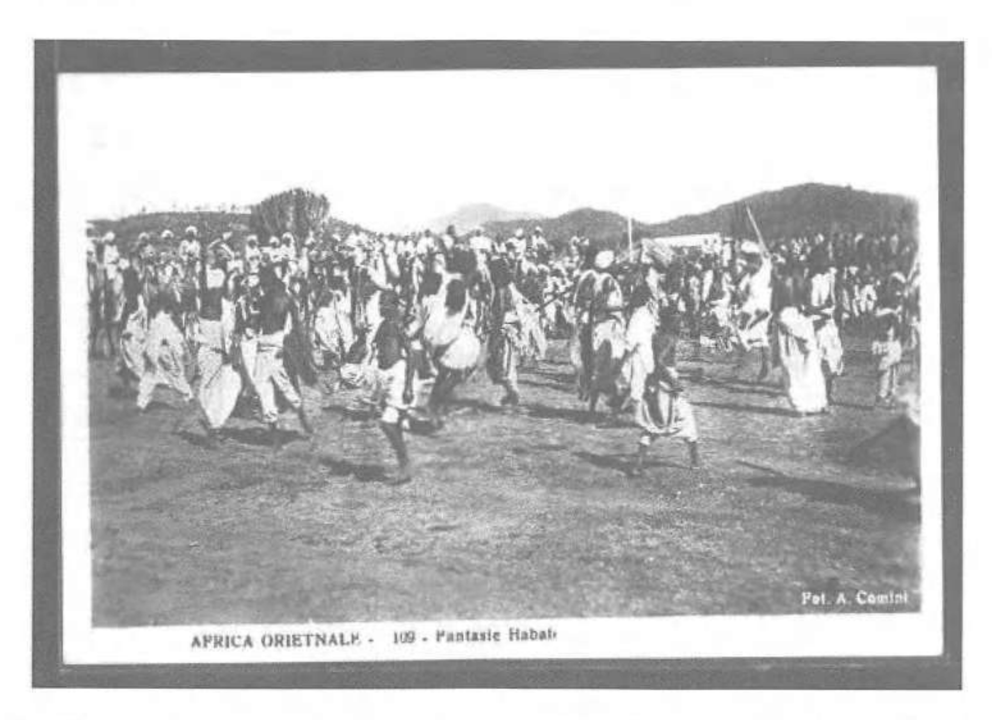
(١) يبدو أن كل نقارة آتية من دولة الفونج للقبائل تسمى «منصورة» تفاؤلا بالنصر حيث علمت أن نقارة السلطان علي دينار في دافور تسمى أيضا منصورة، ومعلوم أنه قد حصل عليها من دولة الفونج.

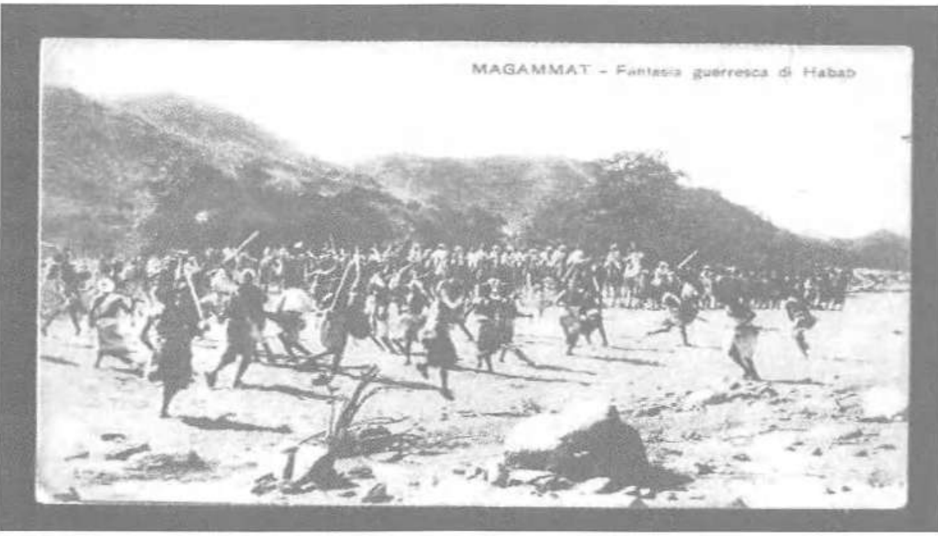
(٢) هِبْتِيْس أصغر سنا من جبريس في ترتيب أبناء «بيت بَلْوَيِتْ» (نسبة الى أمهم بَلْوَيِتْ أم جبريس)، ويقال إن بيت بَلْوَيِتْ وهم: جَبْرِيْس وَدْ تِمَازيَام ثم هِبْتِيْس وتَكْلِيْس (إبنا مفلس) قد تحالفوا ضد «إدريس ود مفلس»، أخيهم من الزوجة الأخرى لأبيهم، وتناصروا على تولية شقيقهم «هبتيس».

خلفه إبنه «فِكَاك» وَدْ هِبْتِيْس الذي أصبح كَنْتَيْبَايْ. وهكذا نجد السلطة قد انتقلت الى نسل هِبْتِيْس بدل أن تكون في نسل «إدريس» باعتباره الإبن الأكبر لمَفْلَس. إنَّ هذا الأمر أغضب «عَدْ إدريس ود مفلس»، وخلق نوعا من التحزب والإحن بين بيت أسْجَدَيْ انفسهم. ويبدو أنَّ «عَدْ تِمَارْيَام» لم يكونوا في الأصل راضين بالوضع، لكون الرئاسة انتقلت من والدهم تِمَارْيَام الى أخيه مَفْلَس بسبب مرض تِمَارْيَام، ومن ثمَّ لم تعد هذه الرئاسة الى بيت تِمَارْيَام، وإنَّما استمرت في بيت مَفْلَس.

قتل زعيم عد تماريام كنتيباي جبريس:

أشرنا فيما سبق الى أنَّ عَدْ تِمَارْيَام اختلفوا مع إخوانهم عَدْ مَفْلَس بسبب عدم رضائهم لقسمة الغنائم الناتجة عن غزو الهَدَنْدِوَا، وانفصلوا عن الحكم المركزي لكَنْتَيْبَايْ، ورحلوا من نقفا الى جهة أخرى، وعينوا من بينهم زعيماً لقبوه «كَنْتَيْبَايْ». بعد ذلك بفترة قام رجل من أعراب عَدْ تَكْلَيْس يسمى «حصير Hacheer» (أي القصير) بقتل أحد أعراب عَدْ تِمَارْيَام فحكم عليه بدفع الدية، غير أنَّه، وقبل ميعاد دفع الدية، هجم عَدْ تِمَارْيَام على زريبة بهائم تابعة لعَدْ تَكْلَيْس وقتلوا رجالها ونهبوا البهائم. ولهذا قام عَدْ تَكْلَيْس، وعلى رأسهم أسقدوم وجَلايْدُوس (إبْنَا تِيدْرُوس وَدْ تَكْلَيْس)، بحرقِ ونهبِ زريبةٍ تابعةٍ لعَدْ تِمَارْيَام. فلما علم زعيم عَدْ تِمَارْيَام (كَنْتَيْبَايْ جَبْرِيْس وَدْ جِرِينَتْ) بهذا الخبر ركب فرسه ولحق بالمهاجمين، فانبرى له جَلايْدُوس، واثناء المبارزة دخل بينهما أسقدوم وضرب كَنْتَيْبَايْ جَبْرِيْس بسيف يدعى «ظَلِّيم» أي الأسود، ويبدو أنه لم يمت في ساعته، فأقعدوه متكئاً على شجرةٍ، وعلَّقُوا السيف والدَّرقة فوقه على الشجرة وتركوا معه نعاجاً وماعزاً.





صورتان قديمتان لصبية من الحَبَاب يؤدون لعبة الحرب في وادي مَقَمّاط، بينما ينظر اليهم كبار القوم، وهم على ظهور خيولهم وجمالهم. وكان الحَبَاب قد درجوا على القيام بلعبة الحرب هذه والتى كانت بمثابة تمرين على القتال «بالذخيرة الحية!!». وهذه الصور موجودة في الانترنت بعنوان «Fantasia war of Habab».

الخلاف بين عد هبتيس وعد تكليس:

ذكرنا أنَّ عَدْ تِمَارْيَام قد رحلوا من نقفا الى جهة أخرى في السَّاحِل واختاروا لأنفسهم «كَنْتِيْبَايْ» منفصل، بَيْدَ أنَّ الحكم بواسطة كَنْتِيْبَايْ «الذي يملك النقارة» استمر من نقفا. ويبدو أنَّ استقرار النَّاس في نقفا أدى الى بروز ظواهر اجتماعية لم تكن معروفة من قبل ومنها السرقة، الأمر الذي جعل كَنْتِيْبَايْ «فِكَاك» يدعو لإجتماع « مَحْبَر»، تقرر فيه توقيع عقوبة القتل على كل من يسرق. وكان أول من نفذ فيه الحكم أحد العربان التابعين لعَدْ تَكْلِيْس. ثم سرق أحد العربان التابعين لعَدْ هِبْتِيْس، فربطوه تمهيدا لقتله غير أنَّ «أكد» بن «إزاز» بن «فِكَاك» قام باطلاق سراح الأسير وقال إذا قتلنا كل يوم شخصا سرق فمن سيبقى؟ فاحتج عَدْ تَكْلِيْس ضد هذا الأمر وقالوا لماذا قتلتم تابعنا وتركتم تابعكم؟ وغضب عَدْ تَكْلِيْس فرحلوا الى منطقة «حِدَايْ»، وكان معهم عَدْ إدريس وَدْ مَفْلَس الذين لم يكونوا أصلا راضين بالوضع كما ذكرنا. إثر هذا الاختلاف مات كَنْتِيْبَايْ فِكَاك فتمت دعوة عَدْ تَكْلِيْس للاجتماع لإختيار «إزاز» ليكون كَنْتِيْبَايْ محل والده فِكَاك. وكان هنالك رجلا من عَدْ إدريس يسمى «حَسَامَا» وَدْ إدريس وَدْ مَفْلَس كان مهاب الجناب مسموع الكلام، قد صرح للناس أنَّه لا يحبذ أنْ يكون الرأس (يقصد كَنْتِيْبَايْ) من عَدْ هِبْتِيْس. وحتى لا يغضب أبناء عمومته وحلفاءه عَدْ تَكْلِيْس، لم يقل إنَّه أحق بالرئاسة (باعتباره سليل الابن الأكبر لمَفْلَس) وإنَّما قال أريد أنْ يصبح كَنْتِيْبَايْ من عَدْ تكليس، واقترح أنْ يتولى «تَيدْرُوس» وَدْ تَكْلِيْس هذا المنصب[1]. فرضي عَدْ تَكْلِيْس بهذا الرأي، وبالطبع رفض عَدْ هِبْتِيْس هذا الاقتراح وقالوا نحن اخبرناكم فقط لكي تباركوا كما جرت العاده، ولكن لن نقبل بمشاركة أحد لنا في هذا المنصب، وبهذا تولى «إزَاز» منصب كَنْتِيْبَايْ في نقفا ومعه النقارة. المهم هو إنَّ عَدْ تَكْلِيْس وعَدْ إدريس لم يرضوا بهذا القرار ولذلك هجمو على عَدْ هِبْتِيْس وسلبوا النقارة (مَنْصُورَة وكَشَكُّش وحَلِيبَتْ)، وولوا كبيرهم «تيدورس» وَدْ تَكْلِيْس في منصب كَنْتِيْبَايْ. وحسب العرف لدى الحَبَاب فإن من يستولي على النقارة يصبح كَنْتِيْبَايْ، ويدين له النَّاس بالولاء. عقب ذلك ذهب الفريقان، كما هي العادة، الى

(١) ولذلك يقال في المثل: "حَسَامَا مَا إبْ جَارُو" أيْ حَسَامَا أيضاً له غرضه.

أقرب قوة إقليمية وهي ملك الحبشة، كلٌ يطلب النصرة لقضيته، ووقف «إزَاز» وَدْ كَنْتَيْبَايْ فِكَاك و«أيلوس» ابن تَيدْرُوس أمام النجوس وأخبروه بالخلاف الذي بينهم فقال لهما ما معناه: بما أنَّك يا «إزَاز» ابن الكبير وابن كَنْتَيْبَايْ، نقترح أنْ تكون «نُجُوسْ بَحَرْ»، وبهذا يصبح لقبك «بَحَرْ نَجَاسِي» أي ملك البحر. أمَّا «تَيدْرُوس» الذي معه النقارة يبقى في منصب «كَنْتَيْبَايْ». وبهذا تراضى الفريقان واستلموا كسوة الشرف والسلاح من النجوس، وعادوا الى أرض الحَبَاب في الساحل.

معركة كُوكْحا:

إنَّ الجو المشحون بالخلافات التى نتجت عن استيلاء عَدْ تَكْلَيْس على النقارة خلق توترا بين النَّاس وأصبح كل قوم يفاخرون بأنفسهم، وشهدت فترة بحر نجاسى إزَاز وكَنْتَيْبَايْ تَيدْرُوس الكثير من المشادات وسعى الشعراء والمغنين بالفتنة، وأصبح الرعاة والعربان يتبادلون الألقاب السيئة فيما بينهم، كل يفاخر بمن يتبع له ومن ذلك ما قاله شاعر تابع لعد تَكْلَيْس:

مِي توَلَّدْ إبْ مِرَّحَرْ وَجَبَاً إتْ قَادِم (ماذا ستلد في ألآخر وقد تحدد الأمر سلفا)
دِرُوْي حَيَــتْ، سَــابَرا مقــازم (هو الأسمر شبيه الأسد قد كسر العظام)
أَلْمَــا بَحَــر، وحَرْمَــازْ قَــادِم (هو مثل تمساح البحر ومثل فيل الوادي)

وقال شاعر من الطرف الآخر:

مَنْبَاي حَيسُّوم مَنَابِيتْكَا وَأبْ كِتِبْ (سيدي أفضل من جميع سادتك يا أب كتب)
وُرُو حَيــسْ مِــنْ بِــزْحَـــامْ (قد يكون الفرد أفضل من الجماعة)
ولَــذَّتْ تَحْــيِسْ مِــنْ عِــلِــبْ (واللذة أفضل من الهم والحساب)
حَــا لَــــوِنَّــنْ شَــبَّــبْ بَا (مثل البقر التى ترى النمر)
أدْجِـــــذْ قَــاتِــلْ إب جِلِــــبْ (فتأذي بعضا وهي تجفل منه).

وكانت القبيلة في تلك الفترة تخيم في بئر تسمى بئر «كُوكْحَا». وإذا علمنا أنَّ بحر نقاسي إزَاز هو الجد الرابع لكَنْتَيْبَايْ حامد بك فهنالك ستة أجيال حتى نصل الى جيل جده بحر نقاسي إزَاز. وإذا افترضنا أنَّ الفترة الفاصلة بين كل جيل والذي يليه ثلاثون الى خمسة وثلاثون سنة فإنَّ الوقت بالتقريب (ونقول بالتقريب) الذي بدأت

فيه الحرب بين عَدْ تَكْليْس وعَدْ هِبْتِيْس كان في الفترة ما بين ١٦٨٤م و ١٧١٤م، حيث أنَّ حامد بك قد عاصر ظهور الثورة المهدية وبايع أميرها في الشرق عثمان دقنة في عام ١٨٨٤م. يقول الراوي من عَدْ تَكْلَيس الشيخ/ محمد عثمان عتيل إنَّ أولاد مَفْلَس الأربعة (هِبْتِيْس وتَكْليْس وإدريس وشِكَّر) كانوا يخضعون لسلطة بحر نقاسي إزَاز، بعد التوافق على تقسيم السلطة الذي تم أمام ملك الحبشة. وكان الشرب ورداً بينهم بحيث تتبادل بهائمهم الورود الى البئر. وفي أحد الأيام وردت بئر «كُوكْحَا» بقر تخص عَدْ إدريس وَدْ مَفْلَس وأثناء سقي البقر ورد الى البئر أحد جُبَاةِ ضريبة البهائم (الطلبة) ويدعى «حَنْبَار»، من رهط عَدْ هِبْتِيْس، قيل إنَّه مندوب لجمع الطلبة (الضريبة) وقيل إنَّه كان ينشد ضالته. المهم هو إنَّ «حَنْبَار» هذا طلب من الرعاة الموجودين في البئر أنْ يسقوه ماءً، وكان هؤلاء الرعاة تابعين لعَدْ إدريس، فقالوا له اشرب بنفسك من الحوض الذي أمامك[1]، فغرف حَنْبَار من الماء بيديه ليشرب، فنهره الرعاة وقالوا له لا تهدر الماء، وإنَّما يجب عليك أنْ تشرب مباشرةً بفمك من الحوض. فما كان من الرجل إلاّ أنْ جثى على الأرض، وأصبح يشرب بفمه. وكانت له لحية كبيرة ابتلت بالماء، وعند الانتهاء من الشرب قال له الرعاة اهدرت الماء الذي يتقاطر من لحيتك، وجاء أحدهم وشطف الماء من لحيته في الحوض. كان حَنْبَار يتصرف بهدوء مبيِّتاً النية على الانتقام. وقبل الانصراف قبض بيده على لحيته، فخرجت منها ثلاث شعرات، فقال للرعاة: أترون هذه الشعرات الثلاث؟ سأجعلكم تدفعون مقابلها في العدد، ثم انصرف!!. وبعد أنْ وصل الخبر لعَدْ إدريس أحسَّ كبارهم بالخطأ الكبير الذي ارتكبه رعاتهم، وكانوا يتوقعون الانتقام عند ورودهم للبئر في المرة القادمة، ولهذا طلبوا من كَنْتِيْبَايْ تَيدْرُوس وَدْ تَكْليْس التوسط لمنع أي انتقام من قبل جماعة عَدْ هِبْتِيْس. فقال لهم تَيدْرُوس لا بأس، وطلب منهم أنْ لا يَرِدُوا البئر في اليوم المحدد لهم، وأنْ يؤجلوا وِرْدَهم الى اليوم المخصص لعَدْ تَكْليْس. وبناء على ذلك وردت أبقار عَدْ تَكْليْس البئر في اليوم المخصص لعَدْ إدريس فجاء فرسان عَدْ هِبْتِيْس الى بئر كُوكْحَا، وقتلوا ثلاثاً من

---

(١) يقوم الرعاة عادة باعداد حوض صغير يسمى «سموي Samooy» تشرب منه البهائم بعد نشل الماء من داخل البئر.

عرب عَدْ تَكْلَيْس هم: (١) هيابُ وَدْ حسن و(٢) عثمان وَدْ زيد و(٣) قيتاي وَدْ وران، وقيل إنهم قتلوا شخصاً رابعاً اسمه: مسمر وَدْ حضير Hacheer (القصير). عقب ذلك نهب عَدْ هِبْتَيْس البقر، وكان ظنهم أنَّها لعَدْ إدريس، وأنَّ الرعاة المقتولين هم رعاة عَدْ إدريس. علم عَدْ تَكْلَيْس بالخبر فقام نَاشِح وَدْ تَيدْرُوس، ومعه حَسَامَا (من عَدْ إدريس وَدْ مَفْلَس)، على عجل ولحقا عَدْ هِبْتَيْس وبدأت المعركة، وبدل أنْ يقتل رعاة من رعاة عَدْ هِبْتَيْس قام نَاشِح بقتل بحر نقاسي إزَاز وَدْ فِكَاك "رأس القبيلة". أمَّا حَسَامَا فقتل أكد وَدْ إزَاز وعَالْيَايْ وَدْ فِكَاك وَدْ هِبْتَيْس، وكانت هذه مأساة وفاجعة لم يستقر الوضع بعدها لعشرات السنين. بعد انتهاء غبار المعركة جاء نَاشِح الى والده كَنْتَيْبَايْ تَيدْرُوس (وكان ضريراً ومسناً) فوجده غاضباً فسأله: هل تعشيتم يا أبي؟ فرد عليه: يا نَاشِح (سَرَار) - أي الذي يجيد القفز - لقد قدمتم لي العشاء مسبقاً بقتلكم إبْنَيْ أخي وإبنهما. قيل إنَّ تَيدْرُوس سَألَ عن «ناود» (وَدْ بحر نقاسي إزاز) فقيل له إنَّه حيٌّ، فقال: إذَنْ الحَبَاب لم تمت وستحيا به[1]، وتحسر تَيدْرُوس من فعل إبنه «نَاشِح» وقال لو كان ابني «إيلوس»[2] موجودا لما وقع في هذا الخطأ. قال أحد الشعراء يستنكر فعلة نَاشِح:

نَاشِحْ إزَاز وإي قَتْــلا	(لولا أن نَاشِح قتل إزاز)
إكَّيتْ كِيْنْ وإي بَذْحَتْ	(لما كان السوء كثر بهذه الطريقة)
مَنْدَر مِيِزْ واي جَبْـأتْ	(وما كانت هذه الفعلة لتصبح مثلا للمنكر في الأرض)
وإي تُوَلَّدَا وإي ظَنْحَتْ.	(وما كان يعاقب نتيجة لها من لم يولد بعد).

معركة تحرا:

معركة "تَـحْرَا" هي المعركة التى استرد فيها عَدْ هِبْتَيسْ بفضل "حَامَاسَا" النقارة من عَدْ تَكْلَيسْ واستولوا فيها كذلك على السيف المشهور "قَطَّان". وقبل الدخول في سرد أحداث هذه المعركة يجب أن ننوه الى أنَّ هنالك إختلاف في بعض تفاصيل

---

(١) بالإضافة الى «أكد» و«ناود»، خلف بحر نقاسي إزَازْ كل من مدين وإسْحَق، جد الخليفة علي نور.

(٢) كان الأخوان «إيلوس» و«جَلايْدُوس»، إبنا تَيدْرُوس، مسافرين ولم يحضرا بداية ذلك النزاع.

هذه المعركة بين رواية عَدْ تَكْلَيسْ ورواية عَدْ عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك، ونحن سوف نورد الروايتين كما سمعناهما من الطرفين فنقول اعتماداً على ما رواه لنا الشيخ محمد عثمان عتيل (من عَدْ تَكْلَيسْ، وهو أحد الحافظين لتارخ بيت أسجدي عموماً)، واستناداً على ما وجدناه مدوناً في مسودة كتاب القاضي إدريس التي سبق أن أشرنا اليها، وهي مسودة روجعت من قبل كبار بيت أسجدي وعلى رأسهم كنتيباي عثمان وَدْ هِدَاد، نقول إنَّ عَدْ تَكْلَيس (الذين كانت معهم النقارة كما بيَّنا) رحلوا بعد معركة كُوكْحَا الى جهة كَبَسَا، ونزلوا في جبل في أرض المنسع (سمي فيها بعد باسم "سَلَبَا" على اسم خادمة كَنْتِيْبَايْ تَيذْرُوس التى توفيت ودفنت فيه)، وسكنوا فيه سبع سنوات، وكانوا ينظمون الأشعار في الحنين لأرض الحَبَاب. قال شاور وَدْ هَمَيْ (وقيل حَسَامَا وَدْ إدريس وَدْ مَفْلَسْ) يصف حال أبقارهم في تلك المنطقة:

هتا مَعَالاَلْ أُبَيتْ وولاَدَه مَكَبَّاتَا	(رفضت البقر الترويض ورفض ابناؤها الرضاعة)
ظِرِعْ تَاكَلَيَا إتَّا مَقَاطْنَا قَاسَا	(أقعدها المرض (ظِرِع) وجلس في مفاصلها)
مَنْكَر تاكليا أقراب أَبَا سحاتا	(أقعدها البعد وأبت الحَشَرَات أن تتركها)
نقفا حَزَيتَّنِي شَيْكَا إبْ قَرْوَاتَا	(تريد منا الذهاب الى ماء نقفا، ودنيانها)
أَقْرَعْ حزيتني شَاتْرِبْ	(تريد الرعي في أقرع وشاترب جنوب قرورا)
وَوَطَالِيتْ رِمْدِيتْ وأَبْدَادَا	(و تريد الرعي في وطاليت ورمديت وأبدادا)
من عِنْكِلتْ عجيل	(في هضبة عجيل - تقع جوار عدوبنا)
أَوْقِيتْ إتْمِشْهَاتَا	(نالت ما تشتهي)
من رأس حنبوكايت	(وعند قمة جبل - حنبوكايت - يقع في مقدام)
بوراي لبوراي لاكا	(«الراعي» ينادي «الراعي»)
إنْدي تَأتقْبلوم	(فتنظر اليهم البقر)
كَتْجَبِئْ إتْ بِلَّعَاتَا	(تعود لمواصلة أكلها)

فرد عليه أحد شعراء عَدْ درقي (قيل إنَّه سعد الدين) قائلاً:

وُو[1] «شَاوِر» جامِيكُوكَا	(يا شاور أنا انصحك)
جُومَاتِّ مِنْ سَمْعَكَا	(إذا تسمع نصيحتي)

(١) طريقة للمنادة يستعملها الحباب وما تزال تستعمل في اليمن بنفس الطريقة.

كيــن قُــرَبْ إتَّــا كَبَسَــاكَا (ابعد هناك في كَبَسَاك تلك)
إكِدْ وإزَاز هَـلَّوْ إتَّا بِرَارَاكَا (لأن دم أكد وإزَاز موجودان في ذمتك)
نَفِرْ لِقْبَأ إجْلا سَعَرْ نقفا حاكا (المراعي في نقفا اصبحت محرمة على بقرك).

وقال سمرة[1] بن كَنْتَيْبَايْ تَيدْرُوس (وهو كان في المعسكر المضاد لوالده وأشقائه):

حَقُو منصـورة لَهَدَار إتَّا قَرْقَـرْ (بعد منصورة (النقارة) التى تهدر)
حقــو إزَاز وحقــو إكــد أَشْقَـرْ (بعد إزَاز وبعد أكد الأشقر)
حقو أبْ لاكَكَا عَالْيَايْ إي لِتْعَدَّلْ (بعد عَالْيَايْ «أبْ لاككا» الذي لا يعادله أحد)
نَوَيْــتُ نِتْبَأسُّوم بسم الله والله أكبر (نويت أن أقاتلهم: بسم الله والله أكبر!!).

وأثناء وجود عَدْ تَكْلِيْس في غربتهم، توفيت خادمة كَنْتَيْبَايْ تَيدْرُوس واسمها «سلبا» فرفض المنسع السماح بدفنها في أرضهم ولذلك أمر كَنْتَيْبَايْ تَيدْرُوس بدفنها داخل البيت في المكان الذي يوضع فيه عادة جراب الماء و قال قصيدة مؤثرة منها:

إكُّويْ تُو قَبِـرْ سَلَـبا (سيء هو قبر سلبا)
لاكْـفُــو إتُّــو إبَّـنَــاتْ (فضعوا فيه بعض الأحجار)
وَسَنِّي تُو سَبِكْ أفْحَارِينْ (حسنة هي رحلة الشتاء الى «أفحارين»)
جِـلِـبْ سَـجْلا وقِرَاتْ (ومناطق قلب سقلا وقِرَات ـ جنوب قرورا).
إي إفَـــدِّيْ عِـــــدَايَا (فلا موت فداه لفعلتنا)
وإي إوْعِــلْ دِيـبْ إمَّاتْ (ولا عيش بين الأهل – الأمهات)

ومنذ ذلك الوقت عرف ذلك الجبل باسم «دبر سَلَبَا». عندما سمع أبناء كَنْتَيْبَايْ تَيدْرُوس هذا الشعر، أيقنوا أنَّ أباهم قد أصابه الوجد والحنين لأرض الحَبَاب،

(١) يرى الأستاذ/ محمد جيل أحمد هُمَّد أن هذه الأبيات قالها كنتيباي ناود ود إزَازْ، ولكنني وجدتها منسوبة الى سمرة ود تيدروس في مسودة كتاب القاضي إدريس محمد نصرالدين الذي سبق أن أشرنا اليه مرارا وهي مسودة (كما بين صاحبها في المقدمة) أنها روجعت من قبل كنتيباي عثمان وهو شخص كان يحفظ تاريخ أهله وأشعارهم.

فنزلوا الى منطقة شِعِب باتجاه السَّاحِل، وفي المكان المسمى «قُرْطُوطَتْ»[١] مات كَنْتِيْبَايْ تِيدْرُوس، فدفن فيها وسكنوا في هذا المكان ثلاث سنوات بدعوى أنَّهم يقيمون المأتم على والدهم. بعد ذلك سلكوا طريق لَبْكَا، ونزلوا عن طريق «غَار عُوبَل» الى وادي عَنْسَبَا، وكان سكانه من جهة الشرق عَدْ تِمَارْيَام، ومن جهة الغرب عَدْ سَمَر العُول. وكما بيَّنا في السابق، فإنَّ العلاقة بين عَدْ تِمَارْيَام وعَدْ تَكْلِيْس لم تكن عامرة بسبب قتل عَدْ تَكْلِيْس لكَنْتِيْبَايْ جَبْرِيْس وَدْ جِرِينَتْ وَدْ جَبْرِيْس. خشي عَدْ تَكْلِيْس أنْ يعترضهم عَدْ تِمَارْيَام بسبب الثأر لكَنْتِيْبَايْ جَبْرِيْس ولهذا أرسلوا «فوطة حرير» (وكانت تمثل أفخر الملابس في ذلك الوقت) هديةً لكَنْتِيْبَايْ «عَدْ تِمَارْيَام»، وطلبوا الأمان حتى يجتازوا تلك المنطقة. فردَّ عَدْ تِمَارْيَام بالايجاب واعطوهم الأمان. فاتجه عَدْ تَكْلِيْس الى عَنْسَبَا تَحَاتْ (عَنْسَبَا الأدنى)، وبالتحديد منطقة "تَحْرَا" واتخذوا مسكنهم الأساسي في "أَقْبِرْ شَيَمْ أَبْعَامِرْ".

أمَّا خبر عَدْ هِبْتِيْس فكان شيئاً آخر. فقد شعر القوم بالحزن العميق على مقتل زعمائهم، وتحزَّب النَّاس ضد عَدْ تَكْلِيْس لدرجة أن اسم الحباب أصبح يطلق على معسكر «عَدْ هِبْتِيْس» بينما يشار الى «عَدْ تَكْلِيْسْ» باسمهم فقط كأنهم ليسوا من "ثَلَثْ مَفْلَسْ" أو الحباب!! ليس هذا فحسب بل إنَّ أحد أبناء كَنْتِيْبَايْ تِيدْرُوس، وهو «سَمْرَة»، كان ضد والده وإخوته في تلك الحرب، ووقف مع الفريق المناوئ لأهله وأقسم على محاربتهم. المهم هو إنَّ هذا المعسكر قد وطَّن نفسه على القتال، وتكون فريق الحرب لأخذ الثأر من عَدْ تَكْلِيْس واسترداد النقارة منهم، وعرف هذا الفريق فيما بعد بلقب "حَامَاسَا" والتي سنوضح معناه فيما بعد. وإذا عدنا لرواية عَدْ تَكْلَيْسْ نجد أنَّ «ناود» كان يبعث المخبرين أو ما يعرف لدى الحباب بمسمى «المَحْسَسْ» لتقصِّي أخبار خصومه ليعلم مواطن ضعفهم. أنَّ ناود كان قائداً حكيماً يخطط لأهدافه بعناية، ويهيئ قومه للمعركة. ومن ذلك أنَّه بعث بأحد أتباعه ليستفسر عن أيسر الطرق للقضاء على الفارسين «نَاشِح» و«جَلايْدُوس»، اللذين

---

(١) الحبة الواحدة من حبات الذرة تسمى «قرطوطة» وسمي هذا المكان على ذلك وينطق «قُرْطُوطَتْ» بالتاء الفاتحة حسب العرف الحميري.

يمثلان رأس الحربة في معسكر عَدْ تَكْليس، فقيل له إنَّ نَاشِح قوي الجسم ويقفز كالنسر «سَرَار» لا أحد يستطيع منازلته، غير أنَّه من عادته أنْ يطيل لسان نعله من جهة الأمام، وأحياناً يطأه فيقع، فإذا وقع يمكن النيل منه.



صورة قديمة لشاب بجاوي ينتعل «فِتِكْ أبْ سِرَاكْ»، وهو نوع النعل الذي كان يلبسه الأقدمون ومنهم الفارس «ناشح ود تيدروس». أنظر لسان النعل الذي يظهر في المقدمة، ويسمي الحباب هذا اللسان «قِدَامَتْ» أي المقدمة.

أمَّا عن جَلايْدُوس فقيل له إنَّه محارب جبَّار، وسريع الحركة، وهو متزوج زوجتين إذا غضب من إحداهما فإنه يمتنع عن الطعام لمدة سبعة أيام، وفي اليوم السابع يكون منهكاً، ويمكن التغلب عليه. فاوعز ناود الى المخبر الذي تعاون معه أنْ يراقب جَلايْدُوس ويخبرهم بمجرد أنْ يغضب من احدى زوجاته. ولم ينتظر ناود كثيرا حيث وردته الأخبار عن خصام جَلايْدُوس مع إحدى زوجتيه، فبدأ التخطيط للمعركة، واختار نخبة من خيرة المحاربين وأخبرهم بمهمة الانتقام من عَدْ تَكْلِيْس والاستيلاء على النقارة. وعند اقتراب ساعة الصفر (اليوم السابع) أراد ناود أن يختبر جنده، ويرى مدى إخلاصهم وتفانيهم فأخَّر عنهم العشاء عشية يوم المعركة، وبعد انقضاء جزء من الليل قدم لأحدهم سراً قطعة خبز (قراصة) وانصرف. فقام هذا بتمريرها الى الفارس الذي يليه وهكذا كل واحد منهم يمررها لمن يليه الى أنْ وصلت الى آخر واحد فيهم، فقام بوضعها تحت فراشه ونام. وفي الصباح الباكر حضر اليهم ناود وقال: يوم أمس أعطينا أحدكم أمانة ونريدها الآن. فنظر بعضهم الى بعض، وسارع الشخص الذي خبأ الخبزة تحت فراشه الى إخراجها واعطائها الى ناود، فانشرح صدر ناود لهذا الموقف، وأمر بذبح البهائم وتقديم الولائم قبل الذهاب للمعركة.

وفي المعسكر الآخر نجد النقيض حيث الاستهتار بالأمر وعدم الاكتراث. يقال إنَّ نَاشِح وجَلايْدُوس كانا يلعبان لعبة يسمونها «مذَاجِبْ Mazagib»، أشبة بلعبة «مَنْقَلَة» أو «سِيْجَة» التى كان يلعبها جيلنا، وهي عبارة عن عدد من الحفر الصغيرة مقسمة بين اللاّعبين وعلى كل حفرة حجر صغير، فيقوم كل فريق بمحاولة القضاء على أحجار الآخر طبقا لقوانين اللعبة. المهم هو إنَّ نَاشِح وجَلايْدُوس عندما علما باقتراب خصومهم يقال إنَّهما وضعا عودا على لعبتهما حتى لا تخرب، ظناً منهما أنهما سيقضيان على المهاجمين ويعودان الى مواصلة اللعب. وكان جَلايْدُوس يوم المعركة

في حالة اضراب عن الطعام لليوم السابع بسبب غضبه من إحدى زوجتيه[1] كما هي عادته. وعندما تقابل الجمعان للمبارزة قدم نَاشِح لأخيه جَلايْدُوس قبل بدء المعركة حبات معدودات من قطع اللحم الناشف كانت في جرابه وقال له ربما يسندك هذا ولو قليلا.

وابتدأت المعركة الرهيبة، وبعد جولة من القتال العنيف، وقع نَاشِح كما كان متوقعاً، فقضي عليه خصومه قبل أنْ يتمكن من القيام من مكانه. وأمَّا جَلايْدُوس فحارب حتى خارت قواه من الجوع والاجهاد، فتم القضاء عليه. وهكذا انهزم عَدْ تَكْلِيس، وتم دفن ناشح وجلايدوس (إبني تَيدْرُوسْ وَدْ تَكْلَيسْ) في موقع المعركة الذي يعرف بـ «أَقْبُور شَيَم أَبْعَامِرْ» في تَحْرَا. واستولى عَدْ هِبْتِيس على النقارة، ومنذ ذلك الوقت أصبح «ناود وَدْ إزَاز» في منصب كَنْتَيْبَايْ، وهو حقيق به، وامتلك سيف عَدْ تَكْلِيس المشهور «قطَّان»، وأمر قومه بحلق شعورهم وضربت النقارة احتفالا بذلك.

ما سبق كان تلخيصاً لرواية عَدْ تَكْلِيس، والآن نأتي الى رواية عَدْ عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك، كما رواها الشيخ/ محمود علي سعد، عمدة عَدْ عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك في وقتنا الراهن (٢٠١٣م). تقول الرواية إن الذين قاموا بمواجهة عَدْ تَكْلِيس عشرة فرسان فقط هم أولاد عَالْيَايْ السبعة الذين عرفوا بلقب "حَامَاسَا" ومعهم ثلاثة فرسان هم: سالم وَدْ عمير وَدْ فايد، من قبيلة السَّيْهُو والفارسان "كَرَبْ" و"كِرْبَا"، من قبيلة زَاجِر (بالجيم اليمانية)، فرع كفلو.

---

(١) كان "جلايدوس" متزوجاً أمرأة من المنسع "ولت حنيت وَدْ جدَّاق" ثم تزوج امرأة من البلين هي "كَلَبْتْ وَلَتْ عَجِيب وَدْ حَرِيش".

من هم حاماسا؟

طبقاً لرواية الشيخ/ محمود علي سعد، عمدة عَدْ عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك، أُطْلِقَ لفظ "حَامَاسَا" أساساً على أبناء عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك السَّبعة وهم:

(١) سَمَرَا رْعُورْ (وأحبذ أنْ يكتب وينطق "سَمَرْ العُول"، وهو اسمٌ حميريٌّ قديم)؛

(٢) قِرَينَتْ ، (وأحبذ أنْ يكتب "جِرِيْنَتْ" بالجيم اليمانية)؛

(٣) تِمَارْيَام؛

(٤) عجيل؛

(٥) شاوش (شاويش)؛

(٦) عتيل؛

(٧) مجهليب.

وسبب إطلاق لقب "حَامَاسَا" عليهم هو أنَّهم، عقب مقتل والدهم "عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك" وعمهم "إزَاز وَدْ فِكَاك" وابن عمهم "إكد ود إزَاز" في موقعة "كُوكْحَا"، أصابهم حزن شديد، فانقطعوا عن المجتمع وتعاهدوا ألاَّ يقلموا أظافرهم ولا يحلقوا شعورهم حتى يظفروا بثأر قتلاهم ويستردوا النقارة من عَدْ تكليس. واستمر هذا الوضع عدداً من السنين، فطالت أظافرهم وتدلت شعور رؤوسهم ولحاهم بصورة أكثر من المعتاد، بل ويقال إنَّ شعور محاسنهم (شعر العانة) قد غزرت بحيث كانت تنفخ الملابس التى يرتدونها، لدرجة أنهم كانوا قد عرفوا بلقب «حَامَاسَا» وهو جمع «حِمِس»، بكسر الحاء والميم، وتعنى بالحَبَابية المحسن، أي المنطقة التي حول المثانة. أمَّا ابن عمهم "ناود ود إزاز ود فكاك" كان صغيرا وقت مقتل أبيه "إزاز بحر نجاسي" في كوكحا. الى هنا لا يوجد إختلاف في الروايات، بل قصيدة الشاعر/ حامد محمد علي هبتيس تثبت ذلك عندما قال متحدثا عن النقارة:

إكـد نسـأت وإداد مـوتـو دِيـًّا أفـيـاتا	(أخذت من قبل إكد وإزاز وماتوا حولها)
وناود بَنُو حَدْقَتُّو نُؤوشَايْ إنْتُو حِشَّاكا	(وتركت ناود لوحده صغيراً – حاشاكا)

وعَالْيَايْ نسأت وَدْ فِكَاك أبْ لاككا حراكا (وأخذت عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك أبْ لاككا)
سَبُعْ حَدْقَتْ سَنْيَامْ إيْ سَكْبُو إتّـا مَرْبَاتا (تركت سبع فضلاء لا ينامون على الثأر)

والى هذا كان يشير الشاعر أدم شلال عندما قال في إحدى قصائده:

ولاد عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك لـ إلى طُوقْمِتْ إي تِتْغَوي (أولاد عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك عملهم معروف)
سَبْعَـتْ لَسَيِـفْ عَدْ عَالْيَايْ هِتَانا لتْمَطّي (سيوف عد عَالْيَايْ السبع هي في المقدمة)
أبعوق من عَدْ تَكْلَيس بَلْسَوَا سِتْرَا إيْكُونْ وجِبعيْ (أرجعوا النقارة من عَدْ تَكْلَيس علناً)

هنا نشير الى أنَّ هنالك إختلاف، الى حدٍ ما ، بين رواية عَدْ عَالْيَايْ ورواية عَدْ تَكْلِيْس فيما يخص اشتراك ناود في معركة استرداد النقارة من عَدْ تَكْلِيْس. فطبقاً لرواية عَدْ عَالْيَايْ لم يكن لناود دوراً في المعركة لصغر سنه. أمَّا رواية عَدْ تَكْلَيسْ كما سمعتها من الشيخ/ محمد عثمان عتيل[١]، وكما وجدتها في كتاب القاضي إدريس نصر الدين، تختلف قليلا، حيث إنَّهم لا ينكرون دور عَدْ عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك في المعركة، ولا ينكرون أنَّ "ناود" كان صغيراً وقت مقتل أبيه " إزَازْ"، ولكنهم يقولون إنه خلال الفترة من مقتل أبيه وحتى استرداد النقارة من عَدْ تَكْلَيسْ، وهي فترة حسب تقديرهم امتدت الى أربعة عشر عاما، لعب "ناود" دوراً كبيرا في التخطيط للمعركة. ويؤكد هذا ما ذكره المؤرخ ضرار صالح ضرار الذي يقول: إنَّ "ناود Nawid كان يافعاً يوم مقتل أبيه فتحمَّل الصدمة بجلد"، ثم يشير الى حالة عدم الاستقرار بسبب عد تكليس ويقول: "واستمر هذا الضغط عدة سنين"، وبعد ذلك أجمع الحباب بقيادة كنتيباي ناود على محاربة عد تكليس واستمر كنتيباي ناود "في جمع الأسلحة وتوزيعها على الرجال حتى أتمَّ استعداداته"[٢].

ويمضي العمدة/ محمود علي سعد قائلا: بعد انقضاء المعركة وانتصار حَامَاسَا

(١) هو العمدة "محمد وَدْ عثمان وَدْ عتيل وَدْ جَلايْدُوس وَدْ إزَازْ وَدْ جميل وَدْ جمع وَدْ جَلايْدُوس وَدْ تيذرُوس وَدْ تكْلَيس".
(١) كتاب «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا»، الطبعة الثانية ١٩٩١، صفحة ٢١.

واستيلائهم على النقارة من عَدْ تكليس، قال قائد حَامَاسَا الفارس "سَمَرْ العُول" ود عَالْيَايْ: لن أرجع حتى أرى سيف أبي (ويبدو أنه كان مع عَدْ تكليس)، وبالفعل أحضر له سيف أبيه فقام بتجريبه في جزع شجرة ضخمة قطعها نصفين واشتم رائحته، وبعد ذلك تحركوا تجاه ديارهم. يقول العمدة محمود: أثناء رجوع حامسا منتصرين حمل النقارة الفارس سالم وَدْ عمير، وعند وصولهم لديارهم أستقبلهم الحباب بالفرح والأهازيج، وضربت النقارة.

ويستطرد العمدة محمود قائلاً: بعد استرداد النقارة من عَدْ تكليس اتجهت الأنظار صوب الفارس سَمَرْ العُول باعتباره أكبر أبناء عَالْيَايْ الذين كان لهم القدح المُعَلَّى في استرداد النقارة رمز السلطة في الحباب. وكان الفارس سَمَرْ العُول صاحب نفوذ وثروة كبيرة من الماشية. ورغم دوره هو وإخوته في الحرب واسترداد النقارة من عَدْ تكليس، لم يطمع في منصب كنتيباي وإنما تشاور مع إخوته واتفقوا على أن يولوا المنصب لأبن عمهم ناود ود إزاز وَدْ فِكَاك الذي كان صغيراً عند مقتل أبيه في موقعة كُوكْحَا. يقول العمدة محمود: عندما قرر أبناء عَالْيَايْ تولية ناود في منصب كنتيباي سمعت والدته "سِتَّل وَلَتْ حاداي"، من قبيلة أسْفَدَا، بالخبر فاجهشت بالبكاء خوفاً على ابنها ناود من أنْ يقتله عَدْ تكليس كما قتلوا أباه من قبل. عند ذلك حضر اليها عجيل ود عَالْيَايْ، وكانت له شخصية قوية، وقال لها أبشري نحن حماته ونقف معه ولا تخشي عليه شيئاً، وبهذا تم تنصيب ناود زعيماً للحباب "كنتيباي" ومازال أحفاده يتوارثون زعامة الحباب الي يومنا هذا.

يقول العمدة محمود: ربما يسأل سائلٌ: لماذا رفض سَمَرْ العُول وإخوته أبناء عَالْيَايْ ود فكاك الزعامة رغم أنهم هم الذين خاضوا المعركة وأتوا بالنقارة؟ لماذا آثروا ابن عمهم ناود على أنفسهم؟ يقول العمدة محمود: للإجابة على هذا التساؤلات نقول بكل أمانة وصدق إن أبناء عَالْيَايْ كانوا فرساناً وأصحاب ثروة

وابن عمهم الصغير كان والده زعيماً وليس له أخ يتبعه، ولذلك رأوا أن ابن عمهم هذا هو الشخص المناسب للمنصب وهم يقفون معه ويحمونه كما قال عجيل ود عَالْيَايْ لوالدة ناود.

دور سمَرْ العول في تثبيت حكم ابن عمه ناود:

يقول العمدة محمود: بعد تقليد ناود زعيماً عليهم لم يتقيد مجتمع الحباب بالتعليمات والأوامر التي كان يصدرها. ولم يعجب ذلك أبناء عمه عَدْ عَالْيَايْ وَدْ فِكَاكْ ولذلك اقترح سَمَرْ العُول على كتيباي ناود أن يمنع الناس من الرحيل حيث كما هو معلوم كانت لمجتمع الحباب رحلتان: في الشتاء الى السواحل وفي الصيف الى الجبال، بحثا للكلأ والماء والجو المعتدل. وقال له عندما تأتي البهائم التي تخصني (وهي بقر معروغة جيدا للحباب) أضرب أولها بالسيف فقام ناود بضرب بقر سمرالعول وأرجعها، وسمراالعول لم يتصرف ضده بشيء. عندها أدرك الناس هيبة الرجل قائلين في أنفسهم "الرجل الذي يهابه سمر العول لا شك أنه رجل خطير ولا ينبغي مناوأته" أو كما قال الرواي. وبهذه الحيلة التى دبرها سمرالعول ود فكاك ثبت حكم ناود وانقاد له الحباب بالطاعة التامة وأستقر حكمه.

هذا وقد أشاد شعراء الحباب بالدزر الذي لعبه حاماسا في سبيل استرداد النقارة الحكم من عَدْ تَكْلَيسْ الى عَدْ هِبْتَيسْ، ومن ذلك القصيدة انشدها الشاعر/ محمد علي محمود حامد والتى يقول فيها:

دِقّي هِبْتيس وَدْ مَفْلَسْ سَمَرْالعُول بَعَلْ أمَانُو (سَمَرْالعُول هو صاحب الصدق في مقر هِبْتيس)
إي سَاجَمَا وإيْ سَبْكَا لِدِقّي علا عِدَالُو (لم يصيّف ولم يُشْتي وانّما كان الظلال للحلة).
أسِكَّا مَرْبَاتْ إيْ قَسْنَتْ إيْ كَرَبُو طُوَارُو (لم ينزل حمله إلاّ بعد أخذ الثأر)
كَنْكَمَيوم لَحُو امْعِلايَا وَرَارُو (جمع إخوته يوم المغارة)
جِرينَتْ وَدْ عَالْيَايْ بَدِيرْ أمُّور تُو بُرْهَانُو (جِرينَتْ وَدْ عَالْيَايْ برهانه معروف سلفا)
فَرِضْ أبو سِتَّه وكُرْبَاج إدَيْ مَانُو (يحمل في يمناه مسدسا وكرباجا)

مَنُبًا طَنْعِيتْ مجْهلِيبْ شُومْ إبْعقالو	(مجهليب هو زعيم وسيد الأسياد)
دفأ إجْلو لِحِرَمُو عتيل دولا جِنْدَالُو	(أطمأنت الحريم عندما اعتدل عتيل في مشيه)
عجيل نسأ قطافات افرنجيات تو طوارو	(عجيل بتار الأفخاذ وحمله السيوف الأفرنجية)
تماريام بعل وَقّيْ حَرْمَاذْ دِيبًا مِطْلالو	(تماريام صاحب الإنجاز وهو الفيل في مقيله)
حقو لأفيات لتكيد مطيء بَأسًا أمانو	(عندما تستهدف البيوت صدقا يظهر بأسه)
تاجر ود شاوش حيت رأسا قتالو	(تاجر ود شاوش الأسد عند القتال)
من ريبم مطأكا حابو ولطِنَّابو	(يأتيك من البعد حابه وطنّابه – كناية عن الكرم)
جنت تأتْبَارِدُومْ أورُو تا دبيًّا أكانو	(تبردهم الجنة، كل واحد منهم في مكانه)
عَدْنَا طنع أدبو إب نصرتو وإب فالو	(أهلنا صعب مراسهم لهم النصر والفأل)
عَدْنَا رقيق إي كون ساقيت طلام درارو	(أهلنا ليسوا رقيقي الجسم وعشاؤهم السيوف السود)
وعَدْنَا حوان إي كون أورو تا فارس أكانو	(وأهلنا ليسوا ضعفاء فكل واحد فارس في مكانه)
وعَدْنَا خائن إي كون صودوقتو إجل فتايو	(واهلنا ليسوا خونة ويصادقون من يحبهم)
لا ما تَهَاجَا إتْ جَادِمْ باطح إي كون معجالو	(ومن يتحدث في الوادي - بعيدا - لن يدرك غايته)
عَدْ عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك ممَّا جَنْدِلْ مِي جَارُو	(فلا بأس لو تبختر عَدْ عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك في مشيتهم).

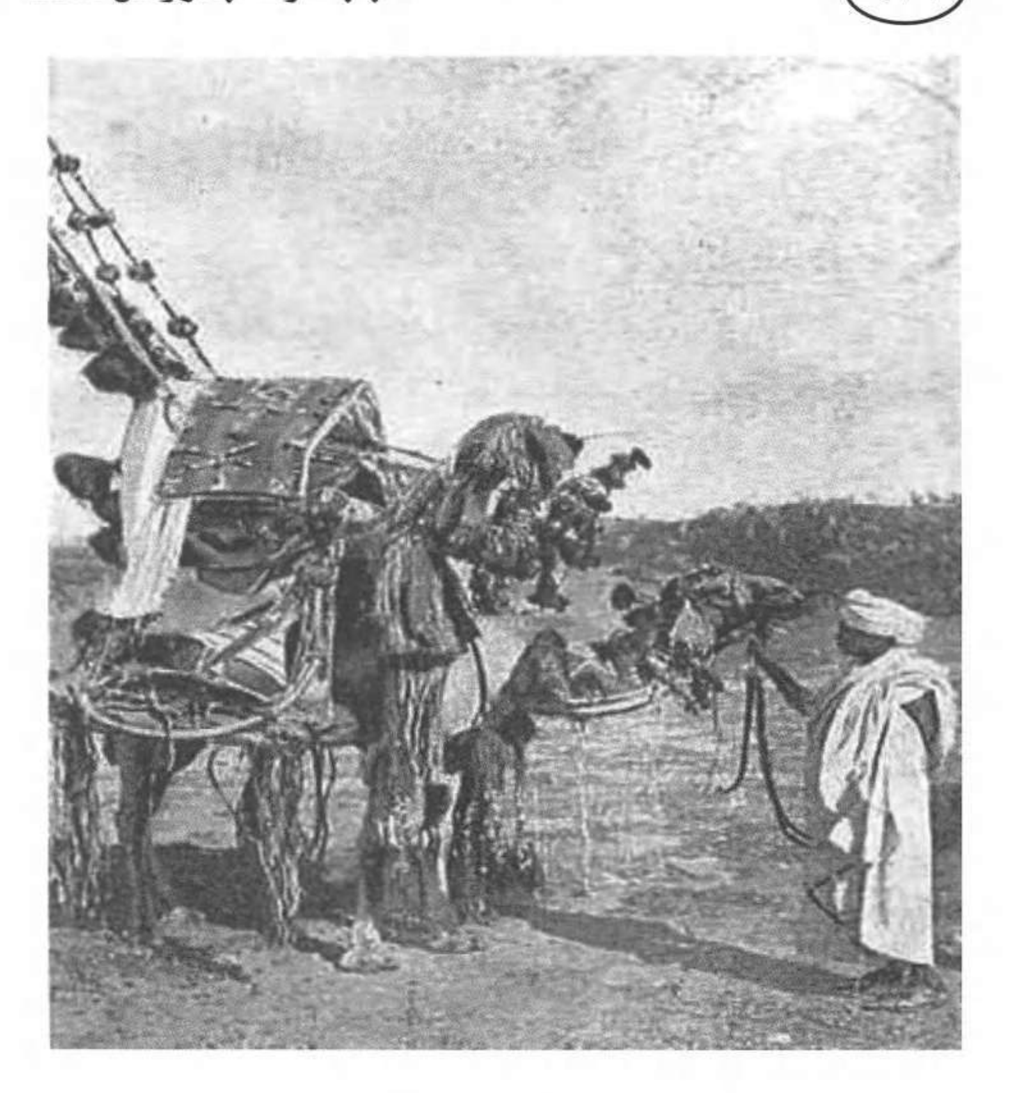
وبالرجوع الى رواية عَدْ تَكْلَيْس نجد أنَّ كَتَيْبَايْ ناود كان رجلاً نبيلاً وحليماً، وبه «يَحْيَ» الحَبَاب كما قال كَتَيْبَايْ تِيدْرُوس. فبالرغم من أوزار الحرب وسيئاتها، وبالرغم من أنْ عَدْ تَكْلِيْس قد قتلوا والده وأخوه وعمه، لم يأخذ كَتَيْبَايْ ناود بالثأر من أطفالهم، ولم يسرف في القتل بعد انتصاره، ولم يأخذ من أموال عَدْ تَكْلِيْس شيئاً، ولم يمس بيوتهم بسوء، و أمر بعدم ايذاء أطفالهم ونسائهم، وإنَّما اكتفى برؤسائهم الذين قتلوا في المعركة، وفي ذلك قال الشاعر «مُرُوق وَدْ صالح»، وقيل «حَذُوت وَدْ زايد»، وكلاهما من قبيلة «سَأْبُور - أَلْمَدَا»:

وَلَتْ جُولايِتْ قِرَاتًا وظَعْـدَا مَقَابَا	(البقرة بنت «جولايت» بيضاء الفخذ)
نَاوُدْ مَا حَلْفَيَا سِـلَلْ إتَّـا ظَبَّـابَـا	(تركها ناود وهي ترعى في طريقها)
شَيَمْـتَـا قَـاتَـلا ونُقَـارَتَـا أَتَى بَـا	(فقط قتل رؤسائها ونقارتها أتى بها).

ليس هذا فحسب، وإنَّما أمر باحضار أطفال جَلايْدُوس الصِّغار اليه وتعهدهم

هو شخصا بالرعاية، رغم أنَّه كان وراء قتل أبيهم. يقول الرواة كان أولاد جَلايْدُوس[١] (من زوجته الثانية كلبت وَلَتْ حريش من البلين) صغاراً عند مقتل والدهم في هذه المعركة، فأخذهم كَنْتَيْبَايْ ناود الى نقفا، وربَّاهم في بيته، وألزم الحَبَاب بعدم التعرض لهم وشدَّدَ على ذلك. وقد تسبب هؤلاء الصبية في مشاكل كثيرة للسكان، حيث كانوا يعتدون على الأطفال الآخرين، ويقتلون البهائم بدون سبب، ولا أحد يستطيع المساس بهم لكونهم في حماية الرأس الكبير. وفي ذات يوم اجتمع الحَبَاب وقرروا الالتقاء بكَنْتَيْبَايْ ناود لتقديم شكوى جماعية ضد صبية عَدْ تَكْلِيْس هؤلاء، وقرروا أنْ يطلبوا منه طردهم من الدِّقي (مخيم القبيلة). فعلم كَنْتَيْبَايْ ناود الحكيم بما اتفقوا عليه، فدبَّر حيلة قبل موعد وصولهم اليه ملخصها أنَّه أحضر راحلته (جمله المعروف للناس)، وجهزها بكامل أدوات الركوب المعهودة في ذلك الوقت من "فروة" و"كور" والزينة التى كانت توضع على الجمل. وقبل وصول كبراء الحَبَاب حسب الموعد طلب ناود من أولاد جَلايْدُوس الحضور اليه وأمرهم بقتل جمله هذا. فقالوا له كيف نقتل جملك وأنت أبونا ومربينا بل نحن نقتل من يمس جملك بأي مكروه. فقال لهم أن كنتم تحبونني اقتلوه فضربوا الجمل بسيوفهم ضربة رجل واحد وجندلوه وهو على هيئته تلك فسالت دماء الجمل في فناء بيت كَنْتَيْبَايْ. جلس كَنْتَيْبَايْ بجورا الجمل المقتول مظهراً الأسف على قتل جمله وهو يحمل سيفه ومجهزاً نفسه كما لو كان يريد السفر. هنا حضر وفد كبار الحَبَاب فشاهدوا ذلك المنظر العجيب وكَنْتَيْبَايْ يجلس بجوار جمله المقتول فقالوا له من فعل هذا بجملك فقال لهم هؤلاء الصبية قتلوا جملي العزيز على نفسي !!. فخجل الوفد من تقديم شكواهم ضد الصبية اللذين لم يتركوا حتى جمل كَنْتَيْبَايْ نفسه ورغم ذلك لم يعاقبهم.

(١) هم جمع ونورالدين وهاكين و دِرَار.



صورة قديمة مأخوذة في بادية الحَبَاب لجمل

بكامل فرشه (راحلة خمسة نجوم في ذلك الوقت!!)

عاش أبناء جَلايْدُوس فترة أخرى في كنف كَنْتَيْبَايْ ناود حتى اشتد عودهم وقويت شكيمتهم، فاستأذنوا كَنْتَيْبَايْ ناود في الذهاب تجاه أهلهم في "وَدْ جَان"(١)،

(١) منذ الاختلاف في عهد «فِكَاك» وَدْ هِبْتِيس، رحل عَدْ تَكْلِيس الى منطق عَنْسَبَا الأدنى "عَنْسَبَا تَحَاتْ"، واستقروا في مناطق "حِدَايْ" و"تَحْرَا" و"وَدْ جَان" وجبال هَجَّر. أمَّا مناطق "هَبَرُو"

فسمح لهم بذلك حيث كان ابن عمهم كَنْتَيْبَايْ دَافْلا وَدْ نَاشِح زعيماً لعَدْ تَكْليْس في ذلك الوقت. بعد ذلك طلب كَنْتَيْبَايْ ناود الحكيم من نورالدين وَدْ جَلايْدُوس الذي أصبح وزيراً لكَنْتَيْبَايْ دَافْلا، اقناع عَدْ تَكْليْس بضرورة التعايش السلمي. وفعلا تمَّ ابرام صلح بين الطرفين وهدأت الأحوال فترة من الزمن لتقوم الحرب مرة أخرى.

معركة ود جان:

توصل كَنْتَيْبَايْ دَافْلا ونائبه نور الدين للصلح الذي ذكرنا مع كَنْتَيْبَايْ ناود، وتم

و"إتْ أتْبَا" وغيرها حول حوض عَنْسَبَا ، كانت بيد عَدْ تِمَارْيَام ولم يسكنها عَدْ تَكْليْس إلاَّ مؤخراً بعد مقتل "أبْ جَرْدَما"، أحد فرسان عَدْ تَكْليْس، الذي قتله عَدْ تِمَارْيَام.



شاهد على قبر أحد زعماء الحباب (قيل إنه أبْ جَرْدَمَا – عد تكليس) عبارة عن لوح حجري يزيد ارتفاعه على مترين، والقبر ما زال موجوداً بحالة سليمة في منطقة "عَيَتْ" جنوب توكر، ويظهر في الصورة الشيخ/ إدريس وَدْ حَاج وَدْ عالياي وَدْ فِكَاك (بجوار الحجر) والعمدة/ محمد عثمان آدم عَبْدَل جَرْجِيس نورالدين وَدْ تكليس (في الطرف الآخر).

ذلك بدون مشورة «جمع[1] وَدْ جَلايْدُوس» الذي يبدو أنه لم يكن راضيا عن هذا الصلح، ولذلك أرسل «جِمِع» (بكسر الجيم والميم) بعض اتباعه ليغزوا الحَبَاب (عَدْ هِبْتَيْس)، ففعلوا ذلك وجاؤوا بالغنائم، فقال له أهله عَدْ تَكْلَيْس نحن في صلح مع الحَبَاب، وتعهدنا بعدم الاعتداء على بعضنا، ولذا يجب أنْ تردَّ الغنائم لأهلها. فغضب «جِمِع» وأصبح يشتم كل من يكلمه في هذا الموضوع إلاَّ أخاه دِرَار، وكان بينهما ودٌّ شديد. قال الرواي إنَّ أحد اتباع جمع ويدعى «تقلامط» قال لدِرَار: أخوك جمع واقف لوحده ضد القبيلة فاقتله ورد الأموال لأصحابها. هنا يقال إنَّ دِرَاراً غضب وقرر أنْ يقف مع أخيه جمع. وبعد مشاورات قال نور الدين لإخوانه (جمع ودِرَار) طالما أنكم نبذتم الصلح مع باقي الحَبَاب فقوما لقتالهم وحزم عَدْ تَكْلَيْس أمرهم ونزلوا منطقة «وَدْ جان»، وجهزوا أنفسهم للقتال. سمع عَدْ هِبْتَيْس بالخبر، وكان على رأسهم في ذلك الوقت كَنْتَيْبَايْ جَرْجِيس الذي علم باستعداد عَدْ تَكْلَيْس للقتال مرة أخرى، فقال يجب ملاقاتهم وقتالهم واعطى جَرْجِيس السيف المسمى «بَلَعْ جِنْجَا» (أكَّال الذُبَاب إذا جلس عليه) للفارس «مَسْتَرْ وَدْ طَالِب» وقال له:

(١) هو جدي الرابع وهو أكبر أخوته من البيت الثاني حيث أنَّ أباه «جَلايْدُوس» كما ذكرنا كان متزوجاً من إمرأتين: الأولى هي (لا أعرف اسمها) ولت "جِنِيتْ وَدْ جَدَّاق" من المنسع، وأنجب منها تِمَارْيَام وجَبْرِيس، ثم تزوج الثانية وهي كلبة «كَلْبَتْ» ولت عجيب ود حريش، من البلين، وأجب منها الصبية المشاغبين وأكبرهم جدي الرابع "جِمِع وَدْ جَلايْدُوس" ثم "نورالدين" ثم "هاكين" ثم "دِرَار". كان جِمِع باراً بوالدته «كَلْبَتْ» التى لم تلد بنتا. يقال إنها بكت ذات مرة فجاء اليها جِمِع وسألها: ما يبكيك يا أمّي؟ والله لأقطعن بسيفي هذا عنق من أغضبك!! فقالت مهلا إنَّ الذي يبكيني لا تستطيع أنت أنْ تعالجه؛ فقال لها والله لأفعلن ما تريدين فقولي. قالت كلبة أنا لم أرزق بنتا ترثني وتلبس «حِنَأقَتِي» (وهو سوار من ذهب تلبسه النساء حول الرقبة كحِلْيَةٍ) وأنت رجل لا يمكن أن تلبس حلية النساء. فقال لها أبشري بالخير والله لألبسنَّه حتى وإن كان مخصصاً للنساء. وفعلا لبس جِمِع سوار أو «حِنَأقَتْ» أمه بعد وفاتها، ولهذا يقال إنه لم يمت مقتولا مثل إخوانه ومعظم الفرسان في ذلك الزمان وإنما عمَّر حتى تقدم به العمر، وأصبح لا يستطيع منازلة الفرسان، ولهذا تحسَّر على وضعه عندما تكاسل أبناؤه عن إحدى الغزوات وأخذ الثأر وقال قصيدة جميلة سبق أن أشرنا اليها في موضع آخر من هذا الكتاب ومنها قوله:

هَمْ الْبُهْ وجَاكُو كِمَثَلْ إلاَّ جِرجِنَّتْ (ليتني بدون هم مثل هذه البنت الصغيرة "جِرجِنَّتْ")
بَطِحْ باطِحْ وجَاكُو سَاقُو إتُّوأكِلَّتْ (أو ليتني كنت شابا يضع الأخلة (جمع خُلال) في شَعْرِه).

عمِّي نور الدين سيقتلك ويسلب منك هذا السيف إذا كنت أنا الذي خنت العهد، أمَّا إذا كان هو الذي خان العهد الذي بيننا فسوف تقتله أنت بهذا السيف..!! دخل جيش كَنْتَيْبَايْ جَرْجِيس قرية عَدْ تَكْلَيْس بخلاف الجهة المتوقعة، وقتلوا من وجدوا حاضراً ومنهم نورالدين وَدْ جَلايْدُوس وابنه تيدوس وهاكين وَدْ جَلايْدُوس وكفلاي وَدْ نَاشِح، وانسحبوا الى أهلهم. وكان جزء من فرسان عَدْ تَكْلَيْس في مهمة استطلاعية تسمى «المَحْسَسْ» أي تحسس العدو واستطلاع أخباره، فلما رجعت هذه المجموعة وجدت الميتين في الهجوم فقبرتهم في «وَدْ جَان»، ووفد اليهم بالصدفة أحد وجهاء عَدْ هِبْتِيْس وهو حمد نور وَدْ مدين فدفن معهم القتلى ولم يتعرض لسوء. بعد ذلك اشتد عَدْ تَكْلَيْس في القتال وكثر ضررهم للبهائم والرعية ومن ذلك أنَّهم نهبوا بهائم كثيرة من منطقة «مِجْنَاق» وتوجهوا بها الى أهلهم، وكان يسير خلفها كل من دِرَار وَدْ جَلايْدُوس، وابنه ادريس، وتَكْلَيْس وَدْ نور الدين، وقبطان وَدْ دَافْلا. وحدث أنْ تخلفوا لبعض الوقت في منطقة "كوان"، ففجأهم خصومهم، ورجموهم بالحجارة فماتوا جميعاً.

معركة جعفتي Gi'eftay:

بمرور الوقت برز في الساحة فريقان متناوئان: فريق مُكوَّن من عَدْ هِبْتِيْس وعَدْ إدريس وعَدْ إشحق، وكثرين من الشماجلي (النبلاء)، وفريق آخر مُكوَّن من عَدْ تِمَارْيَام وعَدْ تَكْلَيْس وعَدْ سمر العُوْل، وبعض من الشماجلي. عَدْ تَكْلَيْس كانوا في ذلك الوقت في تَحْرَا. اتفق الفريقان على منازلة فاصلة بينهما واصبح كل طرف يجهز قومة للملاقاة. وجاء الموعد والتقى الجمعان في منطقة جِعِفْتَي، وكان من عادتهم في الحرب قبل بدء المعركة أنْ ينادي فارسٌ من أحد الطرفين: «من يبارزني؟». في هذه المعركة خرج الفارس بِتِمْنَتْ (أبو آمنة) وَدْ أَبِيبْ، من عَدْ إشحق، وطلب المبارزة، فخرج له فارس من عَدْ سمر العُوْل وتقاتلا قتال الأبطال، وجندل كل منهما الآخر. يقال إنَّ درقة بِتِمْنَتْ لم يتبق منها إلاَّ المقبض فقط. وبعد المبارزة بدأ الهجوم والتحم

الطرفان وحدثت مقتلة رهيبة اكتست فيها الأرض أديماً أحمراً وداس النَّاس على الأشلاء. وتعجب النَّاس لما رؤا درقة بِثمْنَتْ وعلقوها على شجرة ليراها كل النَّاس وفي هذا قال جمع وَدْ جَلايْدُوس:

إلأَتَا لَجِلِبْ بِثمْنَتْ وَدْ أبِيبْ ظَرْنَا إجِلْ تِرْأيَا	(هذه هي درقة بِثمْنَتْ ود أبيب ليراها أصحابنا)
للأسْؤُولُو وإيْ سَمْعَا إبْ عِنْتَاتُو لإيْ رَأْيَا	(من يخبر بذلك لا يصدق حتى يري بعينه)
حَـظِـن وإبَـنْ إتْ أجِـدْ إنـدَيْ كَـرفَـيَا	(حصرت بين الحديد والأحجار).

معركة شنجيرا: [1]

وهكذا استمرت هذه الحرب الملعونة بين الأشقاء زمناً. حرب يتم فيها تبادل الإدوار وتتغير الأحلاف من أجل الفوز بالنُّقَّارة. حرب لا يتقاتل فيها أبناء العمومة فقط ولكن قد يقاتل الإبن والده وقد يقاتل الأخ إخوانه كما رأينا في موقف سَمْرَة وَدْ تَيدْرُوسْ عندما وقف مع الفريق المناوئ لوالده وأشقائه وكما سنرى في موقف كنتيباي هداد فيما بعد. إستمرت حالة التناوش هذه الى عهد كَنْتَيْبَايْ «محمد وَدْ جاوج وَدْ فِكَاك»، الذي ورث الحكم بعد وفاة والده «جاوج». وكان عمه هِدَاد وَدْ فِكَاك (جد كَنْتَيْبَايْ حامد وَدْ حسن وَدْ هِدَاد) متزوجاً من أمة ماريام بنت جمع وَدْ جَلايْدُوس، من عَدْ تَكْلَيْس، وكان يرغب في تولي الحكم بعد وفاة أخيه جاوج ولكن الحكم ذهب الى محمد بن جاوج، فغضب هِدَاد ولكن كتم غضبه وقال لابن أخيه كَنْتَيْبَايْ محمد وَدْ جاوج وَدْ فِكَاك: «اسمح لي بأنْ أرحل الى عَدْ تَكْلَيْس»، فوافق كَنْتَيْبَايْ محمد على ذلك. بَيْدَ أنَّ بعض زعماء الحَبَاب النافذين كانوا غير راضين عن ذلك، وأرادوا أنْ يثنوا هِدَاد عن الرحيل الى عَدْ تَكْلَيْس فقالوا له: لتذهب ولكن شرط أنْ تسلك طريق أرض النابتاب، وكانوا يظنون أنَّه سيخشى

---

(١) البعض، ومنهم المؤرخ محمد صالح ضرار، يكتبها أحياناً «شنقيرا»، والأصح أن تكتب «شِنْجَيْرَا Shingera»، بالجيم اليمانية. لقد أورد لتمان Littman وصفاً مفصلا لهذه المعركة الرهيبة التي وصفها محمد صالح ضرار بأنها أول معركة كبيرة في شرق السودان.

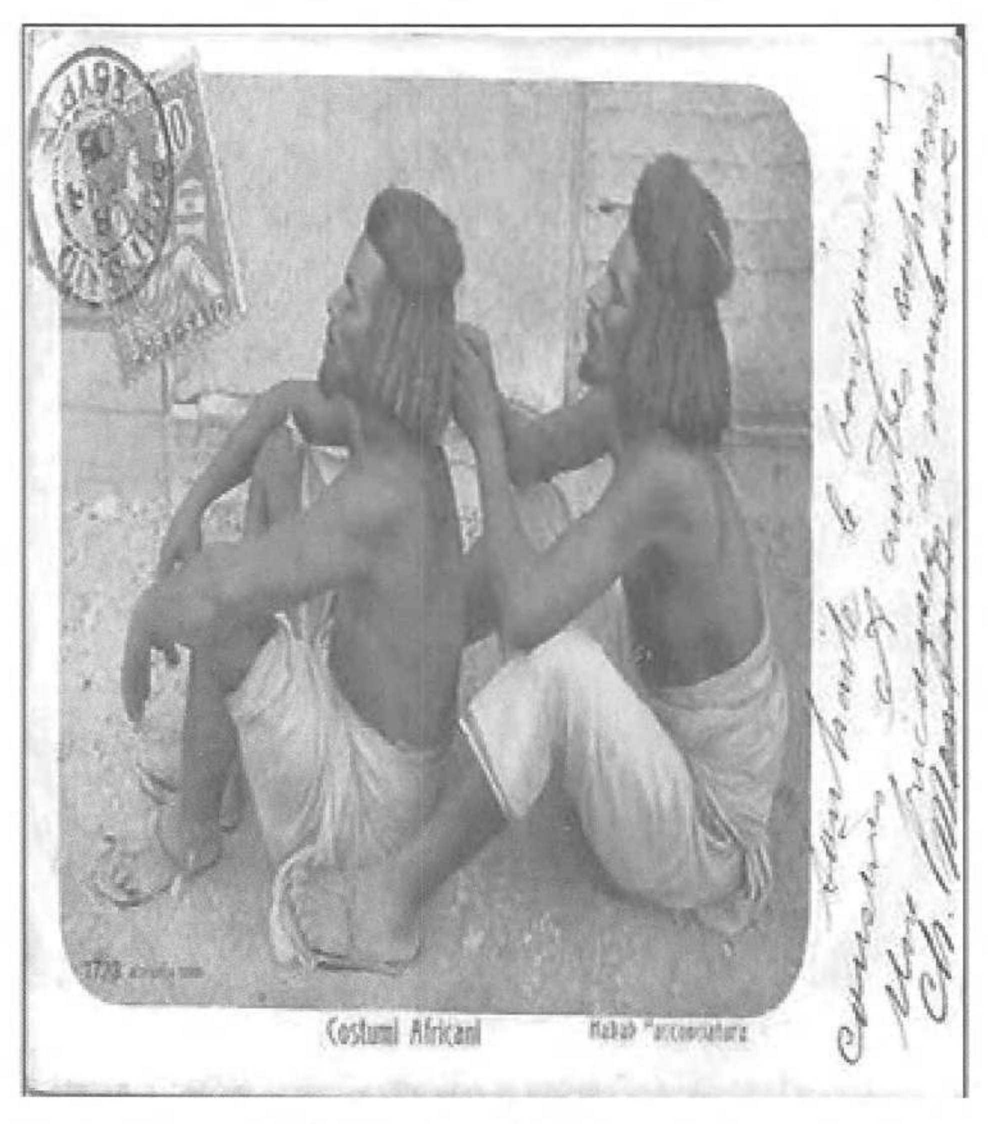
السفر عبر هذا الطريق لكونه قد سبق أنْ اعتدى على النابتاب، وقتل منهم بعض الرجال. فوافق هِدَاد على هذا الشرط، وقبل الوصول الى أرض النابتاب ارسل اليهم أولاده مع بقر لذبحها في مأتم الميتين، وهو ما يعرف محلياً بعادة «رِجَّاز Riggaz»، وأخبر النابتاب بنيته في السفر عبر مضاربهم الى عنسبا فسمحوا له بذلك ووصل الى أهله في عَدْ تَكْلَيْس فأكرموه، بَيْدَ أنَّ زوجته "أمَةُ ماريام"[1] رفضت النزول من ناقتها وقالت لن أنزل في ضيافتكم يا إخوتي الا بعد أن تتعهدوا لي بتحيق رغبتي. يقال أن فارس القوم في ذلك الوقت إشحق وَدْ نورالدين كان

---

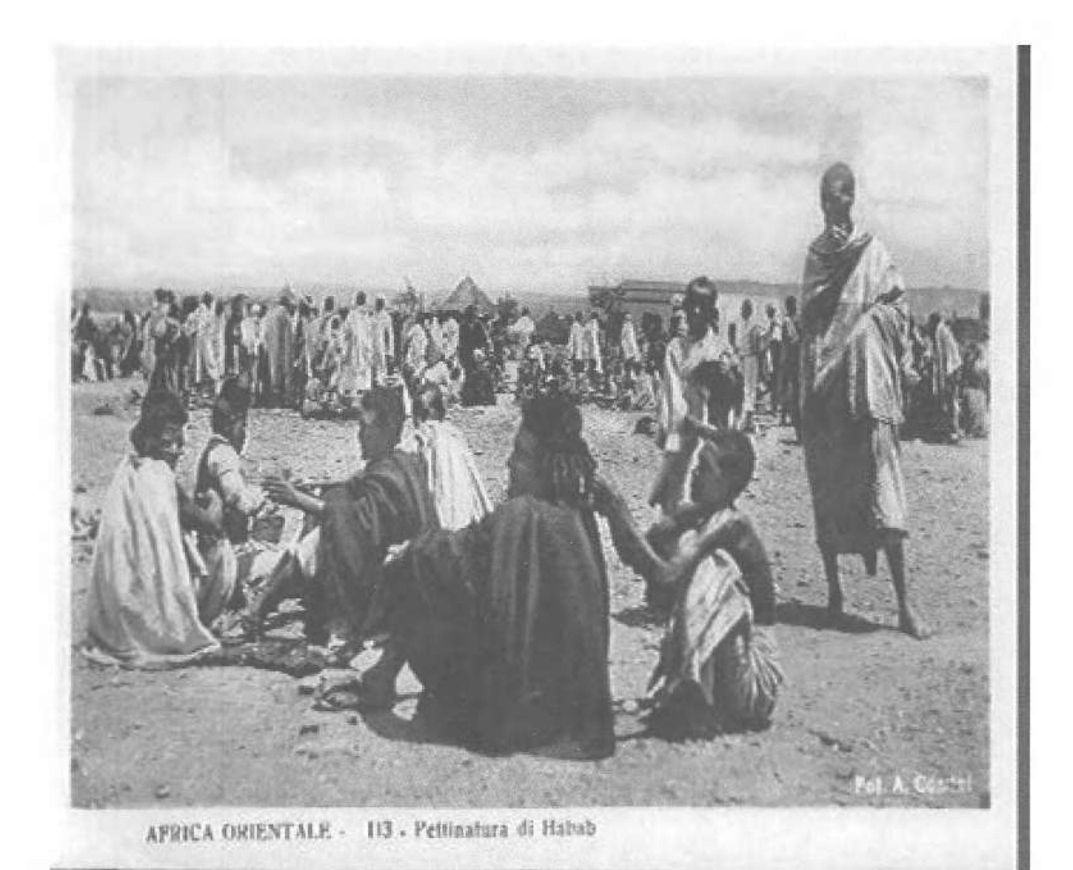
(١) اشتهرت "أمُةُ مَارْيَام" بشجاعة مفرطة وعناد غريب. فبالإضافة الى دورها التحريضي في معركة شَنْجَيْرَا ، يذكر لها الناس قصة عجيبة عندما سمعت فيها بعد مقتل إبنها في معركة "تَجَبْ Tagab ـ بالجيم اليمانية ـ ويكتبها البعض تَقَبْ" التى أعقبت موقعة شَنْجَيْرَا. يقال إنَّ عد تكليس كانوا يتربصون بخصومهم لأخذ الثأر لقتلاهم في شَنْجَيْرَا ولكن قبل أنْ يدخلوا في معركة أخرى مع خصومهم حدث الصلح الذي سنبينه، وتولى هِدَاد وَدْ فِكَاك منصب كنتيباي – وهذا في الأصل كان سبب الحرب. ثم حدثت فتنة بين أبناء هداد أنفسهم في تولي المنصب بعد هداد وانقسموا الى فريقين: فريق مع إدريس ود هداد وفريق مع إزَازْ ود هداد، وأصبح كل طرف يعبيء قواه ومناصرية ضد الآخر. يقال إنَّ زعيم عد تكليس في ذلك الوقت "إزَازْ وَدْ جميل" كان يُضْمِرُ شراً للطرفين ويودُّ لو تقع معركةً بينهما بحيث ينتقم لإخوانه (فِدَيل وَدْ جميل واشْحَق وَدْ نورالدين وإيْلُوس وَدْ دِرَار وغيرهم) الذين ماتوا في معركة شَنْجَيْرَا. ولهذا كان يقوم بدور الوسيط بينهما فيجتمع بطرف ويوقر صدره على الآخر، ثم يذهب الى الطرف االآخر ويسمعهم كلاماً يوقر صدرهم ضد خصمهم، وكلاهما لا يعلمان بالدور التحريضي الذي كان يقوم به إزَازْ حتى حدث القتال بينهما في معركة «تَجَبْ Tagab» وقتل فيها أشخاص الطرفين بما فيهم أبناء أمة ماريام وأعمامهم. يقال إنَّ أحداً ممن حضروا المعركة جاء من موقع المعركة بعد انتهائها فسألته أمة ماريام عن نتائج المعركة فتردد في إخبارها بالموتى (وفيهم ابنها إزَازْ ود هداد) خاصة وأنها كبيرة في سنها وفقدت أخوانها سابقا في شنجيرا. فاصرت عليه فقال مات كثيرون منهم إزَازْ، فقالت: إزَازْ ود أمْ مَلْكَة (لا تريد تسمية زوجها حسب العادة) أم إزَازْ ود جميل؟ فقال وهو يخشى عليها: بل هو إزَازْ إبنك. يقال إنها زغردت "عَلَلَتْ – بلهجة الحباب" وقالت "هبا لأجَّنا" يعني: هَبْني يَدَكَ أو "جيب الخمسة" بالعامية السودانية!!، ثم قالت: اليوم تم أخذ ثأر إخواني الذين ماتوا في شنجيرا بمقتل هولاء في تَجَبْ (بما فيهم أبنها!!). يقال إن الشيخ عبد العزيز (عد درقي)، عندما سمع بالدور الذي لعبه إزَازْ ود جميل (وهو جد والدته التى هي بنت إدريس ود أكد ود جميل)، استاء من فعله وقال: إزَازْ أذى!!، فرد إزَازْ ود جميل بقصيدة منها:

دِيبْ تَجَبْ أَفْسَنْهُو إتْ شَنْجَيرَا لَمَايِتْ (اليوم أخذنا ثأرنا في تجب لقتلانا في شنجيرا).

جالسا الى شخص آخر ليمشط ويجدل له شعره حيث كانوا في ذلك الوقت لا يحلقون شعورهم بل يمشطونها ويجدلون الجزء الأسفل منها ويعرف ذلك عندهم بالجِدَّل Guiddal (من جدل يجدل)، ولكن الجيم تنطق بالطريقة اليمانية.



صورة قديمة يزيد عمرها على مائة عام لأثنين من الحَبَاب، يقوم أحدهما بجدل شعر صاحبه. والصورة بها طابع بريدي أرسل في ١٨ فبراير ١٩٠٦م من ميناء بورسعيد المصري الى شخص في مدينة «بريست» في فرنسا، والتعليق المكتوب على الصورة هو «من عادات الأفارقة، تصفيف الشعر - جدل الشعر عند الحَبَاب».



صورة قديمة أخرى لإحد رجال الحباب جلس لشاب يجدل له شعره، والتعليق في اسفل الصورة يقول: Africa Orientale - Pettinatura Di Habab ومعناها تسريحة الحباب – شرق إفريقيا.

وعندما علم إشحق وَدْ نورالدين وَدْ جَلايْدُوس باصرار بنت عمه (أمة ماريام بنت جمع وَدْ جَلايْدُوس) على عدم النزول من ناقتها حضر ـ اليها ونصف شعره ما يزال غير مجدول وبدأ يقفز ويعرض أمامها ملوحا بسيفة فيما يعرف عندهم بعادة

«البَرج[١]» وقال: «أبشري بالخير يا بنت عمي، أنا سوف «أبنيك» بمعنى (أوطدك) وسط الحبَاب بسيفي ودمي». فقالت الآن يمكنني أن انزل. وبعد أن استراح القوم قليلا اجتمع عَدْ تَكْلَيْس لمعرفة طلبات أختهم «أمة ماريام» زوجة هِدَاد فقالت أريد أن تكون الزعامة «منصب كَنْتِيْبَايْ» من نصيب زوجي «هِدَاد» وأولادي من بعده. فاستجاب لها عَدْ تَكْلَيْس وجهزوا انفسهم للحرب بهدف تعيين زوجها هِدَاد وَدْ فِكَاك في منصب كَنْتِيْبَايْ. وبدؤا في تكوين حلف لهذا الغرض فارسلوا الى عَدْ تِمَارْيَام واتفقوا معهم على خوض المعركة وتحرك عَدْ تَكْلَيْس باتجاه عَدْ هِبْتِيْس ونزلوا في منطقة شِنْجَيْرَا (بالقرب من نقفا) وعَدْ تِمَارْيَام قريبا منهم جوار جبل دندن.

في الطرف الآخر سمع عَدْ هِبْتِيْس بتحركات عَدْ تَكْلَيْس فبدؤا في الاستعداد ليوم المعركة وعقدوا اللواء لفارس عَدْ عمدوي حَمَد نور Hamad-Nor وَدْ جميل، التمساح الذي يقتل قبل أن يقتل والمشهور بحَمَد نور شِنْجَيْرَا. يقال إن الفارس إشحق قبل بدء القتال وبعيد الوصول الى موقع المعركة أرسل الى حمد نور شِنْجَيْرَا يقول له أتيناكم بواليكم «هِدَاد» فلا بد أن تقبلوه فرد عليه حمد نور: «لو ارسلته لنا من عنسبا نعم هو ملكنا وأنت مشيرنا ومسموع مقبول لدينا أما اليوم فانت جئتنا محاربا حاسما أمرك ونحن في انتظارك مستعدين». وهكذا بهذا التحدى والاصرار التقى الفريقان وتقابلو ا بالسيوف واشتبكوا بالرماح في منطقة شِنْجَيْرَا. يقول الراوي أن الفارس حَمَد نور خرج لمبارزة فارس عَدْ تَكْلَيْس «عَرْمَسِيسْ» وهي كناية إشحق وَدْ نور الدين، وعندما تقابل الفارسان وجها لوجه دار بينهما حوار[٢]

(١) هو ما يعرف بالعَرض أو العَرْضَة، أي التعبير عن الرضا بالقفز أو الرقص. والبرج في اللُّغة العربية مأخوذ من برج في مشيه بمعنى حرك أرجله بطريقة معينة. قال أبو إسحاق في تفسير قول الله عز وجل: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بزينة﴾ التَّبَرُّجُ: إظهار الزينة وما يُسْتَدعَى به شهوة الرجل وقيل: إنَّهن كنَّ يتكسرن في مشيهن ويتبخترن».

(٢) لمتابعة تفاصيل الحوار الذي دار بينهما انظر صفحة ٤٥ من كتاب:
«Publications of the Princeton Expedition to Abyssinia», by Enno Littmann, published and printed by Leyden, 1910, Volume II.

قصيرٌ، وكما هي عادة فرسان الحباب في ذلك الوقت، تعازما على افتتاح القتال، كل منهما يعطي الفرصة للآخر ليبدأ بالضرب، وطبعاً يحاول الآخر صرفها بالدرقة أو غيرها. منحت الفرصة الأولى لإشحق الذي وجه سيفه الى حَمَد نور وضربه به وبدأ الصراع المرير من أجل البقاء. المهم هو أنَّ إشحق تمكن من جرح حمد نور في الجانب الأيمن وأصاب يده اليمنى وتسبب الجرح في خروج جزء من أمعائه الى خارج جسمه وبالرغم من ذلك ثبت حمد نور لخصمه وتناول السيف بيده اليسرى وقطع رجلي«عَرْمَسِيسْ» فمات الفارس إشحق في الحال. ودرات المعركة الرهيبة وتمكن حَدَنْبَسْ وَدْ نور الدين من قتل نوراي كبين ثم رمى حربته تجاه حَمَد نور فأصابته في نفس منطقة جرحه في الجانب الأيمن. يقال إن الفارس حَمَد نور نزع الحربة من جسمه بقوة وعقبها متجه الى حدمنبس فاصابته (بكعبها) في محسنه إصابة قاتله أعاقته عن القتال حتى قتل. ولم يستسلم حمد نور رغم مصابه الخطير بل قتل عددا من فرسان عَدْ تَكْليْس بيده اليسرى، وأخيرا مات الفارس حَمَد نور واقفا موتة الرجال، ولهذا تغنى ببطولته كافة قومه من كان معه أو ضده، وهو ما زال مضرب المثل لدى الحَبَاب في الشجاعة والبأس. قال الشاعر إياسو وَدْ هِبْتيْس في قصيدة طويلة يصف فيها هذه المعركة وينوه فيها بشجاعة من شهدوها وعلى رأسهم حَمَد نور الذي عرف بعد ذلك بحَمَد نور شِنْجَبْرَا:

إلاَّتـا نقفـا حَمَلْمَال	(هذه نقفا الخضراء)
بيـت أشـجَدَيْ لأجلا	(في شأنها يموت بيت أسجدي)
منّـا قيـس لقيسا	(منها يذهب من ذهب)
وديبـا ميـت لأقبلا	(وفيها يموت عاد - أقْبَلَ)
يعقوب وَدْ جرجيس	(فمثلا يعقوب وَدْ جرجيس - قرقيس)
مجَابُـو دِيبًا سَبَّرَا	(فيها انكسر حوضه).

وبعد عدة أبيات عن وصف نقفا ذكرناها في موضع آخر يقول:

أمْ بليكي ما وجِسَّاس	(ليس وحدك يا جِسَّاس - وهي بنت إبنه)
كـلُ لأنس منـبلا	(بل كل النساء {أم بليكي - بلاك} ترملن).

جِنْجِي لِجُوْرِكِي إِدِي جَلَبْ	(انظري لجوارك جهة يدك اليسار)
وجِنْجِي لِجُوْرِكِي إدِي مانا	(وانظري لجوارك جهة يدك اليمنى)
مِـنَّا بتكـت قـصَّـتـا	(منهم من قطعت قصتها – شعر المقدمة)
ومِـنَّا ظـفـرَا دَجَّـنا	(ومنهم من لم تعتني بظفرها – بالحناء)
عَـمَّـيكَالِي أَبُـوكِي تُـو	(أبوك من جهة واحدة من الأب والأم – نفس الفرع)
وإمَّـكِي وَلَـتْ دَفَـرَا	(وأمك بنت "دفرا" – لم أفهم المعنى؟)
عَـمَّـيكَالِي إِتْ إِنْـتُـو	(وغم إنه "عمَّيكالي")
أبُـوكِ لأمْعِـلْ إى دحنا	(لم يسلم أبوكِ في ذلك اليوم!!)
أَبـعِيْكِ منَّا أمْعِـلْ أبُوكِ	(جدك منذ يوم مقتل أبيك)
يـوم لالـي أكــررا	(لم ينم الاَّ هذه الليلة)
إلَّـي فَـرَمْ إظـايـت	(هذا فرم (قبر) الإضاية (شجرة)
سـب شِنْجَـيْرَا تجَاوَرَا	(قد جاور قتلى معركة شنجيرا)
بأسا حَمَد نور ود جيـل	(القتال هو قتال حَمَد نور ود جيل)
إدي مانُو مِنْ قيسـت	(ما أنْ فقد يده اليمنى).
إدي جَلَبُـو اتْـمَـهْرَا	(حتى جرَّبَ يده اليسرى وعلمها الضرب)
جُـور وَدْ بَـعَـلْ جُـور	(جُـور وَدْ بَـعَـلْ جُـور)
لـ إلى بـيـلا أبـشـلا	(انجز وانضج ما وعد)
نَـاشْـآيْ عَـظَـظًي	(أخاذٌ لظهور الرجال)
حـق وحـلال كـافـلا	(يُقَسِّم الحقوق)
ونَـاشْـآيْ أسـجـدت	(أخاذٌ للأعناق)
دِيـبْ مَبَـاقِـلْ جِـجَـرَا	(من منابيت الشعر – من أساسها)
ونَـاشْـآيْ شَـرَبِّي	(أخاذٌ لجنبات النفس)
ديـب شـوم إجـر إجرا	(وهي تلبس الخرز في الرجول!!)
بـأسَ فضيـلِ وَدْ جميل	(القتال هو قتال فضيل ود جيل)
شـيـمَـتْ ولَـمَـنبـرا	(صاحب السلطة والحكم ومنبره)
بـأسَ عَزْمَـيـسْ تو	(والقتال قتال عَزْمَيِسْ - لقب "إشْحَق" ود نور الدين)
ودْ أرْبَـدْ بيـلا وأشْـبرا	(قال أنا ود "أرْبَدْ" وانبرى- ربما يشير لنَسَبِهِ في الماريا)
بأسَ حَدَنْبَـسْ تُـو	(والقتال قتال حدنبس ود نور الدين – شقيق إشحق)
لأدَّاج بـيـلا كـأسْـقَـرَا	(الذي تعزَّي قائلاً أنا "أدَّاج" أيْ "المُتَأنِّي")
بأسَ إيـلُـوس وَدْ دِرَار	(والقتال قتال إيلوس وَدْ دِرَار)
عـايـا لأَلْـبَـاب سَـاطَـرَا	(الصقر الذي شق الألْبَاب- القلوب)

وَدْ أبْ ساطِر مَنْبَاكا	(يا وَدْ أبْ ساطِر سيدك)
دَبـرْ دَنْـدَنْ شَـقَّـلا	(هرب الى جبل دَنْدَنْ)
إمَّا لموتا إي قبرا	(لا قيامٌ بدفن الموتى)
وإمَّا لهلّا إيْ دَلا	(ولا تفقُدٌ للناجين!!).

وهكذا انتهت المعركة، وظن كَنْتَيْبَايْ محمد وَدْ جاوج أنَّه قد استراح من عَدْ تَكْلَيْس وعدوه (عمه) هِدَاد المنافس له على منصب كَنْتَيْبَايْ. وكانت نتيجة المعركة أنَّ عدد القتلى كان أكبر في جانب عَدْ هِبْتَيْس[1]، وكان على رأس القتلى الفارس حمد نور شِنْجَيْرَا، ونوراي كبين، وكلاهما من عَدْ عمدوي، ولكن في الجانب الآخر قضت المعركة على أكابر عَدْ تَكْلَيْس وعلى رأسهم زعيم القبيلة فضيل وَدْ جميل وعدد من الفرسان منهم إشحق وَدْ نورالدين وأخوه حَدَنْبَسْ والفارس ايلوس وَدْ دِرَار وأخوه دارشح وكذلك الفارس إبرهيم قدح من عَدْ سمرالعُوْل، واثنان من ابناء حسين وَدْ هِدَاد، وعدد من فرسان أَلْدا وأَسْفَدَا وغيرهم. المهم هو إنَّه عندما رجع الشباب والرعاة وجدوا أهلهم قد قتلوا فشرعوا في دفن الجثث، وتجمع هِدَاد وأولاده وعَدْ تَكْلَيْس في مقر واحد، وعزموا على محاربة الطرف الآخر. استمر نهب البهائم والتعدي على فريق كَنْتَيْبَايْ من قبل عَدْ تَكْلَيْس فترة من الزمن أثناء فترة حكم كَنْتَيْبَايْ محمد وَدْ جاوج.

والحقيقة التى ينبغي قولها هي إنَه كان لعَدْ تَكْلَيْس عشق غريب للقتال وميل عجيب للحرب كأنها صنعة لايجيدون غيرها وهواية يمارسونها ضد الغير، فإن لم يجدوا من يعادون انقلبوا على انفسهم وانقسموا الى تكتلات بين الإخوة ليفنوا

---

(١) ولهذا قال أحد الشعراء من فريق عَدْ هبتيس:

عَنْبَا لَنُورُه أغْسَناه	وحِنَا مَا عَدْنا عِلال إيْ واغِلْ

(يقول: لقد اطفأنا نور «عين سبأ» ولكن أهلنا أيضا سوف لا يُوغِلُون . (إيْ واغِلْ) . أي لن يرفعوا أصواتهم عالياً بالزغاريد لما أصابهم!!).

بعضهم بعضاً، أو كما قال المستشرق الألماني لتمان Littmann عند حديثه عن عَدْ تكليس: «they wrought havoc with each other»[(١)]، وكأن شاعر تَغْلِب "عُمير بن شُييم القطامي" كان يعبر عنهم ويتكلم باسمهم عندما قال:

وأحيانا على بكر أخينا * إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إلا أَخَانَا**

وكأن السموأل كان في صفهم وحلفهم عندما قال:

وَإِنَّا لَقَومٌ لا نَرى القَتلَ سُبَّةً * إِذا ما رَأَتهُ عامِرٌ وَسَلولُ !!**

يقول المستشرق إنو لتمان معلقا على حروب عَدْ تَكْلَيْس الكثيرة:

"بالرغم من إنَّ عَدْ تَكْلَيْس هم إخوة لكنهم دائماً ينقسمون الى أحزاب وتكتلات تقاتل بعضها. لقد اعتادوا على الانقسام لفريقين ليتقاتلا ويدمرا بعضهما. وأحيانا يتوحدون ويغيرون على قبائل أخرى ويناصبونهم العداء. لكن الأهم من كل ذلك أنهم عاشوا في عداء وحرب مع الحباب *(يقصد هنا عد هبتيس)*، وعلى الرغم من أن عَدْ تَكْلَيْس هم الجزء الأقل عدداً في "مفلس الثلاثة"، لكنهم شجعان ويحبون الحرب؛ هم قليلٌ لكنهم جميعاً يسرعون للحرب ويُبَرِّزُون فيها".

«Although the branches of the Ad Takles are brothers in this way, they always split into parties and warred against each other; they used to be divided into two sides and quarrel and destroy each other. And sometimes again they united and robbed other tribes and became their enemies. But most of all they lived in enmity and war with the Habab. And although the Ad Takles are the smallest in number of the "Three Marias", they are brave and warlike. Few as they are, they excel all of them in war».[(2)]

(١) راجع "دور عَدْ تَكْلَيْس في الثورة المهدية" في "الباب الخامس" من هذا الكتاب.

(2) «Publications of the Princeton Expedition to Abyssinia», by Enno Littmann, op cit, Volume II, p. 42.

مهما يكن من أمر فقد ظلت حالة عدم السلم قائمة لفترة طويلة، ثم قام عدد من مشايخ وكبار القبيلة، ومعهم الشيخ الأمين وَدْ حمد من قبيلة «عد درقي» بعقد اجتماع مع كَنْتِيبَايْ محمد وَدْ جاوج وقالوا له كما ترى فإن الحَبَاب مهددون بالفناء بسبب هذه الحرب بين الإخوة (عد هِبْتِيْس ومن معهم من جهة وأولاد هِدَاد وعَدْ تكلس وعَدْ تِمَارْيَام من جهة أخرى)، ولذلك نرى أنْ يتم الصلح، فهذا انفع لك ولغيرك، ونحن مرامنا هو أنْ نطفئ الشر ونوقف القتال، ونعمّر الحَبَاب، ونقترح عليك أن تكون أنت الوزير، ويتولى عمك «هِدَاد» منصب كَنْتِيبَايْ. فرد عليهم كَنْتِيبَايْ محمد: افعلوا ما ترونه مناسباً لسلامة أهلكم، أمَّا الحَبَاب «عَمُورُه حَتِّيْ تَا Habab amooru hatti ta» يعني لا يمكن أنْ يحكمه رأسان، وبهذا أبى كَنْتِيبَايْ محمد جاوج الصلح. أما عَدْ تَكْلِيْس فقالوا لِهِدَاد لقد مات آباؤنا لأجل أنْ تصبح في منصب كَنْتِيبَايْ، وهذا فقط الذي نرضى به فداء لإبائنا. ونتيجة للمشاورات والضغوط من قبل الحكماء في القبيلة أصبح هِدَاد في منصب كَنْتِيبَايْ الحَبَاب، وأخذ النقاقير وتم الصلح، وانتهت بذلك (تقريباً)(١) الحروب من أجل النقارة التى ما تزال الى اليوم بيد نسل هِدَاد وَدْ فِكَاك.

هذا وربَّما يكون من المفيد أن نُوْرِدَ في نهاية هذا الباب جزءاً من قصيدة الشاعر/ حامد محمد علي هبتيس التي صور فيها تصويراً رائعاً بعض المعارك التي حدثت بسبب النقارة، وأشار الى الخلافات التي كانت بين الحباب حول تملك النقارة، وذكر بعض الذين قتلوا بسبب ذلك، حيث قال:

أوْكِيرْ لَعَدْ قَبَّتُو كَبَنَّ بَتْكَتْ جُوماتا	(الشباب أحتقروا الأهل وقطعوا شورتهم)
شُومْ لَعَدْ شَيِمُّو كَودَي إجْلُو الفَاتْحَا	(إختاروا زعيمهم وقرأوا له الفاتحة)

---

(١) هنالك معركة «تجَبْ Tagab» بعد ذلك.

وِمِنْ لَسَحْتَ كَرْعَوُا إِنْحِيسْ إِجْلو إِلأَتَّا	(ومن اعتدي أوقفوه ونصحوه)
إِيْ لِيدينِّي جِيمْيَايُو فَجِرْ إِكِّي لتَاكَا	(ربي لا يجعلني حليفاً لمن يعاديك. النقارة)
مَنْصُورَة فِكَاكْ وَدْ هِبْتَيِسْ فَجِر دَانَاكَا	(يعتني فِكَاكْ وَدْ هِبْتَيِسْ بمَنْصُورَة)
إكدْ نَسْأتْ وإِزَازْ مُوتَوْ دِيَّا أَفْيَاتَا	(أخذت إكدْ وإِزَازْ اللذان مَاتا على عرصاتها)
وناوُدْ بَنُّو حَدْجَتُّو نؤوشاي إِنْتُو حِشَّاكَا	(وأما ناود فتركته وحيداً وهو صغير)
وعَالْيَايْ نَسْأتْ وَدْ فِكَاك أبْ لاكَكَا حرَاكَا	(وأخذت عَالْيَايْ وَدْ فِكَاك أبْ لاكَكَا)
سَبُعْ حَدْجَتْ سَنَيَامْ إيْ سَكْبَوْ إِتَّا مَرْبَاتَا	(تركت سبعة مرموقين لا يغفلون عن ثأرها)
حَايُوتْ لَتسَّابِرْ أسِجْدَتْ وعَاجَاتْ لإِبَّا نَجْوَاتَا	(أسوداً تكسر الرقاب)
أَسْمَايُومْ بَدَّلَوْ كَبَيْلَوُومْ حَامَسَا	(بدلوا اسماءهم وسموهم حاماسا)
أزْمَاتِي إتْ نَارُو وسَلِفْ إكِّيتْ هِتَاتَا	(أزل الشر كانت بموت أوماتي في نارو)
مُحَمَّد أمْعِلْ إِطَّايَتْ أدَامْ بُذُحْ شَنَاكَا	(ويوم مات محمد في إطايت، تفرق الناس)
عَدْ تَكْلَيسْ وَدْ مَفْلَسْ نَسْأتْ مِنُّومْ جِلَّافَا	(لقد أخذت نصيبها من عَدْ تَكْلَيسْ وَدْ مَفْلَسْ)
أرْبَعَتْ لشُومْ لإِتَّا مُوتُوْ هِتَاتَا	(وفي سبيلها مات الزعماء الأربعة)
أدَامْ بُذُحْ نَاسأتَا بَدِير إلى لتَحَازَا	(لقد أفنت خلقا كثيرا وكل من اراد نيلها)
إلأَ ظِنْعِتَّا وحِنْقِقِتْ سَنَّي بُذُحْ تُو أفْتحَاتَا	(إنها المكرمة والمدللة ذات القصص الكثيرة)

*****

الباب التاسع
الإرث الوطني للحباب

لقد لعب الحَبَاب في كافة العصور أدوارا وطنية مشرفة، ولا تكاد تطالع كتابا يخص تاريخ شرق السودان إلاّ ووجدت الحباب في قلب الحدث، حتى وإنْ كان الكتاب غير مخصص لتاريخ الحباب[١]. هذا وقد تحدثنا باسهاب عن دور الحباب المتميز في مناصرة الثورة المهدية ومقاومتهم للغزاة بما في ذلك مليشيات الرأس ألُولَا وجيوش المستعمرين الإيطاليين والإنجليز، ولكن هنالك مواقف وأدوار وطنية أخرى نريد أنْ نشير اليها هنا بايجاز.

حرب الحَبَاب والرشايدة:

حضرت قبيلة الرشايدة (الزُّبَيْدِية) الى مناطق شرق السودان بعد منتصف القرن التاسع عشر واستولت على مناطق من السَّاحِل بهدف الرعي فيها، فكان أول من تصدى لهم الحَبَاب. يقول أنطوني دو أفري في الصفحة ٢١٢ من كتابه ملوك البحر الأحمر، إنَّ الرشايدة قد أُحْضِرُوا من الجزيرة العربية أثناء حملة نابير (Sir Robert Napier) في عام ١٨٦٧م ضد الإمبراطور تيودور ليقوموا بمهام التعامل مع جمال الحملة (جَمَّالَة Cameleers)، واستقروا في المنطقة الواقعة جنوب سواكن. أمَّا المؤرخ محمد صالح ضرار فيرى أنَّ أول هجرة للرشايدة الى أرض الحَبَاب كانت في عام ١٨٦٩م[٢]. أمَّا الأستاذ عمر رضا كحالة فيقول: «الرشايدة من قبائل العرب

---

(١) أنظر مثلاً كتاب: «تاريخ شرق السودان، ممالك البجة، قبائلها وتاريخها» لمؤلفه محمد صالح ضرار، مرجع سابق، حيث لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من ذكر الحباب أو كتنيباي عند حديث مؤلفه عن تاريخ القبائل المختلفة للبجة.

(٢) راجع كتاب تاريخ سواكن والبحر الاحمر صفحة ٣٤. وهذا يتوافق مع ورد في الوثيقة رقم ٦٠ من وثائق نقفا والتى ذكرت إنَّ أول نزول للرشايدة كان في مرسى «محمد قول Mohamed Gul» في عام ١٨٦٧ ، وبعد ذلك بعامين (١٨٦٩) استوطنوا المناطق المحيطة بتوكر (راجع كتاب دو

تقيم في الصحراء الشرقية المعروفة أيضاً بصحراء البُجَة بالسودان وهي قريبة عهد بها وقد هاجرت إليها من الحجاز سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١م)، بسبب قتال وقع بينها وبين بعض القبائل هناك، فعبرت البحر الأحمر من جدة ونزلت في أرض الحَبَاب، وكانت تعد نحو ألف رجل، ومعهم أسلحتهم وأولادهم وأبلهم فأعترضهم الحَبَاب، وجرت بين الفريقين وقائع أدت إلى سفك الدماء»[١]. لقد دافع الحَبَاب عن أرضهم (قبل ظهور الحكومات الوطنية وتقسيم الحدود)، وقدموا الشهداء في وقائع كثيرة جرت بينهم وبين الرشايدة الذين كانوا يتفوقون عليهم بامتلاك السلاح الناري، بينما كان السيف هو سلاح الحَبَاب في الغالب، وبالرغم من ذلك نجح الحَبَاب في ايقاف تدفق الموجات البشرية من الرشايدة، والتى كانت تتدفق على المنطقة في تلك الفترة، وهنا نعتز بتسجيل شهادة جاءت من عالم وأكاديمي سوداني متميز هو المؤرخ البروفسير يوسف فضل الذي أكد أنَّه لو لا قتال الحَبَاب للرشايدة، ووقفتهم في وجه الموجات البشرية التى كانت تعبر البحر وقتها، لأمتلأ شرق السودان الحالي بالرشايدة[٢].

قال المؤرخ محمد صالح ضرار إنَّ الحباب قد اشتبكوا في عدة مواقع مع قبيلة البراطيخ (فرع من الرشايدة) "حال نزولها بأرض الحباب"[٣]. ثم تطرق لحرب الحباب مع فرع آخر من الرشايدة وهم الذنيهات (بيت نظارة الرشايدة) وقال: إن زعيم الرشايدة عبد الله أمبارك (المبارك) كان يأمر الرشايدة بالابتعاد عن "ديار

أفري "وثائق نقفا"، مرجع سابق، ص ٧٦).

(١) راجع صفحة ٤٣٤ من كتاب «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة»، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة.

(٢) لمعرفة المزيد من آراه البروفسير يوسف فضل في هذا الشأن يمكن الرجوع الى كتابه: (دراسات في تاريخ السودان)، الجزء الأول صفحه ١٨٨ - ١٨٩.

(٣) راجع كتاب «تأريخ شرق السودان، ممالك البُجَة، قبائلها وتاريخها»، الجزء الثاني، مرجع سابق، صفحة ٧٤٢.

الحباب فخالفه جماعة منهم"[١]. ثم يمضي ويقول: "وذات يوم هرب بعير عائد من بن جلاّف ولقيه إدريس محمود دقه [من عَدْ عَمْدُويْ]، فذبحه وأكله"[٢]، وهنا يشير الى أن هذا كان البعير السابع للرشايدة الذي يذبحه ويأكله الحباب. ثم يمضي فيقول: "وجاء صاحبه خلفه يقص الأثر حتى وقف على دمه مغتاظاً، فاستاق أغنام القرية جميعها وتهددهم بإطلاق الرصاص، فصرخ علي بخيت بن إدريس محمود طالباً النجدة. وكذلك فعل عايد، واجتمع الفريقان في قلب سَقلا (Galab Sagla) فأطلق الرشايدة الرصاص على الحباب وأصابت رصاصة الشيخ إدريس محمود دقه"[٣]، فقتل ومعه أشخاص آخرون. ونتيجة لذلك استمرت الحروب بين الرشايدة والحباب واستطاع كنتيباي حامد بك ود حسن مع محمد علاء الدين باشا (محافظ مصوع) كي يأمر بترحيلهم إلى درور شمال بورتوسودان. فلما بدأوا في الرحيل أقلقت راحتهم عصابات الحباب بالقتل والنهب ويضيف ضرار قائلاً: إنَّ الرشايدة استجاروا "بالعجيلاب في عقيتاي فأجارهم الشيخ ضرار بن علي لمدة عشرين يوماً فقط وبعدها أعلنوا الرحيل إلى عيدب. فهجمت عصابة (ردئ ابن بلغ شكاني) على .... الشيخ عبدالله بن مصلح وقتلوه"[٤] مع زهاء خمسين آخرين. ثم يذكر ضرار أن الرشايدة تجمعوا وربوا "الجمال خلف العصابة فأدركوها في منهل (رحيب) وقد حضر كنتيباي بكل رجاله وحنوده وهم أكثر من ألفين. أما الرشايدة فكانوا نحو أربعمائة رجل. ووقف الحباب على ضفة الوادي الشرقية، والرشايدة على الغربية. وإذا بالسيد إبراهيم بن الشيخ بن محمد بن علي. والشيخ ضرار، والشيخ أكد موسى يقفون برجالهم بين

(١) نفس المرجع، صفحة ٧٤٤.
(٢) نفس المرجع، صفحة ٧٤٤.
(٣) نفس المرجع، صفحة ٧٤٥.
(٤) نفس المرجع، صفحة ٧٤٦.

الصفين وبيد السيد إبراهيم المصحف الشريف فتهادن الفريقان. وارتاح كل منهما من وضع المصحف بينهما فوق سرج جمل وانقلب كل إلى أهله"[١].

هذا ويذكر الرشايدة هذه الوقائع ويروونها فيما بينهم، ولهم أشعار يتداولونها في هذ الشأن. وقد أكد أحد زعمائهم الحاليين وهو الشيخ/ احمد حميد بركي عبد الله، ناظر عموم قبيلة الرشايدة بالسودان ما ذكرنا وأكثر من ذلك، حيث قال في لقاء أجرته معه[٢] صحيفة الصحافة السودانية في عددها رقم ٦٨٩٠ الصادر بتاريخ ٥/١٠/٢٠١٢م، الصفحة ٩: «وعندما استقرت القبيلة بالسودان حدثت مواجهات دموية بين قبيلة الحباب التي تنتمي الي البجا[٣] وراح ضحيتها الكثيرون وذلك في عهد التركية بالسودان وبمناطق حلايب / محمد قول، الحكرة وبحثنا[٤] عن العدل قام الزعيم مرشود بن مديجيم[٥] بن سليم من قبيلة ذي عمري بالذهاب الي مصر وقدم شكوى للخديوي واصدر الخديوي قرارا بأحقية بقاء القبيلة بالسودان ولأنها عربية وتدين بالاسلام الحنيف ويمتاز افرادها بالفراسة فكان وان رضخ زعيم الحباب (حامد حسن الكنتباي[٦]) الى هذا القرار وتم ارسال كتيبة مسلحة من الجيش التركي لاطلاق سراح السجناء من الرشايدة وفرضت علينا ديات لمدة (١٠) سنوات تدفع لقبيلة الحباب ونظام الدية فرض على كل بالغ قادر علي حمل السيف ومثالا لذلك كل شخص من القبيلة يدفع هذا فرض لا فكاك منه».

---

(١) نفس المرجع، صفحة ٧٤٦.

(٢) وقع تصحيف من قبل المحرر حيث كتب اسمه «بدكي» بدلا من الاسم الصحيح «بركي».

(٣) الأصح أن تكتب (البجة) وليس (البجا).

(٤) ربما وقع تصحيف من المحرر عندما كتب «بحثنا عن» بدلا من «بحثاً عن».

(٥) الاسم الصحيح هو «مريخيم» بدلاً من «مديجيم».

(٦) يقصد كنتيباي حامد بك ود حسن.



وليبيا والقبيلة تنقسم الى ثلاثة اقسام البراعسة، البراطيخ ، الزنيمات،

وماذا عن الهجرة الى السودان؟:

كان ذلك قبل قرنين من الزمان وكما اسلفت فإن تضامن بعض من القبائل مع الاتراك وفقدنا رجالا كثيرين فكانت الهجرة الى السودان عبر السنابك في مخاطرة عبر البحر الاحمر والى ارتيريا ايضا واستقرت القبيلة بمناطق الساحل بطوكر وقارورة وشمالا الى حلايب وامتهنوا التجارة والقبيلة لها الفخر في انها اول من قامت او امتهنت تجارة الابل بين الدول، وعندما استقرت القبيلة بالسودان حدثت مواجهات دموية بين قبيلة الحباب التي تنتمي الى البجا وراح ضحيتها الكثيرون وذلك في عهد التركية بالسودان وبمناطق حلايب / محمد قول، الحكرة وبحثنا عن العدل قام الزعيم مرشود بن مديجيم بن سليم من قبيلة ذي عمري بالذهاب الى مصر وقدم شكوى للخديوي واصدر الخديوي قرارا باحقية بقاء القبيلة بالسودان ولانها عربية وتدين بالاسلام الحنيف ويمتاز افرادها بالفراسة فكان وان رضخ زعيم الحباب (حامد حسن الكنتباي) الى هذا القرار وتم ارسال كتيبة مسلحة من الجيش التركي لاطلاق سراح السجناء من الرشايدة وفرضت علينا ديات لمدة (١٠) سنوات تدفع لقبيلة الحباب ونظام الدية فرض على كل بالغ قادر علي حمل السيف ومثالا لذلك كل شخص من القبيلة يدفع هذا فرض لا فكاك منه..

دور الحَبَاب في استقلال السودان:

لقد انتظم الحَبَاب في الحراك السياسي الذي ظهرت ملامحه في السودان منذ بدايات القرن العشرين بغرض تحقيق الاستقلال، حيث انخرطت غالبية الحَبَاب في طائفة الختمية، ومن ثم في الحزب الوطني الاتحادي، وبعضهم انضم في فترة لاحقة الى حزب الشعب الديمقراطي، وفي هذا الصدد نشير الى مواقف كَنْتَيْبَايْ حسين ومساجلاته مع الشريف حسين الهندي رحمهما الله. وما فتئ أهل بورتسودان، وديم مدينة على وجه الخصوص، يذكرون مواقف وكيل الحَبَاب في بورتسودان الخليفة عَلِيّ نور إدريس وابن أخته (وزوج بنت أخيه) النائب البرلماني الغيور المرحوم عثمان عمر المصري. يعتبر الخليفة عَلِيّ نور (والد الفنان إدريس الأمير) من أبرز أعلام مدينة بورتسودان، ومن الرعيل الأول الذي سكن بورتسودان، حيث كان عمره

وقت انشائها خمسة عشر عاما (افتتح ميناء بورتسودان رسمياً بواسطة خديوي مصر في عام ١٩٠٩م)، حيث كان والده إدريس عَلِيّ نور أحد أبرز المشايخ في الحَبَاب أثناء فترة حكم كَنْتِيْبَايْ حامد بيك، وكان يتولى إدارة ميناء تَكْلايْ (رارات) أثناء الثورة المهدية. ثم استقرت الأسرة في ديم مدينة مباشرة بعد انشاء مدينة بورتسودان، وأصبح ذلك البيت قبلة للضيوف ومحطة يقصدها كل من كان بحاجة لعمل أو تعَلِيّم من سكان الريف. انضم الخليفة عَلِيّ نور للعمل في هيئة الموانئ البحرية منذ عام ١٩١٣م، وظل في الخدمة حتى تقاعده في عام ١٩٥٠م، وكان عوناً للنَّاس طوال تلك الفترة، وله أيادٍ بيضاء على كثير من أبناء البُجَة، ولا سيَّما الحَبَاب وبني عامر، حيث آوى وعلم عدداً كبيراً منهم، ووظف البعض في هيئة الموانئ وغيرها. ولا شك أنَّ أهل الفضل يذكرون ذلك.

كان الخليفة عَلِيّ نور من أبرز المؤيدين لثورة ١٩٢٤م، وساهم مع ذويه في التعبئة الجماهيرية التى كانت تمور بها مدن السودان، وشارك في النشاطات المنادية بجلاء المستعمر. كما كان الخليفة عَلِيّ نور من ضمن الحلف المعارض لقيام الجمعية التشريعية، التى كان ينظر اليها من قبل البعض على أنَّها خدعة من المستعمر الإنجليزي تهدف الى تفويت الفرصة على المنادين باستقلال السودان. وضمن هذا النشاط المعارض شهدت مدينة بورتسودان مظاهرة ضخمة عرفت تاريخيا بمسيرة مدينة بورتسودان عام ١٩٤٨م، وذلك رداً على قيام حكومة المستعمر البريطاني بانشاء مؤسسات دستورية رفضها مؤتمر الخريجين. ومن ضمن تلك المؤسسات الجمعية التشريعية والدعوة لانتخاب أعضائها. وهذه الدعوة عارضتها في البداية كافة الأحزاب التى كانت تنادي بوحدة مصر والسودان مثل حزب الأشقاء، وحزب وحدة وادي النيل، وحزب الإتحاديين. وقد خرجت جماهير هذه الأحزاب مع جماهير مؤتمر الخريجين في مسيرات هادرة في كافة المدن السودانية وكانت أقوى تلك المسيرات في مدينتي بورتسودان وأتبرا. وكان في مقدمة مسيرة بورتسودان القيادي الإتحادي الخليفة علي نور حيث حشد لهذه المسيرة كافة أبناء الحباب وغيرهم من البجة في مدينة بورتسودان وأعانه في ذلك انتماء غالبية السكان في

المنطقة الى الطريقة الختمية التي كان لها موقف معارض لإنتخابات الجمعية التشريعية. وقد إعترضت المسيرة قوةٌ من الشرطة محاولةً تفريقها، وإستخدمت الرصاص ضد المتظاهرين، حيث إستشهد سبعة من أبناء قبائل البجة وجرح منهم عدد كبير وكان بين الجرحى الخليفة علي نور نفسه، رحمه الله. وقدم الحباب في تلك المسيرة فداءً للوطن الشهيد "محمد إدريس محمد داؤود" وهو من فرع بيت أتْكَمَيْ، كما توفي الشهيد "محمود علي سعيد"، وهو من البلو. ولا ننسى الشهيد البطل "محمد نور محمد علي حدوت"، أيضاً من بيت أتكمي، الذي كان يطارد الإثيوبيين كلما دخلوا "قرورا" فاغتالوه غيلة بعد أنْ تمكنوا من أسره في موقف بطولي داخل قرورا.

وقد كان الخليفة عَلِيّ نور من ضمن وفد الإتحاديين الذي سافر من بور تسودان إلى مصر في عام ١٩٥٢م، برئاسة الزعيم محمد نور الدين، لتهنئه القيادة المصرية بنجاح الثورة، ومناقشه قضايا السودان والمطالبة باستقلاله، وهو وفد مشهود ضم كل أعيان مدينه بور تسودان وعلى رأسهم شخصيتان بارزتان من الحَبَاب هما الخليفة على نور إدريس والخليفة حامد محمد عمر شيكاي، وقدم الحَبَاب مساهمة مالية لدعم بناء الدولة السودانية المرتقبة، وفيما يلي أسماء وفد أعيان بورتسودان وهم السادة:

١ـ السيد/ محمد احمد النيل.
٢ـ السيد/ بامكار محمد عبد الله.
٣ـ الخليفة/ علي نور إدريس علي نور.
٤ـ الخليفة/ حامد محمد عمر شيكاي.
٥ـ السيد/ مجذوب أبو عَلِيّ.
٦ـ السيد/ محمد عثمان شنقراي.
٧ـ السيد/ عبد المجيد بدر.
٨ ـ السيد/ يحي الغسين.

أمَّا دور المرحوم عثمان عمر المصري فهو أمر تقصر عنه القامات وتخرص دونه

الألسن، ولكن نشير باختصار الى عضويته للجمعية التشريعية قبل استقلال السودان، والدور الذي لعبه مع إخوانه لتحقيق الاستقلال عن طريق التصويت في الجمعية التشريعية، ثم انتقاله في نهاية الخمسينات الى منطقة القضارف، وانخراطه في العمل الاجتماعي وخدمته لكل شرائح المواطنين، ولا سيَّما أبناء البُجَة، من خلال المجلس البلدي ومن خلال تسخيره لتجارته وتنشئته لأبنائه وتوطينهم على خدمة أهلهم، وفتحه لداره طوال الليل والنهار لكل ضيف ومحتاج وفقير، حتى إنَّ منزله كاد لا يعرف قط باباً مغلقاً. رحم الله عمنا عثمان المصري فقد عاصرته وهو كبير في السن، وحال صغر سني دون الجلوس معه والحديث اليه بعمق في مجاهدات الحَبَاب الوطنية، رغم علمي أنَّ الرجل كان بمثابة تجسيد حي للوطنية، وموسوعة تاريخية في هذا المجال، وكما قال المفكر المالي همباتا با: «ما أنْ يموت عجوزٌ أفريقيٌّ إلاَّ وتحترق مكتبة». وهذا ما حدث مع موت الشيخ عثمان عمر المصري حيث غاب التاريخ في صدرة دون أنْ يكتب وتستفيد منه الأجيال.

وفي الحقيقة ليس بمقدور أحد إحصاء الأدوار البطولية التى قام بها أبناء الحَبَاب في هذا الوطن المترامي الأطراف، ونحن نذكر ما نعرف فقط، وذكرنا ما ذكرنا على سبيل المثال لا الحصر. وهنا تحضرني حادثة لا تقل في نظري أهميةً عن حادثة كسَّار قلم مكميك [1] !! ذلك أنَّ المرحوم الشيخ صالح إدريس أزماتي (أدماتي) كان يدرس في المعهد العلمي في أمدرمان[2]، وهو دفعة الأستاذ الإعلامي المعروف عَلِيّ شمو (أطال الله عمره). وبعد التخرج تم تعيينه مدرساً في إحدى المدارس الحكومية. ودرجت العادة في عهد المستعمر على أنْ يتم تدريس حصة واحدة فقط في الإسبوع لكل من مادتي التربية الإسلامية والتربية المسيحية. ولم يكن هذا الأمر

---

(١) كسَّار قلم مكميك هو الشيخ عبدالله ود جاد الله ود بليلو، زعيم الكواهلة الأشهر، وأما مكميك فهو الاسم المحرف للإدراي البريطاني MacMichael الذي كان ضمن الإدارة الاستعمارية للسودان في الفترة من عام ١٩٠٥ وحتى ١٩٣٣م.

(٢) الآن «جامعة أم درمان الاسلامية».

ليرضي الشاب النشط صالح إدريس، فقد احتج ضد سياسة المستعمر الإنجليزي وإدارة المدرسة، وقال قولته: نحن في بلد غالبيته من المسلمين فكيف تكون حصة التربية الإسلامية مرة واحدة في الاسبوع وتتساوى مع حصة التربية المسيحية؟ وبعد التحقيق معه، ونتيجة لهذا الموقف تم ابعاد الشاب صالح إدريس أزماتي من العمل.

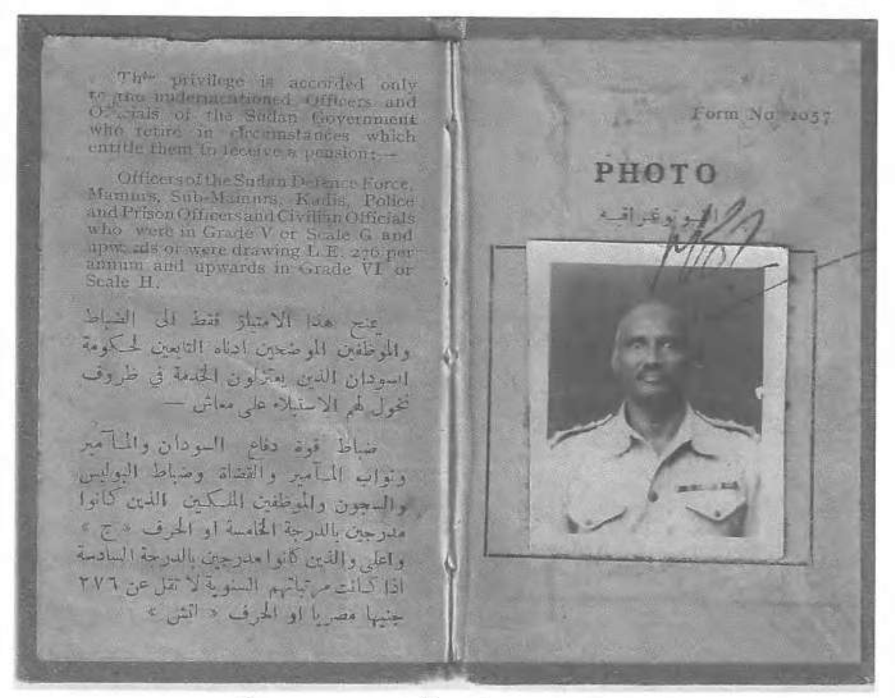
الحَباب وقوة دفاع السودان وأورطة[١] العرب الشرقية:

أشرنا في موضع آخر من هذا الكتاب الى قوات الرديف السوداني الى استخدمها كَنْتِيْبَايْ حامد، قبل ما يزيد على قرن، في حروبه ضد الرأس أَلُولَا والطليان والإنجليز. وأشرنا الى أنَّ كلمة «الرديف» هي اختصار مكون من الأحرف الأولى لعبارة «Retired Defence Force» أي المحالين للمعاش من قوة دفاع السودان أثناء الحكم الثنائي للسودان. وكما نفهم مما ذكره المؤرخ محمد صالح ضرار فإن جزءاً مقدراً من قوات الرديف السوداني قد «احيلوا للاستيداع بأرض الحَبَاب»[٢]، مما يدل على أنَّ الحَبَاب كانوا جزءاً من قوة الأورطة السودانية منذ تكوينها أيام الحكم التركي. وأشرنا أيضاً الى الدور الأساسي الذي لعبه أبناء الحَبَاب ضمن قوة دفاع السودان عند فتح كرن، ومناطق السَّاحِل الإرتري أثناء الحرب العالمية الثانية. وما يهمنا هنا هو أنْ نوضح أنَّ عماد أورطة العرب الشرقية في القضارف كان من الحَبَاب، وكان ضمن القواد المشهورين فيها الضابط الشجاع القائد: محمود محمد عَلِيّ الملقب بمحمود « شَشَّحْ»، من عَدْ عَالْيَايْ وَدْ فِكَّاك، الذي شارك في فتح كرن عام ١٩٤١م، وهو من ضمن من غنت لهم الفنانة عائشة الفلاتية «ان شا الله عايدين»، ونال نوط الشجاعة. وظل القائد محمود « شَشَّحْ» على رأس العمل حتى تاريخ تقاعده في ١٤ أكتوبر ١٩٤٦م، وهو الذي كان يجد التكريم والاحترام من رئيس الجمهورية جعفر نميري كلما زار البحر الأحمر حتى توفاه الله.

---

(١) «أورطة» كلمة تركية تعني فرقة عسكرية.

(٢) «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا» لمحمد صالح ضرار، مرجع سابق، ص ٤٥.



The privilege is accorded only to the undermentioned Officers and Officials of the Sudan Government who retire in circumstances which entitle them to receive a pension:—

Officers of the Sudan Defence Force, Mamurs, Sub-Mamurs, Kadis, Police and Prison Officers and Civilian Officials who were in Grade V or Scale G and upwards or were drawing L.E. 276 per annum and upwards in Grade VI or Scale H.

يمنح هذا الامتياز فقط الى الضباط والموظفين الموضحين ادناه التابعين لحكومة السودان الذين يعتزلون الخدمة في ظروف تخول لهم الاستيلاء على معاش —

ضباط قوة دفاع السودان والمأمير ونواب المأمير والقضاة وضباط البوليس والسجون والموظفين الملكيين الذين كانوا مدرجين بالدرجة الخامسة او الحرف « ج » واعلى والذين كانوا مدرجين بالدرجة السادسة اذا كانت مرتباتهم السنوية لا تقل عن ٢٧٦ جنيها مصريا او الحرف « اتش »

صورة المرحوم الملازم أول: محمود محمد عَلِيّ

الملقب بمحمود « شَشَّحْ »، وهو بزيه الرسمي في قوة دفاع السودان.

Personal pass entitling the holder to travel on the Sudan Railways and the Steamers thereof in Second Class on payment of the full fare for Third Class.

تصريح شخصي يخول لحامله السفر على سكك حديد السودان والبواخر التابعة لها بالدرجة الثانية مقابل دفع اجرة الدرجة الثالثة بالكامل

No. 519	ن ٥١٩
Name Mohd Eff Mohd Ali	الاسم محمود افندي محمد علي
Last Appointment WA/MA	آخر وظيفة ملازم اول
Grade, Scale or Rank	الدرجة الحرف او الرتبة ملازم اول
Pay per Annum L.E. 192	الماهية السنوية ١٩٢ جنيها مصريا
Date of Retirement 14/10/46	تاريخ الاحالة ١٤/١٠/٩٤٦
ATBARA 22-7-1948	عطبره ٢٢/٧/١٩٤٨
	GENERAL MANAGER
	ختم المدير العام

هذا ولا يفوتني أنْ أذكر هنا موقفا متقدماً، وذا أبعاد استراتيجية، سجله بكل فخر القائد محمود محمد عَلِيّ « شَشَّحْ »، عندما تم فتح كرن عام ١٩٤١م، حيث كان هذا القائد وراء تجنيد عدد كبير، ليس من الحَبَاب فقط، ولكن أيضاً من أقاربهم[1] من البلين والمنسع والماريا، وغيرهم من الناطقين بالتِّجْري عامة، وبالتالي أصبح عماد أروطة العرب الشرقية من الحَبَاب وأقاربهم في فترة من الفترات، ونذكر منهم (وعلى سبيل المثال لا الحصر.) محمود حنيت ومحمد نور بحراي[2] ومحمد صالح وعَلِيّ حامد وعمر إِزَاز ومحمود موسي عبد القادر ويسن محمد عَلِيّ وتَيدْرُوس والحاج وعبد الله حاج محمود وأبناء جِيد وأبناء عتيل وآخرون كثر، لا تحضرني أسماؤهم الآن، وعلى كل حال فإن سجل أسمائهم ومناطقهم ما زال موجوداً في جبل الجيش، مقر القيادة الشرقية بالقضارف. ولذلك لا غرو في أنْ نقول أنَّ هذا العمل كان ذو أبعاد استراتيجية، حيث أنَّ الفضل يعود لهذا القائد في رفد الثورة الإرترية فيما بعد بالكوادر المدربة على القتال لكون أنَّ عدداً من أبناء تلك المناطق قد قادوا الثورة الإرترية في بداية الستينات، وأمدوها بالخبرة والسلاح، بعد أنْ خدموا في أورطة العرب الشرقية. وهذا بلا شك رصيد يصب في معين الدعم غير المحدود الذي وجدته إرتريا من الشعب السوداني العظيم بكافة قطاعاته منذ انطلاق الشرارة الأولى للنضال وحتى ساعة التحرر والانعتاق لإرتريا الغالية، وهذه ليس منة على أحد، وإنَّما هو نتاج طبيعي لوشائج القربى ومتانة النسيج الاجتماعي الذي يربط الشعبين، لا سيَّما في شرق السودان وشمال وغرب إرتريا، حيث وحد عنصر البُجَة بين تلك المناطق لآلاف السنين اجتماعياً وثقافياً، وزاد هذا الرباط متانة بالدور الديني الذي لعبته الطريقة الختمية، وما نتج عن هذا الدور المبارك من تقارب

(١) كل المذكورين أدناه تربطهم علاقة مصاهرة أو قرابة بالحَبَاب.

(٢) ذكر لي المرحوم محمد نور بحراي (وهو من البلين) أنَّ عمره كان في حدود ١٤ عاما عندما قابله القائد/ محمود شَشَّحْ في كرن عقب الحرب العالمية ولم يكن يعرفه. قال محمد نور: لم يسألني محمود شَشَّحْ عن قبيلتي أو شيء آخر وإنما سألني: «تِجْرَايِتْ تَأمَّرْ؟» أي: هل تعرف تتكلم لهجة التِّجْري؟ فقلت: نعم، فقال «تِتْعَسْكَرْ؟» فقلت نعم، وهكذا. يروي محمد نور بحراي قصة انضمامه لأورطة العرب الشرقية.

فكري وتوحد مذهبي وطَّنَه السادة أبناء السادة ومنهم السيد الحسن أبو جلابية (كسلا) والسيد محمد عثمان تاج السر (راجل سوكن) والسيد بكري وإبنه السيد جعفر (كرن) والسيد محمد عثمان المرغني (أغردت)، والشريفة مريم (سنكات) وأختها الشريفة علوية الحربية (مصوع).

ونشير الى قائد آخر من أبطال الحَبَاب في أورطة العرب الشرقية وهو القائد حريراي « محمد وَدْ علي وَدْ مَنْفَعُوتْ» [1] ، من سب لعاليت، الذي نفذ عملية شجاعة بـ «سُوتَلِه» أي بسكينه المعقوفة (الجنبية)، فاحتفل به زوملاؤه في الجيش، ومنذ ذلك اليوم أصبح «السُّوْتَلْ» أو الاسم المحرف «الشُّوْتَال» رمزًا لأورطة العرب الشرقية، ومن ثم للقيادة الشرقية. هذا ونذكر(على سبيل المثال فقط) من أبناء الحَبَاب البارزين من الجيل الثاني الذين انضموا للعمل في أورطة العرب الشرقية كل من إدريس عمر شكر وصالح محمود «عجوز» والحاج محمد عَلِيّ (وَلْعْ) ومحمد عبدالله هُمَّد وآدم نور الدين ويوسف مسوكر، وآخرين كثرٌ، لسنا الآن بصدد حصرهم، وإنَّما ذكرنا هولاء على سبيل المثال لا الحصر.

الحَبَاب ومؤتمر البجة:

لم يغب الحَبَاب أبداً عن مسرح الأحداث وصنعها، ومن ذلك أنَّ الحَبَاب كانوا في قلب الحدث عندما برزت الدعوة العامة لقيام مؤتمر البُجَة، إبَّان الليلة السياسية التى عقدت في بورتسودان يوم ٧ يونيو ١٩٥٧م، وبعد رفع مطالب قومية البُجَة للمسؤولين تختص بقضايا العمل والعلاج والتعليم، ولم تجد أذناً صاغية من الحكومة، فشرع أهلنا البُجَة في التحضير لمؤتمر عام للبجة. وفعلاً عقد أول اجتماع لمؤتمر البُجَة العام في مدينة بورتسودان، في ساحة مدرسية تقع قبالة نادي البُجَة في الفترة من ١١ اكتوبر الى ١٣ اكتوبر عام ١٩٥٨م، بحضور أكثر من خمسة عشر ألفاً

---

(١) اسمه بالكامل هو : محمد وَدْ على وَدْ داود وَدْ موسى خير وَدْ حامد وَدْ سلمان وَدْ همد (حِمَّد) وَدْ حسين وَدْ مَنْفَعوتْ.

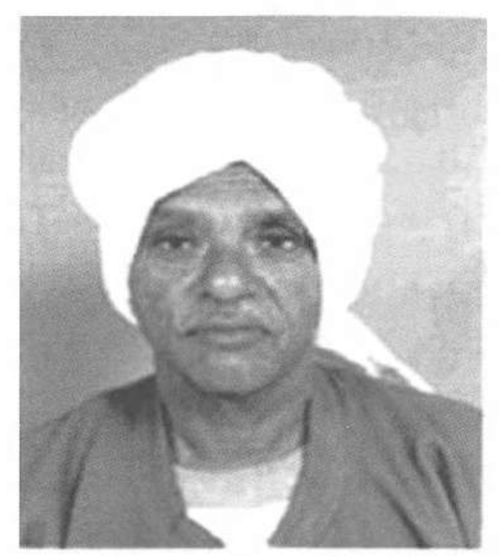
من البُجَة وغيرهم. ترأس المؤتمر المرحوم الدكتور «طه عثمان بلية»، والقى عدد كبير من ممثلي البُجَة كلمات بهذه المناسبة منهم عمدة الأرتيقا السيد كابيري محمود نولي، وناظر عموم قبائل الهَدَنْدِوَا السيد/ محمد الأمين ترك، والخليفة عَلِيّ نور إدريس، نيابة عن ناظر الحَبَاب كَنْتَيْبَايْ حسين، والسيد/ أونور أوشيك، نيابة عن عمدة الشيآب، والسيد/ عمر محمد الأمين، نيابة عن قبيلة الحَلَنْقَا، والسيد/ محمد آدم موسى، نيابة عن عمدة العمر هاساب، والسيد/ طاهر محمد عبد القادر، نيابة عن عمدة الكميلاب، والسيد/ سليمان عَلِيّ كرار، نيابة عن ناظر بني عامر بتوكر[1]. ومن الأشخاص الذين سعوا لقيام هذا المؤتمر المناضل الحَبَابِي محمد سعيد ناود، الذي كان من المؤسسين لمؤتمر البُجَة، ومن ضمن سكرتاريته، ومن الكوادر الفعالة في التنظيم، وشارك بالقاء كلمة أمام تلك الحشود الغفيرة، التي أتت من كل فج عميق لتشهد الاجتماع التأسيسي لمؤتمر البُجَة، والذي حضره رئيس الوزراء في ذلك الوقت السيد/ عبدالله خليل، ووزير الداخلية الشيخ/ عَلِيّ عبد الرحمن. يقول الأستاذ محمد سعيد ناود في مقال كتبه بموقع سودانيز أون لاين «Sudanese Online» بتاريخ ١٤ أكتوبر ٢٠٠٧ م، إنَّ أحد الأشخاص كتب بعد انتهاء المؤتمر مقالاً في صحيفة «الرأي العام»، هاجم فيه مؤتمر البُجَة واصفاً إيَّاه بالحركة العنصرية، فرد عليه الأستاذ محمد سعيد ناود بمقال فند فيه افتراءات الكاتب على مؤتمر البُجَة، موضحاً له أنَّ المؤتمر هو حركة مُثِّلَتْ فيها «كافة قبائل الشرق التى أجمعت على ضرورة أنْ تصان حقوق أهل شرق السودان».

وحيث أنَّ الأستاذ محمد سعيد ناود هو قيادي حبابي فذ، لعب أدوراً وطنية مؤثرة وحاسمة في الساحتين السودانية والإرترية، نود هنا أن نثبت نبذة مختصرة عنه فنقول هو: محمد وَدْ سعيد وَدْ ناود وَدْ إدريس وَدْ إزوز وَدْ ناود وَدْ كَنْتَيْبَايْ إدريس وَدْ كَنْتَيْبَايْ ناود وَدْ إزَاز (بحر نقاسي) وَدْ كَنْتَيْبَايْ فِكَاك وَدْ كَنْتَيْبَايْ هِبْتِيْس وَدْ كَنْتَيْبَايْ مَفْلَس وَدْ كَنْتَيْبَايْ أَبِيبْ وَدْ كَنْتَيْبَايْ جَرْجِيس (قرقيس) وَدْ قبركتوس وَدْ

(١) راجع كتاب الاستاذ محمد أدروب أوهاج ؛ من تاريخ البجا – الكتاب الأول.

دَافْلا وَدْ أسْجَدَيْ.





الاستاذ محمد سعيد ناود

ولـد الأستاذ محمد سعيد نـاود في عـام ١٩٢٦م [١]، ودرس المرحلتين الأولية والوسطي في مدينة بورتسودان، وتـم قبوله بمعهد (بخت الرضا) عام ١٩٥٢م ليصبح معلماً، ولكن آثر الوظيفة على التدريس فالتحق بالعمل في شركة التلغراف

(١) للأسف قبل أنْ يرى هذا الكتاب النور، توفي المناضل محمد سعيد ناود في يوم الخميس السادس عشر من سبتمبر ٢٠١٠م، رحمه الله رحمة واسعة.

الشرقية (الإيسترن) ببورتسودان. وكان محمد سعيد عضواً نشطاً في المنظمات الطلابية والجبهة المعادية للاستعمار، وشارك في المظاهرات الطلابية. كما كان عضواً فعالاً في الحزب الشيوعي، الذي كان في ذلك الوقت يسمي «الحركة السودانية للتحرر الوطني»، وكان أقوى الأحزاب الشيوعية في منطقة الشرق الأوسط باسرها. ومن خلال نشاطه في تلك المنظمات شارك الأستاذ محمد سعيد ناود في الحركة الوطنية المنادية باستقلال السودان، وكان مترعاً بالوطنية لدرجة أنَّه سمى بنته البكر بذلك الاسم الرمز «عَازَّة» أو «عَزَّة» كما يكتبها البعض. وظل «أبو عَازَّة» ضمن الكوادر النشطة للجبهة المعادية للاستعمار الى أنْ تحقق الاستقلال في مطلع عام ١٩٥٦م. بَيْدَ أنَّ استقلال السودان لم يكن إلاَّ حافزاً لتلك الروح الثورية، التى كانت تمور في جنبات ذلك الرجل المترع بمفاهيم مناهضة الرجعية، وتحرر الشعوب، وكانت تغذيها أدبيات اليسار، وتضحيات «جيفارا» الذي احتوى الأستاذ ناود، الأمر الذي جعله لا يعرف الهدوء قبل أنْ يحقق العدالة الثورية في الأرض !! ولذلك نجد حياته العامرة كلها تدور حول هذا المحور.

بعيد الاستقلال، انخرط الأستاذ ناود مع بعض زملائه من مثقفي البُجَة في حركة تنادي بحقوق البُجَة، ويذكر محمد سعيد بعض الأسماء من أبناء البُجَة الذين كانوا يعملون معه في هذا الإتجاه كما سنوضح في الأسطر التالية. يروي الأستاذ محمد سعيد ناود قصة تكوين مؤتمر البُجَة في مقال كتبه بتاريخ ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٧م في موقع سودانيز اون لاين Sudaneseonline.com بعنوان «ذكري تأسيس مؤتمر البجا» فيقول:

«نبعت فكرة تكوين تنظيم للبجا من الإحساس العميق بالحرمان الذي يعيشه الإنسان البجاوي، ومعاناته من الثالوث المقيت وهو الجهل والفقر والمرض. في نهاية الأربعينات وأوائل خمسينات القرن العشرين، وقبل إعلان استقلال السودان، كانت المجاعة تكتسح أرض البجة، ومصر كانت الدولة الوحيدة التي قامت بتقديم مواد الإغاثة وكانت تتكون من الأرز والسكر والعدس والقمح، بالإضافة

للملابس والبطاطين». ثم يستطرد الأستاذ ناود فيقول: «إنَّ جيلنا، الذي ساهم في تأسيس وإقامة مؤتمر البجة، كان يشعر بان للبجة قضية تتمثل في الحرمان من التعليم، بالإضافة للحرمان من الصحة ومن العمل. وفرص العمل التي كانت مقامة آنذاك بمدينة بور تسودان لأبناء البجة لم تكن تتجاوز مجال الشحن والتفريغ في الميناء وكذلك البحرية. ورغم أنَّ مدينة بور تسودان كانت بها حركة عمل نشطة إلا أنَّ البجاوي لم تكن لديه المؤهلات المطلوبة لأنه محروم من التعليم، كما أنَّ الأمراض الفتاكة كانت تحصد الأرواح بأعداد هائلة دون أنْ تجد المقاومة المطلوبة من الهيئات الصحية. ومن هنا وعند استقلال السودان ولعدم وجود مؤشرات من قبل أولئك الذين تولوا الحكم بعد الاستقلال للشروع في تحسين أوضاع البجة، فقد بدأت مناقشات وسط المتنورين من أبناء البجة. وكان المرحوم الدكتور طه عثمان بلية وهو أول بجاوي يتخرج من كلية الطب ويفتتح عيادة خاصة بمدينة بورتسودان، في مقدمة من بدأ المناقشات والاتصالات بالمتعلمين من أبناء البجة وتبلورت بذلك فكرة عقد مؤتمر للبجة لعرض قضيتهم وبلورتها ومن أجل تحسين أوضاعهم. واذكر إنَّ المرحوم الأستاذ محمد دين إسماعيل البجاوي، وهو من المتعلمين والذي كان سباقا في إقامة وافتتاح (مدارس التنوير) للارتقاء بمستوى أبناء البُجَة بإيجاد مدارس تتولى استيعابهم، فقد أصدر كتيبا آنذاك بعنوان (اللاي كليب) بمعنى (مقبرة الأحياء)، تطرق فيه لأوضاع البجة عموما والعمال منهم في مناجم الذهب، وما يتعرضون له من استغلال على وجه الخصوص». ويواصل الأستاذ ناود سرده فيقول: «وبدأت المشاورات مع نظار القبائل والمتعلمين والشخصيات الاعتبارية ورجال الدين، حيث وجدت الفكرة كل ترحيب. وعندما تم تحديد المكان والزمان لعقد مؤتمر البُجَة، وأخطرت القبائل بهذا الموعد وبالمكان، ومن ثم وجهت الدعوة للحكومة المركزية. كما أنَّ السلطات المحلية أخطرت بالأمر مع دعوتها للحضور بالقطارات واللواري من كل مدن وبوادي مديرية كسلا ودون أن يتخلف أحد من من شملتهم الدعوة. وبما أنَّ كل قبائل البجة التي حضرت المؤتمر كانت ممثلة بنظارها وعمدها ومشائخها ورجال الدين والأعيان

والشخصيات الاعتبارية والمتعلمين، فلذا كان الحضور ضخما. وانعقد المؤتمر في الهواء الطلق في المنطقة الواقعة شمال ديم العرب، والذي عقد جلساته بمدينة بور تسودان في الفترة من ١١ـ ١٣ أكتوبر ١٩٥٨م. وابرز الحاضرين للمؤتمر كان رئيس مجلس الوزراء السوداني الأمير الاي عبد الله بك خليل، والسيد / عَلِيّ عبد الرحمن وزير داخلية السودان، وكلاهما جاءا من الخرطوم خصيصا لحضور هذا المؤتمر. كما أنَّ كبار المسئولين الحكوميين من مديرية كسلا ومن مدينة بور تسودان كانوا ضمن الحاضرين، كما حضر ممثلون [لـ] كل الأحزاب السياسية والإعلاميّون من مراسلي الصحف.افتتح المؤتمر سكرتير مؤتمر البُجَة الدكتور طه عثمان بلية بكلمة ضافية شملت أهداف المؤتمر ومطالبه. وألقى الدكتور محمد عثمان جرتلي قصيدة عصماء طويلة شملت أهداف المؤتمر ومطالب البجة، ونضالاتهم عبر القرون من أجل تحرير السودان ووحدته. وبعدها تتالت الكلمات، وكنت احد أولئك الذين القوا كلماتهم في المؤتمر وأمام رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية. وكان المؤتمر وقراراته والكلمات التي ألقيت فيه تحوي المطالبة برفع تظلمات الإنسان البجاوي، ومطالبته بالإصلاحات في التعليم والعمل والصحة. وكان يعكس معاناة الإنسان البجاوي بكل صدق، ويطالب بضرورة اعطائة الأولوية في فرص التعليم في كل الوظائف في إقليمه وفي الحكم المركزي». ثم يلخص الأستاذ محمد سعيد ناود مطالب مؤتمر البُجَة في ذلك الوقت في الآتي:

- المطالبة بالحكم اللامركزي؛
- تصنيع المنطقة واستغلال معادنها؛
- توفير المستشفيات والدواء؛
- كل أنواع المهن مهما كان نوعها حق مكتسب للبجة؛
- تنفيذ مشروع خشم القربة الزراعي والمياه لري الأراضي الزراعية؛
- نشر التعليم وعدم نقل أبناء البُجَة من المدرسين لضرورة اللُّغة وفهمهم للناس والمنطقة؛
- إشراك نواب الشرق في الوزارة حق ثابت ينص عليه الدستور؛

- إقامة مصنع نسيج بسواكن ومصنع زراير بدرديب؛
- تنفيذ هذه المطالب بأسرع فرصة ممكنة».

ثم يستطرد قائلا:

«وفي تلك الفترة وأثناء انعقاد مؤتمر البُجَة فقد كنت عضوا بالحزب الشيوعي السوداني، ولم يكن هناك أي تناقض بين عضويتي بالحزب الشيوعي واشتراكي بفعالية في مؤتمر البجة. أيضاً كان هناك آخرون من أبناء البجة أعضاء بالحزب ومشتركون في المؤتمر، ولم يكن الحزب معترضا لا على المؤتمر ولا على اشتراكنا فيه، وكثيرون آخرون من أعضاء مؤتمر البجة أو في سكرتاريته كانوا أعضاء بالأحزاب السياسية السودانية المعروفة، إلا أن القاسم المشترك بين الجميع كان الانتماء لقومية البجة ورفع مطالبها والدفاع عنها».

ويمضي في القول:

«كان البجة عبر مؤتمرهم هذا سباقون في رفع قضاياهم وتظلماتهم، وذلك قبل غيرهم من مناطق ما يطلق عليهم اليوم بالمناطق (المهمشة)، بل سبقوا غيرهم في السودان كله، في مركزه وأطرافه، بحكم اللامركزية الذي أصبح الجميع اليوم في الحكومة المركزية والأطراف يرفعونه لحل مشكلة الحكم في السودان قاطبة. والبجة لم يكن واردا لا في تفكيرهم أو في قاموسهم السياسي بالانفصال أو العنصرية، بل كانوا يرفعون شعارات من اجل الحصول على حقوقهم المشروعة. وبالرغم من ذلك فان هناك من تجرأ ووصفهم بالحركة العنصرية بمقالة في صحيفة (الرأي العام)، وذلك بعيد انفضاض المؤتمر مباشرة. وقد قمت شخصيا بالرد على ذلك الصوت بمقالة قوية وفي صحيفة (الرأي العام) وفي الحال، بل كنت الوحيد من أبناء البجة الذي قام بالرد عليهم، وبعد ذلك داهمنا الانقلاب العسكري الذي قاده الفريق إبراهيم عبود. وقد نالت تلك المقالة استحسانا من كل أبناء البجة ومؤتمر البجة وسكرتاريته وسكرتيره العام.

حتى إنَّ الدكتور طه عثمان بلية، وهو السكرتير العام لمؤتمر البجة كان الطبيب الخاص لشركة الايسترن التي كنت موظفا بها، فقد كتب لي راحة لمدة أسبوع قائلا: انك لاشك قد أجهدت نفسك في كتابة هذه المقالة التي عبرت عن إحساسنا جميعا، وبالتالي تحتاج إلى راحة أسبوع كامل».

وفي ختام مقاله يذكر الأستاذ محمد سعيد زملاءه في النضال من أجل قضايا البُجَة فيقول:

«لقد كنت ضمن سكرتارية مؤتمر البجة، واذكر من أعضاء السكرتارية الذين كانوا معي أبو موسى عَلِيّ ومحمد بدري أبو هدية وآخرون لم تسعفني الذاكرة بأسمائهم. ومن رموز المجتمع الذي يشار إليها بالبنان وساهمت في نجاح مؤتمر البُجَة بحكم وزنها الاجتماعي وتأثيرها اللاَّ محدود على جماهير البُجَة بالبحر الأحمر الشيخ بامكار محمد عبد الله والخليفة عَلِيّ نور إدريس». ويمضي. فيقول: «تذكرت محمد بدري ابوهدية رحمه الله من مؤسسي مؤتمر البجة والذي ظل دومًا يشجعني وكان يقول لي: (لافرق بين النضال في ساحة البُجَة التي بدأناها سويا والساحة الإرترية التي تفرغت لها فكلاهما مكمل للآخر)[1]، أيضاً تذكرت زميلي ابوموسى عَلِيّ أطال الله في عمره من سكرتارية مؤتمر البجة عند تأسيسه والذي ظلت صلتي به متواصلة ولم تنقطع حتى الآن».

*****

(١) يعتبر المرحوم محمد سعيد ناود أول من وضع لبنة لتحرير إرتريا من الاستعمار الاثيوبي، حيث تحرك في أوساط المثقفين في مدينة بورسودان، ودعا الى اجتماع في منزله في حي ترانسيت في يوم ٢/ ١١/ ١٩٥٨م، ونيجة لهذا الاجتماع تم تكوين «حركة تحرير إرتريا» برئاسة الاستاذ محمد سعيد ناود ومساعده (ابن عمه) إدريس محمد حسن قنشرة وقريبهما حسن حاج إدريس، بالاضافة الى كل صالح أباي ومحمد الحسن عثمان «عمر كيفر» وحبيب عمر قعص ويسن عَقَدَّه، ومن هذا البيت الحَبَابي، وبإصرار وعزيمة هولاء الثمانية (ثلاثة منهم على الأقل من الحَبَاب)، انطلقت أول شرارة أدت بعد ثلاثة وثلاثين عاما من القتال الشرس الى تحرير التراب الإرتري.

الخاتمة

أقول لمن أعجب وانتَشَى بشيءٍ ممَّا ورد في هذا الكتاب، لا تركن لإرثٍ تليدٍ وماضٍ مجيدٍ، وإنَّما تمثل بقول عبد الله[1] بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

إنّا وإنّ أحْسَابُنَا كرُمت ... لَسْنَا على الأحْسَاب نَتَّكِلُ
نبْنِي كما كانَتْ أوَائِلُنا ... تَبْنِي ونَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلوا

وتذكر قول ابْن الرُّومِيِّ:

فلَا تَفتَخِرْ إلَّا بِمَا أَنْتَ فَاعِلٌ ... وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ يُورَثُ بِالنَّسَبِ
فَلَا لَا يَسُودُ الْمَرْءُ إلَّا بِفِعْلِهِ ... وَإِنْ عَدَّ آبَاءَ كِرَاماً ذَوِي حَسَبِ
إذَا الْعُودُ لَمْ يُثْمِرْ وَإِنْ كَانَ شُعْبَةً ... مِنْ الثَّمَرَاتِ اعْتَدَّهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ

وتذكَّر الأبيات التى صارت مثلاً شروداً:

يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ كُنْ أَخَا أَدَبِ مِنْ عَجَمٍ كُنْت أَوْ مِنْ الْعَرَبِ
إنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَذَا ... لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

وأقول لمن استاء من شيءٍ ممَّا ذُكِرَ في هذا الكتاب: إنَّ التاريخ لا يكتب إرضاءً

(١) وقيل إنَّ البيتين للمتوكل اللَّيثي.

لأحد، وإنَّما يُدَوَّن كما حدث، ولابُدَّ من ذكر الحقائق، خيرها وشرها، إذا أردنا مصداقية للتاريخ، وعلى كل حال دونكم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤١]

تم الفراغ من مسودة الطبعة الأولى من هذا الكتاب في يوم الإثنين عشرين من ذي الحجة ١٤٣٣هـ، الموافق ٥ نوفمبر ٢٠١٢ ميلادية، والطبعة الثانية في يوم السبت الخامس عشر من محرم ١٤٣٦هـ، الموافق ٨ نوفمبر ٢٠١٤م، وآخر دعوانا إنْ الحمد لله رب العالمين.

الدكتور: إدْرِيس وَدْ إبْراهيم وَدْ جميل وَدْ جِمِع وَدْ جميل وَدْ جَلايْدُوس وَدْ تِيدْرُوس وَدْ تَكْلَيْس وَدْ مَفْلَس وَدْ أبِيب وَدْ جَرْجِيس[1] وَدْ جَبِرْكِتُّوس وَدْ دَافْلا وَدْ أسْجَدَي وَدْ بِيْمْنَتْ وَدْ حَدَمْبَس.

*****

(١) يجبُ مراعاة نطق الجيم بالطريقة اليمانية في كلٍ من: «جَرْجِيس Garguees» و«جَبِرْكِتُّوس Gabirkittoas» و«أسْجَدَي Asgadai».

ثبت المصادر والمراجع

المراجع العربية:

(أ) الكتب:

١ـ «الأنساب» لأبي المنذر سلمة بن مسلم الصحاري العَوْتَبِي، طبعة وزارة التراث القومي والثقافة العمانية بمسقط، عُمان، عام ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢ـ «آثار البلاد وأخبار العباد» تصنيف الإمام: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، طبعة قديمة في مصر سنه ١٨٤٨م.

٣ـ «أمير الشرق ـ عثمان دقنة» لمؤلفه: محمد سليمان صالح ضرار، نشر: الدار السودانية للكتب، طباعة مطابع مدكور، الشركة المصرية للطباعة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

٤ـ «الأخبار الطِّوَال» لمؤلفه: أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، تصحيح: فلاديمير جرجاس، طبعة ليدن (هولندا) سنه ١٨٨٨م.

٥ـ «الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير»، لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهَمْدَاني.

٦ـ «البداية والنهاية» لإبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، الناشر: دار إحياء التراث العربي، طبعة ١٩٨٨م.

٧ـ «البيان والإعراب عمَّا بأرض مصر من الأعراب» تأليف: أحمد بن عَلِيّ المقريزي، تحقيق: إبراهيم رمزي، طبعة ١٩١٦م، مطبعة المعارف، مصر.

٨ـ «الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العَشَرَة» لمؤلفه: محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمسانيُّ، الشهير بالبُرِّي.

٩ـ «الخصائص» لابن جني، الجزء الأول، طبعة ١٩١٣م.

١٠ـ «الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام» لمؤلفه: أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت.

١١ـ «السودان، دار الهجرتين الأولى والثانية للصحابة» للبروفيسور: حسن الشيخ الفاتح قريب الله، إصدار: المؤسسة العامة للطباعة والنشر والتوزيع والأعلان،

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

١٢ـ «السيرة النبوية» للامام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، طبعة عام ١٩٧٦م.

١٣ـ «الطبقات الكبرى» لمؤلفه: محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق الدكتور: عَلِيّ محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي، طبعة ٢٠٠١م.

١٤ـ «العباب الزاخر واللباب الفاخر» لرضي الدين الحسن بن محمد الصاغاني.

١٥ـ «العبابدة في الصحراء الشرقية والسودان الشرقي وقبائل أخرى» لمؤلفه: حسن أحمد حسين خليفة العبادي، المأمور بحكومة السودان سابقاً، والذي طبع في سنة ١٩٤٠م بمطبعة السلام.

١٦ـ «العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصاري الحبشة في العصور الوسطى» للدكتور: رجب محمد عبد الحليم، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥م

١٧ـ «المزهر في علوم اللُّغة وأنواعها» للإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، تحقيق: فؤاد عَلِيّ منصور.

١٨ـ «المغني» للإمام ابن قدامة.

١٩ـ «المسالك والممالك» لابن خُرْدَاذْبَه، مطبعة بريل في مدينة ليدن (هولندا) عام ١٨٨٩م.

٢٠ـ «المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام» لمؤلفه الدكتور جواد عَلِيّ، الناشر: دار الساقي، الطبعة الرابعة ٢٠٠١م.

٢١ـ «المقتضب في لهجات العرب»، للدكتور: محمد رياض كريم، طبعة ١٩٩٦م.

٢٢ـ «المواعظ والاعتبار» أو ما يعرف بالخطط المقريزية، لأحمد بن عليّ المقريزي، طبعة مصر سنه ١٩١٦م.

٢٣ـ «اليمن عبر التاريخ» لأحمد حسين شرف الدين، الطبعة الرابعة، ١٩٨٦م.

٢٤ـ «تاج العروس من جواهر القاموس» لمؤلفه: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبي الفيض، الملقب بمرتضى الزُّبَيْدِي.

٢٥ـ «تاريخ آداب العرب» تأليف: مصطفى صادق الرافعي، مكتبة الإيمان، الطبعة

الأولى ١٩٩٧م.

٢٦ـ «تاريخ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر» للإمام المؤرخ وعالم الإجتماع: أبي زيد وليّ الدين بن عبد الرحمن، الشهير بابن خلدون، تحقيق أبي صهيب الكرمي، طبعة بيت الأفكار الدولية.

٢٧ـ «تأريخ إرتريا» لمؤلفه عثمان صالح سبي، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

٢٨ـ «تأريخ السودان» لنعوم شقير، تحقيق وتقديم الدكتور: محمد إبراهيم أبو سليم، طبعة ١٩٨١م، دار الجيل، بيروت.

٢٩ـ «تاريخ اليعقوبي» لمؤلفه: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي من أهل بغداد المعروف باليعقوبي، مطبعة بريل في مدينة ليدن (هولندا) سنة ١٨٨٣م.

٣٠ـ «تاريخ سواكن والبحر الأحمر» للمؤرخ: محمد صالح ضرار، نشر: الدار السودانية للكتب، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

٣١ـ «تاريخ شرق السودان، ممالك البُجَة، قبائلها وتاريخها»، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، الجزء الأول والثاني.

٣٢ـ «تاريخ قبائل الحَبَاب والحماسين بالسودان وإرتريا» لمؤلفه: محمد صالح ضرار، نشر: الدار السودانية للكتب، الطبعة الثانية ١٩٩١م.

٣٣ـ «تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط» للشاطر بصيلي عبد الجليل، طبعة ١٩٧٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

٣٤ـ «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، الجزء الأول والجزء السادس، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٩٩٩م.

٣٥ـ «جامع البيان في تأويل القرآن» - الشهير بتفسير الطبري - لمؤلفه للأمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٣٦ـ «رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان»، ترجمة: فؤاد أندراوس، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٧م.

٣٧ـ «رحلة ابن بطوطة» المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»

لابن بطوطة، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية، ١٣٢٢هـ.

٣٨- «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» لمؤلفه: أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٩١٥م، وكذلك طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٢م.

٣٩- «صفة جزيرة العرب» لمؤلفه: أبي محمد «الحسن» بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني، طبعة قديمة في ليدن (هولندا) سنه ١٨٨٢م.

٤٠- «صورة الأرض» لأبي القاسم بن حوقل النصيبي المعروف بابن حوقل، مشورات دار مكتبة الحياة، طبعة ١٩٩٢، بيروت، لبنان.

٤١- «قاموس اللَّهْجَة العامية في السودان»، للدكتور: عون الشرف قاسم، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م.

٤٢- «كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان» لمؤلفه: محمد ضيف الله الفضلي، طبعة (غير مؤرخة)، شركة الجزيرة للطباعة والنشر المحدودة، ود مدني.

٤٣- «كتاب العين» لمؤلفه: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٤٤- «لب اللباب في تحريرالأنساب» للإمام جلال الدين السيوطي، طبعة بالأوفست صادرة (بدون تاريخ) من مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها: قاسم محمد الرجب.

٤٥- «لسان العرب» لمؤلفه: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

٤٦- «محررات عثمان دقنة» للبروفسير: محمد إبراهيم أبو سليم، اصدارات مركز أبي سليم للدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٤٧- «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لمؤلفه المؤرخ «شهاب الدين» أحمد ابن يحيي بن فضل الله العمري، تحقيق الدكتور: حمزة أحمد عباس، طبعة ٢٠٠٢م، المجمع الثقافي، أبوظبي.

٤٨- «مسالك الممالك»، وأحيانا يسمى «كتاب الأقاليم»، وهو عبارة عن مخطوطة قديمة بخط اليد لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري، نشر المستشرق

موللر Moeller سنة ١٨٣٩م.

٤٩ـ «معجم البلدان» لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، تصحيح: محمد أمين الخانجي مطبعة السعادة، مصر، سنه ١٩٠٦م.

٥٠ـ «معجم اليمامة» تأليف:عبد الله بن محمد بن خميس، الطبعة الأولى ١٩٧٨م، مطابع الفرزدق، الرياض.

٥١ـ «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة»، تأليف: عمر رضا كحالة، طبعة ١٩٩٧م، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٥٢ـ «مقدمة ابن خلدون»، وهي الجزء الأول من «تاريخ ابن خلدون».

٥٣ـ «مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي» للبرفسور: يوسف فضل، نشر سوداتك المحدودة، طباعة: دار مصحف أفريقيا، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢ـ ٢٠٠٣م.

٥٤ـ «من تاريخ البجا – الكتاب الأول» للأستاذ / محمد أدروب أوهاج، طبعة ١٩٨٦م، مطبعة دار جامعة الخرطوم للنشر.

٥٥ـ «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»، للدكتور: عبد الوهاب المسيري، عدة مجلدات، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٩م.

٥٦ـ «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» لإبي عبد الله محمد المعروف بالشريف الإدريسي، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية (طبعة بدون تاريخ)، مصر.

٥٧ـ «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» تأليف الشيخ: شمس الدين أبي عبدالله محمد أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، طبع في مدينة بطربورغ في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية عام ١٨٦٥م بواسطة أغشطس ابن يحي المدعو مَهْرَنْ، أستاذ الألسنة الشرقية في المدرسة العظمى الملكية بمدينة قوبنهاغ.

٥٨ـ «نهاية الأرب في فنون الأدب » لشهاب الدين أحمد النويري، تحقيق: مفيد قمحية وآخرين، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٥٩ـ «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» للقلقشندي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب اللبناني – بيروت، الطبعة: الثانية ١٩٨٠م.

٦٠ـ «وثائق الخارجية الإيطالية حول احتلال إريتريا، المجلد الثاني ١٨٨٣-١٨٨٥م»، ترجمة ونشر قوات التحرير الشعبية، ١٩٧٨م.

٦١ـ «وصايا الملوك» لدعبل الخزاعي، تحقيق د. نزار أباظة طبعة ١٩٩٧ دار صادر.

٦٢ـ «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لمؤلفه: أبي العباس شمس الدين أحمد ابن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت.

(ب) الصحف والمقالات:

١ـ صحيفة «الصحافة»، العدد رقم: ٤٨٩١ بتاريخ ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

٢ـ صحيفة «ألوان»، العدد رقم: ٣٧٨١ بتاريخ ٢٠ فبراير ٢٠٠٧م.

٣ـ صحيفة «السوداني»، العدد رقم: ٤٣٩ بتاريخ ٢٩ يناير ٢٠٠٧م.

٤ـ صحيفة «السوداني»، العدد رقم: ٩٠٦ بتاريخ ٢٢ مايو ٢٠٠٨م.

٥ـ صحيفة «المؤتمر نت» اليمنية الصادرة بتاريخ ٢٨ مارس ٢٠٠٩م.

٦ـ صحيفة «الصحافة»، العدد رقم: ٦٨٩٠ بتاريخ ٥ أكتوبر ٢٠١٢م.

٧ـ مقالات في الشبكة العنكبوتية للأستاذ/ محمد سعيد ناود.

٨ـ محاضرات في ساحات جامعة الخرطوم وعلى تلفزيون جمهورية السودان للبروفسير/ عبد الله الطيب، رحمه الله.

(ت) مخطوطات:

١ـ مخطوطات «دار الوثائق القومية» و«مكتبة السودان» التابعة لجامعة الخرطوم.

٢ـ مخطوطة «نِسْبَةُ البَيْتِ أَسْجَدَيْ وحكاياته وعوايده»، للقاضي: إدريس محمد نصر الدين درار عتيل، والتى كُتِبَت بُعَيْدَ عام ١٩٤٢م.

References in English and Italian:

1. "A History of the Beja Tribes of the Sudan", by Andrew Paul, published in 1954 by the University Press of Cambridge.
2. "A History of the Khatmiyyah Tariqah in the Sudan", by John O. Voll, Ph.D. thesis, University of Harvard, 1969.
3. "A Narrative of Captivity in Abyssinia" by Henry Blanc, printed 2006 by Biblio Bazaar.

4. "An Introduction to Ethiopic Christian Literature" by J. M. Harden, D.D., LL.D. Canon of St. Patrick's, Dublin, [1871-1931], London, Society for Promoting Christian Knowledge, New York and Toronto: The Macmillan Co., 1926.
5. "A Vocabulary of Beni Amer Dialect of Tigré" by Akio Nakano and Yoichi Tsuge (collaborator), Published by: Institute for the Study of Languages and Cultures of Asia and Africa (1982).
6. "Behind the Modern Sudan" by H.C (Henry Cecil) Jackson, London, Macmillan; New York, St. Martin's Press, 1955.
7. "Comparative Dictionary of Ge'ez" by Wolf Leslau: Geez-English, English-Geez, with an Index of the Semitic Roots, Wiesbaden: Harrassowitz 1987.
8. "Concise Dictionary of Ge'ez" (Classical Ethiopic) by Wolf Leslau, Wiesbaden: Harrassowitz 1989.
9. "Eritrea: A Colony in Transition, 1941-52" by Gerald Kennedy Nicholas Trevaskis, London: Oxford University Press for Royal Institute of International Affairs, 1960.
10. "Ethiopic Grammar" by August Dillmann, 2nd ed., edited by Carl Bezold and translated by James A. Crichton. London: Williams and Norgate [reprinted 1974, Amsterdam: Philo Press].
11. "Introduction to Classical Ethiopic" by Thomas O. Lambdin, (Harvard Semitic Studies 24). Cambridge, MA: Scholars Press [reprinted 2006. Winona Lake, IN: Eisenbrauns.]
12. "Islam in Ethiopia" by J. Spencer Trimingham, London, Oxford University Press, 1952.
13. "Lords of the Red Sea", The History of a Red Sea Society from the Sixteen to the Nineteenth Centuries, by Anthony d' Avray, 1996, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden.
14. "Mahdism and the Egyptian Sudan" by Francis Reginald Wingate, Macmillan, London, 1891.
15. "Ostafrikanische studien" by Werner Munzinger, (Landmarks in anthropology; a series of reprints in cultural anthropology) [Unknown Binding].
16. "Publications of the Princeton Expedition to Abyssinia", by Enno Littmann, published and printed by Leyden, 1910, Volume II.
17. "Races and Tribes of Eritrea" by S F Nadel, 1944.
18. "Red Sea Citizens: Cosmopolitan Society and Cultural Change in Massawa" by Jonathan Miran, Publisher:

Indiana University Press, 2009.
19. "Short grammar of Tigre" by Leslau, Wolf, Publications of the American Oriental Society Offprint Series 18), New Haven: American Oriental Society [Reprinted from Journal of the American Oriental Society 65: 1-26, 164-203 (1945)].
20. "Slaves and Slavery in Muslim Africa", Vol. 1. by (editor) John Ralph Willis Cass, 1985.
21. "Studies in Sudanese History" by Prof: Yousuf Fadl Hasan, Sudatek Limited, Khartoum, 2003.
22. "The Four Feathers" by A. E. W. Mason, New York, The Macmillan Company london: Macmillan & Co., Ltd., 1903;
23. "The Fung Kingdom of Sennar" by Crawford, O.G.S., 1951, Gloucester, J. Bellows Ltd.
24. "The Nakfa Documents", the dispatches, memoranda, reports and correspondence describing and explaining the stories of the feudal societies of the Red Sea littoral from the Christian-Muslim Wars of the Sixteenth Century to the establishment 1885-1901 of the Italian Colony of Eritrea, edited and annotated by Anthony d' Avray in Collaboration with Richard Pankhurst, 2000, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden".
25. "The Native Peoples of Eritrea" by Alberto Pollera (Author), Linda Lappin (Translator), November, 2001.
26. "The Preaching of Islam: A History of the Propagation of the Muslim Faith" by Sir Thomas Walker Arnold, Scond Edition, London, Costable & Co. Ltd., 1913.
27. "The River War" by Winston Churchill, Longmans, Green & Co. London, 1899.
28. "Tigre Grammar and Texts", (Afroasiatic Dialects, 4), by Shlomo Raz, Malibu, CA: Undena Publications, 1983.
29. "Tigre of Habab: Short Grammar and Texts from the Rigbat People", Ph.D dissertation, Elias, David L., Harvard University, (2005).
30. "Travels to discover the source of the Nile, in the years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772, and 1773 (1790)" by James Bruce, printed by James Ballantyne, Ediburgh, 1804.
31. "Travels and Catholic Mission Among the Mensa, the Bogos, and the Habab", a translation of the Italian text: "Viaggio e missione cattolica fra i Mensa, i Bogos e gli Habab", by Giuseppe Sapeto, Rome, 1857.
32. "Travels in Abyssinia and the Galla Country" by Walter

Chichele Plowden (1820 - 1860), published by his brother in London in 1868.
33. "Wörterbuch der Tigré-Sprache", Littmann, Enno and Maria Höfner. 1962, Wiesbaden: Franz Steiner.
34. "Travels to Discover the Source of the Nile"
35. "The Earth and its Inhabitants, Africa", by Elisee Reclus, edited by A. H. Keane, B. A
36. "Watson Pasha, A Record of the Life-Work of Charles Moore Watson" by Stanley Lane-Poole, Lnr.D. London, John Murray, Albemarle Street, 1919.
37. Articles:
38. An Article by Jonathan Miran titled: "A Historical Overview of Islam in Eritrea":
39. "The Habab Tribe", An Article written by O. G. S. Crawford in the "Sudan Notes and Records" 1955, Vol. 36.
40. Raz, Shlomo, 1997. Tigré. In: R. Hetzron (ed.). Semitic Languages. London: Routledge. 446-456.
41. "Sudan Notes and Records", Vol. 31, 1950.
42. "Sudan Notes and Records", Vol. 26, 1945.
43. Carlo Conti Rossini: Note sul Sahel Eritreo, Rivista degli Studi Orientali, Vol. VI, Rome, 1914.
44. "Isreal Oriental Studdies", Vol. 12, Edt. by Joel L. Kraemer, 1992.
45. Appletons' Annual Cyclopaedia and Register of Important Events of the Year: 1876-95. New Series, Vol. xxvii:
46. "The Rashayida Arabs vs. the State: The Impact of European Colonialism on a Small-Scale Society in Sudan and Eritrea" by William C Young. Journal of Colonialism & Colonial History, Baltimore: Volume 9, Number 2, Fall 2008.
47. "Constructing and Deconstructing the Tigre Frontier Space in the Long Nineteenth Century" by Jonathan Miran, Western Washington University, in the the International Workshop Naples, February 7-8, 2008.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الباب الثامن

الباب التاسع

*****

نبذة عن المؤلف

- من مواليد عام ١٩٥٩م.
- نشأ وترعرع في حي « روينا » بمدينة القضارف، شرق السودان.
- درس في خلوة الشيخ حاج عليَ الأزرق بالجامع الكبير.
- التحق بمدرسة روينا الإبتدائية في ١ يوليو ١٩٦٧م وكان في مقدمة أقرانه أكاديميا في كافة المراحل.
- انتقل في عام ١٩٧٢م الى المدرسة الأهلية في القضارف وكان من ضمن العشرة الأوائل في إمتحان المرحلة المتوسطة واحتفظ بترتيب «الأول» على فصله طوال فترة الدراسة المتوسطة.
- انتقل في عام ١٩٧٦م الى مدرسة كسلا العليا، واحتفظ بتفوقه الأكاديمي طوال فترة الدراسة في الثانوية، واشترك في التدريب العسكري «الكديت» حيث كان قائد الفرقة ٤٠ التى مثلت المديرية في عيد العلم في القضارف عام ١٩٧٨م.
- انتقل في عام ١٩٧٩م الى جامعة الخرطوم، كلية القانون، وتخرج منها في عام ١٩٨٣م بمرتبة الشرف حيث كان الأول على دفعته ونال شهادة أفضل خريج، كما نال شهادة نقيب المحامين «عبد الله الحسن» التى كانت تمنح لأفضل خريج.
- تدرب في مكتب نائب رئيس القضاء مولانا مجذوب عليَ حسيب ومكتب المحامي توفيق عبد المجيد سليمان لورد ، وأحرز شهادة المعادلة في عام ١٩٨٤م، ونال فيما بعد صلاحية توثيق العقود من رئيس القضاء.
- في عام ١٩٨٥م انتقل الى الاتصالات السعودية في الرياض للعمل بوظيفة مستشار قانوني، ثم انتقل في عام ١٩٨٨م للعمل بمؤسسة بيت الرياض «الجريسي». وفي عام ١٩٩٠م انتقل للعمل في المكتب العالمي للمحاماة «كيلفورد تشانص Clifford Chance».
- في عام ١٩٩٦م نال درجة الماجستير بامتياز (LLM with Credit) في « القانون وعلاقات العمل الصناعية » من جامعة ليستر في بريطانيا ، وكانت الأطروحة بعنوان:

«Sex Discrimination in Employment; a Comparative Study under the English Common Law and Islamic Jurisprudence».

- في عام ٢٠٠١م نال درجة الدكتوراة بمرتبة الشرف في القانون التجاري من الجامعة الأميركية في لندن ، وكانت الدراسة بعنوان :

«Commercial Agency and Distributorship Agreements in the Gulf Cooperative Council (GCC); Law and Practice».

- في عام ١٩٩٧م انتقل الى الشركة الشرقية للبتروكيماويات، إحدى شركات سابك (الشركة السعودية للصناعات الأساسية) للعمل بوظيفة مستشار قانوني وفي عام ٢٠٠٠م انتقل الى شركة المراعي مديرا للإدارة القانونية.
- عمل منذ عام ٢٠٠١م وحتى عام ٢٠١٢م مديرا للإدارة القانونية وسكرتيرا لمجلس الإدارة في شركة قطر للحديد والصلب بدولة قطر.
- يعمل منذ عام ٢٠١٢م وحتى الآن مديرا للإدارة القانونية وسكرتيرا لمجلس الإدارة في شركة حصاد الغذائية بدولة قطر.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات القانونية العالمية.
- عضو نقابة المحامين السودانيين.
- عضو في إتحاد المحامين العرب.
- له ديوان شعر (غير مطبوع) ، ونشر عددا من المقالات والبحوث في الصحف والمجلات والانترنت، وله نشاطات اجتماعية وثقافية واسعة.

*****